مذكرات

قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣

د. محمد الجوادى

النصر الوحيد

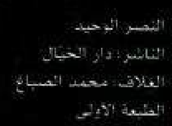


مذكرات:

عبد الغنى الجمسى ■ سعد الدين الشاذلى

عبد المنعم خليل ■ يوسف عفيفي

عادل يسرى



النصر الوحيد

الناشر: دار الخيال

الغلاف: محمد الصباغ

الطبعة الأولى




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣

النصر الوحيد

د. محمد الجوادى

مطبوعات دار الخيّال

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣

النصـــر الـوحـــيـــد

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣
النصر الوحيد
الطبعة: الأولى مايو ٢٠٠٠
رقم الإيداع: ٤٧٢٣ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى: 9- 12 - 5979 - 977
دار الخيّال : ٠١٢٣٢٩٠٦١٨

تصميم الغلاف: محمد الصباغ
جرافيك: محمد كامل مطاوع
خطوط الغلاف: لمى فهيم
كمبيوتر: دار جهاد
٣٥٦٤٧٨٣

إهداء

إلى أرواح شهدائنا الأبرار

الذين أعادوا لنا العزة والكرامة والثقة، والذات نفسها.

وإلى المحاربين القدامى، الذين افتدوا وطنهم وشعبهم بأنفسهم وبعض أجسادهم

محمد الجوادى

المحتويات

بالقانون، الجمسى حريص على قراءة المذكرات الإيضاحية والتعليق عليها ● الجمسى يروى قصة إعفائه من مسئولياته الحربية وخروجه من الوزارة، مشاعره تجاه قرار خروجه فى هذا التوقيت بالذات ● انشغال الجمسى بوضع اللمسات الأخيرة للعرض العسكرى، انشغال القيادة العامة بمراجعة الخطط العسكرية، نهاية خدمة الجمسى العسكرية فى صباح ٥ أكتوبر ١٩٧٨● يكاد يحصر لومه للسادات فى عنصر واحد هو التوقيت: كيف تكون القيادة الحالية التى لها دور رئيسى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ بعيدة عن القوات المسلحة فى ذكرى الاحتفال بالنصر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٨● يتساءل: «ألم يكن من الأفضل والأنسب أن يتم ذلك فى يوم آخر» ● « لم يكن أمامى إلا أن أستمع إلى كلام الرئيس السادات، وغادرت المكان دون أدنى تعليق بكلمة واحدة منى لأنه يمارس عمله كرئيس للجمهورية بحكم الدستور وله أن يتصرف بالطريقة التى يتصرف بها» ● بعد حلف كمال حسن على اليمين غادرت مكانى فى وزارة الحربية، اعتذر عن حضور العرض العسكرى فى ٦ أكتوبر مع أن الدعوة كانت موجهة باسمه! ● حضوره لاحتفالات رفع العلم على العريش، اليوم الوحيد الذى ارتدى فيه لأول وآخر مرة رتبة المشير ● مرافقته للسادات فى أسوان ● شعوره بأن مصر بدأت تجنى ثمار النصر فى حرب أكتوبر ● قبل العلم المصرى فى العريش، وتساءل بينه وبين نفسه، ورأى الحقيقة المؤكدة أمامه: أن حرب أكتوبر ليست آخر الحروب ● رأى المؤلف أن سعادته بنوال رتبة الفريق فى حفل مجلس الشعب عقب الحرب تفوق سعادته بنوال رتبة المشير ● على حمدى الجمال أول من هنأه بنوال الرتبة الجديدة، حديثه عن الرحلة البحرية فى القناة والرحلة السابقة عند افتتاح القناة فى ١٩٧٥● صاحب المذكرات حريص على أن يوحى بأسلوبه المهذب أنه لم يكن سعيداً أبداً بأن يبقى فى منصب شرفى ● قبول استقالته (١٩٨٠) بناء على رغبته، حديثه عن الصراع التقليدى بين رئيس الجمهورية ووزير الحربية ● حديثه عن شعوره فى لحظات تعيينه فى المناصب الكبرى فى القوات المسلحة المصرية : سعادته بحصوله على رئاسة الأركان فى منتصف ديسمبر ١٩٧٣، هذا هو أفضل ما حصل عليه فى حياته من وجهة نظره، حديثه عن توليه منصب القائد العام ووزير الدفاع يأتى ممتزجاً برثائه لسلفه المشير أحمد إسماعيل ، وهو لا يرى فى الأمر أكثر من أن مقاتلاً يستشهد ويحل محله آخر، يبدو أنه لم يشعر بالسعادة لحصوله على هذا المنصب فى تلك

الظروف ● حديثه عن دوره في التمهيد لحرب أكتوبر، اختيار التوقيتات المناسبة للحرب، سلم الدراسة بنفسه مكتوبة بخط اليد للفريق أول أحمد إسماعيل لضمان السرية ● تحديد يوم الهجوم كان عملاً علمياً على مستوى رفيع يدخل التاريخ العلمي للحروب كنموذج من نماذج الدقة المتناهية والبحث الأمين ● تصميم الجمسي على تعديل تسمية الكراسة من كراسة الجمسي إلى كراسة هيئة عمليات القوات المسلحة، سعادة الجمسي بشهادة السادات في كتاب «البحث عن الذات» ● عمله كرئيس لهيئة عمليات القوات المسلحة منذ يناير ١٩٧٢، كنا لا نزال نلعق جراحنا منذ حرب يونيو ١٩٦٧ ● إعداد الدولة للحرب، الموضوعات البارزة: توفير المخزون من البترول، تأمين السدود والقناطر، مجلس الوزراء يشكل لجنة من القوات المسلحة لمعاونة الوزارات ● دوره في تنسيق العمل العسكري بين القوات المصرية والسورية، مسئوليته عن هذا التنسيق منذ ١٩٧٠، تعدد زياراته لسوريا، تصويره لتدرج علاقات التعاون العسكري مع سوريا: بدأت في عهد فوزي، واستمرت في عهد صادق، ووضعت موضع التنفيذ الفعلي في عهد أحمد إسماعيل ● رأيه في الثغرة، رأيه أن العدو نجح في معركة الدفرسوار ● وصف الجمسي للجسر الجوي الأمريكي يصور لنا إدراكه لحدود المعركة التي بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تفرضها على مصر ● في حديثه عن الثغرة يلتزم بأسلوبه الحريص على رواية ما حدث بالفعل دون إضفاء تفسيرات أو وجهة نظره، كان من الذكاء بحيث أدرك ما أدركه السادات وأحمد إسماعيل من خطورة تحريك القوات من الشرق ● حديثه يرينا كيف كانت حرب أكتوبر تدار بعقول راجحة ● القائد الأعلى في أحلك اللحظات يستمع إلى آراء القادة، الجمسي يروي بالتفصيل اجتماع السادات بالقادة مساء يوم ٢٠ أكتوبر في مركز العمليات ● الشاذلي كان يرى سحب أربعة لواءات مدرعة من الشرق إلى الغرب، أما أحمد إسماعيل فكان يرفض ذلك، الجمسي يروي آراء القادة ● رأيه أن سحب اللواءات المدرعة المصرية من الشرق إلى الغرب يترتب عليه اهتزاز دفاعاتنا في الشرق، فضلاً عن التأثير المعنوي السلبي ● الجمسي يروي أن الفريق الشاذلي لم يتكلم.. وقرر الرئيس عدم سحب أي قوات من الشرق ● المقارنة برواية الشاذلي: الشاذلي نفسه في مذكراته يذكر أنه لم يتكلم، حتى بعد أن لكزه وزير شئون الرئاسة ● الجمسي يروي قصة صدور التوجيه الاستراتيجي في ٥ أكتوبر بعد صدور توجيه سياسي وعسكري في أول أكتوبر ● الجمسي يسأل

المشير أحمد إسماعيل عن سر التوجيه فيجيبه القائد العام المحنك بأنه هو الذى طلب من السادات صدوره حتى تكون الأمور محددة بوضوح ● تعليق المؤلف أن الجمسى لم يكن وحده الذى تعجب لموقف المشير أحمد إسماعيل، وإنما كان الشاذلى كذلك ● نص التوجيه الاستراتيجى، خطة المفاجأة ● مدى الولاء والحب الذى يدين به الجمسى لأحمد إسماعيل: يذكر فضله وجهده فى أثناء الحرب وقبل اندلاعها مع أنه كان فى وسعه أن ينسب بعض هذه المواقف الشجاعة إلى نفسه أو إلى مجموعة القادة ● حديث عن بعض الاختلافات فى وجهات النظر بينه وبين المشير أحمد إسماعيل ●كان من رأيه ضرورة تطوير الهجوم شرقاً طبقاً للخطة، وجهة نظره، ووجهة نظر المشير أحمد إسماعيل ● عامل الخسائر المتوقعة من الطيران المعادى كان يسيطر على تفكير أحمد إسماعيل، وكان يعود إلى القول بضرورة المحافظة على القوات المسلحة سليمة ● الجمسى مازال يطرح السؤال: لماذا لم تنتهز القيادة العسكرية المصرية فرصة نجاحها بتطوير الهجوم بسرعة فى اتجاه المضايق؟ ● رواية الجمسى الدقيقة تدلنا على أن الفريق الشاذلى لم يكن من الذين طالبوا بالإسراع بتطوير الهجوم، الجمسى يهمس فى أذن الشاذلى أنه هو وأحمد إسماعيل وافقا على الخطة التى تضمنت الوصول إلى المضايق كهدف استراتيجى عسكرى، وبالتالى لا يصبح من حق الشاذلى أن يقول إنه كان ضد تطوير الهجوم إلى المضايق فى مرحلة التخطيط!! ● المذكرات توحى بأن الجمسى كان صاحب فكرة تطوير الهجوم التى لم يشأ أحمد إسماعيل أن يأخذ بها، الجمسى حريص على أن ينفى ما نسب للفريق الشاذلى من أنه صاحب فكرة استغلال النجاح بتطوير الهجوم، ويستشهد على ذلك بمذكرات الشاذلى نفسه ● يبدو أن تفسير الجمسى لموقف المشير أحمد إسماعيل فيما يتعلق بتطوير الهجوم قد تطور مع الزمن، وبدأ يدرك حقائق لم يكن يعرفها فى وقتها ●حرص الجمسى على قراءة ما ورد فى مذكرات محمد حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى عن مضمون اتصالات السادات بالإدارة الأمريكية فى بداية الحرب ● المذكرات حافلة بالحديث عن خطط الخداع والتمويه والسرية فى حرب أكتوبر، نموذج لحديثه مع محافظ بورسعيد الذى كان من قبل مديراً للمدفعية ولكن الجمسى لايستطيع أن يصرح له بتفصيلات عسكرية فى التليفون ● تكرر عمل الجمسى مع أحمد إسماعيل وتحت قيادته قبل التقائهما فى النهاية على قمة المؤسسة العسكرية المصرية ● لقاء بالصدفة

بين الرجلين في المطار في النصف الأول من عام ١٩٧٢، أحمد إسماعيل يسأل: متى ستحاربون ياجمسي؟ والجمسي يرد :عندما تتعين أنت وزيراً للحربية!! ● الجمسي يقول: كنت أثق أنه يعلم أننا لم نستكمل استعدادنا للحرب!! ● ذكريات الرجلين عن يوم تعيين أحمد إسماعيل وزيراً للحربية، رأيه: كان تعيينه هو الخطوة الرابعة للإسراع في الطريق إلى حرب أكتوبر ● آراؤه في أحمد إسماعيل وفؤاد أبوذكري، توطد علاقته معهما في أثناء الدراسة في أكاديمية ناصر العسكرية العليا ● رؤيته لعلاقة أحمد إسماعيل والشاذلي قبل حرب أكتوبر وبعدها: كان الاستعداد للحرب يستنفد جهدهما لذلك لم تظهر أمامي خلافات تؤثر على التحضير أو الإعداد للحرب ● كان لاختلافهما أثر سلبي في آخر أيام الحرب ● لماذا كان أحمد إسماعيل نفسه من عوامل تحقيق نصر أكتوبر، وعي أحمد إسماعيل بقيمة السلاح المتاح وبخطورة مرض الخنادق، إيمانه بأهمية استكمال التخطيط، إيمانه بأهمية التعاون مع سوريا، إيمانه بضرورة البعد عن الحديث في السياسة على مستوى القيادة العامة، اقتناعه بأن الرجل لا السلاح هو الذي ينتصر ● لقاءات أحمد إسماعيل مع القوات في الأفرع الرئيسية للقوات والجيوش والمناطق، تقييمه للموقف كان يعكس فكر ورأي رئيس الجمهورية، أعطى اهتماماً كبيراً لإيجاد مناخ للعمل يختلف عن المناخ السائد من قبل، إفادته من عمله كرئيس للمخابرات العامة ● تلخيص الجمسي لظروف اندلاع حرب أكتوبر ● فهم الجمسي لعمله كوزير للحربية: ضرورة الحفاظ على إنجازات الحرب المجيدة، لم يكن مستعدا للتراخي أو الاسترخاء ● ذكرياته عن دوره في محادثات فض الاشتباك، نفوره من المهمة حين كلف بها، تشكيل الوفد المصري في المحادثات ● مشاركاته في محادثات السادات وكيسنجر في أسوان، يروي تفصيلات حواره مع كيسنجر، إحساسه بتحيز كيسنجر لإسرائيل، الجمسي ترك الاجتماع بانفعال ● الجمسي ينقل عن إسماعيل فهمي روايته لما حدث بعد خروجه، الجمسي يعبر عن إحباطاته دون أن يحولها إلى اتهامات للسادات ● الجمسي يتحدث إلى أحمد إسماعيل بوجهة نظره لينقلها إلى السادات، استدعاء السادات للجمسي ●السادات مصمم على المضي في طريق السلام وغير معني بالتحفظات العسكرية ● الجمسي يشرح وجهة نظره العسكرية للسادات، والسادات يحمله مسئولية وضع الخطة المناسبة للدفاع عن شرق القناة بالقوات التي حددت مع مراقبة تنفيذ الخطة ●

حرص الجمسى على تصوير نفسه على أنه لا خبرة له بألاعيب السياسة والدبلوماسية ● قصة حضوره لقاء للسادات مع وايزمان فى سالزبورج فجأة بينما صحف الصباح تحمل تصريحه أنه لن تكون هناك لقاءات جديدة بين العسكريين فى مصر وإسرائيل قبل أن يحدث شيء جديد يوضع للمناقشة ● تعليق المؤلف أن محمد إبراهيم كامل ذكر كل هذه الوقائع فى مذكراته ● حديث الجمسى عن حرب ١٩٦٧، الجمسى يؤثر النقل عن مذكرات الفريق أول مرتجى، موقف قيادة الجبهة قبل حرب ١٩٦٧ وفى أثنائها، طبيعة الأوضاع التى كانت تسيطر على قيادة الجبهة ●مناقشة بين أحمد إسماعيل ومرتجى حول دور المركز المتقدم فى الحرب، هناك قائد عام واحد هو المشير عامر، وإدارة الحرب تتم بواسطة القيادة العامة ● حديث الجمسى بأسى عن افتقاد المركز المتقدم لأى دور فى أثناء الحرب ●تفاصيل ما حدث يومى ٤ و٥ يونيو ١٩٦٧، ظل الجمسى فى مركز القيادة المتقدم بينما القادة الأعلى منه ذهبوا للقاء المشير عبدالحكيم عامر، أحداث ٦ يونيو الأليمة ● حديث الجمسى عن المفاجآت الأليمة فى حرب ٥ يونيو، أوامر صلاح محسن لصدقى الغول، المشير عامر ألغى قرار القيام بالضربة المضادة ● مرتجى وأحمد إسماعيل يسرعان فى اتجاه القناة فيجدان قائد الجيش قد انتقل إلى غرب القناة جنوب البحيرات ●الجمسى يستنكر تصرفات قائد الجيش الميدانى ● الجمسى ينتظر فى مركز القيادة المتقدم يشاهد القوات تتدفق نحو الغرب، الجمسى يعلق على تصرفات القيادة: أصبح الوضع معكوساً ● الجمسى يرى أن الحرب انتهت فى ٧ يونيو ١٩٦٧، استمر عمله فى منطقة القناة أسبوعين تقريبا ●إحالة أحمد إسماعيل للتقاعد، الجمسى يقرر ألا يستمر فى الخدمة، الجمسى يقدم استقالته ويستمر فى العمل حتى يتم التصديق على الاستقالة ●الدور المهم الذى لعبه الجمسى بعد ١٩٦٧، أحمد إسماعيل هو الذى اختاره لهذا الدور، طبيعة العمل الذى استغرقه فى هذه الظروف الصعبة ● قرارات القيادة الجديدة للقوات المسلحة، التفرغ للخدمة العسكرية، نقل وحدات إلى وزارات الداخلية والتموين والزراعة والنقل ● نماذج للأدوار البطولية التى قامت بها القوات المسلحة ● معركة رأس العش، أحمد إسماعيل يطلب المساندة بقوات جوية، ومدكور أبو العز يسانده بها، ارتفاع الروح المعنوية للقوات المسلحة فى الجبهة بفضل المعركة الجوية ● حديث الجمسى عن إغراق المدمرة إيلات فى أكتوبر ١٩٦٧ ●الجمسى يستعرض مراحل الدفاع السلبى التى أعقبت الهزيمة،

ماذا يقصد بالدفاع السلبي؟، حديثه وتقييمه لمعركة رأس العش ولدخول القوات الجوية المعركة في ١٤ يوليو بناء على طلب اللواء أحمد إسماعيل قائد الجبهة ● نجاح قواتنا المسلحة فى تدمير مخزن كبير للذخيرة تركته قواتنا عند الانسحاب من سيناء ● إغراق المدمرة إيلات، الإنجاز الذى تحقق: وأصبح هذا اليوم (٢١ أكتوبر) بجدارة هو يوم البحرية المصرية ●رأى الجمسى فى حرب ١٩٥٦، القوات المصرية فشلت من الناحية الاستراتيجية لأنها لم تتمكن من تأمين الدولة من اتجاه الشرق ولا من اتجاه الشمال، لكنها نجحت تكتيكياً فى معركتى أبو عجيلة ومتلا ● ملاحظات للمؤلف على رأى صاحب المذكرات ● هل يخشى الجمسى أن يتناقض مع ما بثته الدعاية المصرية طيلة سنوات من أننا انتصرنا؟ ● على النقيض فإن الجمسى لا يجد أي مجال للدفاع عن قواتنا المسلحة فى حرب ١٩٦٧، لكنه يعتبر أن دروس ١٩٦٧ هى أهم أسباب النصر فى ١٩٧٣ ● الجمسى لا يكاد يعترف بأن حرب اليمن كانت حرباً بالمعنى العسكرى، يصف تلك الحرب أنها حملة بوليسية ليس إلا، خطورتها الحقيقية فى نظره أنها ولدت انطباعا خاطئا لدى بعض قواتنا عن الحرب ضد إسرائيل، نسيت القيادة العامة اتجاه المجهود الرئيسى لعمل قواتنا المسلحة، لم تتمكن من حسم الموقف العسكرى فى اليمن وفى نفس الوقت أهملت الخطة الدفاعية عن سيناء ● صورة الموقف قبل ١٩٦٧ من وجهة نظر هيئة العمليات، صاحب المذكرات ينقل آراء الفريق أنور القاضى رئيس هيئة العمليات فى ذلك الوقت ● الجمسى يحاول تفسير ما حدث فى ١٩٦٧ بأكثر من طريقة، يشخص حالة الشيزوفرنيا فى القيادة، رأى المؤلف أن صاحب المذكرات لم يكن يملك كل هذا الوعى فى ١٩٦٧ رغم فكره المرتب الرائع ● الجمسى ينبه إلى أن القيادة السياسية فى مصر لم تضع استراتيجية عليا محددة لإعادة السيطرة على مياهنا الإقليمية فى مدخل الخليج ● صاحب المذكرات يوجه انتقادات عديدة إلى أساليب القيادة والسيطرة فى القوات المسلحة، ضعف روح التعاون بين أفرع القوات المسلحة، انشغال المشير عبدالحكيم عامر عن عمله الأصلى وانصرافه إلى تدبير كثير من أمور الدولة ● أصبحت لموضوعات الأمن الأسبقية، فكرة الولاء قبل الكفاءة تسود العمل فى القوات المسلحة ● معلومات المخابرات الحربية عن العدو فى ١٩٦٧ قاصرة وخاطئة، الأساليب التى اتبعت لتحقيق الأمن أبعدت أجهزة المعلومات عن عملها الرئيسى وهو العدو الإسرائيلى ●صاحب المذكرات يلخص الخسائر

التى حاقت بنا فى ١٩٦٧ ويشير إلى الدروس المستفادة منها ● حديث الجمسى عن مرحلة الاستنزاف، يحدد بداية حرب الاستنزاف بيوم ٨ مارس ١٩٦٩ استشهاد عبدالمنعم رياض فى اليوم التالى، ثناؤه على رياض ● الجمسى يرى فى حسم ـ وهو رئيس للأركان ـ أن يبقى يوم ٩ مارس يوماً للشهداء ويرفض اقتراحاً بإطلاق يوم الشهداء على يوم من أيام حرب أكتوبر، أحمد إسماعيل يوافق على رأى الجمسى ● إشادة الجمسى بجهود رجال الصاعقة فى أثناء حرب الاستنزاف ● إغراق سفن الإنزال البحرية الإسرائيلية فى ميناء إيلات فى نوفمبر ١٩٦٩ ● رأى الجمسى أنه بدون معارك الاستنزاف ما كان يمكن لقواتنا المسلحة أن تقفز من حالة الانهيار التام التى كانت عليها بعد ١٩٦٧ للقيام بما قامت به فى ١٩٧٣● الجمسى أقرب إلى التحفظ فى تناوله للعلاقات المصرية ـ السوفيتية، لكنه أكثر وعيا بها من وزراء الخارجية أو مستشار الأمن القومى ● الجمسى كالشاذلى يفرق بين المستشارين والخبراء والقوات الصديقة ويتحدث عن التسهيلات التى حصل عليها السوفييت فى سوريا وبورسعيد والإسكندرية ● مبدأ تبادل المصالح ● كان السؤال الذى يراوده: هل تتطور العلاقات مع السوفييت إلى أسوأ من ذلك ● الجمسى يبدو متمتعا بالوعى الكامل لفهم السادات وتوجهاته فى العلاقات السوفيتية ● الجمسى ينسب الفضل فى نجاح زيارة أحمد إسماعيل فى مارس ١٩٧٣ للاتحاد السوفيتى إلى زيارة رئيس الوزراء عزيز صدقى فى أكتوبر ١٩٧٢ ● خلاصة رأيه: ظلت الشكوك هى السائدة قبل الحرب، وظهرت واضحة فى أثناء الحرب وسافرة بعد الحرب حيث تطورت العلاقات إلى أسوأ: حدث شرخ، ازداد اتساعا خلال الحرب، وأصبح غير قابل للإصلاح بعد الحرب ●تلخيص موقف الجمسى من زملائه القادة العسكريين، ثناؤه على اختيار محمد فوزى وعبدالمنعم رياض فى فترة ما بعد الحرب ● وصف تصرفات المشير عامر فى ١٩٦٧ بالسطحية وعدم العسكرية ● انتقاداته لصلاح محسن ● ثناؤه على يوسف عفيفى ● آراؤه فى الفريق محمد أحمد صادق، يوجه له انتقادات موضوعية.

مذكرات الفريق سعد الدين الشاذلى

● الإشارة إلى فقرات فى مقدمة الكتاب تناول فيها المؤلف اختيار السادات للشاذلى رئيسا للأركان فى الحركة التصحيحية التى أجراها فى ١٥ مايو ١٩٧١، عمل الشاذلى فى السلك الدبلوماسى، إيقافه عن العمل، الإشارة إلى

قضايا تدوولت للشاذلي في المحاكم، الشاذلي حاول إنصاف نفسه بما كتب في هذا الكتاب ولكنه أنصف السادات أيضا ● لو أن الشاذلي كتب كتابه بعد عشر سنوات لكان تجنب إنصاف السادات باختزال الروايات ● الشاذلي لم يقصد ظلم نفسه ولكنه أنهك أعصابه وأصبح مكدود الذهن والفؤاد ● المؤلف يلتمس العذر للشاذلي ● الشاذلي نموذج للشخص اللامع الذى تختلف بشأنه الآراء والأحكام، مذكراته تصور شخصيته على صورة من أدق الصور ●صاحب المذكرات يروى كيف نال رئاسة الأركان، الفريق فوزى يزعم أن الرئيس حين اختاره ذكر أنه عديل سعد الدين متولي ● الشاذلي ينفي أن يكون تعيينه بسبب موقفه فى اجتماع ١٨ أبريل، والمؤلف يعقب على آراء الشاذلي ● مقابلة مع السادات والوزير يوم ١٧ مايو ● حرص الشاذلي على إدانة موقف الفريق محمد فوزى فى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى ١٨ أبريل ١٩٧١، «عندما جاء دوري أيدت الاتحاد» ● الشاذلي حريص أيضاً على تحديد موقف صادق في الاجتماع، الشاذلي يلخص حركة ١٥ مايو بأنها انقلاب عسكرى ويحدد أدوار الذين ساعدوا السادات فيها ويحصرهم في ثلاثة، المؤلف ينتقد رؤية الشاذلي ● كان من الطبيعي أن يصطرع صادق والشاذلي، السادات يستدعي الشاذلي ويخبره بتعيين أحمد إسماعيل وزيراً، المؤلف يفضل رؤية الجمسى فى أن الإعداد للمعركة كان يستغرق وقت أحمد إسماعيل والشاذلي بحيث لم تظهر خلافاتهما على السطح قبل الحرب ● تصرفات الشاذلي بعد الحرب، وزير الخارجية يلوم الشاذلي (السفير) على تصرفاته، الشاذلي يهاجم الرئيس من مكتبه كسفير لمصر فى البرتغال ● اضطرار الشاذلي فى المذكرات إلى تبرير قبوله العمل تحت رئاسة السادات، حواره مع الرئيس مبارك لإقناعه بقبول منصب سفير مصر فى لندن، لقاء الشاذلي مع السادات قبل سفره إلى لندن ● الشاذلي يجعل تكذيب السادات أحد هدفين له من المذكرات، ويتصور أن كل حديث رسمي عن المعركة لم يكن يهدف إلا للتقليل من دوره هو شخصيا ● الشاذلي يصور نشر مذكراته على أنه معركة، اختياره للتوقيت المناسب لنشر المذكرات، أخطاء ثلاثة للسادات فى نظره ● رأي المؤلف أن الناس فى بلادنا قرأوا عن هذه المذكرات أكثر مما قرأوا منها ●الشاذلي لم يكن مؤيداً لتطوير الهجوم حتى منذ التخطيط، الإشارة إلى التصورات الخاطئة عن موقف لم ينسبه الشاذلي إلى نفسه وإنما هو مصمم على معارضته حتى فى المذكرات ● المؤلف

يشير إلى تعارض المقدمة التى كُتبت للطبعة الأولى من الكتاب بدون توقيع مع مضمون الكتاب نفسه ● رأى الجمسى ● الشاذلى يروى لماذا كان السادات وأحمد إسماعيل حريصين على تضمين الخطة هدف الوصول إلى المضايق ● نقاش الشاذلى مع أحمد إسماعيل، الوصول إلى وضع خطة أخرى تشمل تطوير الهجوم بعد العبور إلى المضايق ●الشاذلى يقول إنه كان يشعر بالاشمئزاز من أسلوب تعامل السياسيين المصريين مع إخواننا السوريين ● الخطة «جرانيت ٢»، الشاذلى يشرح المقصود بالوقفة التعبوية ● رؤية الشاذلى لتطوير الهجوم ● الشاذلى يقول: إنى لا أستطيع أن أقامر بمستقبل بلادى، لقد كنت دائما ضد فكرة تطوير الهجوم نحو الشرق، سواء كان ذلك فى التخطيط أو فى مرحلة إدارة العمليات الحربية ● الشاذلى يهاجم السادات على قرار تطوير الهجوم ويرى أنه لم يكن هناك أى داع سياسى له، المؤلف يصف دفوع الشاذلى بأنها افتراضات جدلية ليس إلا! ● موقف الشاذلى من الثغرة، الشاذلى نفسه يروى أنه لم يتكلم فى الاجتماع الذى تناقش السادات فيه مع القادة، السادات يقرر: «لن نقوم بسحب أى جندى من الشرق»!! ● المؤلف يورد ٤ لقطات من حديث الشاذلى تدل على تورطه فى إلقاء التبعة على المشير أحمد إسماعيل بينما الرأى رأى السادات ● قصة الخلاف الذى سبق إقالة الشاذلى من منصبه، مقابلة صحفية مع محرر مجلة نيوزويك، الأهرام ينشر صباح ١١ ديسمبر: «قواتنا فى الشرق تتقدم عشرة كيلومترات»، والشاذلى يصمم على معرفة المسئول عن نشر الخبر، مقابلة مع حاتم، «فى صباح ١٢ ديسمبر ظهرت الأهرام وفيها تصحيح للخبر واعتذار وبعض تسويفات، لكن بلغ التحدى بينى وبين السلطة السياسية مداه» فى مساء نفس اليوم أقاله السادات، كيف علم بنبأ إقالته، الوزير يستدعيه ● زوجة الشاذلى تستقبل الخبر بشجاعة، وتحمد الله ● زيارة الصحفى الأمريكى له فى منزله ● الشاذلى يرى الصراع بين القادة العسكريين والقادة السياسيين بصورة مختلفة، المؤلف يعقب على رؤية الشاذلى ● الشاذلى يلخص تاريخ انهيارات السادات المرضية ليثبت أن السادات هو القابل للانهيار وليس الشاذلى ● يبدو وكأنما الشاذلى فى هذا الكتاب مولع بالكشف عن أسرار الجيش المصرى ● أرقام كثيرة تصور كل شىء فى المعركة، العبور، شراسة المعركة، كان فى إمكان العدو أن يستخدم دباباته الاستخدام الصحيح، أما نحن فقد كنا مرغمين على أن نستخدمها كمدافع مضادة للدبابات ● نموذج [رابع] يقدمه الشاذلى لتشتت

لواء مشاة مصرى اندفع إلى الأمام بدون حماية جوية فلقى الشتت ● حرص الشاذلى على أن يقدم كل التفصيلات الممكنة عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى كتابه، ومع ذلك توارت هذه الإنجازات فى ظل النقل عن الكتاب والنسبة إليه فى الهجوم على النصر وقائده الأعلى ● تفصيلات السيطرة على عملية العبور نفسها ● ما رواه أحمد إسماعيل للشاذلى عن رغبة السوريين فى تأجيل بدء القتال يومين، وأحمد إسماعيل يخبرهم باستحالة ذلك ● إحكام خطة الخداع حتى على زوجة الشاذلى،مع هذا فإنه نادم على عدم تسجيل فيلم عن العبور● قصة مؤثرة عن تدمير قواتنا لبعضها، لكن الشاذلى ينتبه بذكاء إلى الثناء على سرعة تصرف هذه القوات ● قصة رفض أحد المقاتلين القيام بدوره فى حرب ١٩٧٣● مشاهدات الشاذلى فى اليوم الثالث للحرب ● تمت حماية الإسماعيلية بلواء مظلات مصرى واحد، الشاذلى يورد رواية الجنرال هرتزوج، ويلخص بطولة السويس، ويشيد بموقف يوسف عفيفى فى أثناء حصار السويس ● الشاذلى يجيد تصوير حالة القوات المسلحة المصرية فى بداية عهد السادات، المشروعات التدريبية كانت تفترض وجود قوات أكبر مما هو متاح لنا ● طبيعة المشاريع التى تمت مابين ١٩٦٨ و١٩٧٣● الخطط العسكرية المختلفة والفروق بينها: الخطة ٢٠٠، جرانيت، ٤١، المآذن العالية، بدر ● الشاذلى يختلف مع الفريق صادق حول طبيعة المعركة، يراها محدودة، وصادق يرى تدمير جميع قوات العدو فى سيناء، الحل الوسط الذى توصل إليه الرجلان: تجهيز خطتين، طلب الأسلحة للخطة ٤١ من الاتحاد السوفيتى، تفاصيل تعديلات الخطة حتى وصلت إلى الخطة بدر ● ثلاث نقط ضعف رئيسية تحد من قدرتنا على تنفيذ الخطة ٤١ ● تعيين أحمد إسماعيل وزيراً للحربية، الرجلان يتفقان، خطة المآذن العالية ● هيئة العمليات والمخابرات الحربية تتحفظان والشاذلى يحلل تحفظهما ● تفاصيل خطة العبور ● ملامح الخطة بدر ● العبور كان عقيدة قتالية مترسخة عند قواتنا منذ الهزيمة ● الشاذلى يرى لنفسه دوراً فى كل إنجاز، دوره فى تصنيع عربة الجر اليدوى التى وفرت جهد اثنين وعشرين ألف رجل من الحمالين غير المسلحين ● كيف اكتشف الشاذلى ضرورة تخصيص كوبريين لكل فرقة، لم نكن نملك إلا ١٢ كوبريا استعملنا منها عشرة ● محاولة الشاذلى حل النقص فى الطيارين باللجوء إلى كوريا الشمالية، الفوج الكورى يضم عشرين طيارا، الإيجابيات والمشكلات التى نشأت من وجود الطيارين الكوريين

● ثناء الشاذلى على قوات الدفاع الجوى ودور قائدها المشير محمد على فهمى ● اختراقات الطيران الإسرائيلى لأجوائنا، الكمين الجوى الإسرائيلى، الخطط المصرية المتطورة لعدم ابتلاع الطعم، ثلاث حوادث متفرقة قام فيها الدفاع الجوى المصرى بدور بارز فى التصدى للهجمات الجوية الإسرائيلية ● المعلومات التى يقدمها الشاذلى عن هيئة أركان الحرب المصرية ● تعليقات المؤلف الناقدة لحديث الشاذلى عن أسلوبه فى القيادة، انزعاج الشاذلى من كبر حجم المرءوسين ●كيف يمكن للشاذلى أن يحقق الرباط التاريخى مع الجنود ● المؤلف يصف أسلوب الشاذلى بأنه كما يقال فى القضاء يترافع للجمهور لا للمحكمة ● وسائل الشاذلى فى الوصول إلى مستويات القيادة المختلفة، حديثه عن المؤتمرات الشهرية ● المؤلف يشير إلى ثناء عبدالمنعم خليل ويوسف عفيفى على التوجيه رقم ٤١ ● الشاذلى يظن أن معجبيه أكثر من أن يستوعبهم قلب رجل واحد، الشاذلى يتشكك فى نجاح الأسلوب التقليدى فلا يلجأ إلا إلى أسلوب أكثر تقليدية ● قصة تصدى الشاذلى للإسرائيليين فى لندن بسبب ما احتواه كتابه «عقيدتنا الدينية طريقنا إلى النصر» ● الشاذلى ينتقد أسلوب عمل المخابرات الحربية فى تسجيل الشائعات ● حديث المذكرات عن قرار طرد الخبراء السوفييت، التأثيرات السلبية للقرار على قوات الدفاع الجوى المصرى، السوفييت لم يوافقوا على طلب مصر استبقاء بعض الوحدات الصديقة ● رضاؤه عن تعاون القيادة المصرية وكبير المستشارين السوفييت فى إتمام عملية الترحيل، أعداد السوفييت التى رُحلت ●يحاول أن ينصف الاتحاد السوفيتى ودوره فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، مقارنته بين الجسرين الجويين السوفيتى والأمريكى، إشادته بإنذار بريجنيف للولايات المتحدة الأمريكية ● يتحدث عن أخطاء السوفييت التى قادت إلى تدهور العلاقة: التخلف التكنولوجى مقارنة بالغرب ● غلظة الأخلاق السوفيتية، قصة احتكاكه مع الجنرال لاشنكوف والوزير يهدئ الموقف ● حديثه عن دور الفريق صادق فى تدهور العلاقات المصرية ـ السوفيتية ● تقييم الشاذلى للأدوار العسكرية التى أسهمت بها الدول العربية فى المعركة، قصة اللقاء بالملك الحسن، الملك يقول: ياأخ شاذلى قد تكتب مذكراتك، وستقول فيها: لقد وعد الملك الحسن فأوفى بوعده، قال الشاذلى: أقسم أن أفعل ذلك!● انتباه الشاذلى إلى قدوم حركة التصحيح، يلاحظ أن حديث السادات فى ١١ مايو ينم عن التحدى لخصومه السياسيين

ويتكلم بثقة أكبر، المذكرات أفضل مصدر متاح عن حديث السادات مع قادة القوات المسلحة فى ٣ يونيو ١٩٧١عقب حركة التصحيح ● الشاذلى فى مذكراته ينتقد السادات على تصريحاته المتكررة بدق طبول الحرب قبل نهاية ١٩٧١● الشاذلى يلخص آراء ومواقف كبار قادة القوات المسلحة فى اجتماعهم مع السادات فى مطلع ١٩٧٢ ● مذكرات الشاذلى تنفرد برواية قصة محاولة انقلاب محدودة يقودها النقيب على حسنى عيد، الفريق صادق يحقق بنفسه مع النقيب عيد، الشاذلى يعتقد أن هذه المحاولة عجلت بطرد صادق ● محاولة انقلاب بقيادة على عبد الخبير، تفاصيل مذهلة عن الانقلاب، السادات يعجل بضرب الانقلاب، على عبدالخبير يعترف بكل شىء، طرد مدير المخابرات الحربية اللواء محرز مصطفى ● حرص الشاذلى على رواية حديثه مع المدعى العسكرى، السادات يستمع إلى التفاصيل من الشاذلى فى حفل زفاف عبدالمنعم الهونى عضو مجلس قيادة الثورة الليبية ● حديث الشاذلى عن الإطار الفكرى لانقلاب الفريق صادق ● الشاذلى يصل إلى حدود لا معقولة من الحديث عن أمجاده فى العسكرية المصرية، محاولته الاستعانة بالاستشعار عن بعد لكن الحرب كانت أسرع ● تفكير الشاذلى فى إقامة مطار تحت الأرض مثلما فعلت كوريا الديمقراطية ● إشادته بجهد عثمان أحمد عثمان فى فكرة إقامة كبارى ثابتة عبر قناة السويس ● تفاصيل اجتماع مساء ٩ أكتوبر لوضع خطة لتنفيذ الكبارى ● حوار مع عبدالعزيز حجازى عن حساب تكاليف الإدامة ● حديث الشاذلى عن صواريخ القاهر والظافر (التين والزيتون): «حصلنا عليها من بين الأصناف الراكدة ولم نكن لنخسر شيئا بإطلاقها» ● حديث الشاذلى عن الوزيرين اللذين عمل رئيسا للأركان معهما ● الفريق صادق يحظى بانتقادات كثيرة، حديثه عن الشائعات التى كان يطلقها الفريق صادق ● الشاذلى يؤمن بفكرة المؤامرة، قصة خلافه مع الوزير على توزيع الدبابات الروسية الجديدة ● الوزير وعبدالقادر حسن يأخذون برأى الجمسى وعمر جوهر، والشاذلى بمفرده يؤيد المستشارين السوفييت، السبب الحقيقى الذى عرفه الشاذلى ● يبدو من رواية المذكرات أن الحق كان فى بعض الأحيان مع صادق لا مع الشاذلى ● حديثه عن كراهية صادق للشيوعية ● يروى أنه يعتز بزمالة وصداقة صادق لكنه يعدد عيوبه: المظهرية، السلطة تجمح بصاحبها فتدمره ● الصدام بين الرجلين فى أواخر نوفمبر ١٩٧١ خلال انعقاد مجلس

الدفاع العربى المشترك، الشاذلى ينظر إلى نفسه بافتتان، يعتقد أن له سلطة قومية وأن للوزير سلطة قطرية فحسب ● الوزير يعزل اللواء عبدالرءوف ويعين طلعت حسن على بدلا منه ● لقاء الرجلين بالرئيس السادات: «شوف ياسعد لازم تاخد بالك.. الروس حايخدعوك» ● انتقادات للمشير أحمد إسماعيل، المؤلف يتحفظ على نفسه وينبه القارئ بأنه سيكون من الصعب عليه أن يبدو محايداً بينما ألف ونشر كتاباً عن أحمد إسماعيل منذ عام ١٩٨٤● يمكن للشاذلى نفسه أن يرد بنفسه على هجومه على أحمد إسماعيل لو كان وصل إلى ما وصل إليه أحمد إسماعيل من خبرة ● أحمد إسماعيل يتميز بحنكة استراتيجية، وبوجود مبكر جدا فى القيادة المصرية، حوار الشاذلى وأحمد إسماعيل حول التوجيه الاستراتيجى، ذكاء أحمد إسماعيل واندفاع الشاذلى ● تصرفاته جميلة لكنها مسرحية ● قصة خلاف الشاذلى القديم مع أحمد إسماعيل فى الكونغو ● كيف علم الشاذلى بتعيين أحمد إسماعيل وزيراً ● الأسباب التى يرى الشاذلى أن السادات اختار من أجلها أحمد إسماعيل وزيرا ● المؤلف يعلق بسرعة على وجهات نظر الشاذلى، ● موقف أحمد إسماعيل من الشاذلى أفضل له من موقف السادات منه ● الود المفقود بين الشاذلى وإسماعيل فهمى،قصة عن اعفاء ابن إسماعيل فهمى من القوات المسلحة ●انتقاد الشاذلى للدكتور محمود فوزى ● المذكرات لا تخلو من التعبير البهيج عن تجارب إنسانية: زيارة الشاذلى لكوريا الشمالية، تعليق بطرس غالى على نفس المشاهدات ● الشاذلى حسن النية لا يزال يحسن الظن بصدق القادة الإسرائيليين.

مذكرات اللواء عبدالمنعم خليل

● مكانة صاحب المذكرات فى قلب المؤلف ● التعريف بصاحب المذكرات، التعريف بالمذكرات، هذه هى المذكرات الثانية لأن له مذكرات منشورة قبلها لكنه أعاد كتابتها من منظور أوسع وأعرض وأعمق وأشمل فى هذا الكتاب ● صاحب المذكرات صاحب رؤى وتجارب وممارسات خاصة، يطوع الحياة لفهمه العقائدى لكنه لا يلوى ذراع الحقائق، أمين فيما يروى، نجا من الدروشة ونجا من الزندقة أيضاً ● المؤلف من الذين لم يصطلوا بنيران الوجود فى الصف الأول وإنما ظل قريباً من هذا الصف دون أن يكتوى بشراره أو يمارس شروره ● هو

واحد من الذين خاضوا كل الجولات، فكرته فى أن الجيش الإسرائيلى ثانى أقدم جيش في المنطقة بعد الجيش المصرى، تصويره مواقع القادة العسكريين فى الجولات المتتابعة ● الكتاب يعرض النتائج العسكرية برؤية بانورامية، يضفى رؤيته الشخصية على تقييمه للقادة ● الفقرة التى سجل فيها اجتماع الفرح والحزن عليه حين ألغيت البعثة الدراسية التى كان يدرس من خلالها فى لندن ● المؤلف يصف كتاب عبدالمنعم خليل بأنه كتاب تعليمى، أمثلة للخبرات العسكرية التى يلفت الكتاب نظرنا إليها: دور الطائرة كان حاسماً فى ١٩٥٦ وأشد إبهاراً فى ١٩٦٧، وفى ١٩٧٣ يتضاءل هذا العملاق فى الحجم حتى يصبح قزماً لا يستطيع الاقتراب من غابة صواريخ الدفاع الجوى المصرية التى أجبرته على الابتعاد عن أرض المعركة ● انهزام الدبابة: بعد صباح الأثنين الأسود ٨ أكتوبر ١٩٧٣ عاد غلاة المنادين بها لتكون سلاح القوات البرية الأكثر حسما يعترفون بالدور العظيم للرجل ضد الدبابة ● الكتاب يحلل أحداث ٦ أكتوبر غير منحاز إلا للعلم العسكرى والخبرة العسكرية ●حديثه عن الخطأ فى استخدام الدبابة، تجربتا النجاح والفشل التى واجهتهما القوات المسلحة المصرية فى ١٩٧٣● حديثه عن حرصه الدائب وأمله أن يتولى قيادة الجيش الثانى فى المعركة ● استشعاره لنية إبعاده عن قيادة الجيش الثانى، مصارحته لصادق بظنونه ● حرص المذكرات على إثبات أهمية العنصر الإيمانى فى إعداد الجنود وتحقيق النصر، انتقاداته أسلوب وسياسات إدارة التوجيه المعنوى فيما قبل حرب ١٩٦٧● انتقاده سياسة قادة الثورة فى استبعاد العناصر الدينية من الجيش ● وصف هذه السياسة بأنها كانت وقوداً ذرياً لتفجير ذرات الحقد الدفين من الشعب بعد وقوع الهزيمة، تعليق المؤلف على رؤية صاحب المذكرات ● يروى أن الضباط كانوا يحافظون على كتب التوجيه المعنوى ونشراته دون قراءة من أجل الحصول على أعلى الدرجات ● مزج المذكرات بين الحديث عن الأدوار العسكرية ومصير الأحداث الكبرى وتطورات التاريخ فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى ● حديثه عن دوره فى عملية فتح طريق فى أثناء حرب اليمن فى شهر رمضان، الألغام تدمر النصف الأيسر للعربة المدرعة التى يستقلها، استدعاؤه لمهمة أخرى مماثلة فى طريق صنعاء ـ رايدة إلى الشمال، قصة الرائد حمود اليمنى ● حرصه على إضفاء صفات دينية على انتصاره، تعليق المؤلف على رؤية صاحب المذكرات، الطريف فى الموضوع أن هذا (العدو) كان سيؤدى

الصلاة سواء انتصر هذا القائد أم لم ينتصر!! ولربما تغير القائد (أو الخطيب) فحسب!! ● حديثه عن (عدم) مسئوليته عن حدوث الثغرة، الشاذلي يخرج من الاجتماع ليقول: الحق يامنعم دول ناويين يلبسوك الثغرة! والمشير أحمد إسماعيل يطمئن صاحب المذكرات: لا هو اللي لابسها ● كيف مكنته الظروف من أن يتفادى المسئولية عن الثغرة ● صور العنت والمعاناة التي لقيها صاحب المذكرات في الحروب التي سبقت حرب ١٩٧٣ ●معاناته في حرب ١٩٦٧ وهو قائد لقوات المظلات ● تكوين قيادة شرم الشيخ تحت رئاسته، مدى الحرج الذي وقع فيه وهو في شرم الشيخ ● يكاد يفخر بقدرته على تنظيم انسحاب قواته من شرم الشيخ ● حديثه عما لمسه في ١٩٦٧ من معنى المظهرية وروحها ● الدور الذي أتيح له أن يؤديه بعد اندلاع الحرب، فجر يوم ٨ يونيو أعطاه المشير أمراً بعزل قائد لواء مدرع وأن يتولى قيادة اللواء مكانه فوراً ● آخر مكالمة له مع المشير ● تلخيصه للتنقلات العديدة التي تعرض لها في أثناء مشاركته في حرب اليمن وبعدها مباشرة وقبل حرب ١٩٦٧ ● حماسه للحديث عن أدواره في حرب الاستنزاف، قصة لقاء عبدالناصر بالجيش الثاني ومروره على الإسماعيلية

● نجاح مصر في تحريك الصواريخ المضادة للطائرات إلى أقرب ما يمكن من قناة السويس ● حديثه عن أنور السادات، اكتشافه حكمته وحنكته في أواخر أيام عبدالناصر، زيارة السادات للفرقة الثالثة مشاة في الجبهة، حواره مع الجنود، السادات يضع دستور اليمن بتكليف من عبدالناصر: رتب الأوراق وغير الصفحات ● روايته عن حوارات السادات وخلافاته مع الفريق صادق ومجموعته، ومع الفريق فوزي قبل أحداث مايو ١٩٧١ ● حديث السادات قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣● حديث السادات بعد وقف إطلاق النار في حرب أكتوبر ١٩٧٣، يكتفي من حديثه عن السادات بهذه اللقطات المنتقاة المعبرة عن شخصيته ● يتحدث عن المشير أحمد إسماعيل بحب حقيقي: أصبح محنكاً بما فيه الكفاية، كيف كان المشير قدوة لقادة التشكيلات في جميع الأفرع ● إدراكه أن المشير أحمد إسماعيل كان واضح الرؤية جداً منذ مرحلة مبكرة من توليه المنصب ● صاحب المذكرات حريص على الدفاع عن الفريق صادق في جزئية أنه لم يكن يريد القتال ● حديث صاحب المذكرات عن أن قادة القوات المسلحة المصرية كانوا قد بدأوا يحسون رغبة السادات في إسناد منصب القائد العام إلى أحمد إسماعيل أو محمد حافظ إسماعيل ● الملاحظات المبكرة التي استشف

منها القادة هـذا التفكير ● اجتماع الحافـظ إسماعيل وأحمد إسماعـيل على مع المجلـس الأعلى لـلقوات المـسلحـة فى أوائل صـيف ١٩٧٢● لقـاءات أخرى للسـادات نفـسه مع مجموعات من القادة، الـسادات يعطى إشارات دون تصريح ● إنصافـه الفريق الشاذلـى وحديثه عن جـهده فى إعداد المنشـور رقم ٤١ الخاص بتنظيم عبور القوات لقناة السويس ● ثناؤه على جهد الشاذلى فى البحر الأحمر، شجاعته فى المرور على الأماكن المـشتعلة فـى أثناء الحرب ●حرصه أيضاً على رواية سـر تصعيد الشاذلى إلى مكانة رئيـس الأركان فى حركة مايو ١٩٧١، ثناؤه على المؤتمرات الشهـرية التى كـان يعقدهـا رئيـس الأركان، فـهمه الجيـد وهو يمارس التخطيط لحرب أكتوبر ● إنصافه الفريق أول محمد أحمد صادق، يعده من رجال المخابرات الحربـية المخضرمين، آراء صادق حين كان رئـيـساً للأركان: البدء بمعارك صغيرة قبـل خوض غمار الحرب الكبيرة ● آراء صادق فى حضور المستشـارين السوفييت فـى فبراير ١٩٧١ ●وصـف صاحب المذكرات لـتعليق رئيس الأركان الـسـوفيتى أنه جـاء فى خبث ● عدم رغبـة السوفييت فـى إجابة الطلـبات المصرية مـن الأسلحة: يـغمضون أعيـنهم ويقفـلون آذانهم عـن إجابة طلباتنا ● تصـريحات الفـريق صادق فى اجـتماع عسـكرى برئاسـته فى ينـاير ١٩٧٢عن عجزه عن التـعاون مع السوفييت، خلافات الفـريق صادق مع رئيس الوزراء عزيز صدقى ● نماذج لشكاوى صادق من السـوفييت ● تعليق المؤلف أن عبدالمـنعم خلـيل يبدو (عـلى النقـيض من المشـير الجمسـى والفريق الـشاذلى) متعـاطفاً بدرجة ما مـع الفريق صادق بيـنما القائـدان الآخران ينتقدانـه بوضوح، الفقرات التى تحمـل أقصى تعاطف لعبدالمنعم خلـيل مع الفريق صادق ● الفريق صادق يجأر بـالقول: ديننا يسب.. ديـننا يحقر.. لماذا نـحن أذلاء لست أدرى!! نصوص حديث الفريق صادق فى مارس ١٩٧٢ ● توجيهات صادق فيما يتعلق بالتعامل مع السوفييت ● تفاصيل اجتماع لـلفريق صادق فى ٢٧ مايو ١٩٧٢، صادق يعيد أفكاره السابقة، صادق يثير مـوضوع الذهب الذى يشتريه السوفييت من أسـواق مصر بكـثرة ● صادق يشـكل لجنة لـتقدير الموقف العسـكرى عن الاستـعداد القتـالى للـقوات المسلـحة ● ثنـاؤه علـى علـى عبـدالخبـير وعـلى عبدالرحمـن فهمى ● المؤلـف يرى أن عبـدالمنعم خلـيل كثـيراً مـا يلجـأ إلى موضوعية كأنها موضوعية القائد الأجنبـى للحرب، انتقاده للفريق محمد صدقى محمود وثناؤه على إسحق رابين ● صاحب المذكرات يقدم وصفـاً مفصلاً للقاء

السادات بالقادة العسكريين فى ١٩٧٢، السادات يريد من روسيا أن تعطى ومن أمريكا أن تحل المشكلة ● السادات يقول للقادة: لقد صدقتم أننا انتصرنا فى ١٩٥٦، والحقيقة لا، فقد انتصرنا سياسياً فقط، وعدونا لم يسكت.. تطور، أما نحن فلم نتطور وعشنا على التهريج ● السادات يسأل الجمسى كمسئول للتنسيق مع سوريا وليبيا عن موقف البلدين من المعركة ● المؤلف يعتقد أن هذه المذكرات هى أقوى مصدر يعتمد عليه فى رواية وقائع الاجتماع الحاسم للسادات مع القادة العسكريين فى أكتوبر ١٩٧٢ قبل إقالة الفريق صادق ● السادات يزجر عبدالقادر حسن ● الرئيس يتحدث فى حدة وقسوة ظاهرة بعد تعليق من محمود عبدالرحمن فهمى● السادات يقول: أنا مؤمن أننا نستطيع عمل شىء، نموت ورأسنا فى آخر سماء ● صاحب المذكرات يروى بعض ما استطاع معرفته عن تفصيلات اجتماع الرئيس مع الوزير ورئيس الأركان ● آخر التعليمات التى وصلت عبدالمنعم خليل من الفريق صادق فى ٢٥ أكتوبر ١٩٧٢● رأى عبدالمنعم خليل أن إقالة صادق ومجموعته كانت بمثابة ثورة التصحيح الثانية ●حديث المذكرات عن اجتماع الفريق فوزى بقادة القوات المسلحة قبل ثورة التصحيح الأولى (فى ١٥ مايو ١٩٧١) بعشرين يوما: سعد الشاذلى هو الوحيد الذى وافق ومعظم القادة لم يوافقوا ● قصة لقاء السادات بقادة القوات المسلحة يوم ١٢ مايو ١٩٧١، المذكرات تجيد تصوير الموقف بكل أبعاده النفسية: «كنا لا ندرى أن نهاية هذا الضحك علقة»، فى صباح يوم ١٣ مايو فوجئنا بخلع الفريق فوزى وتعيين صادق والشاذلى ● أول لقاء للسادات بقادة القوات المسلحة بعد أن أتم حركته التصحيحية : «لا تخشوا من النفوذ الروسى.. لا يمكن للمصريين أن يتحولوا إلى شيوعيين» ●المؤلف يعلق: يبدو أن صاحب المذكرات لم يستطع استيعاب ما يقصده السادات بحديثه هذا ● ذكاء صاحب المذكرات فى تصوير دراما إعداد القوى التى تمضى فى طريقها دون أن تكون حرب أكتوبر بمثابة نهايتها ● جدوى الاستخدام الجيد والمبتكر للسلاح المضاد للمدرعات ●حديث المؤلف عن الإنجاز العسكرى الذى تحقق فى حرب أكتوبر ● حديث المذكرات عن تفصيلات العلاقة المصرية ـ السوفيتية ● حرص عبدالناصر الشديد على توريط السوفييت فى معاونة مصر، المؤلف يعتقد أن آراء صاحب المذكرات فى هذا الموضوع هى الأقرب للصواب ● الأسباب المباشرة التى جعلت السادات يأخذ قراره بالاستغناء عن المستشارين السوفييت ●

حديث المذكرات عن الروح التى سادت القوات المسلحة عقب حرب ١٩٦٧ ● رأى صاحب المذكرات فى حرب الاستنزاف: أول صراع يدور فى مسرح الشرق الأوسط بين قوات شبه متكافئة، أول صراع مسلح تضطر فيه إسرائيل إلى الاحتفاظ بنسبة تعبئة عالية، ولمدة طويلة، صاحب المذكرات يبدو كأنه مؤيد للفكرة القائلة بأن استمرار حرب الاستنزاف كان فى صالح مصر ولم يكن فى صالح إسرائيل ● انتهت حرب الاستنزاف بتعادل على المستوى الاستراتيجى والتعبوى، وبمكاسب تكتيكية وسياسية كثيرة لمصر ● حديثه عن واقعة خطف الرادار، وكيف أثرت هذه الحادثة على عقلية عبدالناصر ● حرب الاستنزاف كانت ضرورة ● انتقاداته لحرب الاستنزاف من حيث الخطط ● تكاليف حرب الاستنزاف على الجانبين، مصر وحدها دون الدول العربية هى التى واجهت حرب الاستنزاف، فرحة الإسرائيليين بانتهاء حرب الاستنزاف ● آراء صاحب المذكرات فى المشير عبدالحكيم عامر، حبه وإعجابه به فى أثناء حرب اليمن، عبدالمنعم خليل يكتشف فى عبدالحكيم عامر قدرة على الانتهاء من الانفعال والعودة إلى الصواب، صاحب المذكرات يلقى بلوم شديد على عبد الحكيم عامر فى تدخله بطريقة شخصية فى حرب يونيو ١٩٦٧، انتقاداته لمنطق أهل الثقة عند عبدالحكيم عامر وعند عبدالناصر أيضاً ● أخطاء عبدالحكيم منذ ١٩٥٦، تأمله للصراع والعلاقة بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر، عبدالمنعم خليل يلقى بمسئولية الصراع على بطانة المشير عبدالحكيم عامر ● معظم قادة التشكيلات كانوا يترددون يوميا على منزل عامر ومكتبه، اجتماع عبدالناصر وزملائه بعبدالحكيم عامر يوم ٢٥ أغسطس ١٩٦٧● حديث المذكرات عن حرب ١٩٦٧، تصويره حالة الجيوش العربية قبيل الحرب، سجل القوات المسلحة المصرية لا يحمل فى صفحاته هزيمة بحجم هزيمة يونيو ١٩٦٧، بعض التفصيلات عن مقدمات الحرب ● حديث عبدالمنعم خليل عن الاهتراء الشديد الذى تعرضت له الخطة المصرية فى حرب ١٩٦٧● السبب: قصور رؤية عبدالحكيم عامر ● الإسرائيليون نجحوا من خلال التفوق العددى والنوعى فى تحقيق نصر حاسم استطاعوا به أن يغيروا خريطة الشرق الأوسط ● تعليقه بأسى شديد على قرار الانسحاب، خسائرنا أحد عشر ألف شهيد وجريح ● وقائع تفصيلية لما حدث يوم ٥ يونيو ١٩٦٧، انفرد قائد القوات الجوية المصرية بأنه الوحيد الذى فقد سلاحه مرتين خلال حقبة واحدة من الزمن ● تفاصيل الهجوم

البرى الذى قادته إسرائيل يوم ٥ يونيو، يلخص الهزيمة على مستوى الوطن العربى كله ● كيف نجحت الخدمة الأرضية الإسرائيلية فى المساعدة على تحقيق هذا النجاح الشديد لطائرات العدو ● إرجاعه أسباب الفشل المصرى إلى الإدارة والقيادة وأسباب تكنولوجية أيضا ● وصفه لإحدى فرق الجيش المصرى وقد أنهكها التعب حتى من قبل أن تبدأ الحرب ● موقف المذكرات من مسئولية قادة القوات الجوية عن هزيمة ١٩٦٧: ذرائعهم غير كافية، مع هذا يردف بذكر بعض الأسباب النفسية التى ساعدت على تحقيق الهزيمة بهذا الحجم ● المؤلف يقدر فى صاحب المذكرات والمذكرات نفسها الحرص الدائب على معرفة العدو ● خلاصة رأى عبدالمنعم خليل فى حرب اليمن، حجم المشاركة فى اليمن، حجم التدخل العسكرى، النتائج السلبية لاستغراق الجيش المصرى فى اليمن، سعادة إسرائيل بهذا الاستغراق ● رأى عبدالمنعم خليل البليغ الحكيم فى حرب ١٩٥٦: خرجت مصر منتصرة مهزومة!! يثقل كاهلها الانتصار المزعوم وتهزم كيانها الهزيمة المستورة! ● رأيه أن حرب اليمن كانت بمثابة السبب المباشر لهزيمة ١٩٦٧: فقدان عقيدة القتال وعقيدة الاستشهاد والتحول إلى المنافع المادية ● تلخيصه موقف القوات المسلحة المصرية عند اندلاع حرب ١٩٥٦، تفصيلات مهمة عن حرب ١٩٥٦ ● رأيه فى الغزو البحرى (المتخلف) الذى قام به الأعداء لبورسعيد ● مقارنته بين موقف القيادتين العسكرية فى إسرائيل ومصر فيما بين حربى ١٩٥٦ و١٩٦٧● تميز المذكرات بنظرة الطائر على حرب فلسطين، إسرائيل لم تكتف بتأمين المساحة التى منحها لها قرار التقسيم وإنما اغتصبت أرضاً أخرى وضمتها إلى أرضها ● القوات المسلحة المصرية استأجرت لحملتها على فلسطين عربات من متعهد فلسطينى ● تلخيصه ما انتهت إليه حرب ١٩٤٨، تلخيصه لسير المعارك التى خاضتها القوات الإسرائيلية ضد مصر فى نهاية حرب فلسطين ● تفاصيل النجاح الذى حققته القوات البرية المصرية بقيادة اللواء أحمد فؤاد صادق متعاونة مع القوات الجوية بقيادة اللواء مصطفى شعراوى ● حديث المؤلف عن اهتمامات المذكرات الاستراتيجية ● نموذج لحديثه عن بعض زملائه الشهداء، فخره بأنه كان قائداً لأحمد حمدى.

الباب الرابع: أبطال الفرقة ١٩.. مقاتلون فوق العادة

● التعريف بصاحب المذكرات، تاريخه العسكرى والسياسى ● اعتزاز المذكرات بحرب أكتوبر: الحرب الوحيدة الحقيقية ● المذكرات تقتصر على الحديث عن دور فرقة واحدة من خمس فرق عبرت القناة ● الحديث عن جهود هذه الفرقة يعطينا فكرة [قطاعية]عن هذه الحرب المجيدة ● مقارنة المذكرات بين حربى ١٩٦٧ و١٩٧٣، على مستوى التخطيط، ارتباط القيادة العامة بالقيادات الميدانية ● أهمية التدريب فى تحقيق النصر: كانت حرب ١٩٧٣ تبدو وكأنها امتداد لإحدى المناورات التدريبية الضخمة التى كانت تتم فى مثل هذا الوقت، أحد المقاتلين تساءل فى أثناء الحرب: متى تنتهى المناورة؟ ● الإنجاز المتميز لخطط التدريب ساعد فى تحقيق الخداع والتمويه ● أمثلة لمجالات التدريب التى خاضتها القوات المسلحة: فتح الممرات، أعمال المدفعية، التحديات التى فرضها وجود خط بارليف، حديث المذكرات عن لحظات اقتحام خط بارليف ●حديث يوسف عفيفى بثقة عن فشل المحاولات الأولى لاقتحام خط بارليف، الجنود يستخدمون أجسادهم كما لو كانت سلماً يمكنهم من الصعود إلى الساتر: قصة تعرضه للغوص فى الطين فى السودان وكيف أفاد منها ● انفراد الفرقة ١٩ بالقيام بهجوم ليلى فى مساء يوم ١٠ أكتوبر ● حرص المذكرات على تصوير مصاعب حرب أكتوبر ١٩٧٣ بطريقة دقيقة: صعوبة الاستيلاء على النقطة ١٤٩، بطولة الشهيد محمد زرد: «لكن هذا البطل أبى إلا أن يكمل مهمته: حمل أحشاءه بيديه واقتحم النقطة مع رجاله! واستمر يقود المعركة وهو جريح ينزف حتى سقط الحصن واستسلم مَنْ فيه!» ● جهد الفرقة ١٩ فى تطوير الهجوم شرقاً صباح التاسع من أكتوبر ● بطولة العميد محمد الفاتح كريم قائد اللواء الثانى ميكانيكى، تسلق جبل المر على رأس مجموعة صغيرة وفتح الطريق إلى النصر ● معركة متلا: المقاتلون المصريون يقفزون بأنفسهم فوق دبابات العدو لينسفوها ● الاستيلاء على موقع المدافع الستة الضخمة التى كانت تقذف فى وحشية وشراسة مدينة السويس والزيتيات ● نجاح الفرقة ١٩ فى الاستيلاء على مركز قيادة العدو فى متلا، العدو يفر، وموجات العبور الأولى تشق طريقها وسط النيران، تصوير لحظات العبور الخالدة ● النجاحات المعنوية للقوات المسلحة المصرية فى مواجهة الدعايات الإسرائيلية: الشعور الطاغى حين رأت قواته الطائرات المصرية تغطى سماءنا ● ليوسف عفيفى العذر أنه لم يستطع تسجيل لحظات العبور على نحو مؤثر مع أنه يظن أن هذه الذكريات لن

تنمحى من وجدانه ● صاحب المذكرات يروى واقعة الإذن لأحد ضباط الشرطة العسكرية بالذهاب إلى منزله قبل المعركة بساعات ● المهام التى أنيطت بفرقته فى معركة ٦ أكتوبر، تنسيق دور الفرقة مع الفرق الأخرى، ●تصويره سيمفونية العبور ما بين الطيران والمدفعية والمشاة ● فرقته أسرت ٧٠٪ من أسرى الإسرائيليين خلال الحرب ● فرقته لم تنتظر الأوامر بالاندفاع بعد السادس من أكتوبر لكنها تقدمت من تلقاء نفسها: «لقد كنا مندفعين وحدنا»، كيف أنقذ المقاتل الديدمونى مركز قيادة الفرقة بإطلاق دانته على مقدمة القول المعادى ● حقيقة الدوافع إلى تدمير المدافع الستة الشهيرة، المشير أحمد إسماعيل هو الذى أرسل لجنة هندسية من القوات المسلحة لتدمير هذه المدافع، يوسف عفيفى لم يكن مع هذا الرأى ● موقفه من الأمر بتطوير الهجوم، تناقش مع قيادته محذراً من احتمال حدوث ثغرة يدخل منها العدو، روايته عن أن قائد الجيش الثانى الجديد أجل خروج لواءين: ولم يتحرك اللواء الثانى بينما تحرك اللواء العاشر ثم عاد ● جنود فرقته استمروا ٢٦ ساعة بعد عبورهم بدون دبابات وكانوا يتصدون بأجسادهم لطوابير الدبابات الإسرائيلية، وتكرر نفس الموقف يوم ١٢ أكتوبر على محور متلا ● قصة استيلاء الفرقة ١٩ على موقع عيون موسى، ذهبت دورية استطلاع من فصيلة واحدة فاصطدمت بالموقع ودخلته قواتنا فلم تجد فيه جندياً واحداً ● صاحب المذكرات يقدم وصفاً تفصيلياً لموقع لسان بورتوفيق ● صاحب المذكرات يعرض الأفكار الاستراتيجية بطريقة «إذا لم»، أهمية الاستيلاء على «حوض الدرس»، تفصيلات القتال الإسرائيلى ـ المصرى فى حوض الدرس، بطولة الشهيد العظيم محمد والى ● دبابة واحدة بقيت لنا لكنها ظلت شوكة فى حلق قوات العدو، وحرمته من معاودة الهجوم ودمرت من قواته الكثير● المعدية التى أنشأها مهندسو الفرقة ١٩ عند الكيلو ١٥٦ من أنقاض الكبارى المدمرة ● خطط الاستطلاع المصرية لأنابيب النابالم تقود إلى اكتشاف مصاطب مجهزة بالدبابات لمنع العبور ● رجال الاستطلاع التقطوا صوراً لكل معالم الخط وراء الساتر ● المذكرات تصور التجهيزات القوية والذكية فى خط بارليف، مرابض العربات، حقول الألغام ● ثلاثة خطوط من خطوط الدفاع النشط الإسرائيلية شرق القناة، أرقام دقيقة عن أعداد الملاجئ والحصون وأبراج المراقبة ونطاقات الألغام، ومواسير النابالم، كل مستودع قادر على أن يضخ ٢٠٠ طن ● التجهيزات الإسرائيلية فى خط بارليف لم تكن تقف عند حد

معين مـن التطوير وإنما كـان تطويرها يجـرى من آن لآخر ●حديثه عـن بعض التجهيزات الهندسية للحـصون المنيعة، الأسلحة المزودة بها ● جهود شارون في إقامة طرق عمودية على الطرق المواجهـة للقناة، تطويرات شارون لخط بارليف، ترسيخ الوجود الإسرائيلي ● مكانة خط بارليف فـى التاريخ العسكرى ● رأى يوسف عفيفي في الثغرة، يستشهد بـرأى الخبير العسكرى البريطاني أوبلانس ● صاحب المذكـرات يفضل وصف الثـغرة بأنها «معـركة الدعاية»، ظلـت القوات الإسرائيلية فى الثغرة تعانى، حتى فى محـاولتها رفع الروح المعنوية للإسرائيليين لـم تنجح إلا من خلال استغلال إسرائيلي وغد لانتهاكات وقف إطلاق النار في ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ ● المذكرات تستشهد بما كتبه الخبير الإسرائيلى زئيف شيف عن حصار السويس: مدينة مهجورة أم فوهة الأسد؟ ● رواية صاحب المذكرات عن وقف إطـلاق النار واختراقـاته، لـم يتمكن الإسرائيليـون من اكتســاب شبر واحد مـن الســويس أو الاقـتراب مـن محـاور المديـنة ● بعـض وقائع حـصار السويـس، العميد الكنزى يتـولى السيطرة على النواحي الإدارية ● بطولة الشهيد فاخر فخرى عبدالصمد فى التصدى للدفاع عن مدينة السويس يوم ٢٤ أكتوبر ● يوسف عـفيفي يـوضح موقفـه من الشيـخ حافظ سلامـة: قام بدور جلـيل لا أنكره، لكنه استغل هذا الدور وحوله إلـى دور عسكرى!! لم يقم بقيادة المقاومة الشعبـية كما يذكر البـعض، أصبح يمر علـى الجامعات ويلقى مـحاضرات عن المعارك، سألـنى الأستاذ أنيس منـصور: هل سجلت كلمـة مكتوبة لكى يـذيعها حافظ سـلامة ●المؤلـف ينقل فـقرة من كتـاب جمال حـماد عن حوار المحـافظ والقائد العسكرى للسـويس ● بعض صور للصمود المصرى فى السويس، اعترافه بأنه أجاد الرد على استفزازات الإسرائيلـيين لقواته المحاصرة في السويس ● سأله المشير أحمد إسمـاعيل: ماذا تفعلون يايوسف؟ وأجاب: «إن قـواتهم فى الشرق تضرب قواتنا بالمدفعية الطويلة المـدى ١٧٥مم وتستمر طلقاتهم بسبب عدم دقة التصويب فتصل إلـى قواتهم فى الغرب» ● عناصر سياسـة «الإشغال» التى كان لابد له أن يتبعها ● كتابة تـاريخ المعركة، رئيس أركـان الفرقة العميـد محمد صدقى حشمت جادو يتولى المهمة بدقة شديدة ● فكرة معرض الغنائم، تفكيك دبابتين ● قوات الفرقة تتـقدم فى مواقعها إلى نقاط أخـرى أكثر أمانا ● مواجهة مشكـلات الإمداد والتموين: تفاصيـل مشـكلة المياه، هـطول المطر من السـماء،

بحيرة تتشكل تكفي الجيش كله لمدة ١٥ يوماً، اكتشاف المياه العذبة فيما بين فوانه وبين الإسرائيليين، كيف يمكن لتصرفات المحاصر أن تكون غير متسرعة أو عصبية ● خطورة الحرب النفسية في مثل هذه اللحظات ● مشكلة الوقود، جمع الأعشاب الجافة من الوديان حتى أصبحت الوديان خالية من العشب ● العدو يلقى منشوراته وصاحب المذكرات يأمر بجمعها بأسرع ما يمكن ● يوسف عفيفي يستشهد بأقوال الإسرائيليين ● حرصه على تبرئة الشاذلي من المسئولية عن الثغرة، وإشادته بجهده الكبير في تنظيم تحركات القوات المسلحة في حرب أكتوبر ● يوسف عفيفي ينتهز الفرصة ليشيد أيضاً بجهد الفريق مدكور أبو العز ● ما يرويه يوسف عفيفي عن ذكرياته في حرب ١٩٦٧● كان قائداً للكتيبة ١٢ في الفرقة الثانية التي كانت بقيادة اللواء عبدالحليم عبدالعال ثم اللواء عثمان نصار، قطعنا سيناء كلها خلال ٢٠ يوماً من الكونتيلا إلى العريش إلى الكيلو ١٦١ بدون هدف محدد ● ما نكاد نصل إلى موقع حتى تصدر الأوامر بالتحرك إلى الموقع التالي، مع هذا بقى له دور محدد: كنا خط الحماية الذي انسحبت من خلاله قوات القسيمة، وصمدنا حتى اللحظات الأخيرة ● الطيران لم يكن المسئول الأوحد عن هزيمة ١٩٦٧، المؤلف يعلق على رأي صاحب المذكرات: يتحدث عن تقليل الخسائر لا عن النصر ● تجربته الشخصية مع الحشد: يبدو للمؤلف أنه يتحدث عما يسمى في رواية الفريق صلاح الحديدي: الفتح التعبوي ● ذكرياته عن الانسحاب من سيناء بعد حرب ١٩٦٧● تدهور مستوى التدريب في القوات المسلحة قبل حرب ١٩٦٧● عشوائية الحركة، تعبيره : لم يوجد وضع الثبات ● أقصى مستوى للتدريب كان على مستوى السرية ● يوسف عفيفي يتبنى رؤية السادات أن القوات المسلحة ظلمت في ١٩٦٧ ظلماً كبيراً ● العقيد محمد نبيه السيد انسحب من رفح إلى العريش سباحة ثم على ظهر جمل حتى وصل إلى غرب القناة ● بطولات لكتيبة يوسف عفيفي في حرب ١٩٦٧ ● فضل النقيب أحمد الزهيري: عادت كتيبتنا كاملة لم يفقد من ٩٠٠ مقاتل إلا ١٧ فرداً رغم السيادة الجوية للعدو ● الانفصال بين القيادة الرئيسية والقيادات الفرعية في حرب ١٩٦٧● نبذة عن تاريخ الفرقة ١٩، شهداؤها، أبطالها.

● التعريف بصاحب المذكرات، دوره في حرب أكتوبر، الحديث عن بطولات قادة حرب أكتوبر، الشهداء من بين هؤلاء القادة، استشهاد أحد قادة الفرق التسع، استشهاد خمسة من قادة الألوية المناظرين لعادل يسرى، ونائب سلاح المهندسين وقائد الفرقة الخاصة من قوات الصاعقة وقائد موقع كبريت ● المواقع القيادية السابقة التى تولاها عادل يسرى، عبدالمنعم رياض يسلم عليه بلقب: «الفاقد» ● التاريخ العسكرى لعادل يسرى قبل ١٩٦٨ لا تتناوله المذكرات، يبدو أنه اضطهد فى فترة سابقة شأنه شأن أحمد بدوى ● شأن كل المتميزين لقى من تقدير فى الخارج أكثر من التقدير فى الداخل ● اختير نائباً لرئيس الاتحاد الدولى للمحاربين القدامى، موقفه مع رئيس بنين ● أبلى لواؤه فى ١٩٧٣ بلاء حسنا، حقق إنجازات عسكرية وبطولية رائعة ● المذكرات نُشرت عام ١٩٧٤ بمقدمة قصيرة للمشير أحمد إسماعيل، المذكرات لقيت الاهتمام لكنها لم تلق الانتشار، صدرت بسعر مرتفع وكان واجب الدولة أن تخفض سعرها وتنشرها على نطاق واسع ● صاحب المذكرات حريص على تصوير الوقائع فى أدق صورة، ودون تبسيط أو شرح للمصطلحات العسكرية، يؤكد على معنى القيادة وأهميتها ● فقرة المشير أحمد إسماعيل فى تقديم الكتاب ● شجاعة المؤلف فى التعرض لموضوع رؤية الملائكة مع جنودنا فى ١٩٧٣ : كيف نراها والله سبحانه وتعالى قال: ﴿وأمدكم بجنود لم تروها﴾، لكنه رأى الملائكة فى صورة المقاتلين الشجعان الجسورين الذين حققوا المستحيل فى صورة العريف عمر، والملازم أول السعودى، وبطل نجمة سيناء سعيد خطاب و«عفاريت»عبدالجابر ● يروى قصة إصابته فى ساقه، العربة المدرعة التى تولت إخلاءه تتحرك به وهو يتذكر ما حدث، يستعرض أحداث ذلك اليوم: بعد ساعات قليلة استسلم اللواء الإسرائيلى المدرع ١٩٠ بالكامل، الإسرائيليون يصرخون: «المصريون كثيرون وكأنهم صينيون» ● النيران لا تزال مشتعلة فى الدبابات ● كان يضطر إلى الترجل حاملاً أجهزته اللاسلكية من أجل كشف مواقع أمامية، حرصه على إعادة توزيع قواته، تنظيم الاحتياطى تحت وابل من دبابات العدو تمطره هو ومن معه: «لن تصيبنى إلا الطلقة المكتوب عليها اسمى» ● الجندى يسأل: أشرح لك الموقف ياأفندم ● يعترف فى ثقة بالنفس أن

دبابات العدو نجحت في الالتفاف من اليمين ومن اليسار قبل أن ينجح هو وقواته في تنظيم الدفاعات، عقيدة جنوده بفضل التدريب أن: «دبابات العدو المحترقة بمثابة وجبة دسمة لرجال جائعين» ● يرى برقاً ويسمع رعداً ثم يفيق ليجد نفسه وقد فقد ساقه ●انتابني هدوء غريب كأنه السكينة على قلبي: «ما حدش يقف جنبي.. اللي بيحبني ياخذ بتاري» ● كل واحد من جنوده يفخر بأنه أصاب الدبابة، وهو يقول: كلهم صادقون، فقد أصيبت الدبابة بأكثر من سلاح ● انتصار الرجل على الدبابة، أعظم سلاح في المعركة كان الإنسان نفسه ● مع مغيب الشمس تنتهي معركة تدمير الدبابات، جنوده يبحثون له عن طبيب، الجرح تلوث وهو متماسك ● المقدم مدحت يبحث عن ساق عادل يسري حتى يجدها ويحضرها بحذائها ● يروي حياته العسكرية منذ ١٩٦٨، بدء الإعداد لمعركة ١٩٧٣، كان حريصاً على إعداد نفسه الإعداد الجيد لقائد متميز، بدأ يتعلم قيادة الموتوسيكلات من أجل الإسراع في لحظة العبور ● حديثه عن الأعمال الهندسية التي نفذها الجيش المصري على الضفة الغربية للقناة، المصاطب التي بنيناها، وصلت تكاليفها في قطاع الجيش الثاني وحده عشرين مليون جنيه، تفصيلات عن تكلفة المصاطب وكميات المواد التي استخدمت فيها ● التجهيزات الهندسية في لواء النصر، وحدات المهندسين هي آخر ما انضم إلى اللواء، الكباري والمركبات المائية، قوارب الاقتحام المطاط آخر ما تم صرفه ● التخطيط للمعركة تميز بالجدية والكفاءة والسرية المطلقة، تدرج التخطيط، تكديس كميات إضافية من كل المهمات ● على مستوى كتيبة الصواريخ أرض/ أرض تحتاج الوحدة النارية إلى ٥٧ لورياً كبيراً وتستهلكه في ٥ دقائق ● الإمداد الإداري للجيش الواحد يحتاج كل يوم إلى ألف لوري، واللواري تعبر الجسرين في ٨ ساعات متصلة للعبور ومثلها للعودة ● ما هو رأس الجسر، العبور بخمس فرق مشاة مترجلة تحت ستار نيران الطيران ووسائل الدفاع الجوي والمدفعية ● وحدات المهندسين تفتح الثغرات في السواتر الترابية، تطوير الهجوم ● بعد فرق المشاة الخمسة ٢ و١٦ و١٨ و٧ و١٩ تدفع الفرق الميكانيكية والفرق المدرعة إلى رءوس الجسور لتطوير العمليات في اتجاه المضايق ● استطاع إقناع قادته بفكرة استغلال البرمائيات مع الدبابات في العبور المبكر، الكتيبة العبقرية بقيادة المقاتل فراج تعبر إلى الشرق وتصبح بمثابة الجنزير الوحيد للجيش الثاني في الشرق لمدة ٨ ساعات ● مهمة لوائه أن يهجم مع

أسلحة دعمه في النسق الأول من علامة الكيلو ٩٠ عند سرابيوم حتى جبل مريم ● المؤلف يضيف: كانت الفرقة التي ينتمي إليها اللواء عادل يسري إحدى خمس فرق في الجيش الثاني وأربع فرق في الجيش الثالث ومن بين الفرق الخمس التي عبرت القناة ●الخطوط العريضة لخطة الفرقة ١٦ مشاة ولواء النصر ضمن الجيش الثاني ● إعادة تجميع القوات للهجوم، تركيز الهجوم في ١٠ كيلومترات بدلاً من ٥٠ كيلومتراً، التجهيز الهندسي، الخداع، السرية، كانت هناك عوامل تهدد نوايانا باستمرار ● عندما ينهار خط بارليف بأيدي أبطالنا البواسل ينتهز صاحب المذكرات الفرصة ليقدم معلوماته عن هذا الخط الحصين ● تصويره لحظة اقتحامه القناة، لواؤه بأكمله اقتحم القناة بعد ساعة زمنية واحدة من ساعة الصفر ● العناصر التي اعتمدت عليها إسرائيل في الحرب، صد الهجوم بالمدفعية والمدرعات ● كما قال الجمسي: «قللت المفاجأة من حجم خسائرنا في اقتحام القناة لكنها لم تقلل من ضراوة القتال» ● مقارنته خسائر إسرائيل في اليوم الأول للحرب بخسائرها خلال حرب ١٩٥٦ و١٩٦٧ والاستنزاف ● حديث عن تآزر جهود المهندسين والمشاة والدفاع المضاد للدبابات ● «ماراثون النصر»، سرعة الجنود تصل إلى ثلاثة كيلومترات في الساعة ● مع الموجات الأولى رفعنا علماً كبيراً لمصر وبالإضافة إلى هذا استخدمت الأعلام في خداع وتضليل العدو ● حديثه عن خط الدفاع الإسرائيلي الثاني على بعد ٨ كيلومترات شرق القناة ● معارك الالتحام ما بين الإسرائيليين وكتيبتي «علم» و«طنطاوي»: استشهد جعفر رامي الفهد بعد أن دمر دبابة للعدو ● حديثه عن الوقفة التكتيكية، العدو مجهز بأسلحة لا ينتهي إمدادها ولا يكف عن الهجوم بالليل والنهار ● قواتنا لا تكف عن التجهيز المتمكن: في خلال ساعتين تم رص ألف لغم مضاد للدبابات أمام مواجهة اللواء وألفاً أخرى على يميني.. إنهم المصريون ● سعادته بنجاح قواته في قتل أحد قادة المدرعات المتميزين، الجنرال ماندلر يصرخ قبل موته: لا تقتربوا من القناة ● أقام العدو في مواجهة المحور الأوسط ثلاث نقط قوية بإمكانات مذهلة، يظهر تعجبه من وجود الملابس الداخلية النسائية وينسى أن إسرائيل تجند الفتيات ● قصة السيطرة على النقطة القوية ٥٧ ● مدى صعوبة المعارك التي خاضتها دباباتنا ومدرعاتنا، فقد العدو ٦ دبابات يوم ٩ أكتوبر لكنه تمكن في اليوم التالي من الحصول على سرية دبابات كاملة يهاجم بها منذ السادسة

صباحاً ● تمكن المصريون من دحر الهجوم بفضل عبقرية المقاتل المصرى فراج ● انبهار صاحب المذكرات بأبطال الدفاع الجوى، طائرتان تسقطان بصاروخ واحد ●كان يرى الصاروخ المصرى قبل أن يسمع صوت انفجار الطائرة، المباريات بين الصواريخ والطائرة، إشادته بنسور الجو المصريين ● حديثه عن خطة تطوير الهجوم، رأيه أنه ربما فاقت خسائر العدو خسائرنا فى تطوير الهجوم، لكن العدو كان قد بدأ يستعوض أسلحته بأسلحة أحدث منها ● تأكدت القيادة المصرية فى نهاية اليوم من عدم جدوى تطوير الهجوم لكن خسائر الدبابات بدأت تحول المبادأة لصالح العدو● قررت إسرائيل تنفيذ الثغرة مهما كلفتها من تضحيات ● أسباب نجاح الثغرة فى رأى عادل يسرى، لماذا انسحبت إسرائيل من الثغرة بسرعة؟ ● عودة إلى ما قبل حرب ١٩٧٣، لم يشارك فى حرب ١٩٦٧.. كان فى الخارج، فى أول عام ١٩٦٨ عين رئيساً لاستطلاع الفرقة ١٨ مشاة ● شكلت هذه الفرقة لتكون مدرسة جديدة للقوات المسلحة فى التدريب على اقتحام الموانع المائية بجنود ذوى نوعية خاصة، دراسات ومراجع عن الاقتحام ناقشتها القيادات وعلى رأسهم الفريق عبدالمنعم رياض ● مراحل تدريب الفرقة ١٨ ● المشروعات التدريبية، عبدالناصر يقول بعد خروجه من الفرقة إنه لأول مرة استمع إلى نتائج واقعية وحقيقية لمستوى تشكيل فى القوات المسلحة ● يروى قصة إصابته فى رأسه فى أثناء عودته من مشروع تدريبى وهو يظن أنه كان يحلم ● فخره بأنه تولى رئاسة الكتيبة السابعة مشاة ذات التاريخ العريق، كيف أمكن له التعرف على أفراد الكتيبة وتقييمهم من خلال حصر شامل ● التدريبات الحية بالكتيبة فى بورسعيد ● حرصه على رواية تشجيع عبدالمنعم رياض له: بلاش تهور! ● مش تترك غيرك ياعادل يحكم عليك ● محاولته إقامة كوبرى يربط جزيرة البلاح بالضفة الغربية، لم نعمل الكوبرى لأن البراطيم أخذت منى لأغراض أهم ● الإعداد الدينى والرياضى لأفراد كتيبته، الكتيبة التى أخذت الكأس فى الرياضة كانت أحسن كتيبة فى المعركة الحقيقية ● أهمية مبدأ التدرج فى التدريب ● فقرات تصور الشعور النفسى بعد حرب ١٩٦٧، قصة اللافتة الكبيرة التى وجدها فى نقطة «التينة» القوية ● الجندى الإسرائيلى ينادى عليه ويهزأ به، عادل يسرى يعقب: «وغلى الدم فى رأسى.. ولم أردّ.. لكننى دعوت الله أن يسمح لى بالهجوم على هذا الموقع» ● رغم كل هذا يشير فى أدب إلى المرارة التى كانت ترسب

في نفسه من الشعور المعادى للقوات المسلحة عند بعض أفراد الشعب بعد هزيمة ١٩٦٧: نظر إليه الطلاب فى خجل وقالوا له: ارجع أحسن باقى الطلبة يكسروا لك عربيتك! فسألت: ليه؟ قالوا: علشان أنت ضابط ● مصاعب الحياة فى الميدان، الفئران المتوحشة لا تخاف القطط ولا تتأثر بالسموم وتمشى صفاً واحداً ● حرصه فى أكثر من موضع على التعريض بالمستشارين السوفييت، فى رأس العش لم أكن أراهم إلا مرتين فى الأسبوع وتنتهى الزيارة بالغداء وشرب الشاى.. كانوا يقولون بالعربية المكسرة: فرخة كبيرة مشروع ممتاز، فرخة صغيرة مشروع زفت ● هناك ضباط سوفييت على مستوى رفيع لكن أغلب الذين رأيتهم فى مصر كانوا دون المستوى ● فى لواء النصر تركوا وحداتهم وناموا فى العربات، سأل المستشار السوفيتى للكتيبة ٥ عن اسم المنطقة الموجود فيها ملجؤه فلم يعرف رغم وجوده منذ أكثر من عام ● مشاعره العروبية وذكره فضل مشاركات الوحدات العربية من الكويت وفلسطين والجزائر والمغرب والسودان فى حرب أكتوبر● لن أنسى القائد جاسم شهاب، الشهيد الرائد عبدالله الجيرار، النقيب يوسف عبيد ● يروى باعتزاز اتصاله بالجبهة السورية ● حديثه عن الرعاية التى قدمت له بعد إصابته: فوجئت بالمشير أحمد إسماعيل يعلم عنى أكثر مما أتوقع، وقفت جيهان السادات بجوارى ساعة قبل أن أفيق من أول عملية جراحية أجريت لى، وحضرت بنفسها أربع عمليات جراحية لى، الجندى عبدالنبى يزوره فى المستشفى رغم أنه مصاب ببتر فى ساقيه ● رئيس الأركان يسأله: ماذا فعلت لجنودك؟ ● كبار قادتنا يعلمون عنه كل شىء.

النصر الوحيد

من نعم الله الكثيرة علىّ أن هيأ لى مَنْ يتفضلون علىّ بقراءة التجارب المطبعية لكتبى قبل إصدارها، وقد حظى مخطوط الكتاب الذى بين أيدينا بقراءة أربعة: الناشر والمصحح، وصديق عزيز، وزميل طبيب، ومن الطريف أن جميعهم بلا استثناء ومن قبلهم مَنْ قاموا بصف حروف هذا الكتاب، نبهونى إلى خطأ لم يكن خطأ، ورأوا جميعاً صواباً له لم يكن صواباً.. أما هذا الموضع الذى احتمل هذه الرؤية فهو ما يرويه قادة حرب أكتوبر من أن الرئيس السادات فى حديثه إليهم قبل الحرب طلب منهم الانطلاق إلى الحرب وبذل جهدهم حتى لو لم يكن فى إمكانهم بما فى أيدينا من قدرات إلا تحرير عشرة سنتيمترات فقط من سيناء!! وقد رأى جميع مَنْ قرأوا تجارب هذا الكتاب أن يصححوا لى تمييز العدد وظنوا أن صواب الرواية: عشرة كيلومترات، ولم يكتفوا بأن يسجلوا هذا على البروفة المطبعية، ولكنهم جميعاً رأوا أن يحدثونى فى هذا الخطأ الفظيع بمجرد اكتشافهم له، وقد تكرر هذا بحذافيره مع الأربعة.. ومن المذهل أن تمييز العدد لم يكن خطأ وإنما كان بالفعل عشرة سنتيمترات(!!) ولم يتحدث الرئيس السادات عن كيلومترات ولا حتى عن أمتار أو ياردات..

وأظن أن هذه القصة الطريفة وحدها تبين لنا بكل وضوح كم كانت المعركة التى

خضناها فى أكتوبر ١٩٧٣ صعبة ومستحيلة، وكم كان انتصارنا فيها رائعاً ومذهلاً.. ومع هذا فلا يزال هذا النصر الوحيد المجيد الساحق يتعرض لافتراءات لا نهاية لها، وأغلب هذه الافتراءات توجه للنصر لأن الذى حققه هو الرئيس السادات، وبلغ الافتراء حد الفصل بين القائد والنصر، وبين الرئيس والجيش، وبين القرار وما تحقق نتيجة للقرار.

❑

ليس من شك أن نصر أكتوبر ١٩٧٣ كان بمثابة النصر الوحيد فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر كله، وليس من شك فى أن هذا النصر نفسه لم يتأت لنا إلا من دروس الهزيمة الأولى والثانية و الثالثة، ومن جهاد وتدريب وتجريب حرب الاستنزاف، ومن الآلام والعبر التى صاغت تجربة ثرية فى حياة أمة خالدة فرضت عليها الظروف أن تبتعد عن الجهاد لفترة من الزمن، فلما عادت إليه لم تحقق النصر من أول جولة لكنها فى النهاية حققت هذا النصر باقتدار شديد.

ولكن حظ هذه الأمة مع النصر نفسه شابه بعض العبث والعنت، ولم يكن هذا إلا نتيجة لعدة عوامل تضافرت لتقلل من إحساس المنتصر بنصره على نحو لم يسبق فى تاريخ الإنسانية.

فقد كانت الشمولية البغيضة قد أرست ورسخت فى أذهان الناس نسبة الـ ٩٩٪ على الأقل لكل نجاح، وهكذا كان الناس يتصورون أن النصر المطلوب لا يتوقف على إزالة عدوان ١٩٦٧ فحسب لكنه لابد أن يمضى للقضاء على إسرائيل نفسها ليرمى بها فى البحر هى ومن يساعدها من دول العالم مهما كان قدره، وظلت التصريحات والدعايات والخطب العصماء تزايد فى حجم الانتصار المتوقع حتى رسمت فى الأذهان صورة ضخمة للآمال يتضاءل أمامها أى انتصار قابل للتحقيق.

وعلى حين كانت الخطابة تمضى فى سبيل المزايدة إلى هذا الحد، كان قادة القوات المسلحة المصرية أنفسهم يعرفون حدود ما هو ممكن، وحدود ما هو مستحيل.

وسنقرأ فى هذه المذكرات كيف كان الفريق الشاذلى يختلف تمام الاختلاف مع الفريق أول صادق منذ الشهور الأولى لتوليهما منصبيهما الكبيرين فى حدود ما نحن قادرون عليه بقواتنا المسلحة وإمكاناتها المتاحة، كما سنقرأ فى مذكرات المشير

الجمسى كيف أن أحمد إسماعيل وهو مدير للمخابرات سأله حين لقيه فى المطار بالصدفة : متى تحاربون ياجمسى؟ وأن الجمسى أجابه : عندما تعين أنت وزيراً للحربية، وحين عين أحمد إسماعيل وزيراً بعد شهور واجتمع بالشاذلى سارع رئيس الأركان ليذكر الوزير بتقرير المخابرات العامة حول شكل المعركة القادمة، وهو ما كان يتفق تماماً مع رأى الشاذلى نفسه ومع إمكانات القوات المسلحة المتاحة حين كتب أحمد إسماعيل التقرير. وهنا أضاف الشاذلى لأحمد إسماعيل قوله: إن إمكانات القوات المسلحة طيلة هذه الشهور ظلت على نحو ما كانت عليه، ولم يطرأ عليها تغيير جذرى..

ومن هذا المنطلق وضع هؤلاء القادة الثلاثة بالتعاون مع رؤساء الأفرع الثلاثة للقوات المسلحة: محمد حسنى مبارك ومحمد على فهمى وفؤاد أبوذكرى، رؤيتهم فى خطط كانت هى التى قادت إلى النصر العظيم الخالد الذى تحقق.

❑

هكذا كان قادة القوات المسلحة قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ يعرفون حدود ما هو ممكن من حرب وما هو غير ممكن من الحرب، ومن حسن الحظ أن الرجلين اللذين توليا رئاسة الأركان كتبا هذا بكل صراحة وبكل عمق فى مذكراتهما التى نعرضها فى البابين الأول والثانى من هذا الكتاب، وقد أفاضا فى شرح هذه المعانى بكل وضوح وبكل نية صادقة، وبكل إخلاص، حتى إننا عندما نطالع لهما الحديث عن جزئية تطوير الهجوم نجد الشاذلى ـ الذى نسب إليه فى وقت من الأوقات الاندفاع والحماس فى تطوير الهجوم ـ يتحفظ تماماً على هذه الفكرة أثناء العمليات، وحتى على وجودها عند التخطيط لأنه كان يعرف مخاطرها، بل ويقدم لنا نص الخطة الذى تضمن هذا الهدف واصفاً إياه بأنه نص غير ملزم وغير محدد التوقيت، ونرى فى ذات الوقت المشير الجمسى الذى اشتهر بأنه صاحب الخطة وكشكولها يهمس فى أذن زميله بأنه مهما كان من تحفظه على فكرة التطوير فإنها أقرت، وهكذا أصبحت ملزمة لجميع القادة.

إلى هذا الحد كان هؤلاء القادة العظماء جميعاً يذوبون إخلاصاً وانتماء لهذا الوطن، ومن قبلهم القائد الأعلى العظيم، وكل واحد منهم يمثل الرجل الشجاع الجسور الوطنى المخلص، ثاقب الفكر والنظر، واسع الأفق، بعيد الرؤية.

وليس معنى هذا ألا تحدث أخطاء، والعسكرية فى النهاية مهنة تجوز عليها أخطاء المهنة على نحو ما قد نخطئ ـ ونحن أساتذة فى كليات الطب ـ فى التشخيص وفى العلاج وفى قرارات تتعلق بأرواح البشر، ونتألم لأننا أخطأنا، ونحاول أن نصلح خطأنا، لكننا لا ننتحر، ولا نعتزل المهنة، ولا نرمى غيرنا بالخطأ، إنما يأتى الخطأ الأكبر إذا ما كابرنا فى الخطأ، وإذا مضينا فى السبيل الخطأ حتى لا يقال إننا أخطأنا، ويأتى الخطأ الأكبر إذا ما ظننا أنفسنا معصومين، أو طلبنا من غيرنا أن يكونوا معصومين، ويأتى الخطأ الأكبر إذا ما قصرنا رؤيتنا على جزئية واحدة وتركنا الجزئيات كلها، وإذا انتبهنا إلى علاج نزيف موضعى، وتركنا النزيف الكبير.

❑

وفى حرب أكتوبر العظيمة كان الخطأ وارداً، وكان القصور وارداً، ولو أن أحدنا رسم بالمسطرة خطاً على ورقة فسوف يجد أن بعض نقاط هذا الخط أضعف من بقيته، ولم يكن فى وسع القوات المسلحة أن ترسم خطا من البشر والمعدات على طول مائتى كيلومتر بحيث لا يكون فيها كلها ثغرة ولا ثغرات.. لكن الروح السابقة التى تمكنت من نفوسنا ـ روح الانخداع فى إمكان أن يكون كل شىء ٩٩٪ على الأقل ـ صورت الأمر وكأنه كارثة، على حين كانت الثغرة فى رأيى نوعاً من المكاره التى وصفها القول المأثور «كم لله من منن فى طى المكاره»، ولولا انحصار الإسرائيليين فى الثغرة ما اهتمت أمريكا ولا كيسنجر ولا إسرائيل بفض اشتباك ولا بمحادثات سلام، ولبدأت من جديد فى تقوية خط من الخطوط الموازية لخط بارليف على طول سيناء لتكرر فينا ما فعلته من قبل.

ومن الإنصاف أن أعترف أنى أقول هذا بينما خبرتنا بإسرائيل وبالقرار الأمريكى وبالمعارك السياسية والعسكرية والاستراتيجية قد تنامت إلى حد أصبحنا نفهم فيه بوضوح آليات التحرك على مستويات هذه الجبهات.. ونحن نرى التفاوض من أجل التفاوض وقد أصبح بمثابة إنجاز يستحق الذكر فى أخبار المسارات المختلفة الآن لكن الصورة لم تكن أبداً بهذا الوضوح فى أثناء اندلاع هذه الحرب وانتهائها إلى ما انتهت إليه يومها.

وإنى أعلم أن فئة ممن سيقرأون هذا سيتهموننى بالوهم، وأن فئة أخرى ستتهمنى

بالخطأ في الفهـم، لكن ظني أن هؤلاء وأولئك قادرون على أن يتـأملوا ما حدث على جميع الجـبهات والمسارات منـذ ذلك اليوم الأغر وحتى الـيوم الذى أصبحنـا فيه فى مطلع ألفية ثالثة.

وليس من شـك أن الجيش المصرى قد قاتل فـى الثغرة على أروع ما يكـون القتال وأنه حقق فيها كثيراً جداً من المعجزات التى غاب عنها التقدير بسبب التفكير بطريقة الـ ٩٩٪، ويكفيـنا للتدليل على عـظمة الأداء المصرى فى الثغرة أن أشـير إلى ما أشار إليه موشى ديان نفسه فى مذكراته من أنه كـاد يقتل يوم ١٩ أكتوبر وهو يحاول العبور إلى غرب الـقناة ويكـفينى أيضـا أن أشير إلى أن لـواء مظليا واحـداً تمكن من حـماية مديـنة الإسمـاعيلـية ودحرهـجوم شارون، ويكـفينـى تصويـر الشاذلـى نفسـه (رغم اعتراضـه عليه) أن الجـيش الثانـى حارب معركة الـثغرة ولـم يـكن لديه دبـابة واحدة غرب القناة وجنوب ترعة الإسماعيلية ويكفيـنى ثالثا بطولة المصريين القناصين الذين استدرجوا الإسرائيليين إلى السويس ودمروا لهم ٢٢ دبابة من ٢٤ دبابة.

ومع أنى لا أقاوم التـوقف عن هذا الحديث إلا أنى لا أظن أن مقدمـة هذا الكتاب تتسع لكل هذا الاسـتطراد الذى أردت به فـقط أن أبين عـن الجو العام الـذى حكم كتـابة هـذه المذكرات بـكل ما فـيهـا وبكل مـا لبس فيهـا من حديـث عن بـطولات وانجازات لـم نع قدرها فى وقتها وربما لـم يع مـعظمنا قدرها حتى الآن ولكنى واثق أن يوماً سـيأتى لتكون الـثغرة فى حد ذاتهـا نموذجاً للمـلحمة العظـيمة التى شارك فـيها كثيرون انشغلوا دون قصد بأن ينفوا عن أنفسهـم تهمة التسبب فيها، ويكفينى فى هذا أن أذكر أن رئيـس الأركان بنفسه قـضى ٤٤ ساعة فى قيـادة الجيش الثانى وأن الـقائد الأعلى حضر أكثر مـن اجتماع وناقش واستمع وقرر وأن قادة الفـرق والألوية قاتلوا بأنفسهم، وأن كل من اتيح له أن يكون فى مـسرح المعارك لم يبخل على وطنه بروحه وبأقصى جهده.. ولكن المـتاح للعدو فى هذه المعركة كان أكثر مما يـتخيله عقل، وقد كان فى رأيى المتواضـع شبيها تماما بالتدخـل الأمريكى فى الحرب العالمية الـثانية حين وقفت بما وقفت به لتتحول دفة الحرب لصـالح الحلفاء فى سرعة وقسوة، ومن حسـن الحظ أن التدخل الأمريكى فى ١٩٧٣ لم يتح لأمريكا ولإسرائيل عشر معشار ما تحقق للحلفاء فى الحرب العالمية الثانية لسبب واحد فقط وهو أن الأداء المصرى كله كان قد رزق من توفيق الله قدراً لا نهائيا.

وقد نشر عادل يسرى مذكراته فى ١٩٧٤ قبل أن تضع الحرب أوزارها، ونشر الفريق الشاذلى مذكراته قبل أن يموت السادات، ونشر الجمسى ويوسف عفيفى مذكراتهما فى نهاية الثمانينيات، وقبل أن تتضح الصور التى أصبحت جلية ظاهرة أمام الجميع.

❑

وسوف ترينا هذه المذكرات كيف كان العبور عملاً عظيماً، وكيف كان ما بعده عملاً شاقاً، وكيف أن المصاعب التى واجهها جنودنا وقادتنا لم تنته، وإنما كانت تتضاعف على يد عدو متترس بكل ماهو ممكن من سلاح، فضلاً عن جسر جوى وبحرى لا ينقطع بزوده بأسلحة أكثر وأكفأ وأحدث مما يفقده، بينما اضطرتنا الظروف القاسية إلى أن نحارب، والبحر من خلفنا دون أن يكون لنا قدر كاف من الاحتياطى، لأن كل ما عندنا كان يكفى بالكاد لتحقيق هذا الإنجاز العظيم : «النصر الوحيد».

ومع أن هذا الكتاب ليس هو الكتاب الذى أتمنى أن أضعه عن هذه الحرب العظيمة، ومع أنى أحب للقارئ ألا يقرأه على هذا النحو، لأن الحرب نفسها أكبر وأعظم بالطبع من المذكرات، وأعظم وأكبر بالقطع من مذكرات خمسة فقط من القادة، إلا أنى واثق أن هذا الكتاب سوف يرتقى بالصورة الذهنية المتاحة فى أذهاننا جميعاً عن حرب أكتوبر المجيدة، لتقترب الصورة خطوة أخرى من الحقيقة بفضل ما يتكشف لنا عملاً بعد عمل، ويوما بعد يوم.

❑

وسوف تطلعنا فقرات الكتاب الذى بين أيدينا على كثير من المعلومات الدقيقة والخطيرة والصادقة والكفيلة بأن نتفهم وجه الصواب فى أمور جدلية كثيرة لا تزال تطرح على بساط البحث آناً بعد آخر وهى تُطرح فى بعض الأحيان لأغراض أخرى غير الحق والحقيقة.

ومن حسن الحظ أن المذكرات التى بين أيدينا قد تكفلت بإضاءة نقاط الخلاف إضاءة واعية، لكن من سوء الحظ أننا فى كثير من الأحيان نأبى أن نمضى فى الطريق المضيء زاعمين أن الضوء الذى فيه صناعى وأننا لابد أن نبحث عن ضوء طبيعى.

ومن العجيب أن بعضنا لا يزال يتصـور أن ضوء الكهرباء وضوء البترول صناعى بينـما هو قبس مـن الطبيعـة نفسها! وهذا تـقريباً هو جـوهر موقف الذيـن لا يزالون يظنون أن جيشنا كـان كفيلاً بالقضاء على الثغرة لو أنـه حرك لواءين أو ثلاثة أو أربعة من الـشرق إلى الغـرب، أو أن تطويـر الهجوم كـان ينبـغى أن يتـم منذ الســادس من أكتوبر نفـسه، أو منذ السابع أو الثامن أو الـتاسع على أقصى تقديـر وما إلى ذلك من دعاوى يستسهل مروجوها أن يطلقوها دون أن يدروا حقيقة الإنجاز، وما بذل من أجله من جهد جبار حرك الجبال الرواسى، وشق الصخر القاسى.

وتنـبهـنا المذكـرات التـى بيـن أيدينـا إلى أن مـصاعب الحـرب لا تقـف عنـد حد التوقعات، لكنها تتعداها إلى ما لا قبل للنفس البشرية بمواجهته إذا لم تكن قد فرطت تماماً فى حرصها علـى وجودها من أجل استبقاء الحياة للوطن كـله، ونحن نرى كثيراً من الانتصارات تتحقق عـلى غير المتوقع،كما نرى كثيراً من العقـبات تنشأ على حين فجأة ، وأحياناً ما تكون المقدمات غير متفـقة مع النتائج، ومن عجائب المفارقات على سبيـل المثال أن فرقتـى الجيش الثـالث (٧ و١٩) كانتا سـتعبران علـى كوبريـن، لكن الفرقـة السابعة اضـطرت إلى أن تستخـدم كوبرى الفرقـة ١٩ بعد أن استحـال إقامة المعبـر الخاص بعبـورها، ومع هذا فإن الجـيش الثانى ـ وكـان يضم ثلاث فـرق مشاة عبرت جميعاً ـ كان هو الجيش الذى شهد حدوث الـثغرة فى منطقته، ولست أسـتطيع أن أعدد نماذج من هذه المفارقات فى هذه المقدمة التى طالت على الرغم منى.

❑

ومن حسن الحظ أن هـذا الكتاب يتضمن مـذكرات رئيسى الأركان اللذيـن توليا هذا المنصب فى هذه الحرب المجيدة، أحدهما لم يكن رئيساً للأركان فحسـب بل كان رئيـس هيئة الـعمليـات منذ ما قـبل الحرب بـواحد وعشريـن شهراً، وأصبـح وزيراً للحربية بعد الحرب بأربعة عشر شهراً، وقبل هذا فقد كان هو نفسه رئيس العمليات فى قيـادة الجبهة فـى أثناء حرب ١٩٦٧ ، كمـا يضم هذا الـكتاب مذكـرات أحد قادة الجيوش، وهو اللواء عبدالمنعم خليل قائد الجيش الثانى فى آخر أيام الحرب، وقد كان قائداً لهذا الجيش من قـبل ،وفى بداية الحرب كان قائداً للمنطقة الـعسكرية المركزية واستدعى لقيادة الجيـش الثانى بعد مرض قائده اللواء سعد الديـن مأمون، كما يضـم هذا الكتاب مذكرات أحـد قادة الفرق الخمس التى كلفت بعبـور قناة السـويس، وهو

اللواء يوسف عفيفى قائد الفرقة ١٩، الذى تولى فيما بعد قيادة الجيش الثالث نفسه، كما يضم الكتاب مذكرات أحد قادة الألوية، وهو اللواء عادل يسرى قائد اللواء ١١٢ الذى كان يتبع الفرقة ١٨ التى تتبع الجيش الثانى.

هكذا أتيح لهذا الكتاب بفضل الحظ الحسن أن يضم من مذكرات القادة مذكرات رئيسين للأركان، ورئيس هيئة العمليات، وقائد جيش، وقائد فرقة، وقائد لواء، وهكذا تمثلت المستويات المتعددة للقيادة العسكرية في هذه المذكرات التى يضمها هذا الكتاب، ولكن هذا الكتاب للأسف الشديد لا يضم شيئاً من مذكرات القادة السوريين العظماء الذين شاركونا هذا النصر العظيم، وإنى لأدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى عن قريب إلى تلافى هذا التقصير.

❑

وليس من شك ـ بعد هذا ـ فى أن هناك مذكرات أبلغ تعبيرا وتأثيرا من هذه المذكرات التى نناقشها اليوم، فهناك مذكرات الشهداء الأحياء عند ربهم، الذين يطلعون علينا اليوم، ونحن نرى بعض الحقيقة، بينما هم قد أدركوا الحقيقة كلها وأدركوا المجد كله، وأدركوا الخلود كله، وأدركوا النعيم كله، وهم يطلعون علينا ونحن فى هذه الحيرة فيتمنون لنا ـ شأن كل الشهداء ـ أن نلحق بهم لننعم بما ينعمون به، وهم يرون فى الحروب التى خاضوها لنا ومن أجلنا أعظم ما فى هذه الحروب وأروع ما فيها، وهو ذلك الاستشهاد الذى لا يعدله فى الدنيا ولا فى الآخرة شىء آخر.

وليس من شك أيضا فى أن هناك مذكرات أخرى أبلغ تأثيرا من هذه المذكرات التى نقرأها مع بعضنا اليوم، تتمثل هذه المذكرات مكتوبة بصورة حية فى المحاربين القدامى أولئك الذين أنعم الله عليهم بالابتلاء فى ساحة الشرف، ونحن قد نراهم بيننا من حين لآخر، وقد ضحوا ببعض من أجسادهم الأرضية ليرتفعوا بأرواحهم التى يعيشون بها بيننا، فيجمعون إلى ثواب التضحية ثواب الصبر على ما ابتلاهم به الله سبحانه وتعالى فى هذه الحروب وبعدها. ومن فضل الله على هذا الكتاب أن الباب الخامس يتناول مذكرات واحد من قدامى المحاربين المصريين العظماء.

وليس من شك أن هناك مذكرات أخرى كانت فى حاجة إلى أن تسجل، ولكن أصحابها آثروا أن يضنوا بجهد تسجيل الانتصار على هذا التسجيل، وبذلوا هذا

الجهد فى صناعة الانتصار نفسه ليكون أقوى وأخلد وأكثر تعبيرا عن نفسه. وسنجد آثار إنجازات هؤلاء أكثر سطوعاً من كل محاولات التقاط المجد للذين لم يصنعوه.

على أن هذه المذكرات التى يوحى بها الاستشهاد وإصابات الحروب والانتصار فى المعارك تبقى فى حاجة إلى كثير من التسجيل حتى يطلع عليها مواطنونا الذين لم يتح لهم أن يشاركوا فى هذه الحروب، أو فى جوها، أو فى الأيام المجيدة التى عشناها فى أثناء وقوعها.

❑

ومن العجيب أن هناك جيلا كاملا من أبناء هذا الوطن قد عاش كل الحروب المتوالية بدءا من الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) ثم حرب فلسطين (١٩٤٨) وحرب ١٩٥٦ وحرب اليمن (١٩٦٢ ـ ١٩٦٨) وحرب عام ١٩٦٧ والاستنزاف (١٩٦٧ ـ ١٩٧٠) وحرب ١٩٧٣، وأن جيلا تاليا لم يتح له إلا أن يطلع على معقبات حرب ١٩٧٣ فحسب.. ولا يستطيع أحد أن يزعم أن جيلا من الجيلين كان أكثر حظا من الجيل الآخر.. ولكن هذه المذكرات تستطيع أن تثير فى نفسيات كل فرد من الجيلين مشاعر متناقضة تجاه ما رآه، وتجاه ما لم يره.

فهذه إذن مذكرات أمة انتقلت فى ربع قرن فقط (١٩٤٨ ـ ١٩٧٣) من دولة تندفع بلا خبرة إلى حرب سهلة فى تصورها فتفقدها تماما، إلى دولة أصبحت فى وضع حرج لا يمكن لها معه أن تتمتع بحق مواصلة الحياة إلا أن تمضى قدما وبدون تردد إلى حرب غاية فى الصعوبة والاستحالة فإذا هى تمضى إليها بكل ما استطاعته من استعداد ودراسة وشوق إلى النصر فتكسبها تماما..

ولم يكن هذا بالطبع إلا نتيجة ظروف غاية فى القسوة أتاحت لها الدرس نفسه مرة ومرتين وثلاثا حتى صهرت معدنها ووصلت به إلى أن يكون كما كان فى أزمنة غابرة أنفس المعادن، على نحو ما روى عن رسول الله (ﷺ) حين وصف شعبها بأنهم خير أجناد الأرض.

وفيما بين الروحانيات السامية والمتسامية، والوقائع الدانية والمتدنية كان أصحاب هذه المذكرات يعيشون أياما متتالية، وخبرات متوالية، وتجارب متناقضة، ولم يكن يدور بخلد واحد منهم على الإطلاق أن يتنبأ بكل ولا ببعض هذا الذى خبروه فى حيواتهم القصيرة، لكنهم كانوا مرة ثانية يواجهون القدر القوى القاهر الذى لم يكن

أمامهم إلا أن يذعنوا لـه وهم ينتصرون، وأن يذعنوا له أيضا ـ من قـبل ـ وهم يتلقون الهزيمة.

❑

ولقد كنت أتمنى أن تكون هناك مذكرات أخرى لقادة آخرين من قادتنا العظماء فى حرب أكتوبر، لـكننى للأسف أعلن أنـنا مقصرون فى أن نجرى وراء هؤلاء يـوماً بعد يوم حتى يكتب كل منهم ما اطلع عليه من بعض جوانب هذه الملحمة العظيمة.

❑

ومن المهـم أن أذكر أن هذا الكتـاب لا يضم الحديـث عن مذكرات كمـال حسن على قائد سلاح المـدرعات فى حرب أكتوبر المجيدة، وقد نـشرت عن هذه المذكرات الباب الأول مـن كتابى «مذكرات وزراء الـثورة» بحكم احتـوائها على أبواب كـثيرة تتعلق بالدبلوماسية، والأمن القومى، وبالنصر العظيم، وبرئاسة الوزارة.

وعلى كل الأحوال فإن من حسن الحظ أن أغلب قادتنا لا يزالون يعيشون بيننا وإن كان المـوت يختـطفهـم واحداً بعد واحـد، وقد فجـعت وأنا أراجـع آخر التـجارب المطبعية لهذه المقدمة ـ وهى آخر ما فى هـذا الكتاب ـ بوفاة أحد قادة أكتوبر العظماء وهو البطـل العظيم الفريـق فؤاد عزيز غالى، الذى أبلـى أحسن البلاء حتى اسـترد لنا مدينة القنطرة من مخالـب العدو.

ومن حـسن الحـظ أن صحافـتنـا تحفل بـكثـير من الأحـاديث الـصحفـية وأشـباه المذكرات مع عدد كبيـر جداً من هؤلاء القادة العظماء الذين شرفت بمـعرفة بعضهم فعرفت فيهم الفضل والعظمة والإنسانية فى أروع صورها.

وقد كانـت آخر مناسبة كبرى للحـديث عن هذه الحـرب تلك الاحتفـالات التى أقيمت بمـناسبة مرور خمسـة وعشرين عاماً على الحـرب والندوة الاستراتيجـية التى نظمتها وزارة الدفاع عام ثمانية وتسعين (١٩٩٨).

❑

ومن المـهم فى التـقديم لـهذه المذكرات أن أذكـر شيئاً يـتعلـق بقرارات الرئـيس السـادات باختـيار قادتـه، وكلنـا نعرف أن المـشير أحـمد إسماعـيل الذى عهـد إليه

السادات بمنصب القائد العام كان قد أحيل للتقاعد بعدما وصل إلى منصب رئيس الأركان فى عهد الرئيس عبدالناصر، لكن السادات اختاره ليكون قائداً عاماً للقوات المسلحة فى هذه الحرب المجيدة، وحين عاد أحمد إسماعيل إلى القوات المسلحة لم يكن فيها من هو أقدم منه، ولم يكن تعيينه فى هذا المنصب طفرة ولا استثناء.

ولكن الأمر الجدير بالنظر يتعلق بالفريق سعد الدين الشاذلى صاحب المذكرات التى يتناولها الباب الثانى من هذا الكتاب، فقد تدرج سعد الدين الشاذلى فى المناصب العسكرية على عادة أقرانه إلى أن نال دَفعة قوية جداً كانت بمثابة ثانى دَفعة كبيرة فى عهد الثورة كلها، فنحن نعرف أن عبدالحكيم عامر قد رقى من رتبة الصاغ أو البكباشى إلى رتبة اللواء مرة واحدة، متخطياً بذلك عدداً كبيراً يقدر بمئات معدودة من السابقين عليه، وفيما عدا هذه الخطوة الواسعة لم يحدث فى عهد عبدالناصر كله أن أحداً من القادة أو الضباط نال ترقية واسعة قدمته على عدد كبير أو قليل من السابقين عليه. وفى الباب الثانى من كتابنا «الطريق إلى النكسة» رأينا كيف كان الفريق أول محمد فوزى (دفعة ١٩٣٦) سابقاً على الفريق أول مرتجى (دفعة ١٩٣٧)، وكيف حافظ الرئيس جمال عبدالناصر على هذا الترتيب وغيره، وكيف أنه حين تولى الفريق فوزى منصب القائد العام كان بمثابة أقدم الباقين فى القيادة.

ونحن نرى الأمور سارت على نفس المنوال فيمن تولوا المناصب العسكرية العليا فيما بعد هزيمة ١٩٦٧. فقد كان الفريق عبدالمنعم رياض من دفعة فبراير ١٩٣٨، وكذلك كان قائد الجيش الميدانى الفريق صلاح الدين محسن، وقد صدر لهما القراران الثالث والرابع من قرارات الرئيس عبدالناصر بإعادة تنظيم القوات المسلحة بعد نكسة ١٩٦٧. فلما استشهد الفريق عبدالمنعم رياض فى مارس ١٩٦٩ خلفه اللواء أحمد إسماعيل على وكان من الدفعة التالية (دفعة يوليو ١٩٣٨)، ولما عزل أحمد إسماعيل فى سبتمبر ١٩٦٩ خلفه اللواء محمد أحمد صادق وهو من دفعة أبريل ١٩٣٩.

❑

لكن المفاجأة الكبرى حدثت عند إجراء السادات لحركته التصحيحية فى مايو ١٩٧١، حين قفز اللواء سعد الدين الشاذلى خريج دفعة يوليو ١٩٤٠ ليكون رئيساً

للأركان ولـيسبق بـهذا عدداً كبـيراً من القـادة الذين كانـوا يتولون مـواقع قيادية فى القوات المسلحة لم يمر بها سعد الشاذلى نفسه، ومع أن التقليد العسكرى قد يتطلب فى مثل هذه الحالـة خروج كل مَنْ هم أقدم من سعد الشـاذلى، إلا أن هذا لم يحدث ولا حتى بطريقة جزئية،ويبدو أنه كان هنـاك أكثر من سبب لهذا، فقد كان المناخ العام مناخ انكسار لا يـسمح بالتفكير فى مثـل هذه الترتيبات، كما كانـت الظروف المحيطة فى ذلك الوقت تشهد تـوترا لا مثيل له، وقد خرج معظم أقطاب السلـطة الفعلية فى الوطن فـى ذلك الأسبوع من مـناصبهـم إلى المعتقـل بمن فيهم وزيـر الحربية نـفسه، ومدير المخابرات العـامة، ووزير الداخلية، فضلاً عن عـدد آخر من الوزراء وأعضاء اللجنة التنفيذية العليا، كذلك فقد كان الـقادة الذين تخطاهم سعد الشاذلى بتعيينه فى هذا المنصب يشغلون بالفعل مناصب قيادية كـبيرة تكاد تقترب فى أهميتها بالطبع من منصـب رئيس الأركان نفـسه، وكان عدد كبـير من هؤلاء القـادة أنفسهم قـد شهدوا اجتماع المجلس الأعلـى للقوات المسلحة الذى عقده الفريق مـحمد فوزى فى أبريل ١٩٧١ واستطاع أن يحصل من أعـضائه على تأييد شبه جماعى على رأيـه فيما يتعلق باتفاقية الوحدة مع سوريا ومع ليبيا، وكـان رأيه معارضاً لرأى رئيس الجمهورية نفسه الرئـيس الـسادات، وقـد قلـنا إنـه حصل عـلى تـأيـيد شـبـه جمـاعى لأن واحـداً من الحاضرين أيد الرئـيـس السادات ولم يؤيد الفريق فوزى، وكان هـذا الواحد هو سعد الدين الشاذلى نفسه!

ويرى الفريق فوزى وآخـرون أن هذا هو السبب الذى صعد بالـشاذلى إلى رئاسة الأركان، بينـما يعارض الشاذلـى نفسه فى مذكـراته هذا الرأى دون أن يقدم الـدليل، لكنه يذكـر (ولا نقول كما يقول الآخرون يعـترف) أنه بهذا الاختيار قد تـخطى أكثر من ثلاثين من القادة السابقين عليه فى كشف الأقدمية.

قد يكون مـن المهم هنا أن نشيـر إلى أن المشير الجمسى نـفسه والمشير محـمد على فهمى هو الآخر، وهما رئـيسا الأركان التاليان للشاذلى فى هذا المنـصب، كانا سابقين عليه فى الدفعة حيـث تخرجا فى الكلية الحربية فى نوفمبـر ١٩٣٩، وبالإضافة إليهما كان لا يزال فى الخـدمة من نفس الدفـعة كل من: اللواء عـلى عبدالخبيـر أحد رجال الفريق صادق وقائد المنطـقة العسكرية المركزية، واللواء أحمد منيـر عبدالرحيم مدير

شئون الضباط الشهير، واللواء محمد أحمد فائق البوريني.. وعدد آخر من كبار القادة.

ويبدو لى أن الشاذلى لم يتجاوز زملاءه الباقين فى خدمة الجيش فقط، لكنه تخطى أيضاً عدداً من اللواءات فى الأفرع الأخرى للقوات المسلحة كانوا قد سبقوه إلى رتبة اللواء طبقاً لظروف هذه الأفرع.

❑

سعد الدين الشاذلى إذن هو رجل السادات فى القوات المسلحة، على نحو أو آخر شبيه بكون عبدالحكيم عامر رجل عبدالناصر فى القوات المسلحة، ومع أن عبد الحكيم استمر سنوات أطول ونال دَفعة أبعد من دَفْعة سعد الشاذلى، فإن سعد الشاذلى جاء على غير معرفة أو صداقة ممتدة مع السادات، وجاء من رتبة متقدمة هى رتبة اللواء، أى أنه جاء بإمكانات عسكرية وقيادية متميزة على النقيض من موقف عبدالحكيم عامر الذى لم يكن بنفس القوة حين جاء، وجاء إلى موقع عمل شاق لا إلى موقع نفوذ ومجد فى المقام الأول كما هو الحال مع عبدالحكيم عامر.

ولكن يبدو أنه فى كلتا الحالين كان الموقف فيما يتعلق بكشف الأقدمية قلقا وباعثاً على التفكير.

وفيما يبدو فإن أنور السادات بطريقته المنفتحة على كل الجبهات استشعر هذا بين القادة، ولهذا فإنه لم يستطع تصعيد الشاذلى إلى موقع الفريق صادق رغم ضجره الشديد من الفريق صادق وتصرفاته وآرائه وسياساته ومخالفاته، لهذا فكر السادات أن يعود خطوة إلى الأقدم، أو هكذا عبر عبدالمنعم خليل عن إحساس القادة المخضرمين فى مرحلة مبكرة بتفكير السادات فى إسناد منصب الوزير القائد العام إلى أحد الرجلين: محمد حافظ إسماعيل (دفعة يوليو ١٩٣٧)، أو أحمد إسماعيل (دفعة يوليو ١٩٣٨).

ويبدو أن الشاذلى المتحالف تماماً مع السادات كان يتفهم دوافع السادات فى أكتوبر ١٩٧٢ حين قرر عزل الفريق صادق وأخبره بهذا قبل أن يخبر صادق، وأخبره أيضاً باختياره أحمد إسماعيل ليكون خلفاً للفريق صادق، معبراً للشاذلى عن توقعه أن يكون تعاونه مع أحمد إسماعيل أفضل بكثير من تعامله مع صادق، وكل هذا

على حد رواية الشاذلى نفسه، وإن كان هذا لا يمنع من صواب الرأى القائل بأن الشاذلى كان يتطلع بشدة إلى أن يحتل هو نفسه موقع القائد العام فى أقرب فرصة. وفى الحقيقة فإنه رغم كل الذى نشره الشاذلى عن خلافه مع المشير أحمد إسماعيل، فإن هذا الخلاف يبقى فى الحدود الأقل من خلافه مع الفريق صادق، كما سنرى ونحن نقرأ مذكراته.

❑

وعلى الرغم من أنه مضى من الزمان ما كان كفيلاً بأن ينصف الشاذلى من السادات، فإن العكس هو الذى حدث، فقد مضى الزمن فإذا بالبطولات المنسوبة إلى الشاذلى تتضاءل، وإذا بالحقائق التى تذاع عن حرب أكتوبر ترفع من قيمة نظرة السادات، وإذا الناس ينتبهون إلى ما ذكره الشاذلى نفسه فى مذكراته من أنه لم يكن - كما أشيع - صاحب فكرة الإسراع بتطوير الهجوم، بل إنه بصريح عبارته كان ضد فكرة تطوير الهجوم نفسه وقد أشرنا إلى هذا فى فقرة سابقة من المقدمة.

وحين نشر اللواء جمال حماد كتابه «المعارك الحربية على الجبهة المصرية» فإنه تصدى لآراء الشاذلى عن الثغرة بطريقة عسكرية علمية، أثبتت أن وجهة نظر السادات وأحمد إسماعيل كانت أكثر صواباً، وأن فكرة الشاذلى كانت تؤدى إلى التهلكة، وقد بعث الشاذلى نفسه بخطابين إلى جمال حماد ونشرهما جمال حماد وردّ عليهما بما أكد به عدم الصواب فى فكرة الشاذلى وتصوراته، فضلاً عن أن المناقشات أظهرت أن الشاذلى نفسه لم يكن يعرف الموضع الذى كان فيه اللواء الذى كان يقوده العقيد أحمد تحسين شنن حتى وقت كتابته للخطاب الذى بعث به إلى جمال حماد، وقد وصل جمال حماد فى مناقشته إلى أن يدعوه إلى سؤال قائد اللواء نفسه فهو حى يرزق.

وقد اعترف الشاذلى لجمال حماد أنه أخطأ فى ذكر موعد الاجتماع (المؤتمر) الذى نوقشت فيه خطة مواجهة الثغرة، وكان جمال حماد قد اكتشف أن كلا من الشاذلى والسادات فى مذكراتهما قد ذكرا هذا الموعد على أنه ١٩ أكتوبر بينما الصواب أنه يوم ٢٠ أكتوبر، وهو التاريخ الذى نرى الجمسى ملتزما به فى روايته للوقائع فى مذكراته.

وفى العـدد الممتاز الذى أصـدرته مجلة الأهرام الـعربى فى ذكرى مـرور خمس وعشرين سنـة على حرب أكتوبر (السـبت ٣ أكتوبر ١٩٩٨) كاد القادة الـذين تحدثوا للمجلة فى أحاديث منفصلة يوجهون الاتهام للشاذلى، فقال اللواء عبدالمنعم خليل ما نصه: «الشاذلى المسئول عن الثغرة ومستعد لمواجهته»، أما اللواء عبدالعزيز قابيل قائد الفرقة الرابعة المدرعة التى حاربت فى الثغرة فقال فى عنوان مقاله: «أصاب السادات وأخطأ الشاذلى».

❑

ولست بمستطيع أن أترك فرصة هـذه المقدمة من دون أن ألخص رأيى المتواضع فى الخلاف بين الرئيـس السادات وبيـن الفريق الـشاذلى، وإنى أعـتقد بكـل وضوح أن الرجلين كانا حتى وقع الخلاف بينهما يحبان بعـضهما، بل ربما كانا متيمين ببعضهما، إذ لا تكفـى كلمة الحب للـتعبير عن إخـلاصهما لبـعضهما ولوطـنهما، لكن الـسبب الرئيسـى كما تكشف عنـه مذكرات الشاذلى نفـسها كان الاختلاف فى مـجال الرؤية أمام الرجلين، ولبس لـلشاذلى مسئولية عن هذا ولا يد له فيـه، وعلى حين كان مجال الرؤية أمام الـسادات واسعاً وعريضاً وممتداً، فإن مجال الرؤية أمام الشاذلى كان أضيق بكثيـر، ولكن طموح الشـاذلى لوطنه وشعبـه وجيشه (ولنفســه أيضاً) كان أكبر بـكثير جداً من مـجال رؤيته، وعـلى حين كـان السادات يـستشرف بكـل وسيلة أن يـكسب الحرب كلهـا، فإن الشـاذلى كان حريـصاً بكل وسـيلة عـلى أن يكسـب معركـة الثغرة، ويبدو أن السادات كان بدهائه يخشى أن يكسب معركة الثغرة ويخسر الحرب، لهذا فإنه لم يكن على أى استعداد للمضى مع الشاذلى فى مشورته ولا اقتراحاته.

على أن هذا كله لم يفسد للود الكبيـر قضية، ويبدو أن قدرة كل من الرجلين على تحمل الآخر ظلت تحتفظ بـحدود أكثر بكثير من الحدود الدنيا الكفيـلة ببقائها إلى أن تمكن فيروس الإعلام من أن يهدد هذه العلاقة فى ديسمبر ١٩٧٣ حين أدلى الشاذلى بحديث إلى مندوب مجلة «النيوزويك» الأمـريكية اعترضت المخابرات الحربية على بعض مـا فيه، ثم فـوجئ بالأهرام يصـدر وبه عناويـن تصريحات مـنسوبة إلـى قيادة قوات الطوارئ بـأن مصر تقدمت عشـرة كيلومترات.. وسـنقرأ تفاصيل القـصة كما يرويها الـشاذلى فى الباب الـثانى من هذا الكـتاب دون أن نعرف الوجه الآخـر لهذه

القصة التى كانت بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير فى علاقة الشاذلى لا بالسادات وحده ولكن بعلاقته بالدولة والقوات المسلحة والمخابرات الحربية.. وربما تكون وثائق كواليس هذه القصة ضمن الوثائق التى يحتفظ بها أصحابها خارج مصر.. ولكنى أجد السياق الذى قدمه الشاذلى عنها غير كاف حتى لإقناعه هو بما حدث يومها بالضبط.

❑

ويبدو لى من المهم أن أشير فى هذه المقدمة إلى انتماء القادة الذين نناقش مذكراتهم فى هذا الكتاب إلى جيل واحد، فقد ولد المشير الجمسى الذى نتناول مذكراته فى الباب الأول من هذا الكتاب فى التاسع من سبتمبر عام واحد وعشرين (١٩٢١) وتخرج فى الكلية الحربية عام تسعة وثلاثين (١٩٣٩) فى أول نوفمبر. أما الفريق سعد الدين الشاذلى الذى نتناول مذكراته فى الباب الثانى فقد ولد سنة اثنين وعشرين (١٩٢٢) فى أول أبريل، وتخرج فى الكلية الحربية عام أربعين (١٩٤٠) فى أول يوليو، ومن المصادفات الطريفة أن اللواء عبدالمنعم خليل صاحب المذكرات التى نتناولها فى الباب الثالث من هذا الكتاب قد ولد أيضا فى أول أبريل لكن فى العام السابق (١٩٢١)، لكنه لم يتخرج فى الكلية الحربية إلا بعد أحد عشر شهراً من الشاذلى فى الدفعة التى تخرجت فى أول يونيو عام واحد وأربعين (١٩٤١). أما الفريق يوسف عفيفى الذى نتناول مذكراته فى الباب الرابع من هذا الكتاب فقد ولد فى الثانى من يونيو عام سبعة وعشرين (١٩٢٧)، وتخرج فى الكلية الحربية أول أغسطس عام ثمانية وأربعين (١٩٤٨)، أما اللواء عادل يسرى الذى نتناول مذكراته فى الباب الخامس فلا أعرف على وجه التحديد تاريخ تخرجه، وإن كان تالياً للفريق يوسف عفيفى بفترة وجيزة، وقد ولد عام ثلاثين (١٩٣٠) فى الثانى عشر من أكتوبر على نحو ما ذكرت منال نور الدين فى كتابها: «القادة يتحدثون».

هكذا فإن الجمسى قد تخرج فى الكلية الحربية قبل أن يتجاوز الثامنة عشرة وشهرين، على حين تخرج الشاذلى وقد وصل إلى الثامنة عشرة وثلاثة شهور، وعلى حين تخرج عبدالمنعم خليل وقد تجاوز العشرين بشهرين، وقد تخرج يوسف عفيفى وقد تجاوز الحادية والعشرين بشهرين، وكأنما كان ترتيب صغر سنهم متوافقاً مع ترتيب تخرجهم.

وقد كان التفاوت في سن التخرج في الكلية الحربية طبيعياً في ذلك الجيل، نظراً للتفاوت في السن عند دخولها، فقد يقبل الطالب من أول مرة يتقدم فيها، وقد يتأخر قبوله فلا يتم له القبول إلا في المرة الثانية أو الثالثة وربما الرابعة. هذا فضلاً عن التفاوت في الالتحاق ببدايات التعليم في ذلك الجيل. كذلك فإن الدفعات نفسها لم تكن تتخرج في موعد ثابت، وإنما كان يحدث مع اندلاع الحروب (الحرب العالمية الثانية في ذلك الوقت، وحرب ١٩٤٨ فيما بعد سنوات) أن تُقدم مواعيد خروج بعض الدفعات، ومع كل هذا لا يخلو الأمر من استثناءات صادقة الدلالة: فقد تخرج محمد حافظ إسماعيل في دفعة يوليو ١٩٣٧ قبل أن يبلغ الثامنة عشرة، ولم تكن هذه الدفعة من الدفعات التي تخرجت قبل أوانها، كذلك فقد تخرج أحمد حمدي عبيد (وزير الإدارة المحلية في وزارة زكريا محيي الدين) يوم بلوغه الثامنة عشرة بالضبط.

على أن من المفارقات الطريفة في علاقة هؤلاء القادة ببعضهم أنه حدث مرتين أن خلف الأقدم منهم الأحدث في منصبه، فقد كان الجمسي أقدم من الشاذلي ولكنه خلفه في رئاسة الأركان، كما كان الشاذلي أقدم من عبدالمنعم خليل ولكنه خلفه في قيادة المظلات!! وهذا من أعجب العجب ولكنه يدلنا أيضا على أن هؤلاء القادة وهم جزء من نسيج متصل من قادة آخرين كانوا ملتزمين أشد الالتزام، لايأبهون بما نأبه به نحن الآن من شكليات تافهة تسيطر على وجودنا حتى لو كنا في حجرة لاتزيد أبعادها عن مترين في مترين.

❑

ومن المهم أن أذكر للقارئ أني بدأت كتابة أبواب هذا الكتاب منذ أكثر من عشر سنوات، وأن أعترف أنه لو ترك الأمر لي لأجلت نشر هذا الكتاب حتى أزيده صقلاً، لكني بت أقتنع بما يقال لي من أن إبقاء نص كهذا بين يدي المؤلف لأكثر من عشر سنوات يعد نوعاً من التزيد في إملاء حقوق مزعومة على القارئ والناشر، لهذا فقد انتصرت على نفسي ودفعت به اليوم إلى المطبعة مع كل ما يعتريني من خوف وقلق، ولابد لي من أن أعترف أن أربعة من أبواب هذا الكتاب الخمسة كانت مكتملة تماماً

منذ أكثر من ثلاث سنوات، وربما كانت شبه مكتملة منذ أكثر من سبع سنوات، لكن الحياة تأخذنا مما يجب علينا أن نتفرغ له ولو لبعض الوقت.

إني لفخور أني أنتمي إلى الشعب الذى أنجب هؤلاء القادة والجنود والأبطال والشهداء الذين يتحدث عنهم هذا الكتاب الذى أقدمه اليوم، وإن فخرى بهذه الحرب التى انتصرت فيها أمتى لا يعدله فخر آخر فى حياتى، وإنى لا أظن أن كتاباً أو أكثر سيوفى هذه الحرب حقها من التقييم الموضوعى الجاد، لكنى فى كل الأحوال أشعر اليوم وأنا أكتب هذه المقدمة أنى قد نجحت أخيراً فى أن أقدم بعض جهد فى هذا المجال.

ومع هذا فلازلت أظن أننى لم أنج من التقصير والإهمال والخطأ والتراخى، ولو كنت أعرف موضع هذا بالضبط من كتابى لعمدت إليه فأصلحت أخطائى، لكنى مجتهد بأكثر مما يسمح به جهدى ووقتى وعقلى وفكرى، وكلى أمل فى الله سبحانه وتعالى أن يتقبل عملى وأن يجعلنى قادراً على إتمامه وإتقانه، وأن يرزقنى الإخلاص والتوفيق، وأن ينعم علىّ بما أنعم علىّ من قبل من القبول والرضا والسكينة وطمأنينة النفس وسعادة الفؤاد بما أبذل ليل نهار.

بقى أن أشير بامتنان وتقدير إلى أنه لولا التشجيع الكريم، الذى تلقف به الكاتب الكبير أنيس منصور مجموعة الدراسات السابقة على هذا الكتاب، ما كنت قد تشجعت وتمكنت من انجاز هذا العمل فى الوقت الذى أكرمنى الله بإنجازه فيه.

وكلى أمل أن أكون قد وفقت فى أن أخدم مواطنىّ بهذا الذى أفعل، وأن أكون قد وصلت بهم إلى حقائق تستحق وصولها إليهم، وإلى تصوير جيد للوقائع والأحداث، وإلى نقد متزن للآراء والروايات ووجهات النظر.

د. محمد الجوادى

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣
النصر الوحيد

1

حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣
مذكرات المشير
محمد عبد الغنى الجمسى

دار الخيّال

(١)

من المهــم أن نشير فــى بداية هذا الـباب إلى الخطأ الـشائع فى اســم المشير مـحمد عبدالغنى الجمسى، فكثيراً ما يحدث أن يختصر هذا الاسم إلى اسم والده المغفور له عبـدالغنى الجـمسى، ولـو أنصف الذيـن يختصـرون الاسم لاختـصروه إلى محـمد الجمسى بدلاً مما يفعلون.

المشير محمد عبـدالغنى الجمسى هو ثالث مشير فى الجـيش المصرى الحديث بعد كل من المشيـر عبدالحكيم عامر والمشيـر أحمد إسماعيل على، وقد قـضى فى خدمة القوات المسلحة المصرية فى الميدان قرابة تسعـة وثلاثين عاماً متصلة هو وزميله المشير محمد علـى فهمى الذى خلفه فى مـنصب رئيـس الأركان وعملا معـاً: كوزير وقائد عام، ورئيـس للأركان طيلة الـفترة الممتدة مـن وفاة المشير أحمـد إسماعيل فى نـهاية ١٩٧٤ وحتى خلفهمـا الفريق أول كمال حسن على والمشيـر أحمد بدوى فى بدايات أكتوبر ١٩٧٨، وأظن أنهما ضربا الرقم القياسى فى البقاء فى خدمة القوات المسلحة حتى الوقـت الذى خرجا فيه إلى الـتقاعد، فقد تخـرجا فى نوفمبر ١٩٣٩، وبـقيا فى الخدمـة حتى أكـتوبر ١٩٧٨، بـل وبقيـا بعد ذلـك كمسـتشاريـن عسكـريين لرئـيس الجمـهورية إلى أن قـبلت اسـتقالة المشـير الجمـسى من هذا المـنصب بنـاء على طلـبه (١٩٨٠) كما سنقرأ فى هذه المذكرات.

وقد ولد المشير الجمسي في التاسع من سبتمبر عام واحد وعشرين (١٩٢١) في قرية البتانون، وهي قرية قريبة من مدينة شبين الكوم عاصمة المنوفية وتخرج في الكلية الحربية في أول نوفمبر عام تسعة وثلاثين (١٩٣٩).

وقد تقلد المشير الجمسي عدة مناصب رفيعة في أثناء خدمته الطويلة، فقد عين قائداً للمدرعات في ١٩٦١، ورئيساً لهيئة العمليات في القوات البرية (١٩٦٦) وهو المنصب الذي كان يشغله أيضاً في مركز القيادة المتقدم (مع الفريق أول مرتجى واللواء أحمد إسماعيل) في حرب ١٩٦٧، ورئيساً للأركان في الجيش الذي كان المشير أحمد إسماعيل قد عين قائدا له بعد هزيمة ١٩٦٧ [وهكذا كانت مناصبه في هذه الفترة كأنها إرهاصات لمناصبه في حرب أكتوبر المجيدة].

كما تولى الجمسي منصب نائب مدير المخابرات الحربية (١٩٦٨)، ورئيس هيئة العمليات الاتحادية (١٩٧٠)، ورئيس هيئة التدريب (١٩٧١)، وفي بداية ١٩٧٢ اختير رئيساً لهيئة عمليات القوات المسلحة، وفي ديسمبر ١٩٧٣ عين رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة.

في فبراير ١٩٧٤ كان الجمسي من القادة المكرمين في مجلس الشعب ، وفي ديسمبر ١٩٧٤ عقب وفاة المشير أحمد اسماعيل عين الجمسي وزيرا للحربية ، وهو المنصب الذي بقي فيه حتى أكتوبر ١٩٧٨ ومنذ أبريل ١٩٧٥ أصبح الجمسي نائبا لرئيس الوزراء . وكان الجمسي دوما وزيرا للإنتاج الحربي أو وزيرا للدولة للإنتاج الحربي إلا في وزارة ممدوح سالم الأولى (أبريل ١٩٧٥) حين لم يكن هناك نص على هذا المنصب في التشكيل الوزاري .

وقد حصل الجمسي في أثناء تاريخه العسكري الطويل المشرف على شهادات كلية أركان الحرب، والقادة والأركان، وأكاديمية ناصر العسكرية العليا كما ابتعث إلى الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي .

(٢)

يتمتع المشير الجمسى فى الوجدان المصرى بمكانة متميزة جدا لم تنقص السنون المتوالية من قدرها ولا حجمها، وهو فى أذهان الجمهور العربى كله واحد من الرموز البارزة لنصر أكتوبر العظيم الذى حول إحساساتنا كلها من حال إلى حال، وأعاد إلينا الروح والوعى والقدرة والسعادة والكرامة والعزة والثقة.. بل والذات نفسها.

ويجد المرء صعوبة كبيرة حين يقدم لمذكراته لأنه يجد نفسه عاجزا عن الاختيار بين كثير من البدايات التى ينبغى أن يختار من بينها، ولكنه مع هذا يجد كل مقدمة وكل بداية أقل من أن تفى هذا الرجل حقه، على الرغم من أنها كفيلة بأداء الحق لكثيرين آخرين.

ولهذا كله فإننا نجد أقلامنا وهى تقف أمام مذكرات الجمسى فى تأمل عميق، وقد يكون شعورنا الأول حين ننتهى من قراءة المذكرات أننا لم نجد ما كنا نمنى أنفسنا بوجوده من أحداث درامية شديدة التأثير فى النفوس ، أو من حوارات حادة ، أو من أسرار لم نعرفها من قبل.. وقد يكون هذا الشعور صحيحا، ولكننا لا نستطيع أن نرضى عنه أو أن نقنع به أنفسنا، فقد كانت حياة هذا الرجل نموذجا للمثابرة المتواصلة من أجل الهدف الأسمى فى الحياة، وكانت سيرته حلقات متواصلة من الجهاد، وتكرار الجهاد، ومن العمل الجاد والمخلص، ولهذا فإن عنصر المفاجأة فيها لا يمثل أحد العناصر الحاكمة ولا المشوقة، ذلك أن الجمسى كتب هذا الكتاب بعد تقاعده المشرف بسنوات ، وحين كان قد أصبح فى وسعه أن ينظر إلى حياته نفسها من علٍ فى تأمل صادق، ومن خلال أحكام صادقة وموضوعية مع أنها أحكام ذاتية، يرتفع فيها صوت الأنا .. وهكذا فإننا نجد صاحب المذكرات بكل تواضعه حريصاً أيضا على كل ذرة فى تاريخه وفى كيانه الضخم الهائل الذى صنعه فى التاريخ المعاصر.

وهكذا فإننا نتوقع حتى من قبل القراءة أن نجد فى هذه المذكرات ما قد لا نجده فى أية مذكرات أخرى من الثقة المتناهية، بكل سطر كتبه صاحبها، لأنه كان مطمئنا وهو يكتب إلى أكثر من شىء، كان مطمئنا إلى أنه أدى ما عليه، وإلى أنه يكتب لأن

عليه واجب الكتابة لا لأنه يريد شيئا آخر بهذا الذى يكتب، ونجد هذه المذكرات فى هذا الإطار تتم بطريقة شبه روتينية تماما، حتى ليكاد القارئ يسأم هذا النوع من المذكرات التى تلتزم مثل هذا الأسلوب العلمى الجاف، وحتى أن أولئك الذين تعودوا جفاف العلم (من زملائى ولا أستثنى نفسى) كانوا يريدون شيئا آخر من الحواشى أو الأجواء أو السيناريوهات أو حتى ما يطلق عليه نقاد السينما العرب: «المشهيات» لهذه المذكرات، ولكن يبدو أن المشير الجمسى كان حريصا على أن يخيب رجاء كل الذين يبحثون فى مذكراته عن كل ما كانوا يجدونه فى المذكرات الأخرى التى توالى صدورها وانتشارها فى فترات سابقة.

(٣)

وحرب أكتوبر عام ١٩٧٣ هى الحدث الأكبر فى هذه المذكرات بكل تفصيلاتها وبخاصة فترة الإعداد الشاقة، وسنجد أنفسنا أمام سمة مهمة جدا فى حديث الجمسى عن الإعداد للحرب، فهو ـ على سبيل المثال ـ حينما يحدثنا عن عرض التوقيتات المناسبة التى كان أمام الرئيس السادات أن يختار من بينها، لا يجد أى حرج فى أن يذكر أن المشير أحمد إسماعيل هو وحده الذى اصطحب هذه الأوراق إلى الرئيس السادات، ومع أن الرئيس السادات نفسه قد روى الواقعة فى كتابه «البحث عن الذات» بالطريقة التى فهمنا منها (وأنا أقصد كل الذين قرأوا الكتاب) أن الجمسى نفسه كان حاضرا عملية اتخاذ هذا القرار فإن الجمسى رغم مكانته الكبيرة فى القوات المسلحة يومها، يحرص على أن يذكر الحقيقة على نحو ما حدثت لا على نحو ما توحى به رواية السادات نفسه.

ولعل هذا المثل البسيط يرينا كيف ظل هذا الجندى المخلص جنديا إلى أخمص قدميه فى كل الأوقات، وأنه لم يكن على استعداد أبدا لأن يكون من أولئك الذين توعدهم القرآن الكريم فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فبشرهم بعذاب أليم﴾، وكأنه كان حريصا على أن يعطينا صورة أخرى غير تلك التى قد نكون رسمناها له فى أذهاننا، فهو رغم كل شىء جندى ملتزم بأن يثبت حقيقة

قد تبدو وكأنها لا تقدم ولا تؤخر حين يذكر أنه ـ على سبيل المثال ـ كان يرفع المذكرات والاقتراحات والبدائل من خلال رئيسه أو قائده «القائد العام» ليعرضها هذا القائد على القائد الأعلى الذى يتخذ القرار، ولك أن تقارن هذا الموقف بكل ما فيه من ثقة بالنفس بأى موقف آخر من المواقف التى تقرأ عنها لأناس من الصف الرابع لا يجدون حرجاً فى الزعم بأنهم كانوا أصحاب القرار أو أصحاب الفكرة.

وعلى هذا النحو يمضى صاحب هذه المذكرات فى عرض كل وقائع الحرب وما قبلها وما بعدها، فإذا ما استطعنا أن ندرك هذه الطبيعة فى كتابة المشير الجمسى وكتابه، فإننا نستطيع أيضا أن نفهم لماذا كان الجمسى حريصا ودقيقا وشبه هامشى إلى أبعد الحدود فيما كتبه عن حرب عام ١٩٦٧ وعن التاريخ العسكرى لمصر المعاصرة على وجه العموم.

ولست أحب لنفسى وأنا أكتب مقدمة هذا الباب أن أبدو متعجلاً، ولكنى ـ فيما يبدو للقارىء وهو على صواب ـ حريص فى نفس الوقت على أن أبدأ ببلورة آرائى فى هذه المذكرات، وإذا كان الأمر كذلك فبوسعى أن أقول إن المشير الجمسى قد نجح ونفوق فى أن يقدم لنا وثيقة دقيقة بأكثر مما نجح فى تقديم صورة بانورامية، ونجح وتفوق فى أن يقدم لنا مجموعة من رؤى صادقة ونافذة بأكثر مما نجح فى أن يقدم لنا رؤية واحدة يحكمها هدف واحد ، ونجح ثالثا فى تقديم لقطات متتابعة بأكثر مما نجح فى أن يقدم هذه اللقطات متواصلة مع بعضها ومترتبة على بعضها، وهكذا يبدو لى أن عندما تظلم الغرفة التى نشاهد فيها أثر كتاب الجمسى على نفوسنا من باب التأمل فإننا نتخيله فى صورة الأستاذ الأكاديمى الذى يعرض الشرائح الضوئية الملونة Color Slides عن الموضوع الذى يتحدث فيه بأكثر مما هو مخرج لفيلم سينمائى متصل ببعضه حتى وإن كان فى الأصل مجموعة من اللقطات.

ومع كل هذا فإن هذا الكتاب يظل نموذجا رفيعا لعفة اللسان إن صح أن توصف الكتب بهذا الوصف، ففى كل واقعة من وقائع هذا الكتاب نجد اللفظ عفا نقيا لأنه يصدر عن قلم مخلص وحريص على الحقيقة والوطنية والصدق والحيوية.

وإذا كان من حسن حظ وطننا أن وُجد فيه المشير محمد عبدالغنى الجمسى فإن من حسن حظ مكتبته العربية كذلك أن وجدت فيها مذكرات هذا الرجل.

(٤)

منذ بداية كتابه يذكر صاحب هذه المذكرات فى صراحة شديدة أن الكتابة عن ١٩٧٣ لاتستقيم بغير الكتابة عن ١٩٦٧ بل إنه يذهب إلى أبعد من هذا حتى ليكاد يقرر أن نصر ١٩٧٣ لم يكن ليتحقق بدون الدروس القاسية فى ١٩٦٧ وهو يقول:

«ووجدت أن الكتابة عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ وحدها لاتفى بالغرض المنشود، إلا إذا كتبت أيضاً عن حرب يونيو ١٩٦٧، لأنهما حربان لهما اتصال وثيق ببعضهما فى مرحلة واحدة من مراحل الصراع المسلح بين العرب وإسرائيل، وفى مرحلة واحدة من مراحل الصراع السياسى بين القوتين العظميين فى الشرق الأوسط. وهنا لابد أن أسجل أن كل ماحدث فى حرب يونيو، كان له انعكاس فى العمل العسكرى فى حرب أكتوبر، بل إن دروس حرب يونيو ١٩٦٧ كانت إحدى دعائم الاستراتيجية المصرية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣. ولم يكن من الممكن أن أتجاهل تلك الفترة بين الحربين، التى لم تفقد مصر فيها إرادة القتال، وخاضت قواتنا المسلحة سلسلة من المعارك ضد العدو الإسرائيلى تصاعدت إلى حرب استنزاف، والتى كانت تمهيداً مطلوباً وضرورياً قبل حرب أكتوبر».

□

ويتحدث الجمسى عن السبب الذى جعله يتأخر فى نشر كتابه إلى عام ١٩٨٩ ويرجع الفضل فى استجابته وإقباله على الكتابة إلى عدة أسباب منها مناشدة حلمى سلام له ليكتب عن حرب أكتوبر :

«ومرت سنوات.. قرأت فيها مذكرات سياسية وعسكرية ومقالات ودراسات صدرت عن حرب أكتوبر وحرب يونيو خارج مصر ـ وهو كثير ـ وفى داخل مصر ـ وهو قليل، وشد انتباهى أن وجهة النظر المعادية أصبحت هى المرجع الأساسى للكتَّاب والباحثين والمؤرخين. كما أن بعض ما كتب هنا وهناك لا يتسم بالموضوعية أو الدقة أحياناً لسبب أو لآخر، الأمر الذى أعطى انطباعاً ليس صحيحاً عما حدث فى حرب أكتوبر».

«وأتيحت لى فرصة حضور ندوة فى جامعة المنوفية عن «الإنسان المصرى وحرب أكتوبر» كنت واحداً من ثلاثة تحدثوا فيها، ثم كان لى ـ عن حرب أكتوبر ـ لقاء مع أعضاء هيئة تدريس جامعة الإسكندرية فى ناديهم، ثم لقاء ثالث مع رجال الصحافة فى مصر فى نقابة الصحفيين. وأخيراً كان لى لقاء رابع فى دولة قطر بدعوة من نادى الجسرة الثقافى، وكان موضوعه «حرب أكتوبر فى الميزان الاستراتيجى العربى». وخرجت من هذه الندوات واللقاءات الأربعة بمجموعة من الأسئلة والتساؤلات عن حرب أكتوبر ـ عسكرياً وسياسياً ـ تحتاج إلى شرح وتوضيح لجيل جديد من حقه أن يعرف الحقائق التى تنير له طريق المستقبل».

«ولفت نظرى خلال هذه اللقاءات، أن ما كُتب عن حرب أكتوبر خارج مصر،موجود بين أيدى الكثيرين داخل مصر، تأثروا بما كتب فيها أو يريدون استيضاح ما جاء بها من معلومات، وكنت سعيداً بهذه الظاهرة».

«وامتد تأثير ما نشر فى الخارج عن حرب أكتوبر إلى دراسات علمية تجرى فى الجامعات هناك. فقد شاءت الظروف أن يحضر للقاهرة اثنان من الدارسين بجامعات أمريكية أحدهما باكستانى والآخر أمريكى، للاستماع إلى وجهة النظر المصرية عن «حرب أكتوبر» وما جرى فيها وما حدث بعدها، بعد أن حصلا على المعلومات من الجانب الإسرائيلى عن طريق مذكرات قادتهم ـ وهى كثيرة ـ والتى نشرت هناك أو المقابلات التى تمت معهم. وكان لقائى مع الدارس الباكستانى موضوعياً وعلمياً استغرق حوالى ثلاث ساعات لتغطية وتصحيح جوانب موضوع بحثه بعد أن قرأ عن الموقف المصرى والعربى فى هذه الحرب من المراجع الإسرائيلية ومقابلة القادة الإسرائيليين».

«تحفظت كثيراً وتأخرت طويلاً قبل نشر هذا الكتاب برغم مرور واحد وعشرين عاماً على حرب يونيو ١٩٦٧ وستة عشر عاماً على حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، إلى أن وجه لى الكاتب الكبير الأستاذ حلمى سلام رسالة على صفحات مجلة آخر ساعة بعنوان «رسالة إلى المشير الجمسى ـ السكوت ليس دائماً من ذهب» جاء فيها:

«يبدو أنك مؤمن إيماناً شديداً بالمثل القائل: إذا كان الكلام من فضة ، فالسكوت من ذهب ... وعلى مدى تلك السنوات تكلم عن هذه الحرب ـ حرب أكتوبر ـ مَنْ

يعرف ومَنْ لايعرف ... من عاش الحرب يوماً بيوم واكتوى بنارها ولظاها ، ومن كان بين المتفرجين عليها .. كل هؤلاء تكلموا عن تلك الحرب إلا أنت».

«إن الشيء الذى لا يجوز أن تسقطه من حسابك ، هو أنك لاتملك حق الزهد فى الكلام .. ذلك أن الكلام عن مسار وأسرار هذه الحرب المجيدة التى هزمنا بها الهزيمة ، ورفعنا بها الرايات بعد تنكيسها ، وأحيينا بها الأنفس بعد مواتها ، إنما هو حق للتاريخ عليك ... مثلما هو حق للجيل الذى عاش هذه الحرب ، ولكل الأجيال القادمة على الطريق من بعده. وبقي أن تقول لنا أنت ـ بالأمانة كلها ـ كيف حدث ذلك، وكيف جاء أبناء مصر بهذا النصر من وراء الأهوال».

(٥)

ويبدو المشير الجمسى واعيا تمام الوعى لكل الجدل الذى بدأ يدور فى ذلك الوقت على استحياء وهو يتسلل إلى الوجدان العربى بالتشكيك فى الإدارة السياسية لانجازات هذه الحرب المجيدة، ومع أن الجمسى لايكاد يتصور أن يصدر مثل هذا عن أناس ينتمون إلى هذا الوطن ولو بشهادة الميلاد، ولاكاد يتصور أن الحقد كفيل بأن يعمى البصائر إلى الحد الذى تنامى بعد هذا على يد أصحاب هذه الأقلام التى كانت هى نفسها قبل الحرب المجيدة مبشرة بالهزيمة فإذا هى بعد الحرب تحاول أن تضخم ما ينتقص من قيمة النصر، وإذا هى بعد أن تم لوطننا الحبيب استعادة كل ترابه الوطنى تحاول أن تلقى ظلالاً من الشك على الآليات الذكية التى مكنت القيادة المصرية من تحقيق هذا الانجاز العظيم بدءاً من حرب أكتوبر نفسها وانتهاء برفع العلم على طابا المصريةالعزيزة... يرى الجمسى كل هذا فيما يقرأ، ولكنه لايكاد يتصور أن يصل التزوير وليّ الحقائق إلى ما وصل إليه بالفعل بعد نشره لمذكراته، ولكنه بحس الوطنى الصادق يستشعر روح ما بدأ العابثون فى ترديده ودفع الآخرين إلى ترديده، ولهذا فإنه يلفت النظر منذ الصفحات الأولى لمذكراته إلى أنه واع لهذه الحقائق حتى وإن لم يدرك فى ذلك الوقت طبيعة الأحقاد تماماً وما سوف تؤدى إليه بعد سنوات من

ترديد أناس حسني النية لإشارات خبيثة وضعها أناس لا يريدون الخير لوطنهم فى نصوص جعلت المشير الجمسى نفسه فى اليوبيل الفضى لنصر أكتوبر يندفع إلى استنتاجات لم يكن من المقتنعين بها.

ويرى الجمسى ـ كما تنبئنا نصوص مذكراته ـ العلاقة بين السياسة والسلاح بطريقة أكثر دقة من الآراء الشائعة فى هذا المعنى، وهو يصرح بأنه يعلم جيداً أن حدود علمه قد تحيط بالسلاح ولكنها لا تحيط بالسياسة، ولهذا فإنه يبدى تحفظه على نفسه قبل أن يبدأ فى المذكرات وكأنه يريد أن يرينا كيف يمكن للإنسان أن يلتزم حدوده، وأن يبتعد عن الادعاء، وأن ينجح مع هذا فى الوصول إلى الحقيقة، فضلاً عن الوصول إلى العظمة الحقيقية، وهو يشير إلى هذه المعانى فى تواضع شديد حيث يقول فى مقدمة مذكراته :

«إنى أعلم تماما أن الحرب هى امتداد للسياسة بوسائل أخرى ، كما أننى على اقتناع بأن السياسة لها رجالها ، وهم القادرون على شرح سياسة مصر خلال الفترة من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٣ وما بعدها حتى ١٩٧٨ أفضل منى. لذلك التزمت أن يكون للجانب العسكرى الأسبقية والأهمية فيما أكتب ، وأن يكون للجانب السياسى قدر محدود لتوضيح ارتباطه أو تأثيره على العمل العسكرى أو العكس».

....

ويردف الجمسى فى التأكيد على هذه الفكرة بقوله:

«وحاولت بقدر ما استطعت أن يكون هذا الكتاب لمعالجة الموضوع العسكرى على المستوى الاستراتيجى وليس المستوى التكتيكى الذى يهم العسكريين فقط. وأرجو أن يكون واضحاً ، أن كل ماجاء فى هذا الكتاب يعبر عن وجهة نظرى الشخصية ، ولا يعبر عن الرأى الرسمى للدولة أو القوات المسلحة المصرية. وبكل الأمانة ، لا أهدف من هذا الكتاب تأييداً أو نقداً لهذا أو ذاك ، ولكنه شهادة قد تصلح لتكون أمام المتخصصين فى كتابة التاريخ. وهى شهادة أقدمها لصالح مصر فقط ، عسى أن تنير الطريق إلى مستقبل أفضل » .

(٦)

ويبـدو لى أن من الأنـسب أن نبـدأ بما بدأ الجـمسى نـفسه بـه من تحديـد لعلاقـته بالرئيـس السادات ومشاعره تجاهـه بعد أن اتخذ السادات قراره بإحالته إلى الـتقاعد بعد خمس سنوات مـن تحقيق النصر المؤزر على حين كان الـسادات نفسه قد صرح أكثر من مرة من أن الجمسى سيبقى فى الخـدمة مدى الحياة، ومع تقدير الجمسى لهذا التصريح إلا أنه لم يكن يـظن ذلك قابلاً للتحقيق، وهكذا فإنه لم يـبن تخطيطه لحياته المستقبلة على مثل هذا التصريح المتكرر من الرئيس السادات، ومن اليسير على الذين يهوون تـقدير الأمور من وجهـة نظر أخرى أن يقولـوا إن الجمسى لم يدل بمـثل هذا القول إلا بعد أن ترك الخدمة والمنصب وكأنـه يبدى الحكمة بعد فوات الأوان، ولكن النص الذى بين أيدينا ينطق فى الحقيقة بما هو أكثر من ذلك الظن بادعاء الحكمة:

« ولم يخامرنى أى شك فـى أى وقت أنه سيأتى اليوم الذى تنتهـى فيه خدمتى فى العمل العام والقوات المسلحة برغم ما أعـلنه الرئيـس الراحل السادات أنى سأظل فى خدمة الدولـة مدى الحياة. فقد بدأ هـذا الحديث معى فى منـاسبة تعيين نـائب رئيس الجمهورية».

«ففى يوم ما استدعانى الرئيس الراحل لمقابـلته فى استراحة القناطر الخيرية. شـرح لى بإسهـاب الحالة الداخليـة فى مصر ونظام الحكـم فيها منذ ثـورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وانتهى من هذا الســرد الطويل الذى استغرق حوالى ساعة إلى أن قـال إنه قرر تعيين نائب رئيس الجمهوريـة من «جيل أكتوبر» أخذ يشرح لى رأيه بالنسـبة للفريق بحرى فؤاد ذكرى ، ثـم الفريق محـمد على فـهمى ، ثم أنا ثـم الفريق طيـار محمد حـسنى مبارك بـهذا الترتيـب. وعندما ذكر اسمـى ، أشاد بما قمت بـه من عمل منـذ أن كنت رئيسـاً لهيئة الـعمليات ورئيسـاً للأركان ثم وزيراً للحربيـة ، وقال لى: « أنت جريشكو مصر. ولابد أن تبقى فى القوات المسلحة مدى الحياة. وستكون هذه هى وصيتى » ثم أنهى حديثه بـاختياره السيد محمد حـسنى مبارك لهذا المنصب . وصــدرت صحيفة أخبار الـيوم يوم ٣/ ٥/ ١٩٧٥ برأى الـرئيس السادات فـى هذا الموضوع تحـت عنوان

كبير «خمسة كانوا مرشحين لمنصب نائب رئيس الجمهورية. حكم مصر أصبح مدنيا وسيبقى مدنيا. السادات أوصى بألا يترك الجمسى القوات المسلحة أبدا ».

«طلب منى السادات تبليغ الفريق حسنى مبارك أنه حدد له ميعاداً لمقابلته بعد ظهر نفس اليوم ، وقمت بإبلاغ سيادته تليفونيا بالمقابلة دون الإفصاح عن الغرض منها. وبعد ذلك اتخذت الإجراءات الواجبة فى هذا الشأن إلى أن تولى سيادته منصب نائب رئيس الجمهورية».

(٧)

ويحرص صاحب هذه المذكرات على أن يتحدث باعتزاز شديد عن قرار جمهورى بقانون خاص أصدره الرئيس السادات فى ١٩٧٩ لتكريم قادة حرب أكتوبر:

«وكان الرئيس السادات قد قرر تكريم قادة القوات المسلحة خلال حرب أكتوبر والاستفادة من خبرات الأحياء منهم ، فأصدر قراراً بقانون رقم ٣٥ لسنة ١٩٧٩ يقضى بذلك، وجاء فى مذكرته الإيضاحية:

«إن الدول الكبرى العريقة فى الجندية وأصولها تكرم قادتها العسكريين الذين حققوا النصر فى الحروب المصيرية لأوطانهم بأسلوب يتناسب مع عظمة أعمالهم، ويعكس مدى وفاء وتقدير شعوبهم لبذلهم وعطائهم. وهناك الكثير من الأمثلة فى الدول الكبرى غربية كانت أم شرقية على تقدير وتكريم كبار قادتها وأبطال حروبها والاستفادة بخبراتهم مدى الحياة».

«وبالنسبة لمصر، فقد كانت حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ نقطة تحول تاريخية على المستويين الوطنى والقومى. وكانت أول مواجهة حقيقية خلال مراحل الصراع العربى الإسرائيلى بين الجيوش العربية والجيش الإسرائيلى. ومهدت نتائج هذه الحرب الطريق أمام تحرير الأرض العربية المحتلة وتحقيق السلام القائم على العدل

فى المنطقة العربية. وقد رُئى اقتراح مشروع القرار بقانون تعبيراً عن شكر الشعب وعرفانه للقوات المسلحة وقادتها خلال حرب أكتوبر المجيدة».

«ويهدف هذا القانون إلى جانب تقدير وتكريم قادة هذه الحرب الظافرة ، إلى تحقيق وضع خبراتهم النادرة فى خدمة القوات المسلحة والدولة مدى حياتهم ، وهى الخبرة التى اكتسبوها خلال خدمتهم الطويلة بالقوات المسلحة حيث عاصروا نشأتها الحديثة والتطورات التى طرأت عليها والمعارك المتعددة التى خاضتها. وقد توجت هذه الخبرة بما أثبتوه من قدرة عالية فى فنون القيادة والقتال خلال عمليات حرب أكتوبر وتحملهم أعباء مسئولياتهم الجسام أثناء الإعداد للقوات والتخطيط للعمليات وأثناء إدارة أعمال القتال بكل الكفاءة والاقتدار» .

ويعلق الجمسى على صدور هذا القانون الجميل فى هامش كتابه بقوله :

« صدر هذا القانون بعد توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل. وكنت قد تركت الوزارة فى ٥ أكتوبر من عام ١٩٧٨ . كنت رسميا معينا مستشاراً لرئيس الجمهورية ، ولم يكن قد قبل استقالتى حتى ذلك الوقت، ثم قبلها فى عام ١٩٨٠».

وبالإضافة إلى هذا الإيضاح التاريخى لتوقيت صدور القرار فإن المشير الجمسى يمضى أمامنا بسعادة فى قراءة المذكرة الإيضاحية والتعليق عليها:

«تلك كانت بعض فقرات المذكرة الإيضاحية للقرار بالقانون الذى عُرض على مجلس الشعب ، وتمت الموافقة عليه وإصداره والعمل به من تاريخ صدوره (٢٦ مايو ١٩٧٩). ويقضى القانون بأن يستمر الضباط الذين كانوا يشغلون وظائف رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة وقادة الأفرع الرئيسية فى حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ فى الخدمة بالقوات المسلحة مدى الحياة. وأن يقوم هؤلاء القادة بتقديم المشورة وإبداء الرأى ـ عندما يطلب منهم ذلك ـ فى الموضوعات العسكرية ذوات الأهمية الخاصة ، وبذلك يظلون مدى الحياة مستشارين عسكريين أمناء للقوات المسلحة».

«هؤلاء القادة لن يشغلوا وظائف عسكرية داخل الهيكل التنظيمى للقوات المسلحة، حتى لا يتناقض تكريمهم والاستفادة من خبراتهم النادرة مع مبدأ التجديد والاستمرار ، وفتح الباب والمجال أمام قادة الصف الثانى للترقى وشغل مناصب

القيادة العليا بنفس الكفاءة والقدرة التى تحققت لمن سبقهم. ولاشك أن قواتنا المسلحة قادرة على إبراز جيل لاحق من القادة الذين يتمتعون ـ بالخبرة والممارسة ـ بما حققه الجيل السابق عليهم من قدرة وكفاءة » .

ويختم الجمسى حديثه فى هذه النقطة بالتعبير عن أسفه من أن القانون بقى حبراً على ورق، ولكنه أسف مؤدب ومهذب جداً حين يقول :

« تلك كانت فكرة الخدمة مدى الحياة التى صدر بها قانون لم ينفذ »

(٨)

ويروى المشير الجمسى قصة إعفائه من مسئولياته الحربية وخروجه من الوزارة فى عبارات رتيبة هادئة تعبر عن استيائه من توقيت خروجه بأكثر من أن تعبر عن أى ألم بسبب فقدانه المنصب الرفيع فى حد ذاته فيقول:

«حدد الرئيس الراحل السادات الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الثلاثاء ٣ أكتوبر ١٩٧٨ لمقابلتى فى استراحة القناطر. ولما كان الاستدعاء بناء على رغبته دون تحديد موضوع المقابلة ، فقد أخذت معى حقيبة أوراقى التى تحتوى على بعض الموضوعات الهامة عن القوات المسلحة والموقف العسكرى بيننا وبين إسرائيل ، على افتراض أنها ستكون موضوع المناقشة والبحث بعد اتفاقية كامب ديفيد. قابلنى الرئيس الراحل فى الحديقة الفسيحة داخل الاستراحة».

«بدأ حديثه معى بالسؤال عن صحة زوجتى التى كانت تعانى من مرض الفشل الكلوى منذ حوالى سنتين ، قدم لها مستشفى المعادى للقوات المسلحة الرعاية الطبية، ثم أوصى الأطباء المعالجون بضرورة سفرها للخارج للعلاج فى مستشفى « ليون» بفرنسا ، فقد يكون هناك أمل فى إيقاف تدهور حالتها الصحية. وانتقل السادات من الحديث الاجتماعى القصير إلى السياسة الداخلية ، ووصفها بأنها " مرحلة جديدة " تمر بها مصر وقال: ولذلك قررت إجراء تغيير شامل فى مؤسسات الدولة وأجهزتها،

فوزارة السيد ممدوح سالم سيتم تغييرها ، ورئيس مجلس الشعب المهندس سيد مرعى سيتم استبدال آخر به ، وسيتم تعيين قيادة عسكرية جديدة».

«واستطرد قائلاً : إنه كلف الدكتور مصطفى خليل بتشكيل الوزارة الجديدة ، وأنها ستحلف اليمين يوم الخميس ٥ أكتوبر ١٩٧٨. وأنه قرر تعييني مستشاراً عسكرياً له ، ويتولى الوزارة زميلى الفريق كمال حسن على ، وتغيير اسم الوزارة من «وزارة الحربية» لتكون «وزارة الدفاع». كما أنه قرر أيضاً تعيين الفريق محمد على فهمى مستشاراً عسكرياً له ، وتعيين اللواء أحمد بدوى رئيساً للأركان بدلاً منه. لم أعلق بأى كلمة على القرارات التى اتخذها ، وانصرفت عائداً إلى مكتبى».

«وأخذت أفكر أثناء العودة فى الأسلوب الصحيح لتسليم قيادة القوات المسلحة إلى زميلى كمال حسن على ، ونقل مسئوليات رئيس الأركان إلى اللواء أحمد بدوى، حتى لا يحدث أى فراغ فى المسئوليات بين القيادة الحالية والقيادة الجديدة فى أى وقت مهما كان قصيراً. عندما وصلت إلى مكتبى بوزارة الحربية ، وجدت الفريق محمد على فهمى عائداً من منطقة قناة السويس مرتدياً بدلة الشغل (الأفرول) بعد أن حضر التجربة النهائية للعرض العسكرى الذى كان مقرراً إجراؤه يوم الجمعة ٦ أكتوبر ١٩٧٨ فى منطقة القناة ».

(٩)

عند هذا الحد يجد الجمسى نفسه فى وسط هذا الجو النفسى الحرج أو الصعب الذى كان يعيشه فى تلك اللحظة مدفوعاً بعسكريته وشخصيته الملتزمة إلى أن يتوقف ليروى لنا جوانب مهمة من تفصيلات الحياة العسكرية فى هذه الفترة فيقول :

«... لقد جرت العادة أن يجرى العرض العسكرى السنوى ـ احتفالاً بنصر أكتوبر ـ فى القاهرة. ولكن الموقف السياسى مع إسرائيل لم يكن مناسبا لإجرائه فى القاهرة فى ذلك العام. فقد كان مقرراً أن يسافر السادات إلى أمريكا لعمل مباحثات السلام

مع إسرائيل باشتراك أمريكا في سبتمبر ١٩٧٨ (مباحثات كامب ديفيد) ، وكان عمل قوات الطوارئ الدولية في سيناء ينتهي في أكتوبر من نفس العام».

«وفي مؤتمر عقد في الإسماعيلية قبل سفره لأمريكا اقترحت عليه إلغاء العرض العسكري أو عمل عرض في صورة محدودة عبارة عن تجميع مخفض للقوات في منطقة القناة حيث يقوم الرئيس باستعراضها بالمرور عليها. وكان الهدف من ذلك أن تكون القوات في منطقة القناة قريبة من المواقع التي يجب أن تتمركز فيها في حالة الطوارئ تحسبا لأي تطورات غير منتظرة إذا فشلت المفاوضات في أمريكا. وافق الرئيس على العرض العسكري المحدود في منطقة القناة».

«وفي الوقت الذي كان الرئيس الراحل في أمريكا ، كنا في القيادة العامة نراجع خططنا العسكرية ، ولم يكن من الممكن أن نكون على غير استعداد في أي وقت. وعندما تم توقيع اتفاقية كامب ديفيد في واشنطن ، طلب الرئيس قبل عودته من أمريكا عمل العرض العسكري في القاهرة وأن يكون بقوات كبيرة. اعتذرت له لضيق الوقت الذي لا يسمح بنقل المعدات الثقيلة ـ الدبابات بصفة خاصة ـ من منطقة القناة إلى القاهرة، وكذا التدريب حتى يكون العرض لائقاً ومشرفاً».

«أبلغت الفريق محمد علي فهمي في نفس اليوم ـ ٣ أكتوبر ـ بالتغييرات الجديدة في القيادة العسكرية. قابلها بكل هدوء وقال ما معناه : الحمد لله الذي وفقنا في إنجاز مهامنا في حرب أكتوبر وما بعدها حتى اليوم ، وهو تتويج لخدمتنا العسكرية. واستعداداً لنقل المسئولية إلى القادة الجدد ، أصدرت الأوامر إلى اللواء أحمد بدوي بنقل مسئوليات وصلاحيات رئيس الأركان له اعتباراً من ذلك اليوم ، وأني سأظل مسئولاً عن قيادة القوات المسلحة حتى يؤدي الفريق كمال حسن علي اليمين الدستورية».

«وعندما أدت وزارة الدكتور مصطفى خليل اليمين صباح يوم الخميس ٥ أكتوبر ١٩٧٨ ، كان ذلك هو نهاية خدمتي بالقوات المسلحة والعمل العام بالدولة. حمدت الله وشكرته لأنه وفقني لخدمة مصر وقواتها المسلحة بقدر ما استطعت وتمنيت للقوات المسلحة دوام التقدم والتوفيق ، فهي أسرتي الكبيرة التي أمضيت فيها كل حياتي» .

(١٠)

أما مشاعر المشير الجمسى العاتبة علـى توقيت قرار الرئيس السادات باستبعاده من الخدمة فيصـرح بها فى وضوح وأدب والتزام عميـق وهو يكاد يحصر لومـه للرئيس السادات في عنصر واحد هو المتعلق باختيار التوقيت الذى تنتهى فيه خدمته فحسب، ولنقرأ عبارات الجمسى فى مذكراته حيث يقول:

«... وكما سـبق أن ذكرت ، كان صبـاح يوم الخميـس ٥ أكتوبر ١٩٧٨ هو نـهاية خدمتي في القوات المسـلحة والعمل العام. وفى مساء نفس اليـوم ، حضر إلى منزلى وزير الـدفاع كمـال حسن علـى لدعوتـى ـ بناء عـلى تعـليمات الـرئيس الـسادات ـ لحضور العرض العسكرى بمنطقة القناة صباح اليوم التالى ـ الجمعة ٦ أكتوبر ١٩٧٨ ـ وأن طائرة هـليوكبتـر ستكون فى مـطار ألماظة الحربى لـنقل الدكتـور مصطفى خـليل رئيس الوزراء ووزير الدفاع وأنا إلى مكان العرض. اعتذرت له شاكراً ، ولم أحضر العرض العسكرى ذلك العام».

ويعقب المشير الجمسى على هذا الموقف مباشرة بقوله :

«لقـد شعرت بـالضيـق والأسف لاختـيار يـوم ٥ أكتوبـر لإجراء التـغييـرات فى الـقــيادة العسكريـة بحيث تكون الـقيادة الحالية الـتى كان لها دور رئيـسى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ بـعيدة عن القوات المسلحة في ذكرى الاحتـفال بالنصر يـوم ٦ أكتوبر ١٩٧٨».

ثم يتسـاءل صاحب هذه المذكرات فى أدب رفـيع يقر تماما بـالسلطة ولكنـه يعطى أيضاً أهمية للمعنويات فيقول :

«ألم يـكن من الأفـضل والأنسـب أن يتم ذلك فـى أى يوم آخر غـير اليـوم الذى حققت فيه مصر وقواتها المسلحة النصر ، وكان لنا شرف المساهمة فيه ؟ إن من سلطة رئيس الدولة تعييـن وتغيير الوزارة والقيادات العسكرية العـليا فى أى وقت ، ولكنى

كنت آمل فقط أن يكون هناك حسن اختيار للتوقيت مراعاة للناحية المعنوية التى تعتبر عاملاً هاماً فى حياة كل مقاتل».

❑

ونحن نجد صاحب هذه المذكرات فى فقرة أخرى يؤكد نفس هذا المعنى بتوزيع لحنى آخر يؤكد فيه على فهمه للحدود التى يمارس فيها كل مسئول سلطاته بحكم الدستور، وعلى التزامه التام بهذا الفهم فيقول :

« ... لم يكن أمامى إلا أن أستمع إلى كلام الرئيس السادات . وغادرت المكان دون أدنى تعليق بكلمة واحدة منى لأنه يمارس عمله كرئيس للجمهورية بحكم الدستور، وله أن يتصرف بالطريقة التى يتصرف بها واتخذت الإجراءات لتسليم القيادة العامة للقوات المسلحة ».

....

«وبعد أن حلف اليمين كمال حسن على يوم ٥ أكتوبر غادرت مكانى فى وزارة الحربية لأنى كنت أعتبر نفسى مسئولا حتى آخر لحظة ـ يحلف فيها كمال حسن على اليمين حتى لا نترك القوات المسلحة وقياداتها فى فراغ حتى ولو دقيقة واحدة لأن هذا غير مقبول . وانتهى الموضوع عند هذا الحد وتم عرض الاحتفال بذكرى انتصار ٦ أكتوبر فى منطقة القنال، وحاولوا أن يدعونى للحضور فقلت لهم لا يوجد غير قائد عام واحد ووزير للحربية واحد، وبالتالى اعتذرت عن الذهاب لأنى كنت ليس لدى رغبة فى الذهاب ولم أقبل هذا الوضع».

❑

« أما كان من الأفضل ألا يتم التغيير الوزارى يوم ٥ أكتوبر علما بأن العرض فى اليوم التالى وكانت الدعوات موجهة باسمى أنا ومحمد على فهمى (اللذين) ساهمنا فى انتصار أكتوبر .. فهل يعقل أن يكون يوم النصر ونحن جالسون فى بيوتنا ؟! أم كان من الأفضل أن يتم اختيار يوم آخر قبلها بيوم أو بعدها بيومين لمجرد أن يكون هناك فاصل لأن الناحية المعنوية تؤثر على المقاتل أينما كان».

(١١)

وفى موضع ثالث يفرض الموضوع نفسه على المشير الجمسى وهو يتحدث عن دعوته لاحتفالات رفع العلم على العريش التى كرمه السادات فيها بمنحه رتبه المشير، وهو يحكى لنا ذكرياته عن اليوم التالى لرفع العلم على العريش وهو اليوم الذى رافق فيه الرئيس السادات فى رحلة بحرية فى قناة السويس، وهو أيضاً اليوم الذى ارتدى فيه لأول وآخر مرة رتبة المشير، وهو أيضا آخر يوم رأى فيه الرئيس السادات فى حياته ولتقرأ هذه العبارات المفعمة بالتعبير الجيد والوصف الدقيق للجو النفسى فيما يرويه المشير الجمسى :

« وكنت فى حياتى المدنية ، منذ أن تركت الوزارة ، أقضى وقت الفراغ فى القراءة والكتابة وزيارة عائلتى من حين لآخر فى قرية البتانون ـ إحدى قرى المنوفية ـ التى ولدت ونشأت فيها».

«وفى شتاء عام ٧٨/ ١٩٧٩ ، وكنت فى ذلك الوقت مستشاراً لرئيس الجمهورية للشئون العسكرية من الناحية الرسمية ، أبلغتنى سكرتارية الرئيس أنى سأرافق الرئيس فى اليوم التالى لأسوان لقضاء فترة راحة هناك، وهى الزيارة التى يقوم بها سنويا حيث يقضى الشتاء هناك».

«كانت إقامتى فى استراحة وزارة الرى قضيتها فى القراءة. وبدعوة من الرئيس تناولت معه طعام العشاء أكثر من مرة ثم يلى ذلك مشاهدة أفلام سينمائية».

«وبعد عدة أيام قضيتها فى أسوان قابلنى السادات فيها أكثر من مرة ، لم يحدثنى فى أى موضوع هام سواء فى سياسة مصر الداخلية أو الخارجية كما لم يحدثنى عن الاستراتيجية العسكرية لمصر أو لإسرائيل أو القوتين الأعظم فى المنطقة. ومن هنا استأذنت للعودة للقاهرة».

«كان من الطبيعى أن أتابع تطور الأحداث بعد اتفاقية كامب ديفيد ، وخطوات معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل التى كان يتم بحثها فى ذلك الوقت إلى أن تم الاتفاق عليها وإعلانها».

«وحان الوقت للاحتفال باستعادة العريش ورفع العلم عليها بعد أن غاب عنها طويلاً. عندما وصلتني الدعوة لحضور هذا الاحتفال الشعبي هناك ، وجدت نفسي مندفعاً للاشتراك في الاحتفال باستعادة جزء من أرضنا استشهد لنا فيها الآلاف من رجال القوات المسلحة ، ولها ـ ولكل حبة رمل من سيناء ـ ذكريات كثيرة وعميقة في نفسي كما هي كثيرة وعميقة لدى كل الرجال الذين بذلوا العرق والدم والروح سنوات طويلة دفاعاً عن مصر من هذا الاتجاه الاستراتيجي الخطير».

❑

وعند هذا الحد يصرح المشير الجمسي بكل وضوح بأنه لم يفكر في المآخذ أو السلبيات التي أخذت على اتفاقية كامب ديفيد، وإنما كان الشعور المسيطر عليه هو أن مصر بدأت تجني ثمار النصر في حرب أكتوبر، وهكذ وجد نفسه مندفعاً إلى حضور الاحتفال، وهكذا وجد نفسه في العريش:

«لقد كنت أشعر بأن مصر بدأت تجني ثمار النصر في حرب أكتوبر ، واستبعدت من تفكيري محتويات ومشتملات اتفاقية كامب ديفيد ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل بما فيها من سلبيات ، ووجدت نفسي مع باقي المدعوين في العريش».

«حضرت الاحتفال ، وكان لي شرف تقبيل العلم المصري ـ ضمن مراسم الاحتفال ـ الذي ارتفع عالياً في سماء سيناء. وعدت بعد ذلك مباشرة للقاهرة لأستعيد ذكريات كثيرة عن سنوات طويلة مضت. وكان السؤال الذي يلح على هو «هل حرب أكتوبر هي آخر الحروب؟ » .

«وكانت الحقيقة المؤكدة أمامي « أن حرب أكتوبر ليست آخر الحروب » .

(١٢)

ومع سعادة الجمسي بنواله رتبة المشير إلا أنه لم يكن يشعر بنفس القدر من السعادة الذي ناله حين كُرم بعد الحرب في مجلس الشعب ومُنح رتبة الفريق، فذلك

كان أسعد أيام حياته وهو يروى فى هدوء كيف أنه علم بترقيته لرتبة المشير من على حمدى الجمال رئيس تحرير الأهرام قبل أن تخطره رئاسة الجمهورية بالخبر:

«وفى حوالى الساعة الثامنة والنصف من مساء يوم الاحتفال، طلبنى تليفونياً المرحوم الأستاذ على حمدى الجمال رئيس تحرير جريدة الأهرام لتهنئتى باستعادة العريش كثمرة من ثمرات حرب أكتوبر وتهنئتى بترقيتى لرتبة المشير، ولم أكن أعلم بهذه الترقية».

ويردف الجمسى بذكر أنه لم يرتد ملابس «المشيرية» إلا يوماً واحداً فقط هو اليوم التالى لمنحها:

«وبعد قليل أخطرتنى رئاسة الجمهورية بالخبر، وطلبت منى ـ بناء على تعليمات الرئيس السادات ـ أن أتواجد فى بورسعيد صباح اليوم التالى لاحتفال العريش لمرافقة الرئيس فى رحلة بحرية من بورسعيد إلى الإسماعيلية. وكان هو اليوم الأول والأخير الذى أرتدى فيه الملابس العسكرية برتبة مشير. ركبنا اليخت «الحرية»، وكان به نائب الرئيس حسنى مبارك ووزير الدفاع كمال حسن على ومجموعة من مصابى العمليات فى حرب أكتوبر من الضباط والجنود. وكان حديثنا أثناء الرحلة عن ذكريات تلك الحرب والشرح والتعليق على أنقاض حصون خط بارليف التى نمر عليها ومواقع الكبارى التى أنشأتها قواتنا المسلحة».

ثم يستعيد الجمسى ذكرياته عن رحلة إعادة افتتاح الملاحة بقناة السويس فيقول:

«لقد سبق أن قمنا بنفس هذه الرحلة عام ١٩٧٥ عند افتتاح الملاحة بقناة السويس على سطح مدمرة من قواتنا البحرية بينما كانت قواتنا المسلحة فى أعلى درجات استعدادها للقتال فى هذا اليوم، أما هذه الرحلة فقد كانت على ظهر يخت مخصص للرحلات البحرية لرئيس الجمهورية ... لقد انتقلت مصر من مرحلة الحرب إلى مرحلة السلام. وفى الإسماعيلية صافحت الرئيس السادات وعدت مباشرة للقاهرة. وكان ذلك آخر لقاء لى مع الرئيس الراحل».

(١٣)

ومن الواضح أن صاحب المذكرات حريص على أن يوحى لنا بأسلوبه المهذب أنه لم يكن سعيداً أبداً بأن يبقى فى منصب شرفى ، وهو يحكى فى مذكراته كيف كان حريصا على أن تظل الأمور فى وضعها الطبيعى بعيداً عن الأوضاع الشاذة التى سيطرت على القوات المسلحة فى مراحل سابقة من عهد الثورة وهو يتحدث بتواضع شديد عن عقيدته العسكرية التى تتغلب على نزعاته الشخصية فى أكثر من موضع، وسننقل للقارئ هنا الفقرات التى يتحدث فيها عن استقالته من منصبه كمستشار الرئيس للشئون العسكرية حيث يقول :

« وفى وقت سابق ، كنت قد قدمت استقالتى للرئيس الراحل سجلت فيها أنه منذ أن تخرجت فى الكلية الحربية فى أول نوفمبر ١٩٣٩ ، قضيت كل حياتى العملية فى خدمة القوات المسلحة مؤمناً برسالتها عن اقتناع ، مخلصاً لها عن عقيدة ، ولذلك احترفت عملى العسكرى ـ عن إيمان وعقيدة ـ متفرغاً له دون غيره».

«وخلال رحلة العمر ، بحروبها وثوراتها ، بحلوها ومرها ، لم يتزعزع إيمانى بأهمية وشرف هذه الخدمة الوطنية وإنى أسجد لله شكراً على نعمته وتوفيقه أن كان لى شرف تولى أعلى المناصب العسكرية ، وحمل أرفع الرتب العسكرية فى مرحلة دقيقة وهامة فى تاريخ البلاد».

«لقد أمضيت فى الخدمة أربعين عاماً [لو أننا اعتبرنا تاريخ قبول الاستقالة بمثابة نهاية الخدمة فإن خدمته تصبح أكثر من واحد وأربعين عام] ساهمت فيها بكل جهد ممكن بقدر ما استطعت ، وأشعر حالياً ـ بكل الارتياح ـ أنه قد حان الوقت ، بعد هذه الفترة الطويلة، لأن أعتزل الخدمة. لذلك أرجو قبول استقالتى من وظيفة مستشار رئيس الجمهورية للشئون العسكرية».

❑

ويعقب الجمسى بما يراه عن إيمان وما يرويه عن خبرة وتجربة من فهم عميق لضرورة احتراف العسكريين وهو يضرب الأمثلة بما حدث بين الرئيس عبدالناصر

والمشير عبدالحكيم عامر، وكذلك بين الرئيس السادات وكل من الفريق أول محمد صادق والفريق أول محمد فوزى فيقول:

«... لقد جرت العادة فى مصر أن يكون وزير الحربية موضع اهتمام [اللفظ مهذب وربما يقصد: قلق] رئيس الدولة، والتاريخ علمنا الكثير فى هذا المجال. فالصراع على السلطة بين المشير عبدالحكيم عامر والرئيس الراحل جمال عبد الناصر كان شديداً انتهى بهزيمة يونيو ١٩٦٧ وانتحار عامر. وكانت هناك خلافات فى وجهات النظر السياسية والعسكرية بين الرئيس الراحل السادات وكل من وزير الحربية الفريق أول محمد فوزى ، ومن بعده الفريق أول محمد صادق ، ونال كل منهما الرذاذ نتيجة لذلك».

«من هنا تصور البعض أن قيوداً فرضت علىّ بعد أن تركت الوزارة ، ولذلك جاء الكثيرون من الأصدقاء أو الصحفيين المصريين والأجانب لزيارتى بالمنزل ليتأكدوا من عدم صحة ذلك. وهى حقيقة لابد أن أقولها وأسجلها، لقد كنت جندياً محترفاً طول مدة خدمتى ، وأعتز بذلك كثيراً إيماناً منى بأن السياسة إذا دخلت الجيش أفسدته. ولقد كانت فترة خدمتى كوزير للحربية وقائد عام للقوات المسلحة ، هى فترة صراع عسكرى مع إسرائيل ، ولم تكن الحرب انتهت معها حتى انتهت خدمتى فى القوات المسلحة».

....

«وبعد حوالى أسبوعين من توقيع اتفاقية كامب ديفيد ، وقبل بدء المباحثات لعقد معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية بأيام كنت خارج الوزارة بعيداً عن العمل العام بالدولة».

«وبعد فترة تبلغ لى قبول استقالتى ، وأسعدنى أن صدر القرار الجمهورى فى ١١ نوفمبر ١٩٨٠ بقبولها ، وفيها النص الذى كنت أتمناه وأريده وهو التقاعد « بناء على طلبى» .

(١٤)

وإذا كنا قد قرأنا للجمسي ما يرويه عن لحظات نهاية الخدمة في هذا المنصب الرفيع فلابد أن نطلع القارئ على ما يرويه في مواضع أخرى من هذه المذكرات عن لحظات تسلمه مسئولية المناصب الثلاثة الكبرى في القوات المسلحة بدءاً من رئاسة هيئة عمليات القوات المسلحة وهو المنصب الثالث في القوات المسلحة المصرية كلها في ذلك الوقت والذى تدرج الجمسى منه ليشغل المنصبين الثانى فالأول .. وها هو الجمسى يتحدث في موضعين من مذكراته عن هذه الخطوات الثلاث بقدر كبير من الاعتزاز للوطن ولقيادته، وهو يدمج الحديث عن توليه منصبى رئيس هيئة العمليات ورئيس الأركان في فقرة قصيرة جداً ولكنها معبرة جداً عن خلقه وفهمه فيقول :

«واستعداداً لحرب أكتوبر تعينت رئيساً لهيئة عمليات القوات المسلحة فى الأسبوع الأول من يناير ١٩٧٢. ونتيجة لهذه الحرب توليت منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة فى منتصف ديسمبر ١٩٧٣. وكنت من القادة الذين نالوا أفضل تكريم من الشعب فى مجلس الشعب مع ترقيتى لرتبة فريق».

ويردف الجمسى هذا الحديث المقتضب بقوله إن هذا التكريم كان أفضل ما حصل عليه فى حياته، وكأنه يعلى من شأن هذا التكريم ليجعله أهم وأفضل فى نظره مما ناله بعد ذلك من الحصول على رتبة المشير، بل والحصول على رتبة الفريق أول وتولى الوزارة:

«لقد كان هذا التكريم هو أفضل ما حصلت عليه فى حياتى ، الأمر الذى ترك أثراً عميقاً فى نفسى لن أنساه. وهل يتمنى أى قائد عسكرى أكثر من ذلك فى ظل انتصار عسكرى؟ لقد تصورت وتمنيت أن يكون عمل رئيس الأركان هو آخر وظيفة أتولاها وأترك الخدمة راضياً».

❑

أما حديثه عن توليه منصب القائد العام ووزير الدفاع فيأتى ممتزجاً برثائه لسلفه

المشير أحمد إسماعيل عند رحيله وحديثه عن زمالتهما ، وهو يرى الموقف متبلوراً فى كلمتين: مقاتل يستشهد ويحل محله آخر، وسوف نلاحظ من خلال ما نقرأه فى الفقرة التالية أن سعادته بهذا المنصب الجديد لا تعدل أبداً سعادته بتولى منصب رئيس الأركان من قبل، ولنقرأ هذه العبارات:

«وشاءت إرادة الله أن يتغير طريق حياتي. فقد توفى وزير الحربية المشير أحمد إسماعيل فى المستشفى بلندن على إثر مرض أصيب به استدعى علاجه بالخارج أكثر من مرة. لقد صدمنى وأحزننى نبأ وفاته بحكم علاقة الخدمة العسكرية التى ربطتنا معا فى أوقات الشدة والأيام الصعبة. كنا فى الخدمة معا فى سيناء أثناء حرب يونيو ١٩٦٧ وشربنا كأس المرارة معاً. وكنا معا فى منطقة القناة أثناء إحدى فترات حرب الاستنزاف وكظمنا غيظنا وتحملنا مرها وحلوها. وكنا معا فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وشربنا كأس الانتصار معاً. كنت مع مجموعة من القادة نعمل ليلاً لتنظيم تشييع جنازة المشير أحمد إسماعيل قبل وصول جثمانه من لندن. أثناء هذا الاجتماع اتصل بى السفير حسن كامل رئيس ديوان رئاسة الجمهورية لإبلاغى بتعيينى وزيراً للحربية وأنى سأحلف اليمين فى الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالى أى بعد ساعتين من انتهاء مراسم تشييع الجنازة. وهكذا تسير الأمور فى الحرب . مقاتل يستشهد ، ويحل محله آخر».

«وهكذا بدأت مرحلة جديدة ـ وأخيرة ـ فى خدمة الدولة والقوات المسلحة. مرحلة جديدة يكون لى فيها دور سياسى بحكم منصبى الوزارى ، ودور عسكرى بحكم القانون وهو القائد العام للقوات المسلحة برتبة فريق أول اعتباراً من آخر ديسمبر ١٩٧٤» .

(١٥)

بعد أن درسنا وقرأنا طبيعة مشاعر المشير الجمسى حين ابتعد عن السلطة، هل لنا الآن أن نتصفح بعض ما يرويه عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ وعن دوره فيها، وسنجد أن

المشير الجمسى كما قدمنا فى أول هذا البـاب لايعطى لنفسه كل ما أعطاه الرواة له من تمجيد وتعظيم لـدوره إنما يتحدث كالمعهد به فى هدوء وثقة وتـواضع والتزام، ولتقرأ ما يرويه حيث يقول:

«ومرت الأيام والليـالى فى عمل دائم استعداداً لـتلقى قرار الحرب ، عندمـا تتهيأ الظروف السياسـية المناسبة واختيار الوقـت الصحيح لبدء القتال. وكـان يوم السبت ـ عيد الـغفران ـ ٦ أكتـوبر ١٩٧٣ (١٠ رمضان ١٣٩٣) هو أحـد الأيام المناسـبة ، وهو الذى وقع عـليه الاختيـار فى مجموعـة سبتمـبر / أكتوبر. فـقد توفرت فيـه الشروط الملائمـة لاقتحام القنـاة والهجوم ، فهو يـوم عيد فى إسرائـيل ، والقمر فى هـذا اليوم (١٠ رمضان) مـناسب ومضـئ من غروب الشـمس حتى مـنتصف الـليل بالإضـافة للعوامـل الأخرى السابق شرحهـا. وقد اعتقد الكـثيرون أن هذا اليوم تحدد لـلهجوم المصرى الـسورى لأنه فقط (يوم كـيبور) فى إسرائيـل ، وهو اعتقاد خاطـئ لأن هناك عوامل أخرى كثيرة تحكمت فى تحديد هذا اليوم».

❑

ويتحدث المشير الجـمسى عن الدراسة التى نسقها من أجل تحـديد أنسب مواعيد الحرب فيقول :

«سلمت هـذه الدراسة بنفسى ـ مـكتوبة بخط اليد لـضمان سريتها ـ لـلفريق أول أحمـد إسماعيـل الذى قال لـى إنه عرضهـا وناقشهـا مع الرئـيس السادات فـى برج العرب (غرب الإسـكندرية) فى أوائل أبريـل ١٩٧٣. وبعد عودته أعادها لـى باليد ، ونقل لى انبهار وإعجاب الرئيس السادات بها ، وعبر الفريق أول أحمد إسماعيل عن شكره لهيئة عمـليات القوات المسـلحة لمجهودها فى إعداد هذه الـوثيقة الهامة ، وكان تعليقه عليها ـ مسجلاً ـ فيما بعد بقوله:

« لقد كـان تحديد (يوم الهـجوم) عملاً علمـياً على مسـتوى رفيع. إن هذا الـعمل سوف يأخذ حقه من التقدير ، وسـوف يدخل الـتاريخ العلمى للحروب كنموذج من نماذج الدقة المتناهية والبحث الأمين » .

ويردف صاحب المذكرات بقوله:

«كانت هذه الوثيقة هي التي أشار إليها الرئيس السادات في أحاديثه بعدُ الحرب بكلمة (الكشكول) أو (كشكول الجمسي)».

(١٦)

ثم يصمم المشير الجمسي على أن يعدل تسمية الكراسة (أو الكشكول) فينسبها إلى هيئة عمليات القوات المسلحة لا إلى شخصه فحسب:

«وهنا لابد أن أسجل فضل العقول المصرية في هيئة عمليات القوات المسلحة مع العقول الأخرى في تخصصات مختلفة بالقوات المسلحة التي ساهمت بعلم واقتدار في بحث نواحي علمية وفنية كثيرة استدعتها هذه الدراسة ، والتي لولاها لما أمكن تحديد أنسب شهر وأفضل يوم لشن الحرب. وحتى أعطي الفضل لأصحابه ، فإني أقول إن هذه الوثيقة هي (كشكول هيئة عمليات القوات المسلحة) التي أعتز وأفخر أني كنت رئيساً لها في فترة هامة من تاريخ القوات المسلحة وتاريخ مصر».

ويجد المشير الجمسي سعادة بالغة في أن ينقل الفقرة التي تحدث بها الرئيس السادات عن هذه المذكرة في كتابه «البحث عن الذات» حيث يقول الرئيس العظيم :

«... في أبريل ١٩٧٣ جاء الرئيس حافظ الأسد إلى مصر في زيارة سرية. كان الفريق الجمسي وقتها مدير العمليات بالقوات المسلحة ، فأحضر لنا المذكرة التي دون فيها المواعيد المناسبة للعمليات الحربية على مدار السنة من وجهة نظر العلوم العسكرية [لاحظ هنا ما أشرنا إليه من قبل وهو أن السادات يقول فأحضر لنا أي أن الجمسي هو الذي أحضر لهم الكراسة بينما الجمسي العظيم يقول إن المشير أحمد إسماعيل هو الذي عرض الكراسة ولم يحضر هو هذا العرض!!]، وقد كانت مكتوبة بخط يد الجمسي لأنها سرية ، وهي ثلاث مجموعات من الأيام. المجموعة الأولى في مايو ١٩٧٣ ، والثانية في أغسطس وسبتمبر ١٩٧٣ والثالثة في أكتوبر ١٩٧٣ . (صحتها: مايو والثانية أغسطس والثالثة سبتمبر/ أكتوبر ١٩٧٣).

على هذا النحو يفتح الجمسي الأقواس ليصحح رواية رئيس الجمهورية، وإذا به

حريص على أن يضم سبتمبر إلى أكتوبر بدلاً مما فعله السادات بضمه إلى أغسطس، ولا يقولن قارئ وما الفارق؟ فالفارق كبير، إذ لابد أن تروى الحوادث على نحو ما حدثت بالفعل وليس بالتقريب!!.

«كانت أنسب هذه المجموعات مجموعة أكتوبر وخاصة أن الجبهة السورية ابتداء من نوفمبر حتى الربيع غير جاهزة للعمليات نظراً للظروف الطبيعية هناك».

ويستطرد الرئيس السادات فى كتابه قائلا :

«فى هذا الاجتماع كنت أنا وحافظ الأسد وحدنا فى برج العرب بالصحراء الغربية غرب الإسكندرية. فقلت له: لقد قررت أن أدخل المعركة هذا العام، وأعطيت تعليماتى للفريق أول احمد إسماعيل، فما رأيك؟».

«قال لى (أى الرئيس الأسد): أنا معك وداخل وبنجهز نفسنا... اتفقت مع حافظ الأسد ألا نبدأ المعركة إلا بعد تكوين مجلس أعلى مشترك للقوات المسلحة المصرية السورية. كونا هذا المجلس المشترك، واجتمع فعلاً فى أغسطس ١٩٧٣ فى الإسكندرية ليضع اللمسات الأخيرة للمعركة».

(١٧)

وفى قدر كبير من التمهيد للحديث عن دوره ودور القوات المسلحة فى حرب أكتوبر يحدثنا صاحب هذه المذكرات عن عمله كرئيس لهيئة عمليات القوات المسلحة وهو المنصب الذى ظل فيه منذ بداية ١٩٧٢ (وكان الوزير فى ذلك الوقت هو الفريق أول محمد صادق) وحتى قامت الحرب فى ٦ أكتوبر، وفى فقرات سريعة موجزة يحدثنا الجمسى عن الجهود الضخمة التى سبقت الحرب والتى تضافرت فيها أجهزة الدولة جميعا فى وزارات البترول والرى والكهرباء ..... الخ وكيف شكل مجلس الوزراء نفسه لجنة لمعاونة الوزارات فى هذا المجال، وهكذا كان الجمسى يقترب من صورة رجل الدولة المسئول بخطوات واسعة ووئيدة، ولنا أن

نقارن هذا بالموقف الذى يصوره صاحب المذكرات نفسه عن مركز القيادة المتقدم فى حرب ١٩٦٧ والذى لم يكن له من دور إلا انتظار وصول المشير عامر إليه لكى يدير المعركة من خلاله:

« وبدأ عام ١٩٧٢، وصدر قرار تعيينى فى منصب «رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة » فى الأسبوع الأول من يناير من ذلك العام. وكنت أقدر عبء هذا المنصب ومسئولياته فى هذا الوقت العصيب ، وبرغم أنى لن أبدأ من فراغ ، لأن جهد الرجال الذين سبقونى لا يمكن تجاهله أو إغفاله».

«كنا لا نزال نلعق جراحنا منذ حرب يونيو ١٩٦٧ ، هذه الحرب التى خسرناها لأخطاء سياسية وعسكرية ارتكبناها. وخاضت القوات المسلحة بعد ذلك معارك متتالية ضد إسرائيل ، تدرجت من مرحلة الدفاع ، إلى مرحلة الدفاع النشط ، وتصاعدت إلى حرب الاستنزاف ، حتى دخلنا مرحلة اللاسلم واللاحرب ، ومنها إلى طريق مسدود أمام الحلول السلمية لمشكلة الشرق الأوسط».

«وكان لدينا فى هيئة عمليات القوات المسلحة جهاز تخصص لموضوع «إعداد الدولة للحرب » بالتعاون مع باقى أجهزة الدولة. وقد قامت كل وزارة بوضع خطتها للعمل أثناء الحرب بالتنسيق مع فرع إعداد الدولة للحرب».

«وكانت هناك بعض الموضوعات البارزة ، والتى كانت موضع اهتمامنا فى القوات المسلحة. فقد كان توفير المخزون من البترول الذى يضمن تلبية احتياجات الدولة والقوات المسلحة أمراً هاماً ، وكان التنسيق كاملاً مع وزارة البترول فى كل مايتعلق بالبترول حتى إطفاء الشعلة فى حقول البترول عند نشوب الحرب».

«وكان تأمين السدود والقناطر ضد الأعمال المعادية المحتملة موضوعاً هاماً آخر ، تم بحثه مع وزارة الرى. وكان السد العالى وخزان أسوان من أهم المشروعات التى نالت عناية خاصة لتأمينها عسكرياً بمعرفة القوات المسلحة وتأمينها فنياً بواسطة وزارة الرى».

«وموضوعات أخرى كثيرة نالت نفس العناية مثل تأمين الإمداد بالطاقة الكهربائية وتأمين شركة مصر للطيران وأسلوب عملها أثناء الحرب».

وفى فقرة مهمة لا يغفل صاحب المذكرات الاشادة بروح المسئولية التى تناول بها مجلس الوزراء تحديد دور أجهزة الدولة المختلفة فى الإعداد للحرب بطريقة منهجية دقيقة:

«وقرر مجلس الوزراء فى ١٣ ديسمبر ١٩٧٢ تشكيل لجنة من القوات المسلحة لمعاونة الوزارات فى إعداد تصورها لموقفها ودورها أثناء العمليات الحربية ومراجعة خطط الطوارئ للوزارات. وتشكلت هذه اللجنة برئاسة الزميل اللواء مهندس عبدالفتاح عبد الله مساعد وزير الحربية وقتئذ، للاتفاق مع الوزارات على أسلوب عملها خلال الحرب بالشكل الذى يضمن استمرار السيطرة وحسن الأداء واستمرار حركة العمل وحشد الجهود المادية والمعنوية لدعم المجهود الحربى طوال فترة الصراع المسلح».

(١٨)

وعلى صعيد آخر يتحدث صاحب هذه المذكرات عن دور مهم جداً أداه فيما قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ وهو دوره فى تنسيق العمل العسكرى بين القوات المصرية والسورية ومن المهم أن نقرأ هذه الفقرات التى تسجل بكل فخار مدى النجاح الذى تحقق من جراء هذا التعاون الأخوى المثمر، كما أن هذه الفقرات تدلنا على أن قيام الجمسى بهذا الدور لم يبدأ بتوليه رئاسة هيئة العمليات وإنما يعود [وهذا هو وجه التقدير للمؤسسة العسكرية المصرية فى عهدها الجديد بعد هزيمة ١٩٦٧] إلى زمن أبعد من ذلك بل إلى الوزير الأسبق محمد فوزى، أى قبل عهد الفريق صادق وقبل عهد المشير أحمد اسماعيل، وهكذا كان عمل قواتنا المسلحة يتواصل ويتكامل فى كثير من الجزئيات من دون حساسيات، ونحن نرى أن هذه المسئولية عن التعاون مع القوات المسلحة السورية كانت تنتقل مع الجمسى بصفة شخصية فى كل وظيفة يتولاها، وهو أسلوب جدير بالاقتداء حيث يمكن البناء على تنامى المعرفة الشخصية.

يحدثنا صاحب هذه المذكرات عن تفصيلات مهمة فى صياغة هذا التعاون وتوجيهه من أجل تحقيق النصر، كما يشير إلى تكرار زياراته للقوات السورية فى الجبهة السورية وفى عمق سوريا، كما يحدثنا عن أن هذا التعاون العسكرى كان (على عكس الخبرات العسكرية السابقة) جاداً ومثمراً، ويرجع المشير الجمسى النجاح الذى تحقق فى هذا الصدد إلى التعاون الصادق بين الرئيسين السادات والأسد، وفى عبارات عامة ولكنها موحية ينبه الجمسى إلى أهمية الأناة والحكمة والاتزان فى مثل هذه العلاقات، وإلى فاعلية الإيمان بالهدف الواحد والمصلحة الواحدة .. ولنقرأ ما يرويه حيث يقول:

«كنت مسئولاً عن تنسيق العمل العسكرى بين القوات المصرية والسورية منذ عام ١٩٧٠ ، عندما كان الفريق أول محمد فوزى وزيراً للحربية ، وكانت تنتقل هذه المسئولية معى فى كل وظيفة أتولاها ، وظلت معى بعد تعيينى رئيسا لهيئة عمليات القوات المسلحة. وكان يعمل معى مجموعة محدودة العدد من الضباط فى هذا الاختصاص فى صمت كامل وسرية مطلقة».

«لقد تعددت زياراتنا للقوات السورية فى مواقع تمركزها فى الجبهة وفى عمق الدولة ، الأمر الذى أتاح لنا فرصة التعرف عن قرب بقادتها واستعداد القوات وقدرتها على القتال ، كما تعددت زيارة القادة السوريين للقوات المصرية لنفس الغرض. وكانت تتم كل هذه الزيارات وتبادل المعلومات عن العدو وخبرات القتال ضده فى سرية تامة. وتولدت الثقة بين القادة العسكريين فى مصر وسوريا ، وأصبح هناك اقتناع لدى الجميع بأهمية وجدية التعاون بين الجبهتين فى الصراع المسلح ضد إسرائيل لتحرير الأرض».

«وكان وزير الحربية فى مصر ، بحكم اتفاقية بين مصر وسوريا ، هو القائد العام لقوات الجبهتين المصرية والسورية ، وهو الذى يتولى مسئولية تعاون قوات الجبهتين فى العمل العسكرى المشترك. لم يكن هذا العبء بالأمر السهل ، خصوصاً أن الخبرة السابقة عن التعاون العسكرى بين الدول العربية أنه كان يأخذ طابعاً سياسياً مظهرياً أكثر منه عملاً عسكريا حقيقياً. ولكن الوضع ـ استعداداً لحرب أكتوبر ـ كان مختلفا تماماً ، وتطلب أن يكون العمل العسكرى الجاد منبعثاً من تعاون كامل بين القيادتين

السياسية والعسكرية فى الدولتين. والحق يقال أنه لولا الاتفاق والتعاون بين القيادة السياسية للدولتين ـ الرئيسين السادات والأسد ـ لما أمكن إيجاد التعاون العسكرى بين الدولتين ووضعه موضع التنفيذ بتخطيط للتعاون المشترك واتخاذ قرار الحرب بقرار مشترك».

ثم يبلور المشير الجمسى هذه المعانى فى قوله:

«ويمكننى القول إن الخطوة الأولى للتعاون العسكرى بين مصر وسوريا اتخذت عندما كان الفريق أول محمد فوزى وزيراً للحربية ، واستمر هذا العمل فى نفس الاتجاه عندما تعين الفريق أول محمد صادق وزيراً للحربية ، ووضع موضع التنفيذ الفعلى بعد ما تعين المشير أحمد إسماعيل وزيراً للحربية».

«أتيحت لى فرصة مرافقة كل منهم أثناء زياراتهم لسوريا ، وحضور المناقشات التى كانت تدور هناك فى دمشق أو تدور هنا فى القاهرة ، وكانت كلها بناءة وإيجابية. لقد كانت الخطوات ليست متسرعة ، بل كان العمل يسير بحكمة واتزان ، إلى أن أصبح هناك إيمان بالهدف الواحد والمصلحة الواحدة وطريق التحرير الواحد. تلك كانت خطوة رئيسية وهامة خلال عام ١٩٧٢ فى الطريق إلى حرب أكتوبر» .

(١٩)

وننتقل الآن إلى الآراء التى سجلتها مذكرات الجمسى فى المسائل الخلافية الكبرى التى لا يزال وسيظل يدور حولها الجدل فيما يتعلق بحرب أكتوبر ١٩٧٣ ولنبدأ برأيه الواضح والصريح فى موضوع الثغرة حيث يرى المشير الجمسى أبعاداً أخرى للموضوع تتعلق بمهابة جيش الدفاع الإسرائيلى وقدرته ومكانته وبالثقة بين إسرائيل وأمريكا وبرغبة أمريكا فى تحويل دفة الصراع.

وهو بدقته الشديدة ونظرته الشاملة يجيد تصوير الموقف من ناحية العدو مقدما الرؤية الاستراتيجية التى حكمت تصرفات العدو ودفعته دفعاً إلى أن يحاول جهده إلى النهاية من أجل نجاح مثل هذه المعركة حيث يقول:

«الثغرة معركة من معارك أكتوبر ٧٣ كانت فيها المبادأة في يد العدو.. والتفوق العسكرى في يد العدو، ونجح في هذه المعركة وهى معركة الدفرسوار».

«ولو رجعنا إلى أسباب الثغرة نجد أن سلسلة من الأخطاء العسكرية التى ارتكبتها إسرائيل والهزائم المتوالية لها من يوم ٦ أكتوبر حتى يوم ١٥ أكتوبر جعلت اسم جيش الدفاع ينهار والثقة التى تولدت فيه بواسطة الشعب الإسرائيلى قد فقدوها .. والقادة العسكريون الذين كانوا بالأمس نجوما لامعة بعد حرب يونيو ٦٧ هوت إلى الأرض!!».

«والسبب الثانى الذى دفع الإسرائيليين إلى التصميم على نجاح هذه المعركة أن أمريكا كانت يهمها لسبب سياسى أن تنجح إسرائيل فى إحدى الجبهتين وتنجح فى معركة كبيرة تغير بها الموازين والتى بناء عليها تصبح ورقة رابحة فى يد أمريكا فى نهاية الحرب. ولهذا أقامت أمريكا جسرا جويا كبيرا لإسرائيل استطاعت به التفوق العسكرى فى هذا الوقت مما أدى إلى ثغرة الدفرسوار».

«وأخطر من هذا وذاك أن دعائم استراتيجية إسرائيل هُدمت فى حرب أكتوبر حتى يوم ١٥ أكتوبر ولم يبق أمام وزارة الدفاع الإسرائيلية إلا أن تقوم بعمل انتحارى لتبين أنها قادرة على أن تفرض نفسها على المنطقة».

«ولأن أمريكا فى حاجة إلى إسرائيل لتأمين مصالحها فى المنطقة كان الجسر الجوى .. ولو كانت أمريكا قد فقدت ثقتها فى إسرائيل لانهارت إسرائيل بالكامل» .

(٢٠)

ولابد أن ننقل للقارئ دون تعليق خلاصة حديث المشير الجمسى عن تفصيلات إقامة الجسر الجوى الأمريكى إلى إسرائيل وحجمه هو الجسر الذى بدأ منذ الأيام الأولى من معركة أكتوبر، ذلك أن هذا الوصف كفيل بتصوير مدى إدراك المشير الجمسى لحدود المعركة التى بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تفرضها على مصر:

«لم تكتف إسرائيل بطائرات الجامبو السبع لشركة العال لنقل احتياجاتها من الأسلحة والمعدات، لذلك عملت محاولات لاستئجار طائرات نقل مدنية أمريكية لسرعة إجراء النقل، ولكن شركات الطيران رفضت التعاون فى هذا المجال خوفاً من المقاطعة العربية».

«اتجه التفكير الأمريكى إلى استخدام طائرات النقل العسكرية الأمريكية لنقل الأسلحة والمعدات إلى جزر الأزور فى المحيط الأطلنطى، ومنها تنقلها طائرات شركة العال وأى طائرات مدنية أخرى إلى إسرائيل، وبذلك تستفيد إسرائيل من قصر المسافة وتعدد الرحلات. واتضح أن هذه الطريقة لا تحقق سرعة نقل الاحتياجات بالكميات الكبيرة المطلوب نقلها».

وبناء على اقتراح «مجموعة العمل الخاص» برئاسة الدكتور كيسنجر، اتخذ الرئيس نيكسون قراراً هاماً وحيوياً لصالح إسرائيل فى هذه الحرب. وكان هذا القرار هو إنشاء «جسر جوى أمريكى» تستخدم فيه طائرات النقل العسكرية الأمريكية لنقل احتياجات إسرائيل رأساً من المستودعات الأمريكية إلى إسرائيل، وبذلك اتصل شريان الحياة لإسرائيل بعد أن استجابت أمريكا لطلبات إسرائيل».

«لقد بذل الدكتور كيسنجر جهداً كبيراً للحصول على قرار إنشاء الجسر الجوى الأمريكى ـ كما أوضحه بنفسه فى مذكراته ـ بدءاً من النداء العاجل الذى وجهته جولدا مائير لأمريكا صباح يوم ٩ أكتوبر، حيث تلقت وعداً وضماناً بتعويضها عن خسائرها، إلى أن تم تنفيذ الجسر الجوى بطائرات نقل السلاح الجوى الأمريكى».

....

ويشير الجمسى فى هذه المذكرات إلى أن كسينجر اعترف بأنه كان حريصا بإلحاح على الاسراع فى توصيل الاحتياجات لإسرائيل، وأنه كان أكثر زملائه إلحاحا، وذلك لكى يجعل هناك تكافؤا بين «ما نعمل من حيث مساندة إسرائيل وتقريب وقت انتهاء المعارك، مع ما يقوم به السوفييت من إقامة جسر جوى لمساندة العرب» وذلك على حد تعبير كيسنجر نفسه!

(٢١)

ويورد الجمسى أرقاما مهمة عن الجسر الجوى الأمريكى وعدد الطلعات المتاحة لكل نوع من الطائرات التى شاركت فى هذا الجسر، وهى أرقام مذهلة:

«استخدمت أمريكا لتنفيذ الجسر الجوى ٢٢٨ طائرة نقل، منها ٥١ طائرة من طراز س ٥ وعدد ١٧ طائرة من طراز س ١٤١».

«ونفذت هذه الطائرات ٥٦٩ طلعة وصلت إلى إسرائيل تحمل الكميات الآتية:

١٤٧ طلعة بواسطة طائرات س ٥ نقلت ١١ ألف طن من الاحتياجات.

٤٢٢ طلعة بواسطة طائرات س ١٤١ نقلت ١١,٥ ألف طن من الاحتياجات.

«وحدد وزير الدفاع الأمريكى عدد الطائرات التى يسمح بهبوطها فى إسرائيل فى اليوم الواحد بعدد ٢٣ طائرة كحد أقصى لاعتبارات سياسية، منها ٦ طائرات س ٥ و١٧ طائرة س ١٤١».

«واستمر الجسر الجوى الأمريكى مدة ٣٣ يوماً اعتباراً من ١٣ أكتوبر حتى ١٤ نوفمبر ١٩٧٣، استخدم فيها حوالى ٢٤٪ من حجم طائرات النقل التابعة لقيادة النقل الجوى فى اليوم الواحد طوال مدة عمل الجسر».

«وقد تمكن الجسر الجوى من نقل ٢٢,٤٩٧ ألف طن من الأسلحة والمعدات والذخيرة إلى إسرائيل، نقل منها حوالى ٣٩٪ خلال الفترة من ١٣ إلى ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣، وذلك بالإضافة إلى ٨ طائرات مدنية إسرائيليةمن طراز (٧٤٧ و٧٠٧) قامت بنقل ٥٥٠٠ طن معدات خلال الفترة نفسها».

«واستكمالاً لإمداد إسرائيل بالأسلحة والمعدات، أنشأت أمريكا جسراً بحرياً خصص أساساً لنقل المعدات كبيرة الحجم، حيث وصلت أول سفينة إلى إسرائيل يوم ٢ نوفمبر ١٩٧٣ بحمولة ٣٣,٢١٠ أطنان من الدبابات والمدافع والعربات، وبلغ إجمالى ما تم نقله بالجسر البحرى ٧٤٪ من إجمالى حجم خطة الإمداد والمعونة

العسكرية العاجلة، وكان الغرض من ذلك هو تعويض خسائر الحرب وسرعة رفع الكفاءة القتالية للقوات الإسرائيلية بعد توقف القتال».

«اعتمد الجسر الجوى، ثم الجسر البحرى، على المخازن والمستودعات الموجودة في الولايات المتحدة. ومما يجدر ذكره أن بعض الدول الأوروبية رفضت تقديم المساعدات اللازمة لطائرات النقل الأمريكية أثناء رحلاتها (هبوط ـ إعادة تموين ـ حق المرور.. إلخ)، وهى: انجلترا وأسبانيا وإيطاليا واليونان وتركيا، الأمر الذى فرض على طائرات النقل الأمريكية اتخاذ خط سير متعرج للوصول إلى إسرائيل (وهنا يشير الجمسى على القارىء بمراجعة الخريطة الخاصة بخط السير لطائرات النقل تفادياً للمرور فى المجالات الجوية للدول)».

«وتكلفت عملية الجسر الجوى الأمريكى إلى إسرائيل ـ بخلاف ثمن المعدات ـ ٨٨,٥٥ مليون دولار».

(٢٢)

ويشير صاحب هذه المذكرات في هامش كتابه إلى أن الأرقام التى أوردها مأخوذة من تقرير مراقب عام الدولة الأمريكى بخصوص الجسر الجوى لإسرائيل عام ١٩٧٣.

ونلاحظ أن الرقم الذى أورده المشير الجمسى يكاد يزيد قليلا عن الرقم الذى أورده الفريق الشاذلى فى مذكراته وقد نقلناه عنه فى الباب الثانى من هذا الكتاب (رقم الجمسى فيما يخص الجسر الجوى الأمريكى = ٢٢,٤٩٧ ألف طن على حين أن الرقم الذى أورده الشاذلى = ٢٢,٣٩٥ ألف طن ـ ويتمثل الفارق بين الرقمين فى ١٠٢ طن) ولكننا نلاحظ أن أرقام المشير الجمسى والفريق الشاذلى متفقة فيما يتعلق بكوبرى شركة العال الإسرائيلية والذى تمكن من نقل ٥٥٠٠ طن، أما الفريق الشاذلى فقد أغفل حساب الجسر البحرى الذى خصص لنقل المعدات العسكرية كبيرة الحجم، ولايشير الجمسى إلى إجمالى ما نقله الجسر البحرى وإنما هو يشير إلى رقم

ضخم (٢١٠, ٣٢ طن) قامت بنقله أول سفينة إلى إسرائيل فى ٢ نوفمبر ١٩٧٣، ولكنه يشير إلى نسبة مئوية مهمة جداً حين يقول إن الجسر البحرى أتم نقل ٧٤٪ من إجمالى حجم خطة الإمداد والمعونة العسكرية.

وإذا صح هذا الرقم وصح فهمنا له فمعنى ذلك أن الجسر البحرى نقل لإسرائيل ثلاثة أضعاف الجسر الجوى (٢٦٪ مقابل ٧٤٪)، وقد رأينا الجسر الجوى بحسابات الفريق الشاذلى (وهى الأقل بحوالى مائة طن، وتشمل إجمالى كوبرى شركة العال + الكوبرى الجوى الأمريكى= ٢٧٨٩٥ طناً) ومعنى هذا لو صح فهمنا للرقم الذى أشار إليه المشير الجمسى أن الجسرين الجوى والبحرى قد نقلا إلى إسرائيل أكثر من مائة ألف طن من الاحتياجات العسكرية العاجلة التى فتحت المخازن الأمريكية لتزويد إسرائيل بها!!

(٢٣)

وبعد أن يشير الجمسى إلى محتويات الجسر الجوى المختلفة، وهى متنوعة ومتعددة ومتقدمة يبدأ فى تحليل من نوع آخر، يهدف به إلى تحليل التوقيت وأثره على سير المعارك، وهو تحليل مهم وقيم، ويرينا كيف أن امكاناتنا العقلية والعسكرية لم تخنا فى حرب أكتوبر، وإنما خانتنا غطرسة القوة الأمريكية التى لم تكن تريد أن تسمح أبداً بانهيار إسرائيل.

«ومن الملاحظ أن الجسر الجوى الأمريكى بدأ يوم ١٣ أكتوبر، وهو اليوم السابق لتطوير الهجوم المصرى فى اتجاه المضايق يوم ١٤ أكتوبر، وتمكنت إسرائيل من صد هذا الهجوم».

«ومما يلفت النظر أيضا أن أبرز الأيام التى تميزت بضخامة حجم المجهود الجوى المخصص للنقل إلى إسرائيل، كانت هى أيام: ١٥ و١٦ و١٧ و٢١ أكتوبر، وهى الفترة التى حدثت فيها ثغرة الدفرسوار وكانت لإسرائيل المبادأة فيها على الجبهة المصرية حتى إيقاف النيران يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣».

«وبهذا الجسر الجوى، تمكنت أمريكا من رفع الكفاءة القتالية للقوات الإسرائيلية في المرحلة الأخيرة من حرب أكتوبر ، الأمر الذى جعل ميزان القوة العسكرية يتحول إلى جانب إسرائيل، كما أبرزت أمريكا دعمها وتأييدها المطلق لإسرائيل فى هذه الحرب».

«وفى تقديرى: كان الجسر الجوى الأمريكى، وكذا الاستطلاع الجوى الأمريكى لجبهة القناة يوم ١٣ و١٥ أكتوبر سبباً رئيسياً لإحداث تفوق عسكرى إسرائيلى جعلها قادرة على تنفيذ الثغرة (معركة الدفرسوار) بنجاح، وبدون هذا الدعم العسكرى الأمريكى لإسرائيل بطريقة مباشرة وسافرة، ما كان يمكن لإسرائيل تحقيق النجاح الذى حققته فى المرحلة الأخيرة من الحرب».

(٢٤)

وحين يصل المشير الجمسى إلى رواية موقف القيادة المصرية من أحداث الثغرة، فإنه يلتزم تماماً بأسلوبه الحريص على رواية ما حدث بالفعل دون إضفاء تفسيراته أو إضافة وجهة نظره أو تغليب رأيه، وسنرى أنه كان من الذكاء والوعى بحيث أدرك ما أدركه السادات وأحمد إسماعيل من خطورة تحريك القوات من الشرق! وسنرى كيف كانت معركة أكتوبر العظيمة تدار بعقول راجحة، ويستمع القائد الأعلى فى أحلك لحظاتها إلى رأى القادة واحداً بعد آخر، وسنرى أيضا بوضوح كيف كانت هناك رؤية، ومعلومات، ووجهات نظر، ومناقشة.. ونحن نقارن هذا بالاندفاع المحموم إلى اتخاذ القرار بالانسحاب دون أدنى مبرر فى أول أيام حرب ١٩٦٧ فندعو بالرحمة والمغفرة لهؤلاء القادة الذين حفظوا علينا كرامتنا وحريتنا ووطننا وانتصارنا.

وسنرى ونحن نقرأ ما يرويه الشاذلى عن نفسه ـ فى الباب الثانى من هذا الكتاب ـ مدى الصدق الشديد والدقة المتناهية اللذين التزم بهما الجمسى فى عرض وجهات النظر، ومع أننا من موقع القراءة وموقع المواطنة نأخذ صف السادات وأحمد

إسماعيل، إلا أن هذا لا يعني أن نزدري اجتهاد الشاذلي أو أن نعرض به، ولكننا نستطيع من قراءتنا لما حدث من قبل في ١٩٥٦ و١٩٦٧ ولإمكانات الجيش المصري وللتأثير المعنوي للقرارات الكبرى، نستطيع من هذا كله بل ومن بعضه أن نفهم أن الأخذ بوجهة نظر الشاذلي كان كفيلاً بأن يقود الجيش المصري كله إلى سكة الندامة والتهلكة التامة على نحو ما حدث في ١٩٦٧، ولم يكن الحديث عن انهيار القوات المسلحة المصرية يحتاج بعد قرار العودة إلى الغرب إلى أي مبرر آخر!! ولم يكن من الممكن أبداً أن تنجح هذه الألوية الأربعة في العودة إلى الغرب سالمة لأن أفرادها أنفسهم سيكونون قد هزموا بالفعل حين يطلب إليهم مثل هذا الطلب، ولنقرأ الآن ما يرويه الجمسي تحت عنوان «أحداث مساء يوم ٢٠ أكتوبر» وسنلاحظ أن المشير الجمسي منتبه تمام الانتباه إلى أن هذا الاجتماع عقد مساء يوم ٢٠ أكتوبر على حين أن الفريق الشاذلي في مذكراته يظن أن هذا الاجتماع عقد مساء يوم ١٩ أكتوبر على نحو ما روى الرئيس السادات نفسه هو الآخر في مذكراته، وقد حقق اللواء جمال حماد تاريخ هذا الاجتماع وتوصل إلى أن الصواب هو أن الاجتماع عقد مساء يوم ٢٠ أكتوبر، وقد اعترف الفريق الشاذلي في خطابه الأول إلى جمال حماد والذي نشر كملحق في كتاب «المعارك الحربية على الجبهة المصرية» أنه أخطأ في ذكر تاريخ الاجتماع لأسباب منها أنه اعتمد على ما رواه السادات نفسه في كتابه البحث عن الذات.

وعلى كل الأحوال فلنقرأ ما يرويه المشير الجمسي:

« عندما حضر الرئيس السادات إلى مركز العمليات حوالي الساعة العاشرة والنصف مساء يوم ٢٠ أكتوبر ، كان الفريق الشاذلي واللواء محمد حسني مبارك واللواء محمد علي فهمي وأنا واللواء فؤاد نصار مدير المخابرات الحربية واللواء سعيد الماحي مدير المدفعية مجتمعين في غرفة المؤتمرات داخل مركز العمليات».

«اجتمع الرئيس مع الفريق أول أحمد إسماعيل على انفراد لمدة حوالي ساعة قبل بدء المؤتمر. ومن الطبيعي أن يكون الوزير أحمد إسماعيل قد قدم للرئيس تقريراً عن الموقف ، ووجهة نظره ، ورأي الفريق الشاذلي ، وهما رأيان متعارضان لمواجهة هذا الموقف. وكانت نقطة الخلاف الرئيسية هي أن الشاذلي كان يرى سحب أربعة لواءات مدرعة من الشرق إلى الغرب ، أما أحمد إسماعيل فكان يرفض ذلك».

«دخل الرئيس ومعه الوزير أحمد إسماعيل والمهندس عبد الفتاح عبد الله وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية غرفة المؤتمرات. طلب الرئيس رأى المجتمعين واحداً بعد الآخر».

«بدأ مدير المخابرات الحربية [هو اللواء إبراهيم فؤاد نصار] بشرح موقف العدو ونواياه التى أبرز فيها أن العدو يهدف من معركته غرب القناة إلى احتلال مدينة الإسماعيلية أو السويس، وهو ما يحقق له هدفاً سياسياً بالإضافة لتأثير ذلك على الموقف العسكرى لقواتنا».

«وكنت أنا المتحدث الثاني، حيث شرحت فى حديثي موقف قواتنا أبرزت فيه أن قواتنا فى شرق القناة قوية بالقدر الكافى الذى يجعل منها صخرة تتحطم عليها أى محاولات للعدو ضدها. ونظراً لأن الإنجاز العسكرى الكبير الذى تحقق بوجود قواتنا فى سيناء، لا يجب التنازل عنه أو تعريضه للخطر ،لذلك فإن المحافظة على قواتنا شرق القناة كما هى دون سحب أى قوات رئيسية منها أمر واجب. وكان رأيى أن سحب اللواءات المدرعة المصرية من الشرق إلى الغرب يترتب عليه اهتزاز دفاعات قواتنا فى الشرق الأمر الذى لايمكن قبوله. فضلاً عن ذلك فإن التأثير المعنوى على القوات بعد سحب اللواءات المدرعة من الشرق يصبح شديداً بطريقة سلبية. وأتذكر أنى قدمت أعداد الأسلحة الرئيسية من الدبابات والمدفعية وأسلحة المشاة، وبصفة خاصة كميات الذخيرة الموجودة فى الشرق موضحاً أنها تكفى لتحقيق مهمة الاحتفاظ بمواقع قواتنا فى سيناء بكفاءة».

«وبعد أن استمع الرئيس لرأى باقى القادة، لاحظت أن الفريق الشاذلى لم يتكلم. وقرر الرئيس «عدم سحب أى قوات من الشرق مع احتواء قوات العدو فى الغرب».

على هذا النحو يذكر الجمسى ويثبت بروايته أن الفريق الشاذلى لم يتكلم، ومن العجيب أن الشاذلى نفسه فى مذكراته يذكر أنه لم يتكلم [ولا نقول يعترف أنه لم يتكلم]! بل إن الفريق الشاذلى يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فيروى أن وزير شئون الرئاسة عبدالفتاح عبدالله محمود لكزه وطلب إليه أن يبدى وجهة نظره، ولكن الشاذلى رد عليه بالتساؤل عن جدوى كلامه بينما الرئيس لم يستمع إلى وجهة نظره!

وعندى أن فقرة الجمسي التي عرضناها لتونا وفقرة الشاذلي التي في مذكراته لا تتناقضان بل تؤكدان على معنى واحد، وهو أن السادات في ذلك اليوم كان قد وصل إلى ذروة من الذرى الرفيعة التي حققها في حياته، وليس هناك محل للهجوم عليه أو لإثبات أن رؤية الشاذلي كانت أكثر صواباً، لا للسبب الذي أوضحناه في تعليقنا السابق فحسب، ولكن لسبب أهم، وهو أن الشاذلي نفسه كان حريصا (باعتراف الشاذلي نفسه) على ألا ينتهز الفرصة للتعبير عن رأيه فلم ينبس ببنت شفة، ومن حُسن حظ مصر أن الشاذلي لم يكن القائد العام أو القائد الأعلى وإلا لتكررت بسهولة ويسر مأساة ١٩٦٧ بعد كل هذا الإنجاز الذي تحقق.

(٢٥)

ويؤكد لنا صاحب المذكرات بما يرويه عن الساعات الأخيرة التي سبقت حرب أكتوبر ١٩٧٣ مدى الحنكة والحكمة اللتين تمتع بهما المشير أحمد اسماعيل في كل الأوقات، فالجمسي يروى قصة صدور توجيه استراتيجي في ٥ أكتوبر بعد أن صدر توجيه سياسي وعسكري في أول أكتوبر (التوجيهان من الرئيس السادات إلى الفريق أول أحمد اسماعيل).

ولا يزعم الجمسي أنه أعجب بالتوجيه ولا سُرّ منه ولا قدره ، إنما هو يعترف في أدب شديد بأنه سأل القائد العام عن سر إرسال القائد الأعلى لهذه الوثيقة فإذا بالمشير أحمد اسماعيل نفسه يخبره بأنه هو الذي طلب هذا التوجيه حتى تكون الأمور محددة بوضوح . وللقارئ أن يقارن الآن وهو يقرأ رواية الجمسي بين هذا الذي يرويه واحد من القادة، وبين ما يرويه أي قائد من القادة وأي سياسي من السياسيين عن الحوار الذي دار في لحظة مماثلة بين الرئيس عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر حين قال المشير « برقبتي ياريس » ولم يعقب الرئيس بشيء إلا الاطمئنان .

ومن أعجب ما يمكن أن الجمسي لم يكن وحده الذي تعجب لموقف المشير أحمد اسماعيل وإنما تعجب أيضاً الفريق الشاذلي (رئيس الأركان والرجل الثاني في

القوات المسلحة بعد أحمد اسماعيل) ، ومصدرى فى هذا هو مذكرات الفريق الشاذلى نفسه ، وحسبما روى الشاذلى الذى لم يكن على وفاق مع أحمد اسماعيل فقد أوضح له أحمد اسماعيل ما أوضحه للجمسى بكل صراحة وثقة ووضوح.

وربما ندرك الآن وقد تباعدت الأحداث حقيقة مهمة وهى أن أحمد إسماعيل كان يتمتع بقدر من الحنكة يفوق ما يتمتع به رئيسا الأركان اللذان عملا معه على التوالى (الشاذلى والجمسى)، وليس هناك محل للحديث اللاوى لعنق الحقيقة عن بيروقراطيته أو خوفه استنادا إلى مثل هذا الموقف الواعى والذكى، ولسنا نستطيع أن ننكر أن أحمد إسماعيل كان قد تمتع بخبرة قيادية تفوق خبرات الشاذلى والجمسى بمراحل كثيرة، فقد عمل قائداً للجبهة كلها بعد حرب ١٩٦٧، كما عمل رئيساً للأركان فى ١٩٦٩، كما تولى رئاسة المخابرات العامة، وفيما قبل هذا فقد كانت فرصته للاحتكاك بعبدالناصر وبالسادات وبفهم عقليات وتصرفات هذين الرئيسين أكبر بكثير جداً من خبرة أى قائد آخر من قادة القوات المسلحة فى ذلك الوقت، فهو فى الأصل من دفعة جمال عبدالناصر، كما أنه منذ قيام الثورة أصبح أحد القادة المتقدمين والمحترفين الذين تولوا قيادات متعاقبة مهمة.

(٢٦)

هكذا نفهم من مذكرات المشير الجمسى أنه كان فى وسع المشير أحمد إسماعيل أن يتعامل بدقة مع الرئيس أو القائد الأعلى دون أن يتنازل عن حقوقه السياسية أو العسكرية. وربما يضيف البعض إلى هذه الصورة أن أحمد إسماعيل نفسه عانى من الظلم ومن الاستبعاد من القوات المسلحة مرتين لم يلبث أن عاد بعدهما إلى القوات المسلحة، ومع أن هذا قد يبدو مبرراً قابلاً للاستناد إليه فى فهم خلفيات تصرفاته هذه، إلا أن العقل البشرى المنصف ليعجز فى النهاية عن أن يظن أن كل هذا كان من باب النتائج والأسباب، وإنى لأعترف بأن كل هذا لم يكن إلا أسباباً سببها الله لكى يحقق لنا النصر بعد جهادنا من أجله. ولنقرأ ما يرويه الجمسى عن مواقف أخرى ،

حازمة ومتعقلة ومبصرة قدمتها ومارستها قيادة قواتنا المسلحة فى الساعات القليلة التى سبقت الحرب.. وها هو يروى فيقول:

«وفى هذا اليوم أصدر الرئيس السادات توجيهاً إستراتيجياً إلى الفريق أول أحمد إسماعيل ـ مؤرخاً ٩ رمضان ـ ٥ أكتوبر ١٩٧٣ ـ نصه الآتى:

١ـ بناء على التوجيه السياسى العسكرى الصادر لكم منى فى أول أكتوبر ١٩٧٣ ، وبناء على الظروف المحيطة بالموقف السياسى والإستراتيجى ، قررت تكليف القوات المسلحة بتنفيذ المهام الإستراتيجية الآتية :

أ ـ إزالة الجمود العسكرى الحالى بكسر وقف إطلاق النار اعتباراً من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

ب ـ تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة فى الأفراد والأسلحة والمعدات .

جـ ـ العمل على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نمو وتطور إمكانيات وقدرات القوات المسلحة.

٢ـ تنفذ هذه المهام بواسطة القوات المسلحة المصرية منفردة أو بالتعاون مع القوات المسلحة السورية.

«عندما أطلعنى الفريق أول إسماعيل على هذا التوجيه الاستراتيجى ، طلبت منه معرفة الأسباب التى من أجلها أرسل الرئيس السادات هذه الوثيقة ، برغم أن لدينا التوجيه الإستراتيجى المؤرخ أول أكتوبر ١٩٧٣ الذى يقضى بالحرب ، وأن الهدف الاستراتيجى محدد فيه ، وأن خطة العمليات التى ستنفذ معروفة له تماما ، وأن الحرب تبدأ يوم ٦ أكتوبر».

«قال لى الفريق أول أحمد إسماعيل إنه هو الذى طلب هذا التوجيه حتى تكون الأمور ـ للتاريخ ـ محددة بوضوح. ففى الوثيقة الجديدة نص صريح بكسر وقف إطلاق النيران اعتباراً من يوم ٦ أكتوبر ولم يكن ذلك محدداً من قبل علما بأن هذا القرار سياسى قبل أن يكون قراراً عسكرياً. كما أن الوثيقة الجديدة تنص صراحة على العمل على تحرير الأرض على مراحل متتالية حسب نمو وتطور إمكانيات وقدرات القوات المسلحة ، حتى لا يفهم مستقبلاً أنه كان مطلوباً تحرير سيناء بالكامل. وهذا

يؤكد مرة أخرى ـ للتاريخ ـ المهام الاستراتيجية المحددة من القيادة السياسية للقوات المسلحة».

....

«اشترك فى وضع خطة المفاجأة عدد محدود جداً من ضباط هيئة عمليات القوات المسلحة ، وكتبت بخط اليد كخطة العمليات تماما. واشتملت الخطة على إجراءات وأعمال كثيرة متنوعة فى مجالات مختلفة بحيث تتكون صورة متكاملة أمام العدو أن قواتنا فى مصر وسوريا ليس لديها نية الهجوم ، بل نعمل لتقوية دفاعاتنا واستعدادنا ضد هجوم إسرائيلى محتمل».

(٢٧)

ومن المهم أن نقرأ بإمعان مدى الولاء والحب الذى يدين به المشير الجمسى للمشير أحمد اسماعيل فهو حريص على أن يذكر فضله وجهده فى أثناء الحرب وقبيل اندلاعها مع أنه كان فى وسعه أن ينسب بعض هذه المواقف الشجاعة والمحنكة إلى نفسه أو إلى مجموعة القادة أو أن يتجاهل دور أحمد اسماعيل كلية ، ولكن الجمسى بما يتميز به من خلق رفيع وعسكرية ملتزمة يضرب لنا المثل الرائع فى الولاء والوفاء والانتماء ولنقرأ معاً ما يرويه مثلاً حين يقول:

« وكان الحادث الثانى الذى علمت به ، عندما دخلت إلى مكتب الفريق أول أحمد إسماعيل أثناء حديثه التليفونى يوم ٥ أكتوبر مع وزير الطيران المدنى المهندس أحمد نوح ، طالباً منه إلغاء التعليمات التى أصدرها لتأمين طائرات شركة مصر للطيران التى كانت تتضمن مغادرة بعض طائرات الشركة لمطار القاهرة الدولى وتغيير مواعيد بعض الرحلات الأمر الذى يسهل رصده دولياً ، وبالتالى تعلم به إسرائيل حتما وبسرعة. وقد أمكن تدارك الموقف فى الوقت المناسب بحيث تظل حركة الطيران المدنى عادية».

«فى حوالى الساعة الثانية عشرة ظهر اليوم سألنى الفريق أول أحمد إسماعيل

وكان السؤال هو الثالث خلال نفس اليوم عن موقف العدو. وأتذكر أنى قلت للفريق أول أحمد إسماعيل "« سبق السيف العزل بالنسبة لإسرائيل، فقد أصبح الوقت متأخراً كى يتمكن العدو من القيام بعمل عسكرى مؤثر».

«أخذ الوقت يمر بطيئاً ... بطيئاً. ومرت الساعة الباقية حتى إقلاع طائرات قواتنا الجوية لتوجيه الضربة الجوية المركزة الأولى ... مرت طويلة ... طويلة ».

(٢٨)

ويتحدث المشير الجمسى بصراحة شديدة ووضوح رؤية عن موقفه وموقف المشير أحمد اسماعيل فى أثناء الأيام الأولى للحرب ، وعن بعض الاختلافات فى وجهات النظر التى حدثت بينهما، وهو حريص على أن يذكر أنه كان من رأيه ضرورة تطوير الهجوم شرقا طبقاً للخطة ، ولكنه مع ذلك حريص وبنفس القدر على أن يذكر وجهة نظر أحمد اسماعيل وما أبداه من حجج أسس عليها موقفه ورؤيته، ولا أظن أن هناك من يجد نفسه غير مضطر للوقوف إجلالاً واحتراما للجمسى العظيم وهو يروى الرؤية المخالفة لوجهة نظره بكل هذا الاحترام الشديد :

« كان من رأيى ضرورة استغلال الموقف لتطوير الهجوم شرقاً طبقاً للخطة دون أن نتوقف طويلاً حتى نحرم العدو من فرصة تدعيم مواقعه أمام قوات الجيش. وهذا يعنى أن استئناف الهجوم يتم فى الظرف الأفضل لنا والأسوأ للعدو. ناقشت الفريق أول أحمد إسماعيل فى هذا الموضوع يوم ٩ أكتوبر خلال مقابلتين معه داخل مركز العمليات. وجدت منه الحذر الشديد من سرعة التقدم شرقاً ، فكان يرى الانتظار لتكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة من أوضاع قواتنا فى رءوس الكبارى قبل استئناف الهجوم».

«وكان الفريق أحمد إسماعيل يرى أيضاً أن القوات البرية القائمة بالهجوم ستتعرض بشدة للطيران الإسرائيلى فى وقت لا تتمكن فيه المقاتلات وصواريخ الدفاع الجوى من توفير الحماية الكافية لها. وفى مناقشتى معه أوضحت أن استئناف

هجومنا يترتب عليه التحام قواتنا مع قوات العدو ، الأمر الذى يجعل تأثير السلاح الجوى الإسرائيلى أقل. وللحد من تأثير السلاح الجوى المعادى ، يجب استغلال طاقة قواتنا الجوية التى أثبتت قدرتها ضد طيران العدو خلال الأيام الأربعة ٦-٩ أكتوبر. فضلاً عن ذلك فإن صواريخ الدفاع الجوى - خفيفة الحركة - برغم قلتها إلا أنها مؤثرة ، وفى نفس الوقت يمكننا تحريك بعض كتائب صواريخ الدفاع الجوى - بطيئة الحركة - على وثبات للأمام».

«وقلت أيضاً إن احتفاظنا بالمبادأة باستئناف الهجوم استغلالاً للنجاح الذى تحقق يعطينا فرصة تحقيق الهدف الإستراتيجى بنجاح برغم أننا نتحمل الخسائر ، ولكنها خسائر مقبولة. وفى المقابل فإن طول الانتظار يعطى فرصة أفضل للعدو ليكون فى موقف أقوى عندما نستأنف الهجوم».

«لقد دارت المناقشة بين الفريق أول إسماعيل وبينى بطريقة موضوعية. وكنت أعرف عنه بحكم خدمتى السابقة معه أنه حذر جداً ، وكلما كانت المناقشة تطول بيننا أجد أنه برغم اقتناعه إلا أن عامل «الخسائر المتوقعة من الطيران المعادى» كان يسيطر على كل تفكيره ثم يعود إلى القول: لابد من المحافظة على القوات المسلحة سليمة».

«وكان القرار الذى وصل إليه برغم مناقشتى الطويلة معه ، أنه لابد من عمل «وقفة تعبوية» ثم يلى ذلك استئناف الهجوم على ضوء تطور الموقف ، وهو قرار ثابت فى ذهنه لا يحيد عنه. وفى نهاية المناقشة بعد مقابلتين طويلتين يوم ٩ أكتوبر مع الفريق أول أحمد إسماعيل ، وله كل الاعتزاز والاحترام منى ، قلت له: أرجو أن تتذكر أن خطة الحرب تقتضى تطوير الهجوم لاحتلال المضايق بعد نجاح الهجوم واقتحام القناة «بعد وقفة تعبوية أو بدونها». أى أن مبدأ التطوير شرقاً إلى المضايق هو مبدأ مقرر لا خلاف عليه ، وأصبح السؤال هو فقط: «متى يستأنف الهجوم؟».

وينتهى المشير الجمسى من هذا الحديث إلى أنه لايزال فى حاجة إلى الإجابة على هذا السؤال، ومن حسن الحظ أن الجمسى فى هذه المذكرات حريص على الدقة إلى هذا الحد دون أن يندفع إلى استنتاجات لايضمن صوابها:

«ويطرح السؤال نفسه: لماذا لم تنتهز القيادة العسكرية المصرية فرصة نجاحها حتى يوم ٩ أكتوبر ـ بعد أن حققت المهمة المباشرة بنجاح ـ لاستغلال هذا النجاح بتطوير الهجوم بسرعة فى اتجاه المضايق لتحقيق الهدف الاستراتيجى العسكرى؟!».

(٢٩)

هكذا يصل صاحب هذه المذكرات إلى بلورة الموقف وبلورة الفارق بين الرؤيتين أى بين رؤيته ورؤية المشير أحمد اسماعيل.

وحين يبدأ المشير الجمسى فى الإجابة نجده كعادة العلماء يحصر الآراء المتاحة ويصنفها، ثم يبدأ فى تفنيد جوانب الضعف فى كل منها للوصول إلى الصواب، وعلى الرغم من أن الجمسى لا يجاهر بالانحياز لرأى أو رؤية فإنه يدلنا على حقيقة مهمة جداً وهى أن الفريق الشاذلى نفسه لم يكن من الذين طالبوا بالإسراع بتطوير الهجوم حسبما تناقلته بعض الصحف ووكالات الأنباء فيما بعد ...

ويصل الجمسى إلى قمة الإقناع حين ينقل للقارئ نص ما كتبه الشاذلى نفسه فى هذا الموضوع فى مذكراته، وهو نص واضح وصريح يؤكد فيه الشاذلى على أنه لم يكن من أنصار تطوير الهجوم ، بل إن الشاذلى يقول صراحة « لقد كنت دائماً ضد فكرة تطوير الهجوم نحو الشرق سواء كان ذلك فى مرحلة التخطيط أو فى مرحلة إدارة العمليات الحربية » .

وعلى الرغم من هذا فإن الجمسى لايجد أى حرج فى أن يضمن مذكراته نصا يعترض فيه على الشاذلى فيما قاله فى هذا الصدد فيهمس فى أذن الشاذلى « حسب تعبير الجمسى فى هذه المذكرات » بأنه هو ـ أى الجمسى ـ والشاذلى وأحمد اسماعيل وافقوا على الخطة التى تضمنت الوصول إلى المضايق كهدف استراتيجى عسكرى . وهكذا لايصبح من حق الشاذلى فى نظر الجمسى (أو لا يصبح من المستساغ حسب تعبيره المهذب) أن يقول أنه كان ضد تطوير الهجوم إلى المضايق فى مرحلة التخطيط !!

(٣٠)

وهكـذا يبدو لـنا أن الجمسـى (وليس الـشاذلى) كـان هو صاحب فـكرة تطـوير الهجوم التى لـم يشأ أحمد اسماعيل أن يأخذ بها !! لأسباب قد لا يعرفها الجمسى ، وربما لا يعرفها أحمد اسماعيل هو الآخر.

ولنقرأ ما يرويه الجمسى حيث يقول:

«... اختلف الـكتاب والمحللون فـى الرد على هذا السـؤال: منهم من اسـتـنتج أن التخطـيط المصرى لحرب أكتوبـر كان يهدف إلى القيـام بعملية هجـومية ذات هدف محدود هو: الهـجوم مع اقتحام القناة والاستـيلاء على خط بارليف فقـط. ومنهم من استنتج أن الـتخطيط المصرى كان بـهدف إلى القيام بعمـلية هجومية لاقتـحام وتدمير خط بارليف والاستيـلاء على خط المضايق كهدف نهائى. وهنـا تنوعت آراء الكتاب، فقد نسـب بعضهم للـفريق الشاذلى أنـه كان صاحب فكرة اسـتغلال النجاح بـسرعة التطـوير. بينـما نسب بـعضهم للـفريق أول أحمـد إسماعيـل أنه كان صاحـب فكرة الانتظار الطويل ـ عمل وقفة تعبوية ـ قبل تطوير الهجوم إلى خط المضايق».

ويردف الجمسى بذكر الحقيقة:

«والحقيقة التى أقررها ، أن التخطيط لحرب أكتوبر ١٩٧٣ لم يكن قاصراً أبداً على الاستيلاء على خط بارلـيف كهدف نهائى. بل كان التخطيط يـهدف إلى تحقيق هدف إستراتيجـى عسكرى أبعد من ذلك وهو الـوصول إلى خط المضايق والاستـيلاء عليه كهدف نهائى».

«وكان التخطيط يشـمل ـ بكل تأكيد ـ اقتحام قناة السويـس وتدمير خط بارليف ، وصد هجمات العدو المضادة المنتظرة ، وتطوير الهجوم لتحقيق الهدف النهائى (خط المضايق) سـواء بعد وقفة تعـبوية أو بدون هذه الوقـفة حسب الموقف. أى أن تـطوير الهجوم شرقاً فى اتجاه المضايق كان مقرراً فى جميع الحالات».

«أما مـا نسب لـلفريق الـشاذلى مـن أنه صاحـب فكرة اسـتغلال الـنجاح بسـرعة

التطوير ، فقد تولى بنفسه نفيها ويؤكد ذلك على لسانه ـ في مذكراته ـ بقوله: « لقد كثر الكلام وتعددت الآراء حول الأسباب التى منعت المصريين من تطوير هجومهم إلى الشرق فور نجاحهم فى عملية العبور. وقد انتشرت شائعات كثيرة تقول إننى كنت من أنصار الاندفاع السريع نحو الشرق سواء يوم ١٤ أو قبل ذلك بكثير، وقد امتنعت القوات المسلحة عن التعليق على هذه النقطة بالتأييد أو النفى سواء على المستوى الاعلامى أو المستوى العلمى. وهكذا بدأت وسائل الإعلام العالمية تؤكد تلك الشائعات. لقد وصفونى بأننى رجل مظلى قوى ، هجومى ، مقدام ... إلخ .. ولكننى لا أود أن نربط بين هذه الصفات الجميلة وبين قرار تطوير الحرب نحو الشرق. لقد كنت دائماً ضد فكرة تطوير الهجوم نحو الشرق، سواء كان ذلك فى مرحلة التخطيط أو فى مرحلة إدارة العمليات الحربية للأسباب الكثيرة التى سبق لى أن ذكرتها ».

وبعد أن يورد الجمسى هذا النص من مذكرات الشاذلى يعقب عليه بمنتهى التهذيب بقوله:

«وإنى أهمس فى أذن الشاذلى بكل الود والاحترام ، وأقول له إن خطة حرب أكتوبر ١٩٧٣ قد وضعت بعد أن استغرق العمل فيها وقتاً طويلاً بواسطة هيئة عمليات القوات المسلحة واشتراك الأفرع الرئيسية لهذه القوات ـ جوية وبحرية ودفاع جوى ـ والأجهزة والقيادات المختلفة ، ووافق عليها الفريق الشاذلى رئيس الأركان وصدق عليها الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام ـ بتوقيع كل منهما مع توقيعى على وثائقها ـ قبل الحرب بوقت طويل. وطالما أن الخطة وضعت لتحقيق هدف إستراتيجى عسكرى هو الوصول إلى المضايق ، فليس من المستساغ أن يقول رئيس الأركان إنه كان ضد تطوير الهجوم إلى المضايق فى مرحلة التخطيط».

«أما أثناء إدارة العمليات الحربية ، فقد تتغير المواقف عما هو مخطط لها ، أو قد تظهر عوامل جديدة أثناء التنفيذ تستدعى مواجهتها بأساليب تناسب الموقف. وهنا تظهر كفاءة القائد وقيادته فى إدارة العمليات ـ بمتغيراتها ـ لتحقيق الهدف الإستراتيجى.

(٣١)

ويبدو تقييم المشير الجمسى لموقف المشير أحمد إسماعيل فيما يتعلق بتطوير الهجوم وقد تطور مع الزمن، فقد كان حائراً فى مدى النسبة التى أسهم بها كل من الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل فى هذا القرار، لكنه فيما يبدو بدأ حين كتب مذكراته يكتشف أن الرئيس السادات كان هو صاحب القرار، وهو يصل فى هذا الحد إلى أن يقول فى مذكراته:

«وأعتقد أننا دخلنا حرب أكتوبر بمفهوم واحد للقيادة العامة للقوات المسلحة، ولا أتصور أن الفريق أول أحمد إسماعيل كان يعني أن تدمر قواتنا خط بارليف مع اقتحام القناة، وتقف القوات عند هذا الخط. لقد كنا حققنا هذا الهدف بنهاية يوم ٩ أكتوبر، فلماذا لم يقبل الرئيس السادات مقترحات وقف إطلاق النار فى ذلك الوقت أو أى يوم آخر حتى يوم ١٢ أكتوبر».

«لقد كان واضحًا تماماً للرئيس السادات أن الهدف النهائى من خطة الحرب هو الوصول إلى المضايق، وقد سجلها بنفسه فى مذكراته «البحث عن الذات»».

«وهل من المعقول أن يكون فكر القائد للقوات المسلحة مختلفاً عن فكر رئيس الدولة؟»

❑

ومع هذا فإن المشير الجمسى يحاول أن يوسع أمام نفسه مجال الرؤية بما يقرأه لنا ومعنا من دلالات ما ورد فى مذكرات مستشار الأمن القومى محمد حافظ إسماعيل:

«وفى مجال العمل السياسى وتأثيره على تطوير العمليات الحربية، فلم أكن أعلم أثناء الحرب بحكم عملى العسكرى ـ رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة ـ بالعمل السياسى الذى يتم بواسطة القيادة العسكرية دعماً للعمل العسكرى أو استغلالاً لنتائجه. وبعد أن نشر بعض القادة السياسيين مذكراتهم بعد الحرب، لفت نظرى موضوعان يستحقان الاهتمام حول «الوقفة التعبوية» والبطء فى تطوير هجوم قواتنا فى اتجاه المضايق».

«أولاً: ففى الرسالة التى بعث بها السيد حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى يوم ٧ أكتوبر ـ تعبيراً عن رأى الرئيس السادات ـ إلى الدكتور كيسنجر، جاء فيها: «لا تعتزم مصر تعميق الاشتباكات أو توسيع المواجهة». وقد فسر كيسنجر هذه الجملة على أنها «لا تخلو من التنويه بأن مصر غير راغبة فى متابعة العمليات العسكرية ضد إسرائيل بعد الأراضى التى كسبتها».

«والسؤال الذى يطرح نفسه: هل هناك علاقة بين فكرة الرئيس السادات بعدم تعيمق الاشتباكات، وقراره بالبطء فى تطوير الهجوم فى اتجاه المضايق، وعمل وقفة تعبوية؟».

«إن الإدارة السياسية للحرب، لابد أن تنطلق من العمل العسكرى الذى يتحقق فى ميدان القتال. ففى الموقف العسكرى يوم ٧ أكتوبر، كانت قواتنا فى جبهة القناة قد حققت إنجازاً عظيماً، وفى الوقت نفسه تتقدم القوات السورية بنجاح فى الجولان، وكان العدو لم يفق من المفاجأة ولم تكن قواته الاحتياطية قد تمت تعبئتها. وفى هذا اليوم أيضاً، اقترح ديان فى مجلس الوزراء الإسرائيلى الانسحاب من خط القناة».

«فى هذا الموقف لم يكن العمل السياسى متمشياً مع العمل العسكرى الناجح الذى تحقق، والأخطر من ذلك أن القيادة السياسية فى مصر قد أفصحت عن نواياها فى العمل العسكرى، الأمر الذى جعل كيسنجر ـ وبالتالى إسرائيل ـ يفسره بأن مصر غير راغبة فى متابعة العمليات العسكرية ضد إسرائيل بعد الأراضى التى حررتها».

«ثانياً: والموضوع الثانى الذى صدمنى وأفزعنى، ما جاء فى مذكرات السيد حافظ إسماعيل (أمن مصر القومى فى عصر التحديات ص ٣٢٣) تحت عنوان «١٠ ـ ١٣ أكتوبر، وقفة تعبوية» النص الآتى:

«كانت قواتنا خلال المرحلة التى انتهت قد أتمت تحقيق الهدف المباشر، وكنت من خلال أحاديثى مع الفريق أول أحمد إسماعيل من قبل نشوب الحرب، أدرك أنه لا ينوى التقدم حتى الممرات الجبلية، وأن ما جاء بتعليمات القيادة العامة بأن الهدف هو احتلال المضايق.. إنما قصد به أن يستحث القيادات الصغرى خلال مرحلة بناء رءوس الكبارى على استمرار التقدم حتى الهدف المباشر».

وهنا يردف الجمسى بقوله:

«كنت أتمنى أن يكون الفريق أول أحمد إسماعيل على قيد الحياة، حتى يمكنه تفسير ما نسب إليه «أنه لم يكن ينوى التقدم حتى الممرات الجبلية»، لم أقتنع بالمبرر الذى نسب إليه «يستحث القيادات الصغرى على استمرار التقدم حتى الهدف المباشر».

«إن هناك اصطلاحات عسكرية لا خلاف عليها، على المستوى التكتيكى يكون للوحدة فى الهجوم (مهمة مباشرة ـ ومهمة تالية ـ واتجاه التقدم التالى). وعلى المستوى التعبوى/ الاستراتيجى يكون للجيش الميدانى (مهمة مباشرة ـ ومهمة تالية) أو مهمة مباشرة ـ ومهمة نهائية)».

(٣٢)

وتحفل هذه المذكرات بتفصيلات كثيرة عن سير المعارك الحربية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وعن خطط القوات المصرية فى الخداع والتمويه قبل الحرب، وأثناءها وعن التصرفات الحريصة التى كان القادة الكبار يتصرفون بها تجاه الأزمات الطارئة ولست أجد القدرة على أن أختصر كل هذا للقراء، ولكنى سأضرب عليه مثلاً واحداً مهما يرويه الجمسى، فقد كان اللواء عبد التواب هديب محافظاً لبورسعيد أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ وكان هو نفسه قبل ذلك مديراً للمدفعية أثناء حرب الاستنزاف، وعلى الرغم من هذه المكانة العسكرية التى يتمتع بها اللواء هديب، فإن الجمسى لم يكن قادراً فى أثناء حرب أكتوبر المجيدة أن يصرح له بكثير من مبررات الخطط العسكرية على الرغم من إلحاح هديب فى الاستفسار والاطمئنان على تشغيل صواريخ الدفاع الجوى:

«وإنى أتذكر الحديث التليفونى الذى كان يتم بين اللواء عبد التواب هديب محافظ بورسعيد وبينى من حين لآخر يستفسر ويستعجل تشغيل صواريخ الدفاع

الجوى ـ عندما توقف الاشتباك بها مؤقتاً ـ وكـان اللواء هديب يعبر عن الروح المعنوية العالية التى يتحـلى بها المواطنون ببورسعيد كلما سألتـه عن ذلك ، ولكنه كان يريد أن يطمئن على استمرار الدفاع الجوى بالصواريخ عن المدينة. لم يكن بوسعى أن أشرح للمحـافظ المبررات والأسباب تـليفونيا ، ولـكنى كنت أنقـل له الثقة والاطمـئنان بأن الدفاع الجـوى عن المدينة لن يـتأثر وسيظل دائـماً يحمى المديـنة وهو ما تحقق بـجهود رجال الدفاع الجوى»

(٣٣)

يحفل كتاب المشير الجمسى بكثير من الحوادث والوقائع التى اشترك فيها صاحب المذكرات مع المشير أحمد اسـماعيل على بحكم تزاملهما المتكـرر فى مواقع مختلفة قبل أن يلـتقيا فى النهايـة على قمة المؤسسـة العسكرية المصـرية ليكونا بمثابـة الرجلين الأول والثانى ثم يخلف ثانيهما أولهما فى منصب وزير الحربية .

ومن هذه الروايات ما يـتعلق بدورهما العسكرى قبـيل وأثناء حرب ١٩٦٧ وفى الأعقاب المباشرة لها وقد تعرضنا لهذه الروايات فى هذا الباب.

أما أهم فقرة فى تصوير هذه العلاقة القائمـة على التقدير المتبادل بين الرجلين هي تلك الفقرة المهمة فى هذه المذكرات التى توحى لنا بحرص الجمسى على أن يعبر لنا دون أن يضطره أحد إلـى ذلك أنه (أى الجمسى) كان يستـبصر خبرته السابـقة بالقادة المتاحين فى الصف الأول ومعلوماته عنهم فيتمنى فى عقله الباطن لو كان المشير أحمد إسـماعـيل هو قائد الـقوات المسلحة المـصرية بدلاً من أسـلافه وهذا هو نص الـفقرة المهمة التى يعبر فيها الجمسى عن هذا المعنى فيقول:

«.. وفى النصف الأول من عام ١٩٧٢ تقابلت مصـادفة مع اللواء أحمد إسـماعيل مدير المخـابرات العامـة حينئـذ فى مطار الـقاهرة الدولـى ، وكان كل منـا يودع أحد الرسميين الأجانب. وأثـناء خروجنا معاً من المطار ، وكنا نسيـر وحدنا ، بادرنى اللواء

أحمد إسماعيل بسؤال مباشر وبصوت منخفض هامس قائلاً: « متى ستحاربون ياجمسي؟». كان ردي: « ستحارب عندما تتعين أنت وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة ، وستعلم حينئذ لماذا لم نحارب حتى الآن».

على هذا النحو يلقي الجمسي بهذه العبارة التقريرية الحاسمة ثم يردفها بذكر انطباع المشير أحمد إسماعيل فيقول:

«حاول معرفة المبررات التي بنيت عليها رأيي فلم أضف كلمة واحدة ، وتركت له تفسير ردي بالطريقة التي يراها لأني كنت أثق بأن اللواء أحمد إسماعيل يعلم ـ بحكم منصبه ـ الموقف السياسي داخليا وخارجياً ، ويتابع موقف القوات المسلحة ويعلم أننا لم نستكمل استعدادنا للحرب».

على هذا النحو ألزم الجمسي نفسه دون أي ضغط من أي أحد بتبني صلاحية أحمد إسماعيل دون غيره (أو قبل غيره على الأقل) لقيادة قواتنا المسلحة من أجل الحرب! ولست أستطيع أن أجد في كل أدبيات السياسة المصرية المتاحة نصا واضحا يفوق هذا النص في تقدير أحمد إسماعيل وإعطائه حقه ومكانته اللائقة، ولو لم يكن في كتاب الجمسي كله عن أحمد إسماعيل وعظمته غير هذا النص لكفاهما.

ومن ناحية أخرى فإننا نستطيع أن نشيد دون مبالغة بقدرة الجمسي على استبصار الحقائق والمعطيات على هذا النحو! فهو يستشرف المستقبل في أكثر من خطوة، ويأتي استشرافه ـ لحسن الحظ ـ صواباً، فهو يرى احتمال عودة أحمد إسماعيل إلى القوات المسلحة قائمة، ويراها ممكنة على المستوى الذي عاد به قائداً عاماً ووزيراً، كما يرى أن هذه العودة ستمهد لقيادة قواتنا المسلحة من أجل النصر. ولابد أن للجمسي أسبابا، ومبررات قوية للوصول إلى مثل هذا الحكم القاطع على هذا النحو.

(٣٤)

ثم ها هو المشير الجمسي يحدثنا عن ذكرياته عن اليوم الذي تم فيه تعيين المشير أحمد إسماعيل على وزيراً للحربية، وكيف أنه هو نفسه كان قد سافر إلى دمشق بالفعل على أن يلحق به الوزير الفريق أول محمد صادق في اليوم التالي فإذا به وهو

فى دمشق يعلم بتعيين الفريق أول أحمد إسماعيل وزيراً وعزل الفريق أول محمد أحمد صادق.

« وفى إطار عملى كرئيس لهيئة العمليات تعينت لمرافقة الفريق أول صادق لزيارة دمشق لأعمال التنسيق العسكرى بين مصر وسوريا خلال الأيام القليلة التالية مباشرة لمؤتمر الجيزة الذى عقد يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٧٢. وفى الليلة السابقة لسفرنا، اتصل بى الفريق أول صادق تليفونيا بالمنزل، وأخطرنى أنه لن يسافر صباح اليوم التالى كما كان مقرراً، لأنه مطلوب لمقابلة الرئيس السادات، وأنه سيلحق بى فى دمشق بعد انتهاء المقابلة. سافرت وحدى إلى دمشق يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٧٢. وعلمت صباح اليوم التالى من السفارة المصرية والصحف السورية نبأ تعيين اللواء أحمد إسماعيل وزيراً للحربية وترقيته لرتبة فريق أول، فقررت العودة فوراً إلى القاهرة فى نفس اليوم ووصلتها مساءً. توجهت من المطار مباشرة إلى مكتبى بملابسى المدنية، حيث علمت أن الفريق عبد القادر حسن قد انتهت خدمته، وأن اللواء بحرى فؤاد أبو ذكرى تعين قائداً للقوات البحرية بدلاً من اللواء بحرى محمود فهمى».

هنا يستطرد الجمسى ليقول:

«وكان تعيين الفريق أول أحمد إسماعيل وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة هو الخطوة الرابعة للإسراع فى الطريق إلى حرب أكتوبر».

❑

ثم ينقل الجمسى لقرائه فقرات من مذكرات كتبها المشير أحمد إسماعيل بنفسه، وسجلت فى كتاب تذكارى أصدرته القوات المسلحة بعنوان: «الرجال والمعركة» فيقول:

«شرح الفريق أول أحمد إسماعيل ظروف تعيينه وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة. كتب بقلمه يقول:

« كان هذا النهار أحد الأيام الهامة والحاسمة فى حياتى كلها، بل لعله أهمها على الإطلاق. التاريخ ٢٦ أكتوبر ١٩٧٢ (بعد يومين من مؤتمر الجيزة) - ١٩ رمضان ١٣٩٢ حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر. والمكان منزل الرئيس السادات بالجيزة».

«كنا - سيادته وأنا - نسير فى حديقة المنزل. لم أكن أدرى سبب استدعائى، ولكنى

توقعت أن يكون لأمر هام وخطير. وبعد حديث قصير عن الموقف ، حدث ماتوقعته حيث أبلغنى سيادته بقرار تعيينى وزيراً للحربية اعتباراً من ذلك اليوم».

«وفى نفس الوقت كلفنى بإعداد القوات المسلحة للقتال بخطة مصرية خالصة ، تنفذها القوات المسلحة المصرية، لتخلص بها الوطن من الاحتلال الصهيونى، كان لقاؤه لى ودودا إلى أقصى حد ، وكان حديثه معى صريحا إلى كل حد».

«وعندما انتهى اللقاء ، وركبت السيارة لتنطلق بى عبر شوارع القاهرة ، بدأ شريط طويل من الذكريات والأحداث والظروف يمر فى ذهنى وأمام عينى: هأنذا أعود مرة أخرى لأرتدى الملابس العسكرية. كانت آخر مرة خلعتها فيها يوم ١٢/ ٩/ ١٩٦٩ عندما استدعانى وزير الحربية (فريق أول محمد فوزى) وأبلغنى بقرار إعفائى من منصبى كرئيس للأركان ».

« وبرغم مضى أكثر من خمس سنوات ، إلا أنى لا أزال أذكر أننى قلت لوزير الحربية لحظتها:

« كل ما أرجوه أن أتمكن من الاشتراك فى القتال عندما يتقرر قيام القوات المسلحة بحرب شاملة ضد إسرائيل. وفى هذه الحالة أرجو أن أعود إلى الخدمة ولو كقائد فصيلة أو جندى».

«وانصرفت إلى منزلى ، وكان ظنى أنه لن تتاح لى فرصة العودة إلى صفوف القوات المسلحة مرة أخرى».

«وفى فجر يوم ١٤/ ٥/ ١٩٧١ (إجراءات التصحيح ضد مراكز القوى فى مصر) أصدر الرئيس السادات قراراً بتعيينى رئيساً للمخابرات العامة. والحق ـ أعترف ـ أنى سعدت بهذا القرار ، فقد كان تقديراً لى كجندى وهب حياته لمصر ، وفرصة للإسهام بشكل ما فى خدمة بلدى وفى معركتها المقدسة».

«وبدأت أمارس مهمتى الجديدة. والواقع أن تلك المسئولية جعلتنى غير بعيد ، بل ربما قربتنى جداً من القوات المسلحة ورفاق السلاح والعمر. لكننى ، برغم تلك المشاركة والاقتراب المباشر من القوات المسلحة ، لم أتوقع كما ذكرت يوماً يجىء أعود فيه للخدمة فى صفوفها مرة أخرى. لكن ها هو اليوم قد جاء عندما كلفنى القائد

الأعلى بالمهمة. ومع ضخامة المسئولية وخطورة حجمها ، إلا أنى كنت على قدر كبير من التفاؤل والثقة بالنفس».

(٣٥)

ونأتى بعد هذا إلى الفقرات التى يتحدث بها المشير الجمسى عن سير الأحداث بعد ما أصبح المشير أحمد اسماعيل بالفعل قائداً للقوات المسلحة المصرية وسننقلها حسب رواية الجمسى لها بدءاً من الفقرة التى علم فيها بتعيين أحمد اسماعيل ثم نتطرق إلى فقرات أخرى تنبئنا ـ مرة أخرى ـ عن جوهر آرائه فى سلفه العظيم، وهو يبدأ هذه الآراء ـ كما رأينا ـ بالتأكيد على أن تعيين أحمد اسماعيل كان خطوة من خطوات الإسراع فى الطريق إلى حرب أكتوبر ثم لا يبخل الجمسى على أحمد اسماعيل بأن ينقل عنه بعض فقرات ـ نقلناها نحن أيضا ـ تصور مشاعره حين تولى قيادة القوات المسلحة المصرية.

وبعد هذا يحدثنا صاحب هذه المذكرات عن لقائهما بعد عودته المفاجئة من دمشق، وعن مدى شعور أحمد اسماعيل بالسعادة لا لعودته فحسب ولكن لعودة زميله الفريق فؤاد أبو ذكرى معه أيضا وهو يقول :

«بعد عودتى مباشرة من دمشق ، استقبلنى الفريق أول أحمد إسماعيل بالمودة التى كانت تربطنا منذ أن كنا نعمل فى «قيادة جبهة القناة » خلال فترة معارك القناة بعد حرب يونيو».

«استقبلنى وكانت تعلو وجهه السعادة ، وبادرنى بقوله: « لقد عدت للقوات المسلحة كما كنت تتوقع » مشيراً بذلك للحديث الذى دار بيننا فى مطار القاهرة الدولى منذ عدة شهور مضت. ثم استطرد قائلاً: « وعاد أيضاً اللواء بحرى فؤاد أبو ذكرى قائداً للقوات البحرية ، وهو موجود فى مكتبه الآن بالإسكندرية ».

«لقد كان حديث الفريق أول أحمد إسماعيل يعنى أنه ترك الخدمة العسكرية ومعه اللواء أبو ذكرى فى وقت واحد فى عام ١٩٦٩ ، وعادا معا فى عام ١٩٧٢ ، هذا رد لاعتبارهما من ظلم وقع عليهما ، الأمر الذى رفع روحه المعنوية كثيراً».

وهنا يعقب المشير الجمسى بما يرويه عن إعفاء هذين القائدين الكبيرين من الخدمة فى ١٩٦٩ مفترضا ـ وله الحق فى ذلك ـ أن قارئ مذكراته لم يلم بالسبب فى إعفائهما لأن المذكرات لم تتناول مثل هذا الحدث فى موقعه التاريخى:

«ومما يذكر أن الفريق أول إسماعيل كان قد أعفى من منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة ، كما أعفى اللواء ذكرى من منصب قائد القوات البحرية ، على إثر إغارة برية بحرية فى منطقة الزعفرانة على الشاطئ الغربى لخليج السويس يوم ٩ سبتمبر ١٩٦٩ أثناء حرب الاستنزاف. وها هما قد عادا مرة أخرى فى يوم واحد ليتحملا المسئولية من جديد فى ظروف أصعب».

(٣٦)

ويعود الجمسى بعد هذا الاستطراد إلى الحديث عن شخصية القائدين العظيمين أحمد إسماعيل وفؤاد أبو ذكرى مستطرداً فى ذات الوقت إلى الإشادة بقائدى القوات الجوية والدفاع الجوى اللذين اكتمل بهما فريق العمل فى القيادات العامة.

«والفريق أول أحمد إسماعيل كانت له خبرة عسكرية طويلة ، وبصفة خاصة الخبرة الميدانية التى تدرج فيها من قائد فصيلة مشاه حتى قائد فرقة مشاه ثم قائد جبهة قناة السويس بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ثم رئيساً للأركان. كما أن اللواء بحرى أبو ذكرى كان يتميز بخبرة بحرية طويلة ، وكانت البحرية بالنسبة له هى كل حياته ، ولذلك كان موضع تقدير كل القوات البحرية».

«وقد توطدت العلاقة بينهما وبينى أثناء الدراسة معا فى «كلية الحرب العليا» بأكاديمية ناصر العسكرية خلال عامى ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ ، وهو ما أتاح لى معرفة شخصية كل منهما عن قرب ، وبصفة خاصة أسلوب تفكيره العسكرى. وقد ساعدنى ذلك كثيراً خلال فترة التخطيط للحرب وأثناء إدارة العمليات ، كما تعاونت مع كل منهما إلى أقصى الحدود ليؤدى كل منا مهامه بالكفاءة التى ينشدها وننشدها جميعا فى جهاز القيادة العامة للقوات المسلحة الذى كان يعمل كفريق عمل متكامل لتحقيق هدف واحد هو خوض الحرب لهزيمة العدو الإسرائيلى».

«وتكامل فريق العمل على مستوى القيادة العامة بوجود اللواء طيار محمد حسنى مبارك قائد القوات الجوية واللواء محمد على فهمى قائد قوات الدفاع الجوى. وكان التعاون الوثيق هو السمة البارزة لعمل القوات المسلحة تخطيطاً وتنفيذا مع احتراف العمل العسكرى».

❑

ولايجد الجمسى أى حرج فى أن يقيم من وجهة نظره علاقة المشير أحمد اسماعيل بالفريق سعد الشاذلى قبل حرب أكتوبر وبعدها وهو يؤكد أن الاستعداد للحرب كان يستنفد كل طاقتهما ولكن الأمور اختلفت أثناء الحرب وفى هذا المعنى يقول الجمسى :

« وبرغم الخلافات التى كانت قد ترسبت فى نفس كل من الفريق أول أحمد إسماعيل والفريق الشاذلى ، إلا أنى أقرر أن الاستعداد للحرب كان يستنفد جهد كل منهما ، كما كان الشغل الشاغل لكل القوات المسلحة ، ولذلك لم تظهر أمامى خلافات هامة بينهما تؤثر على التحضير والإعداد للحرب» .

« أما أثناء إدارة العمليات الحربية خلال حرب أكتوبر ، فقد اختلف رأى كل منهما عن الآخر فى معالجة المواقف التى واجهتنا فى المرحلة الأخيرة من الحرب. ففى هذه الفترة ظهرت شخصية كل منهما التى تختلف عن الأخرى، وظهر تفكير كل منهما الذى يختلف عن الآخر ، وأصبح واضحاً تماماً أن كلا منهما فقد ثقته فى الآخر، الأمر الذى كان له أثر سلبى ـ عسكرياً ـ فى الأيام الأخيرة من الحرب» .

(٣٧)

ويستأنف الجمسى حديثه موضحاً كيف كان اختيار أحمد اسماعيل قائداً عاماً ووزيراً للحربية عاملاً مهما من عوامل تحقيق النصر فى أكتوبر العظيم فيقول :

« في هذه المقابلة الأولـى (يقصد بعد تولى أحمد اسماعيل وزارة الحربية) مع الفريق أول إسماعيل تحدثنا طويلاً عن الموقف العسكرى. وعرفت من المناقشة أن لديه معلومات كاملة وفكرة دقيقة عما يدور داخل القوات المسلحة بحكم منصبه السابق ـ رئيس المخابرات العامة ـ كما شعرت منه بأن لديه التصميم والإصرار على سرعة استكمال الاستعداد للقتال لبدء الحرب فى أقصر وقت ممكن».

«وكان له سؤال محدد يريد الإجابة عنه هو «متى تكون القوات المسلحة مستعدة للحرب؟»».

«كان أحمد إسماعيل يرى ، أنه قد مضت خمس سنوات والقوات رابضة فى خنادقها على جبهة القناة ، وبهذا أصبح الأفراد مهددين بما نطلق عليه عسكرياً «مرض الخنادق» من طول المدة ، وذلك أمر خطير يؤثر على الروح المعنوية وكفاءة القتال. كما يرى أن السياسة دخلت القوات المسلحة من باب خلفى. ولكثرة الأحاديث السياسية من غير المختصين ، فإن الثقة قد اهتزت وتخلخلت فى نفوس بعض القادة وبين صفوف القوات المسلحة. وأنه نتيجة لما سبق ، وهو فى نفس الوقت بالغ الأهمية ، أصبحت كفاءة الخطة الدفاعية عن الدولة موضع شك ... وساءت التجهيزات الهندسية ، وأهمل العمل تماماً فى تحسين أوضاع القوات ، بحيث صار الحال فى مواقع الجبهة ـ بغير تجاوز ـ دون المستوى المطلوب».

❑

ويزيد المشير الجمسى هذه الفكرة إيضاحاً بالتأكيد على أن عدم التعارض لايعنى التوحيد أو الخلط.

«وإذا كانت الحرب امتداداً للعمل السياسى أو هى ـ كما يقولون ـ سياسة بالنار ، فليس معنى ذلك الخلط بين الاثنين. فللسياسة رجالها ، وللقتال رجاله ومن ثم فنحن عسكريون لنا واجب وأمامنا مهمة ، ومهارتنا تتمثل فى كيف نرفع من درجة استعدادنا وكفاءتنا القتالية ، لا أن نتحدث فى السياسة. وعبرة التاريخ أمامنا شاهد يقول إن السياسة عندما تدخل الجيوش تفسدها».

وفى وسعنا أن نقارن بين هذا الفهم الذى يتمتع به الجمسى و(أحمد إسماعيل) وبين فهم آخر يدافع عنه الفريق الشاذلى فى الباب الثانى من هذا الكتاب.

(٣٨)

وسوف نرى مما يرويه المشير الجمسى عن الأفكار الواضحة لأحمد إسماعيل فى الأيام الأولى لتوليه الوزارة، كيف كان هذا القائد العظيم واعياً لقيمة السلاح المتاح ومقدرته حتى وإن كان هناك سلاح أكثر تقدماً منه، وكيف كان هذا القائد العظيم داعياً لأن توضع الخطط لتتناسب مع السلاح المتاح والإمكانات المتاحة من أجل تحقيق الهدف المطلوب.. وهى فلسفة بسيطة وسهلة، ولكن أحداً من المدعين الكثيرين الذين تناولوا هذه الفترة لا يحبذها وإنما يحبذ البدء بالخطط والطموح والانتظار حتى تتوافر لها إمكاناتها، ومن ثم ندور فى حلقة مفرغة كلما توافرت الإمكانات فاجأنا التقدم العلمى بما هو أكثر تقدما:

....

«وفى حديثه معى خلال هذه المقابلة ، كان مقتنعا بأن فى يدنا سلاحاً ، وسلاحاً جيداً ، إلا أن المناخ العام شكك فى حجمه وشكك فى نوعيته. واستطرد قائلاً : « إننى أعترف بأن هناك أسلحة ومعدات أكثر تقدما عما لدينا فى بعض التخصصات ، ولكن من قال إن السلاح الذى فى يدنا انعدمت مقدرته لأنه غير كفء أو غير متطور؟. إن من يقول ذلك يستهدف عن قصد إيجاد ذريعة لعدم القتال ».

....

«وعلى أى حال ، ومهما كانت الأسباب ، فإنه يجب أن نراعى عند تخصيص المهام للقوات أن تتناسب وطبيعة الأسلحة والإمكانيات المتاحة لنا ، وأن نضع الخطط التى تكفل لنا أحسن أداء لأسلحتنا ومعداتنا».

....

«وباختصار شديد يمكن أن نضع أفضل الخطط حسب الظروف والإمكانيات المتاحة لنا ، ويمكن بتلك الخطط أن نحقق مهامنا القتالية».

(٣٩)

على هذا النحو يلخص المشير الجمسى فلسفة المشير أحمد إسماعيل كقائد عام، ومن الواضح أن الجمسى مقتنع تمام الاقتناع بجدوى هذه الفلسفة وبأثرها فى تحقيق كفاءة القوات المسلحة وقدرتها على تحقيق الهدف المطلوب منها.

ثم هاهو يستطرد إلى بيان وجهة نظره فى تعاون الجبهات العربية فى القتال فيقول:

«تلك كانت الصورة التى يراها الفريق أول إسماعيل عن الجبهة المصرية، وانتقل بحديثه عن الجبهة السورية وقال: « لقد هالنى مافيل عن عدم إمكانية تحقيق أى تعاون أو تنسيق بين سوريا ومصر. إن البلدين يشكلان فكى كماشة تطبق على العدو كالبندقة ، وتستطيعان شل حركته. وهما دولتان عربيتان بينهما تاريخ بعيد مشترك ، وتاريخ قريب ممتد ، وتربطهما اليوم مصالح واحدة ، ويجمعهما معا هدف واحد. والإنسان العربى فى سوريا مثله مثل الإنسان العربى فى مصر: كفء وقادر على البذل والعطاء ... لماذا إذن تلك الهواجس والشكوك؟»».

وهنا يعقب المشير الجمسى بقوله :

«لقد سمعت لرأى الفريق أول أحمد إسماعيل ، ثم تحدثت طويلاً شرحاً وتعليقاً وتوضيحاً وتفسيراً لكل ماذكره ، وأوضحت له الموقف العسكرى وكفاءة القوات المسلحة بدقة ، وما وصلنا إليه فى التخطيط وإعداد القوات للحرب والتعاون العسكرى مع سوريا».

و«كان ردى الصريح على سؤاله: « متى تكون القوات المسلحة مستعدة للحرب؟» ، إنه على ضوء حقائق الموقف ، فإننا نحتاج إلى حوالى عام واحد لتحقيق ثلاثة أمور هامة:

«أولاً: أن تخرج القوات من الخنادق إلى سطح الأرض. ومعنى ذلك أن يتغير تفكيرها الدفاعى الذى كانت تمارسه عدة سنوات إلى التفكير الهجومى طبقاً للتخطيط ، وهذا يعنى تدريباً مركزاً على العمليات والمعارك الهجومية فى كل أفرع القوات المسلحة والتعاون بينها لتحقيق الهدف العسكرى. وكنت واضحاً فى تفسير ذلك: إننا لن نبدأ بداية جديدة بعد تعيينه قائداً عاماً ، بل سيكون عمل القوات

المسلحة تحت قيادته امتداداً واستكمالاً للتدريب والتحضير الذى تم فى السنوات السابقة ، وهو جهد كبير لايمكن التقليل من شأنه بأى حال من الأحوال. وأوضحت أيضاً أن القوات والقيادات تبذل أقصى جهد ممكن لإتقان التدريب على المهام القتالية، والتغلب على الصعوبات التى تواجههم منذ فترة طويلة ، وأنه سيلمس ذلك بنفسه».

«أما عن دخول السياسة القوات المسلحة من باب خلفى لكثرة الأحاديث السياسية من غير المختصين ، فإنى أبديت رأيى مؤيداً ما قاله ، وذكرت له أننا فى القوات المسلحة يجب أن نحترف عملنا العسكرى فقط. وطالما أن القيادات ركزت مجهودها فى رفع الكفاءة القتالية ودرجات الاستعداد والتدريب على مهام العمليات ، فلن يكون هناك مجال للحديث فى السياسة».

«وبالصراحة التى تعودنا عليها فى حديثنا منذ الخدمة معا فى قيادة جبهة القناة ، قلت للفريق أول إسماعيل: إن الخطة الدفاعية عن الدولة ليست موضع شك، ويجب الاطمئنان إلى ذلك. وإذا كانت بعض التجهيزات الهندسية قد ساءت حالتها، فإن ذلك يمكن علاجه فوراً».

«ثانياً: استكمال بعض نواحى التخطيط على ضوء ماتيسر لدينا من الأسلحة والمعدات دون انتظار أسلحة أخرى لا نعلم متى تصل. فالخبرة فى السنوات القليلة الماضية علمتنا أن التعاقد على شراء الأسلحة أو الوعود بتزويدنا بأسلحة ومعدات من الاتحاد السوفيتى شىء، أما التنفيذ الفعلى وتوقيته فشىء آخر. وإذا ما نجحت الجهود فى هذا المجال ، فإن ذلك يعتبر إضافة جديدة».

«وقلت للفريق أول إسماعيل إن الخطة الموضوعة ينقصها فقط خطة الخداع لتحقيق المفاجأة للعدو حتى تكون لنا المبادأة فى الحرب وتنفيذ عملية اقتحام قناة السويس بأقل خسائر ممكنة ، وخصوصاً أن العدو له التفوق العسكرى وفى وضع إستراتيجى قوى».

«ثالثاً: استكمال التعاون مع القوات السورية ، لأنها عملية مطولة ودقيقة قطعنا فيها مراحل ، وما زال أمامنا مراحل أخرى تحتاج إلى تنسيق واتفاق محدد بين القيادة العسكرية المصرية والقيادة العسكرية السورية. كما أن العمل العسكرى المشترك

يحتاج إلى قرارات سياسية على مستوى الرئيسين السادات والأسد ، وهو ما لم يتم ويحتاج إلى الوقت اللازم لذلك».

(٤٠)

ومع تأكيد صاحب المذكرات على أهمية تعاون الجبهات كعامل من عوامل النجاح فإنه يبلور الاتفاق الذى توصل إليه مع المشير أحمد إسماعيل موضحا أن القائد العام كان تواقاً لأن يعجل بالحرب قبل عام:

«وشرحت للفريق أول إسماعيل تفصيلاً ـ على ضوء خبرة العمل مع القيادة العسكرية السورية ـ أنه لا مجال لأى شك فى أن التعاون العسكرى مع القوات السورية سيوضع موضع التنفيذ. وهذا ينفى ما قيل له عن عدم إمكانية تحقيق تعاون بين سوريا ومصر (لا يحدد الجمسى ولو من باب التلميح من ذا الذى قال بهذا) ، وأن هناك شكوكاً وهواجس. وقلت له إننى أثق فى إتمام هذا التعاون العسكرى طالما أن هناك اتفاقاً سياسيا بين الرئيسين ، وهذا الاتفاق قائم ، وأن الممارسة الفعلية للعمل بصفته القائد العام لقوات الجبهتين ستوضح له هذه الحقيقة».

ويردف الجمسى بالتأكيد على هذه الحقيقة فيقول:

«وأتذكر أنى قلت للفريق أول إسماعيل إن التعاون بين الجبهتين المصرية والسورية سيكون أحد عوامل النجاح فى الحرب المقبلة. وكنت أتمنى أن يكون هناك تعاون مع الجبهة الأردنية حتى تضطر إسرائيل للقتال فى ثلاث جبهات فى وقت واحد».

«واتفقنا فى الرأى على هذه الأمور الثلاثة ، ولكنه كان يرى أن الفترة الزمنية لاستكمال الاستعداد للحرب ـ وهى حوالى عام فى تقديرى ـ تعتبر فترة طويلة ، وأنه سيعمل على تخفيضها كلما أمكن ذلك. وأضاف موضوعين سيكونان موضع اهتمامه أيضاً لإيجاد مناخ جديد للعمل الجدى استعداداً للحرب».

«الأول: عدم الحديث فى السياسة على مستوى القيادة العامة للقوات المسلحة ، وبالتالى لن يكون هناك مجال لقائد مرءوس للحديث فى مثل هذه الموضوعات.

ويجب على القوات أن تتجه للتدريب الشاق المتواصل ، وأن تعتنق مبدأ حتمية القتال بغير بديل ، وأن المعركة لابد أن تحدث وفى أقرب وأنسب وقت ممكن».

«الثانى: لقد كان مقتنعا طوال مدة خدمته العسكرية أن الرجل ـ لا السلاح ـ هو الذى ينتصر . ولايمكن للمقاتل مهما كانت رتبته أو درجته ، ومهما أعطيته من سلاح أن ينجح أو ينتصر إلا إذا وثق فى قادته وفى سلاحه وفى عدالة قضيته. كل هذا إلى جانب إيمانه أولاً وأخيراً بالله. وعلى هذا فإن غرس الثقة بين الجنود ، وبينهم وبين القادة ، وبين الجميع والسلاح يعتبر من أهم الأمور التى يجب التركيز عليها».

«واتفقنا فى هذه المقابلة على الخطوط الرئيسية للعمل على أن تبدأ الحرب فى أقرب وقت ممكن يتم فيه استكمال التحضير لها ، وبصفة خاصة استكمال التعاون والتنسيق مع سوريا ، لأنها تحتاج إلى الوقت الأطول سياسيا وعسكرياً».

(٤١)

ثم يروى صاحب هذه المذكرات بعض لمحات كفيلة بتصوير جهود المشير أحمد إسماعيل والقيادة العامة للقوات المسلحة فيما قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ ويقول:

«ونعددت لقاءات القائد العام ـ أحمد إسماعيل ـ مع القوات فى الأفرع الرئيسية للقوات والجيوش والمناطق، وكنت أرافقه فى الكثير منها ، وكان يركز فى أحاديثه على:

- إن الوسائل السلمية لحل مشكلة الشرق الأوسط قد فشلت ، ولا بديل عن الحرب لتحرير أراضينا.
- وأن القوات المسلحة ستكلف بالقتال فى حدود قدرتها وإمكانياتها ، وبالتالى لا مجال لانتظار وصول أسلحة أخرى جديدة.
- وأن القوات المسلحة يجب أن يكون شغلها الشاغل هو عملها العسكرى فقط ، وعلينا أن نترك السياسة للسياسيين.
- وأن إيماننا بالله وعدالة قضيتنا هو الضمان الأكيد للنجاح فى الحرب.

«وللحقيقة أقول إن تقييم الفريق أول إسماعيل للموقف ـ عندما تولى القيادة ـ ورأيه فى الخطوط الرئيسية للعمل ، والأوامر التى كان يصدرها لسرعة الاستعداد للحرب ، كانت تعكس فكر ورأى الرئيس السادات الذى أبداه فى فترات سابقة ، وكان واضحا تماما فى مؤتمر الجيزة يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٧٢ أمام المجلس الأعلى للقوات المسلحة».

«وكان أحمد إسماعيل يعطى اهتماما كبيراً لإيجاد مناخ جديد للعمل يختلف عن المناخ الذى كان سائداً ـ كما تصوره واعتنقه بصفته رئيس المخابرات العامة ـ قبل أن يتولى قيادة القوات المسلحة ، وهو ماسبق توضيحه. وأعتقد ، على ضوء مشاهداتى بعد اقترابى من الرئيس السادات فيما بعد ، أن الرئيس الراحل كان على اتفاق تام مع رأى الفريق أول أحمد إسماعيل فى تلك المرحلة على ضرورة تغيير المناخ الذى كان سائداً قبل تعيين القائد العام الجديد ، إن لم يكن ذلك هو رأى الرئيس السادات ويقوم أحمد إسماعيل بتنفيذه».

❑

هكذا يرى الجمسى ويرينا أن التطابق كاد يكون تامًا بين آراء القائد الأعلى والقائد العام، وهو يعبر عن هذا الجو الجديد الذى أوحى له بالثقة والتفاؤل والاطمئنان وجعله واثقاً من النجاح فى كل ما كان يبذل من أجل المعركة القادمة:

«لقد شعرت بالاطمئنان والثقة ، نتيجة للزيارات الميدانية للقوات ، بأننا نتجه للحرب بخطى ثابتة. فالقيادات والقوات تبذل أقصى جهدها لإتقان المهام القتالية ، وتزداد الروح المعنوية ارتفاعاً يوما بعد يوم ، والكل ينتظر الأمر بالبدء. وأخذ التعاون والتنسيق مع القوات السورية يأخذ أبعاداً جديدة ، وتفهما أكبر ، ويدخل بثبات وثقة فى حيز التنفيذ الفعلى».

«ولما كان عملى كرئيس هيئة العمليات يستنفد كل وقتى وجهدى ، فقد اقترحت على الفريق أول أحمد إسماعيل تعيين أحد القادة ليتفرغ للتنسيق مع الجبهة السورية فى مرحلة تالية ، ووافق على تعيين اللواء بهى الدين نوفل للقيام بهذا العمل فيما بعد».

(٤٢)

ومن المهم بعد هذا كله أن ننقل للقارئ بعض ما حرص صاحب المذكرات على أن يحدثنا به عن الظروف التى اندلعت فيها حرب أكتوبر بشىء من التفصيل الذى قد يلم به جيلى ومن هم أكبر منا سناً، ولكن اللاحقين بنا قد لا يدرون كل تفصيلاته ومن حسن الحظ أن الجمسي يقدمها لنا بطريقة منهجية عسكرية في ذات الوقت، وهو ينقل عن التوجيه الاستراتيجى ما يلخص به الوضع العام واستراتيجية العدو واستراتيجيتنا والتوقيت فى فقرات متوالية تعبر عما هو مسموح به من ظروف المعركة، وتقفز ـ أيضا ـ على ما يبدو أنه لم يكن مسموحاً به:

□ **أولاً: عن الوضع العام :**

١ـ لقد مضت حتى الآن أكثر من ست سنوات على احتلال العدو الإسرائيلى لأجزاء من التراب العربى.

٢ـ إن إسرائيل مؤيدة بدعم أمريكى خصوصاً فى مجال إمدادات السلاح ... حاولت وتحاول فرض إرادتها علينا وإنهاء أزمة الشرق الأوسط على نحو يحقق لها سيطرة شبه مطلقة فى المنطقة العربية وفى أمنها وفى مصائرها.

٣ـ إن مصر حاولت بكل الوسائل ، ومنذ صدور قرار وقف إطلاق النار عن مجلس الأمن فى ٨ يونيو ١٩٦٧ أن تجد حلاً للأزمة ... وفى هذا السبيل فقد تنوعت وسائلها من قبول قرار مجلس الأمن بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ إلى قبول جهود السفير جونار يارنج ، ثم جهود الدول الكبرى ، ثم جهود قامت بها القوتان الأعظم ، ثم مبادرة تقدم بها وزير الخارجية الأمريكية وليم روجرز ، حتى تقدمت مباشرة بمبادرة لحل يكون فيه فتح قناة السويس بداية لمراحل انسحاب شامل تطبيقا لقرار مجلس الأمن. ولكن كل هذه الجهود لم تصل إلى نتيجة ، فهى إما فشلت أو توقفت أو حاول أعداؤنا الخروج بها عن مقاصدها.

٤ـ إن مصر قامت بعمليات عسكرية ذات طابع محدود فى سنوات ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ ،

١٩٧٠ ، كذلك قدمت دعماً كبيراً لقوات المقاومة الفلسطينية لمباشرة عمليات فدائية على الخطوط أو داخل الأرض المحتلة ... ولكن هذه العمليات كلها ، وإن أدت إلى نتائج لها أثرها ، فإنها لأسباب متعددة لم تصل فى ضغطها على العدو إلى الحد اللازم.

٥ـ إن مصر كانت تدرك طول الوقت أنه سوف يجىء وقت يتعين عليها فيه أن تتحمل مسئولياتها ... وكان أهم ما يجب أن نعنى به هو أن نوفر لهذا اليوم كل ما نستطيع ... وفى حدود قدرتنا ... ومع التزامنا بواجب الدفاع عن التراب والشرف.

٦ـ إن الشعب فى مصر تحمل بأكثر مما كان يتصور أحد ـ خصومه وأصدقاؤه على السواء ـ ولقد كانت الأعباء التى تحملها الشعب ، مادية ومعنوية ، أعباء فادحة لايتحملها إلا شعب يؤمن بالحرية ويضحى فى سبيلها.

٧ـ إن تحسينات مهمة طرأت على الموقف السياسى العربى عموما وزادت من احتمالات تأثيره ... ومع تزايد أزمة الطاقة وأزمة النقد فى العالم فإن الضغط العربى فى أحوال ملائمة يستطيع أن يكون عاملاً له قيمته.

٨ ، ٩ ، ....

١٠ـ إن الموقف الدولى يتغير ... وما زالت حركته مستمرة ... وقد نجد أنفسنا أمام توازنات طويلة الأجل تؤثر على حرية حركتنا وعلى حقنا فى اختيار أنسب البدائل.

□ ثانياً : عن إستراتيجية العدو :

«إن العدو الإسرائيلى كما نرى انتهج لنفسه سياسة تقوم على التخويف ، والادعاء بحقوق لا يستطيع العرب تحديها ... وهذا هو أساس نظرية الأمن الإسرائيلى التى تقوم على الردع النفسى والسياسى والعسكرى.

إن نقطة الأساس فى نظرية الأمن الإسرائيلى هى الوصول إلى إقناع مصر والأمة العربية بأنه لا فائدة من تحدى إسرائيل ، وبالتالى فليس هناك مفر من الرضوخ لشروطها حتى وإن تضمنت هذه الشروط تنازلات عن السيادة الوطنية».

▫ **ثالثاً: عن استراتيجية مصر فى هذه المرحلة:**

«إن الهدف الاستراتيجى الذى أتحمل المسئولية السياسية فى إعطائه للقوات المسلحة المصرية ... وعلى أساس كل ما سمعت وعرفت من أوضاع الاستعداد يتلخص فيما يلى:

تحدى نظرية الأمن الإسرائيلى وذلك عن طريق عمل عسكرى حسب إمكانيات القوات المسلحة يكون هدفه إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالعدو وإقناعه بأن مواصلة احتلاله لأراضينا تفرض عليه ثمناً لا يستطيع دفعه ... وبالتالى فإن نظريته فى الأمن ـ على أساس التخويف النفسى والسياسى والعسكرى ـ ليست درعاً من الفولاذ يحميه الآن أو فى المستقبل».

وإذا استطعنا بنجاح أن نتحدى نظرية الأمن الإسرائيلى فإن ذلك سوف يؤدى إلى نتائج محققة فى المدى القريب وفى المدى البعيد.

فى المدى القريب: فإن تحدى نظرية الأمن الإسرائيلى يمكن أن يصل بنا إلى نتائج محققة تجعل فى الإمكان أن نصل إلى حل مشرف لأزمة الشرق الأوسط.

وفى المدى البعيد: فإن تحدى نظرية الأمن الإسرائيلى يمكن أن يحدث متغيرات تؤدى بالتراكم إلى تغيير أساسى فى فكر العدو ونفسيته ونزعاته العدوانية.

▫ **رابعاً: عن التوقيت:**

«إن الوقت من الآن ، ومن وجهة نظر سياسية ملائم كل الملاءمة لمثل هذا العمل الذى أشرت إليه فى ثالثاً من هذا التوجيه».

«إن أوضاع الجبهة الداخلية ، وأوضاع الجبهة العربية العامة بما فى ذلك التنسيق الدقيق مع الجبهة الشمالية ، وأوضاع المسرح الدولى ، تعطينا من الآن فرصة مناسبة للبدء».

«ومع العزلة الدولية للعدو ... ومع الجو الذى يسود عنده بنزاعات الانتخابات الحزبية وصراعات الشخصيات ـ فإن احتمالات الفرصة المناسبة تصبح أحسن أمامنا».

ويردف الجمسى بقوله:

«كانت قواتنا المسلحة فى أقصى درجات استعدادها للقتال ، كما كنا فى «مركز العمليات» نتابع نشاط العدو أولاً بأول ، وكان لهذا العمل أهميته القصوى فلم يبق سوى ٢٤ ساعة وتبدأ الحرب».

(٤٣)

ويحرص الجمسى فى موضع متقدم من هذه المذكرات على أن ينبئنا بكل هدوء أنه على الرغم من توليه منصب وزير الحربية بعد أن تحقق بالفعل نصر أكتوبر العظيم فإنه كقائد عسكرى مسئول لم يكن مستعداً أبداً للتراخى أو الاسترخاء أو للاقتناع بنشوة النصر وإنما كانت أمام ناظريه واجبات عديدة ومسئوليات ضخمة لإيمانه بأن الحرب لم تنته على الرغم من إيقاف القتال، فضلاً عن ضرورة الحفاظ على إنجازات الحرب المجيدة نفسها، وهو يستعرض فهمه لهذه المرحلة المهمة فى حياتنا فيقول :

«... وكان من الطبيعى أن تكون المسئولية العسكرية لها الأسبقية الأولى والأهم بالنسبة لى ـ ولكل القوات المسلحة ـ لأن القتال فى حرب أكتوبر كان قد أوقف ، ولكن الحرب مع إسرائيل لم تكن انتهت. كان علينا أن نعمل بكل إصرار للمحافظة على مكاسب حرب أكتوبر ، وأن نضع الدروس المستفادة منها موضع التنفيذ تطويراً وتنظيما وتخطيطاً وانضباطا الأمر الذى يتطلب استمرار العمل الجاد بنفس روح حرب أكتوبر».

وهو يؤكد أنه كان حريصاً على أن يبتعد بنفسه وبالقوات المسلحة كلها عن نشوة النصر ، ويفسر هذا بما كان يخشاه أو يتحسب له من تسرب الإحساس بالاسترخاء العسكرى بعد الحرب:

« لم أكن أريد لنفسى ـ ولكل القوات المسلحة ـ أن نعيش فى نشوة النصر فيتسرب إلى نفوس بعضنا أننا نمر فى حالة استرخاء عسكرى بعد الحرب. فقد كانت قواتنا بالجبهة فى سيناء يفصلها عن قوات العدو عدة كيلومترات تعمل فيها قوات

الطوارئ الدولية التى لا تمنع أحد الطـرفين ـ مصر وإسرائيل ـ من بدء الحرب فى أى وقت. وكان مطلوباً أن نعمل على رفع القدرة القـتالية لقواتنا المسلحة أمام عدو يؤمن بعقيدة القوة ويعـمل على رفع مـستواه القتالـى بصفة مستمرة. وقبل كـل ذلك فإن جزءاً من سينـاء مازال محتلاً لابد من تحريره بـالقوة أو بالجهد السياسـى الذى يحتاج إلى مساندة قوة عسكرية قادرة » .

ويستطرد صاحب هذه المذكرات إلى تأكيد هـذه المعانى فى فقرة أخرى مستشهداً ببيانات رسمية أدلى بها فى وقتها يقول فيها :

« وقد عبـرت عن الموقف بصـراحة ووضـوح فى بيان ألـقيته أمام رؤسـاء وأعضاء لجان مـجلس الـشعب يـوم ١٥ مارس ١٩٧٧ ـ ونشرتـه الصحـف ـ قلت فـيه: « إن القوات المسلحة تدرك تماما ، أن هناك جزءاً عـزيزاً من أرضنا ما زال محتلاً ، وبالتالى فإن معركتنا مع إسرائيل لن تنتهى إلا بتحرير الأرض كاملة. وعلى ضوء هذه الحقيقة تسير قواتنا على الطريق تستلـهم نفس الروح التى خاضت بها حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، لا تفاخر بـانتصارها ، ولا تستـهين بعدوها ، واضحة فـى اعتبارها أن الجهد الـسياسى المكثف والمستمر الذى يبذل لحل القضية حلاً عادلاً لابد أن تسانده قوة عسكرية قادرة ومتطورة » .

(٤٤)

ومن أهـم الموضـوعات فـى هذه المذكـرات ما يـرويه صـاحبهـا عن ذكـرياتـه فى التجربة التى قدر له أن يخوضها ـ ولما تنـته الحرب بعد ـ كرئيس للجانب المصرى فى محادثات فض الاشتباك مع إسرائيـل فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣، ومن الواضح فى حديث صاحـب المذكرات أنه حريص جداً على أن يـعبر لنا عما كان يـعتريه من عدم السعـادة أو القلق تجاه القـيام بمثل هذا الدور حـين رشح له أو كلف بـه، بل إنه حريص جداً عـلى أن يروى ويسجل اعتـراضه الذى أبداه عندمـا علم بتكليـفه بهذه المهـمة، وهو شـعور طبـيعى جداً وإنسانى جـداً ، ومع هذا فـقد أدى صاحـب هذه المذكرات هذا الدور على خير ما يكون الأداء لأنه بطبعه عسكرى ملتزم ووطنى أشد التزاما بوطنه، ولنقرأ ما يرويه حيث يقول :

« وفى حوالى السادسة من صباح يوم ٢٨ أكتوبر ، وبينما كنت نائما فى مركز العمليات ، حضر أحد الضباط لإيقاظى لمقابلة الفريق أول أحمد إسماعيل فوراً فى غرفة مكتبه ، وهى فى نفس الوقت غرفة راحته. سألت الضابط تلقائياً: أين استؤنف القتال ومتى؟ وكان رده ، إن القتال لم يستأنف والموقف كما هو لم يتغير... عندما دخلت غرفة الفريق أول إسماعيل ، وجدته مستلقيا على ظهره فوق السرير الحديدى الصغير ، ويبدو عليه التعب والإرهاق الشديد».

«اعتدل فى مكانه وقال لى: إن هناك مبادرة أمريكية ، وافقت عليها كل من مصر وإسرائيل ، بأن يتم اجتماع عسكرى بين ممثلى القوات المصرية والجيش الإسرائيلى بمنطقة الكيلومتر ١٠١ طريق القاهرة ـ السويس الصحراوى ، لبحث المشاكل العسكرية التى ترتبت على وقف إطلاق النار بعد أن تداخلت قوات الطرفين ، ويلزم إجراء فصل بين القوات بوجود قوات الطوارئ الدولية بينها. والموضوع الثانى الذى يجرى بحثه هو إمداد مدينة السويس وقوات الجيش الثالث الموجودة فى شرق القناة ، بإمدادات غير عسكرية فى قول واحد من اللوارى، وأن إسرائيل ، بناء على طلب أمريكا ، وافقت على ذلك. وأضاف الفريق أول إسماعيل أنه تحددت الساعة الخامسة مساء نفس اليوم ـ ٢٨ أكتوبر ـ لعقد هذا الاجتماع تحت إشراف قوات الطوارئ الدولية ، كما تقرر تعيينى رئيساً للوفد العسكرى المصرى فى هذه المباحثات».

(٤٥)

عند هذه النقطة يصرح المشير الجمسى بشعوره التلقائى بالنفور من مثل هذه المهمة التى ستجعله ـ على غير توقع ـ يتعامل مباشرة مع أعدائه الذين لايزال يحاربهم، ويقول مباشرة:

«... اعترضت على تعيينى للقيام بهذه المهمة ، لأنى لا أريدها ولا أرغب فى تنفيذها فقد أمضيت حياتى العسكرية كلها فى حرب ضد إسرائيل ، فضلاً عن أن حرب أكتوبر لم تنته برغم توقف القتال مؤقتاً ، وليس هناك ما يدعو لبحث أى موضوع عسكرى معهم. واعتذرت له راجيا تعيين قائد آخر يقوم بهذه المهمة. كان

رد الفريق أول إسماعيل: إن مؤتمرا [يقصد: اجتماعا] عقد هذه الليلة فى رئاسة الجمهورية برئاسة الرئيس السادات ، امتد طويلاً لبحث الموضوع وانتهى فى الفجر. وقد تقرر فى هذا المؤتمر تعيينى للقيام بهذه المهمة ، لأنى بحكم عملى رئيساً لهيئة العمليات ، ألم إلماماً تاماً بأوضاع قواتنا وأوضاع قوات العدو فى الجبهة وكذا خطوط القتال التى كانت عليها القوات المصرية والإسرائيلية يوم ٢٢ أكتوبر».

«أوضحت للفريق أول إسماعيل أن المهمة المطلوب تنفيذها هى تحديد «منطقة فصل» بين قواتنا وقوات العدو ، تتمركز فيها قوات الطوارئ الدولية التى وصلت طلائعها إلى منطقة السويس ، وتثبيت وقف إطلاق النار. وتلك هى مهمة وواجب قوات الطوارئ الدولية ، ومطلوب منا فقط التعاون معها لتحقيق هذا الواجب ، وبالتالى ليس هناك داع لمناقشة الموضوع فى اجتماع عسكرى بين مصر وإسرائيل».

«أما الموضوع الثانى الخاص بإمداد مدينة السويس وقوات الجيش الثالث على الضفة الشرقية للقناة ، فقد رضخت إسرائيل لتعليمات أمريكا بمرور قول من اللوارى يحمل إمدادات غير عسكرية. وإن كان ذلك تم بجهد سياسى بين مصر وأمريكا ، فلا شك أن أمريكا يمكنها إصدار التعليمات لإسرائيل لاستمرار الإمداد ولن تتمكن إسرائيل من الرفض. وهذا يحقق مصلحة لأمريكا عندما تقوم بهذا الدور. ويبقى علينا كقوات مسلحة أن نستعد للقيام بعمل عسكرى لفتح طريق القاهرة ـ السويس بالقوة إذا تعطل الإمداد أو توقف برغم تدخل أمريكا».

❑

ويؤكد الجمسى على أنه تقبل هذه المهمة كأمر واجب التنفيذ، وإن كان قد بدأ يضع لمحات فكره عليها بأن طلب ضرورة وجود ممثل لوزارة الخارجية فى الوفد العسكرى:

«رفض الفريق أول إسماعيل رأيى ، وطلب تنفيذ المهمة كما تقررت. وكان ذلك أمراً لى واجب التنفيذ. وبعد اتصال مع قيادة قوات الطوارئ الدولية ، عين الجنرال يلاسفيو قائد القوات مندوباً عنه لحضور الاجتماعات العسكرية المصرية الإسرائيلية تحت رعاية الأمم المتحدة. طلبت ضرورة تواجد ممثل لوزارة الخارجية فى الوفد العسكرى ، حتى تكون وزارة الخارجية على علم بما يدور فى هذه المباحثات

العسكرية لارتباطها بالعمل السياسى، وفى نفس الوقت يعتبر مستشارا للوفد فى الموضوعات السياسية أو القانونية. وتعين المستشار عمر سرى من وزارة الخارجية عضواً فى الوفد بصفته مستشاراً للوفد وليس ممثلاً لوزارة الخارجية ، حتى يظل طابع المباحثات هو الطابع العسكرى البحت. وبذلك تشكل الوفد برئاستى وعضوية العميد فؤاد هويدى والمستشار عمر سرى. وفى مرحلة تالية ، أصبح الوفد يشكل منى واللواء طه المجدوب والعميد فؤاد هويدى وممثل لوزارة الخارجية يعمل مستشاراً للوفد».

(٤٦)

ومن الطبيعى أن يكون حديث الجمسى عن دوره فى مباحثات فض الاشتباك مدخلاً للحديث عن مشاركاته فيما يمكن أن يطلق عليه تجاوزاً مفاوضات السلام المبكرة التى دارت بين السادات وكيسنجر فى أسوان، وهو يتحدث عن اجتماعات هذه (المفاوضات) بكل ما يمكنه ويجده ويجيده من الصدق الشعورى الذى يدفعه إلى أن يعترف للقارئ بأنه فوجئ بها وبما فيها، وأنه لم يُخطر بما تم قبلها من اتفاقات .. بل إنه لايجد حرجا فى أن يعترف بكل صراحة بأنه فوجئ باتفاقات كيسنجر مع السادات على بعض النقاط من قبل أن تناقش فى الاجتماعات الموسعة، ويحرص الجمسى فى هذه الفقرات على أن يثبت لنا فى وضوح شديد أن الرئيس السادات لم يخطره مسبقاً باتفاقات أبرمها مع كيسنجر على حين أن الجمسى كان يعتقد أن الموضوعات العسكرية سيتم بحثها خلال المفاوضات.

ولنقرأ ما يرويه المشير الجمسى حيث يقول:

«أجرى كيسنجر المفاوضات مع الرئيس السادات ووزير الخارجية إسماعيل فهمى فى أسوان ، وبدأ جولاته المكوكية بين أسوان والقدس. وبعد فترة ما ، أبلغنى الفريق أول أحمد إسماعيل بالسفر إلى أسوان للاشتراك فى المفاوضات المصرية الأمريكية لبحث الموضوعات العسكرية».

ويبدو مما يرويه الجمسى أنه كان يعتقد أن دوره فى هذه المفاوضات سيكون أكبر مما حدث بالفعل:

« بدأ الدور الحقيقى لعملى فى أسوان ، عندما دعيت لحضور اجتماع للمفاوضات بين الوفدين المصرى والأمريكى ، يعقد فى فندق كتاركت الجديد [يقصد: نيو كتاركت] فى أسوان. وقبل هذا الاجتماع لم يخطرنى الرئيس السادات بأى اتفاق مسبق تم بينه وبين كيسنجر ـ فى المفاوضات التى تمت بينهما ـ عن أى موضوعات عسكرية بحثت بينهما سيتضمنها الاتفاق، وكان اعتقادى أن مثل هذه الموضوعات العسكرية سيتم بحثها خلال المفاوضات بين الوفدين المصرى والأمريكى، حتى يتعرف كيسنجر على رأينا أثناء رحلاته المكوكية إلى إسرائيل ، وبالتالى يمكنه الوصول إلى اتفاق يرضى عنه الطرفان».

«كان الوفد المصرى مكونا من إسماعيل فهمى وزير الخارجية رئيساً ، وأنا ، ومحمد رياض ، وأحمد عثمان، و عمر سرى وآخرين من وزارة الخارجية. وكان الوفد الأمريكى مكونا برئاسة الدكتور هنرى كيسنجر ومعه بنكر، وأيلتس ، وسوندرز ، واثرتون ، وكوانت ، والمستشار القانونى لوزارة الخارجية».

(٤٧)

ثم يروى المشير الجمسى بكل صراحة تفصيلات حواره مع كيسنجر فى هذه المفاوضات وكيف كان حريصاً على أن يعبر لوزير الخارجية الأمريكى عن استيائه وإحساسه بالتحيز الكيسنجرى لمصلحة إسرائيل:

«جلسنا لإجراء محادثات جادة وسرية لمدة حوالى ساعتين ، نوقشت فيها موضوعات سياسية وأخرى عسكرية. وأبلغ كيسنجر الحاضرين ببنود الاتفاق الذى توصل إليه مع الرئيس السادات حول الموضوعات العسكرية، وهنا كانت المفاجأة لى وللحاضرين ، عندما ذكر كيسنجر أن الرئيس السادات وافق على تخفيض حجم القوات على الضفة الشرقية للقناة لتصبح ٧٠٠٠ رجل ، و٣٠ دبابة ، وعدداً محدوداً من قطع المدفعية ، وفى هذه اللحظة شعرت بمدى التخفيض الذى سيحدث فى

القوات ، بعد أن كان لنا قوات جيشين يصل عدد رجالها إلى أكثر من عشرة أمثال العدد الجديد ، وكنا نقدر أن يكون لنا ٣٠٠ دبابة فى شرق القناة ، كما كان الوضع الطبيعى أن تكون لنا أعداد كبيرة من المدفعية لتدعيم القوات فى سيناء ».

«وأتذكر أنى أبديت رفضى لتخفيض حجم القوات كما هو مقترح ، وقلت للدكتور كيسنجر بحدة " إنك تعطى لإسرائيل كل ما يضمن تأمين قواتها وتحرمنا من كل مايضمن تأمين قواتنا .. إنى لا أوافق على ذلك ، ولا يمكننى ـ كرئيس أركان حرب القوات المسلحة ـ إيجاد المبرر له أمام القوات المسلحة».

«قال كيسنجر إنه يضع استراتيجية للسلام مستقبلا وهو موضوع هام ، وفى سبيل تحقيق ذلك تم الاتفاق على الأعداد المقترحة من القوات المصرية والأسلحة لتكون فى شرق القناة».

«قلت له إنى لا أتحدث عن السلام ، ولكنى أتحدث عن تأمين قواتنا ... وتركت غرفة الاجتماعات بانفعال ، بعد أن اغرورقت عيناى بالدموع ... واتجهت إلى الحمام»

هكذا يؤكد الجمسى حقيقة مارُوى من أنه تأثر تأثراً شديداً بما بدأ يسفر عنه اتفاق السادات مع كيسنجر ولكننا نلاحظ أنه لايقول أنه أجهش بالبكاء ولا انخرط وإنما هو يصف الوصف بمنتهى الصدق الشديد للتعبير النفسى عن الحالة الانفعالية فقد اغرورقت عيناه بالدموع، هكذا يمكن القول من دون تعسف أن أعصابه هى التى لم تسعفه وأن عينيه هما اللتان اغرورقتا بالدموع ولم تكن حواسه هى التى اندفعت فى هذا السبيل!! كأنه يريد أن يقول إن انفعاله كان شعورياً ولم يكن عقلياً، كما أن العقل لم يستطع السيطرة على شعوره! ومن ثم فإنه ترك غرفة الاجتماع ، وفعل هذا بانفعال ، واتجه إلى الحمام .

(٤٨)

وهنا أيضاً يلجأ الجمسى كالعهد بدقته وموضوعيته وحرصه على البعد عن الذاتية إلى ما يرويه اسماعيل فهمى «رئيس الوفد » عما حدث بعد خروجه المفاجىء من

الاجتماع المنعقد بين المصريين برئاسة إسماعيل فهمى والأمريكيين برئاسة كيسنجر فيقول:

« ويقول إسماعيل فهمى إنه بعد أن غادرت الغرفة « بدأ الجميع يتململون وتأثرت مشاعر الوفد المصرى الذى كان يشعر بنفس شعور الفريق الجمسى. وكان يمكن أن يرى المرء بسهولة على وجوه الوفد الأمريكى أنهم أيضاً شعروا بالظلم الذى وقع على مصر .. غير أن كيسنجر كان لا يفكر إلا فى نفسه ، وقد شحب لونه ، وظل يدمدم قائلا : « ما الخطأ الذى قلته ؟» .

....

ويعود الفريق الجمسى بعد هذا الاستطراد والاقتباس من إسماعيل فهمى إلى رواية ذكرياته هو فيقول :

« عدت لغرفة الاجتماعات ، لأكون صامتا حتى نهاية الاجتماع . أخذ كيسنجر يغرقنى بالمديح ، ويقول إن العسكريين الإسرائيليين يقدرون تماما كفاءة الفريق الجمسى ... واعترفت إسرائيل بأنها تخشاه أكثر مما تخشى القادة العسكريين العرب الآخرين».

ويعلق المشير الجمسى بقوله:

«لقد بقيت صامتا دون أن أعلق بكلمة على ما قاله كيسنجر ، لأن المديح لم يكن يمحو المشكلة الحقيقية التى نواجهها فقد كنت أقدر الجهد والتضحيات التى تحملتها القوات المصرية فى الحرب ، وليس هناك مايدعو لتقديم هذا التنازل الكبير الذى قد يترتب عليه تهديد أمن القوات المسلحة».

«وكنت أتوقع أن يستشير الرئيس السادات الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام للقوات المسلحة أو يستشيرنى عند وصولى أسوان ، لإبداء الرأى فى الموضوعات العسكرية التى يتضمنها الاتفاق ، ومنها حجم القوات التى يجب الاحتفاظ بها فى سيناء بحيث تكون قادرة على الدفاع بكفاءة عن الإنجاز العسكرى الذى حققته . ولم يكن هناك ما يدعو ـ سياسيا أو عسكريا ـ إلى قبولنا التخفيض للقوات والتسليح».

على هذا النحو يعبر الجمسى بدقة عن إحباطاته دون أن يحول هذه الإحباطات إلى اتهامات للسادات، فقد تكفل أعداء السادات بمثل هذا وأكثر منه!

(٤٩)

ثم يروى لنا المشير الجمسى فقرات رائعة يضرب بها المثل الرفيع للسلوك الوطنى الملتزم حين يجد الرجل الثالث (الجمسى) نفسه وهو يخشى شيئاً يظن أن الأول (السادات) لايبصره بنفس الدرجة وهنا نجد الجمسى لايتصل بالرجل الأول مباشرة وإنما يتصل بالرجل الثانى (المشير أحمد إسماعيل) الذى يمثل الحلقة المتوسطة بينهما ويلح عليه فى الحضور بنفسه للقاء الرئيس فى أسوان .. ثم إن الجمسى لايجد نفسه مدفوعاً إلى الإحاطة بما لم يحط به من حوار رجلين حول آرائه وإنما هو يروى ما حدث على نحو ما حدث دون أن يقدم سيناريوهات من تأليفه أو من تصوره!

ويلخص لنا صاحب المذكرات بقدر هائل من الاخلاص للذات وللآخر أيضاً وجهتى النظر الوطنيتين اللتين أحاطتا بالقضية التى يدور حولها الخلاف، وأجدنى مدفوعا لأن أكرر أن فقرات الجمسى فى هذا الموضوع تمثل نموذجاً بارزاً للوطنية الصادقة فى معالجة القضايا الوطنية، وليتنا جميعا نأخذ منها ما يفيدنا حين نختار ما نتبناه من سياسات ومواقف حين تقتضينا الحياة أو تهيئ لنا مقاعد متقدمة فى مواقع اتخاذ القرار فى هذا الوطن ، ولنقرأ هذا الذى يرويه المشير الجمسى فى هدوء شديد حيث يقول:

« بعد انتهاء المفاوضات ، اتصلت بالفريق أول إسماعيل بالقاهرة ، وبعد أن شرحت له ما دار فى هذا الاجتماع ، طلبت منه أن يحضر إلى أسوان بالطائرة التى تستغرق رحلتها ساعة ونصف الساعة ، لمناقشة وبحث الموضوع مع السيد الرئيس ، ونحن فى مرحلة المفاوضات قبل أن يتم الاتفاق رسميا بين مصر وإسرائيل».

«وكان الحل التبادلى أن يتصل (أى الفريق أول أحمد إسماعيل) بالرئيس تليفونيا لتوضيح وجهة نظره والتى تتفق مع وجهة نظرى . ولا أعلم ماذا تم بعد ذلك بين الفريق أول إسماعيل والرئيس السادات».

هكذا ألقى الجمسى بالكرة فى ملعب القائد العام وانتظر!

ثم هو يردف بأن يروى قصة استدعاء الرئيس السادات له لكى يطلعه على وجهة نظره فيما يتعلق بحجم القوات فى سيناء، ويبدو السادات فى الصورة التى قدمها الجمسى فى هذه الفقرات مصمماً على السير قدماً فى طريق السلام وغير معنى بالتحفظات العسكرية الهادفة إلى تأمين القوات، وفى ذات الوقت فإنه مؤمن بإمكان أن تجد القوات المسلحة الوسيلة الكفيلة بحماية الوضع الجديد على نحو ما حققت من قبل نجاحها المبهر فى حرب أكتوبر!

(٥٠)

على هذا النحو وضّح الجمسي الصورة، ولكن المبشرين بالهزيمة، الحاقدين على النصر الذى حققته مصر فى معركة الحرب والسلام ـ فيما نشروا بعد هذا من كتب ومقالات ـ يكتفون من كل هذه القصة بتصوير الجمسي وهو يبكى لهذا التفريط فى المكاسب، بينما أثبتت الأيام منذ سنوات عديدة مدى بُعد نظر السادات وقدرته على المناورة والوصول إلى هدفه، والحمد لله فقد تحررت سيناء كلها دون حاجة إلى حرب جديدة، تحررت سيناء وهى خالية إلا من ثلاثين دبابة، وفيما قبل حين كانت خططنا العسكرية تنشر بالعناوين العريضة فى الصحافة المصرية، فقد ضاعت سيناء بآلاف الدبابات التى كانت فيها! ولنقرأ ـ على كل حال ـ نص الجمسى بكامله وبحذافيره:

«وفى اليوم التالى ، استدعانى الرئيس إلى مكتبه فى استراحة أسوان ، وكنا وحدنا السادات وأنا فقط . بادرنى بقوله إنه علم بغضبى أثناء جلسة مباحثات أمس ، وعدم موافقتى على تخفيض حجم القوات بالقدر الذى اتفق عليه مع كيسنجر. وكان يرى أن حجم القوات فى شرق القناة لا يجب أن يكون عائقا أمام اتفاق فك الاشتباك، وبالتالى يكون عائقا أمام الإستراتيجية السياسية التى يضعها مع كيسنجر لتحقيق السلام فى المنطقة على المدى البعيد. كما كان يرى أن عمل قوات الطوارئ الدولية فى المنطقة العازلة بين القوات المصرية والإسرائيلية يكفل عدم استئناف القتال».

«شرحت للسيد الرئيس وجهة النظر العسكرية قائلا: إن الحجم المقترح لقواتنا شرق القناة لايحقق أبدا الدفاع عن الأرض التى حررتها قواتنا بمواجهة حوالى مائة كيلو متر. وإن إسرائيل لن تنسى الهزيمة التى لحقت بها فى حرب أكتوبر ، ولذلك فإننا لا نستبعد مطلقا قيامها بالهجوم ضد قواتنا ، برغم وجود قوات الطوارئ الدولية التى لم تخصص للقتال من جهة ولا تمنع أى طرف من استئناف القتال . وذكرت أننا نقدر فى القيادة العامة ضرورة الاحتفاظ بفرقتين من المشاة مدعمتين ، حوالى ٣٥ ألف مقاتل ، وحوالى ٣٠٠ دبابة ، وعدد كبير من قطع المدفعية بأعيرتها المختلفة فى شرق القناة ، بعد انتشار قوات الطوارئ الدولية فى منطقة «الفصل» بين القوات المصرية والإسرائيلية. فضلا عن ذلك فإن قواتنا فى الشرق يجب أن تكون تحت حماية صواريخ الدفاع الجوى. ولم يصل تفكيرنا إلى الحجم المحدود من القوات والتسليح الذى اتفق عليه ـ مبدئيا مع كيسنجر ، وما زال الوقت أمامنا لتعديل هذا الاقتراح».

«وفى نهاية حديثى ، اقترحت على السيد الرئيس استدعاء الفريق أول أحمد إسماعيل إلى أسوان لمناقشته فى الموضوع ، والوقوف على رأيه ».

«رد الرئيس أنه لن يستدعى أحمد إسماعيل ، وأن الاتفاق الذى تم مع كيسنجر يجب الالتزام به لصالح الاستراتيجية السياسية الجارى وضعها مع أمريكا. واستطرد قائلا: إنه يحملنى مسئولية وضع الخطة المناسبة للدفاع شرق القناة بالقوات التى حددت ، مع مراقبة تنفيذ هذه الخطة . وأن ما قامت به هيئة عمليات القوات المسلحة برئاستى من إنجاز كبير فى حرب أكتوبر ، لابد أن يتكرر فى هذا الموقف الجديد».

(٥١)

هكذا صور لنا صاحب هذه المذكرات بعض أدواره فى الحرب، وفى بدايات السلام، وأنى أظن القارىء الآن وهو يتخيل مقدار المعاناة التى كان الجمسى سيعانيها لو أنه واصل التفاوض مع الإسرائيليين فى مراحل تالية تميزت بوجود مواجهة أعنف

بأفكـار من نوع أفكار بيـجين المتطرفة المتشددة، ولكنـه على أى الأحوال تولى القيام بالدور الأول الـذى كان من الصـعب على نـفس أى مقاتـل عربى أن يقـوم به فى أى وقت.

ويحرص الجمسى (ربما بطريقة غير واعية) أن ينبئنا فى هذا الكتاب أنه لا عهد له ولا خبـرة بألاعيـب السـياسة والـدبلومـاسية، ويـتضح هـذا فى مـواضع عديـدة من مذكراته، ولكننا سنجتزئ للقارئ برواية أحد هذه المواقف حين كُلف الجمسى فجأة من الرئيس السـادات بحضور لـقاء فـى سالـزبورج بـين الرئـيس ووزيـر الدفـاع الاسرائيـلى وايزمان علـى حين كان الأهرام قـد نشر فى نـفس اليوم ما صـرح به هو نفسه بأنه لن يلتـقى بويزمان قبل تحديد نتائج مؤتمر لندن، وأنـت تحس فيما تقرأه فى هذه المذكرات بقلق ضمير الجمسى مـن أن تمضى الأحداث به على هذا النحو الذى يجد فيه نفسه يفعل شيئاً ـ أياً كان ـ مع أنه كان قد نشر له فى ذات اليوم تصريح أدلي به من قبل للـصحافة بأنه لن يفعله !! ويـعبر الجمسى عن هذا القلـق وعن رغبته فى ضبط موقفـه بأكثر من صورة حتى ولو كـان تعديل التصريح الذى صـرح به من قبل مع أن هذا أصبح غير ممكن!! ولنقرأ عبارات الجمسى:

«... كنت فى منزلى بـعد ظهر يوم ١٢ يوليو ١٩٧٨ عندما اتصـلت بى سكرتارية الرئـيس السـادات تليفـونيا مـن سالزبـورج [يكتبـها المشير الجمـسى فى مـذكرات سالسـبورج دائمًا ولـكننا نلـتزم بما تعـارف عليه الـناس حتى فى سـالزبورج نفـسها] بالنـمسا حيث كان الـرئيس فى زيارة هـناك . طلب الرئـيس توجيه دعوة إلـى ويزمان لمقابلته فى سالزبورج فى اليوم التالى ـ ١٣ يوليو ـ وأن أتوجه إلى نفس المدينة فى نفس الميعاد لحضور المقابلة».

«وصلت إلـى سالزبورج صـباح يوم ١٣ حيـث كان فى استـقبالى بـالمطار سفـيرنا هناك، حيث اصطحبنى إلى الفندق الذى يقـيم فيه الرئيـس ويقضى فترة راحة فى هذا المكـان الجميل الـذى يطل عـلى بحيرة واسعة تحوطها بعض الجبال الـتى تكسـوها النباتات الخضراء. وجدت المدينة هادئة ، والمنازل تزين شرفاتها الورود وهو طابع مميز لهذه المدينة».

«وأثناء رحلة الـطائرة من القاهرة إلى الـنمسا قرأت صحف الصـباح الصادرة فى القـاهرة ووجدت خبـرا فى صحـيفة الأهرام يـقول تحت عنـوان الجمسـى لن يلتـقى

بويـزمان قبل تحـديد نتـائج مؤتمـر لندن: « أكد الـفريق الجـمسى أنـه لن تكون هـناك لقاءات جديدة بين العسكريين فى مصر وإسرائيل قبل أن يحدث شىء جديد يوضع للمناقشة».

«لقد كان من عادتى أن تكون تصريحاتـى لوسائل الإعلام محدودة وصادقة إيمانا منى بأن العمل العسكرى لا يجب أن يكون موضوعا لتصريحات كثيرة ، وأن الحقائق يجـب أن تقال للـشعب فـى وقتهـا المناسب. وكـان التصـريح المنـشور صحيـحا لأن المفاوضات العسكـرية كانت قد وصلت إلى طريق مسدود مـن قبل ، وكان آخر لقاء لى مع ويزمان فى القناطر الخيرية يوم ٣١ مارس ١٩٧٨ عندما طلب الرئيس السادات دعوته لمقابلته لمناقشة العلاقة السياسـية بين الدولتين ـ كما سبق توضيحه ـ وليس لأى موضوع عـسكرى. لم أتـوقع استئـناف المباحـثات العسـكرية قبـل أن يتضح المـوقف السياسـى فى مؤتمر لندن الذى كـان مقرراً انعقاده فـى لندن بعد أيام قلائـل بحضور محمد إبراهيم كامل وديان وفانس».

«ومن هنا ... كنـت أشعر بالضيق والأسف وأنا فى طـريقى للنمسا لمقـابلة ويزمان هناك فى نفس الوقـت الـذى يصدر عنى تصريح فى الصحافة المصـرية يخالف الواقع الذى أقوم به. وراودنـى الأمل أن تتاح لى فرصـة تصحيح ما صـدر عنى بعد مقـابلة الرئيس السادات وويزمان، وخصوصا أن طلـب المقـابلة حددها الرئيس بعد ظهر يوم ١٢ على أن تتم فى الـيوم التالى ١٣ وهو يوم النشر فى الأهرام ، ولـم يكن هناك وقت لتعديل التصريح ».

❑

على هذا النحو نجد هذا الرجل ذا النفس السـوية وهو قلق من هذا التناقض مع أنه لم يكذب ولـم يقصد الكذب! ولكـنها النفس السـوية التى لا تسعد بـالكذب، قارن هذا بـبعض الآخريـن الذين لا يـكفون عن الـكذب، ويعـتبرونـه مهارة، ويمارسـونه بسعادة، ومع هذا يزعمون أنهم يتكلمون بالصدق دائماً... وبالوثائق ! !

لا أحب أن أتـرك هذه الجـزئيـة من دون أن أذكـر أن محـمد إبـراهيـم كامـل فى مذكراته التى تناولناها فى الباب الثالـث من كتابنا «معارك التفاوض من أجل السلام» قد أكد تماماً الوقائع التى رواها الجمسى فى هـذه الجزئية، والحقيقة أن محمد إبراهيم

كامل نشر مذكراته قبل الجمسى، لكننا تناولنا هذه الجزئية هنا فى حديثنا عن مذكرات الجمسى لأنها تخص الجمسى فى المقام الأول.

(٥٢)

أما عن الدور الذى قدر للجمسى أن يقوم به فى حرب ١٩٦٧ فسيروعنا ما يتوارد فى روايته من قدرة غريبة أوتيتها القيادة المصرية العليا فى ذلك الوقت على مخالفة كل المنطق العسكرى فى تنظيم الجيوش وإدارة الحروب والمعارك العسكرية، وسوف نعجب ما شاء الله لنا أن نعجب من أن هذا القائد العظيم كان هو نفسه أحد معاونى الفريق أول مرتجى الذى عين قائداً للجبهة قبيل حرب ١٩٦٧ دون أدنى صلاحيات أو مسئوليات .. وليس هذا فحسب بل إن الجمسى حريص على أن ينقل من مذكرات الفريق مرتجى ما يدل على أنه هو نفسه ـ أى الفريق مرتجى ـ كان معترضاً على هذا الوضع الذى اختير له فى هذه الحرب وأنه أبلغ اعتراضه هذا للمشير عبد الحكيم عامر نفسه ولكن دون جدوى !!

وسنعجب أيضا من أن الأقدار قد هيأت للجمسى وللمشير أحمد اسماعيل الزمالة فى هذه الحرب وكأنما كان هذا تمهيداً قدريا لزمالتهما وتعاونهما فيما بعد فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، ومن أطرف ما يمكن لى أن أرويه للقراء أن الفريق أول مرتجى تحدث فى أحد حواراته الصحفية فقال: «وكان معى «أى فى هذه الحرب» أحمد اسماعيل والجمسى وكلاهما ما شاء الله وصل مشير فاسألهما !!»

ومن حسن الحظ أن الجمسى نفسه قد أجاب على ما سئل عنه الفريق مرتجى بما يرويه نقلاً عن مذكرات الفريق أول مرتجى عن دوره المحدود فى هذه الحرب حيث يقول مرتجى:

«.. عينت قائداً للجبهة وهو منصب لم يكن مقرراً من قبل ، وكان المعروف أن الحرب ستدار بواسطة القيادة العليا وقيادة الجيش الميدانى. وكنت حتى ذلك الوقت أشغل منصب القائد السياسى العسكرى لمسرح العمليات باليمن ، وفى الوقت نفسه

قائد القوات البرية والتى لم يدخل ضمن مسئولياتها التخطيط للعمليات، ولذلك لم تكن مكلفة بأى خطط عمليات ، إذ كانت هذه المسئولية تقع على كاهل هيئة عمليات القوات المسلحة كجهاز تخطيط لرئيس أركان حرب القوات المسلحة ونائب القائد الأعلى. ومن هيئة العمليات تصدر توجيهات العمليات إلى قيادة المنطقة العسكرية الشرقية (قيادة الجيش الميدانى) التى تدرسها مع أجهزتها ثم تضع قرارها على ضوئها ثم تعرضها على رئيس الأركان وأجهزته ليقرها ... وتعرض بعد ذلك على نائب القائد الأعلى فى وجود واضعى الخطة ... للتصديق عليها».

«وعندما أبديت وجهة نظرى [الكلام لمرتجى] للمشير « يقصد المشير عامر » بأن اختصاصات قيادة الجبهة التى صدرت لا تمكنها من قيادة المعارك والسيطرة عليها ، وعليه فوجودها يعتبر حلقة إضافية فى سلسلة القيادة لا داعى لها ، إلا أن المشير كان يبرر موقفه بأنه سيتواجد فى مركز القيادة المتقدم وهو فى نفس الوقت الجبهة قبل العمليات بفترة وأنه سيقود المعارك وبالاشتراك مع قيادة الجبهة ، وأن قائد الجبهة فى هذه الحالة سيكون بمثابة رئيس أركانه. ولو أن تبرير المشير غير مقنع ، إلا أن الجو السائد فى ذلك الوقت بأن الحرب لن تنشب، ولذلك كانت تؤخذ الأمور ببساطة ودون تقدير خطورة اندلاع حرب مع إسرائيل » .

(٥٣)

هكذا يحرص المشير الجمسى على أن يروى لنا فى هذه المذكرات كيف كان قائد الجبهة فى ١٩٦٧ [وهو الفريق أول مرتجى] يعى تمام الوعى أن وجوده (ومَنْ معه بمن فيهم صاحب هذه المذكرات) لم يكن إلا حلقة إضافية فى سلسلة القيادة، أى أنه كان يمكن الاستغناء عن وجوده تماماً (بل ربما إن عدمه خير من وجوده) مع أنه لم يتطرق إلى مثل هذه الفكرة، ولكن علوم الإدارة هى التى تعلمنا أن الحلقات الإضافية فى سلسلة القيادة تضر ولا تنفع، فكأنما صرح مرتجى باللفظ الذى يدل على المعنى الخطير من دون أن ينسب المعنى الخطير إلى نفسه مباشرة)، ومع هذا فإن أحداً لم يسمع للفريق مرتجى ولم يقدر كلامه».

ومن الطريف أن الجمسى وعبدالحكيم عامر تخرجا فى الكلية الحربية فى نفس العام، فإذا بهذا القائد العسكرى المحترف الذى وصل إلى رتبة العميد بتدريج ودراسات يُعين على حين فجأة كأحد مساعدى قائد الجبهة، وإذا بزميله السياسى يدير الحرب كلها(!!) فإذا ما أتيح لمرتجى وعامر أن يتناقشا حول الحرب القادمة فإن المحترف يعرض وجهة نظره بأدب فيرد عليه القائد العام الكبير بأدب أيضاً مقدماً تفسيرات تلفيقية.. ولكن الجو العام يجعل القائد المحترف يسكت على مضض لأنه يعلم أو يكاد يعلم أن الحرب لن تقوم! وأن كل هذه الاستعدادات المظهرية ليست إلا مظهرية فحسب، مامن شك أن الجمسى فيما يرويه عن مرتجى من اعتذار بالجو السائد يوحى لنا بما كان يدفعه هو وأمثاله إلى السكوت على الخطأ، وكأنه يريد أن يقول إنه شأنه شأن غيره قد أخطأ بالفعل، ولكنه فى حقيقة الأمر يعترف بما حدث ولا يكابر، بل إنه فى مرحلة تالية من مذكراته ينبئنا أنه عندما وقعت الواقعة وانتهت الحرب شعر (أى الجمسى نفسه) بتأنيب الضمير وأنه لابد أن يعتزل العسكرية، ولم يكن مثل هذا القرار بالطبع إلا نتيجة لتيقن الجمسى من أنه شارك ـ ولو بالصمت ـ فى بعض الأخطاء التى قادت إلى وقوع هذه الهزيمة المروعة على نحو ما وقعت.

(٥٤)

ويردف صاحب هذه المذكرات مفصلاً لطبيعة الأوضاع التى كانت تسيطر على القيادة فى الفترة السابقة على حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ فيقول:

«ودارت مناقشة بين اللواء أحمد إسماعيل والفريق أول مرتجى أمامى فى مركز القيادة المتقدم عن دور هذا المركز فى الحرب. وانتهت المناقشة إلى أن هناك قائداً عاماً واحداً هو المشير عامر ، وأن إدارة الحرب تتم بواسطة القيادة العامة ، وبالتالى ليس مطلوباً منا أن نتخذ القرارات التى قد تؤثر على خطة القيادة العامة ، ولا أن نصدر تعليمات لأننا غير قادرين على متابعة تنفيذها ، وليس لدينا قوات احتياطية نؤثر بها على المعركة لأن قيادة الجيش الميدانى تقود جميع قوات سيناء. ولذلك فإن المركز قد

فتح ليعمل منه القائد العام المشير عامر عندما يصل إلى سيناء للقيادة والسيطرة فى بعض المواقف أثناء إدارة العمليات كما هو معروف».

و يستأنف الجمسى حديثه ليطلعنا على حقيقة الفهم العسكرى الجيد (وغير المجدى فى ذات الوقت) الذى دارت من خلاله مناقشات الفريق أول مرتجى مع اللواء أحمد إسماعيل حول دور المركز المتقدم، وإذا بنا نفهم أن المناصب الكبرى الكثيرة التى تضفى على أصحابها أهمية لا تضمن فى النهاية نجاحاً فى معركة ولا نصراً فى حرب، بل على العكس فإنها قد تصيب القيادة والحركة بكثير من التشويش، ومن الطريف أن الفريق أول مرتجى واللواء أحمد إسماعيل كانا واعيين تماماً لمثل هذا، ومع هذا فقد تقبلا هذا الوضع الشاذ على فرض أنه سيكون للمركز الذى يجمعهما دور ما فى مرحلة متقدمة حين يأتى إليه القائد العام الكبير المغوار ليدير منه بعض المعارك!! ألإلى هذا الحد كان هؤلاء القادة المحترفون يكادون يؤمنون بأن فى إمكان عبدالحكيم عامر أن يقود معركة أو حربا؟ وهل أصابتهم الغشاوة فجعلتهم يظنون أن العلم العسكرى قد يتأتى للمشير لأنه مشير فحسب دون أن يكون قد درس وتدرب وجدد معلوماته؟

ثم يضعنا الجمسى أمام الحقيقة المرة وهو يعترف بخلاصة ما حدث وما انتهى إليه الاستعداد للحرب وكيف ظل مركز القيادة المتقدم بلا عمل ذى قيمة أو فعالية على الرغم من ـ وهذا من غرائب القدر ومن سخرياته ـ أنه كان يضم يومها أكبر قائد فى القوات البرية المصرية (وهو الفريق أول عبدالمحسن مرتجى) ويضم كذلك القائد العام الذى تحقق النصر على يديه فى حرب ١٩٧٣ (وهو المشير أحمد إسماعيل)، فضلاً عن الجمسى نفسه!:

«... وللحقيقة والتاريخ لم يمارس مركز القيادة المتقدم خلال الفترة من وقت إنشائه حتى انتهاء الحرب عملاً ذا قيمة أو فعالية ، بل إن أهم وأخطر القرارات التى اتخذت أثناء الحرب ـ الانسحاب العام من سيناء ـ صدرت عن القائد العام إلى قائد الجيش الميدانى (لا يذكر الجمسى اسمه ولكنه كان هو الفريق صلاح محسن) ، وجرى تنفيذه دون علم مركز القيادة المتقدم ودون الاستعانة برأى الفريق أول مرتجى فى هذا القرار أو طريقة تنفيذه».

(٥٥)

ويروى لنا المشير الجمسى فى هذه المذكرات بدقة متناهية وأسف بالغ تفصيلات دقيقة لما سمعه ورآه هو نفسه مما حدث يومى ٤ و٥ يونيو ١٩٦٧ وهو يشير إلى حقيقة مهمة وهى أن المعركة بدأت بينما هم يعيشون فى جو كئيب يصوره ويذكر أسبابه، كما يبدو من روايته أنه كان بمثابة أقدم الضباط فى قيادة الجبهة لحظة وقوع الحرب نظراً لوجود القادة الآخرين فى استقبال المشير عبدالحكيم عامر:

«فى هذا الجو الكئيب الذى كنا نعيشه فى سيناء لعدم استقرار الأوضاع العسكرية وعدم استكمال الاستعداد للقتال الذى قد يبدأ فى أى وقت ، تبلغ لنا يوم ٤ يونيو أن المشير عامر سوف يحضر صباح اليوم التالى لتفقد قوات الجبهة وإجراء تنظيم التعاون بين القوات».

«وفى صباح يوم الأثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ كنت مع بعض الزملاء داخل مركز القيادة المتقدم ، بينما توجه الفريق أول مرتجى واللواء أحمد إسماعيل إلى مطار تمادة حيث يقابلهما هناك الفريق صلاح محسن قائد الجيش الميدانى وعدد من القادة ليكونوا جميعا فى استقبال المشير عامر عند وصوله فى الساعة الثامنة والنصف صباحاً».

«وبينما القادة ينتظرون فى المطار ، سُمعت انفجارات قريبة سرعان ما علمت أنه قصف جوى معاد لمطارى تمادة والمليز. ومن فوق تل عال شاهدت الطائرات المعادية تهاجم مطار تمادة. أشفقت على القوات ـ بدون قادتها ـ فى هذا الوقت ، كما أشفقت على القادة الموجودين فى المطار ، وماذا حدث لهم ، والوقت الذى يستغرقه كل منهم للعودة إلى مركز قيادته إذا لم يكن مصاباً».

«اتصلت فوراً بهيئة عمليات القوات المسلحة بالقاهرة لتبليغها بقصف مطارات سيناء ، فعلمت أن باقى المطارات فى منطقة القناة والقاهرة يتم قصفها بواسطة الطائرات الإسرائيلية فى نفس الوقت».

«وفى نفس الوقت نشبت الحرب بينما كان الفريق أول مرتجى قائد مركز القيادة المتقدم (قائد جبهة سيناء) واللواء أحمد إسماعيل رئيس أركانه، والفريق صلاح

محسن قائد الجيش الميدانى الذى يقود كل قوات سيناء وعدد من القادة يتجمعون فى مطار تمادة ليكونوا في استقبال المشير عامر عند وصوله بعيدين عن مراكز قيادتهم وقد قامت الطائرات الإسرائيلية بمهاجمة المطار أثناء وجودهم فيه ، وكان ذلك إعلانا لهم ببدء الحرب ».

(٥٦)

هكذا نرى الجمسى وقد كان كما ذكرنا بمثابة أقدم ضابط موجود فى مركز القيادة المتقدم فى سيناء عندما اندلعت حرب ١٩٦٧ فى صباح الأثنين الخامس من يونيو، وقد وجد نفسه عاجزاً عن أن يفعل شيئاً لبلاده فى ذلك الوقت الحرج، وكل ما استطاعه هو أن يتصل بهيئة العمليات فى القاهرة ليبلغها بما سمعه من قصف جوى معاد للمطارين القريبين منه، وما شاهده من فوق تل عال من طائرات إسرائيلية تهاجم مطارنا، وحين اتصل الجمسى بهيئة العمليات (التى سيتاح له أن يرأسها فى حرب أكتوبر) علم أن باقى المطارات فى مصر كلها قد تعرضت لما تعرضت له المطارات في سيناء.. ومع هذا فإن الجمسى أشفق على القوات بدون قادتها.. وأشفق على القادة وهم فى المطار: قد يصابون، وقد يتأخرون فى الرجوع إلى مراكز قيادتهم.

❑

ثم يجد الجمسى أن الموقف يقتضى منه أن يقتبس فقرة من فقرات مذكرات الفريق أول مرتجى:

«ووصف الفريق أول مرتجى ما حدث فى مطار تمادة قائلاً: « كان الموقف العام حتى ذلك الوقت لا جديد فيه، ولم تحدث أحداث تستحق الذكر حسبما جاء على لسان قائد الجيش».

«وحوالى الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة ـ بتوقيت القاهرة الصيفى ـ هاجمت الطائرات الإسرائيلية المطار، ودمرت جميع الطائرات الموجودة فيه مبتدئة بضرب الممرات لجعلها غير صالحة وضرب الطائرات الواقفة على الأرض ... وفى

بداية الأمـر لـم نظن أن الـطائرات المقـاتلة التى فـوق رءوسـنا هى طـائرات إسرائيـلية فالشبه كبير بين طائرات الجانبين ، علاوة على أننا لم نتوقع الغدر من جانب العدو أو على الأقـل كانت الصورة الـعامة بالنـسبة للموقـف كله لا تنبـئ بأن إسرائيل ستبدأ ضربتها بهذه السرعة ».

«وجاء يوم ٦ يونيـو بأحداثه الأليمة. فقـد احتل العدو العريش ، واخـترقت قواته مواقع أبـو عجيلة. وهنـا أصدرت القيادة العـامة من القاهـرة قراراً باستخدام الـفرقة الرابعة للقيام بضربة مضادة فى اتجاه أبو عجيـلة ـ القسيمة لتدمير القوات الإسرائيلية المهاجمة واستعادة الموقف إلى ما كان عليه فى النطاق الدفاعى الأول».

(٥٧)

ويستـطرد المشير الجـمسى فى هذه المذكـرات للحديث عـن بعض ما رآه بعـينى رأسه من مـفاجآت هذه الحـرب، وضعف معـالجة قيادتـنا العلـيا لها بـل واضطراب الأوامر وغياب الرؤية والاستراتيجية:

« أتيحـت لى ـ ممثلاً لمـركز القيادة المـتقدم ـ فرصة حـضور الأوامر التـى أصدرها الفريـق صلاح محسن قـائد الجيش فى مركـز قيادة الجيش لـلواء صدقى الغـول قائد الفرقة الرابعة للقيام بالضربة المضادة. وفى طريق عودتى لمركز القيادة المتقدم شاهدت الطائرات الإسرائـيلية تعمل بحـرية مطلقة أثناء قصـفها أحد لواءاتنا المدرعـة بطريقة تبعـث على الأسى ، فـالسماء مـفتوحة لهـا والدبابات تـتحرك فى أرض صـحراوية مكشوفة نهاراً تجعلـها أهدافاً سهلة للقصف الجوى وليس لديهـا وسائل مؤثرة للدفاع ضـد الطائرات المعادية».

وينجو الجمسى بنفسه من مناقشة مـدى مسئولية اللواء صدقى الغول عن المشاركة بالفرقة الرابعة فى القيام بالضربة المضـادة، ولكنه يورد [فيما يلى من فقرات] ما يؤكد أن المشير عـبدالحكيم عامـر هو الذى ألغى قرار القـيام بهذه الضربـة المضادة، ويروى الجمســى تفصيـلات ما حدث فى ثـانى أيام الحرب وقـد أصبح هو نـفسه فى مـركز القيادة المتقدم فيقول:

«وعندما وصلت إلى مركز القيادة المتقدم بعد ظهر يوم ٦ يونيو ، وجدت أن المركز قد تعرض لهجوم جوى معاد أصيب على إثره بالتدمير ، كما تبلغ لى أن قرار القيام بضربة مضادة بواسطة الفرقة الرابعة المدرعة قد ألغى ثم أصدر المشير عامر أوامره للفريق صلاح محسن مساء يوم ٦ يونيو بالانسحاب العام لكل القوات من سيناء إلى غرب القناة».

«أسرع الفريق أول مرتجى ومعه اللواء أحمد إسماعيل فى اتجاه القناة لاستطلاع حقيقة الأمر وعندما وصلا إلى غرب القناة جنوب البحيرات ، وجدا قائد الجيش الميدانى يتحدث تليفونيا مع رئيس أركان حرب القوات المسلحة الذى كان يعطيه تعليمات عن إيواء القوات عند عودتها من سيناء » .

ويعود الجمسى إلى النقل عن مرتجى لإيضاح الصورة:

«ويقول الفريق أول مرتجى إنه سأل الفريق صلاح محسن لماذا لم يستأذن منه لنقل مركز قيادته كما تقضى بذلك التعليمات ؟ ولماذا لم يخطر مركز القيادة المتقدم بأوامر الانسحاب ؟ وكانت إجابته غير مقنعة بالنسبة للاستفسارين ، وخصوصاً أنه أرجع ذلك إلى قطع الاتصال الخطى مع المركز » .

(٥٨)

ثم يتحدث المشير الجمسى عن تفسيره لهذا الانسحاب الذى حدث على هذا النحو فى أسى واضح، ومن خلال هذا الأسى فإنه لا يجد أى حرج فى أن يوجه انتقادات صريحة إلى قيادة الجيش التى انتقلت إلى غرب القناة قبل أن ينسحب الجيش وهو لا يخفى انتقاده للفريق صلاح محسن ولا للمشير عامر الذى صدق له على هذا الانتقال ، كما أنه يصرح بعجبه من أن يتم الارتداد على هذا النحو، وهو يؤكد نفس الفكرة التى نجدها فى مذكرات السفير حسين ذو الفقار صبرى حين ينتقد عملية الانسحاب وقرار الانسحاب، وقد تناولنا هذه الفكرة فى الباب الرابع من كتابنا «من أجل السلام.. مذكرات قادة الدبلوماسية المصرية»، وإن كانت ألفاظ الجمسى أكثر عسكرية وأكثر تحفظا كذلك، وهو يقول:

« انتظـرت فى مركز القـيادة المتقدم أشـاهد القوات وهى تـتدفق نحو الـغرب فى سيل جارف دون أى تـنظيم ، أهكذا يكـون الارتداد ، وهو شكل من أشكـال المعركة التى تتطلـب منتهى الدقة فى التنظيـم والحزم فى التنفيذ مع القتـال فى نفس الوقت ؟ ولماذا كان إرسال هذه القوات إلـى سيناء لتنسحب منها بعد يـومى قتال بهذا الارتجال والأسلوب السيئ فى التنفيذ. وكان السؤال الذى براودنى هو: أين قائد وقيادة الجيش التى تقود هذه القوات ؟ وكيف يتم تنظيم الارتداد والسيطرة على القوات ؟ وعلمت فيما بعد أنه فى مـساء يوم ٦ يونيو انتقل الفريق صلاح محسن وقـيادته ـ بتصديق من المشير عـامر ـ إلى غرب القناة فـوصلها ليلة ٦/ ٧ يـونيو. وبذلك فقدت هـذه القيادة سيطرتـها على قواتها أثناء الارتداد فى أحرج الأوقات. وكان من الواجـب الحتمى ـ وهو الطبيعى ـ أن يظل قائد الجيش وقيادته بيـن القوات فى سيـناء لتنظيم أعمال القتال والارتداد المنظم للقوات على الخطوط المتتالية. ولا يمكن أن يتخلى القائد فى الميدان عن هذه المسئولية أبداً».

«وأصبح الوضع مـعكوساً أن يتواجد قائد الجيـش وقيادته فى الإسماعيليـة ، بينما يتواجد مركز القيادة المتقدم فى منطقة مـضيق الجدى بسيناء ، وبينما القوات ما زالت ترتد من سـيناء. وأعود للقـول مرة أخرى إن عدم وجود قائـد الجيش فى سينـاء ومعه مجموعة عمليـات من عدد محدود من الضباط للسيطرة عـلى الموقف ـ وهو أضعف إجراء ـ لا يمكن تفسيره أو إيجاد مبرر له».

❑

أما عن الـيوم الثالث مـن أيام حرب ١٩٦٧ فإن الجمسـى يروى ذكرياته عـلى هذا النحو المشحون بالأسى والحزن:

«انتظرت صـباح يوم ٧ فى مركز الـقيادة المتقدم ، لأشاهـد القوات المنسحـبة على طريق مـضيق الجدى ـ وكـذا طريق مضـيق متلا ـ بشكل يدعـو للأسـى تحت ضـغط الهجمات الجوية المعادية المسـتمرة ، فحولتها ـ وبصفة أساسية مضيق متلا ـ إلى مقبرة تتناثر فيها الجثـث ، وتشتعل فيها المعدات ، وتنفجر فيها الذخـائر. ثم وصلتنى رسالة للعودة بمركز القيادة المتقدم إلى الإسماعيلية».

«وجدت الحزن يخيم على الجميع ، بعد أن انسحبت نسبة كبيرة من القــوات من

سـينـاء ، والجـزء الـباقى فـى طريقه إلى غرب القنـاة. أما عن قواتنا فى شـرم الشيخ ، فقد عـلمـت حيـنئذ أنها انسحبت ودخـلت القـوات الإسـرائيـلية شـرم الشـيخ دون قتال».

(٥٩)

ويعقب صاحب هذه المذكرات على هذا كـله بقوله إن «الحرب انتهت هكذا يوم ٧ يونيو ١٩٦٧».

وهكذا يظـل الجمسى كالعهد بـه دقيقاً ومعنياً بـالتفاصيل، فهو لا يـذهب مذهب الذين يعتقدون أن الحرب انتهت يوم ٥ يونيو ولا مذهب الذين يؤخرون نهايتها حتى ٩ يونيو ولـكنه يحدد بصورة قطـعية النهاية علـى هذا النحو الذى شاهده بـأنها فى ٧ يونيو:

«وتلك كانت النهاية الأليمة يوم ٧ يونيو ١٩٦٧».

❑

وبعد أن يبلور صاحب هذه المذكرات مـا حدث خلال تلك الأيام الثلاثة وبعد أن يحدد النهاية الألـيمة بأنها يوم ٧ يونيو ١٩٦٧ يتحدث فـى أسى، ووجوم عن مشاعره فى أعقاب وقـوع الهزيمة فيصـل إلى الذروة فى وصف المشـاعر التى وصل إليـها فى كثير من صفحات مذكراته.

وهو يعترف بمنتهى الصراحة والصدق مع النفس عن عقيدته فى تلك اللحظة بأن الجيل الذى ينتمـى إليه كان ولابد أن يخلى الطريق لجيل جديـد أكثر منه كفاءة ، وأن على جيلـهم أن يبتعد فوراً عن مـواقع المسئولية ليـفسح الطريق أمام الوطـن ولصالح الوطن نفسه.

ولنقرأ ما يرويه صاحب هذه المذكرات بكل وضوح حيث يقول :

«... استمر عملى فى منـطقة القناة فى قيادة المنطقة العسكريـة التى يقودها الفريق صلاح محسن لمدة أسبوعين تقريباً ، عدت بعدها للقاهرة للانضمام إلى هيئة عمليات القوات المسلحة. وعند دخـولى القيادة العـامة علمت أن الـلواء أحمد إسماعـيل قد أحيل للتقاعد مع عدد آخر من القادة. وكان خـبراً مؤسفاً لى حيث إنه لم يرتكب خطأ عسكريا يحاسب عليه منذ إعلان حالة الطوارئ فى مايو حتى نهاية الحرب».

ويبدأ الجمسى دون أن يضطره أحد فى الدفاع عن القادة الذين شملتهم الإحالة إلى التقاعد دون ذنب، متخذاً من اسم كبير نعرفه جميعاً نموذجاً للقرارات المؤسفة التى تواصل اتخاذها حتى بعد وقوع الهزيمة، ثم هو يروى لنا انطباعاته الشخصية وتجربته الذاتية فى اللحظات الأولى لعودته إلى منزله بعد انتهاء هذه الحرب، وقد قرر فى ذلك الوقت (ولم يقل فى تلك اللحظات) أن يستقيل فيقول:

«توجهت إلى منزلى لمدة ساعة واحدة منكس الرأس. وعندما واجهت زوجتى وأبنائى ـ والدموع فى عينى ـ كنت أستشف منهم وعلى وجوههم كثيراً من التساؤلات عما حدث ، وكيف حدث ؟ ولماذا حدث ؟ كما كنت أشعر بالدهشة تعقد ألسنتهم والصدمة شديدة عليهم».

«قررت فى ذلك الوقت ألا أستمر فى الخدمة بعد هذه الكارثة. وكان تقديرى حينئذ أن الجيل الذى أنتمى إليه يجب أن يخلى الطريق لجيل آخر أكثر منه كفاءة ليعيد إلى القوات المسلحة قدرتها وكفاءتها ويعيد رفع علمها من جديد».

«وعندما صرحت لعائلتى بما يدور فى فكرى بترك الخدمة ، أجهشت ابنتى الصغرى بالبكاء ، وأخذت تردد ... لا ... لا ... لا ..».

....

«وبعد عودتى للعمل ، حيث كانت الإقامة والعمل نهاراً وليلاً داخل القوات المسلحة لكل الأفراد ، قدمت استقالتى من الخدمة. وطبقا لنظام الخدمة العسكرية كان من المحتم أن أستمر فى العمل حتى يتم التصديق على قبول الاستقالة».

«ويشاء القدر أن تكتمل الأحزان. فقد توفى والدى فى قريتى « البتانون» بمحافظة المنوفية فى أواخر الشهر الحزين ـ يونيو ١٩٦٧ ـ والعام الأليم. سافرت إلى القرية مرتديا ملابسى العسكرية ـ بدلة الشغل والطاقية الكاكى ـ للاشتراك فى تشييع الجنازة عدت بعدها للقاهرة مباشرة».

(٦١)

ثم يتحدث الجمسى عن بعض تفاصيل الدور المجيد الذى قدر له أن يلعبه فى إعادة بناء القوات المسلحة بعد حرب ١٩٦٧، وكيف أن المشير أحمد إسماعيل نفسه هو الذى اختاره ورشحه لهذا الدور مع أنه ـ مازال حتى كتابة هذه المذكرات ـ لايدرى لماذا أبعد أحمد إسماعيل فجأة ولماذا أعيد فجأة .. ولكنه يروى لنا بأمانة وتجرد ما يتعلق به هو شخصيا فيقول :

«وبدأ الظلام ينقشع قليلاً ، وأخذت الأمور تستقر تدريجيا فى القوات المسلحة».

« وأعيد اللواء أحمد إسماعيل للخدمة وتعين قائداً للمنطقة العسكرية الشرقية (جبهة قناة السويس) بدلا من الفريق صلاح محسن ، وهى القيادة التى كانت تقود كل قوات القناة قبل أن يشكل منها الجيش الثانى والجيش الثالث فيما بعد. ولم يكن واضحاً لى سبب إحالته للتقاعد وسبب إعادته للخدمة بفاصل زمنى قصير بين القرارين».

....

«حضر أحمد إسماعيل إلى مكتبى ، وكانت روحه المعنوية تبدو مرتفعة فى الظاهر، ولكن تبدو عليه المرارة فى الداخل. وكان لنا حديث قصير عن الهزيمة المريرة التى لحقت بالقوات المسلحة ، وأنه آن الأوان لبداية جديدة حتى تجتاز الدولة والقوات المسلحة الكارثة التى لحقت بنا».

«أخذ يحدثنى عن مسئوليته الجديدة التى يتحملها ـ قائد جبهة القناة ـ فى تلك المرحلة الصعبة ، وطلب منى قبول العمل معه « رئيس أركان جبهة القناة » لنعمل معاً بنفس روح التعاون التى كنا نعمل بها معاً فى قيادة القوات البرية قبل الحرب».

«اعتذرت له شاكراً متمنياً له التوفيق ، وموضحاً له أنى قدمت استقالتى من الخدمة وإنى فى انتظار القرار بشأنها ، وإذا لم تقبل الاستقالة سيجدنى معه فى جبهة القناة».

«وبعد فترة قصيرة صدر قرار وزير الحربية بتعييني رئيساً لأركان الجبهة. غادرت القاهرة متوجهاً إلى منطقة القناة ، قطعت الرحلة بالسيارة مفكراً في أحداث الحرب العالمية الثانية وما فيها من أمثلة عن جيوش هزمت ثم استعادت قوتها وانتصرت، وتركز تفكيري في الحروب السابقة بين مصر وإسرائيل والصراع العربي الإسرائيلي بإيجابياته وسلبياته».

(٦٢)

ويحكي الجمسي عن طبيعة العمل الذي استغرقه واستغرق قائده اللواءأحمد إسماعيل في هذه الظروف الصعبة وغير التقليدية فيقول:

«دخلت قيادة الجبهة لأجد اللواء أحمد إسماعيل يجلس وحيداً على كرسي ميداني من الخشب ، وأمامه مجموعة من الخرائط على منضدة خشبية ، داخل كشك خشبي صغير تحت مجموعة من الأشجار ، بينما ضباط هيئة القيادة موزعون في الخنادق المخصصة للعمل في أماكن متباعدة. تلاقت أعيننا ، وفاضت المشاعر ، وجلسنا نتحدث عن الموقف العسكري في الجبهة وتحليل أعمال ونوايا العدو المنتظرة، وسرعة إعادة بناء القوات وتدريبها لمواجهة عدو مغرور بتفوقه العسكري والنصر الذي حققه في حرب يونيو لأخطاء سياسية وعسكرية ارتكبناها وليس لعمل غير عادي قام به». وبعد عدة شهور وصلني رد على طلب استقالتي بالرفض » .

هكذا لاينسى الجمسي أن يشير لنا في عباراته الأخيرة في السطر الأخير من فقرته التي نقلناها لتوها أن استقالته التي ربما كان قد نسيها أو ظنها قد أهملت منذ تقديمها وكانت لا تزال معلقة .. ومن ثم فإنها لم تحسم إلا بعد عدة شهور وهكذا جاءه ـ أخيراً ـ الرد عليها بالرفض !!!

❑

ويتحدث صاحب المذكرات عن خطوات حاسمة اتخذتها القيادة الجديدة

للقوات المسلحة بالتخلى عن كثير من مناطق النفوذ التى كان الجيش قد امتد إليها فيما قبل ١٩٦٧ فيقول:

«وفى إطار هذه السياسة الجديدة التى قضت بتفرغ جميع قيادات ووحدات القوات لواجبها الطبيعى وهو العمل العسكرى فى شئون الدفاع عن الدولة ، صدرت قرارات جمهورية بنقل وحدات حرس الجمارك إلى وزارة الداخلية ، ونقل وحدات مراقبة التموين إلى وزارة التموين. كما تم إلغاء وحدات الزراعة التى كانت تشمل أكثر من ثلاثة ألوية من الجنود والضباط والعربات ، مكلفة بزراعة خمسين ألف فدان فى مديرية التحرير ، ونقلت جميعها إلى وزارة الزراعة. وألغيت وحدات النقل العام بمدينة القاهرة ، والتى كان فيها عناصر كثيرة من إدارة المركبات والشرطة العسكرية ، حيث أعيدت إلى مؤسسة النقل العام».

(٦٣)

وقد نجح المشير الجمسى فى هذا الكتاب فى أن يقدم عرضاً رائعاً لمرحلة الدفاع السلبى التى أعقبت هزيمة ١٩٦٧، وقد حقق الجمسى النجاح فى هذا العرض بفضل استغلاله لعقله المرتب فى عرض الأحداث العسكرية الثلاثة فى إطار فلسفى موحد، فهو يرى فى رأس العش معركة برية ناجحة، ثم فى ضربة الطيران المصرية فى ١٤ يوليو عملا جوياً ناجحاً، ثم فى تدمير المدمرة إيلات بالصواريخ سطح/ سطح عملاً بحرياً متميزاً يضاف إلى العملين الأولين لكى يقدم صورة جديدة للمقاتل المصرى بعد ١٩٦٧، وسنبدأ الآن بالفقرة التى بلور فيها الجمسى هذه المعانى فى نهاية حديثه عن المعارك الثلاث:

«لقد كانت هذه المعارك الثلاث وهى:معركة رأس العش فى أول يوليو بالقوات البرية، ومعركةالقوات الجوية يومى ١٤ و١٥ يوليو، والمعركة البحرية يوم ٢١ أكتوبر ١٩٦٧، إثباتاً عملياً على صمود وتصميم قواتنا المسلحة بأفرعها الثلاثة ـ برية وجوية وبحرية ـ على القتال، الأمر الذى رفع الروح المعنوية للمقاتلين فى هذه الظروف

الصعبة التي كانت تعيد فيها الوحدات تنظيم نفسها، وتتخذ أوضاعاً دفاعية بالقليل المتيسر من الأسلحة في ذلك الوقت، ولم تكن استكملت إنشاء الخطوط الدفاعية غرب القناة».

«لقد بدأت هذه المعارك الثلاث بأعمال عدائية من جانب العدو الذى أصابه الغرور، لكن النتيجة كانت ذات فائدة كبيرة لقواتنا من الناحية المعنوية تفوق الناحية المادية التى حققتها بنجاح».

ولست بمستطيع أن أنتقل من أمام هذه الفقرة دون أن أنبه إلى أن عرضه لهذه البطولات المصرية الرائعة عرض ذكى يتسم بالتواضع والقدرة على الإبانة عن قيمة الأعمال العسكرية من هذا الطراز فى ظل هذه الظروف، ونحن نرى المشير الجمسى منصفاً إلى أبعد الحدود كالعهد به.

وفى الحقيقة فإن الجمسى حريص على أن ينصف قائد الجبهة فى ذلك الوقت وهو اللواء أحمد إسماعيل (المشير فيما بعد)، وقد كان الجمسى رئيس أركانه فى قيادة الجبهة، وهو لا يتحدث عن نفسه ولكنه فى غير حاجة إلى هذا، وهو يشيد بإنجاز مدكور أبو العز ومقاومته، ولكن تبقى إشادته دون الثناء الذى يستحقه مدكور أبوالعز خاصة أن هذه كانت هى الفرصة الذهبية للإشادة بمدكور أبو العز (وسوف نرى أن الفريق يوسف عفيفى لم يترك الفرصة عند تأليف كتابه إلا وقد أشاد بمدكور أبو العز دون أن يدعوه السياق إلى ذلك).

وفى الحقيقة ـ أيضًا ـ فإن مدكور أبو العز نفسه فى مذكراته يروى قصة المعركة الجوية التى قادها بقدر أكبر من التفصيلات والأهمية، وإن كان أساه من تصرفات كل من عبدالناصر والسادات وأحمد إسماعيل معه فيما بعد يعبر عن نفسه حتى فى روايته لهذه المعركة وهو لاينكر أن أحمد إسماعيل هو الذى طلب منه التدخل على الرغم من أن القائد العام (الفريق أول محمد فوزى) وربما مَنْ هو أكبر منه لم يكونوا يوافقون ولايأذنون بمثل هذا التدخل، ويحرص مدكور أبو العز فى روايته على أن يعبر ـ فى ذات الوقت ـ عن سخطه على المشير أحمد إسماعيل بسبب موقف وقفه أحمد إسماعيل من مدكور أبو العز فى ١٩٧٢ حين كان رئيسا للمخابرات العامة

وقُدم مـدكور أبـو العـز إلى النـيابة باتـهامات تدور فـى فلك الظـن بقيادتـه لتنظـيم يستـهدف قلب نظـام الحكم، ولهذا يحـرص مدكور أبو العـز على نحو مـا نرى فى مذكراته أن يصور أحمد إسماعيل «مهزوزا» وهو يستغيث به لتتدخل القوات الجوية بعد أن رفض القائد العام الموافقة على هذا التدخل!

كذلك فإنـنا نأخذ على المـشير الجمسى إغـفاله أسماء أبطـال رأس العش وإيلات وشهداء المعارك الثلاث، ولا أعتقد أن له عذراً فى ذلك إلا أنه التزم بهذا الإغفال فى معظم فقرات كتابه، ويبدو أنه ظن أن مثل هذه المـهمة العظيمة ليست من مهامه حين يكتـب مثل هذا الكتـاب العظيم، وإنى أعـتقد أنه معذور لأنـه لم يجد فى الكـتابات العربية المعاصرة عن أى موضوع، حرصاً على تسجيل أسماء الجنود المجهولين اكتفاء بأن يكونوا مجهولين وأن يرمز لهم النصب التذكارى فحسب!

(٦٤)

هكـذا يحرص صاحـب هذه المذكـرات على أن يـورد بالتفـصيل نمـاذج للأدوار البطولية التى قادتها القوات المسلحة فى الأعقاب المباشرة لحرب ١٩٦٧ وهى الأدوار التى أثبتت بها القوات المسلحة قدرتها على القتال وعلى رفع الروح المعنوية للشعب.

وهو يذكـر بكل وضوح وثقـة حقيقة مـهمة غابـت عن الكتابـات التاريخيـة التى تناولـت هذه الفتـرة، لسبب مـؤلم وهو التـزام إعلامنا وصـحافتنـا [من خلال المنـفذ الواحد] بتقديم رؤى غيـر صادقة عن جهود قواتنا المسلحـة فى ذلك الوقت، ووصل الأمر إلى أن خـططنا الدفـاعية (والحربية عـموماً) أصبحـت تنشر فى جـريدة الأهرام رغم أنف القـادة المسئولين عنهـا. ويكفى للتدليـل على هذا الجرم ما كتبه الأهرام من تلفيق فى أعقاب تنحية الفريق العظيـم مدكور أبو العز عن مسئوليته فى قيادة القوات الجوية بعد الحرب بشهور معدودة.

وفى هذه المـذكرات نرى جذوراً أعمـق لهذه التصـرفات غير المـسئولة لمسئولين مصريين، عـلى حين نرى الروح القتـالية فى القوات المسـلحة تدفع بأحمد إسـماعيل

قائد الجبهة إلى الاستعانة بقائد القوات الجوية فيعاونه هذا ولا يتأخر عنه.. ولكن تقدير روح القتال فى المكاتب المكيفة فى القاهرة كان شيئاً آخر، هكذا يروى الجمسى أن أحمد اسماعيل طلب استخدام قواتنا الجوية ضد العدو، وأن مدكور أبو العز كان على مستوى المسئولية، وأن قواتنا الجوية أبلت بلاء حسناً فى مرحلة مبكرة تلت الهزيمة بخمسين يوما فقط، ويهمنا من رواية المشير الجمسى أن نفهم كيف كان من الممكن لقيادة الجبهة (أحمد إسماعيل والجمسى نفسهما) فى ذلك الوقت المبكر بعد الهزيمة أن تتصرف بقرارات استراتيجية على مستوى عال من المسئولية ربما لم يكن السياسيون الكبار فى القاهرة ليجيزوها أو يجعلوها تأخذ طريقها إلى التنفيذ فى ظل حرص غير مبرر على استبقاء الصورة المهترئة وغير المشرفة التى كانوا مازالوا يحرصون على تقديمها للعالم والمجتمع الدولى بأن اسرائيل هى التى أقدمت على العدوان ونفذته وما زالت ماضية فيه.

(٦٥)

ولكن القادة العسكريين المسئولين (من طراز أحمد إسماعيل ومدكور أبوالعز والجمسى) كان لهم بالطبع رأى آخر أوحى به إلينا الجمسى فيما يرويه من فقرات ننقل للقارئ نص بعضها حيث يقول :

«وكانت سمة العمل فى هذه المرحلة هى «الدفاع السلبى»، وهذا يعنى المحافظة على هدوء الجبهة. وبرغم ذلك، فقد شهدت هذه المرحلة بعض المعارك التى بدأت فى اليوم الأول الذى تولى فيه اللواء أحمد إسماعيل قيادة الجبهة فى أول يوليو ١٩٦٧».

«فى هذا اليوم تقدمت قوة إسرائيلية شمالاً من مدينة القنطرة شرق ـ شرق القناة ـ فى اتجاه بورفؤاد ـ شرق بورسعيد لاحتلالها، وهى المنطقة الوحيدة فى سيناء التى لم تحتلها إسرائيل فى أثناء حرب يونيو. تصدت لها قواتنا، ودارت «معركة رأس العش».

«كانت تدافع فى منطقة رأس العش ـ جنوب بورفؤاد ـ قوة مصرية محدودة من قوات الصاعقة عددها ثلاثون مقاتلاً. تقدمت القوات الإسرائيلية، تشمل سرية دبابات (عشر دبابات) مدعمة بقوة مشاة ميكانيكية فى عربات نصف جنزير، وقامت بالهجوم على قوة الصاعقة التى تشبثت بمواقعها بصلابة وأمكنها تدمير ثلاث دبابات معادية. عاود العدو الهجوم مرة أخرى، إلا أنه فشل فى اقتحام الموقع بالمواجهة أو الالتفاف من الجنب، وكانت النتيجة تدمير بعض العربات نصف جنزير وزيادة فى خسائر الأفراد».

«اضطرت القوة الإسرائيلية للانسحاب، وظل قطاع بورفؤاد هو الجزء الوحيد من سيناء الذى ظل تحت السيطرة المصرية حتى نشوب حرب أكتوبر ١٩٧٣».

«كانت هذه المعركة هى الأولى فى مرحلة الصمود، التي أثبت فيها المقاتل المصرى ـ برغم الهزيمة والمرارة ـ أنه لم يفقد إرادة القتال، وكان مثلاً للصمود والقتال بمهارة والتشبث بالأرض».

«ونتيجة للقتال فى معركة رأس العش ، قامت مجموعة من الطائرات الإسرائيلية بقصف مواقع المدفعية الموجودة على الضفة الغربية للقناة والتى كانت تقدم المعاونة بالنيران لقوة الصاعقة. بعد انتهاء الغارة الجوية الإسرائيلية ، استأنفت المدفعية مهمتها سريعاً بإعادة فتح النيران مرة أخرى على قوات العدو فى الضفة الشرقية».

« طلب اللواء أحمد إسماعيل استخدام قواتنا الجوية ضد العدو رفعاً للروح المعنوية ، ولنثبت أننا لم نفقد القدرة على القتال برغم تفوقه. وكنا فى قيادة الجبهة على ثقة بأن قواتنا الجوية ـ بقيادة الفريق طيار مدكور أبو العز ـ لن تتأخر فى الاستجابة لطلبنا».

«وفى يوم ١٤ يوليو ١٩٦٧ تبلغ لنا أن عشر طائرات مصرية مقاتلة قاذفة ميج ١٧ تحميها عشر طائرات مقاتلة ، هاجمت تجمع دبابات وعربات مدرعة للعدو فى القطاع الجنوبى من الجبهة ، ودارت معركة جوية أصيبت فيها طائرتان إسرائيليتان. وكان ذلك رداً عمليا وإشارة واضحة لإسرائيل أن قواتنا الجوية ـ ببقاياها من حرب يونيو ـ لم تفقد قدرتها على القتال. وتكررت طلعات أخرى يوم ١٥ يوليو حدثت فيها معركة جوية أثبت فيها الطيارون المصريون كفاءتهم».

«وهكذا ارتفعت الروح المعنوية للقوات فى الجبهة ، كما أن صدى عمل قواتنا الجوية كان عميقاً فى النفوس على كل المستويات».

«وخلال مرحلة الصمود أيضاً، حاولت إسرائيل استخدام النصف الشرقى لقناة السويس، حيث بدأ الجنود الإسرائيليون ينزلون القناة فى قوارب صغيرة بأعداد قليلة، يحمل الواحد منها فرداً أو فردين تحت ستار الاستحمام، الأمر الذى لم تسمح به مصر. أصدرت قيادة الجبهة أوامرها بإطلاق النيران لتدمير أى قارب أو فرد يحاول أن ينزل المياه، فامتنعت إسرائيل عن هذا العمل الذى كان له هدف سياسى لم يتحقق».

«وكان لنا فى سيناء مخزن ذخيرة كبير تركته قواتنا عند الانسحاب من سيناء فى حرب يونيو. عبرت مجموعة صغيرة من رجال الصاعقة قناة السويس ليلاً، ونجحوا فى تدمير هذا المخزن بإشعال النيران فيه، وظلت النيران مشتعلة لمدة ثلاثة أيام، الأمر الذى حرم العدو الإسرائيلى من الاستفادة بكميات الذخيرة التى كانت مكدسة فيه».

(٦٦)

على هذا النحو يجيد المشير الجمسى تصوير الروح القتالية التى بدأت تسود قواتنا المسلحة بطريقة حافلة بالتعبير الوجدانى الصادق الذى يعطى كفاحه المسلح بعده الإنسانى العميق بعيداً عن دعاوى الحكمة المفتعلة أو السياسات المرتجلة أو تأليه من لايستحقون إلا اللوم والعقاب، وهو يحكى تفصيلات موجزة عن معركة إيلات البحرية فيقول:

«وجاء يوم ٢١ أكتوبر ١٩٦٧ ليبدأ قتال من نوع ثالث ـ قتال بحرى».

«وصلت إلى مركز قيادة الجبهة بعد راحة ميدانية ، فوجدت اللواء أحمد إسماعيل ومعه العميد حسن الجريدلى رئيس عمليات الجبهة يتابعان تحركات المدمرة الإسرائيلية « إيلات » بالقرب من المياه الإقليمية لمصر فى المنطقة شمال بورسعيد. كانت المعلومات تصلنا أولاً بأول من قيادة قاعدة بورسعيد البحرية التى كانت تتابع

تحركات المدمرة ، وقد استعدت قوات القاعدة لمهاجمة المدمرة عندما تصدر الأوامر من قيادة القوات البحرية بالتنفيذ. ظلت المدمرة المعادية تدخل المياه الإقليمية لفترة ما ثم تبتعد إلى عرض البحر ، وتكرر ذلك عدة مرات بطريقة استفزازية وفى تحرش واضح ، لإظهار عجز قواتنا البحرية عن التصدى لها».

«وبمجرد أن صدرت أوامر قائد القوات البحرية بتدمير هذه المدمرة عند دخولها المياه الاقليمية ، خرج لنشان صاروخيان من قاعدة بورسعيد لتنفيذ المهمة. هجم اللنش الأول باطلاق صاروخ أصاب المدمرة إصابة مباشرة فأخذت تميل على جانبها ، وبعد إطلاق الصاروخ الثانى تم إغراق المدمرة الإسرائيلية « إيلات » شمال شرق بورسعيد بعد الخامسة مساء يوم ٢١ أكتوبر ٦٧ وعليها طاقمها. وقد غرقت المدمرة داخل المياه الإقليمية المصرية بحوالى ميل بحرى».

«عاد اللنشان إلى القاعدة لتلتهب مشاعر كل قوات جبهة القناة وكل القوات المسلحة لهذا العمل الذى تم بسرعة وكفاءة ، وحقق تلك النتيجة الباهرة».

«لقد كان إغراق المدمرة إيلات بواسطة صاروخين بحريين سطح / سطح؛ لأول مرة ، بداية مرحلة جديدة من مراحل تطوير الأسلحة البحرية والقتال البحرى فى العالم. وأصبح هذا اليوم ـ بجدارة ـ هو يوم البحرية المصرية».

«طلبت إسرائيل من قوات الرقابة الدولية أن تقوم الطائرات الإسرائيلية بعملية الإنقاذ للأفراد الذين هبطوا إلى الماء عند غرق المدمرة. استجابت مصر لطلب قوات الرقابة الدولية بعدم التدخل فى عملية الإنقاذ التى تمت على ضوء المشاعل التى تلقيها الطائرات ، ولم تنتهز مصر هذه الفرصة للقضاء على الأفراد الذين كان يتم إنقاذهم».

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإنى أود أن أنبه القراء الكرام إلى الدراسة القيمة التى نشرها الدكتور عبدالعظيم رمضان عن معركة إغراق المدمرة إيلات فى مجلة أكتوبر وأعاد نشرها كاملة متضمنة خطابات كثيرة وملاحق فى كتاب «تحطيم الآلهة».

❑

ثم يبلور الجمسى رؤيته تجاه صمود قواتنا المسلحة فى هذه المرحلة بعبارات

رصينـة حافلة بـالمعانى الـسامية والـقيم الشامـخة، وهى العـبارات التى نـقلناهـا منذ صفحات فى بداية تلخـيصنا لحديثه عن مرحلة الدفاع السلبى ولا بأس أن نستعيدها هنا:

«لقد كانت هذه المعارك الثلاث وهي معركة رأس العش فى أول يـوليو بالقوات البـرية ، ومعركـة القوات الجويـة يومى ١٤ ، ١٥ يولـيو ، والمعركـة البحريـة يوم ٢١ أكتوبر ١٩٦٧ ، إثباتا عمليا على صمود وتصميـم قواتنا المسلحة بأفرعها الثلاثة ـ برية وجوية وبـحرية ـ علـى القتال ، الأمر الـذى رفع الروح المعنوية للمـقاتليـن فى هذه الظروف الصعبة التى كانت تعيد فيه الوحـدات تنظيم نفسها ، وتتخذ أوضـاعاً دفاعية بالقـليل المتيسـر من الأسلحة فى ذلـك الوقت ، ولم تكن اسـتكملت إنشـاء الخطوط الدفاعية غرب القناة ، لقد بدأت هذه المعارك الثلاث بأعمال عدائية من جانب العدو الذى أصابه الغرور ، ولكن النتيجة كانت ذات فائدة كـبيرة لقواتنا من الناحية المعنوية تفوق الناحية المادية التى حققتها بنجاح».

(٦٧)

ومن المهم أن نطـلع القارئ على رأى المشير الجمـسى فى حرب ١٩٥٦، وهو رأى متعدد الزوايا، فهو يـرى أن القوات المصرية فشلـت من الناحية الاستـراتيجية لأنها لم تتمـكن من تأمـين الدولة لا من اتجاه الشرق ولا من اتجـاه الشمال، ولـكنها نجـحت تكتيكياً فى معـركتى أبو عجيلة ومتلا، ويتجاوز الجمسى عن فقـدان سيناء نتيجة عدم القدرة العسكرية على حمايتها، ويلجأ إلى وصـف ما حدث بقوله:إن القوات المسلحة قامت بإخلاء سيناء بقرار سياسي(!!) تفاديـاً لحصارها، ويأخذ الجمسى بنفس المنطق فى حالة بورسعيد ويقول ما نصه: إن قواتنا اضطرت لإخلائـها تحت ضغط القوات المتفوقة، ولا أدرى هل هناك فرق بين هذا التعبير البلاغى المحْوَر: الاضطرار للإخلاء تحت ضغط القوات المتفوقة، وبين التعبيرات التـى نعرفها جميعاً من قبيل الانسحاب والهزيمة والـتسليم؟ ولسـت أدرى لماذا يأخذ المشيـر الجمسى هذا الموقـف من حرب

١٩٥٦، هل يخشى المشير العظيم أن يتناقض مع ما بثته الدعاية المصرية طيلة سنوات من أننا انتصرنا؟:

«انتهى العدوان بفشل سياسي وعسكرى لكل من انجلترا وفرنسا، كما أن إسرائيل ظهرت بوضوح أنها قاعدة متقدمة للدول الكبرى التى تحاول السيطرة على الدول العربية. فالقوات البريطانية والفرنسية قد فشلت - استراتيجياً - لعدم إمكانها احتلال منطقة القناة، وإن كانت نجحت - تكتيكياً - فى معركة بورسعيد باحتلالها. أما القوات الإسرائيلية فقد فشلت في المعركتين اللتين خاضتهما فى سيناء، وهما معركتا «أبو عجيلة ومتلا»، إلا أن انسحاب القوات المصرية من سيناء تنفيذاً للقرار السياسى بذلك أعطى الفرصة لإسرائيل لتحقيق هدف سياسى هو فتح مضايق تيران، وهو ما لم يتم بالقوة العسكرية بل بالجهود السياسية للمجتمع الدولى».

«أما عن القوات المصرية فقد نجحت - تكتيكياً - فى معركتى أبوعجيلة ومتلا، وقامت بإخلاء سيناء بقرار سياسى تفادياً لحصارها وتدميرها فى حالة احتلال انجلترا وفرنسا لمنطقة القناة. كما أنها اضطرت أيضاً لإخلاء بورسعيد تحت ضغط القوات البريطانية والفرنسية المتفوقة عليها تفوقاً ساحقاً. ومن الناحية الاستراتيجية فإنها لم تتمكن من تأمين الدولة من اتجاه الشرق أو الشمال».

❑

وعلى نقيض موقف الجمسى من حرب ١٩٥٦ ونتائجها وسيرها، فإنه لا يجد أى مجال للدفاع عن أداء القيادة المصرية أو أداء القوات المسلحة فى حرب ١٩٦٧، ولكنه لا يغفل الحديث عن نقطة مهمة فى نظره ونظرنا، وهى أن الدروس التى خرجنا بها من حرب يونيو ١٩٦٧ كانت من أهم أسباب النصر فى ١٩٧٣:

«بكل المرارة والألم أقول إن مصر لم تكن مستعدة للحرب ضد إسرائيل فى ذلك الوقت. فقد كان الكثيرون من القادة يشفقون على الحالة السيئة التى وصلت إليها القوات المسلحة عام ١٩٦٧ لأسباب كثيرة، جعلتها ضحية الظروف الصعبة التى واجهتها وكانت تعمل فى إطارها».

«وإنى إذ أقرر هذه الحقيقة، وأنا أحد أبنائها وأمضيت كل حياتى العملية فيها، وشاهدت أحداث هذه الحرب وتطوراتها فى سيناء، فإنى أهدف من ذلك إلى تحقيق الفائدة للأجيال التى تتحمل المسئولية من بعدنا. وليس هناك ما يدعو لمحاولة التقليل من العوامل والأسباب التى أدت إلى الهزيمة. فقد تعلمنا من حرب يونيو ١٩٦٧ دروساً كانت من الأسس التى بنت عليها مصر استراتيجيتها العسكرية لحرب أكتوبر ١٩٧٣».

(٦٨)

يكاد المُشير الجمسى لا يعترف بأن حرب اليمن كانت حرباً بالمعنى العسكرى، وفى أثناء حديثه عن هذه الحرب يصل إلى أن يصفها بأنها عملية بوليسية ليس إلا، ومع أنه ينقل فى موضع متقدم من كتابه فقرة عن الفريق أنور القاضى رئيس هيئة العمليات فى حرب ١٩٦٧، وهى الفقرة التى يقول فيها الفريق القاضى إن ثلثى قواتنا كان فى اليمن، فإنه هنا يقول إن ثلث قواتنا كان فى اليمن لمدة خمسة أعوام، وهذا لا يتعارض بالطبع مع رأيه، فلربما أن الجمسى يتحدث عن الحد الأدنى من قواتنا التى ظلت هناك باستمرار طيلة ٥ أعوام، وعبارة القاضى تتحدث عن الموقف قبل حرب ١٩٦٧ مباشرة.

ويقدم الجمسى مبررات كثرة لما يعتقد أنه كان بمثابة تأثير مدمر لحرب اليمن على قدرة قواتنا المسلحة، وهو يلتفت إلى نقاط كثيرة يشاركه فيها غيره من قبيل الحديث عن خسائر الأفراد واستنزاف الميزانية، وانخفاض مستوى التدريب، والانضباط العسكرى، وتدهور الحالة الفنية للأسلحة، واستهلاك الطائرات، والانصراف عن بناء دشم الطائرات فى مصر، وانخفاض الكفاءة الفنية للسفن الحربية، لكن الجمسى يضيف إلى هذه العناصر جميعاً عنصراً مهماً يكاد ينفرد بالحديث عنه، وهو نشأة انطباع خاطئ لدى بعض قواتنا عن الحرب ضد إسرائيل. فقد كانت هذه القوات فى اليمن تتمتع بالتفوق الكامل فى التسليح وقوة النيران، وهو ما لن يكون متاحاً لها فى

الحرب مع إسرائيل فى أرض صحراوية مكشوفة تحت ظروف مختلفة، وفى ظل تفوق عسكرى يتمتع به العدو:

«من النقط البارزة فى تاريخ مصر الحديث، تلك العمليات العسكرية التى قامت بها قواتنا المسلحة فى اليمن، والتى يطلق عليها «حرب اليمن».

«لقد قررت القيادة السياسية فى مصر مساعدة ثورة اليمن عند قيامها عام ١٩٦٢ بإرسال عدد قليل من العسكريين لمساعدتها، وانجذبنا تدريجياً إلى اليمن حتى أصبح لنا حوالى ثلث القوات البرية يقاتل هناك بدعم من القوات الجوية والبحرية لمدة خمسة أعوام، فى مسرح عمليات يبعد عن مصر حوالى ألفى ميل، دون أن تتمكن مصر من حسم الموقف سياسياً أو عسكريا».

«ترتبت على هذه الحرب خسائر متزايدة فى الأفراد، واستنزاف لميزانية القوات المسلحة، وانخفاض فى مستوى التدريب والانضباط العسكرى، وتدهور فى الحالة الفنية للأسلحة والمعدات، وبذلك تأثرت الكفاءة القتالية للقوات المسلحة تماماً».

«فالقوات البرية انخفض مستوى تدريبها حتى يتسع الوقت لراحة القوات التى تعود من اليمن واستعادة كفاءة أسلحتها ومعداتها، أو استعدادها للسفر للقتال هناك».

«واستهلكت القوات الجوية بعض طائراتها ومعداتها الفنية لتنفيذ النقل الجوى والاشتراك فى العمليات هناك. ومرت هذه السنوات الخمس دون أن يتم بناء دشم للطائرات فى مصر، برغم أنه كان أحد الدروس المستفادة من العدوان الثلاثى على مصر الذى قامت فيه القوات الجوية الإنجليزية والفرنسية بتدمير مطاراتنا الرئيسية وطائراتنا على الأرض».

«وتحملت القوات البحرية عبء النقل البحرى المستمر، وتأمين خطوط المواصلات فى البحر الأحمر، الأمر الذى أثر تدريجياً على الكفاءة الفنية للسفن الحربية».

«وانخفض مستوى الانضباط العسكرى خلال فترة الحرب، بحكم طبيعة الحرب فى هذا المسرح التى لم تكن حرباً نظامية بالمعنى العسكرى المفهوم».

(٦٩)

وبيلور الجمسي ـ بعد هذا كله ـ الأثر الخطير لحرب اليمن بادئا بإبداء رأيه المصنف لهذه الحرب على أنها عملية بوليسية ليس إلا بقوله:

«لقد كانت حرب اليمن عملية بوليسية تقاتل فيها قواتنا المسلحة قوات غير نظامية تقوم بحرب عصابات فى مسرح عمليات جبلى. ومن الطبيعى أنه كان لقواتنا فى اليمن التفوق الكامل فى التسليح وقوة النيران، مما أعطى انطباعاً خاطئاً لدى بعض القوات عن الحرب ضد إسرائيل فى أرض صحراوية مكشوفة تحت ظروف تختلف تماماً عن ظروف حرب اليمن، خصوصاً إذا كان للعدو التفوق العسكرى».

....

«والأثر الخطير لحرب اليمن، هو أن القيادة العليا للقوات المسلحة وجهت كل جهودها الرئيسية لليمن لمدة خمس سنوات، أهملت فيها مسرح العمليات الرئيسى فى سيناء ضد العدو الرئيسى إسرائيل. وكانت النتيجة أنه لم يتم إعداد وتدريب القوات للحرب ضد إسرائيل، كما لم يتم إعداد وتجهيز النطاقات والخطوط الدفاعية فى سيناء تجهيزاً هندسياً متكاملاً، حيث اكتفى فقط بتجهيز الخط الدفاعى الأول القريب من حدود مصر الشرقية، ولم يتم تجهيز باقى الخطوط بما فى ذلك خط المضايق الذى يعتبر آخر الخطوط الدفاعية عن مصر من الشرق».

....

«لقد نسيت القيادة العليا اتجاه المجهود الرئيسى لعمل قواتنا المسلحة عند مواجهة التزاماتها المستمرة فى اليمن. وقد يكون مقبولاً نقل المجهود الرئيسى لقواتنا المسلحة من اتجاه استراتيجى إلى اتجاه آخر لحسم الموقف عسكرياً، إلا أن القيادة العسكرية لم تتمكن من حسم الموقف العسكرى فى اليمن، وفى نفس الوقت أهملت الخطة الدفاعية عن سيناء ، وهو ما ظهرت نتائجه فى حرب يونيو ١٩٦٧».

(٧٠)

ولأن المشير الجمسى اشتهر فى الوجدان العربى بل وعند نفسه كرجل عمليات فإنه حريص على أن يقدم صورة الموقف قبل حرب ١٩٦٧ من وجهة نظر هيئة العمليات، وهو لا يجد حرجاً فى أن ينقل عن الفريق أنور القاضى ما نشره فى مذكراته فى «آخر ساعة» وما نبه فيه وحذر من أى عمليات تعرضية حتى ولو صغيرة، وسننقل للقارئ هنا ما نقله المشير الجمسى عن الفريق أنور القاضى على الرغم من أننا تناولناه بالتفصيل فى الباب الثالث من كتابنا «الطريق إلى النكسة»، وذلك بسبب مهم وهو أن سياق حديث الجمسى وتقديره لما جرى فى حرب ١٩٦٧ يعتمد تماماً على رؤية ورواية الفريق القاضى:

«قدرت هيئة عمليات القوات المسلحة خطورة هذا الموقف، لذلك قدمت تقريراً ـ وهو فى حقيقته تحذير ـ للمشير عبدالحكيم عامر القائد العام، أوصت فيه بعدم التورط فى القيام بعمليات عسكرية ضد إسرائيل طالما أن قواتنا تقاتل فى اليمن بهذا الحجم الكبير الذى وصلت إليه. ويشرح الفريق أنور القاضى رئيس هيئة العمليات فى هذا الوقت وضع القوات المسلحة واستراتيجيتها الموضوعة حينئذ حيث قال:

«كانت الاستراتيجية العسكرية العامة «دفاعية بحتة»، بمعنى الدفاع عن سيناء فى حالة وقوع أى هجوم إسرائيلى على أرضها. وكانت هذه الاستراتيجية قائمة على أساس منع القوات الإسرائيلية من اختراق خط الدفاع الأول على الحدود، وكانت جميع الخطط الدفاعية القائمة على هذه الاستراتيجية موجهة إلى منع القوات الإسرائيلية من الوصول إلى قناة السويس وتدمير القوات التى تخترق النطاق الدفاعى الأول. وكان الحجم الكلى للقوات المسلحة ـ بما فيها القوات الضاربة فى اليمن ـ يكاد يكفى لتحقيق هذه المهمة الدفاعية المحدودة».

«بعد استكمال عناصر الخطة «قاهر» (الخطة الدفاعية عن سيناء) فى أوائل سبتمبر ١٩٦٦، والتصديق على خطة القيادة العسكرية الشرقية بخصوص أوضاع القوات المصرية الموجودة تحت قيادتها، بدأت بعدها هيئة عمليات القوات المسلحة فى وضع تقرير عام عن هذه الخطة، لما كان يحوطها وقتئذ من ظروف متداخلة فى ١٦ ديسمبر

١٩٦٦ بالتحديد.. وأهمها وجود القدر الأكبر من قواتنا فى اليمن ـ وكانت تقدر بحوالى ثلثى القوات المصرية ـ وكذا ضعف القدرة القتالية للتشكيلات والوحدات، وكذا نقص الأفراد والمعدات والتجهيزات عن المستوى المطلوب، وكذا تهالك جانب من الأسلحة والمعدات نتيجة استهلاكها فى حرب اليمن».

«أقول وضعت هيئة العمليات تقريراً حذرت فيه من القيام بمواجهة عسكرية مع إسرائيل ـ لفترة زمنية طويلة قادمة ـ حتى يمكن تلافى ما سبق ذكره من عيوب ونقائص».

ويمضى المشير الجمسى ليقول:

«عرضت هيئة العمليات هذا التقرير على الفريق أول محمد فوزى رئيس الأركان الذى وافق عليه فوراً وأمر بعرضه على القيادة العليا. ولم تكتف هيئة العمليات بذلك التحذير المكتوب، بل كانت تضيف التحذير من أى عمليات تعرضية حتى ولو كانت صغيرة وبحيث لا يتم ذلك إلا بعد عودة القوات المصرية الأساسية من اليمن».

«ويبدو أن المشير عامر تجاهل هذا التقرير، ولم يضعه فى اعتباره، عندما وافق خلال مايو ١٩٦٧ على غلق مضيق العقبة الذى ترتب عليه الحرب».

ثم يذكر الجمسى واقعة مهمة فى تاريخ هزيمة ١٩٦٧ وتاريخ قائدها المشير عبدالحكيم عامر:

«وتمر الأيام، ويكلف الفريق أول فوزى فى أواخر أغسطس ١٩٦٧ بعد الهزيمة بتسلم الأوراق والخرائط السرية للغاية من خزينة منزل المشير عبدالحكيم عامر فى الجيزة، فوجد تقرير هيئة العمليات دون أن يبدى المشير عامر عليه أى تعليق».

(٧١)

ويحاول المشير الجمسى أن يفسر ما حدث فى ١٩٦٧ بأكثر من طريقة، فهو كما رأينا ينبه إلى الآثار السلبية لحرب اليمن، وهو يتحدث عن انخفاض مستوى القوات

المسلحة وعن تقرير هيئة العمليات المحذر من الانسياق إلى أية عمليات تعرضية، ولكنه مع هذا يجد في نفسه القدرة على أن يشخص حالة من الشيزوفرينيا في القيادة، وهو يصف هذه الحالة بأسلوب واضح، ويرجع بتاريخها إلى مراحل سابقة.

ومع أن الجمسي لا يذكر لنا متى توصل إلى هذا التشخيص المتميز، وهل كان قد وصل إليه وهو في السلطة أم منذ ١٩٦٧، أم حين تأمل الأحداث من منظور دقيق بعدما حنكته التجارب والظروف.. مع أنه لا يذكر هذا بوضوح إلا أنني مع الاحتمال الأخير، وما يرجح هذا عندي هو أن الجمسي نفسه لم يكن يملك كل هذا الوعي في الساعات الحرجة السابقة على حرب أكتوبر المجيدة حين انتبه المشير أحمد إسماعيل إلى الحصول على توجيه محدود ومكتوب من الرئيس السادات.

ولا يعني هذا الرأي تقليلاً من قيمة الجمسي العظيم وفكره المرتب الرائع، ولكني أريد أن أنبه إلى معنى آخر أكثر أهمية، وهو أن القيادة السياسية والعسكرية في ١٩٦٧ وما قبلها كانت بإمكاناتها الذهنية والعقلية والسياسية والاستراتيجية أضعف من أن تصل إلى مثل هذا الفهم القاطع الذي توصل إليه المشير الجمسي في هذه المذكرات، ولست بهذا أعطي العذر أو التبرير لقيادتنا في ١٩٦٧، ولكنني حريص على أن أنبه إلى أهمية أن ننمي الآليات الكفيلة بأن تفيد قياداتنا في مستوياتها المختلفة في الأجيال القادمة من تحليل هذه التجارب التي مرت بنا وكلفتنا أثماناً باهظة:

«وفي تقديري أنه منذ بدء الأزمة في ١٤ مايو ١٩٦٧ حتى صباح يوم ٥ يونيو، كان هناك انفصال بين الفكر السياسي والفكر العسكري. ولاشك أن المشير عامر كان على علم بكل تطورات الموقف السياسي، إلا أنه لم يعط العناية اللازمة ـ بصفته القائد العام ـ لتحديد الهدف الاستراتيجي العسكري ووضعه موضع التنفيذ مع القيادة العامة للقوات المسلحة».

«إن هذا الخلل ـ في رأيي ـ جاء نتيجة لعدم وجود استراتيجية عليا للدولة لمواجهة هذه الأزمة،وبالتالي عدم وجود استراتيجية عسكرية، فانعكس ذلك بطريقة سلبية خطيرة على استعداد القوات للقتال».

(٧٢)

ويحرص المشير الجمسى على أن يربط بين حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٥٦ على نحو ما ربط بين حرب ١٩٧٣ و١٩٦٧ وهو ينبه إلى تأثير ما حدث فى ١٩٥٦ على النتائج التى حدثت فى ١٩٦٧ ويقول:

«لقد كان المكسب الذى حققته إسرائيل من اشتراكها فى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦، هو تأمين الملاحة البحرية الإسرائيلية عبر خليج العقبة بوجود قوات الطوارئ الدولية فى شرم الشيخ. وانتظمت الملاحة الإسرائيلية فى الخليج طوال عشر سنوات».

«وإزاء هذا الموقف كانت القيادة السياسية فى مصر تنتظر الفرصة المناسبة لاستعادة سيادة الدولة على المياه الإقليمية فى مدخل الخليج. وفى نفس الوقت كانت إسرائيل تعلن أن حرية الملاحة فى الخليج أمام سفنها ترتبط بأمنها القومى، وتصرح بأن سياستها تفرض عليها شن الحرب إذا تعرضت سفنها للمنع من الملاحة فيه. وهكذا كانت أسباب المواجهة العسكرية بين مصر وإسرائيل عن هذه القضية قائمة وواضحة».

❑

وهذا هو المشير الجمسى ينتبه تماماً لما نبهنا إليه فى الفقرة السابقة من ضرورة الوعى بوجود الخطط الجاهزة لخدمة الاستراتيجية العليا المحددة حين تحين لحظة التنفيذ، ولست أملك إلا أن أعترف بأهمية أن نتدارس هذا الفهم الجيد الذى يقدمه المشير الجمسى فى هذه السطور للأزمة وتفاعلنا معها، وهو يقدم منظوراً يمتد فى عمق الزمان عشر سنوات سابقة على ما حدث فى ١٩٦٧ حين كانت الفرصة متاحة بصورة كاملة لإنقاذ أنفسنا وتحقيق استراتيجيتنا ووضع خططنا:

«ورغم مرور عشر سنوات على هذه القضية، فإن القيادة السياسية فى مصر لم تضع استراتيجية عليا محددة لإعادة السيطرة على مياهنا الإقليمية فى مدخل الخليج، بحيث تكون الخطط جاهزة ـ سياسياً وعسكرياً ـ عندما تتاح فرصة تنفيذها بنجاح. فإن

تتبع الأحداث الرئيسية منذ أن أعلنت مصر يوم ١٨ مايو قرار إنهاء وجود قوات الطوارئ الدولية، ثم إغلاق مضيق الخليج، أظهرت كأن المشكلة وليدة الساعة، حيث لم يكن هناك تخطيط سياسي وعسكري مسبق لفرض الإرادة السياسية المصرية لإغلاق المضيق».

«ومن هنا انعكس ذلك على القرارات والخطط والأوضاع العسكرية بطريقة سلبية، أدت في النهاية إلى أن القوات لم تكن قد استكملت استعدادها للقتال عندما بدأ العدو الإسرائيلي هجومه صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧».

(٧٣)

ولا ينتهي المشير الجمسي من حديثه عن هزيمة ١٩٦٧المريرة دون أن يتحدث بصوت عال منتقداً ما يسميه أسلوب القيادة والسيطرة في القوات المسلحة، وهو ينتقد في أدب بالغ وبأسلوب مهذب ما يسميه ضعف روح التعاون بين أفرع القوات المسلحة دون أن يحدد المسئول عن هذا الضعف في تلك الروح، كذلك ينتقد الجمسي انشغال المشير عبدالحكيم عامر عن عمله الأصلي وانصرافه إلى تدبير كثير من أمور الدولة:

«وكان أسلوب القيادة والسيطرة على القوات المسلحة يمثل خطورة كبيرة على كفاءة القوات واستعدادها للقتال وإدارة العمليات الحربية».

«فقد كانت كل من قيادة القوات الجوية والقوات البحرية تعمل على الاستقلال والانعزال عن القوات البرية، مما أضعف قيادة وسيطرة هيئة أركان حرب القوات المسلحة (القيادة العامة للقوات المسلحة) على القوات، وأصبحت روح التعاون بين أفرع القوات المسلحة ضعيفة برغم أن التعاون مبدأ من مبادئ الحرب لا يمكن تجاهله لنجاح أي عمليات، فالمعركة الحديثة هي معركة أسلحة مشتركة».

«وعلى قمة الجهاز العسكري كانت هناك سلطتان عسكريتان. فالمشير عامر نائب

القائد الأعلى للقوات المسلحة كان يتولى مسئوليات العمليات والتدريب والتنظيم، أما شمس بدران وزير الحربية ـ مدير مكتب المشير عامر قبل تعيينه وزيراً ـ فقد تولى كل السلطات التى تتحكم فى الأفراد مثل تعيين الضباط، وترقياتهم، وإنهاء خدمتهم، وعلاجهم، وأعمال المخابرات، والشرطة العسكرية، والشئون القضائية، والتوجيه المعنوى. ومن هنا كان تأثيره شديداً على قيادات وضباط وجنود القوات المسلحة. بالإضافة لذلك فإن المشير عامر كان يتولى مسئوليات سياسية وتنفيذية كثيرة على مستوى الدولة جعلته غير متفرغ لأعمال القوات المسلحة فى العمليات والتدريب التى تحتاج إلى قدرة فى التخصص وتفرغ كامل للعمل العسكرى».

«وأصبحت موضوعات الأمن لها الأسبقية الأولى والأهمية القصوى بالنسبة لأى عمل عسكرى آخر، وأصبحت فكرة الولاء قبل الكفاءة تسود العمل فى القوات المسلحة. وطبقت هذه الفكرة بوضوح فى نشرة التنقلات التى تمت بين القادة ـ قبل وأثناء فترة الحشد ـ مما جعل بعض التشكيلات الميدانية يتولى قيادتها أهل الثقة وليس أهل الكفاءة».

«وكان موضوع الأمن هو الموضوع الأول الذى يشغل بال المشير عامر والوزير شمس بدران، وتعددت الأجهزة التى تعمل لتحقيق أمن القوات المسلحة. ومن هنا تحول مجهود إدارة المخابرات الحربية ـ كأسبقية أولى ـ لموضوعات الأمن، ولم تعط الأهمية الواجبة للحصول على المعلومات عن العدو ومتابعة حجم وأساليب قتاله وتقدير نواياه».

❑

ويبدو واضحا أن المشير الجمسى يكتفى بهذا الاستعراض النقدى دون أن يتناول المستوى الفنى للمشير نفسه باعتباره القائد العام على النحو الجيد الذى تناول به الفريق صلاح الحديدى هذه الجزئية على نحو ما نقلنا عنه فى الباب الرابع من كتابنا «الطريق إلى النكسة»، بل إن الجمسى لا ينتقد اختيار الفريق أول فوزى لمنصب رئيس الأركان، وهو لا يوجه انتقادات لهذا الاختيار من قبيل انتقادات الفريق أول مرتجى (فى الباب الثالث من كتابنا «الطريق إلى النكسة» أو الفريق الحديدى (فى

الباب الـرابع) أو اللواء الدغـيدى (فى الباب الأول) أو الفـريق مذكور أبو الـعز فى مذكراته، وليس فى هذا غرابة لأن المشير الجمـسى نفسه فى موضع آخر من مذكراته رحب بتولى الفريق فـوزى منصب القائد العام وأرجع ترحيبه هـذا إلى ما اشتهر عن الفريق فـوزى من صرامة وضبط وربـط، وإن كان ذكاء الجمسى قـدجعله يثنـى على الفريق فوزى ضـمن ثنائه على فوزى وعـبدالمنعم رياض معاً كـثنائى كفيل بالـتكامل، وهكذا نجـا المشير الجمـسى الحصيـف من إشكاليـة الهجوم علـى الفريق أول مـحمد فوزى أو تمجيده، أو الجمع بين الهجوم والتمـجيد، مع أن هذا لـم يكن صعباً ولا غير منطقى.

(٧٤)

ولا يقف المشـير الجمسى فى انتـقاد أداء المخابرات الحربية فـى حرب ١٩٦٧ عند الحد الذى نقلناه عنه ضمن استعرضه النـقدى الدقيق لأحوال القوات المسلحة، لكنه ينتقد كل أدائها على الـعموم فيما يتعلق بعدم حصولها على مـعلومات صحيحة عن العدو وانعدام سلامة تحليلها للقدرة القتالية لسلاح الجو الإسرائيلى، وعلى الرغم من الانتقادات التـى يوجهها الجمسى إلى المخـابرات الحربية فإنه يرجع الـسبب فى ذلك إلى انشغـالها بموضوع الأمن، وكأنـه ينفى مسئولـيتها عن فشلـها فى عملها بـسبب ما كلفـت به من وظيفـة أخرى استغـرقت وقتها، ولـلمشير الجـمسى أن يرى مـثل هذا الرأى خاصة أنه عمل فـى الاستطلاع وكان قائد استطلاع متميـزا، ولكن لابد لنا من أن نشير إلى أن قادة الحـرب فى ١٩٦٧ كان لهم هجوم أقسى علـى المخابرات الحربية ومديرها (الفـريق محمد أحمد صادق وزير الحربـية فيما بعد)، ونستـطيع أن نراجع فى هذا مـا كتبناه ونقـلناه على سبـيل المثال عن مـذكرات كل من الفريـق أول مرتجى واللواء الدغيدى فى البابين الثانى والأول من كتـابنا «الطريق إلى النكسة»، أو ما تحفل به مذكرات الفريق مذكور أبو العز:

« ... لذلك كانت المعلومات عن العدو ونـواياه قاصرة وأقل من المستوى المطلوب

فى أثناء الأزمة، فكانت تقاريرها تتأرجح بين نوايا إسرائيل الهجومية والدفاعية. فلم تتمكن هذه الإدارة من اكتشاف خطة خداع العدو، فأصدرت تقريراً فى أول يونيو ١٩٦٧ تقدر فيه أن الهجوم الرئيسى لإسرائيل ينتظر أن يكون فى اتجاه المحور الجنوبى للجبهة بقواته المدرعة، وظهر فيما بعد عندما نشبت الحرب أن هذا المحور كان محوراً ثانوياً خداعياً. كما أن إدارة المخابرات الحربية لم تحصل على معلومات صحيحة أو تحليل سليم للقدرة القتالية للسلاح الجوى الإسرائيلى ولا أسلوب قتال العدو الجوى فى توجيه ضربته الجوية المنتظرة. وفى الوقت الذى أصدرت فيه هذه الإدارة تقريراً يوم ٢ يونيو ١٩٦٧ تقدر فيه أن إسرائيل لا ينتظر قيامها بالهجوم ضد مصر،كان الرئيس عبدالناصر يحذر القادة فى نفس اليوم من نوايا إسرائيل الهجومية التى ينتظر أن تبدأ فيها الحرب خلال ٤٨ ـ ٧٢ ساعة».

«وعلى الجانب الآخر تمكنت أجهزة مخابرات إسرائيل من جمع معلومات كافية وصحيحة عن حجم قواتنا وقدراتها وأوضاعها ونواياها ـ خلال سنوات ما قبل الحرب وفى أثناء فترة حشد القوات فى سيناء ـ الأمر الذى حقق لها نجاح الهجوم بصفة عامة ونجاح تنفيذ الضربة الجوية الأولى ضد مصر والأردن بصفة خاصة».

«وعلى ذلك يمكن القول إن الأساليب التى اتبعت لتحقيق أمن القوات المسلحة أبعدت أجهزة جمع المعلومات عن العدو عن عملها الرئيسى وهو «العدو الإسرائيلى».

❑

ولاينس المشير الجمسى ـ بالطبع أن يشير إلى الفارق بين أداء المخابرات الحربية المصرية فى الحربين ١٩٦٧، و١٩٧٣ فيقول فى فقرة تالية:

«والحق يقال إن إدارة المخابرات الحربية قامت بدورها بنجاح فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ عندما ركزت مجهودها للحصول على المعلومات عن العدو وقدراته ونواياه».

ويختتم الجمسى حديثه الموضوعى والدقيق عن أسباب هزيمة ١٩٦٧ بأن يلخص الخسائر التى أصبنا بها فى هذه الحرب، ومن الواضح أن الجمسى يقتصر فيما يورده على الخسائر المادية دون أن يتطرق إلى الخسائر المعنوية و«القيمة المضافة» لهذه الخسائر إذا صح هذا التعبير، كما أنه لا يذكر الخسائر الاقتصادية المتمثلة فى فقدان الدخل من قناة السويس، وتعطل هذه القناة والعاملين فيها، ولا يذكر فقدان دخل بترول سيناء ولا معادنها ولا الثروة السمكية فى الشواطئ ولا الثروة الحيوانية والزراعية فى المراعى، ولا يذكر تكلفة تهجير مواطنى مدن القناة كلها لمدة طويلة اقتربت من سبع سنوات، ولست أحب أن أنكأ الجراح بهذا كله، لكنى أخشى أن ينقل ناقل فى مستقبل قريب عن المشير الجمسى حصره للخسائر على هذا النحو فحسب، وليس هذا بمستبعد، وقد رأينا الفريق أول محمد فوزى نفسه وهو يقول فى أحد كتبه: إن وصف ما حدث فى حرب يونيو ١٩٦٧ بأنه نكسة فيه مبالغة، فما هى إلا معركة خاسرة فحسب، ولست أحب أن أزعج القارئ الآن بأن أذكر أن الأرقام التى يقدمها الجمسى فى فقرته هذه منقولة عن الفريق أول محمد فوزى نفسه:

«وفى مصر، لابد من التعمق فى معرفة أسباب الهزيمة للخروج منها بالدروس المستفادة، بعد أن فقدنا ـ نتيجة لهذه الحرب ـ سيناء وقطاع غزة، واستشهد لنا ٩٨٠٠ (تسعة آلاف وثمانمائة) رجل بين شهيد ومفقود، وخسرنا الجزء الأكبر من أسلحة ومعدات القوات المسلحة، وتحمل الاقتصاد المصرى عبئاً جسيماً تطلب تضحيات من الشعب أثقلت كاهله.

- فقد كانت خسائرنا فى الأفراد ١٧٪ من أفراد القوات البرية، و٤٪ من قوة الطيارين».
- أما خسائرنا فى معدات القوات الجوية والدفاع الجوى والقوات البرية فقد كانت ٨٥٪ منها».
- وعن خسائر القوات الجوية بالتفصيل، فقد كانت ٨٥٪ من المقاتلات القاذفة والمقاتلات، وكانت ١٠٠٪، من القاذفات الخفيفة والقاذفات الثقيلة».

ولاشك أن حجم هذه الخسائر فى الأفراد والمعدات والطائرات يبين ضخامتها».

(٧٦)

ويأتى حديث المشير الجمسى عن بداية حرب الاستنزاف ممتزجاً بحديثه عن استشهاد الفريق عبدالمنعم رياض في اليوم الثانى من هذه الحرب، وهو يروى لنا باختصار مكثف واقعة استشهاد هذا البطل العظيم ومشاعره هو فى تلك اللحظات:

«افتتحت مرحلة الاستنزاف يوم ٨ مارس ١٩٦٩ بقصف مركز من المدفعية المصرية ضد تحصينات ومواقع العدو التى أقامها الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان الإسرائيلى على الضفة الشرقية للقناة. استمر الاشتباك بالنيران لمدة حوالى خمس ساعات، تمكنت فيها القوات المصرية من تدمير جزء من مواقع العدو وإسكات بعض مواقع المدفعية».

«توجه صباح اليوم التالى ـ ٩ مارس ١٩٦٩ ـ الفريق عبد المنعم رياض رئيس الأركان إلى الجبهة ليشاهد بنفسه نتائج قتال اليوم السابق، ويكون بين القوات فى فترة جديدة تتسم بطابع قتالى عنيف ومستمر لاستنزاف العدو. وأثناءمروره، ومعه اللواء عدلى حسن سعيد قائد الجيش الثانى، على القوات فى الخطوط الأمامية شمال الإسماعيلية، أصيب الفريق رياض إصابة قاتلة بنيران مدفعية العدو أثناء الاشتباك بالنيران، بينما أصيب قائد الجيش إصابة أقل خطورة لكن حالته الصحية استدعت عمل أكثر من عملية جراحية واحدة له. وأثناء نقلهما إلى مستشفى الإسماعيلية، كان الفريق عبدالمنعم رياض قد فارق الحياة. وكانت خسارة القوات المسلحة، ومصر كلها، باستشهاده كبيرة. فقد فقدنا قائداً عسكرياً متميزاً كنا فى أشد الحاجة إليه».

ثم يردف الجمسى بتلخيص تعبير الشعب عن تقديره لهذا البطل الشهيد ويقول:

«وخرج الشعب يودعه أثناء تشييع جنازته بكل التكريم والاحترام المملوء بالحزن العميق. ومنذ ذلك اليوم أصبح يوم ٩ مارس هو «يوم الشهداء» تعبيراً صادقاً عن الروح العسكرية المصرية، التى تتطلب من كل قائد مهما كانت رتبته أن يضرب القدوة والمثل حتى الاستشهاد بين جنوده. وقد كان هذا المبدأ وهذه الروح واضحة بأجلى معانيها وصورها فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، حيث كان القادة قدوة لجنودهم واستشهدوا فى الخطوط الأمامية بينهم».

ويعود الجمسى إلى الحديث عن استمرار حرب الاستنزاف بعد أن خلف أحمد إسماعيل عبدالمنعم رياض فى موقعه كرئيس للأركان:

«تعين اللواء أحمد إسماعيل رئيساً للأركان خلفاً للفريق عبد المنعم رياض. واستمرت حرب الاستنزاف فى تصاعد بين الطرفين، وأصبح عبور مجموعات من قواتنا قناة السويس وخليج السويس أمراً عادياً، وتعددت الإغارات والكمائن وأخذ عددها وحجمها يتزايد ويتصاعد بالإضافة للاشتباكات المستمرة بالنيران. وبعد أن كان القتال مركزاً فى جبهة القناة، فقد امتد فى هذه المرحلة ليشمل منطقة البحر الأحمر. ويمكن القول إن الموقف العسكرى بين مصر وإسرائيل كان يزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم، وأصبح الطرفان يعيشان فى جو الحرب نهاراً وليلاً».

وفى كثير من فقرات هذا الكتاب يبدو الوعى الفكرى السياسى للجمسى واضحاً جداً، ومن هذه الفقرات أنقل للقراء الفقرة التى يتحدث فيها عن رأيه الحاسم فى رفض تغيير «يوم الشهداء» من ٩ مارس وهو اليوم الذى استشهد فيه الفريق عبدالمنعم رياض (عام١٩٦٩) إلى أحد أيام حرب أكتوبر:

«وبعد انتهاء حرب أكتوبر ١٩٧٣، وكنت أعمل رئيساً للأركان، اقترح الجهاز الإدارى المختص إطلاق «يوم الشهداء» على أحد أيام حرب أكتوبر الذى استشهد فيه أكبر عدد من المقاتلين فى الحرب. وقد رفضت هذا الاقتراح على أن تفتتح احتفالات أكتوبر بزيارة قبر الجندى المجهول رمزاً لكل الشهداء فى كل الحروب، أما يوم ٩ مارس فيظل تعبيراً عن الروح العسكرية المصرية التى تتطلب من كل قائد أن يضرب القدوة والمثل لجنوده فى الحرب حتى يستشهد بينهم».

«ووافق الفريق أول أحمد إسماعيل على رأيى».

(٧٧)

ويحرص المشير الجمسى على أن يشيد بجهود رجال الصاعقة فى أثناء حرب الاستنزاف، وهو يورد فى كتابه حديثاً مهماً عن دور رجال الصاعقة فى إغراق

وإصابة سفن إنزال بحرية إسرائيلية فى ميناء إيلات فى نوفمبر ١٩٦٩، مشيداً ببطولة القائد المصرى العظيم العميد إبراهيم الرفاعى:

«وتنفيذاً لمخطط الإغراق، قامت مجموعة خاصة تسمى «المجموعة ٣٩» بقيادة العقيد إبراهيم الرفاعى بإغراق وإصابة ثلاث سفن إنزال بحرية إسرائيلية يوم ١٦ نوفمبر ١٩٦٩ فى ميناء إيلات».

❑

وهنا ينتهز المشير الجمسى الفرصة للحديث عن إبراهيم الرفاعى بشخصيته المتميزة، وبطولاته فى حرب أكتوبر التى توجت بالاستشهاد.

«والعقيد إبراهيم الرفاعى من رجال الصاعقة الذين يتصفون بالشجاعة النادرة، وإعطاء القدوة والمثل لمرءوسيه أثناء تنفيذ العمليات الفدائية الكثيرة التى قاموا بها. لقد كانت المجموعة التى تعمل مع إبراهيم من المقاتلين الأشداء، وعلى درجة عالية من الكفاءة القتالية والروح المعنوية العالية، وإذا كلفت المجموعة أو جزء منها بعمل ما، كان لابد من تنفيذه مهما كانت المخاطر والصعاب».

«لقد قامت هذه المجموعة بالكثير من العمليات ذات الطابع الخاص التى تتسم بالفدائية خلال مرحلتى الدفاع النشط والاستنزاف. وكانت عملية ميناء إيلات إحدى عملياتها التى تطلبت منها إعداداً طويلاً فى سرية مطلقة وشجاعة كبيرة فى التنفيذ».

«وكان رد فعل هذه العملية شديداً فى إسرائيل للخسائر المادية والبشرية التى لحقت بها، والأهم من ذلك أنها كانت رمزاً لقدرة القوات المصرية للوصول إلى أحد الموانئ البحرية الإسرائيلية وتنفيذ مثل هذه العملية الجريئة».

«وامتداداً لجهود المجموعة ٣٩، شاء القدر أن تقوم المجموعة بإحدى عملياتها الفدائية خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ استشهد فيها العقيد إبراهيم الرفاعى، ومنح اسمه وسام «نجمة سيناء». وتخليداً لذكراه، وحتى يظل رمزاً للضابط والقائد المصرى، أطلق اسمه على دفعة من الدفعات التى تخرجت فى الكلية الحربية بعد حرب أكتوبر».

(٧٨)

ويمكن لنا أن نشير إلى خلاصة رأى المشير الجمسى فى حرب الاستنزاف فى فقرة له سننقلها للقارئ بعد قليل، وسنرى الجمسى فى هذه الفقرة يدور حول فكرة أن حرب الاستنزاف كانت مرحلة لابد منها فى مراحل الصراع، وأنه بدونها لم يكن من الممكن القيام بهجوم شامل على نحو ما حدث فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣، ويبدو لى أن تحليل اللواء عبدالمنعم خليل لهذه الحرب وللخطط التى نفذت فيها (سنعرضه بالتفصيل فى الباب الثالث من هذا الكتاب) يفوق تحليل المشير الجمسى كما أن الفريق أول محمد فوزى يقدم معلومات كثيرة وأرقاماً أكثر تفوق ما يقدمه المشير الجمسى، وليس فى هذا ما يعيب المشير الجمسى ولا كتابه الذى هو مخصص أصلاً للحديث عن حرب أكتوبر ١٩٧٣، بل ربما كان من حق النقاد أن ينتقدوا المشير الجمسى لو أنه أفرط فى الحديث عن مقدمات حرب أكتوبر، ولكنى كنت أطمع من المشير الجمسى [على وجه التحديد] أن يحدد رأيه فى نهاية حرب الاستنزاف، وهل كان من الممكن أن نحقق بها أكثر مما حققنا؟ أو أن نتجنب فيها بعض ما أصابنا من خسائر، وهل كانت تغطيتنا الإعلامية لها هى التغطية المثلى أم أن الأسلوب الذى اقترحه ونفذه الدكتور أحمد عصمت عبدالمجيد وهو رئيس لهيئة الاستعلامات (على نحو ما نقلناه عنه فى الباب الأول من كتابنا «من أجل السلام.. معارك التفاوض) كان أجدى وأبلغ أثراً على وعى العالم بقضيتنا وحربنا من أجلها!:

«والحقيقة المؤكدة التى يجب توضيحها هى أنه بدون خوض معارك الصراع المسلح التى استغرقت ثلاث سنوات من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٠، والتى بدأت بمعارك الصمود وكان طابعها دفاعياً بالقليل المتيسر من الأسلحة، ثم تدرجت إلى معارك الدفاع النشط وكان طابعها دفاعياً إيجابياً، ثم تطورت إلى حرب استنزاف وكان طابعها دفاعياً وهجومياً بكل أنواع الأسلحة وبكل أفرع القوات المسلحة. أقول أنه لم يكن ممكناً لقواتنا المسلحة أن تقفز من حالة الانهيار التام التى كانت عليها بعد حرب يونيو، للقيام بعملية هجومية شاملة مع اقتحام مانع مائى، وهى من أعقد العمليات العسكرية. ولم يكن ممكناً القيام بهجوم شامل ضد تفوق العدو الجوى قبل

استكمال نظام الدفاع الجوى الذى لم يستكمل إلا فى أغسطس ١٩٧٠، بعد الحصول على الأسلحة الحديثة المتطورة من الاتحاد السوفيتى وإنشاء «إدارة الحرب الإلكترونية» لأول مرة فى مصر لمواجهة التطور الذى أدى إلى استخدام المعدات والوسائل الإليكترونية».

(٧٩)

ويبدو المشير الجمسى أقرب إلى التحفظ فى تناوله للعلاقات المصرية ـ السوفيتية، لكنه مع هذا التحفظ يبدو أكثر وعياً بأبعاد العلاقة من الوزراء الذين كانوا مسئولين عن هذه العلاقات بحكم مسئوليتهم عن وزارة الخارجية (محمود رياض، إسماعيل فهمى، محمد إبراهيم كامل) أو الأمن القومى (محمد حافظ إسماعيل، كمال حسن على)، ونحن إذا قارنا نصوص الجمسى بنصوص محمود رياض ومحمد حافظ إسماعيل لوجدنا أن مذكرات الجمسى كانت أدق بمراحل فى تناولها لهذه العلاقات من مذكرات هذين الرجلين.

ولسنا نحب أن نلجأ فى تصوير معاناة القادة المصريين من السوفييت إلى مذكرات الفريق أول مرتجى أو الفريق مدكور أبو العز أو الفريق أول محمد أحمد صادق (أو الفريق سعد الدين الشاذلى) أو غيرهم من الذين لا يبدون الارتياح تجاه السوفييت وتجاه أغراضهم فى مصر أو على الأقل (يتحفظون) على سياساتهم وأخلاقهم أو على تخلف التكنولوجيا السوفيتية،، ولكننا نستطيع ـ على سبيل المثال ـ أن نشير إلى رؤية كمال حسن على فى كتابه «مشاوير العمر» وقد تناولناها باختصار فى كتابنا «مذكرات وزراء الثورة».

أما المشير الجمسى فإنه يقدم الصورة بدقة شديدة، وهو شأن الفريق سعد الشاذلى حريص على التفرقة بين ثلاثة أنواع من الوجود البشرى السوفيتى، فهو يفرق بين المستشارين والخبراء والقوات الصديقة، وعلى حين يرى مثلاً أنه لا لزوم للمستشارين، فإنه يرى أنه لا استغناء (تقريباً) عن القوات الصديقة، كذلك فإن المشير الجمسى يجد شجاعة فى تحديد التسهيلات الممنوحة للسوفييت وفى وضع

هذا فى إطار تبادل المنافع أو المصالح، وهو يشير إلى تمتع السوفييت بتسهيلات فى سوريا وحصولهم على شيء أقرب إلى كارت بلانش أو اتفاق جنتلمان مع الولايات المتحدة بشأن وجودهم فى منطقة البحر الأبيض، وهكذا نحصل من قراءة رأى الجمسى وروايته فى هذا الموضوع على أفضل صورة عن تطور هذه العلاقات فى هذه الفترة، دون أن ننساق إلى تفسيرات أيديولوجية متعسفة، وفى الحقيقة فإن كتابة الجمسى فى هذا الموضوع كتابة دقيقة وراقية وتفوق أى كتابة أخرى فيه، فضلاً عن أن هذا الرجل كان مستوعباً تماماً لفهم السادات وتوجهاته فى هذه العلاقات وحدود قدرة السادات وقدرة مصر على الضغط، وقدرة السوفييت على المناورة:

«..وتطورت العلاقات العسكرية بين مصر والاتحاد السوفيتى تدريجياً لصالح كل من الدولتين، إلا أن التردد المستمر من جانب الاتحاد السوفيتى فى تزويدنا بالسلاح لتحرير أراضينا، جعلنا نشعر بالمرارة من تصرفاته معنا فى وقت كانت مشكلة تحرير الأرض هى كل حياتنا».

(٨٠)

ويصرح المشير الجمسى بآراء مهمة يعبر فيها عن شعوره وشعور زملائه فى القيادة العامة للقوات المسلحة فى ذلك الوقت بأن الاتحاد السوفيتى لم يكن يشجع دخولنا الحرب:

«وأصبحنا نشعر داخل القوات المسلحة بصفة عامة، وعلى مستوى القيادة العامة بصفة خاصة، بأن الاتحاد السوفيتى لا يشجع دخولنا الحرب ضد إسرائيل، وبالتالى فإن إمداده لنا بالأسلحة من حيث الأنواع والكميات وتوقيتات التوريد تخضع لنظرته السياسية لحل مشكلة الشرق الأوسط التى تتعارض مع نظرتنا لها سياسياً وعسكرياً. وللحق أقول إن نغمة النقد للاتحاد السوفيتى ـ داخل القيادة العامة ـ كانت ترتفع خلال عام ١٩٧٢ على أساس أنه يعرقل رغبتنا فى الحرب ضد إسرائيل لتحرير أراضينا، الأمر الذى يؤثر على الروح المعنوية للقوات».

ويستطرد المشير الجمسى على نفس المنوال ليقول:

«كان قرار إنهاء مهمة المستشارين والخبراء السوفييت والقوات الصديقة له تأثير مباشر على استعداد القوات المسلحة وكفاءتها: «فالمستشارون السوفييت» كانوا يعملون بالقيادات المختلفة بعد هزيمة يونيو لإبداء النصيحة للقادة فى الموضوعات التكتيكية والإدارية، وكان عددهم حوالى ٨٥٠ مستشاراً، وكان الاستغناء عنهم لا يؤثر على كفاءة القوات، لأن المصريين كانوا أهلاً للقيادة دون وجود مستشارين لهم».

«أما «الخبراء السوفييت» فكانوا يرافقون المعدات الفنية الحديثة حتى يتم تدريب المصريين عليها، ثم تنتهى خدمتهم بعد ذلك، وكان عدد هؤلاء الخبراء حوالى مائة فرد».

«أما «القوات الصديقة» فهى الوحدات السوفيتية فى مصر التى كانت تقوم بتشغيل أسلحة ومعدات الاتحاد السوفيتى. وكان إنهاء مهمة «القوات الصديقة» يؤثر تماماً على كفاءة نظام الدفاع الجوى عن مصر، حيث كانوا يقومون بالعمل على المقاتلات وصواريخ الدفاع الجوى ومعدات الحرب الإلكترونية، ولم يقبل الاتحاد السوفيتى تسليم هذه الأسلحة والمعدات لنا بالثمن كأى عقود تسليح سابقة لأن الاتحاد السوفيتى رفض ذلك، لأن بعض الأسلحة والمعدات لها درجة سرية عالية ويجب المحافظة على سريتها لهم كدولة عظمى. كما أن الظروف والطريقة التى تم بها إنهاء مهمة هذه القوات لم تكن تسمح بغير ذلك».

(٨١)

ويردف الجمسى بإبداء رأيه الدقيق الذى أشرنا إلى أن أحداً لم يكن مثله محدداً فيه على هذا النحو، وكيف لا وهو ينبه بصراحة إلى عقيدته فى أن النصر إذا تحقق كان سينسب إلى السوفييت وبهذا يضيع مثل هذا الشرف على العسكرية المصرية، وهى فكرة شائعة فى الوجدان المصرى ولكن أحداً لم يجد الشجاعة ليصرح بها على هذا النحو الذى فعله الجمسى:

«وكان الرأى عندى فى ذلك الوقت أن إنهاء خدمة المستشارين والخبراء ليس له تأثير عسكرى مباشر علينا، بل إنه من الأفضل لنا أن ننفرد بالعمل العسكرى وحدنا، ونحن قادرون عليه، ويجب أن نخوض الحرب ـ تخطيطاً وتنفيذاً ـ بحيث تكون مصرية ١٠٠٪، وهذا ما تم. ولم يكن من الممكن أن ينسب للقيادات العسكرية المصرية فضل نجاحهم فى المعارك، ولكن كان سينسب ذلك ـ قطعاً ـ للمستشارين السوفييت، وبذلك تفقد «العسكرية المصرية» الكثير لو دخلنا الحرب بوجودهم».

«وكانت للاتحاد السوفيتى تسهيلات بحرية فى كل من الإسكندرية وبورسعيد. وكان من المتوقع أن يستمر طلبهم للاستفادة بهذه التسهيلات باعتبار أنها تمثل نقط ارتكاز هامة للأسطول السوفيتى فى البحر المتوسط ـ مع الموانئ البحرية السورية ـ لمواجهة نشاط الأسطول السادس الأمريكى».

«وكانت المشكلة الرئيسية هى القوة العسكرية السوفيتية ـ بأسلحتها ومعداتها ـ التى عادت إلى بلادها، ولم يكن من الممكن ـ حينئذ ـ إيجاد حل سريع لها، طالما أن القرار المصرى قد صدر وهو واجب التنفيذ. وكان التفكير الذى يراودنى، ماذا بعد ذلك؟ وهل تتطور العلاقات السياسية بين مصر والاتحاد السوفيتى إلى أسوأ من ذلك، خصوصاً أننا مقدمون على دخول الحرب، ولا يمكن أن نستبعد الحاجة إلى الاتحاد السوفيتى فى وقت تقف فيه الولايات المتحدة بكل جهدها وثقلها مع إسرائيل. وكان الأمل أن تلعب السياسة دورها للإبقاء على العلاقات التى تحقق مصالح الدولتين».

(٨٢)

ويأتى الجمسى بعد هذا إلى التعبير عما أشرنا إليه بوعيه الكامل بفهم السادات وتوجهاته فيما يتعلق بالجوانب المختلفة للعلاقات المصرية ـ السوفيتية::

«وبعدحوالى ثلاثة أشهر من إنهاء مهمة المستشارين السوفييت،سمعت من الرئيس السادات فى المجلس الأعلى للقوات المسلحة أن «السوفييت حريصون كل الحرص على صداقتنا لأنهم يعلمون تماماً أنه لو انهار موقفهم فى مصر، فلا بديل لها فى سوريا أو العراق أو غيرهما.. لم يحدث من أيام القياصرة أن تحصل روسيا

رسمياً من أمريكا على حقوق فى الشرق الأوسط. الرئيس نيكسون لما كان هناك فى موسكو اعترف رسمياً للاتحاد السوفيتى بوجود مصالح له فى الشرق الأوسط، واتفقوا على احترام الطرفين وجود كل منهما فى المنطقة. ومن هنا كان حرصهم الشديد على إبقاء العلاقات مع مصر.. وقالوا بصراحة للدكتور عزيز صدقى رئيس مجلس الوزراء: إن سياستهم لن تتغير، وسيقدمون مساندة كاملة لمصر، والقرارات لم تغير شيئاً، وإنهم حريصون على مصر. وسجلوا ذلك على أنفسهم».

ويرى

وينسب الجمسى الفضل فى نجاح أحمد إسماعيل فى زيارته للاتحاد السوفيتى فى مارس ١٩٧٣ إلى زيارة عزيز صدقى فى أكتوبر ١٩٧٢، دون أن يفيض فى بيان وجهة نظره، وهل شارك هو نفسه فى هذا الوفد (مارس ١٩٧٣) أو ذاك (أكتوبر ١٩٧٢) كما يشير إلى بعض البوادر الطيبة التى كانت مصر تبدأ بها رغم كل هذا التوتر فى العلاقات:

«كان من الطبيعى أن تتدهور العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى، لكن مصلحة الدولتين كانت تقتضى بذل الجهود لتحسين العلاقات تدريجياً برغم الشكوك وعدم الثقة التى تولدت بينهما».

«قام الدكتور عزيز صدقى بزيارة للاتحاد السوفيتى فى أكتوبر ١٩٧٢، وكانت زيارة ناجحة تماماً حيث وعده القادة السوفييت بإمداد مصر بصفقة أسلحة، بعضها لم يسبق إمدادنا بها، على أن يتم توريدها لنا خلال عام ١٩٧٣».

«وكانت البادرة الطيبة الأولى أن اتفاقية التسهيلات البحرية الممنوحة للاتحاد السوفيتى التى كانت سارية المفعول حتى مارس ١٩٧٣ لم تلغ، واستناداً إلى ذلك طلب الاتحاد السوفيتى تمركز ثلاث ناقلات جنود بميناء بورسعيد كما كان متبعاً من قبل، فوافقت مصر على هذا الطلب. وفى يوم ٥ أكتوبر ١٩٧٢ دخلت الناقلات الثلاث الميناء، فكانت ظاهرة طيبة على بدء تحسن العلاقات بين الدولتين».

«وكانت البادرة الطيبة الثانية وصول وفد عسكرى سوفيتى خلال فبراير ١٩٧٣ لدراسة احتياجاتنا من الأسلحة والمعدات. سافر بعدها فى مارس ١٩٧٣ وزير

الحربية الفريق أول أحمد إسماعيل إلى موسكو حيث وقع اتفاقية نحصل بموجبها على أسلحة ومعدات كانت مطلوبة لنا. ووصلنا جزء هام منها حيث استخدم فى حرب أكتوبر بنجاح. وكانت هذه الاتفاقية نتيجة مباشرة لنجاح رحلة الدكتور عزيز صدقى التى قام بها فى أكتوبر ١٩٧٢ لموسكو».

❑

ويصل الجمسى على عادته في التلخيص والبلورة إلى أن يورد فقرة يركز فيها رأيه فى تطور هذه العلاقات وهى فقرة متميزة بالجمل المتناظرة فى التركيب، المختلفة فى الدلالة والتى عادة ما يلخص بها المشير الجمسي فى هذه المذكرات المراحل المختلفة واختلاف طبائعها:

«والحقيقة أن العلاقات الطيبة التى كانت سائدة بين مصر والاتحاد السوفيتى منذ زمن طويل ـ سياسياً وعسكرياً ـ لم تعد كما كانت، بل ظلت الشكوك وعدم الثقة المتبادلة هى السائدة بين الطرفين حتى نشوب حرب أكتوبر، وظهرت واضحة تماماً خلال الحرب، وأصبحت سافرة وتطورت إلى الأسوأ بعد الحرب. وفى تقديرى أنه حدث شرخ فى العلاقات المصرية ـ السوفيتية، ازداد اتساعاً خلال الحرب، وأصبح غير قابل للإصلاح بعد الحرب».

(٨٣)

وتحفل مذكرات الجمسى بفقرات مهمة فى الحديث عن زملائه من كبار قادة القوات المسلحة وسنحاول أن نثبت هذه الآراء للقارئ دون كثير من التدخل الكفيل بإفساد مغزى شهادة الجمسى أو رأيه فى حق زملائه ، ومع هذا فسوف نلقى بالضوء المناسب لتوضيح بعض الحقائق الكفيلة بتوضيح الصورة التى كتب فيها أو عنها النص.

وسنبدأ برأيه فى الفريق محمد فوزى والفريق عبدالمنعم رياض، وقد جاء هذا الرأى فى معرض حديثه عن إعادة بناء القوات المسلحة بعد النكسة حيث يقول :

«وكان اختيار الفريق أول فوزى والفريق عبد المنعم رياض فى ذلك الوقت اختياراً موفقاً. فقد كان الأول شديداً فى الانضباط العسكرى الذى يصل إلى حد القسوة ، وهو ما كنا نحتاج إليه فى تلك الفترة الحالكة بعد أن وصل الانضباط العسكرى إلى الانهيار نتيجة لحرب اليمن ، وإقحام القوات المسلحة فى مجالات عمل غير عسكرية ، وحرب يونيو. أما الثانى ـ عبد المنعم رياض ـ فقد كان ذا علم عسكرى غزير ، وله نظرة إستراتيجية واسعة ، وهو ما كنا نحتاج إليه فى التخطيط والعمليات ونشر الفكر العسكرى الصحيح. ومعنى ذلك أن كلاً منهما يكمل الآخر فى قيادة القوات المسلحة لإعادة البناء ورفع كفاءتها القتالية».

ولا يفوت الجمسي فى مذكراته أن يشير إلى بعض مظاهر الانضباط التى تم تحقيقها بعد حرب ١٩٦٧ وهى مظاهر مهمة بل وتعطينا فكرة عن مدى الانهيار فى الانضباط الذى كان قد حدث فيما قبل حرب ١٩٦٧ .

وفى المقابل لا يجد الجمسي حرجاً فى أن يصف ماروى عن تصرفات المشير عامر فى ١٩٦٧ بالسطحية وعدم العسكرية ، ومع هذا فإنه لايجاهر بمجمل رأيه فى عبد الحكيم عامر إلا عند إيراده لنبأ انتحاره ووقع هذا الخبر عليه وعلى قائده المشير أحمد اسماعيل حين كانا فى الجبهة فى ذلك اليوم ، ولنبدأ بإيراد تعليقه على مانسب للمشير عامر قبيل حرب ٥ يونيو حيث يقول:

« ومن المؤسف والمؤلم أن يكون كلام المشير عامر ـ إذا صح ما نسب إليه ـ عندما سأله الرئيس عبد الناصر فى مؤتمر مايو ١٩٦٧ عن استعداد القوات المسلحة لتنفيذ إغلاق المضايق ، بعد أن قال عبد الناصر: « إذا قفلنا المضايق فالحرب مؤكدة ١٠٠٪»، كان رد المشير عامر « برقبتى يا ريس ، كل شىء على أتم استعداد ». كان ذلك هو الفيصل فى الحكم على القدرة القتالية للقوات المسلحة واستعدادها للحرب برغم أنه كلام سطحى لا يستند إلى أساس عسكرى ، كما أن أسلوب اتخاذ هذا القرار السياسى الهام والخطير ليس هو الأسلوب العلمى الصحيح لزج القوات المسلحة فى حرب ضد إسرائيل معروف عنها أن احتفاظها بقوات مسلحة متفوقة على الدول العربية هو مبدأ رئيسى من مبادئ سياستها القومية واستراتيجيتها العسكرية منذ نشأتها».

وهذا هو نص ما يورده الجمسى في مذكراته عن انطباعه ليلة انتحار عبد الحكيم عامر حيث يقول :

«وبينما كنت أجلس مع اللواء أحمد إسماعيل ليلاً فى جبهة القناة نراجع - كالمعتاد يومياً - نشاط العدو فى سيناء ونواياه فى الفترة القصيرة القادمة ، وكذا نتائج أعمال قواتنا ، قبل أن يتوجه كل منا إلى خندق النوم المخصص له، دق التليفون وكان المتحدث هو الفريق أول محمد فوزى من القاهرة. كان هدف المكالمة هو إخطارنا بانتحار المشير عامر فى منزله (!!!) بمادة سامة شديدة المفعول كان يخفيها ملاصقة لجسمه تحت ملابسه الداخلية ، وأن الكشف الطبى أجرى عليه بواسطة لجنة طبية على مستوى عال بالدولة ، وأنه سيعامل معاملة أى منتحر آخر بالنسبة لتشييع جنازته بعد تسليم الجثة لأسرته. ومعنى ذلك أنه لن يكون هناك أى مراسم عند تشييع الجنازة».

«أخذ اللواء أحمد إسماعيل يناقشنى فى رد الفعل المنتظر لهذا الحادث بين القوات فى الجبهة. ووصلنا إلى نتيجة مؤكدة هى أن انتحار المشير عامر لن يكون له «تأثير عام» فمازالت حرب يونيو بأحداثها ونتائجها المريرة تترك أثرها العميق فى نفوس كل العسكريين بعد أن فقدنا سيناء ، واستشهد لنا الآلاف من رجال القوات المسلحة ، ولم يكن أحد قد نسى دوره فى الهزيمة كقائد عام للقوات المسلحة. واستعدنا معا الحالة السيئة التى وصلت إليها القوات المسلحة فى ظل قيادته ، وكان ذلك سبباً رئيسياً من أسباب الهزيمة».

«وكان ذلك هو المصير النهائى للمشير عامر ، الذى كان برتبة رائد عند قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وبعد أقل من عام ترقى لرتبة اللواء مع تعيينه قائداً عاماً للقوات المسلحة فى ١٨ يونيو ١٩٥٣. ثم ترقى بعد حوالى خمس سنوات إلى رتبة المشير فى ٢٠ فبراير ١٩٥٨، وأصبح نائباً للقائد الأعلى للقوات المسلحة ».

(٨٤)

لا يجد صاحب المذكرات أى حرج فى أن يوجه انتقادات موضوعية إلى الفريق

أول صادق علـى الرغم من أنـه لا يأخذ منه مـوقفا عدائيا ، ومن الانصـاف أن نذكر القارئ بما ذكرناه من أن المشير الجمسى قـد أشار بالتقدير إلى دور الفريق صادق فى استـمرار التـعاون بيـن القوات المـسلحـة المصريـة والسوريـة وهو الدور الـذى كان الجمسى قد تولى المسئولية عنه منـذ ١٩٧٠ فى عهد الوزير السابق الفريق أول محمد فوزى.

وها هو المـشير الجمسـى يروى بصراحة شـديدة بعض المـواقف التى شهـدها مع الفريق صادق معقبا عليها بانتقاده الـشديد لسلوك الفريق صادق فيها ، ومن الواضـح أن انتقادات الجمسى للـفريق أول صادق لاتخرج فى مجملها عما اسـتقر عليه الرأى فى الوجدان المصرى نتيـجة روايات كثيرين منهم الرئيس الســادات نفسه عن سـلوك الفريق صادق وخـلطه بين الحرب والسيـاسة، وبين ما يقال وما لايـقال، ويبدو لى أن الفريق صـادق كان أبرز الضحايا لأحـد أصدقائه من القـريبين من السلـطة عرف فى ذلك الـوقت بـأنه كان (ولا يـزال) قادراً عـلى اشعـال الحرائـق سراً ثم الـقيام بدور المطافىء ، وعـلى الدفع بمن يقعون تحـت تأثيره للقيـام بأدوار تعود فى النهايـة لصالحه ولصالح السياسات التى ينفذها ، ولكنها للأسف الشديد تودى بهم ـ وربما الوطن فى منتصف الطريق إلى موارد التهلكة.

وقد يـعجب القـارئ لحرصى عـلى ذكر مثـل هذا الرأى فـى مثل هذا المـوضع ، ولكننى فى الحقيقة أجد أن روايات الجمسى الـدقيقة عن هذه المؤتمرات التى حضرتها مجموعة كبيرة مـن الضباط أو الاجتماعات التى انعقدت للمـجلس الأعلى للقوات المسلحة تمثل مفاتيح مهمـة لطبيعة وأهداف الفكـر الذى سيطر فى تلك الـفترة على الفريق صـادق الذى لـم تكن له اهتـمامات عقائديـة ولا سياسية من قبـل وصوله إلى هذا المنصب الكبير، ولكنه أصبح فجأة يتـحيز ويتسيس ويتناول الأمور بأيديولوجيات خاطئة ، ولنقرأ بعض ما يرويه المشير الجمسى حيث يقول:

«وكان الفـريق أول محمـد صادق وزير الحربيـة لا يخفى انتـقاده وعدم ثقـته فى الاتحاد السوفيتى خلال أحاديثه فى القيادة الـعامة للقوات المسلحة. وجاء يوم ٢٤ يناير ١٩٧٢ ليـعقد اجتـماعاً عـاماً فى القـاهرة حضره عـدة آلاف من الضـباط من جمـيع

الرتب. هاجم الفريق أول صادق فى هذا الاجتماع الاتحاد السوفيتى هجوماً عنيفاً ، وأعلن أن السوفييت لم يقوموا بتوريد الأسلحة المطلوبة لمصر ، وأنهم بذلك يمنعوننا من تحقيق رغبتنا فى الهجوم. وأضاف الفريق أول صادق أن السوفييت ينشرون الشائعات بين صغار الضباط والجنود والطلبة بأن القوات المسلحة لديها الأسلحة الكافية التى تسمح لها بالهجوم ، ولكن كبار القادة هم الذين لا يرغبون فى القتال ، وإن هذه الشائعات المسمومة غير صحيحة».

(٨٥)

وهنا يعقب الجمسى بانتقاده الصريح للفريق صادق فى وضوح شديد لم يضطره أحد إليه، ولكنه وجد نفسه مطالباً به حيث يقول :

«لم أكن راضياً ـ أثناء حضورى هذا الاجتماع ـ عما قاله الفريق أول صادق لهذا العدد الكبير من الضباط من مختلف الرتب ، لأنى كنت أخشى أن يؤثر ذلك على الروح المعنوية للقوات المسلحة على أساس أن الاتحاد السوفيتى يعرقل قيامنا بالعملية الهجومية برغم أنه المصدر الرئيسى والوحيد لتسليحنا. فضلا عن ذلك كنت أرى أن هذا الموضوع هو موضوع سياسى بين مصر والاتحاد السوفيتى ، ولا فائدة من إعلانه على الضباط بل كنت أرى أن ضرره أكثر من نفعه إذا كان يراد به التوعية من وجهة نظر وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة».

❑

ويستطرد المشير الجمسى فى فقرة تالية من هذه المذكرات القيمة راوياً موقفاً آخر للفريق صادق فى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة عقد بعد شهرين من الاجتماع الذى أشرنا إليه لتونا:

«وفى اجتماع للمجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة الفريق صادق يوم ١٨ مارس ١٩٧٢ ، أبلغنا أن هناك شائعات تقول إن هناك خلافاً بين الفريق صادق والدكتور عزيز صدقى رئيس الوزراء وهذا غير صحيح. وأن هناك شائعات بأن

الفريق صادق على خلاف مع الاتحاد السوفيتى ، وهذا غير صحيح ، وأبلغنا أيضاً أن الفريق عبد القادر حسن نائب وزير الحربية قد عاد من موسكو دون أن يوقع على الاتفاقية الجديدة التى تقضى بأن يقوم الاتحاد السوفيتى بتزويدنا بأسلحة وطائرات تى ٢٢ ودبابات ت ٦٢».

«والسبب فى ذلك أن الاتحاد السوفيتى طلب دفع ثمن الطائرات والدبابات بالعملة الصعبة وبالثمن الكامل ـ دون تخفيض نصف ثمنها كما كان متبعاً من قبل ـ وقد رفض الجانب المصرى التوقيع على الاتفاقية بهذه الشروط ، وبالتالى فإن هذه الأصناف لن تحضر».

وهنا يردف بالقول:

«والحقيقة أن هذه المعلومات كانت مؤلمة لنا حيث أن موقف الاتحاد السوفيتى من تسليح قواتنا أصبح أمراً غير مستساغ لعدم الاستجابة لمطالبنا لتحرير الأرض برغم أنه يعلم أنه المصدر الوحيد لتسليح قواتنا المسلحة».

(٨٦)

ويمثل الفريق صلاح محسن نموذجاً للقادة العسكريين الذين يتخذ منهم المشير الجمسى موقف شبه محايد، فهو لا يشيد به ولكنه لا يهاجمه بضراوة على نحو ما يهاجمه كل من اللواء الدغيدى أو الفريق أول مرتجى وغيرهما من القادة الآخرين أصحاب المذكرات أما الجمسى فإنه يضعه فى إطار القائد المعذور الذى لا يتمتع بالقدرة على التصرف فى الوقت المناسب دون أن يكون له ذنب فى هذا الوضع الذى يجد فيه نفسه، وقد حرصت على أن أنقل للقارئ بعض المواقف والآراء التى أوردها المشير الجمسى فيما يتعلق بالفريق صلاح محسن بالذات لأن هذا الرجل كان هو قائد الجيش فى حرب ١٩٦٧ وكان تبعاً للترتيب [العقيم الذى أخذ به يومها من كثرة القيادة وتعاقبها وراء بعضها] بمثابة نقطة الوسط فى الهيكل كله، فقد كان يرأسه الفريق أول مرتجى (كقائد للقوات البرية) والفريق أول محمد فوزى (رئيس

الأركان) والمشير العام (كقائد عام ونائب للقائد الأعلى)، وكان يليه فى سلم القيادة اللواء أحمد إسماعيل ثم العميد محمد عبدالغنى الجمسى (صاحب هذه المذكرات) وإن كان هذان متواجدين فى مركز القيادة المتقدم المفترض أنه يوجه أعمال قائد الجيش الميدانى نفسه، وسوف يرينا تأمل ما كتبه صاحب هذه المذكرات فى أكثر من موضع كيف كان صلاح محسن ضحية تماماً، وكيف لم يكن فى وسعه إلا أن يكون هكذا : ضحية دائماً.

وفى صفحة ٦٨ ـ على سبيل المثال ـ يذكر الجمسى أن المشير عامر فوجئ عندما قال له الفريق صلاح محسن قائد الجيش الميدانى إن قواته غير مدربة على الهجوم، كذلك فقد نقلنا من قبل نص اعتراضات الجمسى على سلوك الفريق صلاح محسن حين سبق جيشه إلى الانسحاب، ونص تعجب الجمسى من أن يتصرف صلاح محسن بدون الرجوع إلى القيادة التى كانت قائمة برئاسة الفريق أول مرتجى .. ومع هذا كله فإن الجمسى يعطى العذر لصلاح محسن وهو لايلومه بقدر ما يظهره فى موقف مَنْ ظلم فى موقعه وفى قراراته التى صدرت عنه ولنأخذ مثلا ما يرويه الجمسى حيث يقول بكل صراحة :

«ازداد غموض الموقف أمام قائد الجيش الميدانى الفريق صلاح محسن نتيجة للتغيير والتعديل المستمر فى المهام، وتكليف بعض التشكيلات للقيام بأعمال تعرضية داخل إسرائيل ، ووصول الفرقة الرابعة المدرعة إلى سيناء والتى لا تستخدم باعتبارها الاحتياطى الاستراتيجى إلا بأوامر من المشير عامر. لذلك أوفد رئيس عمليات الجيش إلى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة بالقاهرة يحمل أسئلة للحصول على إجابات عنها. وكانت الأسئلة هى:

ـ ما هى مهمة الجيش الميدانى بالتحديد ، وما هو تخطيط القيادة العليا لاستخدام الجيش؟

ـ ما هى خطط العمليات التعرضية ومدتها ؟

ـ ما هى مهمة الفرقة الرابعة المدرعة ؟

ـ ما هى أوضاع وتجميع قوات العدو ونواياه المحتملة ؟

ومن الواضح أن توجيه هذه الأسئلة من قائد الجيش الميدانى يبين مدى الغموض والارتباك الذى كان يسود الموقف الأمر الذى كان لـه انعكاس على عمل قيادة الجيش والقوات تحت قيادته.

«وصدرت توجيهات المشير عامر بتحديد مهمة الجيش الميدانى فى سيناء وقطاع غزة لتكون منع قوات العدو من اختراق الدفاعات وهزيمتها ومنعها من الوصول إلى قناة السويس. كما يستعد الجيش بجزء من قواته للقيام بأعمال تعرضية محدودة فى النقب الجنوبى. وهذه المهمة يتم تنفيذها بالتعاون مع الاحتياطى العام والقوات الجوية والدفاع الجوى. وكان ذلك ـ حتى ٣١ مايو ـ خروجاً كاملاً عن الخطة الأصلية (قاهر)».

«وحدثت تغييرات أخرى فى الخطة الدفاعية بعد ذلك نتيجة لخدعة إسرائيلية استجابت لها القيادة العامة وإدارة المخابرات الحربية. وملخصها أن إسرائيل سوف تهاجم قواتنا فى سيناء من اتجاه مختلف عن التقدير السابق ، الأمر الذى ترتب عليه نقل القوات إلى هذا الاتجاه الجديد مما كان له تأثير آخر على أوضاع القوات».

«وعندما أعلنت حالة الطوارئ القصوى وتقرر حشد القوات فى سيناء فى منتصف مايو ، رأت القيادة العليا للقوات المسلحة تشكيل « مركز قيادة متقدم» فى سيناء ، وهو ما لم يكن مقرراً من قبل حسب الخطة الدفاعية (قاهر). تشكل هذا المركز بصفة عاجلة من الفريق أول عبد المحسن مرتجى قائد القوات البرية واللواء أحمد إسماعيل وأنا ومجموعة قليلة من الضباط».

«تحرك «مركز القيادة المتقدم» إلى الإسماعيلية يوم ١٧ مايو ، ثم إلى الموقع الذى تم اختياره فى سيناء بحيث يكون خلف قيادة الجيش الميدانى الذى يشمل كل قوات سيناء ويقوده الفريق صلاح محسن».

«ومن المعروف أن الحرب ستدار بواسطة القيادة العليا وقيادة الجيش الميدانى ، ولذلك عندما صدر تشكيل «مركز القيادة المتقدم» وتعيين الفريق أول مرتجى قائداً «لجبهة سيناء» كان من الضرورى توضيح موقف هذه الحلقة الإضافية فى سلسلة القيادة».

وهكذا نرى من هذه المذكرات ومن مذكرات القادة العسكريين الآخرين الذين نشروا مذكراتهم أن الفريق صلاح محسن مدين لهذا الوطن بمذكراته حتى الآن .

(٨٧)

ومع أنى كنت أتوقع أن أجد فى هذه المذكرات تحليلا وافياً للإنجازات العسكرية التى قام بها عشرون قائداً ـ على الأقل ـ من قادة حرب أكتوبر المجيدة، إلا أنه يبدو لى أن التزام المشير الجمسى بسياق متواصل من الحديث عن الحرب قد حال بينه وبين أن يتمكن من مثل هذا الحديث الذى لا أظنه لم يكن يتمنى وروده فى هذه المذكرات.

ولهذا فإنى اقترح على المشير العظيم أن يعيد كتابة مذكراته بطريقتين أخريين طريقة [عرضية] يتناول فيها أدوار الأفرع والأسلحة فى هذه الحرب من خلال النسيج الأشمل وهو القوات المسلحة كلها، وطريقة ثالثة [شخصية] يقدم لنا فيها تقييمه وهو القائد العظيم لجهود زملائه من القادة العظماء الذين تولوا قيادة الأفرع والأسلحة والجيوش والمناطق، كما يقدم فيها بصورة دقيقة انجازات الأبطال الذين استحقوا تقدير أمتهم ونالوا أرفع الأوسمة عقب الحرب، ومن حسن الحظ أن المشير الجمسى قد قدم بصورة عرضية نموذجا لهذا حين تحدث عن الأيام الأخيرة من الحرب حين انحصرت العمليات فى قطاع واحد فإذا هو يتحدث عن بطولة قائد الفرقة التى تولت المعارك فى ذلك الوقت وهو الفريق يوسف عفيفى قائد الفرقة ١٩ التى تولت الدفاع عن مدينة السويس ويقول :

« وفى قطاع الجيش الثالث ، كانت القوات تقاتل على عمق ٨ إلى ١١ كيلو متراً شرق القناة. وكان أبرز قتال هذا اليوم هو نجاح الفرقة ١٩ مشاة بقيادة العميد يوسف عفيفى فى احتلال عيون موسى. كما قامت نفس الفرقة باحتلال موانع العدو الإسرائيلى المحصنة على الضفة الشرقية التى يتمركز فيها ستة مدافع ١٥٥ مم ».

وفى موضع آخر يشيد المشير الجمسى بنجاحات يوسف عفيفى ويقول:

« بينما كانت القوات الإسرائيلية تستعد لاقتحام مدينة السويس ، أصدرت القيادة

العامة تـعليماتهـا إلى محافظ السـويس للدفاع عن المـدينة. وتولى الفـريق أول أحمد إسماعيل والـسيد ممدوح سالم وزير الداخلـية مداومة الاتصال بالمحافـظ والسلطات المدنية لـلمساهمة الـفعالة مع القوة الـعسكرية الموجـودة داخل المدينة لمنـع العدو من دخول المدينة وتدمير أى قوات معادية يمكنـها دخولها. والحق يقال إن العميد يوسـف عفيـفى قائد الفرقـة ١٩ مشاة قدم ـ بمبـادأة منه ـ كل دعم مـمكن خصوصاً تخـصيص الأسلحة للمدافعين عن المدينة » .

❑

وقريب من هذا ما يرويه المشير الجمسى عـن جهود الفرقة السادسة عشرة فى أثناء معركة الثغرة حيث يشير إلى بطولاتها وقدرتها فى عجالة ويقول:

«اشتبكـت فرقة عبد رب النبى حـافظ مع فرقة آدان حيث دارت معـركة المزرعة الصينية ، وهى من أشد المعارك ضراوة التى تمت خلال فترة فتح الثغرة ، تكبدت فيها قوات الـطرفيـن خسائـر كبيـرة فى الأرواح والمعـدات ، إلا أن فرقة عـبد رب الـنبى تمكنـت من منع فـرقة آدان من التقـدم فى اتجاه القـناة لفتح المـمر. واضطرت الـقيادة الإسرائيلـية إلى نقل لواء مظـلات من جنوب سيناء بـالطائرات للاشتراك فـى معركة المزرعة الصـينية لحسمـها لصالحهم. كانـت النتيجة خـسائر فادحة لحقـت بها ، الأمر الذى أرغم الدبابات الإسرائيلية على التدخل لتخليص جنود المظلات» .

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣

النصر الوحيد

2

حرب أكتوبر للفريق سعد الدين الشاذلى

دار الخيّال

(١)

ولد الفريق سعد الدين الشاذلى فى أول أبريل عام اثنين وعشرين (١٩٢٢) وتخرج فى الكلية الحربية عام أربعين (١٩٤٠) فى أول يوليو، ويروى اللواء عبدالمنعم خليل فى مذكراته رواية مقتضبة جداً أن الشاذلى كان عريف طالب بالكلية الحربية وعُزل إلى طالب لشهامته.

وعمل سعد الشاذلى ضابطا بسلاح خدمة الجيش، وفيما قبل الثورة كان الشاذلى من العاملين فى معية الملك فاروق، ويحمل غلاف «سقوط الملكية فى مصر» الذى ألفه الأستاذ محمد عودة ونشرته دار الخيال من شهور قليلة صورة على الغلاف يظهر فيها الشاذلى من بين الضباط القلائل المحيطين بالملك فى الصورة.

وفى مرحلة تالية تحول الشاذلى ـ على حد تعبير عبدالمنعم خليل ـ إلى ضابط مقاتل بسلاح المشاة ثم انخرط فى سلك رجال المظلات إلى أن تولى قيادة وحدات المظلات عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧ خلفًا للواء عبدالمنعم خليل (الذى هو أحدث منه) والذى نتناول مذكراته فى الباب الثالث من هذا الكتاب. وقد ضمت فى ذلك الوقت وحدات المظلات مع وحدات الصاعقة وسميت معاً الوحدات الخاصة.

وفى حرب اليمن تولى سعد الشاذلى قيادة قوة خاصة فى الجوف، وفى حرب

١٩٦٧ كان قائداً لقوة خاصة جُمعت مع بعضها دون أن تؤدى شيئًا ذا بال على ما يروى الفريق أول مرتجى فى مذكراته.

ولاتتضمن المذكرات التى بين أيدينا حديثاً لصاحبها عن دوره فى اليمن ولا فى ١٩٦٧ وإنما هو معنى فى المقام الأول بدوره منذ أصبح رئيسا للأركان فحسب.

وقد تناولنا فى مقدمة هذا الكتاب جانباً مهماً من تاريخ الفريق سعد الشاذلى يتعلق بتوليه ـ دون غيره ـ رئاسة الأركان فى أثناء الحركة التصحيحية التى قام بها الرئيس السادات فى مايو ١٩٧١، وقد بقى سعد الشاذلى رئيساً للأركان حتى ديسمبر ١٩٧٣ حين أعلنت الصحف عن تولى اللواء محمد عبدالغنى الجمسى هذا المنصب دون ذكر لمنصب آخر تولاه الشاذلى، وبعد أسبوع أعلن عن ترشيح الشاذلى سفيراً لمصر فى بريطانيا، وقد تسلم عمله فى لندن فى ١٩٧٤ وبقى هنالك حتى نقل سفيراً لمصر فى البرتغال فى ٢١ مايو ١٩٧٥، وبقى الشاذلى سفيراً لبلاده فى البرتغال حتى أوقف عن عمله فى ١٩ يونيو ١٩٧٨، وأُعلن أن ذلك بسبب إخلاله الجسيم بوظيفته. وقد لجأ الشاذلى إلى ليبيا ... وهو يروى فى مذكراته التى بين أيدينا كيف أنه عقد مؤتمراً صحفياً فى مكتبه كسفير لمصر فى البرتغال هاجم فيه سياسة السادات، وكيف أنه كان قد حصل بطريقة سرية على جوازى سفر ليبيين له ولزوجته بأسماء مستعارة منذ كان سفيراً لمصر فى لندن(!!)

وقد تدوولت للشاذلى أكثر من قضية فى المحاكم المصرية العسكرية والإدارية وحكم عليه فى ١٦ يوليو ١٩٨٣ بالأشغال الشاقة لمدة ٣ سنوات فى القضية العسكرية رقم ٢ لسنة ١٩٨٣، وفى ٦ أكتوبر ١٩٩٣ أفرج عنه بعد أن كان قد حُبس عند عودته إلى مصر من منفاه الاختيارى!

وليس من شك أن الفريق الشاذلى قد حاول إنصاف نفسه بكل ما كتبه فى هذا الكتاب، لكن العجيب أنه أنصف السادات أيضاً بأكثر مما كان يتوقع هو، وعندى أن هذه مزية من مزايا التراجم الشخصية إذا ما كتبت فى وقت قريب من وقت وقوع الأحداث، ذلك أنها بهذه المعاصرة فى كتابتها تكون أقرب إلى الصدق منها لو كتبت بعد فترة أطول، وكثيراً ما يكون سبب الخلاف بين صديقين أو زميلين سبباً تافهاً بينما

هما لا يلتفتان إلى تفاهته إلا بعد مرور الوقت، وبعد أن يكتشف كل منهما هذه التفاهة فإن أحدهما أو كلا منهما يبحث عن سبب أعمق يستحق ما حدث من خلاف، بينما التسجيل المبكر يحول بينهما وبين ادعاء أسباب غير حقيقية .

وفى حالتنا فإنه لو أن الشاذلى كتب هذا الكتاب بعد ما كتبه بعشر سنوات أخرى أو بعشرين سنة أخرى، (وقد مضى الآن على نشر الطبعة الأولى عشرون عاماً بالفعل)، لو أن الشاذلى كتبه اليوم أو منذ عشر سنوات لكان قد تجنب إنصاف السادات باختزال الروايات التى يرويها وحصرها فى نطاق التركيز على عناصر سيئة من صورة سيئة على نحو ما فعل ويفعل أناس سيئون.

ولكن من حسن حظ السادات أن الشاذلى كتب معظم فقرات كتابه هذا بينما كان لا يزال فى حيرة هل ظلمه أحمد إسماعيل أم ظلمه السادات، أم ظلماه معاً، وهل ظلماه عن اتفاق أم عن توافق، ومن السهل حتى على القارئ الذى لم يعش تلك الأيام أن يدرك أن الشاذلى نفسه كان أكثر ظلماً لنفسه من ظلم أحمد إسماعيل والسادات له، إن كانا قد ظلماه، وأنا حريص على استعمال «إن» التى تفيد التقليل ، ولا أستعمل «إذا» التى تفيد التحقيق، وربما يقترح علىّ بعض القراء أن أستعمل ««لو» التى تعنى ضآلة الاحتمال، ولكنى فى الواقع أفضل اللجوء إلى التوسط ابتداء إلى أن يكتشف القارئ الحقيقة بنفسه.

(٢)

ومن الإنصاف أيضاً أن نقول إن الشاذلى لم يقصد أن يظلم نفسه لكنه بحكم بشريته المتميزة كان قد أنهك نفسه وأعصابه فى كل شيء حتى أصبح فى النهاية أقرب إلى ما نراه فى هذه المذكرات، مكدود الذهن والفؤاد من كثرة ما بذل من أجل وطنه، ولن يضيع جزاؤه عند ربه ولا عند شعبه مهما حاول هو نفسه أن يقلل من قيمة ما قدم بما سلك من سلوك لا يتناسب مع اسمه ولا تاريخه ولا إنجازاته، ومع ذلك فإننا نلتمس له العذر مع أنه أكبر من أن نلتمس له، وأحرى به أن يعيد تقييم مواقفه كلها فى ضوء ما قدم لبلده وجنوده ورئيسه وشعبه.

تتمثل فى الفريق سعد الشاذلى صورة الشخص اللامع الذى تختلف بشأنه الآراء والأحكام، حتى إنه لا يمكن الوصول إلى حكم قاطع فى أية جزئية من الجزئيات التى يتناولها التاريخ فى حكمه على شخصية كبيرة وممتدة التأثير من طراز هذا القائد البارز.

ومن حسن الحظ أن مذكرات الفريق سعد الشاذلى تصور شخصيته على صورة من أفضل الصور التى يمكن للمذكرات أن تصور بها شخصية صاحبها، ولا يقف هذا عند ما فى المذكرات نفسها من نصوص وإيحاءات، ولكنه يتعدى ذلك إلى التوقيت الذى صدرت فيه المذكرات وإلى تبكير صاحبها بنشرها، ثم إلى أنها نشرت خارج مصر بينما مؤلفها فى المنفى الاختيارى الذى اتخذه لنفسه بعدما أن كان ملء السمع والبصر، ورغم أنه كان فى وسعه أن يظل ملء السمع والبصر إلى يومنا هذا، ولكنه آثر لنفسه طريقا آخر غير الطريق الذى كان منفتحا أمامه.

وهكذا فإنه فى خلال ما لا يزيد على سبع سنوات (١٩٧٣ـ ١٩٨٠) اجتاز الشاذلى فيما بينه وبين نفسه خطوات واسعة جدا فى طريق التعبير عن الذات والبحث لها عن مكانة متميزة ومتوافقة مع تطلعات صاحبها حتى لو كانت هذه التطلعات على نحو ما حدث بالفعل مستحيلة التحقيق.

(٣)

يروى سعد الشاذلى بنفسه فى هذه المذكرات كيف أتيح له أن ينال منصب رئيس الأركان مرة واحدة متخطيا بهذا كثيرين جدا أقدم منه فى المؤسسة العسكرية المصرية التى تمضى ترقياتها تبعا لمبدأ الأقدمية. فقد أتيح له أن يحضر اجتماعا عقده وزير الحربية الفريق فوزى بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة قبيل ما سمى بحركة التصحيح فى مايو عام ١٩٧١، وكان الاجتماع مخصصا لاستطلاع رأى القادة العسكريين فى الخلاف القائم فى الكواليس حينذاك بين السادات ومناوئيه، وكان هو موضوع قيام اتحاد الجمهوريات العربية، ومن العجيب أن القدر هيأ الفرصة لسعد الشاذلى كى يحضر هذا الاجتماع كممثل لمنطقة البحر الأحمر العسكرية، ولا عجب

فى أن يحدث هذا، فقد كان مناخ أساليب التمثيل الإقليمية فى مؤتمرات الاتحاد الاشتراكى هو الأسلوب المسيطر على كل ديناميات العمل السياسى والتنفيذى وكان هذا الأسلوب يفرض هذا النوع من التمثيل الإقليمى أو القطاعى بقوة، حتى أن القائد العام ووزير الحربية الفريق أول محمد فوزى نظم حضور مثل هذا الاجتماع لا بعقلية العسكرية المحترفة ولكن بعقلية التنظيم السياسى الشمولى مع احترامنا أيضاً لهذه العقلية.

هكذا حضر الشاذلى الاجتماع بترتيب القدر على الرغم من أنه ليس عضواً فى المجلس الأعلى للقوات المسلحة كما يذكر هو، ثم هكذا كان الوحيد بين الحاضرين الذى أيد مشروع الاتحاد، أى أنه أيد الرئيس السادات الغائب عن الاجتماع، على حين أن كل الحاضرين ـ واحداً واحداً، وواحداً بعد واحد ـ عارضوا الفكرة وأيدوا الفريق أول فوزى.

وسرعان ما وقعت أحداث حركة التصحيح، وسرعان ما أصبح الفريق أول محمد فوزى نفسه فى المعتقل فالسجن، واختير رئيس الأركان الفريق محمد أحمد صادق ليكون وزيرا للحربية، وكان هذا طبيعيا جدا، ولكن القدر أضاف المفاجأة الثالثة فى صالح اللواء سعد الشاذلى الذى عين رئيسا للأركان على غير انتظار.. ويذهب الفريق أول فوزى فى مذكراته وهو يصور قرار تعيين الشاذلى إلى أن يذكر أن السادات عين اللواء سعد الشاذلى دون أن يذكر اسمه على وجه التحديد لحظة التعيين مكتفيا بصفته من حيث النسب، وهى أنه عديل كبير الياوران الفريق سعد الدين متولى!!

(٤)

وفى مذكراته يحرص الشاذلى ـ فى المقابل ـ على تبرئة صورة تعيينه كرئيس للأركان أن تكون نتيجة حتمية لتصويته المنفرد مع اتجاه الرئيس السادات إلى إقرار اتفاقية الوحدة ضد رغبة الفريق أول فوزى، وهو يلجأ إلى منطق جدلى غير مقبول

فى إثبات هذا المعنى قائلا إنه لو صح الأمر وأخذنا بهذا التفسير فقد كان يجب أن يتخلص السادات من القادة الأربعة عشر لكى يأمن شرهم!! وواضح أن الشاذلى يجانب الصواب فى هذا القياس (المنطقى فى نظره) من ثلاث زوايا:

الزاوية الأولى : أن أحدا من طراز السادات المحنك لا يتصرف على هذا النحو بالتخلص من أربعة عشر من كبار القواد مرة واحدة لمثل هذا السبب الشكلى أو الهامشى.. فقد كان السادات محنكا، وحتى لو أنه أحب أن يشجع ويتبنى طراز الشاذلى المتحمس له أو المتفق معه فى الرأى فإنه لم يكن ليأخذ بمثل هذه الفكرة التى ربما كانت تراود الشاذلى لو كان بيده الأمر. ولو فعل السادات ما كان يظنه الشاذلى فاعله لكان السادات يقوم بالحركة التصحيحية (!!) لمصلحة الشاذلى(!!) وليس لمصلحة السادات .

الزاوية الثانية : أنه يكفى لإظهار معاقبة هؤلاء القادة الأربعة عشر جميعا وإثابة الشاذلى فى ذات الوقت، أن السادات قدم الشاذلى على هؤلاء جميعا، فقد أصبح بحكم منصبه الجديد الرجل الثانى فى القوات المسلحة المصرية ورئيسا لكل هؤلاء القادة وتالياً مباشرة للفريق صادق القائد العام ووزير الحربية الجديد.

الزاوية الثالثة : أن سعد الشاذلى نفسه لم يقدم لنا تفسيرا آخر لهذا الصعود القافز الذى حظى به فى ذلك اليوم، وتركنا بما رواه نتصور صحة الرؤية القائلة بأن موقفه فى اجتماع ١٨ أبريل كان هو العامل الوحيد المزكى له، ولو كان قد قدم لنا رؤية أخرى للجأنا إليها ولو من باب الترجيح عند اللزوم!!

وعلى كل الأحوال فهذا هو النص الذى يروى به الشاذلى توليه رئاسة الاركان :

« فى يوم ١٦ مايو عدت مرة أخرى إلى القاهرة التى كنت فيها منذ ثلاثة أيام لأستلم منصبى الجديد كرئيس لأركان حرب القوات المسلحة المصرية . متخطياً بذلك أكثر من ٣٠ ضابطاً يسبقوننى فى الأقدمية العامة. قد يعتقد بعضهم أن هذا التعيين جاء بناء على موقفى فى مؤتمر المجلس الأعلى للقوات المسلحة الذى انعقد فى ١٨ أبريل ١٩٧١ . ولو أخذنا بهذا التفسير لكان منطقياً أن يقوم السادات بالتخلص من جميع الأعضاء الأربعة عشر الذين وقفوا ضده لكى يأمن شرهم ولكن هذا لم

يحدث ! وإن كل ما حدث هو أن الشخص الذى هاجم الفريق صادق مرتين خلال هذا المؤتمر قد تم نقله من القوات المسلحة إلى وظيفة مدنية ، وكان واضحاً أن الفريق صادق وليس رئيس الجمهورية هو الذى وراء هذا النقل».

« وفى يوم ١٧ مايو قابلت رئيس الجمهورية فى منزله بالجيزة برفقة الفريق صادق حيث أشاد بما يعرفه عني من قدرات وإمكانيات وانضباط عسكرى وأنه يثق بى ثقة كبيرة، ثم أخذنا نتجاذب الحديث نحن الثلاثة فى أمور تخص القوات المسلحة لمدة ساعتين تقريباً، انصرفت بعدها لأبدأ مرحلة من العمل المضنى الجاد لإعداد القوات المسلحة للحرب».

(٥)

وقد حرص الفريق الشاذلى فى مذكراته على أن يساعد الرئيس أنور السادات فى إدانة الفريق أول محمد فوزى فى أحداث مايو ١٩٧١، وها هو يروى لنا كيف تعمد الفريق محمد فوزى (ويفيض الشاذلى فى إثبات تفاصيل وجزئيات هذا التعمد بأكثر مما فعل السادات نفسه!!!) أن يجعل قادة القوات المسلحة يأخذون الجانب الذى كان فى مواجهة الرئيس أنور السادات .

وقد ألقى الشاذلى ـ بحسن نية ـ ظلالاً من الشك على طبيعة الدافع إلى موقفه فى أبريل ١٩٧١، بل يمكن القول بأنه أيد [وأكد من حيث لا يدرى] ما ذهب إليه الفريق محمد فوزى بعد ذلك فى مذكراته من أنه اختير رئيساً للأركان لأنه عديل الفريق سعد الدين متولى كبير الياوران وبسبب هذا الموقف الذى وقفه فى هذا الاجتماع ، وهو الأمر الذى يمكن للقارئ لهذه المذكرات أن يستنتجه حين يرى الفريق سعد الدين الشاذلى وقد حضر (بحكم القدر) اجتماعا لاتؤهله له وظيفته وقد أصبح فجأة سابقاً لثلاثين لواء يسبقونه فى الأقدمية [كما يقول هو نفسه] من دون أن يقدم أى مبرر يفسر لنا كيف اتجهت الأنظار إليه فجأة من دون القادة جميعاً لكى يكون رئيساً للأركان.

ولنقرأ معاً رواية الفريق الشاذلي كما أوردها في مذكراته حيث يقول:

« في يوم ١٨ أبريل ١٩٧١ اجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة تحت رئاسة الفريق محمد فوزي . لم تكن وظيفتي التي أشغلها كقائد لمنطقة البحر الأحمر العسكرية تؤهلني لعضوية هذا المجلس، ولكني دعيت لحضور هذا المؤتمر ، وقد كان الموضوع الرئيسي لهذا المؤتمر هو بحث موضوع « اتحاد الجمهوريات العربية» وقد بدأ الفريق محمد فوزي حديثه بمقدمة مفادها عدم علمه بهذا الإعلان ، وأنه علم به رسمياً حوالي الساعة الواحدة صباحاً أي قبل إذاعته في الصحف بخمس ساعات فقط، وتساءل عن الفوائد التي يمكن أن نجنيها من هذا الاتحاد ولا سيما أن علاقتنا الحالية مع سوريا طيبة جداً وأخطرنا بأنه يوجد اتفاق سري بين مصر وسوريا تم في نوفمبر ١٩٧٠ وبموجبه فإن وزير الحربية المصري أصبحت له سلطة قيادة القوات السورية أيضاً. كما أخطرنا بأنه لا يوافق على الحل المقترح بانسحاب إسرائيل الجزئي من الضفة الشرقية. ثم أنهى حديثه قائلاً إن آراء الفريق صادق (الذي كان يشغل منصب رئيس الأركان في ذلك الوقت) متفقة تماماً مع آرائه وأنه طلب حضورنا لكي يستمع إلى وجهة نظرنا في هذا الموضوع».

«... كان المؤتمر [يقصد اجتماع المجلس الأعلى] يضم ١٦ ضابطاً بالإضافة إلى سكرتير المجلس الذي يقوم بإجراء التسجيل الرسمي دون أن يطلب إليه إبداء الرأي. كان ترتيبي في سلم الأقدمية بين الحاضرين هو الثاني عشر، وعلى الرغم من أن هناك تقليداً عسكرياً هو أن يُستمع لرأي الضابط الأحدث قبل الضابط الأقدم حتى لا يتأثر الضابط الأحدث برأي من هو أقدم منه أو من هو رئيسه ، فقد خالف الفريق محمد فوزي هذا التقليد عندما أعلن رأيه قبل أن يستمع إلى أقوالنا ، ثم خالفه مرة أخرى عندما بدأ بالاستماع لرأي الأقدم قبل الأحدث ، ثم خالفه مرة ثالثة عندما تخطى الفريق صادق وسأل من يليه في الأقدمية وذلك لإقناع الجميع أن الفريق محمد صادق متفق معه في الرأي تماماً كما سبق أن قال».

« هاجم المتحدثون الذين سبقوني جميعهم انضمام مصر إلى هذا الاتحاد وبذلك كانت معركة التصويت قد حسمت ، فلو أنني والأربعة الذين من بعدي عارضنا هذا الاتفاق فإن ذلك لم يكن يغير من الأمر شيئاً. وعندما جاء دوري في الكلام أبديت

الاتحاد وفندت الأسباب المختلفة التى اعتمد عليها الآخرون فى معارضتهم له ، وشرحت لهم المواد الخاصة بالاتحاد وخرجت بخلاصة وهى "إذا لم يكن هناك نفع لمصر من هذا الاتحاد فإنه ليس هناك أى غرم ولذلك فإننى أباركه».

«بعد أن أنهيت حديثى تكلم الأربعة الآخرون فعارضوا الاتفاقية».

«كان الفريق فوزى سعيداً بهذه النتيجة، وقد عقب قائلاً :

«والآن فإنى أستطيع القول بأنكم جميعاً فيما عدا اللواء سعد الدين الشاذلى تعارضون هذا الاتحاد، وسوف أنقل خلاصة رأيكم هذا إلى الاجتماع السياسى المهم الذى سوف أذهب الآن لحضوره».

(٦)

وبعد هذه التفصيلات الكثيرة فيما يتعلق بموقفه فى هذا الاجتماع يحرص صاحب هذه المذكرات على أن يوضح بالتحديد موقف الفريق أول محمد أحمد صادق رئيس الأركان فى ذلك اليوم وكأنه يريد أن ينبه السادات ـ بعد فوات الأوان وعلانية ـ إلى أن هذا الذى عينه وزيراً لم يكن مخلصا له على نحو ما كان هو ـ أى الشاذلى ـ مخلصاً تماما :

« وفى هذه اللحظة تدخل العضو نفسه الذى هاجمنى وقال "إننا لم نسمع رأى السيد رئيس الأركان، ونود أن نعرف رأيه قبل أن ننصرف من هذا المكان" نظر الوزير إلى الفريق محمد أحمد صادق وطلب إليه أن يبدى رأيه .

«تكلم الفريق محمد أحمد صادق بحذر شديد، إن طبيعة الشك التى تولدت عند الفريق محمد أحمد صادق عندما كان مديراً للمخابرات الحربية قد لازمته عندما أصبح رئيسا للأركان كما ظلت تلازمه وهو وزير للحربية».

[هكذا يعقب الشاذلى دون أدنى مبرر من تعجل التصريح بهذا الرأى فى شخص قائده وغريمه] .

« قال الفريق محمد أحمد صادق : « إني قلق من نقطتين رئيسيتين : النقطة الأولى هي قيام الاتحاد السوفيتي بتأييد هذا الاتحاد وهذا عمل غير منطقي يثير الشكوك ، والنقطة الثانية هي انضمام سوريا إلى الاتحاد بعد التجربة المريرة التي مررنا بها في عام ١٩٥٨ ثم انفصمت عراها في ١٩٦١ .ولولا هاتان النقطتان لكنت من المؤيدين لهذا الاتحاد»، فرد عليه العضو نفسه الذي طلب منه أن يبدي رأيه قائلا :

« إننا نريد إجابة صريحة بنعم أو بلا على الاتحاد في صورته المعروضة».

« فرد الفريق محمد أحمد صادق: إنه يعارض الاتحاد ».

ونلاحظ أن الشاذلي حريص على ألا يذكر اسم هذا العضو ، ولست أدري لماذا؟

« وهكذا انتهت المناقشات بأن أصبح ١٥ عضواً في المجلس الأعلى يعارضون الاتحاد وعضو واحد فقط هو الذي يؤيده ، وهو أنا ، علماً بأني لم أكن عضواً دائماً في المجلس » .

«عدت إلى البحر الأحمر يوم ١٢ مايو ١٩٧١، ولكن الأحداث بدأت تتحرك بسرعة مذهلة، ففي يوم ١٣ مايو أعلن عن استقالة الغالبية العظمى من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي، وكذلك عدد من الوزراء بما فيهم وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة، وتبع ذلك أيضاً استقالة عدد من أعضاء اللجنة المركزية، وبدا الموقف وكأنه انهيار سياسي ».

«وفي ١٥ مايو قام الرئيس أنور السادات بانقلاب عسكري ضد خصومه السياسيين واشترك في هذا الانقلاب كل من اللواء الليثي ناصف قائد الحرس الجمهوري، والفريق محمد أحمد صادق رئيس أركان حرب القوات المسلحة، وكان الرجل الثالث من رجال الانقلاب هو السيد ممدوح سالم وهو ضابط بوليس قضى معظم خدمته في المباحث العامة وكان آخر منصب شغله قبل الاشتراك في انقلاب الرئيس السادات هو محافظ الاسكندرية، قام اللواء الليثي ناصف قائد الحرس الجمهوري وتحت قيادته لواء مدرع ولواء مشاة بالدور الرئيسي في الانقلاب بينما لعب الفريق محمد أحمد صادق رئيس الأركان دور المؤيد للانقلاب ».

« أما السيد ممدوح سالم فكانت مسئوليته تنحصر فى السيطرة على المباحث السرية والبوليس ، وتجميع المعلومات عن خصوم السادات السياسيين(!!) ».

(٧)

إلى هنا تنتهى رواية الشاذلى التى يلخص بها ـ من وجهة نظره الجديدة ـ حركة التصحيح التى كان هو (ربما دون أن يعلم) قطباً من أقطابها، فإذا به يتنصل ويحاول أن يشمت فى زملائه الذين شاركوه مجدها مع أن من حقه أن يفخر بالدور الذى أداه فى هذه الحركة، ولكنه كما نرى يعبر عن رأيه الآن فى وصفها فيلجأ إلى تعبير الانقلاب، وهو يصف الانقلاب ببساطة شديدة وسطحية ظالمة لمصطلح الانقلاب، وبودى أن أسأل أى قائد عسكرى: هل رأيت تسطيحاً للانقلاب العسكرى أكثر من هذا التسطيح الذى تحدث به صاحب هذه المذكرات فى الفقرة التى نقلناها لتونا ؟ .

❑

وبعد هذا التسطيح المخل يطرح الفريق الشاذلى بعض أسئلة يظن أنه يحاول بها أن يثير الانتباه إلى وجود كثير من الأسرار حول انقلاب الرئيس السادات (كما يسميه)، فهو يلفت نظرنا إلى صمت ١٤ قائداً عسكرياً اشتركوا فى التصويت مع الوزير يوم ١٨ أبريل وهو ما يعتبره الفريق الشاذلى تصويتا ضد رئيس الجمهورية(!!)

«...... مازال هناك الكثير من الأسرار حول انقلاب الرئيس أنور السادات فى ١٥مايو كيف تم ؟ لماذا وكيف سكت ١٤ قائداً عسكريا اشتركوا مع وزير الحربية فى التصويت يوم ١٨ أبريل ضد مشروع الاتحاد الذى كان فى الحقيقة تصويتاً ضد رئيس الجمهورية».

ثم يظهر الشاذلى ـ دون مناسبة ـ بعض الشماتة فى الفريق صادق والفريق الليثى ناصف وممدوح سالم دون أن يشمت فى نفسه هو، وقد كان - حسب ما يرويه - أكثر منهم تأييدا ومؤازرة للسادات:

« لقد قام الرئيس أنور السادات بالتخلص من الفريق محمد أحمد صادق فى أكتوبر ١٩٧٢. وهو الآن فى مصر لا يستطيع أن يغادرها ولا يستطيع أن يتكلم. أما الفريق الليثى ناصف فقد مات فى حادث غامض فى لندن ٣٠ أغسطس ١٩٧٣، أما السيد ممدوح سالم وهو الآن الأقل خطراً لأنه لا يملك القوة العسكرية التى تشكل خطراً على النظام فقد عين وزيراً للداخلية ثم بعد ذلك رئيساً للوزارة، ثم لفظه الرئيس أنور السادات بعد أن حقق أهدافه منه، وكان ذلك فى أوائل أكتوبر ١٩٧٨، وبذلك تم التخلص نهائياً من كل من عاونوه فى انقلاب عام ١٩٧١ ».

(٨)

ها هى ثورة التصحيح قد تمت، وأصبح الفريق أول صادق وزيراً وقائداً عاماً، وأصبح الشاذلى رئيسا للأركان، فهل كان من المتوقع أن تستقر الأمور؟

يبدو أنه كان من الطبيعى - تبعا للشواهد والخلفيات - أن يصطرع الوزير الجديد (صادق) ورئيس الأركان الجديد (الشاذلى)، وهو ما حدث بالفعل، وكان المنطق يفترض أن رئيس الأركان الجديد قد يحل محل الوزير فى أول تغيير قادم من تغييرات السادات المتكررة والسريعة الإيقاع، ولكن القدر لا يداوم اللعب لصالح فرد واحد..

وهكذا فإنه بعد سبعة عشر شهرا استدعى السادات رئيس الأركان لينهى إليه أنه أقال الوزير.. وليخبره فى الوقت نفسه بأنه اختار وزيرا جديدا للحربية كان لسوء حظ الشاذلى هو الفريق أحمد إسماعيل الذى احتك به الشاذلى نفسه فى فترة سابقة من شبابهما.. ولم يكن خلافهما قد وصل أبدا إلى مرحلة أنهما خصمان لدودان كما تحب بعض الأقلام أن تصور الموقف، فقد كانت الفجوة بينهما كبيرة بحيث لم يكونا أبدا فى موقعين متوازيين أو متكافئين، وفضلا عن هذا فإنهما لم يخدما بعد خلافهما المبكر فى الكونغو فى سلاح واحد أو مكان واحد يتيح لخلافهما أن يظهر أو يتفاقم.

ولهـذا يرى القارئ أنـى أميل بـكل قوة إلى أن أحـصر الـتعبيـر عن علاقة أحـمد إسماعيل والشاذلى فيما بين أكتوبر عام ١٩٧٢ وأكتوبر عام ١٩٧٣ فى إطار أنهما كانا متعاونين إلى أقـصى ما يمكنهما، على الرغم من وجـود مرارة خلاف مبكر أو ذكرى خلاف مـبكر مـضى علـيه أكثر من عشر سـنوات، حيـن كانا لا يـزالان فى نهـايات الشباب.

بل إنى أستطيع أن أذهب إلى ماهو أبعد مـن ذلك، فأزعم أن علاقة الرجلين كانت أفضل بكثير جدا من العلاقات السابـقة، سواء فى ذلك علاقة صادق (كوزير) بسعد الشاذلى (كرئيس أركان)، أو علاقة محمد فوزى (كوزير) بصادق (كرئيس أركان).

ولست فـى حاجة إلى أن أستـهلك وقت القارئ فـى تحليلات نفـسية واجتمـاعية وسيـاسية، ولكـنى سأكتـفى فى تـأييد وجهـة نظرى بـالإشارة إلى وجهـة نظر المشير الجمسى وهـو الرجل الثالث يـومها حين يؤكـد (فى مذكراته) أن العـمل الجاد من أجل المعركة كان يستغرق وقت الرجلين بحيـث لم يظهر خلافهما أبدا على الـسطح، ويجد القارئ فى البـاب الأول من هذا الكتاب الذى بين أيدينا نـص شهادة الجمسى فيمـا يتعلـق بهذه الجزئـية، وهو نص صـريح وقاطع وصـادق، ولا يمثل أى لـغو أو تأويل.

(٩)

ثم كـانت الحرب المجـيدة يوم الـسادس من أكتـوبر، وقد شـارك فى المجد سـعد الشاذلى كمـا شارك السادات وأحمد إسماعـيل والجمسى وغيرهم مـن قادتنا الأفذاذ وشهـدائنـا الأبرار، وحـدث ما حـدث من خلاف بـين الـسادات والـشاذلـى سوف نتعرض لـه من وجهة نظر الـشاذلى نفسه بـالتفصيل ونـحن نقرأ هذه المذكـرات بعد قليل، ولـم يكن هناك بد من أن يترك الشاذلـى موقعه المتقدم فى القوات المسلحة، وقد نال موقعا يليق بـه وبماضيه العسكرى وعين سفيرا ممتازا فى لـندن، ولكنه مع ذلك لـم يكن سعيدا ولا راضيا وإن احتفظ بغضبه بينه وبين نفسه.

وفيما بعد شهور قليلة بدأ الشاذلى سلسلة من المبادرات (أو التصرفات) الفردية التـى يمكـن وصفهـا بأنهـا تخرج عن حـدود الالتزام، ولأنـه كان قد أصبح بحـكم

المنصب تابعا لأول مرة فى حياته لوزير آخر غير عسكرى، هو وزير الخارجية إسماعيل فهمى فقد نال الشاذلى لوم وزيره الجديد ذى النجم الصاعد والساطع فى ذلك الوقت.

وهكذا لم يمض وقت طويل حتى كان الشاذلى معرضا للوم (الرسمى والدبلوماسى) بسبب تصرفات ظنها قابلة لأن تصنف فى إطار ما يمكن التغاضى عنه، لكنه واجه اللوم.

وفيما بعد هذا فإن صفة « المقاتل » فى سعد الشاذلى غلبت صفة العسكرى «الملتزم» وهكذا آثر الشاذلى أن يُصعد من خلافه أو من صدامه مع النظام وأن يصل بالأمور إلى الحد الذى جعله [بينما كان لا يزال سفيراً لمصر فى البرتغال] يعقد مؤتمراً لمهاجمة الرئيس عندما قدر هو وبمفرده أن الرئيس قد ارتكب أخطاء سياسية كفيلة فى نظره باضعاف موقفه كرئيس، ويبدو أن هذا التقدير لم يكن ـ لسوء حظ الشاذلى ـ صحيحا، ثم إذا بالشاذلى ينشر هذه المذكرات بكل ما فيها من هجوم مبرر وغير مبرر على السادات ونظامه، بينما كان السادات فى أقوى لحظات الصعود إلى المجد، بل وقد أضاف إلى مجده كقائد حربى ممتاز ومحنك مجدا آخر كقائد للسلام وأصبح العالم كله مشدوها ومندهشا بهذا البطل الذى استطاع أن يتسنم فى أقل من خمس سنوات قمتى الحرب والسلام معا بينما الشاذلى من خارج وطنه يحاول أن ينقص بكل وسيلة من قدر السادات.

وقد واجه الشاذلى بسبب نشره كثيراً مما نشر من أسرار عسكرية فى هذه المذكرات أحكاما عسكرية صدرت عن قضاء عسكرى ملتزم بالقانون العسكرى الذى يضمن لنا جميعا العيش فى وطن آمن منتصر.

(١٠)

وبحكم الموقف الذى اختاره صاحب هذه المذكرات لنفسه بالهجوم على النظام المصرى فى عهد السادات على مدى صفحات هذا الكتاب ، فقد اضطر نفسه إلى أن يبرر للقارئ قبوله العمل فى وظائف رفيعة يتشرف الإنسان بالعمل فيها مهما كان

رئيسه، ولكن الشاذلى فى معرض هجاء السادات على طول الخط اضطر نفسه إلى أن يبرر قبوله العمل تحت رئاسته وكأن هذا جرم، ولست أدرى ما الذى جعل الشاذلى يفعل ذلك، ولست أدرى هل لم ينتبه الفريق الشاذلى أنه بهذا يكاد يجرم كل المصريين الذين قبلوا برئاسة السادات، ألم ينتبه إلى أن معنى كلامه أنه يدين نفسه مرة واثنتين وثلاثاً وهو الذى عمل تحت قيادة السادات مرة واثنتين وثلاثاً.

نحن نقرأ ما يرويه فنعجب ماشاء الله أن نعجب من الأسانيد التى يقدمها كأنها مبررات حين يتحدث ـ على سبيل المثال ـ عن قبوله العمل سفيراً لمصر فى لندن ، كما انسحب هذا الاضطرار ـ دون أدنى مبرر ـ على أن يبرر الشاذلى فى هذه المذكرات قبوله العمل رئيسا للأركان فى عهدى المشير أحمد إسماعيل على والفريق أول محمد أحمد صادق ، وسوف نطالع مع القارئ الفقرات التى تناول بها الشاذلى فى مذكراته هذه المواقف من وجهة نظره «الجديدة » ، وسنشعر بالأسى (ولا أقول أننا نشعر بأشياء أخرى يحسن التجاوز عن تسميتها) ولو أن الشاذلى نظر إلى نفسه كبشر يجوز عليه أن يفرح بما أوتى حين يؤتى ما يؤتى ما كان قد اضطر نفسه إلى هذه المواقف التى يصطنعها اصطناعا بل ويلجأ إلى استنطاق الشخصيات الأخرى بما لم تقله فى الغالب حتى تستقيم روايته .

وهو على سبيل المثال يتحدث عن أحد الحوارات التى دارت بينه وبين الرئيس حسنى مبارك (قائد القوات الجوية فى ذلك الوقت) وهو يحاول إقناعه بقبول عرض الرئيس السادات بالعمل سفيراً فى لندن بينما هو يمانع فى القبول ونراه يصور الأمر على غير المعهود فى مثل هذه الحوارات ، وهذه إحدى فقراته :

«بعد حوالى ١٥ دقيقة من مغادرة بورشجريف منزلى، رن جرس الهاتف، كان المتحدث هو اللواء حسنى مبارك، قال لى إنه يريد أن يقابلنى لأمر مهم. لم أكن أعرف إذا كان قد علم بخبر إقالتى أم لا، فحاولت أن أؤجل المقابلة إلى الغد على اعتبار أنه إذا لم يكن يعرف الآن فسوف يعرف غداً وينتهى الموضوع، ولكنه أصر على المقابلة قلت له «لا داعى لهذه المقابلة حيث إنى لم أعد رئيس أركان حرب القوات المسلحة» فأجاب «أنا أعرف ذلك ولذلك أريد أن أقابلك. إنى أحمل رسالة لك من السيد الرئيس»، فأجبت «أهلاً وسهلاً».

«وفى حوالى الساعة ٢٢٣٠ وصل حسنى مبارك. كان ملخص رسالة الرئيس السادات ما يلى:

أ ـ أن الرئيس يقدر تماماً ما قمت به من أعمال فى خدمة القوات المسلحة وقت السلم والحرب.

ب ـ أن الخلافات المستمرة بينك وبين الوزير قد تفاقمت وقد أصبح من الخطورة أن تستمر بهذا الشكل.

جـ ـ أن تعيينك سفيراً لا يعنى تنزيلاً من درجتك فسوف تستمر بدرجة وزير وتنال راتب ومرتبات وبدل تمثيل الوزير.

د ـ أن الرئيس ينوى إرسالك سفيراً إلى لندن، وهو أسمى منصب دبلوماسى يطمع به إنسان.

هـ ـ ولكى يؤكد الرئيس أن هذا التعيين لا يعنى أى تنزيل من مقامك فإنه يرقيك إلى رتبة فريق أول.

و ـ وإن الرئيس يتعشم أن تقبل هذا المنصب».

«كانت خلاصة أقوالى لحسنى مبارك ما يلى:

« لو أن الرئيس استدعانى وقال لى الكلام لقبلت ، ولكن أن يكلف أحمد إسماعيل ـ وهو يعلم جيداً ما بينى وبينه ـ بإبلاغى الخبر وبالصورة التى قالها، فإن هذا يعنى أن الرئيس يصدق ما يقوله المشير أحمد إسماعيل ويؤيد موقفه. ولذلك فإنى أرفض مرة أخرى قبول العرض» ثم كررت على مسامعه ما سبق أن قلته لأحمد إسماعيل قبل ساعات قليلة «إذا كان الرئيس يعرض على هذا المنصب مكافأة لى فأرجو ابلاغه شكرى واعتذارى عن قبول المنصب، وإذا كان هذا المنصب عقابا لى فلنضع النقاط على الحروف ولنناقش هذا الموضوع بطريقة علنية. لن أقبل هذا المنصب ولن يستطيع أحد أن يرغمنى على قبوله».

ورغم كل هذه الحماسة فى التعبير عن الرفض فقد قبل الشاذلى فيما بعد هذا المنصب وما هو أقل منه أيضا!! ولكن من حق القارىء أن ننقل له الفقرة التى يردف بها الشاذلى فقرته التى انتهينا لتونا من قراءتها، وستعجب من أنه يتساءل كثيراً بينما هو الذى وضع القيادة فى هذا الموقف:

«غادر حسنى مبارك منزلى بعد منتصف الليل دون أن يستطيع اقناعى بقبول المنصب وفى صباح يوم ١٣ ديسمبر ظهرت صحف الصباح وفيها نبأ تعيين الجمسى رئيسا للأركان دون أى ذكر لمصير الفريق سعد الدين الشاذلى. هل أقيل؟ هل استقال؟ هل عين سفيراً ؟ هل مات؟ لاشىء على الاطلاق.

(١١)

ثم يتحدث الشاذلى فى فقرة مطولة عن تفاصيل لقائه بالسادات قبل سفره إلى لندن للعمل سفيراً لبلاده فيها ، وهو اللقاء الذى أقنعه فيه الرئيس بقبول منصب السفير المصرى فى لندن نظرا لقيمة المنصب من ناحية، ولحاجة الوطن إلى رجل ذى خبرة عسكرية فى هذا المنصب من ناحية أخرى:

«كان حديث الرئيس ظريفاً طيباً، وأخذ يسألنى عن أحوال زوجتى والعائلة.. الخ. ثم فاتحنى بالموضوع الرئيسى. بدأ الرئيس حديثه بنبرة عتاب ولكنه من نوع العتاب الضاحك الباسم فقال: «لا لا لا أنا زعلان منك إزاى تعمل كده؟ أنت اتجننت؟ ابعث لك حسنى مبارك برسالة منى فترفض الرسالة. أنا لما قال لى حسنى أنك رفضت، قلت أبعت أجيبك واكلمك بنفسى لكن حسنى قال لى بلاش دلوقت. ده مصمم وراكب دماغه. قلت طيب بعدين» قلت له: «سيادة الرئيس. أنا لست منزعجاً لأننى أترك القوات المسلحة. إن كل ضابط يجب عليه أن يترك القوات المسلحة فى يوم ما ليخلى الطريق لغيره وهذه هى سنة الحياة، ولكن ما ضايقنى هو الأسلوب الذى أبلغتنى به هذا القرار. سيادتك تعلم جيداً ما بينى وبين أحمد إسماعيل، ومع ذلك طلبت من أحمد إسماعيل أن يقوم بابلاغى بهذا القرار».

قال الرئيس: «أنا اعرف ما بينك وبين أحمد إسماعيل وعلشان كده لما أبلغنى أحمد إسماعيل بأنك رفضت المنصب وقال لى الكلام الذى قلته له، اعتقدت أن أحمد إسماعيل يبالغ فقررت أن أرسل لك حسنى مبارك فرفضت أيضاً. وعندما قلت أحضرك أمامى وأبلغك بنفسى، حسنى قال لى بلاش دلوقت»

«استرسل الرئيس فـي حديثه فأثنى على وأفاض فى ذلك كثيراً وقال إننى مازلت موضع ثقته وإن كل ما حدث هو أن ينقلنى من مجال عمل إلى مجال آخر».

«إن أول ما اضطره إلى ذلك هو الخلاف الشديد الـذى يسود العلاقات بينى وبين المشير أحمد إسماعيل. وحكى لى كيف ولماذا أعفى الدكتور محمود فوزى من رئاسة الوزراء فقال : «كان فوزى يشتكى لى كل يوم فيقول لى الوزير فلان والوزير فلان ما بيسمعوش كلامه » أنا مش فاضى علشان أعمل قاضى بين كبار الموظفين .

« واستطرد بعد ذلـك : و«فيما يتعلق بك أنت وأحمد إسـماعيل كان لازم واحد منكم يمشى، وأنا فكرت ووجدت من الأفضل أنك أنت اللى تمشى وعرضت عليك أفضل المنـاصب عندنا. وأنا اخـترت لك لندن ليـس لمركزها الأدبى فحـسب بل لأنى محتاج لأن يكون لنـا رجل ذو خبرة عسكرية فى لندن. إننا علـى اتصال الآن مع ألمانيا الغربية وستـقوم ألمانيا بإمدادنا بأسلحـة متطورة ومتقدمة. وإن سفيرنـا فى ألمانيا رجل مدنى اسمه محمد إبـراهيم كامل كان معى فى السجن وأنا عينـته فى الخارجية، وبعد ذلك هو الآن سفير فى ألمانيا، إنما طبعاً لا يفهم فى الـشؤون العسكرية، ولايستطيع أن يتابـع عمليـات المباحثـات والعقود الـعسكريـة، وأنا أهدف إلى أنـك من لندن تـقوم برحلات مستمرة إلى ألمانيا للإشراف على هذا الموضوع. إن وظيفتك كسفير فى لندن ستكون مـوضوعاً ثانوياً بالنـسبة للوظيفة الأولـى وهى تسليح الجيش المـصرى. وليس لدينا من هو أفضل منك للقيام بهذه المهمة».

وأفاض فى حديثه ... حتـى اعتبرت أن ما قاله هو ترضية كافيـة وأن منصب سفير مصر فـى لندن هو امتـداد لمسؤوليتـى فى خدمة القـوات المسلحة المـصرية وتقويـتها وقبلت المـنصب». «انتقلـنا بعد ذلك إلى الحـديث عن العلاقات المـصرية البريطـانية والمصريين الـذين يعيشون فى المـملكة المتحـدة ومواضيع أخرى. وكانت الـساعة قد بلغت الواحدة والنصف بعد الظهر عندما غادرت استراحة الرئيس فى أسوان».

هكذا نفهم من حـديث الفريق الشاذلى أنه ذهب إلى منـصبه فى لندن وهو راض عن تصرف الرئيس الـسادات معه، وربما وعده السادات بشىء لم يفـصح هو لنا عنه فى هذه المذكرات، لكنـه على كل الأحوال توجه إلى منصبه وبقـى فيه بعض الوقت،

بل وقبل النقل منه إلى منصب آخر فى بلد أكثر هدوءاً وأقل عملاً هو البرتغال حين لا يكون مطلوباً من السفير المصرى هناك أكثر من أيام عمل معدودة طوال العام.

ومع هذا فإن الشاذلى وقد أصبح سفيراً ممثلا لبلاده يدخل فى حلقة غريبة من الادلاء بتصريحات تسبب بلبلة كثيرة للنظام الذى يمثله، ويصل به الأمر فى وقت من الأوقات إلى أن يعقد مؤتمراً صحفياً لينهى علاقته بالنظام، ثم ينشر مذكراته، وسنرى ـ بعد قليل ـ أنه هو نفسه يعترف بالهدف من هذه المذكرات فى إطار الخط الذى آثر لنفسه أن يمضى فيه.

(١٢)

ويصل الأمر بالشاذلى فى بداية مقدمة كتابه أن يجعل من تكذيب السادات أحد هدفين له من كتابة المذكرات، بالإضافة إلى هدف آخر هو إعطاء صورة حقيقية للأعمال المجيدة والمشرفة التى قام بها الجندى المصرى، ويبدو أن هناك هدفاً أهم من هذين الهدفين لم يشر إليه الشاذلى على الرغم من أنه يستحق الكتابة ومن أنه يستحق الإشارة إليه كسبب للكتابة، وهو الحديث عن دور الشاذلى نفسه فى صناعة هذا النصر والتخطيط له، ومع أن هذا وارد ومنطقى ومفهوم بالسليقة وبالبديهة وبالفطرة فإن الإشارة إليه فى حد ذاتها ترفع من قيمة الصدق فى المذكرات وتبرر أيضاً كثرة الأنا وتاء الفاعل ونون المتكلم فيها، وهذا حق طبيعى للشاذلى، لكنه يفضل أن يبدو وكأنه لا يستعمله:

«عندما قررت أن أبدأ فى كتابة مذكراتى فى أكتوبر ١٩٧٦ ـ أى بعد ثلاث سنوات من حرب أكتوبر ١٩٧٣ ـ لم يكن هدفى فقط هو كشف أكاذيب السادات التى عمد إلى تأليفها جزافاً بعد أن وضعت الحرب أوزارها، بل كان هدفى الأول هو إعطاء صورة حقيقية للأعمال المجيدة والمشرفة التى قام بها الجندى المصرى فى هذه الحرب».

❑

ويصل الشاذلى أيضاً فى مقدمته لكتابه إلى أن يشير إلى أن السادات ورجاله

عجزوا عن أن يقدروا الحرب وأن يقدموها للقراء، ومن المؤسف أن يظن الشاذلى صواب هذا الرأى، ذلك أن قادة القوات المسلحة الباقين فى الخدمة كانوا لا يزالون يحسون أن الحرب لم تنته بعد، ولهذا فلم يكن ممكناً ولا جائزاً فى تصورهم أن يكتبوا أسرارها وتفصيلاتها على نحو ما فعل الشاذلى، أما الشاذلى فإنه وقد ابتعد عن ميدان الحرب إلى لندن ثم البرتغال فقد أصبح قادراً على التأمل فيما مضى وفيما حدث وفيما ابتعد عنه، ولو أن أحداً من المناظرين للشاذلى ذهب إلى مثل هذا الموقع المريح البعيد عن أجواء الحرب، لكانت أمامه الفرصة لأن يسجل ما سجله الشاذلى، وإن كنت أشك فى أن أحداً غيره كان سيسارع بنشر كل هذا الذى نشره الشاذلى فى هذا الوقت المبكر جداً حين لم يكن قد مضى على الحرب سوى سبع سنوات أو أقل:

«إن من المؤسف حقاً أن السادات ورجاله لم يستطيعوا تقديم هذه الحرب فى الإطار الذى تستحقه كعمل من أروع الأعمال العسكرية فى العالم. لقد عمدوا إلى الكلمات الإنشائية والبلاغية دون الاستعانة بلغة الأرقام والتحليل العلمى للعوامل المحيطة به».

(١٣)

ويصل الشاذلى فى تصوير الأمر إلى أن يتصور أن كل حديث عن المعركة لم يكن يهدف إلا التقليل من دوره هو شخصياً، وتسيطر هذه الفكرة على الشاذلى حتى يظن أن هذا الهدف حال بين السادات (والدولة) وبين الحديث عن الجهود التى بذلت فى إعداد وتجهيز القوات المسلحة للحرب!! إلى هذا الحد تصل الأمور بهذا الرجل فى التعبير عن تصوره هو لقيمة نفسه وقيمة جهده:

«لقد انحصر همهم فى إخفاء وطمس دور الفريق سعد الدين الشاذلى الذى كان يشغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية لمدة امتدت من مايو ٧١ (٢٩ شهراً قبل بداية الحرب) وحتى ١٢ ديسمبر ٧٣ (سبعة أسابيع بعد وقف إطلاق النار)، ولم يعلم السادات أنه بهذا الحقد على الفريق سعد الدين الشاذلى قد أساء إساءة بالغة للقوات المسلحة المصرية. فلكى يتحاشى هو ورجاله ذكر دور الفريق

الشاذلى لم يستطيعوا أن يذكروا كيف تم إعداد القوات المسلحة وتجهيزها لهذه الحرب، ولم يستطيعوا أن يذكروا كيف قامت القوات المسلحة بعبور قناة السويس».

ثم يذكر الشاذلى نقاطاً أخرى تبدو مقبولة منه فى هذا السياق وإن كانت كثير من الكتابات التاريخية اللاحقة قد أبانت عن خطأ وجهة نظره، وعجزه هو نفسه عن الدفاع عنها:

«ولم يستطيعوا أن يذكروا كيف وقع أول تصادم بين الفريق الشاذلى والرئيس السادات يوم ١٦ أكتوبر، لخلاف فى الرأى حول القضاء على العدو الذى اخترق فى منطقة الدفرسوار. ولم يستطيعوا أن يذكروا كيف تطور القتال غرب القناة يوماً بعد يوم، وكيف كانت آراء العسكريين تُنقض من قبل السياسيين».

ويبلور الشاذلى كل هذه الخطبة (المقدمة) فى تساؤلات سريعة ترد على ظنونه المتضخمة وكأنها حقائق ويقول:

«لقد اعتقد السادات ورجاله أنهم يستطيعون أن يحكوا قصة حرب أكتوبر، وألا يكون نصيب رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية سوى أربعة أسطر يلقون فيها عليه باللوم بصفته المسئول عن الثغرة! ما أتفه هذا التفكير. أو يظن هؤلاء أنهم يستطيعون أن يثبتوا ما يقولون؟ أو يظن هؤلاء أنه ليس لدينا الوثائق التى تثبت أنهم كاذبون؟ ويل للكاذبين الذين يقولون الكذب وهم يعلمون».

(١٤)

ولا يجد الشاذلى حرجاً فى أن يصور نشر مذكراته على أنه معركة وأنه اختار لها التوقيت المناسب، وهو يروى كيف جهز لهذه المعركة وكيف اختار هذا التوقيت فيقول:

«لقد انتهيت من تسجيل مذكراتى فى أكتوبر ١٩٧٧ وأخذت أنتظر الوقت المناسب الذى أقوم فيه بنشرها. إن انتخاب الوقت المناسب هو عامل مهم فى كسب أية معركة، سواء كانت هذه المعركة سياسية أم عسكرية. إن مهاجمة رئيس نظام أوتوقراطى وفضح أكاذيبه وخداعه ليس بالأمر السهل، إنه يحتاج إلى الوثائق التى لا

يتطرق إليها الشك، ويحتاج إلى شهود دوليين، وإلى مناخ إعلامي مناسب. وبحلول أكتوبر ١٩٧٧ كان قد تم إعداد كل شيء ولم يبق سوى انتظار المناخ الإعلامي المناسب».

❑

ثم يصور الشاذلي ثلاثة أخطاء ظن هو أن السادات قد وقع فيها وأدت إلى خفض شعبيته إلى الحضيض على نحو ما يصور الشاذلي، وهو يرى أن زيارة القدس كانت مشئومة أعطى فيها السادات الكثير دون أن يأخذ شيئاً، كما يعتبر نشر السادات لمذكراته في أبريل ١٩٧٨ بمثابة عمل لا أخلاقي، مع أن السادات نفسه نشر مذكراته أكثر من مرة من قبل هذا، أما الخطأ الثالث فمجموعة القوانين التي سنها نظام السادات في مايو ١٩٧٨:

«وفيما بين أكتوبر ١٩٧٧ ومايو ١٩٧٨ ارتكب السادات ثلاثة أخطاء كبيرة تسببت ـ بمجموعها ـ في خفض شعبيته في مصر والعالم العربي إلى الحضيض. ففي نوفمبر ١٩٧٧ قام بزيارته المشئومة إلى القدس حيث أعطى الكثير لإسرائيل دون أن يحصل على شيء لقاء ما أعطى. وفي أبريل ١٩٧٨ نشر مذكراته. لقد كان نشر هذا الكتاب عملاً لا أخلاقياً استغل فيه السادات منصبه كرئيس دولة وحاكم بأمره يملك وسائل الإعلام، يعطي ويمنح، يرقي ويفصل، ينصر ويقهر، ليختلق الأكاذيب على كل من يخالفه في الرأي. وفي مايو ١٩٧٨ ارتكب الخطأ الثالث بإجراءاته التعسفية لإسكات كل رأي حر في البلاد. لقد كنت أراقب السادات وهو يقوم بتصرفاته الشاذة بألم وحسرة، بصبر وتحفز، في انتظار الوقت المناسب».

❑

عند هذا الحد يصل الشاذلي إلى أن يصور لنا أن المناخ المطلوب له أو المناخ الذي كان ينتظره لكي يبدأ معركته قد اكتمل، وها هو يبدأ المعركة في التاسع عشر من يونيو ١٩٧٨ من أحد المكاتب الحكومية المصرية وهو مكتبه كسفير لمصر في البرتغال، ويروي الشاذلي كيف أنه بدأ هذا الهجوم من مكتبه كسفير دون أن يعبأ بفقدان أبهة المنصب التي كان يحس بها في ذلك الوقت، وطيلة ما يقرب من أربع سنوات بعد خروجه من منصب رئيس الأركان:

«وبحلول شهر يونيو ١٩٧٨ وجدت أن الصمت بعد ذلك قد يكون خيانة لعزة

مصر وشرفها وقواتها المسلحة. وفى يوم ١٩ يونيو ١٩٧٨، ومن مكتبى كسفير لمصر فى البرتغال، هاجمت السادات هجوماً عنيفاً، وقلت كل ما يريد كل مصرى حر أن يقوله. كنت أعلم بأننى أضحى بمنصبى الممتاز من أجل مبادئى وكنت سعيداً بذلك. لقد ظن السادات أن حياة الأبهة التى أعيش فيها كسفير قد تنسينى حبى لمصر، وحبى للكفاح من أجل مصر، لكنه أخطأ فى تقديره هذا خطأ جسيماً. لعل السادات يرى الناس من خلال نفسه، إنه يعتقد أنه يستطيع بالمال والمناصب أن يشترى أى شخص، ولكن هيهات هيهات، فليس الرجال كلهم سواسية».

(١٥)

ومن العجيب أن الناس فى بلادنا قرأوا عن هذه المذكرات أكثر مما قرأوا منها، وقد أصبحت هذه المذكرات بقدرة قادر مصدراً مشاراً إليه ـ بالحق حيناً وبالباطل أحياناً ـ فى كل الهجوم الذى شُنَّ على الجيش المصرى وقيادته السياسية والعسكرية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وما يزال يُشن، ويأتى هذا متسقاً مع العداوة المفترضة بين الشاذلى والنظام، لكن الحقيقة عكس هذا الشائع تماماً، وسنرى هذا بأنفسنا، ونحن نرى من النصوص التى كتبها الفريق الشاذلى فى هذه المذكرات أمراً عجباً، فهو نفسه يعترف بل يفخر بأنه كان يعارض فى أن يتطور هجومنا الأولى الذى كان يستهدف تحقيق العبور والتوقف عند ١٠ ـ ١٥كم شرق القناة، وهو لم يكن يريد أن يضع خططاً أبعد من ذلك، لكن القائد العام [الذى هو المشير أحمد إسماعيل] ينهى إليه ضرورة أن تكون هناك خطة لما هو أبعد من ذلك حتى يقتنع إخواننا السوريون بدخول المعركة معنا، لأنهم لن يوافقوا إذا ما كانت خطتنا ستقتصر على هذا الهدف.

وعلى عادتنا فى مصر وعلى عادة الشاذلى نفسه فى الوصول إلى الحلول الوسطى وعلى نحو ما فعل الشاذلى نفسه من قبل مع الفريق أول محمد أحمد صادق على ما يرويه هو، فقد اهتدى هو وغيره (هنا الضمير: قمنا بتجهيز الخطة الجديدة، وليس: قمت) إلى حل يجيد الشاذلى نفسه تقديمه فى صورة أنه حل تلفيقى، وأن اللفظ فيه مبهم كما سنرى من نصوص الشاذلى حين يقول إن التعبير العسكرى «وقفة تعبوية» يعنى التوقف إلى أن تتغير الظروف وقد تكون عدة أسابيع وقد تكون عدة شهور.

ومن أعجب العجب أن الفريق الشاذلي يتخذ في مذكراته هذا الموقف بصراحة ووضوح ودقة بينما كان الذين كانوا يأخذون صف الجبهة المعارضة للسادات والنظام المصرى فى ذلك الوقت [فى خارج القوات المسلحة وخارج مصر] يصورون سبب خلافه مع السادات على أنه مرتبط باعتراضه على أن الجيش المصرى لم يتقدم بسرعة إلى المضايق بعد أن حقق النجاح الساحق فى الأيام الأولى، وقد كان هذا هو جوهر سؤال حسنين هيكل للمشير أحمد إسماعيل فى الحديث الذى أدلى به المشير لهيكل بعد الحرب ونشر فى الأهرام بصياغة هيكل بالطبع ، واتخذ محتواه وما أوحى به هذا الحديث من وقتها بمثابة وجهة النظر التى يضغط بها على مصر وعلى رئيسها فى حملات اعلامية منظمة كانت لاتكف عن الزعم أن مصر تقاعست أو فرطت فى التقاط نصر متاح ، وكأن الوصول إلى المضائق كان متاحاً ولكن السادات هو الذى تأخر هو [والقائد العام] فى التقاطه، ولو أنه ترك الشاذلى لنفسه ولطموحه لالتقطه بسهولة، ووصل الأمر فى هذا الموضوع إلى حد أن مقدمة الطبعة الأولى من كتاب الشاذلى نفسه الذى بين أيدينا (وهى مقدمة بدون توقيع) تقول:

«لقد كان النصر ملقى أمام أقدامه [أى أقدام السادات] وأقدام الجنود المصريين على رمال سيناء العارية، دون أن يؤذن لهم بالتقاطه. إنه [أى هذا الكتاب الذى هو مذكرات الشاذلى] يسجل الطلاق المأساوى بين بطولة الجندى وبين خيانة القرار السياسى، ويسجل لنا كيفية التفريط بدم آلاف الشهداء الذين ذهبوا لتحرير وطنهم فاستثمر السادات دمهم ليكون شريكاً ذا حقوق شبه متساوية مع العدو الإسرائيلى فى نادى المهمات الأمريكية الخاصة ».

إلى هذا الحد كان الهجوم ـ ولايزال ـ قد وصل على السادات ولكن ها هو الشاذلى نفسه يدلنا هنا فى هذه المذكرات على أنه لم يكن موافقاً على هذا التقدم وتطوير الهجوم، بل إن الخطة قد وضعت بطريقة مبهمة كأنها ترضى (الآخرين) ولا تلزمنا (نحن)، وليس فى حديث الفريق الشاذلى عن هذه النقطة بالذات غموض ولا إبهام ولا مخرج للتأويل، إنما هو حديث صريح واضح .

وعلى الرغم من كل هذا فإن المشير الجمسى فى مذكراته (التى تناولناها فى الباب

الأول من هذا الكتاب) يأخذ على الشاذلى قوله بأنه لم يكن من أنصار تطوير الهجوم ويهمس فى أذنه بقوله إنه مادامت الخطة قد وضعت ونوقشت ووافق عليها فقد أصبح ملتزماً بها..

وهكذا نجد أنفسنا أمام ذروة الدراما والمفارقة في الموقف كله وقد صور للناس على عكس الحقيقة، ونرى الأعذار والدوافع التى دفعت كل صاحب موقف إلى أن تصوغ له الشائعات فى نظر الناس موقفاً آخر:

- فالسادات وأحمد إسماعيل من حرصهما على اشتراك سوريا يعرضان عليها الخطط بعد تطويرها بما يتوافق مع أهداف كبيرة، وقد شرح اللواء جمال حماد ببراعة شديدة ومنطق أخاذ صواب هذه الفكرة فى كتابه «المعارك الحربية على الجبهة المصرية» بما لا يترك مجالاً لأحد للحديث بعد شرحه المستفيض.

- بينما الشاذلى لا يريد أن يشرك نفسه فى مسئولية سياسية كبرى تعجز عنها القوات المسلحة التى يتولى رئاسة أركانها حتى بعد أن وافق على ما وافق عليه من أجل تحقيق الهدف السياسى.

- والجمسى ـ من ناحية ثالثة ـ طموح إلى تطوير الهجوم ولكنه ملتزم مرة بعد أخرى، ملتزم بأن يقول إن الخطة نصت على هذا، وملتزم بأن يطيع رؤساءه حتى لو لم يفهم مبرراتهم أو لم يعرفها، بل إنه يدعو زميله الشاذلى ـ بعد فوات الأوان ـ إلى الالتزام، مع أنه ـ أى الجمسى ـ ينفق من مذكراته صفحات للحديث عن أمانيه التى لم تتحقق فى تطوير الهجوم.

- وبعض إخواننا العرب ـ منا ناحية رابعة ـ للأسف الشديد ينخدعون فى تصورات لا تمت للحقيقة بصلة لأنهم لم يكتووا بما اكتوينا به، ويفضلون كالعهد بنا الصورة الوردية على الصورة الواقعية، ونحن لم نكن حتى ذلك الوقت نملك شجاعة المواجهة الكفيلة بإطلاعهم على كل شيء، لأن الاطلاع نفسه كان يضر بخططنا، وهم ـ مع هذا كله ـ فى رأيى غير مخطئين، فنحن الذين قدناهم بفيروساتنا الإعلامية إلى هذا الحماس كله .

(١٦)

وأظن أن الأوان قد آن لنعرف الحقائق على نحو حقيقى لا أن نعرف الحقائق على نحو تخيلى أو على نحو ما نتمناها أن تكون.. لكن المؤسف له أن "فيروس " تبديل الرؤية ووضع الصورة فى غير إطارها كان يتمتع بمكانة متقدمة ومؤثرة بلبلت لشعوبنا أفكارها منذ ذلك الحين وحتى اليوم، وإن كان التاريخ نفسه بحكم طبائع الأشياء قد تكفل بإضعاف هذا الفيروس وإظهار شروره مع الزمن، ولكن بعد أن كان قد ترك فى جهازنا المعنوى أمراضاً مزمنة.. ولنقرأ نص الشاذلى:

«فى خلال شهر أبريل ١٩٧٣ أخبرنى وزير الحربية بأنه يرغب فى تطوير هجومنا فى الخطة لكى تشمل الاستيلاء على المضايق، فأعدت له ذكر المشكلات المتعلقة بهذا الموضوع، وأنه لم يطرأ أى تغيير على الموقف منذ أن ناقشنا هذه المشكلات معا فى نوفمبر ١٩٧٢، وبعد نقاش طويل أخبرنى بأنه إذا علم السوريون بأن خطتنا هى احتلال ١٠ ـ ١٥ كم شرق القناة، فإنهم لن يوافقوا على دخول الحرب معنا، وأخبرته بأن بإمكاننا أن نقوم بهذه المرحلة وحدنا، وأن نجاحنا سوف يشجع السوريين للانضمام إلينا فى المراحل التالية. لكنه قال: إن هذا الرأى مرفوض سياسياً».

« وبعد نقاش طويل طلب إلىّ تجهيز خطة أخرى تشمل تطوير الهجوم بعد العبور إلى المضايق، وأخبرنى بأن هذه الخطة سوف تعرض على السوريين لإقناعهم بدخول الحرب، لكنها لن تنفذ إلا فى ظل ظروف مناسبة. ثم أضاف قائلاً: «فلنتصور مثلاً أن العدو تحمل خسائر جسيمة فى قواته الجوية ـ وهو عنصر التهديد الأساسى ـ وأنه قرر سحب قواته من سيناء، فهل سنتوقف نحن على مسافة ١٠ ـ ١٥ كم شرق القناة لأنه ليس لدينا خطة لمواجهة مثل هذا الموقف؟»».

❑

وهنا يعلق الشاذلى بفقرات لا أجد فى نفسى الجرأة على وصفها أو التعليق عليها، ولكنى لا أستطيع تجاهلها، وهو يقول:

«لقد كنت أشعر بالاشمئزاز من هذا الأسلوب الذى يتعامل به السياسيون المصريون مع إخواننا السوريين، لكنى لم أكن لأستطيع أن أبوح بذلك للسوريين، وقد

ترددت كثيراً وأنا أكتب مذكراتى هذه هل أحكى هذه القصة أم لا، وبعد صراع عنيف بينى وبين نفسى قررت أن أقولها كلمة حق لوجه الله والوطن. إن الشعوب تتعلم من أخطائها، ومن حق الأجيال العربية القادمة أن تعرف الحقائق مهما كانت هذه الحقائق مخجلة».

«قمنا بتجهيز الخطة الجديدة التى لم تكن إلا الخطة «جرانيت ٢» بعد إجراء بعض التعديلات الطفيفة، وبعد أن تم وضع هذه الخطة دمجت مع «الخطة بدر» التى هى خطة العبور فى خطة واحدة، أصبحنا نطلق على خطة العبور لفظ «المرحلة الأولى» وخطة التطوير لفظ «المرحلة الثانية»، ولكى نعمق الفاصل بين المرحلتين فقد كنا عندما ننتقل من شرح المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية نقول: «وبعد وقفة تعبوية نقوم بالتطوير كذا كذا..».

« إن التعبير العسكرى «وقفة تعبوية» يعنى التوقف إلى أن تتغير الظروف التى أدت إلى هذا التوقف، وقد تكون الوقفة التعبوية عدة أسابيع، وقد تكون عدة شهور أو أكثر. كنا نشرح ونناقش خطة العبور بالتفصيل الدقيق، ثم نمر مروراً سريعاً على المرحلة الثانية، لم أتوقع قط أن يطلب إلينا تنفيذ هذه المرحلة، وكان يشاركنى هذا الشعور قادة الجيوش، ويتظاهر بذلك على الأقل وزير الحربية».

❑

لعلى أكرر هنا أنى لا أجد الشجاعة على التعليق على مثل هذه الفقرة أيضا.

(١٧)

ومن المهم أن ننقل رؤية الشاذلى المعارضة لتطوير الهجوم فى أثناء العمليات الحربية على نحو ما نقلنا رأيه فى معارضة تطوير الهجوم على مستوى الخطط ، وقد أفاض الفريق الشاذلى فى الحديث عن هذه الرؤية فى كتابه، ولكننا نجتزئ للقارئ هذه الفقرة التى يؤكد بها الشاذلى بنفسه وبألفاظه أنه لم يكن أبداً الداعى إلى تطوير الهجوم:

«لقد كثر الكلام وتعددت الآراء حول الأسباب التى منعت المصريين من تطوير هجومهم إلى الشرق فور نجاحهم فى عمليات العبور، وقد انتشرت شائعات كثيرة تقول بأننى كنت من أنصار الاندفاع السريع نحو الشرق سواء يوم ١٤ أكتوبر أو قبل ذلك بكثير. وقد امتنعت القوات المسلحة عن التعليق على هذه النقطة بالتأييد أو بالنفى، سواء على المستوى الإعلامى أو على المستوى العلمى».

«وهكذا بدأت وسائل الإعلام العالمية تؤكد تلك الشائعات. لقد وصفونى بأننى رجل مظلى قوى، عنيد، هجومى، مقدام... إلخ، وإنه لمما يسعدنى أن أستمع إلى هذا المديح ولكننى لا أود أن نربط بين تلك الصفات الجميلة وبين قرار تطوير الحرب ضد الشرق».

وعند هذا الحد يورد الشاذلى بأسلوبه هو معنى نبيلاً أكد عليه السادات فى كل حديث له عن حرب أكتوبر حين كان يقول إنه ليس على استعداد لمحاربة أمريكا، وها هو الشاذلى هو الآخر يؤكد نفس المعنى ويؤديه بألفاظه هو ويقول ما نصه:

....

«إنى على استعداد دائم لأن أضحى بحياتى فى سبيل وطنى، ولكننى لا أستطيع أن أقامر بمستقبل بلادى».

....

«لقد كنت دائماً ضد فكرة تطوير الهجوم نحو الشرق، سواء كان ذلك فى مرحلة التخطيط أو فى مرحلة إدارة العمليات الحربية الكثيرة».

«وقد أبديت رأيى هذا بصراحة تامة أمام كثيرين ممن لا يزالون أحياء يرزقون».

(١٨)

بل إن الشاذلى ـ فى هذا المذكرات ـ يهاجم السادات بكل ضراوة على قراره السياسى بهذا التطوير، ويثبت بكل ما يستطيع أنه لم يكن لتطوير الهجوم أى مبرر سياسى على الإطلاق، ومن حق القارئ أن نستدرك له أنه كان على الشاذلى أن يثبت

لنا أن سوريا لم تطلب هذا الطلب(!!) لا أن يقدم لنا دراساته التى قدمها عام ١٩٧١ ويقول إن هذا الوضع كان لا يزال قائما عام ١٩٧٣، وأنا أفهم أن يقول الشاذلى إنه سأل السوريين بعد المعركة فأجابوه أنهم لم يطلبوا هذا الطلب من السادات، ولكنى لا أفهم أن يقدم هذا الكلام النظرى الذى يقدمه، وهى افتراضات جدلية من السهل نقضها حتى إننا لن نشغل أنفسنا أو القراء بأن ننقضها!

«أما بخصوص ادعاء السادات بأن هجومنا يوم ١٤ أكتوبر كان يهدف إلى تخفيف الضغط عن سوريا، فهو أيضاً إدعاء باطل، الهدف منه هو تسويغ الخطأ الذى ارتكبته القيادة السياسية المصرية، وذلك للأسباب التالية:

١ ـ كان بعد القوات المصرية فى جبهة قناة السويس عن قلب إسرائيل (حوالى ٢٠٠ كيلومتر من أرض سيناء المفتوحة) وكان تفوق القوات الجوية الإسرائيلية تفوقاً ساحقاً يجعل إسرائيل قادرة على احتواء الجبهة المصرية بالقليل من القوات مع حشد الجزء الأكبر من قواتها ضد الجبهة السورية.

وقد حذرت من هذا الموقف فى خلال اجتماعاتى مع الهيئة الاستشارية العسكرية العربية (التى تتكون من رؤساء أركان حرب القوات المسلحة بالدول العربية)، وكذلك خلال اجتماعات مجلس الدفاع المشترك فى دورته الثانية عشرة فى نوفمبر ١٩٧١.

وقد قلت إن الجبهة المصرية لا تستطيع أن تمنع إسرائيل من حسم المعركة ضد الجبهة الشرقية فى خلال أسبوع واحد، وإن ما قلته عام ١٩٧١ كان لا يزال قائماً عام ١٩٧٣ وسوف يستمر طالما كانت سيناء محتلة أو منزوعة السلاح وطالما بقيت القوات الجوية المصرية على ضعفها.

٢ ـ لقد كان أمام الجبهة المصرية ٨ ألوية مدرعة، وقد كانت أكثر من كافية لصد أى هجوم مصرى فى اتجاه الشرق، وبالتالى فإن قيامنا بالهجوم لن يرغم إسرائيل على سحب جزء من قواتها إلى الجبهة المصرية.

٣ ـ لقد استقر الوضع فى الجبهة السورية يوم ١٢ أكتوبر، فقد وصلت العناصر المتقدمة من فرقتين عراقيتين (فرقة مدرعة + فرقة مشاة ميكانيكية) إلى الجبهة السورية واشتركت فى القتال يوم ١١، كذلك دفع الأردن لواءين مدرعين إلى

الجبهة السورية وقد وصل أولهما يوم ١٣ أكتوبر ووصل اللواء الآخر بعد ذلك بأيام، وهكذا فإن موقف الجبهة السورية لم يكن بالصورة التى يحاول السادات أن يصورها لكى يجد لنفسه مخرجاً من تبعات قراره السياسى الخاطئ.

٤ ـ إذا كان دفع الفرقة المدرعة ٢١ والفرقة المدرعة الرابعة قد تم لتخفيف الضغط عن سوريا فلماذا لم تسحب الفرقتان إلى الغرب بعد أن فشل الهجوم وصرف النظر نهائياً عن موضوع تطوير الهجوم نحو الشرق؟».

(١٩)

بعد هذه المناقشة الواضحة التى أثبت فيها الشاذلى بنفسه أنه كان ضد فكرة تطوير الهجوم [سواء فى مرحلة التخطيط أو فى مرحلة الحرب نفسها] فإنى أعتقد أن أكثر موضع فى هذه المذكرات يستدعى اهتمام القارئ هو موقف الشاذلى من الثغرة وأظن أن القارىء للباب الأول من هذا الكتاب قد أحاط علماً بهذا الموضوع من النصوص التى أوردناها للمشير الجمسى والتى أبانت بوضوح عن أن الشاذلى لم يدل برأيه حين اجتمع الرئيس السادات بالقادة فى المركز رقم ١٠ لمناقشة خطة مجابهة الثغرة.

وهذه هى الفقرات التى يروى بها الشاذلى قصة طلبه من الوزير أحمد إسماعيل استدعاء الرئيس السادات لمناقشة الوضع بعد الثغرة، وسنرى مما يرويه الشاذلى ـ أو مما يوحى به إلينا ـ أن السادات كان قد قرر فيما بينه وبين نفسه ومن قبل أن يحضر بل ومن قبل أن تحدث الثغرة، ألا يسحب جنديا واحدا من الشرق إلى الغرب!! .

وسنرى صاحب هذه المذكرات وهو يذكر بصراحة أنه لم يتكلم فى الاجتماع، وأن السادات نفسه لم يدعه إلى الكلام، وأنه هو نفسه ـ على حد روايته هو ـ لم يستجب لهمس وزير شئون رئاسة الجمهورية عبدالفتاح عبدالله محمود له ودعوته له (أو تحريضه له) بإيضاح وجهة نظره أمام الرئيس فى الاجتماع المحدود بالقادة الكبار الذين كانوا جميعا من أنصار الرئيس والوزير فى عدم سحب قواتنا من الشرق.

هكذا ألقى الشاذلى كما أراد بالمسئولية التاريخية على عاتق أنور السادات وقد

نقبلها السادات بالرضا بل وبالقرار الحاسم فى نفس اللحظة (حتى وإن لم يكن القرار مصيبا من وجهة نظر الشاذلى أو غيره)، وإنى أرى هذه الفقرة من كتاب الشاذلى بمثابة أكبر وسام على صدر أنور السادات، وقد أكون مخطئا وقد أكون مبالغا، ولكنى وقد كنت شابا أو صبيا يافعا يوم حدث ما حدث لم أكن لأقبل أبدا من قادتى أن يعود جندى واحد من الشرق مهما يكن من أمر، والآن وقد بلغت من العمر ما بلغت فإن بدنى كله يقشعر لمجرد تصور القبول بفكرة عودة جندى واحد من الشرق بعد كل ما بذلناه من أجل العبور إلى الشرق! .

فضلا عن هذا فإنى أكاد أعتقد الآن بقوة أن وجود القوات الإسرائيلية فى الغرب كان أكبر عامل ساعدنا فى مصر على تحقيق فض الاشتباك حتى وإن لم نكن بحكم عوامل كثيرة واعين لهذا تماما، ولكن حقائق التاريخ علمتنا أنه ينبغى على الإنسان إذا فكر فى عدوه أن يكون تفكيره مواجهاً لنمط تفكير العدو لا لتفكيره هو، وقد كان وجود القوات الإسرائيلية فى الغرب وتحت رحمة قواتنا مزعجا للإسرائيليين أيما إزعاج حتى وإن كان فيما يبدو مزعجا لنا بفضل السياسة المغرضة التى مارسها صحفى كان قريبا من قمة السلطة وكان من الصعب جدا (ولايزال) محاسبته على أخطائه المغرضة!! التى بذلها طيلة أكثر من ربع قرن للتقليل بطرق ملتوية من قيمة نصر عظيم.

وقد كان السادات يصف الثغرة بأنها مسرحية، والحقيقة أنى كنت أود لو استطاع أن يعبر عن بقية المعنى، وهو أن المسرحية شأن كل مسرحية تذاع فى وسائل الإعلام يكون لها أكثر من مخرج وبالإضافة إلى مخرجيها الأصليين فى إسرائيل فقد تولى إخراجها فى مصر ذلك الصحفى، الذى ساءه أن ينتصر قومه على القوى الامبريالية التى كان ولا يزال مبهورا بها حتى ولو أظهر لها العداء أو الانتقاد فى بعض ما يكتب.

(٢٠)

يروى الشاذلى ما حدث من حوار على مستوى القيادة قبل حضور الرئيس السادات وبعد حضوره ، وسنرى أن رواية الشاذلى لاتختلف عما رواه المشير

الجمسى فى مذكراته حتى وإن أراد الشاذلى فى تعليقاته تحميل الأحداث ما لا تحتمله أو الايحاء بما لا توحى به الرواية :

« ... بعد أن فشلت فى إقناع الوزير بوجهة نظرى .أفضيت لبعض مساعدى بقلقى على الموقف وأفضيت لهم بأنه إذا لم نسحب جزءاً من قواتنا من الشرق إلى الغرب فسوف تقع كارثة لا يعلم أبعادها إلا الله ، وهنا اقترح علىَّ اللواء سعيد الماحى قائد المدفعية أن أدعو الرئيس وأشرح الموقف. لم أتحمس أول الأمر لهذا الاقتراح لأنى أعرف وجهة نظر الرئيس أنور السادات منذ الخلاف الذى وقع بينى وبينه فى غرفة العمليات يوم ١٦ أكتوبر (قبل ذلك بثلاثة أيام) ولاعتقادى بأن المشير أحمد إسماعيل وهو رجل عسكرى قبل أن يكون سياسياً، ما كان ليقبل مثل هذا الموقف لولا أنه تحت ضغط سياسى ، ولكن بعد أن فكرت قليلا وجدت أن استدعاء الرئيس أنور السادات وشرح الموقف أمامه سوف يضعه أمام مسئوليته التاريخية».

«وذهبت إلى المشير أحمد إسماعيل فى غرفته وقلت له « إن الموقف خطير ويجب أن يحضر الرئيس للاستماع إلى وجهة نظر القادة " . حاول أن يثنينى عن رأيى وقال إن الوقت متأخر ولا داعى لإزعاج الرئيس الآن . ولكنى أصررت على ضرورة حضور الرئيس إلى المركز ١٠ فوراً. إنها مسئولية تاريخية ويجب أن يستمع الرئيس إلى الموقف العسكرى بأمانة . لم أخرج من عند الوزير إلا بعد أن وعدنى بأنه سيتصل به فوراً » .

« عدت إلى غرفة العمليات وبعد دقائق حضر الوزير وأخطرنى بأنه اتصل بالرئيس وقد وعد بأنه سيحضر فوراً. اتفقت مع الوزير على أن يحضر هذا اللقاء مع الرئيس كل من المشير أحمد إسماعيل، سعد الشاذلى، محمد على فهمى ، حسنى مبارك، عبد الغنى الجمسى. سعيد الماحى. فؤاد نصار، وصل رئيس الجمهورية ومعه المهندس عبد الفتاح عبدالله إلى المركز ١٠ حوالى الساعة ٢٢٣٠ يوم ١٩ أكتوبر، وتوجه فوراً إلى غرفة أحمد إسماعيل حيث بقى معه ما يقرب من ساعة، بينما كنت أنا مجتمعاً مع باقى الأعضاء فى غرفة المؤتمرات الملاصقة لغرفة العمليات نتبادل وجهات النظر حول الموقف» .

« وفى النهاية دخل علينا الرئيس ومعه المشير أحمد إسماعيل والمهندس عبد الفتاح عبدالله. طلب الرئيس الكلمة من المجتمعين واحداً بعد الآخر . وقد قام كل منهم بشرح موقف القوات بأمانة تامة ، وبعد أن استمع إليهم جميعاً لم يطلب منى الكلمة وعلق قائلاً :" لن نقوم بسحب أي جندى من الشرق " لم أتكلم ولم أعلق» .

« غمزنى المهندس عبد الفتاح عبدالله وهمس فى أذنى " قل شيئاً" ولكنى تجاهلت نصيحته. ماذا أتكلم وقد اتخذ الرئيس قراره ولم يسمعنى . إنى أريد أن أسحب ٤ ألوية مدرعة من الشرق وهو يعارض سحب جندى واحد. إنه لم يتخذ هذا القرار عن جهل بل عن معرفة تامة بالموقف. إنه لا يستطيع أن يدعى بعد ذلك كله أنه كان يعتقد أن العدو لديه ٧ دبابات في الغرب . إنه يعرف الحقائق كلها عن الموقف وهذا هو قراره ».

ها نحن قد قرأنا رواية الشاذلى المختصرة بعد ما قرأنا فى الباب الأول رواية الجمسى الأكثر تفصيلا وليس بين الرؤيتين تعارض، كما أنه ليس بين الروايتين ورواية السادات نفسه فى «البحث عن الذات» تعارض، وأظن أننا لا نملك الآن إلا أن نقول فى وصف قرار السادات بعدم سحب القوات من الشرق إنه كان قراراً مصيباً ولا يقل فى أهميته عن قرار الحرب نفسه (!!)

(٢١)

ويبدو أن تورط الفريق الشاذلى فى إلقاء التبعة على المشير أحمد إسماعيل، كان لايتوقف عند حد، وقد حاول السادات نفسه أن يفهم الشاذلى أنه هو صاحب هذا القرار وليس أحمد إسماعيل بينما كان الشاذلى لا يزال مندمجًا فى سعيه أن يثبت للسادات أنه على صواب وأن أحمد إسماعيل على خطأ، وهو لا يدرى أن القرار قرار السادات، وفى الحقيقة أن رواية الشاذلى للقصة فى تلك الأيام تتفوق على أية دراما قائمة على المفارقة!

ولنقرأ هذه اللقطات الأربع لحديث الشاذلى عن لقاء السادات السابق بالقادة فى المركز رقم ١٠ مساء يوم ١٦ أكتوبر:

□ اللقطة الأولى هامش فى مذكرات الشاذلى يتحدث فيه عن رفض الوزير أحمد إسماعيل سحب جزء من قواتنا من الشرق ويقول فى الهامش:

«لم أكن حتى هذه اللحظة على علم باللعبة السياسية، وكنت أعتقد أن معارضة الوزير فى سحب جزء من قواتنا فى الشرق هو جمود فكرى من قبله وليس جزءاً من لعبة سياسية كبيرة، لذلك فكرت فى أن أستعين بالرئيس فى تصحيح الموقف».

□ اللقطة الثانية هامش آخر يتحدث الشاذلى فيه عن رفض الوزير سحب اللواء المدرع ٢٥ ليوجه ضربة ضد الثغرة من الغرب ويقول فيه الشاذلى:

«يبدو أن هذا الإصرار من جانب الوزير كان بناء على تعليمات من الرئيس ويمكن استنتاج ذلك من غضب الرئيس وثورته عندما فاتحته بهذا الموضوع من جديد».

□ اللقطة الثالثة يروى فيها الشاذلى ما حدث عند حضور الرئيس فى ذلك المساء إلى المركز ١٠:

«وبعد ساعات قليلة وصل الرئيس إلى المركز ١٠، لقد كان مازال هناك متسع من الوقت، وفكرت أن أستعين برئيس الجمهورية لكى ينقض قرار الوزير وأن يوافق على وجهة نظرى فيما يتعلق بسحب بعض القوات من الشرق وأن نقوم بتوجيه ضربتنا الرئيسية ضد الثغرة من الغرب، شرحت الاقتراحات السابق ذكرها، لكن الرئيس لم يمهلنى لكى أتم مقترحاتى وثار ثورة عارمة وفقد أعصابه وأخذ يصرخ فى وجهى بعصبية:

«أنا لا أريد أن أسمع منك مرة ثانية هذه الاقتراحات الخاصة بسحب القوات من الشرق، إذا أثرت هذا الموضوع مرة أخرى فإنى سوف أحاكمك».

« حاولت أن أشرح له أن المناورة بالقوات شىء والانسحاب شىء آخر، لكنه كان فى ثورة عارمة لا يريد أن يسمع ولا يريدنى أن أسترسل فى الكلام. لقد أصابنى كلام السادات بجرح عميق، جال بخاطرى أن أستقيل، ولكن سرعان ما استبعدت هذا الخاطر. كيف أترك القوات المسلحة فى أوقات الشدة ؟ ماذا سيقول عنى الخصوم؟

هرب عند وقوع أول أزمة ؟ لا ... لـن أقبل ذلك على نفسى. لقـد عشت مع القوات المسلحة فترة مـجد، ويجب أن أقف معها وقت الشدة حتى لو لـم أستطع أن أنقذ ما أريد إنقاذه كله. ابتلـعت كبريائى والتمست العذر للسـادات وقلت لنفسى: «لابد أن السادات أعصابه متـوترة، حتى أنه لم يستطع أن يواجه الموقـف. يجب أن أتحمله ولو مؤقتاً من أجل مصر».

□ اللقطة الرابعة هامش يعقب به الشاذلى بما فهمه فى النهاية ويقول :

«هذا يدل على أن المعارضة فى سحب جزء مـن قواتنا من الشرق إلى الغَرب كان قراراً للسادات أكثر منه قرارا للوزير».

وأظن أننـا قد استوعـبنا الحقـيقة الآن بعد هـذه اللقطـات الأربع وثلاث منـها من الهـامش أى أنـها كـتبـت بعـد أن انتـهى الـشاذلـى من الـسرد، ووقـف أمامـه وقفـة تعبوية(!!).

هل لى أن استسمح القارىء فى أن أكـرر رأيى فى أن قرار السادات بعدم سحب قوات من الشرق كان قراراً لايقل أهمية عن قرار العبور نفسه!

هل لى أن أدل الـقارىء على دراسـة اللواء جمال حـماد القيـمة عن سيـر المعارك الحربية على الجبهة المصرية ومجادلاته القائـمة على العلم العسكرى مع الشاذلى حتى أثبت أن قرار السادات كـان مصيـباً، وأن اقتراحـات الشاذلـى لم تكن تـؤدى إلا إلى التهلكة!!

هل لى أن أدل القراء أيضاً على أحاديث القادة العسكريين فى ذكرى مرور خمسة وعشرين عـاماً على النصـر المجيد لمجلة الأهرام العـربى وكيف تناولـوا هذا الموضوع بإنصاف شديد للسادات الذى رحل، ولوم للشاذلى الذى لايزال حيا بيننا!!

(٢٢)

ونأتى إلـى ثالث موضوع مـن حيث الأهمية فـى هذه المذكرات وهو إعـلان إقالة الشاذلـى من منصبـه فى ديسمبر ١٩٧٣، وأحـب أن أبدأ فأعترف أنـى لا أزال جاهلاً

بأبعاد هذا الموضوع، ولست بمستطيع أن أكون رؤية واضحة حاسمة عنه، ولكننى لابد أن أنقل للقراء الروح التى يروى بها الفريق الشاذلى فى هذه المذكرات قصة الخلاف الأخير الذى سبق مباشرة إعلان إقالته من منصبه كرئيس للأركان، والقصة كما يرويها الشاذلى تبين كيف أن الأمور بينه وبين الدولة كلها وليس بينه وبين الرئيس أو الوزير فحسب، كانت قد وصلت بفضله هو ـ وربما بسبب الفيروس الإعلامى ـ إلى طريق مسدود فى بدايات ديسمبر ١٩٧٣، وسوف نورد نص ما يرويه الشاذلى عن هذه الجزئية بالكامل ونحن نعجب للأسلوب الذى يرويه به، وكأنما كان الصحفى الأمريكى صديقاً عائلياً مقرباً بينما زملاؤه وقادته والمسئولون فى بلده غرباء عنه فى الفكر والتفكير، ويبدو ـ والله أعلم ـ أن الشاذلى كان ضحية كمين صحفى نصب له دون أن يدرى هو أو رؤساؤه من أمر هذا الكمين شيئاً، ولست أزعم أنى أعرف حقيقة هذا الموضوع على وجه اليقين وقد اعترفت بهذا فى الفقرة السابقة، ولكنى أكاد لا استسيغ الروح التى تمضى بها رواية الشاذلى رغم صدقها الظاهر، ولكن يبدو أن وجه مخالفة الحقيقة فى الرواية يأتى فى إطار ما تختزله الرواية مما حدث لا مما ترويه، وعلى كل الأحوال فلابد لنا أن نورد النص كله:

«فى الساعة ١٧٠٠ يوم ٥ ديسمبر أجريت مقابلة صحفية مع المستر أرنولد بورشجريف محرر مجلة نيوزويك الأمريكية. وقد تكلمت معه بمنتهى الحرية والصراحة وأجبت عن أسئلته كلها، وذلك فيما عدا المعلومات التى قد يستفيد العدو من إذاعتها. وقد منعت الرقابة المصرية المستر بورشجريف من إرسال هذا الحديث الصحفى إلى مجلته، وقامت بترجمة الحديث إلى اللغة العربية وأرسلته إلى المخابرات الحربية للموافقة على النشر، فقامت المخابرات الحربية بعرض الأمر على السيد الوزير، سألنى الوزير عما إذا كنت قد قلت هذا الكلام فأجبت بالإيجاب، قال: كان يجب عليك أن تعرضها على المخابرات الحربية قبل إرسالها إلى الصحافة، قلت له: «كيف أطلب من المخابرات الحربية وهى إدارة مرءوسة لى أن تراجع ما أقول. أنا أعرف ما هو سر وما هو ليس سراً أكثر من مدير المخابرات، لأن لدى قدرة تصور أوسع واتصالات عالمية أكثر، لماذا نخفى شيئاً يعرفه العالم أجمع إلا شعب مصر؟ إننى لم أقل شيئاً يستطيع العدو أن يستفيد منه ».

ويواصل الشاذلى رواية المرافعة التى واجه بها المشير أحمد إسماعيل قائلا:

«وعلى سبيل المثال فقد امتنعتُ عن الإجابة عندما طلب منى أن أقارن بين قوتنا وقوة العدو قبل ٦ أكتوبر والآن، لأن الإجابة على هذا السؤال قد تضطرنى إلى إذاعة بعض المعلومات التى ليست معروفة على المستوى الدولى حتى الآن، مثال ذلك خسائرنا فى الحرب والإمدادات التى وصلتنا حتى الآن، أما أنت ففى حديث لك مع الأستاذ حسنين هيكل رئيس تحرير جريدة الأهرام؛ أذعت بياناً عن خسائرنا فى الحرب، ولو استطاع العدو أن يعرف الإمدادات التى وصلت إلينا بعد ٦ أكتوبر وحتى الآن فإنه يستطيع أن يعرف قوتنا على وجه التحديد».

«لقد كانت مناقشة حادة حقاً، طلب منى الوزير أن أستدعى بورشجريف وأن أسحب منه ما قلت فرفضت».

ويستأنف الشاذلى روايته قائلا:

«وفى صباح يوم ١١ ديسمبر ٧٣ فوجئت بعنوان ضخم فى جريدة الأهرام: «قواتنا فى الشرق والغرب تتقدم عشرة كيلومترات»، وكانت الجريدة تنسب الخبر إلى قيادة قوة الطوارئ الدولية فى القاهرة. لقد كان الخبر صورة أخرى من صور التزوير لواقع الأمر. حاولت معرفة مصدر هذا الخبر، اتصلت بقيادة قوة الطوارئ الدولية فنفت نفياً باتاً أنها أصدرت بياناً عن ذلك. اتصلت بإدارة المخابرات الحربية فنفت هى الأخرى أى علم بمصدر أو مؤلف هذا الخبر ».

« كان الوزير يجلس بجوارى فى غرفة العمليات وأنا أجرى هذه الاتصالات دون أن يعلق بشيء، مما جعلنى أشك أنه هو مصدر هذا الخبر. قلت بصوت عال وبغضب ودون أن أوجه كلامى لأحد: «هذا جنون، ليس هذا هو الأسلوب الصحيح للإعلام، يجب أن نعرف من هو الشخص الذى وراء هذا الخبر ويجب أن يعاقب»، وهنا تدخل الوزير قائلا: «لماذا تغضب؟ هل أنت وزير للإعلام؟ قد يعتقدون أن إصدار هذا الخبر فى مصلحة الوطن»، سألت: «من هم الذين يعتقدون؟»، قال: «لا أعرف، ولكنى أود أن أقول لك ألا تتدخل فى عمل المخابرات أو فى عمل الإعلام»، فأجبته بأننى سوف أتدخل».

«وفى اليوم نفسه صممت على أن ألتقى الدكتور حاتم ، وفى الساعة ١٣٠٠ كنت فى مكتبه فى وزارة الإعلام، حكيت له رأيى فى الإعلام عموماً، ثم تطرقنا إلى الخبر الذى نشر فى جريدة الأهرام صباح ذلك اليوم وقلت له: «لقد تحققت من جميع

الجهات التى يمكن أن تكون مصدراً لهذا الخبر وجميعها نفت علمها بهذا الموضوع. هناك شخصان أشتبه بهما، الشخص الأول هو الأستاذ حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام، والشخص الثانى هو وزير الحربية، وحيث إنه ليس لدى أية سلطة لكى أستجوب أياً منهما فإنى أرجو أن تحقق سيادتكم عن مصدر هذا الخبر»، ذكر لى الدكتور حاتم أن الخط الإعلامى للدولة كان مرتبطاً بالبلاغات العسكرية التى تصدرها القيادة وأنه وإن كان هو شخصياً لم يكن مقتنعاً بصحتها، فإنه كان ملتزماً بها، أما بخصوص الخبر الذى نشر فى جريدة الأهرام صباح ذلك اليوم فأكد لى عدم علمه بمصدر هذا الخبر ووعد بالبحث لمعرفة الحقيقة».

« وفى صباح يوم ١٢ ديسمبر ظهرت جريدة الأهرام وفيها تصحيح للخبر واعتذار عن الخطأ، وأعطت بعض التسويغات لهذا الخطأ» .

« لقد بلغ التحدى بينى وبين السلطة السياسية مداه، إن بقائى سوف يفسد الألاعيب التى يقومون بها، لقد تحملوا منى الكثير وكان لابد أن يتخلصوا منى، وفى مساء يوم ١٢ ديسمبر ٧٣ أقالنى السادات من منصبى كرئيس لأركان حرب القوات المسلحة المصرية».

هكذا يروى الشاذلى دون أن يوضح لنا طبيعة هذه الألاعيب، وكيف وصل به الأمر فى متابعة خبر منشور في الأهرام أن يذهب بنفسه إلى مكتب وزير الإعلام، وكيف أنه كان يحصر الاتهام فى الوزير (الذى هو رئيسه فى نفس الوقت) ورئيس تحرير الأهرام، وكيف أن الأهرام نفسه صدر فى اليوم التالى يصحح ما نشر فى اليوم السابق!! ولكن كان لهذا التصرف وجه آخر هو إقالة الشاذلى نفسه فى المساء!! أو على الأقل إعلان قرار إقالته الذى كان قد اتخذ فى أثناء الحرب ولكن الرئيس على حد روايته أجله إلى ما بعد الحرب!!

(٢٣)

ثم يروى الشاذلى تفاصيل كثيرة يصور بها علمه بإقالته، ولكنها فى ذات الوقت تفاصيل صورية لا تمس الواقعة ولا أسبابها كما أنها لا تتناول ما أشار إليه الشاذلى

نفسه في هذه المذكرات في موضع آخر مـن أن الرئيس السادات قد أصيب في ذلك اليوم بانهيار :

«لم أذهب إلى منزلي منذ أول أكتوبر حتى ١٢ ديسمبر إلا مرة واحدة لمدة ساعتين لإحضار بعض الملابس الإضافية وللاستحمام بالماء الساخن. وحوالي منتصف نوفمبر كانت الأمور قد استقرت، وأصبح الموقف لا يتطلب أن أكون بصفة دائمة في المركز ١٠ أو بين القوات كما كان الحال فترة العمليات، وفي منتصف نوفمبر استأنفت القيام بالتدريبات الرياضية اليومية واكتشفت أنني فقدت من وزني ٥ كيلوجرامات خلال تلك الفترة الماضية. وعلى الرغم من أنه كان في استطاعتي أن أعود إلى منزلي الذي لم يكن يبعد أكثر من بضعة كيلومترات من مركز القيادة فإني لم أفعل ذلك، كنت أشعر بالأسى بالنسبة لرجال الجيش الثالث المحاصرين ».

« كيف يمكنني أن أذهب إلى منزلي وهناك ٤٥٠٠٠ رجل من رجالنا محاصرون؟ حقاً إن يدي نظيفتان من مسئولية حصارهم ولكن ليس هذا هو وقت تحديد المسئولية، إنهم أولاً وأخيراً أبناء مصر، ويجب أن أشاركهم أحزانهم وقلقهم. صممت ألا أعود إلى منزلي إلا بعد أن يعود هؤلاء الرجال إلى ديارهم».

«كان يوم ١٣ ديسمبر هو عيد زواجي فأقنعت نفسي مساء يوم ١٢ ديسمبر أن أقضي ليلة بالمنزل، وحيث إني كنت أشك فيما يدور حولي كله فقد أخذت معي قبل أن أغادر المركز ١٠ أوراقي كلها ومذكراتي الخاصة، لم يدر بخلدي قط وأنا أترك المركز ١٠ في الساعة ١٧٠٠ يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧٣ أن تلك الساعة هي نهاية خدمتي بالقوات المسلحة المصرية، ومع ذلك فإن الحاسة السادسة قد دفعتني إلى أن آخذ معي أوراقي الهامة ومذكراتي جميعها. وقد صدق حدسي حيث إني بعد أن ذهبت إلى مكتبي بعد ذلك بأيام لأجمع باقي أوراقي وجدت أن إدارة المخابرات الحربية قد قامت بواجبها على الوجه الأكمل، فقد اختفت جميع هذه الأوراق بما فيها برقيات التهاني التي كانت قد وصلتني من الأهلين ومن رؤساء أركان الجيوش العربية. كنت في قمة السعادة لأنهم لم يستطيعوا الحصول على ما كانوا عنه يبحثون».

«وفي حوالي الساعة ٢٠٠٠ من يوم ١٢ ديسمبر ٧٣ وبينما كنت في منزلي رن جرس الهاتف وكان الوزير على الطرف الآخر، أخبرني بأنه يحدثني من مكتبه

بالوزارة ويود لو أستطيع أن أحضر لمقابلته، وبعد حوالى نصف ساعة كنت أدخل عليه مكتبه، وعند دخولى عليه وجدت عنده الجمسى وسعد مأمون، وبعد دخولى عليهم قطع الوزير الحديث وطلب من الجمسى وسعد مأمون أن ينسحبا ويتركانا على انفراد » .

«أخذ الوزير يدور ويلف إلى أن دخل فى صلب الموضوع الذى استدعانى من أجله ودار بينى وبينه الحديث التالى».

«الوزير: لقد قرر رئيس الجمهورية إنهاء خدمتكم كرئيس أركان حرب القوات المسلحة وأصدر قراراً جمهورياً بتعيينكم سفيراً فى وزارة الخارجية وعليكم التوجه اعتباراً من الساعة الثامنة صباحاً إلى وزارة الخارجية فى ميدان التحرير».

الشاذلى: أشكر الرئيس على هذا التعيين وأرجو أن تقوم بإبلاغه بأننى أعتذر عن قبول منصب السفير وأفضل أن أبقى فى منزلى.

الوزير: هل تعنى أنك ترفض إطاعة أمر الرئيس أمر الذى يقضى بذهابك إلى وزارة الخارجية؟

الشاذلى: سيادة الوزير، يمكنك أن تفسرها كما تشاء. إذا كان الرئيس يعتبر أن هذا التعيين خدمة لى فمن حقى أن أقبل الخدمة أو أرفضها. وإذا كان المقصود بهذا التعيين هو العقاب فأنا أرفضه وأفضل أن يكون هناك تحقيق ومحاكمة حتى تظهر الحقائق.

الوزير: إن ما تقوله شيء خطير. هل أقوم بإبلاغ الرئيس بما قلته؟

الشاذلى: طبعاً. الهاتف بجوارك ويمكنك أن تبلغه الآن وفوراً.

حاول الوزير بعد ذلك أن يقنعنى بطريق أكثر تهذيباً بأن أقبل هذا المنصب السامى حيث إن رفضى سوف يغضب الرئيس وأنه يقدر عملى ومجهودى اللذين قدمتهما للقوات المسلحة إلخ إلخ!

الشاذلى: إنى أصر على الرفض وأفضل أن يكون عزلاً وليس نقلاً إلى وزارة الخارجية، وهذا هو اعتذار رسمى عن قبول منصب السفير (وحررت له الاعتذار كتابة وسلمته إليه) ماذا سيفعل الرئيس بعد أن يعلم أنى رفضت منصب السفير؟ هل سيأمر بمحاكمتى؟ إنى أفضل ذلك وأنا على أتم الاستعداد له.

وبعد حوار دام حوالى نصف ساعة غادرت مكتب الوزير بعد أن أكدت له بأننى لن أذهب غداً لا إلى وزارة الخارجية ولا إلى المركز ١٠، وأننى سأبقى فى منزلى».

(٢٤)

ويبدأ الشاذلى فى رواية الانطباعات الأولى على قرار إقالته، فينقل لنا رأى زوجته ثم يفاجئنا مباشرة برأى صحفى أمريكى يزوره فى بيته فى أول يوم له فى هذا البيت بعد وجوده فى الجبهة طيلة الأسابيع السابقة كلها على نحو ما سنقرأ دون تعليق:

«بعد أن عدت إلى منزلى أخبرت زوجتى بما دار بينى وبين الوزير من حوار وقلت لها: «الحمد لله الذى جعلهم يتخذون هذه الخطوة»، إن كل شىء كان يسير مؤخراً فى عكس الاتجاه الذى أريده، لم يكن يسعدنى البقاء ولكن لم أكن أستطيع أن أتقدم بالاستقالة فى مثل هذه الظروف الصعبة».

«استقبلت زوجتى الخبر بشجاعة وأيدت موقفى فى رفض منصب السفير وقالت: «الحمدلله أنك تترك القوات المسلحة بعد أن عبرت بهم القناة، ولم يكن أحد يصدق أن هذا عمل ممكن. الحمد لله الذى جعلك تترك القوات المسلحة ونحن فى صحة جيدة، لو حسبت الوقت الذى قضيته فى منزلك منذ أن تزوجنا فإنه لن يزيد على ربع تلك السنين. لنسترح ونستمتع بما بقى لنا من عمر».

«ضحكت وتعجبت، لقد كنت أسمع أن خبر التقاعد هو أصعب خبر تتلقاه الزوجات، وها هى ذى زوجتى تتلقى الخبر بفرح وارتياح. إن الخبر بالنسبة لها هو استعادة للزوج الذى كانت قد فقدته لأنه أعطى وقته واهتماماته كلهما للقوات المسلحة على حساب بيته وعائلته. ضحكنا وأخذنا نتجاذب الحديث وننتظر حضور المستر بورشجريف مراسل جريدة النيوزويك الأمريكية الذى كنت قد وعدته باستقباله فى منزلى تلك الليلة».

«كان بورشجريف قد اتصل بى صباح ذلك اليوم وأخطرنى بأنه سوف يغادر القاهرة فى اليوم التالى وأنه يرغب بلقائى قبل سفره ليعبر لى عن شكره على الحديث

الذى أدليت به له، فوعدت بأن أستقبله فى منزلى فى مساء اليوم نفسه، ولم يكد يمر ١٥ دقيقة على عودتى إلى المنزل حتى وصل بورشجريف هو وزوجته، قلت له: مستر بورشجريف إنك صحفى محظوظ، سوف أقول لك خبرا لم يعرفه أى صحفى فى العالم حتى الآن، وحكيت له قصة مقابلتى مع الوزير ورفضى لمنصب السفير الذى عرض علىّ، لم يكن بورشجريف وزوجته يصدقان ما أقول، وكانا يعتقدان أننى أمزح وعندما أكدت له ذلك أكثر من مرة قال: «إن الطريقة التى تتكلم بها أنت وزوجتك تدل على أنك سعيد بهذا ولا يبدو عليك أو على حرمك أى حزن أو أسف، فقلت له هذه فلسفتى.. «لو اجتمع أهل الأرض على أن ينفعوك بشىء ما نفعوك إلا بشىء كتبه الله لك.. ولو اجتمع أهل الأرض على أن يضروك بشىء ما ضروك إلا بشىء كتبه الله عليك، جفت الأقلام وطويت الصحف».

«وقد جال بخاطر بورشجريف أن يكون حديثى معه هو السبب فى إعفائى من منصبى فقال لى على استحياء: «أرجو ألا أكون سبباً فيما أصابك؟»، فقلت له: «لا أعتقد ذلك، إننى على خلاف معهم فى مواضيع كثيرة، وإن موضوعك يعتبر واحداً منها ولكنه يكاد يكون أبسطها». وعلى الرغم من ذلك شعرت من كثرة تساؤلات بورشجريف وتأكيداته فى هذا الموضوع أنه كان يشعر بأنه أحد الأسباب الرئيسية».

« وعموماً فإذا كانت مقابلة بورشجريف يوم ٥ ديسمبر وتكذيب الخبر الذى نشر فى جريدة الأهرام يوم ١١ ديسمبر هما من الأسباب المباشرة الظاهرة، فإنها لا تعدو أن تكون القشة التى قصمت ظهر البعير».

«لقد كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة مساء عندما غادر منزلى بورشجريف، وهو لا يكاد يصدق ما رآه بعينيه وسمعه بأذنيه».

(٢٥)

ويبدو الشاذلى ـ على مدى صفحات هذه المذكرات ـ وكأنه مصمم على أن يمثل لنا الصورة الأخرى من قادتنا العسكريين، فعلى حين كان المشير أحمد إسماعيل يؤكد وهو وزير أن للقوات المسلحة واجباً واحداً فقط هو أن تؤمر بالقتال فتقاتل،

وعلى حين يؤكد الفريق أول مرتجى والفريق صلاح الحديدى وغيرهما على هذه الحقيقة فى المذكرات التى نشروها، وعلى حين يؤكد المشير الجمسى هذا المعنى طوال مذكراته ويلتزم بهذا الفهم حتى فى يوم إقالته حيث يقول إنه لم يعلق بأية كلمة لأن الرئيس كان يمارس حقه الدستورى، وعلى حين تحفل مذكرات كل القادة العسكريين بكل هذه المعانى، فإننا نجد الشاذلى على النقيض من كل هؤلاء مؤمناً تمام الإيمان بأن الصراع بين القادة العسكريين والقادة السياسيين هو مشكلة كل وقت وزمان(!!) وأنه كان فى استطاعة القادة العسكريين أن يحققوا الكثير فى حرب أكتوبر المجيدة لولا تدخل السادات وليس أدل على تمكن هذا الفهم من نفسية الشاذلى وعقليته من الفقرة التى ختم بها كتابه حيث يقول:

«إن هذه الحرب مليئة بالدروس والعبر، ولعل أبرز هذه الدروس وأكثرها تأثيراً على سير العمليات هو الصراع بين القادة العسكريين والقادة السياسيين. إن الصراع بين القادة العسكريين والقادة السياسيين هو مشكلة كل وقت وزمان، لكنها لم تكن قط بهذه الصورة التى ظهرت بها خلال حرب أكتوبر ٧٣ على المستوى المصرى» .

« لقد كان فى استطاعتنا أن نحقق الكثير لولا تدخل السادات المستمر، وإصداره سلسلة من القرارات الخاطئة التى كانت تجهض قدراتنا العسكرية. والآن وقد أذيعت الأسرار كلها التى كان يحرص السادات على إخفائها، فقد آن الأوان لكى نجرى فى مصر حواراً نناقش فيه أخطاءنا ونحدد المسئول عن كل خطأ حتى نعرف من هم أبطال هذه الحرب الحقيقيون، ومن هم الأبطال المزيفون».

ومع أنى قد أرجح أن هذه الفقرة كتبت للشاذلى ولم يملها هو إلا أنى لا أملك من أقوال الشاذلى نفسه فى هذه المذكرات ما يدفعها أو يدحضها.

❑

ويكاد الشاذلى يؤمن إيمانا عميقاً ومطلقاً بمثل هذه الفكرة القاتلة، ومع أنه بحكم المنصب وبحكم طبائع الأشياء لا يملك المعطيات الكافية لأن يدرك كل الحقائق، فإنه يرى نفسه قادراً على تحقيق ما لم يحققه الرئيس، وعلى تحقيق ما لن يحققه الرئيس، وعلى تحقيق ما ليس الرئيس قادراً على تحقيقه، وهو ينتهز فرصا كثيرة ليدلل على هذا، ولسنا فى معرض نقد أو نقض أفكاره، لكننا سنطلع القارئ على نموذج لها ليتبين القارئ حدود المشكلة التى خلقها الشاذلى لنفسه دون أن يدرى.

- ها هو يتحدث عن زيارة عسكرية قام بها للمغرب والجزائر قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ فيقول ما نصه:

«وعلى الرغم من التعليقات المتشائمة التى أدلى بها السادات عن رحلتى إلى الجزائر والمغرب، فقد نجحت هذه الرحلة فى هدم الحواجز التى كانت تقف بين مصر وبين هاتين الدولتين. لقد كنت أول شخصية مصرية كبيرة تزور هاتين الدولتين منذ سنوات، وبعد بضعة شهور من زيارتى تلك قام وزير خارجية مصر بزيارتهما وبعد ذلك قام السادات نفسه بزيارة لهما».

إلى هذا الحد يتصور الشاذلى نفسه ودوره فى العلاقات الثنائية بين مصر وبين شقيقتين عربيتين.

- أما فى سير المعارك العسكرية فسنورد للقارىء فقرة مختصرة جداً تمثل تلخيص الشاذلى لما يعتبره أسباب اختلافه مع السادات، وسنرى هذه الفقرة على قصرها حافلة تماماً بأفكار متعارضة للشاذلى، ومع هذا فهو يعتبر نفسه مصيباً على طول الخط، والسادات مخطئاً على طول الخط، وهو أمر ضد طبائع الأشياء بالطبع.

«وفى يوم ١٢ أكتوبر عارضت دفع الفرقة ٢١ مدرعة والفرقة ٤ المدرعة وأصر السادات، وفى يوم ١٥ أكتوبر طالبت بإعادة الفرقة ٢١ مدرعة والفرقة ٤ مدرعة إلى الضفة الغربية ورفض السادات، وفى يوم ١٦ أكتوبر اختلفت مع السادات والوزير فى أسلوب القضاء على الثغرة وثار السادات وفقد أعصابه».

- وقبل هذه الفقرة مباشرة يقول الفريق الشاذلى:

«بعد النجاح الرائع الذى حققته القوات المسلحة المصرية فى عبور قناة السويس ركزت الصحافة العربية والأجنبية كلها على الدور الكبير الذى قام به الفريق سعد الدين الشاذلى . ولقد بلغ الأمر أن صورتى كانت تعلق داخل البيوت فى مصر والبلاد العربية، وظهرت كصورة غلاف على كثير من المجلات الأجنبية. لقد وصل ذلك كله إلى السادات فدبت الغيرة والحقد فى قلبه».

- وهذه فقرة أخرى من فقرات كثيرة يصور بها الشاذلى قدراته على اتخاذ قرارات متتالية دون علم الوزير (!!) ورغم اعتراض القادة التابعين له وتحفظهم :

« ... وباتفـاق سرى بينى وبـين اللواء سـعيد الماحى قـائد المدفعيـة [سنرى تعـبير «اتفاق سرى» يـتكـرر فى هـذه المذكـرات دون أن يعـنى هـذا أن بقـية الإجـراءات والتحـركات والأوامر كانت عـلنية] قررت أن أسحـب هاتين الكـتيبتيـن ، وتم فعلاً سحب بـعض منها يومى ١٧و١٨ دون علم الوزير. وعـلى الرغم من معـارضة قادة التشـكيلات التى كـان قد تم تدعيـمها بها ، لـقد قال لى أحد قـادة فرق المشاة عـندما طلبت إليه إخلاء سريـة الصواريخ المضادة للدبابات (مالوتكا) الـتى كانت قد ألحقت به، «إن الموقف الدفاعى للفرقة سيتعرض للخطر إذا سحبت منى هذه السرية ! ! ».

وهنا يعـلق الفريق الشـاذلى بما يتحفـظ به على أن نظن وجـهة النظر المعـارضة له كانت صوابا:

«إنى أعلم من خـبرتى السابقة أن ما قاله قـائد الفرقة هو تسجيل مـوقف يمكن أن يسـتخدمه للدفـاع عن نفسه فـيما لو فشـل فعلاً فى صد هـجوم العدو ووجد نـفسه موضع تـساؤل . لقد كان اهتـمامى بإنقـاذ الموقف فى غرب الـقناة أهم بكثـير من أى شيء آخر ولذلك قلت له « أنا المسئول عن كل شيء، أرسل السرية فوراً هذه الليلة » إن هذه الحديث يبين بـوضوح أن أبعاد الموقف وخطورته لم تكن مـعروفة حتى على مستوى قادة الفرق».

(٢٦)

وفى هذا الكتاب فقرة مهمة وعجيبة يرد بها الشاذلى على ما قاله الرئيس السادات من أن الشاذلى قد انهـار عند حدوث الثغرة، وبدلا من أن يدلل الشـاذلى على أنه لـم يحدث له أى انهيار فإنـه يلجأ إلى الطريقة الشائعة فى الرد عـلى مثل هذا الاتهام بأن يقول إنه لـم يعان أبداً من الانهيار، لكن الـسادات هو الذى عانى من الانهيار أكثر من مرة فى حـياته، وكأن الانهـيار مرض مزمن أو عادة .. ويـلجأ الشاذلـى للتدليـل على صحة دعواه هذه إلى أرشيف السادات ليدلل منه على أن السادات هو القابل للانهيار ويقول:

«أما ادعاؤه بـأنى عدت منهـاراً من الجبهة يوم ١٩ أكـتوبر فإن هذا قـول رخيص،

لست أنا الذى أنهار ولم يحدث أن انهرت فى حياتى حتى الآن والحمد لله. أنا رجل مظلات يعرفنى رجالى ويعرفنى أصدقائى جيداً ولا أحد يستطيع أن يصدق ما يدعيه السادات. أما السادات فله تاريخ طويل من الانهيار والأمراض النفسية، وهذا بيان بعضها:

أ ـ اعترف فى حديث له مع همت مصطفى (الإذاعة المصرية) بمناسبة ١٥ مايو ١٩٧٧ بأنه أصيب بمرض عصبى نتيجة القبض عليه فى الساعة الثالثة صباحاً، وأن هذا المرض لازمه لمدة سنة ونصف سنة. وقد أضاف السادات قائلا بأنه شفى وقد أكد هذه القصة بشكل مخفف فى مذكراته صفحة ١٠٤، لكن الذى لا يريد أن يعترف به السادات هو أنه مازال مريضا وأن هذه الحالة حدثت له أكثر من مرة بعد خروجه من السجن عام ١٩٤٦.

ب ـ يقول فى مذكراته صفحة ٢٨ عن الحالة التى انتابته بعد هزيمة عام ١٩٦٧: «استولى علىّ ذهول غريب لم أعد أستطيع معه أن أتبين الزمن أو المسافات أو حتى المكان نفسه فى بعض الأحيان».

جـ ـ يقول فى مذكراته فى الصفحة ٢٦٤ عن الحالة التى انتابته بعد وفاة عبدالناصر: «بعد أن أصبحت الجنازة على وشك الابتداء أصبت بانهيار مفاجئ فحملونى إلى مجلس قيادة الثورة وأعطانى الأطباء خمس حقن ولم أفق منها إلا حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر».

د ـ يقول فى مذكراته فى الصفحة ٣٥٧ عن حالته النفسية يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧٣: «أصبت بنزيف لمدة ٤ أيام وقال لى الأطباء إن هذا نزيف بسبب التوتر النفسى»، ويقول فى الصفحة نفسها: «كنت فى حالة نفسية مرهقة».

هـ ـ هناك حالة أخرى شهدها كل من الرئيس معمر القذافى والأخ عبدالسلام جلود ولن أتعرض لذكرها».

وبعد هذه الأمثلة الخمسة يردف الشاذلى بقوله:

«إن للسادات تاريخاً طويلاً فى الأمراض النفسية، أما أنا فإنى أحمد الله وأشكره

أنى لم أصب طوال حياتى بأى مرض عصبى أو أية حالة نفسية، اللهم لا شماتة وإنما أشكرك على ما أنعمت به علىّ، وأن السادات وهو الرجل المريض يرى فى غيره ما يحس هو به، فيتهم كل من يختلف معه فى الرأى بأنه انهار، ولست أنا أولهم ولا آخرهم».

ومع فقدان مثل هذا الرد للمنطق إلا أننا نعجب لهذا الأرشيف الذى يستحضره كاتب هذه المذكرات (أو صاحبها) ظانا أنه يقدم تاريخا مرضيا لإنسان مريض، مع أن أعداء السادات أنفسهم ينفون عنه شرف حصول هذه الانفعالات الحميدة والطبيعية، وانظر على سبيل المثال مذكرات محمد عبدالسلام الزيات «السادات: الحقيقة والقناع» وقد تناولناها فى كتابنا «محاكمة ثورة يوليو» حيث يرى الزيات أن السادات لم يتأثر على الإطلاق بوقوع هزيمة يونيو ١٩٦٧، وأنه زاره ذلك اليوم فوجد أمامه ما لذ وطاب من الطعام.. كما يقول آخرون إن السادات وعلى صبرى يوم وفاة عبدالناصر كانا ينظران بنصف عين إلى بعضهما وهما راقدان تحت الرعاية الطبية بعد تظاهرهما بالعجز عن مواصلة السير فى الجنازة.

أما الحالة الرابعة التى يشير إليها الشاذلى فقد كانت فى رأيى تستحق منه مزيداً من التفصيلات، خاصة أنها صادفت يوم إقالة الشاذلى نفسه أو يوم إعلان هذه الإقالة!! وهو اليوم الذى لانزال غير محيطين بكل ما دار فيه!

(٢٧)

وكأنما كان الشاذلى فى هذا الكتاب مولعاً كل الولع بالكشف عن كل أسرار الجيش المصرى وإتاحتها منشورة بصورة دقيقة فى كتاب متداول، ونحن نراه لا يترك صغيرة ولا كبيرة من أمر القوات المسلحة إلا ويطرحها على بساط البحث ويتناولها من الألف إلى الياء، ويوحى إلينا بدوره فى تعديلها وكأن وجوده كرئيس للأركان أصبح بمثابة العلامة الفارقة الرئيسية فى تاريخ مصر وجيشها بحيث أصبح من الواجب أن تؤرخ الأحداث بما قبله وبما بعده.

ولن نستطيع أن ننقل للقارئ كل ما تحتويه مذكرات الشاذلى من هذا القبيل، لكننا سنورد أمثلة سريعة توضح لنا أسلوبه فى التعامل مع أمور الإدارة.

ونبدأ بأن نقدم للقارئ ما يرويه هو عن صعوبة مهمته كرئيس للأركان، وسنشاركه الرأى الذى اتخذه فى صعوبة هذه المهمة لكن بعض القراء سيسألون مباشرة عن مدى صعوبة وظيفة رئيس الأركان فى القوات المسلحة الأمريكية أو السوفيتية مقارنة بهذا الذى يرويه الشاذلى عن صعوبة رئاسة الأركان فى مصر، ولهؤلاء القراء الحق فى مثل سؤالهم هذا، ولكن الشاذلى لا ينتبه فى إجاباته إلى أن يقدم «خصوصية ما» تجعل هذا المنصب فى مصر بالذات صعباً، ولكنه يمضى فى ذكر تفاصيل دقيقة عن قواتنا المسلحة فيقول:

«إن السيطرة على قوات مسلحة قوامها حوالى مليون ضابط وجندى، لهو عمل صعب للغاية، عندما شغلت منصب رئيس الأركان كان حجم القوات المسلحة حوالى ٨٠٠,٠٠٠، وقبل اندلاع حرب أكتوبر ٧٣ كانت القوات المسلحة قد بلغت ١,٠٥٠,٠٠٠ (مليونا وخمسين ألفا) فى الجيش العامل، يضاف إلى ذلك ١٥٠,٠٠٠ كان قد تم تسريحهم وتنظيم استدعائهم خلال السنتين السابقتين للحرب».

«وبذلك وصل حجم القوات المسلحة إلى ١,٢٠٠,٠٠٠ (مليون ومائتى ألف ضابط وجندى). كان حوالى ٥٨٪ منهم لا ينخرطون ضمن الوحدات الميدانية، ولاشك أن هذه النسبة تعتبر نسبة عالية إذا ما قورنت بالنسب السائدة فى القوات المسلحة الأجنبية، لكننا اضطررنا إلى هذا الموقف نتيجة للعاملين التاليين:

١ ـ أن تفوق العدو الجوى الساحق جعل بإمكانه توجيه جماعات منقولة جواً لتدمير وتخريب أهدافنا الحيوية المتناثرة فى طول البلاد وعرضها، وأن الانفراستركشر [البنية الأساسية، ولم يكن التعبير العربى قد انتشر بعد، ولهذا فضل الشاذلى استخدام التعبير الإنجليزى بحروف عربية] والأهداف الحيوية فى مصر هى أهداف مثالية لجماعات التخريب المعادية.

فهناك مئات الكبارى فوق النيل والرياحات والترع، وهناك خطوط أنابيب المياه وخطوط أنابيب البترول التى تمتد مئات الكيلومترات عبر الصحراء، وكذلك خزانات المياه والنفط ومحطات الضخ والتقوية ومحطات توليد الكهرباء.. إلخ.

٢ ـ إن التوسع المستمر فى حجم القوات المسلحة كان يفرض علينا زيادة طاقة المنشآت التعليمية حتى تستطيع أن تلبى مطالبنا المتزايدة فى تدريب الكوادر المطلوبة لقواتنا المسلحة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بمزيد من تدعيم هذه المنشآت بالضباط وضباط الصف المعلمين والإداريين الذين يرفعون من طاقات هذه المنشآت».

(٢٨)

وتحفل مذكرات الفريق الشاذلى بأرقام كثيرة جداً تصور كل شىء فى المعركة المجيدة التى رزقنا الله فيها بالنصر الوحيد، ومن الفقرات الحافلة بالتفصيلات الرقمية التى تصور إنجاز العبور هذه الفقرة:

«بحلول الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد ٧ أكتوبر ١٩٧٣ كانت قواتنا قد حققت نجاحاً حاسماً فى معركة القناة. فقد عبرت أصعب مانع مائى فى العالم وحطمت خط بارليف فى ١٨ ساعة. وهو رقم قياسى لم تحققه أية عملية عبور فى تاريخ البشرية. وقد تم ذلك بأقل خسائر ممكنة. فقد بلغت خسائرنا ٥ طائرات و٢٠ دبابة و٢٨٠ شهيدا. ويمثل ذلك ٢,٥٪ فى الطائرات و٢٪ فى الدبابات و٠,٣٪ فى الرجال. أما العدو فقد خسر ٣٠ طائرة و٣٠٠ دبابة وعدة آلاف من القتلى وخسر معهم خط بارليف بكامله. لقد تم سحق ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مشاة كانت تدافع عن القناة وأصبحت أسطورة خط بارليف الذى كان يتغنى به الإسرائيليون فى خبر كان».

....

«اشترك فى عملية العبور مائة ألف رجل، توزيعهم كما يلى بصفة تقريبية:

- ٣٢٠٠٠ فى قوارب مطاطية.
- ١٠٠٠ فى دبابات ومركبات برمائية عبر المسطحات المائية فى البحيرات المرة وبحيرة التمساح.
- ٤٥٠٠ فوق المعديات.

- ١٥٠٠ فوق الكبارى الخفيفة.
- ٦١٠٠٠ فوق الكبارى الثقيلة.

عبر القناة ١٠٢٠ دبابة و١٣٥٠٠ مركبة بوسائل العبور التالية:

- الدبابات: ٢٠سابحا، و٢٠٠ فوق معديات، و٩٠٠ فوق الكبارى الثقيلة: مجموعهم ١٠٢٠.
- المركبات: ١٠٠ سابح، ٧٥٠ فوق معديات، و١٢١٥٠ فوق الكبارى الثقيلة، و٥٠٠ فوق الكبارى الخفيفة: مجموعهم ١٣٥٠٠».

❑

وللذين يظنون أنه كان بالإمكان أن تكون حركتنا سهلة أو يسيرة يوم السابع من أكتوبر أو ما بعده من الأيام الأربعة أو الخمسة الأولى للحرب، نسوق هذه الفقرة من مذكرات الفريق الشاذلى:

«لقد كان يوم ٧ أكتوبر هو يوم سباق بيننا وبين العدو استعداداً للمعركة التالية. لقد دفع العدو إلى جبهة سيناء بخمسة ألوية مدرعة جديدة، كما دفع بثلثمائة دبابة أخرى لتعويض خسائر الألوية المدرعة الثلاثة التى كانت موجودة أصلاً. وبحلول صباح يوم ٨ أكتوبر كان العدو قد حشد أمامنا ثمانية ألوية مدرعة منظمة فى ثلاث فرق مدرعة، فرقة من ثلاثة ألوية مدرعة في القطاع الشمالى تحت قيادة الجنرال برن أدان، وفرقة من ثلاثة ألوية مدرعة فى القطاع الأوسط تحت قيادة الجنرال شارون، وفرقة من لواءين مدرعين فى القطاع الجنوبى تحت قيادة الجنرال ألبرت ماندلر».

(٢٩)

وهذه أيضا فقرة من الفقرات التى تصور بها مذكرات الشاذلى شراسة المعركة التى كان على قواتنا المسلحة أن تخوضها فى اليوم الثالث للحرب (يوم ٨ أكتوبر ١٩٧٣) وما بعده:

«إذا قارنا بين حجم القوات البرية المصرية والإسرائيلية فى جبهة القناة صباح يوم

٨ أكتوبر، نجد أنها تكاد تكون متساوية. لقد كان لدى العدو ٨ ألوية مدرعة قوامها ٩٦٠ دبابة ما بين سنتوريان و م ٤٨، وم٦٠. أما نحن فكان لدينا حوالى ألف دبابة مابين ت٦٢، و ت٥٤، و ت٥٥، و ت٣٤، و ت٧٦. ومع أن عدد الدبابات كاد يكون متساويا فقد كان هناك عاملان هامان يمكن أن يكون لهما تأثير حاسم على المعركة إذا ما حدثت المجابهة بين الدبابات وحدها دون إدخال الأسلحة الأخرى فى المعركة. كان العامل الأول هو التسليح، والعامل الثانى هو التجميع».

«كانت دبابات العدو جميعها مسلحة بالمدفع ١٠٥ ملليمتر، وكانت مجهزة بوسائل جيدة لتقدير المسافة والتسديد. أما دباباتنا فكان توزيعها كما يلى:

٢٠٠ دبابة ت٦٢ مجهزة بالمدفع ١١٥مم.

٥٠٠ دبابة ت٥٤ و ت٥٥ مجهزة بالمدفع ١٠٠مم.

٢٨٠ دبابة ت٣٥٤ مجهزة بالمدفع ٨٥مم.

٢٠ دبابة ت ٧٦ مجهزة بالمدفع ٧٦مم».

«ومن هنا يمكن القول إن تسليح دبابات العدو كان أفضل من تسليح دباباتنا، لكن هذا التفوق النوعى فى التسليح يمكن التغلب عليه إذا نحن أحسنا استخدام الأرض وتحاشينا الدخول مع العدو فى معركة دبابات فى أرض مفتوحة حيث يصبح مدى المدفع هو السلاح الحاسم فى المعركة».

«كان العامل الثانى هو أسلوب الطرفين فى تجميع واستخدام دباباته. كانت دباباتنا مربوطة بالأرض. كان نصف دباباتنا ضمن الهيكل التنظيمى لألوية المشاة على شكل كتائب دبابات وكان تدريبها مقتصراً على أن تعاون المشاة فى الهجوم والدفاع، لكنها لم تكن مدربة على القيام بالدخول فى معارك الدبابات حيث يكون عنصر القتال الرئيسى هو دبابة ضد دبابة. أما النصف الآخر من دباباتنا فقد كان موزعاً على فرق المشاة بمعدل لواء لكل فرقة وذلك لرفع قدراتها القتالية فى صد هجمات العدو المركزة بواسطة الدبابات» .

❑

ويبلور الشاذلى وجهة نظره فى قوله:

« لم تكن لدينا الفرصة إذن فى أن نناور بدباباتنا من مكان إلى آخر من الجبهة إلا

فى حدود ضيقة جداً. أما العدو فقد كانت ظروفه أفضل منا بكثير. لم تكن دباباته ملزمة بأن ترتبط بالأرض للدفاع عن المشاة كما فى حالتنا. وكان لديه العمق الكافى الذى يسمح له بالمناورة وتحريك ألويته المدرعة من قطاع إلى قطاع بحرية تامة وخلال ساعات قليلة».

«وخلاصة القول فقد كان العدو يستخدم دباباته الاستخدام الصحيح، أى أنه كان يستخدمها كدبابات، أما نحن فقد كنا نستخدمها كمدافع مضادة للدبابات ذاتية الحركة أكثر من استخدامها كدبابات. ولم يكن جهلاً منا بأصول استخدام الدبابة بل كان بسبب الظروف التى فرضت نفسها علينا. إن ضعف تسليح دباباتنا وضعف قواتنا الجوية كانا يفرضان علينا أن نستخدم دباباتنا بأسلوب دفاعى، ويدعوننا إلى تحاشى الدخول فى معارك دبابات بحتة. وقد أثبتت الأيام التالية أننا كنا على صواب عند اتباع هذا الأسلوب، وأن استخدامنا للدبابات ضمن تشكيلات المشاة قد حقق نتائج مبهرة. وعندما قمنا بتغيير هذا الأسلوب فى ١٤ أكتوبر ـ بناء على قرار سياسى فيما بعد ـ تمكن العدو من أن يدمر لنا ٢٥٠ دبابة فى أقل من ساعتين».

(٣٠)

وهذا نموذج آخر من رابع أيام الحرب يتحدث فيه الفريق الشاذلى عن التشتت الذى لقيه لواء مشاة مصرى اندفع إلى الأمام فلقى الويل على يد القوات الجوية المعادية دون تدخل من مشاة العدو أو مدرعاته بسبب غياب الحماية الجوية، ويكفينى هذا النموذج للتدليل لأصحاب الصوت العالى القائل بأن الجيش المصرى لم يتقدم بالسرعة اللازمة لاحتلال المناطق كى يروا بأعينهم صورة مصغرة لما كان ينتظر هذا الجيش لو مضى على النحو الذى تصوره له أفكارهم.. هذا مثل يرويه الشاذلى ضمن ما يروى من ذكرياته ولكنى أوظفه لخدمة الفكرة التى لا أظن الشاذلى يمانع فى توظيفه من أجلها:

«فى خلال يوم ١٠ أكتوبر قامت عناصر من لواء المشاة الأول بالتقدم جنوباً واحتلت موقع عيون موسى.

«وفى خلال ليلة ١٠/ ١١ أكتوبر تلقينا إشارة خطيرة أثارت القلق والانزعاج، كانت الإشارة تقول:

«لقد فقد لواء المشاة الأول ٩٠٪ من رجاله وأسلحته ومعداته»، كانت المعلومات التى تصل إلينا من الجيش الثالث ومن الفرقة ١٩ مشاة تدل على فقدان الاتصال تماماً بين اللواء الأول والقيادات جميعها، وبالتالى فلا أحد يعرف على وجه التحديد ماذا حدث لهذا اللواء».

«أرسلت ضابط اتصال برتبة كبيرة إلى الجبهة بمهمة جمع الحقائق عن هذا اللواء. لقد كان اللواء الأول مكلفاً بالتحرك ليلاً إلى الجنوب واحتلال منطقة سدر، لكن قائد اللواء فكر فى أن يبدأ تحركه قبل غروب الشمس ببضع ساعات، وقد كانت القوات الجوية الإسرائيلية تراقبه عن كثب فتركته يتقدم جنوباً إلى أن خرج تماماً من تحت مظلة دفاعنا الجوى وأصبح يعبر أرضاً ضيقة لا تسمح له بالانتشار إذا ما هوجم من الجو، وهنا انطلقت القوات الإسرائيلية فى هجومها الشرس على اللواء الذى لم يكن لديه الوسيلة الفعالة للدفاع ضد هذا الهجوم».

« إن هذه المعركة تعتبر مثالاً لما يمكن أن تحققه القوات الجوية المجهزة بالصواريخ جو ـ أرض ضد قوة برية لا تملك دفاعاً جوياً مؤثراً وخفيف الحركة».

«لم تشترك أية قوات أرضية معادية فى المعركة، ومع ذلك فقد نجح طيران العدو فى تشتيت اللواء».

«وقد أمكن خلال الأيام التالية جمع الكثيرين من أفراده وإنقاذ الكثير من معداته مما جعل خسائره أقل بكثير من ٩٠٪ الذى جاء فى أول بلاغ. لكن الحقيقة الثابتة هى أن اللواء خرج من المعركة وفقد الاعتبار كقوة مقاتلة لعدة أيام، إلى أن تمت إعادة تنظيمه وتعويض خسائره».

(٣١)

هكذا يحرص الفريق الشاذلى ـ كما رأينا ـ على أن يقدم فى كتابه كل التفصيلات

الممكنة عن الإنجازات التى تحققت فى معركة ٦ أكتوبر ١٩٧٣، ولكنه يجعل هذه الإنجازات تتوارى فى ظل ما يحفل به كتابه من أحاديث أخرى تتعلق بالسادات وبالسياسات، وهكذا تضاءلت قيمة كتاب الشاذلى من حيث علاقة المضمون بالعنوان. بل إن الأدهى من ذلك أن الكتاب صار بمثابة المرجع المعتمد فى الهجوم على نصر ٦ أكتوبر وقادته دون أن يعتمد بنفس الدرجة عند تأكيد هذا النصر والحديث عن تفاصيله الكثيرة التى يحفل الكتاب بالحديث عنها... ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومن هذه التفاصيل ـ على سبيل المثال ـ حديث الشاذلى عن الوسيلة التى تمت بها سيطرة قيادة قواتنا المسلحة على عملية العبور، وهو يولى أهمية كبرى للحديث عن انتباه القيادة لاحتمالات التداخل بين التوقيتات، وكيف أمكن حل هذه المشكلة، وكيف أمكن أيضاً وضع خطط بديلة فى حالة تعطل أو تدمير أى كوبرى من الكبارى المفترض بناؤها من أجل اتمام العبور، كما يذكر الشاذلى كيف أنيطت هذه المهمة برئيس أركان كل فرقة من الفرق العابرة، وأنيط الإشراف بها برئيس أركان كل جيش:

«قد يتساءل القارئ : ماذا يمكن أن يحدث لو تدخل العدو وانقلبت هذه التوقيتات رأساً على عقب؟ أليس من الممكن أن يتحول هذا العبور العظيم إلى فوضى عارمة؟ وللإجابة على ذلك أود أن أوضح أن جميع توقيتاتنا قد أدخلت فى حسابها مثل هذا التدخل، وأن التوقيتات التى ذكرناها تزيد كثيراً على التوقيتات التى أمكن تحقيقها فى التدريب، كما أن توقيتات العمليات حسبت على أساس حوالى ضعف التوقيتات التى يمكننا تحقيقها فى التدريب نهاراً وحوالى ٥٠٪ زيادة على التوقيتات التى يمكننا تحقيقها فى التدريب ليلاً، وبالتالى فإن توقيتاتنا المحسوبة تستطيع أن تستوعب مثل هذا التدخل ما لم يتطور مثل هذا التدخل فى بعض القطاعات إلى أعمال غير متوقعة».

«ومع ذلك فلكى نقابل مثل هذا الاحتمال أنشأنا قيادة خاصة لتنظيم عملية العبور، وزودنا هذه القيادة بكل ما تحتاج إليه من إمكانيات، وكان على قمة هذه القيادة فى كل فرقة رئيس أركان الفرقة، كما كان رئيس أركان كل جيش هو المسئول الأول عن السيطرة على عملية العبور. كانت هذه القيادة تسيطر على ٤٠ نقطة عبور للمشاة فى

كل نقطة عبور ١٨ قارباً و٣٥ معبر معدية و١٥ كوبريا (١٠ ثقيل و٥ خفيف)، ولكى تستطيع الوحدات الفرعية الوصول إلى هذه النقطة فإنه يتحتم عليها أن تمر فى سلسلة من نقط المراجعة التى تملك سلطة السماح لها بالمرور أو إيقافها وذلك طبقاً لخطة العبور وسير العمليات».

«وقد أعطيت هذه القيادة سلطة التعديل فى خطة العبور طبقاً للموقف. فلو فرضنا مثلاً أنه تم تدمير أحد الكبارى تدميراً كبيراً وأنه لن يمكن إصلاحه إلا بعد بضع ساعات فإنه يمكن تحويل العبور إلى كوبرى آخر بالأسبقية نفسها التى كانت لها على الكوبرى المدمر، وحتى نضمن السيطرة الكاملة على عملية العبور فقد خصصنا لهذه المهمة ٥٠٠ ضابط و١٠٠٠ ضابط صف وجندى ومعهم ٥٠٠ جهاز لاسلكى و٢٠٠ هاتف ميدانى وما يزيد على ٧٥٠ كيلومترا من أسلاك الهاتف الميدانية».

وعلى الرغم من هذا التنظيم الجيد الذى أشار إليه الفريق الشاذلى فسوف نرى من مذكرات الشاذلى وغيره من القادة أنه فى وسط الحرب اضطر الفريق الشاذلى والقادة إلى إعادة تنظيم القيادة الخاصة بهذه المعابر لأنه كان من الصعب أن تحرم الفرق من رؤساء أركانها.

(٣٢)

ويورد الفريق الشاذلى واقعة مهمة ينقل ما فيها بالرواية عن المشير أحمد إسماعيل وتنبئنا هذه الواقعة بأمرين مهمين، الأمر الأول أن أشقاءنا السوريين كانوا لا يزالون فى حاجة إلى فسحة من الوقت قبل أن يشاركوا فى حرب أكتوبر، ويبدو أنهم لهذا السبب عبروا عن هذا الوضع بأن طلبوا تأجيل بدء الحرب يومين، أما الأمر الثانى فهو أنه كان من المستحيل على صاحب القرار المصرى أن يعيد التفكير فى اتخاذ القرار بعد أن بدأ شهر أكتوبر الحاسم، وذلك لأن المعركة المجيدة لم تبدأ فى واقع الأمر يوم السادس من أكتوبر ولكنها بدأت بالفعل قبل هذا بأيام، ذلك أن خطة الحصار البحرى كانت تقتضى البدء فى تنفيذها قبل المعركة بعدة أيام، وهكذا فإن المشير أحمد إسماعيل أبلغ السوريين باستحالة الاستجابة إلى مثل هذا الطلب، ولنقرأ هذه الرواية الممتعة عن هذا الموقف الدقيق والحافل بالإثارة وحبس الأنفاس:

«وفى يوم ٣ أكتوبر سافر الوزير (أى أحمد إسماعيل) إلى سوريا ومعه اللواء نوفل وبعد عودته قال لى: «لقد كان السوريون يريدون أن يؤجلوا يوم ى (يوم بدء القتال) لمدة ٤٨ ساعة ولكنى قلت لهم إن هذا لا يمكن الآن. إن مثل هذا التأجيل قد يضيع عامل المفاجأة. فكروا فى موقف الفريق الشاذلى على الجبهة المصرية وما يمكن أن يسببه ذلك له من مشكلات. لا أعتقد أنه يمكن أن يوافق على هذا التأجيل. وقد وافقوا فى النهاية على أن يبقى يوم« ى» كما هو، وأن تكون ساعة س هى ١٤٠٠ يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣».

«لقد كان فعلاً من المستحيل إيقاف عجلة الحرب أو تأجيلها. لقد كانت الحرب قد بدأت فعلاً بالنسبة لبعض الوحدات. لقد أبحرت بعض غواصاتنا يوم أول أكتوبر لتتخذ أوضاع القتال وتقوم بتنفيذ المهام المخصصة لها فى التوقيتات المحددة لذلك. ولأغراض الأمن والسرية فقد فرضنا صمتاً لاسلكياً ولم تكن هناك أية وسيلة للاتصال بهذه الغواصات إلا بعد بدء العمليات الفعلية » .

« وقد تذكرت فى تلك اللحظة اللواء أبو ذكرى قائد البحرية عندما اتصل بى قبل أن تخرج الغواصات إلى البحر وقال: «ستخرج الغواصات إلى البحر الآن. إنى أؤكد لك مرة أخرى أنه ليس هناك من وسيلة للاتصال بهم لإجراء أى تعديل فى التوقيت. هل أعطى لهم الأمر بالخروج؟»، قلت له: «نعم.. لا تغيير فى أى شىء».

(٣٣)

ويتفوق الشاذلى على الجميع فى حديثه بحرفية فنية عن خطة الخداع المصرية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ فيقول: إن زوجته نفسها كانت أحد أهدافه فى خطة الخداع، ولنقرأ هذا الذى يرويه:

«لقد كانت زوجتى هى الأخرى أحد أهدافى فى عملية الخداع، و قد أعددت العدة لذلك قبل بدء القتال بفترة طويلة. لقد عودتها طوال الفترة التى أشغل فيها منصب رئيس الأركان أن تتلقى فجأة هاتفاً من مكتبى يخطرها بأننى أقوم بزيارة الوحدات وأن أتغيب لمدة أسبوع دون أن أتصل بها، وهكذا أمكننى أن أقوم برحلتى

السرية إلى الجزائر والمغرب ما بين ١٦ و٢٢ سبتمبر دون أن تعرف أنني خارج القطر. وعندما انتقلت إلى المركز رقم ١٠ اعتباراً من أول أكتوبر وانقطعت أخبارى عن المنزل لم يكن ذلك شيئاً غريباً عليها، إذ أنها تعودت على ذلك إلى أن استمعت إلى أخبار الحرب من الإذاعة والتليفزيون مثلها فى ذلك مثل أية مواطنة مصرية عادية».

❑

وعلى الرغم من سعادة الشاذلى وفخره بخطة الخداع التى نجحت القوات المسلحة فى تطبيقها ونجح فى إتمامها حتى على زوجته، فإن الشاذلى نفسه يظهر فى هذه المذكرات ندمه الشديد على تردده فى الإعداد لتصوير فيلم سينمائى عن معركة العبور نفسها، وهو يروى فى مذكراته حواراً طويلاً دار بينه وبين نفسه عن هذه الفكرة ثم ينتهى إلى القول:

«وبهذه المناسبة يجب أن أقرر هنا بأن الصور التى نشرت فى الصحافة الوطنية والصحافة العالمية والتى كانت تمثل دباباتنا وهى تعبر فوق الكبارى والمعديات وجنودنا المشاة وهى تركب القوارب وتعبر القناة والقوارب التى يرفرف عليها العلم المصرى فى أثناء العبور، كلها صور مزيفة لم يتم تصويرها فى أثناء المعركة. إنها صور قام الإعلام المصرى بالتقاطها بعد المعركة لأغراض الدعاية وقام بتمثيلها جنود كومبارس وأخذت لهم تلك الصور بعيداً عن قصف المدافع ولعلعة الرشاشات».

من الضرورى هنا أن نستدرك على الشاذلى لفظ مزيفة، وكنت أفضل أن أشير عليه بلفظ «تمثيلية» أو «غير حية»، ذلك أن التزييف شىء آخر يهدف إلى اصطناع دليل مادى دون أن يكون له وجود.

وبعد فقرات يؤكد الشاذلى على هذا المعنى ويقول:

«كم أشعر الآن بتأنيب الضمير لأننى لم أستمع إلى النداء الذى كان يطلب منى أن نقوم بتصوير هذا العبور ورفضت ذلك من أجل المحافظة على السرية».

(٣٤)

ويبدو الفريق الشاذلى فى بعض صفحات هذه المذكرات وقد وصل إلى إحدى

ذرى الفهم العميق لطبيعة العسكرية والقتال والحرب حين يقدم هذا التحليل المتميز الذى يبدى فيه أسفه لأن بعض قواتنا دمرت بعضها، لكنه فى ذات الوقت ينتبه إلى الثناء على سرعة تصرف هذه القوات التى لم تجعلها تتردد فى أن تطلق نيرانها بسرعة حاسمة وبالغة على مَنْ تصورته خصماً:

« ... بعد أن زرت هذا الحصن أخذت أتجول فى ميدان المعركة فوقع بصرى على منظر حزين، منظر أربع دبابات مصرية محترقة يواجه بعضها بعضا، وعلى مسافة تقل عن ٥٠٠ متر. لقد دمرت بعضها بعضا خطأ، ويظهر من برج إحداها رجل متفحم يشير بيده إلى الدبابات التى فى مواجهته».

« إن مثل هذه الحوادث تحدث بكثرة فى الحرب ولا يمكن تجنبها بتاتاً، وإن كان من الممكن الإقلال منها».

ويردف الشاذلى بالحديث المفصل والواعى عن الآثار النفسية لمثل هذه الحوادث العابرة والمؤسفة فيقول :

«إن الشعور بالذنب الذى يستولى على الرجال الذين يقتلون زملاءهم خطأ خلال الحرب قد يحولهم إلى حطام ما لم يجر علاجهم علاجاً نفسياً ومساعدتهم على التخلص من تأنيب الضمير الذى يلازمهم » .

« لقد سبق أن قلت إن فرق المشاة كانت تقوم بتوسيع رءوس الكبارى وسد الثغرات التى بينها، وفى فجر يوم ٨ أكتوبر كانت فصيلة مشاة تتحرك شمالاً بهدف التلاقى وإكمال حصار موقع العدو «الإسماعيلية شرق»، وبعد أن عبرت الدبابات الثلاث المتقدمة شمالاً أحد التلال، فوجئت بالدبابات الثلاث الأخرى المتقدمة جنوباً، كان وقع المفاجأة عنيفاً على الطرفين وتصرف كل منهما بما تمليه الغريزة فى ميدان القتال، فأطلقت كل فصيلة النار على الأخرى وكانت النتيجة تدمير دبابتين من كل فصيلة من الطلقة الأولى » .

« لم تُطلق سوى أربع طلقات وكانت خسائرنا أربع دبابات وأربعة أطقم. لقد وقفت خاشعاً أمام دباباتنا المحطمة، ولكنى لم أستطع أن أكتم شعوراً داخلياً بالفرحة لمستوى الجندى المصرى من حيث الروح القتالية ومستوى التدريب. مهما كانت

الأسباب لـهذا الحادث المحزن، فإنـه يشهد لأصحابـه بأن المفاجأة لـم تشل تفكـيرهم وأنهم أطلقوا نيرانهم في وقت واحد، وأن تسديدهم كان دقيقاً للغاية».

❑

ولنتـأمل أيضاً هذه الـصورة التي يقـدمها الشـاذلي عن مشاهـداته في الجبهـة عند زيارته الأولى لها في ٨ أكتوبر :

«عند وصـولي إلى قطاع الـفرقة السابـعة مشاة وجدت الـطريق المؤدى للـكوبرى مزدحـماً، مما دفعنـي إلى الـترجل والـسيـر بضع مـئات مـن الأمتار لـلوصـول إلى الكوبرى. وهـناك وجدت قائد الفـرقة العميد بـدوى [كان قد أصبح وزيراً لـلدفاع حين نشـرت هذه المذكرات ورئيسـا للأركان قبلهـا ولكن الفريـق الشـاذلي يكتـفى له بلقب العميد] يقف بجوار الكوبرى، عبـرنا الكوبرى سيراً على الأقدام حيث ركبنا عربة قائد الفرقة وأخذنا نقوم بجولة على القوات داخل رأس كوبرى الفرقة» .

« لم تكن الأمور قد استـقرت تماماً في قطاع الفرقة، فقد عثـرنا على ملازم ومعه ثلاث دبابات في مكان منعزل دون أن يـعرف مكان وحدته الأم. كان الموقف الإدارى ليس جـيداً، فقد شـاهدت بعض الجـنود وهم يعبـرون إلى الشاطـئ الغربى ومـعهم صفائح فارغة لملئها بالمياه».

ولا ينسى الشـاذلي أن يشير إلى أن استخدام كبـارى الفرقة السـابعة لعـبور الفرقة ١٩ مشاة وإعاشتها قد ألقى عبئاً ثقيلاً على كبارى هذه الفرقة.

(٣٥)

ومن الجزئيات المـهمة التي ترويها هـذه المذكرات قصة رفض أحد الجنـود القيام بدوره في حرب ١٩٧٣ وهي قصة تدلنا على مدى الـتفاوت الطبيعي بين استعدادات البشـر لأداء المهام التي يكلفون بها، وسنرى الـشاذلي وقد عالج الموضوع بحكمة بالغة ولكننا مـع هذا نأخذ عليه أنه لـم يلتفت في المبررات التـى يقدمها إلى الحالة الـنفسية لجنوده، وأن يعليّ من هذا الالتفات فوق الالتفات إلى ما قد يقوله الأعداء:

« فى الساعة العاشرة من صباح يوم السبت ٦ أكتوبر أبلغنى أحد قادة الجيوش هاتفياً بأن لديه ضابط صف برتبة رقيب يرفض القتال.. عندما أخطر بمهمته فى القتال فى صباح ذلك اليوم قال لقائده: «إن القتل والعنف ليسا من طبيعتى كما أنهما يتعارضان مع معتقداتى وأنا لا أستطيع أن أقوم بتنفيذ هذه المهمة»، وحاول أصدقاؤه وقادته أن يثنوه عن هذه الفكرة ولكنه أصر على رأيه » .

«كان قائد الجيش فى ذروة الغضب وهو يبلغنى بهذا الخبر وأضاف قائلا بأنه سوف يأمر بتشكيل مجلس عسكرى عال لمحاكمة الرقيب المذكور، لكننى أخذت الموقف بمنتهى البساطة وقلت له: «لا عليك إنه مجرد فرد واحد من مائة ألف سوف يقتحمون القناة بعد ساعات قليلة. إنى أعلم أن نسبة الذين يرفضون القتال فى الجيوش الأخرى أعلى من ذلك بكثير.. لا تشغل نفسك بهذا الموضوع، أرسله تحت الحراسة إلى السجن الحربى وسوف نبحث موضوعه فيما بعد».

« كنت أعرف أن محاكمة هذا الشخص بمجلس عسكرى عال وصدور الحكم والتصديق عليه لم تكن لتستغرق نصف ساعة. إن المتهم يرفض القتال ويعترف بذلك والإعدام هو الجزاء المنتظر لذلك. ومن الممكن أن ينفذ فيه حكم الإعدام أمام أفراد وحدته. لقد جال هذا الشريط بسرعة فى خيالى فاستبعدته» .

« لم أكن أريد أن أبدأ عملياتنا الهجومية بإعدام أحد رجالنا. قد يقال فيما بعد أن المصريين لم يعبروا القناة إلا بعد أن رأوا رأس زميلهم معلقة فى الهواء، وبذلك يستطيع أعداؤنا أن يشوهوا سمعة الجندى المصرى. لا! لن نعطيهم الفرصة لذلك، سوف نقدمه للمحكمة فيما بعد، سوف نحاول دراسة نفسيته لكى نعرف كيف تتولد هذه الأفكار، وكيف يمكن التغلب عليها » .

« قد يخجل بعض المصريين الشرفاء من سماع هذه القصة لكنى أطمئنهم بأن هذه الحالات تحدث فى الجيوش الأجنبية بنسبة أعلى من ذلك بكثير» .

« لقد اشترك فى حرب أكتوبر بطريق مباشر حوالى أربعمائة ألف رجل، عبر منهم مائة ألف رجل، فهل يضير الشرف العسكرى المصرى أن يتخلف منهم رجل واحد؟».

ولا ينسى الفريق الشاذلى فى هامش الكتاب أن يعترف بأنه لم يعرف ـ حتى وقت كتابة مذكراته ـ مصير هذا الرقيب:

«لقد شغلتني أحداث المعركة ولا أعرف حتى الآن مصير هذا الرقيب البائس، لكني أعتقد أن حالته جديرة بالدراسة العلمية والنفسية».

(٣٦)

ويبدو لنا من مذكرات الفريق الشاذلي أن الإسماعيلية (وليس السويس فحسب) كانت هدفاً للإسرائيليين على يد فرقة شارون المدرعة، لكن الله نصرنا ولم يكن معنا إلا لواء مظلات واحد خاض معركة دفاع مستميتة ليلة ١٨ / ١٩ والأيام التالية من أجل حماية الإسماعيلية ونجح في تحقيق هذا:

« بدأ لواء المظلات يتقدم جنوباً واحتل عدداً من المصاطب إلى أن وصلت عناصر منه إلى مكان تستطيع منه أن ترى الكوبرى الذى أقامه العدو فى الدفرسوار، وقد ساعدنا فى تصحيح نيران المدفعية إلى أن حددنا مكان الكوبرى بدقة ».

« ومنذ ذلك الوقت أخذت مدفعيتنا تصب عليه النيران دون هوادة طوال الليل وطوال نهار اليوم التالى، وقد تنبه العدو إلى دقة نيران المدفعية التى تقوم بتوجيهها العناصر المتقدمة من لواء المظلات فقام بهجوم مضاد واحتل المصطبة التى كنا ندير منها نيران المدفعية، وعلى الرغم من أن لواء المظلات عجز عن استرداد تلك المصطبة، وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك مصطبة بديلة يمكن منها أن نوجه نيران المدفعية ضد الكوبرى، فقد كانت المعلومات التى حصلنا عليها من اشتباكاتنا السابقة كافية لأن نستمر بالضرب » .

« كانت الإشارات الملتقطة من العدو نتيجة ضرب مدفعيتنا مشجعة للغاية وتفيد بأن العدو قد تحمل خسائر فادحة. وبمجرد أن وصلتنا المعلومات بقيام العدو بنصب كوبرى آخر شمال الكوبرى الأول وجهنا نيران مدفعيتنا على الكوبرى وأصبناه بخسائر فادحة. إن الدفاع المستميت الذى قام به لواء المظلات وكتيبتان من الصاعقة خلال ليلة ١٨ / ١٩ والأيام التالية كان له الأثر المباشر فى منع تقدم العدو شمالاً وإفشال محاولته فى تطويق الجيش الثانى » .

« يقول الجنرال هرتزوج فى كتابه «The war of atonement» فى صفحة ٢٤٥ ما

يلى: «لقد قوبلت فرقة شارون المدرعة ولواء المظلات الإسرائيلى بمقاومة عنيفة من المشاة والمدفعية المصرية وتحملت خسائر فادحة. لقد كانت مهمة شارون هى احتلال الإسماعيلية لكن المقاومة التى قام بها الكوماندوز المصريون أوقفت تقدمهم».

«يقول هرتزوج فى كتابه صفحة ٢٣٩: «لقد كان الكوبرى تحت نيران مستمرة وفى ليلة واحدة قتل ٤١ شخصا من قوة جاكى (المكلفة بتشغيل الكوبرى) وجرح عدة مئات».

....

وبعد صفحات يلخص الشاذلى فى موضع آخر بطولة مدينة السويس فى قوله:

«لقد خسر العدو فى محاولته احتلال السويس ١٠٠ قتيل وحوالى ٥٠٠ جريح، وعلى الرغم من أنه استخدم فرقة مدرعة من ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مظلى فقد صد هجومه سكان السويس وحفنة من الجنود الشاردين. إن ملحمة السويس هى شهادة أخرى للمواطن المصرى ومدى قدرته على التحمل والتحدى وقت الشدائد».

«ولكى يغطى العدو خيبة الأمل التى أصيب بها بعد فشله فى هجومه على السويس أطلق على المدينة الباسلة قواته الجوية ومدفعيته واستمر يقصفها طوال الأيام ٢٥ و٢٦ و٢٧ أكتوبر، ولم يتوقف القصف إلا صباح يوم ٢٨ أكتوبر بعد وصول قوات الأمم المتحدة إليها. لقد بلغت خسائر الجيش الثالث ومدينة السويس نتيجة قصف الطيران والمدفعية خلال الفترة من ٢٤ إلى ٢٧ أكتوبر ٨٠ شهيدا و٤٢٥ جريحا».

❑

ويحرص الفريق الشاذلى فى مذكراته التي بين أيدينا على أن يشيد بموقف الفريق يوسف عفيفى فى فترة حصار السويس:

«... وفى يوم ٢٤ أكتوبر هاجم الإسرائيليون مدينة السويس مستخدمين فى ذلك ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مظلياً، ولكن مدينة السويس التى لم يكن بها أية وحدات عسكرية ولكن بعض الجنود الشاردين نتيجة القتال الذى دار فى يوم ٢٣ أكتوبر

توافدوا إلى المدينة وليس معهم سوى سلاحهم الشخصى البندقية (الرشاش الخفيف) وبمبادرة من العميد يوسف عفيفى قائد الفرقة ١٩ مشاة التى كانت شرق القناة، وبالتعاون مع محافظ مدينة السويس قام الطرفان بتجهيز المدينة للمقاومة خلال يوم ٢٣ أكتوبر . لقد تم تجميع الجنود الشاردين وتنظيمهم فى مجموعات صغيرة. وتم توزيع السلاح على الأهلين المدنيين، وقام العميد يوسف عفيفى بسحب جماعات أقتناص الدبابات من الشرق ونقلها إلى المدينة فى الغرب، وقبل فجر يوم ٢٤ أكتوبر كانت المدينة قد جهزت نفسها للعدو» .

ومن الجدير بالذكر أن المشير الجمسى هو الآخر قد أشاد بيوسف عفيفى فى مذكراته التى تناولناها فى الباب الأول من هذا الكتاب، ومن الجدير بالذكر أيضا أن يوسف عفيفى هو صاحب المذكرات التى تناولناها فى الباب الرابع من هذا الكتاب ولكن مذكراته مع عظمتها تبقى أقل من انجازه.

(٣٧)

ومنذ الصفحات الأولى لهذا لكتاب يحرص الفريق سعد الدين الشاذلى على أن يصحح معلوماتنا ومعلومات غيرنا عن أحوال القوات المسلحة المصرية فى بداية عهد السادات ، وهو بما ينشر من تفصيلات التفصيلات يصور حالة هذه القوات فى الأفرع المختلفة للقوات المسلحة تصويراً دقيقاً جداً يستحيل معه أن نأخذ بما يطلقه الفريق محمد فوزى من أقوال مرسلة تصور أنه كان بالإمكان القيام بحرب أكتوبر نفسها فى نهاية عهد الرئيس عبدالناصر أو فى بدايات عهد الرئيس السادات، ذلك أننا نفاجأ فى مذكرات الشاذلى بتحليل تفصيلى لقواتنا وإمكانات هذه القوات، ومقارنة بينها وبين قوات العدو على كل المستويات، وهكذا يتبين لنا الجهد الذى بذل فى إعداد هذه القوات حتى خاضت الحرب التى شنتها بتوفيق من الله باقتدار شديد فى أكتوبر ١٩٧٣ .

ولست بمستطيع أن أنقل للقارئ كل التفصيلات التى يفيض بها كتاب الفريق

الشاذلى، لكن قراءة بعض هذه التفصيلات كفيلة بأن تصور لنا الموقف بطريقة تقترب من الكمال.

يشير الشاذلى ـ على سبيل المثال ـ بوضوح إلى أن المشروعات التدريبية كانت تفترض عند وضعها وجود قوات أكبر مما هو متاح عندنا، ولا يرى الشاذلى أن هذا التصور كان بمثابة الخطأ الكبير، ولكنه كان عملاً كفيلاً بأن يصور مدى احتياجاتنا من أجل تنفيذ الخطة، ويقرر الشاذلى فى وضوح أن الثغرة بين إمكانياتنا الهجومية وخططنا الهجومية التأمت تماماً فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ حيث أصبحت الخطة مطابقة للإمكانات:

«وحيث إن إسرائيل كانت تتفوق علينا تفوقاً ساحقاً فى كل شىء خلال عام ١٩٦٨ والأعوام التالية، فقد كان مديرو هذه المشاريع الاستراتيجية (أى وزراء الحربية) يفرضون امتلاكنا لقوات مصرية ليست موجودة واقعياً، وذلك حتى يكون من الممكن تنفيذ مشروع الهجوم بأسلوب لا يتعارض مع العلم العسكرى» .

« وبمعنى آخر [يقصد : بعبارة أخرى] فإن المديرين كانوا يضعون الخطة الهجومية على أساس ما يجب أن يكون لدينا، إذا أردنا القيام بعملية هجوم ناجحة، ولا يمكن أن نعتبر هذا خطأ كبيراً حيث إن مثل هذه الخطط، وإن كانت غير واقعية، فإنها تظهر بوضوح حجم القوات المسلحة التى يجب توافرها لكى يمكن تنفيذ خطة هجومية ناجحة. وفى خلال السنوات ١٩٦٩ وما بعدها أخذت قواتنا المصرية تزداد قوة، وأخذت خططنا فى تلك المشاريع الاستراتيجية تبدو أقل طموحاً ـ نتيجة ربط الأهداف بالإمكانيات الواقعية ـ وبذلك أخذت الثغرة بين إمكانياتنا الهجومية وخططنا الهجومية تضيق شيئاً فشيئا، حتى تم إغلاقها تماماً فى أكتوبر ١٩٧٣، وهكذا أصبحت خطتنا الهجومية عام ١٩٧٣ مطابقة للإمكانيات الفعلية لقواتنا المسلحة».

(٣٨)

ويشير الشاذلى بالتفصيل إلى طبيعة وحقيقة المشاريع التدريبية التى دأبت القوات المسلحة المصرية على القيام بها منذ ١٩٦٨، وهو بما يسجل فى هذا الصدد يعطينا

الأمل فى مصر التى استطاعت فى ظل ظروف قاسية ومستمرة ألا تكف عن مشروعات التدريبات، وقد اشترك الشاذلى نفسه فى هذه المشاريع من ثلاثة مواقع مختلفة، حتى إذا حان وقت حرب ١٩٧٣ كانت الحرب نفسها بمثابة المشروع التدريبى الذى نفذ، وهو تصوير أدبى بلاغى رفيع المستوى يتفق مع ما يرويه القادة الآخرون من أن الجنود فى نهاية العمليات الحربية فى أكتوبر ١٩٧٣ كانوا يسألون عن انتهاء المناورة دون أن ينتبهوا إلى أنها الحرب نفسها وليست المناورة:

« ...لم نكف عن التفكير فى الهجوم على العدو الذى يحتل أراضينا حتى فى أحلك ساعات الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧. لقد كان الموضوع ينحصر فقط فى متى يتم مثل هذا الهجوم وربط هذا التوقيت بإمكانيات القوات المسلحة لتنفيذه. وفى خريف ١٩٦٨ بدأت القيادة العامة للقوات المسلحة تستطلع إمكانية القيام بمثل هذا الهجوم على شكل «مشاريع استراتيجية» تنفذ بمعدل مرة واحدة فى كل عام » .

« وقد كان الهدف من هذه المشاريع هو تدريب القيادة العامة للقوات المسلحة، بما فى ذلك قيادات القوات الجوية والقوات البحرية وقوات الدفاع الجوى، وكذلك قيادات الجيوش الميدانية وبعض القيادات الأخرى، على دور كل منها فى الخطة الهجومية » .

« لقد اشتركت أنا شخصياً فى ثلاثة من هذه المشاريع قبل أن أعين رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة. لقد اشتركت فى مشاريع عامى ١٩٦٨ و١٩٦٩ بصفتى قائداً للقوات الخاصة (قوات المظلات وقوات الصاعقة)، واشتركت فى المرة الثالثة عام ١٩٧٠ عندما كنت قائداً لمنطقة البحر الأحمر العسكرية. وقد جرت العادة على أن يكون وزير الحربية هو المدير لهذه المشاريع، وقد استمرت هذه المشاريع خلال عامى ١٩٧١ و١٩٧٢، أما المشروع الذى كان مقرراً عقده عام ١٩٧٣ فلم يكن إلا خطة حرب أكتوبر الحقيقية التى قمنا بتنفيذها فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣».

(٣٩)

ويتناول الفريق الشاذلى فى مذكراته بتفصيل كبير الفرق بين خطتى ٢٠٠

وجرانيت اللتين كانتا موجودتين قبل ١٥ مايو ١٩٧١ وبين الخطط الجديدة (الخطة ٤١، المآذن العالية، بدر) التى أعدتها القوات المسلحة بعد ١٥ مايو ١٩٧١، أى فى عهده كرئيس أركان وعهد الوزيرين الفريق أول محمد أحمد صادق والمشير أحمد إسماعيل، وسنرى الشاذلى مع احترامنا له لا يمل من نسبة كل شيء إلى نفسه، وفى كل جملة نجد الضمائر المتصلة والمنفصلة لا تشير إلى أحد غيره، ومع هذا فإن التاريخ لن يتوقف كثيراً عند هذه الضمائر ولكنه سيتوقف عند الحقائق والوقائع، أما الأدب فسوف يعجب من هذا الاعتداد الشديد بالنفس فى نص تتضمنه مذكرات شخصية، ذلك أن المذكرات الشخصية تحرص قدر الإمكان على الخلاص من ضمير المتكلم حتى تصور تجربة الحياة فى إطار الحياة لا فى إطار الحديث الشخصى .

وقد كان فى وسع الشاذلى ـ على سبيل المثال ـ أن ينسب الإنجاز فى كل مرحلة من مراحل هذا الكتاب إلى مجموعة العاملين فى كل مرحلة من المراحل بحيث يبقى هو موجوداً فى كل المجموعات دون أن يعنى هذا أن آخرين سيشاركونه المجد أو يقتسمون معه ما نال من مناصب، ولكن الشاذلى لم يشأ أن يفعل هذا، أو بالأحرى لم يستطع أن يفعل هذا، فقد كان إحساسه الشديد بالظلم الشديد دافعاً قوياً له على أن يصمم على نسبة كل إنجاز إلى نفسه مع أن هذه الإنجازات فى حد ذاتها تنوء بحملها العصبة من الرجال أولى القوة:

«عندما عينت رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة فى ١٦ مايو ١٩٧١، لم تكن هناك خطة هجومية. لقد كانت لدينا خطة دفاعية تسمى «الخطة ٢٠٠»، وكانت هناك أيضاً خطة تعرضية أخرى تشمل القيام ببعض الغارات بالقوات على مواقع العدو فى سيناء، لكنها لم تكن فى المستوى الذى يسمح لنا بأن نطلق عليها خطة هجومية، وكانت تسمى «جرانيت».

«بدأت عملى بدراسة إمكانيات القوات المسلحة الفعلية ومقارنتها بالمعلومات المتيسرة عن العدو، بهدف الوصول إلى خطة هجومية تتمشى مع إمكانياتنا الفعلية، وقد أوصلتنى تلك الدراسة إلى النقط الرئيسية التالية:

١ ـ إن قواتنا الجوية ضعيفة جداً إذا ما قورنت بقوات العدو الجوية، إنها لا تستطيع أن تقدم أى غطاء جوى لقواتنا البرية إذا ما قامت هذه القوات بالهجوم عبر أرض

سيناء المكشوفة، كما أنها لا تستطيع أن توجه ضربة جوية مركزة ذات تأثير على الأهداف الهامة فى عمق العدو.

٢ ـ إن لدينا دفاعاً جوياً لا بأس به، يعتمد أساساً على الصواريخ المضادة للطائرات SAM، لكن للأسف الشديد، فإن هذه الصواريخ دفاعية وليست هجومية، إنها جزء من خطة الدفاع الجوى عن الجمهورية، وهى لذلك ذات حجم كبير ووزن ثقيل وتفتقر إلى حرية الحركة (لم يكن لدينا فى هذا الوقت SAM6 الخفيف الحركة الذى يستطيع أن يتحرك ضمن تشكيلات القوات المهاجمة)، وبالتالى فإنها لا تستطيع أيضاً أن تقدم غطاء جوياً لأية قوات برية متقدمة عبر سيناء. إنها سلاح مناسب فى الدفاع حيث يمكن أن نوفر لها الوقاية بوضعها فى ملاجئ خرسانية يتم إنشاؤها خلال بضعة أشهر، أما إذا خرجت من هذه الملاجئ لترافق القوات البرية المهاجمة، فإنها تصبح فريسة سهلة لقوات العدو وقوات مدفعيته.

٣ ـ كانت قواتنا البرية تتعادل تقريباً مع قوات العدو، لقد كان لدينا بعض التفوق فى المدفعية ـ فى ذلك الوقت ـ لكن العدو كان يحتمى وراء خط بارليف المنيع الذى كانت مواقعه قادرة على أن تتحمل قذائف مدفعيتنا الثقيلة دون أن تتأثر بهذا القصف. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت قناة السويس ـ بما أضافه العدو إليها من موانع صناعية كثيرة ـ تقف سداً منيعاً آخر بين قواتنا وقوات العدو(!)

❑

وحتى يستكمل صاحب هذه المذكرات تصوير الموقف فإنه يستشهد فى الهامش برأى الإسرائيليين أنفسهم:

«ذكر اليعازر رئيس أركان حرب القوات المسلحة الإسرائيلية خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣، أنه فى أثناء مناقشة احتمال قيام المصريين بالهجوم عبر القناة علق ديان ساخراً: «لكى تستطيع مصر عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف فإنه يلزم تدعيمها بسلاح المهندسين الروسى والأمريكى معاً»، وكان الجنرال بارليف يؤيد ديان فى هذا القول».

وهنا يردف الفريق الشاذلى بقوله :

«إن هذه الشهادة من قادة العدو هى شهادة نعتز بها لأنها تظهر عظمة التخطيط وروعة الأداء اللذين تم بهما إنجاز هذا العبور العظيم».

(٤٠)

ويصل الفريق الشاذلى إلى فقرة من أرفع فقرات كتابه مستوى حين يذكر بوضوح كيف أنه توصل إلى طبيعة المعركة التى على قواتنا أن تخوضها، وكيف اختلف ـ مبكراً ـ فى تقديره للموقف مع القائد العام وزير الحربية الفريق أول محمد صادق، وهو يروى تفصيلات هذا الخلاف المبكر فى الرؤية الاستراتيجية للمعركة القادمة التى كان على هذين القائدين أن يخططا لها:

«قبل مرور شهرين على تعيينى رئيساً للأركان العامة، كنت قد أصبحت مقتنعاً بأن معركتنا القادمة يجب أن تكون محدودة،ويجب أن يكون هدفها هو «عبور قناة السويس وتدمير خط بارليف واحتلاله ثم اتخاذ أوضاع دفاعية بمسافة تتراوح بين ١٠ و١٢كم شرق القناة، وأن نبقى فى هذه الأوضاع الجديدة إلى أن يتم تجهيز القوات وتدريبها للقيام بالمرحلة التالية من تحرير الأرض» .

« وعندما عرضت هذه الأفكار على الفريق أول محمد أحمد صادق بصفته وزيراً للحربية وقائداً عاما للقوات المسلحة، عارض هذه الفكرة بشدة وقال إنها لا تحقق أى هدف سياسى أو عسكرى، فهى من الناحية السياسية لن تحقق شيئاً، وسوف يبقى ما يزيد على ٦٠٠٠٠ كيلومتر من سيناء ـ بالإضافة إلى قطاع غزة ـ تحت الاحتلال الإسرائيلى، ومن الناحية العسكرية سوف تخلق لنا موقفاً صعباً، فبدلاً من خطنا الدفاعى الحالى الذى يستند إلى مانع مائى جيد، فإن خطنا الدفاعى الجديد سوف يكون فى العراء وأجنابه معرضة للتطويق، وبالإضافة إلى ذلك فسوف تكون خطوط مواصلاتنا عبر كبارى القناة تحت رحمة العدو».

❑

ثم يلخص الفريق الشاذلى فكرة الفريق أول محمد أحمد صادق فى الحرب أو العملية الهجومية، وكيف أنه أخذ يقنعه ويلاينه من أجل التخلى عنها :

«لقد كانت فكرته فى العملية الهجومية هى أن نقوم بتدمير جميع قوات العدو فى سيناء، والتقدم السريع لتحريرها هى وقطاع غزة فى حملة واحدة ومستمرة! قلت

له: كم أود أن نقوم بتنفيذ ذلك، لكن ليست لدينا الإمكانيات للقيام بذلك سواء فى الوقت الحالى أو فى المستقبل القريب، رد قائلا: «لو أن السوفييت أعطونا الأسلحة التى نطلبها فإننا نستطيع أن نقوم بهجومنا هذا فى خلال عام أو أقل». لم أوافقه على رأيه هذا وأخبرته أننا قد نحتاج إلى عدة سنين لكى نحصل ونتدرب على الأسلحة اللازمة لمثل هذا الهجوم، وأعدت ذكر الأسباب التى تفرض علينا القيام بعملية هجومية محدودة».

ثم يروى الشاذلى أنه بعد مناقشات طويلة وممتدة مع الفريق أول صادق وصلا إلى حل وسط كالعادة فى مصر، وهو تجهيز خطتين لا خطة واحدة، ويورد الشاذلى تفصيلات الخطتين معترفاً بمشاركة المستشارين السوفييت فى تحضير الخطة الأولى، وإن كان يبرر هذا الإشراك بأنه كان له هدف وهو اطلاعهم على السلاح المستهدف، أما الخطة الثانية فإن الشاذلى يشير إلى أنهم لم يطلعوا عليها، بل إن عدد القادة المصريين الذين شاركوا فيها كان محدوداً جداً:

«وبعد مناقشات مطولة وعبر جلسات وأيام متعددة وصلنا إلى حل وسط هو تجهيز خطتين، خطة تهدف إلى الاستيلاء على المضائق، وأخرى تهدف إلى الاستيلاء فقط على خط بارليف».

«أطلقنا على الخطة الأولى اسم «العملية ٤١»، وقمنا بتحضيرها بالتعاون مع المستشارين السوفييت بهدف إطلاعهم على ما يجب أن يكون لدينا من سلاح وقوات، لكى نصبح قادرين على تنفيذ هذه الخطة. أما الخطة الثانية فقد أطلقنا عليها الاسم الكودى «المآذن العالية» وكنا نقوم بتحضيرها فى سرية تامة، ولم يكن يعلم بها أحد من المستشارين السوفييت، كما أن عدد القادة المصريين الذين سمح لهم بالاشتراك فى مناقشاتها كان محدوداً للغاية».

«وفى خلال يوليو وأغسطس ١٩٧١ كانت الخطتان قد تم استكمالهما، كانت الخطة ٤١ غير قابلة للتنفيذ إلا إذا توافرت أسلحة ووحدات افترضنا وجودها، أما خطة المآذن العالية فقد كانت أول خطة هجومية مصرية واقعية».

يروى الشاذلى تفصيلات مهمة عن طلب الأسلحة اللازمة لتنفيذ الخطة ٢٧٧ ثم ٤١ من الاتحاد السوفيتى، وسنرى الشاذلى يوازن بين الروايات التى تقول بأن

السوفييت لم يلبوا طلباتنا والروايات الأخرى التى تقول إن السوفييت أعطونا الكثير، نرى الشاذلى يوازن بين الرأيين بجملة حاسمة تقول: «ورغم ضخامة الصفقة فإنها لم تغط جميع الأسلحة اللازمة لتنفيذ الخطة رقم ٤١».. ولا يقف الشاذلى عند أى حدود فى ذكره تفصيلات الصفقات السوفيتية كما سوف نرى بالتفصيل فى فقرات تالية من هذا الباب:

«وبناء على الخطة ٤١ قمنا بتحرير كشوفات [يقصد: كشوف] بالأسلحة والعتاد المطلوب الحصول عليهما من الاتحاد السوفيتى، وكالعادة دارت مناقشات مطولة بيننا وبين المستشارين الروس بخصوص هذه الكشوفات. فقد كان الروس يتهموننا دائماً بالمغالاة فى مطالبنا، بينما كان الجانب المصرى يتهم الروس دائماً بعدم الاستجابة إلى مطالبنا العادلة والضرورية».

«وفى أكتوبر ١٩٧١ سافر الرئيس السادات والفريق أول صادق إلى موسكو حيث تم الاتفاق على صفقة أسلحة كانت تعتبر أكبر صفقة أسلحة مع السوفييت حتى ذلك الوقت، ورغم ضخامة هذه الصفقة فإنها لم تغط جميع الأسلحة اللازمة لتنفيذ «الخطة رقم ٤١».

«ورغم أن هذه الصفقة كانت تشمل ١٠٠ طائرة ميج ٢١ FM، فوج صواريخ كوادرات مضادة للطائرات خفيف الحركة (سام ٦)، فإن قدراتنا فى الدفاع الجوى حتى بعد التدعيم بهذه الأسلحة الجديدة لم تكن بقادرة على حماية أى تقدم لقواتنا البرية فى اتجاه المضائق طبقاً لمتطلبات «الخطة رقم ٤١». كما أن الأسلحة والمعدات التى تقرر وصولها قبل نهاية عام ١٩٧١ لم يكن فى استطاعتنا أن نستوعبها قبل أبريل ١٩٧٣ فى أحسن الظروف».

(٤١)

ولا يبخل الفريق الشاذلى على القارئ لهذا الكتاب برواية التعديلات التى أجريت على الخطط العسكرية الكبرى من ٤١ إلى المآذن العالية إلى جرانيت ٢ إلى بدر:

«فى خلال عام ١٩٧٢ أخذنا ندخل بعض التعديلات الطفيفة على كل من «الخطة رقم ٤١» و«خطة المآذن العالية»، وذلك بناء على التغيير المستمر فى حجم قواتنا وحجم قوات العدو، لكن جوهر كل خطة بقى كما هو عليه، لكن تم تغيير اسم «الخطة ٤١» لتكون «جرانيت٢»، وبنهاية عام ١٩٧٢ بقيت «خطة المآذن العالية» هى الخطة الوحيدة الممكنة بينما كانت الخطة «جرانيت ٢» هى خطة المستقبل التى يشترط لتنفيذها حدوث تغييرات أساسية فى إمكانيات قواتنا المسلحة».

❑

من حق القارئ هنا أن يسأل الشاذلى عن السبب الذى جعله أو جعل غيره يغير اسم الخطة رقم ٤١ إلى اسم قديم هو «جرانيت»، مما قد يعطى القادة القدامى (وقد حدث) الحق فى القول بأن الخطة ٤١ بعد تعديلها ليست إلا خطتهم القديمة مع تعديلات طفيفة، لكن الشاذلى ـ للأسف ـ لم يجب عن هذا السؤال.

❑

ومرة أخرى لا يبخل الشاذلى على كتابه بتفصيلات مهمة عن أوجه قصور الخطة الجديدة التى كانت تستهدف الوصول إلى المضائق:

«كان مازال هناك ثلاث نقط ضعف رئيسية تحد من قدراتنا على تنفيذ الخطة «جرانيت ٢» ، وكانت أولى هذه النقط هى ضعف قواتنا الجوية، لم يكن لدى قواتنا الجوية الإمكانيات التى تمكنها من تصوير وتفسير وتسليم الصور الجوية فى وقت يسمح بالاستفادة من هذه المعلومات، كذلك لم تكن القوات الجوية بقادرة على توفير الدفاع الجوى للقوات البرية فى أثناء تحركها، وكانت نقطة الضعف الثانية هى عدم توافر كتائب صواريخ سام خفيفة الحركة بالقدر الذى يمكنها من أن تحل محل القوات الجوية فى توفير الغطاء الجوى للقوات التى تتقدم شرقاً،وكانت نقطة الضعف الثالثة هى عدم قدرة غالبية عرباتنا على السير عبر الأراضى، أى خارج الطرق الممهدة وعبر الأراضى الرملية» .

«لقد تعلمنا من خبراتنا السابقة فى الحرب أن العربات ذات السعجلات التى لا تتمتع بمقدرة مقبولة على السير فى الرمال خارج الطرق، تشكل عبئاً ثقيلاً على كاهل

القوات المقاتلة. فعندما يقوم طيران العدو بتدمير بعض هذه العربات فى أثناء سيرها على الطرق المرصوفة، فإن هذه العربات تقوم بسد الطريق مما يدفع العربات اللاحقة - فى محاولة لتفاديها - إلى الخروج عن الطريق المرصوف فتغرز فى الرمال ويتكرر الأمر نفسه حتى يختنق الطريق تماماً بما فى ذلك حوالى ٥٠ متراً من كل جانب بالعربات المعطلة أو المغروزة».

(٤٢)

ثم يروى الشاذلى بطريقة غير مباشرة أن الظروف واتته للانتصار لرأيه القديم عندما عين الفريق أول أحمد إسماعيل وزيراً للحربية فى أكتوبر ١٩٧٢، فقد كان من حسن حظ مصر (لا حسن حظ الشاذلى ولا حسن حظ أحمد إسماعيل) أن الرجلين على اختلاف موقعيهما من قبل كانا يقدران أن قيام مصر بحرب هجومية كبيرة قد يقود إلى كارثة، وكان الشاذلى يعلم أن أحمد إسماعيل قد سجل هذا فى تقرير أعده وهو فى منصبه السابق كمدير للمخابرات، وأن الرئيس السادات أشار إلى هذا التقرير فى اجتماع ٦ يونيو ١٩٧٢ ووافق عليه.

وهكذا فإن الشاذلى فيما يرويه هنا قد ذكّر أحمد إسماعيل بما كان قد كتبه فى تقريره، وأضاف أن القوات المسلحة لم تتغير كثيراً منذ كتب تقريره، وهكذا اتفق الرجلان منذ أيامهما الأولى على التركيز على خطة المآذن العالية، ونحن نلاحظ أن الشاذلى لا يصور الأمر بفعل «الاتفاق»، ولكن باللفظ الذى يقول إن المشير أحمد إسماعيل هو الذى «اقتنع»، مع أن الشاذلى نفسه روى لنا أن هذا كان رأى أحمد إسماعيل منذ شهور!!:

«عندما عين الفريق أحمد إسماعيل وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة خلفاً للفريق صادق فى نهاية شهر أكتوبر ١٩٧٢، عرضت عليه خططنا الهجومية لمناقشتها معه. لقد كنت أعلم مسبقاً وجهة نظره عن الحرب من تقرير كان قد تقدم به بصفته مديراً للمخابرات العامة فى النصف الأول من عام ١٩٧٢، وفى هذا التقرير

ذكر بأن مصـر ليست على استـعداد للقيام بحـرب هجومية، وحذر من أنـه لو قامت مصر بشن الحرب تحت هذه الظروف فإن ذلك قد يقود إلى كارثة، وكان هذا التقرير قد رفع إلى رئيـس الجمهورية وأرسلت صورة منه إلى القيادة العامة للقوات المسلحة، وأيد رئيس الجـمهورية هذا التقـرير فى مؤتمره الذى عـقد فى القناطر الخـيرية يوم ٦ يونيو ١٩٧٢» .

« وعنـدما كنت أنـاقش الموقـف العسـكرى مع الفـريق أحمـد إسماعـيل بصفـته الجديدة كوزير للحربية، ذكرته بتقريـره السابق وقلت له: «لـم تحدث اختلافات كبيرة فى القوات المسلحة منذ تقريرك، وبالذات فيمـا يتعلق بالدفاع الجوى، ولكننى أعتقد أنه بإمكاننا أن نقـوم بعملية هجومية محدودة». ثم عرضت عـليه الخطة «جرانيت ٢» وخطة «المـآذن العالية»، وقد اقـتنع بعدم قدرتـنا على تنـفيذ الخطة «جرانـيت ٢» وأنه يجب علـينا أن نركز على خـطة «المآذن العالية»، وتحـدد ربيع ١٩٧٣ كميعاد مـحتمل للهجوم».

(٤٣)

ونعـود إلى الـفريـق الشـاذلى وهـو يحدثـنا عـن قيامه هـو ـ دون سواه ـ بـوضع اللمسـات النهائية عـلى خطة المآذن العالـية، ولكن يبدو الـشاذلى مضطراً فـى الجملة الثانية ولأول مرة لأن يتـحدث عن وجود آخرين معه، فإذا هو على غـير عادته يقول: «كان يتـحتم علينـا » دون أن يحدد المقـصود بـ«نا»، وفى سـرعة شديدة نجد الـشاذلى يتحدث عن التوسع فـى عدد القادة وكأن ما كان يتم من قبل كان يتـم على مستواه هو وحده، وسنبدأ لأول مرة نحس من خلال نصـوص الشاذلى بوجود الجمسى وإن كان الشاذلى يبخـل على الجمسى بإيراد اسمه مكتـفياً بذكر هيئة العمليـات، كما سنحس أيضاً بوجود المخابرات الحربية ومديرها دون ذكر اسمه:

«عندما بدأت فـى وضع اللمسات النهائيـة على خطة «المآذن العالية»، كـان يتحتم علينا أن نوسع عدد القادة الذين يلمون بالخطة ومناقشة كافة المشكلات والاحتمالات المنتظرة. وفـى أثناء هذه المناقشات برز سؤال هـام: متى وكيف سيقوم العـدو بهجومه

المضاد؟ فى جميع المشاريع الاستراتيجية السابقة كنا نفترض أن العدو سيقوم بهجومه المضاد التعبوى بواسطة لواءاته المدرعة والميكانيكية ضد رءوس الكبارى بعد فترة تتراوح بين ٣٦ و٤٨ ساعة من بدء الهجوم. لقد كنا طبعاً نتوقع بعض الهجمات المضادة الصغيرة بقوة تتراوح بين فصيلة دبابات وكتيبة دبابات خلال الساعتين الأوليين من الهجوم، لكننا لم نكن نهتم كثيراً بمثل هذه الهجمات المضادة حيث إن قواتنا كانت قادرة على صدها بسهولة، لكن عند مناقشة تفصيلات الخطة قدرت هيئة العمليات أن الهجوم المضاد للعدو ينتظر وقوعه بعد ٢٤ ساعة فقط من بدء الهجوم»

« لقد بُنى تقديرهم على أساس أنه على الرغم من جميع ما نقوم به من إجراءات خداع فإن العدو سيكتشف حتماً استعداداتنا قبل بدء الهجوم بثلاثة أيام، وبالتالى يكون لديه الوقت اللازم لتعبئة قواته وحشدها فى أماكن قريبة من القتال تسمح له بتوجيه ضربته بعد ٢٤ ساعة فقط من بدء الهجوم، أما إدارة المخابرات الحربية فقد كانت أكثر حذراً ولم تعترف بأن خططنا الخداعية قادرة على خداع العدو،وأنه سوف يكتشف نوايانا الهجومية بمجرد بدء العد التنازلى ١٥ يوماً قبل المعركة، وأن هذا الوقت الكافى سيسمح له بتعبئة قواته فى يسر وسهولة، وأنه سيتمكن من حشد ١٨ لواء فى سيناء قبل أن نبدأ الهجوم، وبالتالى فإن مدير المخابرات الحربية أشار فى تقريره إلى أنه يتوقع أن يقوم العدو بتوجيه هجومه المضاد فى خلال ٦ ـ ٨ ساعات من بدء هجوم قواتنا».

(٤٤)

ويبدأ الشاذلى منذ مرحلة مبكرة فى اتهام مدير المخابرات الحربية (وليس المخابرات الحربية) بالمبالغة فى تقدير قدرات العدو، ويبدو الشاذلى حريصاً على تصوير نفسه مخاطراً دون أن يوقع نفسه فى شراك عدم التحسب:

«لقد كان واضحاً أن مدير المخابرات الحربية يبالغ فى قدرات العدو حتى يؤمن نفسه فيما لو استطاع العدو أن يقوم بهذا الاحتمال البعيد، أما إذا لم يستطع العدو

تنفيذ هجومه المضاد في خلال ثماني ساعات فلن يتوجه أحد باللوم لمدير المخابرات.
لم أكن مقتنعاً برأي مدير المخابرات، ومع ذلك فلم يكن من الممكن إهمال هذا الرأي وكان علينا أن ندخله في حسابنا على الرغم من المشكلات الكبيرة التي خلقها لنا».

ويروي الشاذلي تفصيلات كثيرة من تفصيلات خطة العبور على نحو ما وضعت، وعلى نحو ما عدلت بناء على تحذير تقرير مدير المخابرات الحربية، ومن حق هذا المدير أن نسدي له التقدير والشكر على دقته في هذا التقرير وتحسبه للعدو وخطورته، مما كان له الأثر الكبير في أن تكون خططنا أكثر دقة وإحكاماً، وهو ما سهل علينا في النهاية مهمة العبور وقلل من خسائرنا في الأفراد والمعدات، وأنا أقول هذا كقارئ لنصوص الشاذلي على الرغم من أن الشاذلي نفسه غير مقتنع بحذر مدير المخابرات ولا بما اتخذت قواتنا من تخطيطات مسبقة بناء على حذره. وعلى الرغم من أن الشاذلي يعدد فيما يلي من فقرات الآثار الجانبية التي نشأت عن الأخذ بتقرير مدير المخابرات الحربية.

ولست في حاجة إلى أن أذكر القارئ بمأساة القوات الجوية المصرية في ١٩٦٧ حين ظلمت وذبحت بسبب أخذها بتقرير المخابرات الحربية الذي حدد مدى قدرة الطائرات الإسرائيلية على الهجوم بثلاثمائة كيلومتر بينما كانت هذه الطائرات تتمتع بمدى أكثر من هذا بكثير جداً مكنها من أن تدمر طائراتنا في مطاراتنا البعيدة والقريبة على حد سواء:

« لقد كانت خطتنا في العبور تتلخص في عبور أفراد المشاة المترجلين في قوارب مطاطية حاملين معهم أسلحتهم الخفيفة التي يستطيعون حملها أو جرها على الشاطئ البعيد، وكنا ننتظر أن تبدأ المعديات في العمل ما بين سعت س + ٥، س + ٧ ساعة، أما الكباري فكنا نعتقد أنها ستكون جاهزة ما بين سعت س + ٧، س + ٩ ساعة(!). وبحسابنا لقدرة جميع المعديات والكباري المنصوبة فإن الدبابات والأسلحة الثقيلة الضرورية ستحتاج إلى حوالي ٣ ساعات على الأقل للعبور والانضمام إلى المشاة، أي أن قواتنا العابرة لن تكتمل إمكانياتها الدفاعية لكي تصبح قادرة على صد هجوم العدو المضاد الرئيسي قبل سعت س + ١٢ ساعة، وفي أحسن الظروف سعت س + ١٠ ساعة، فإذا قام العدو بهجومه المنتظر ما بين سعت س + ٦، س + ٨ ساعة كما

جاء فى تقرير مدير المخابرات الحربية، فمعنى ذلك أنه يسبقنا بحوالى ٤ ساعات، ونكون لديه فرصة جيدة لتدمير مشاتنا قبل أن تصل إليها دباباتنا وأسلحتنا الثقيلة لزيادة إمكانياتها الدفاعية، ولمواجهة هذا الاحتمال اتخذنا الإجراءات التالية:

١ ـ قمنا بزيادة عدد الصواريخ المضادة للدبابات التى يحملها المشاة معهم فى أثناء العبور، وقد تم ذلك على حساب التشكيلات غير المشتركة اشتراكاً مباشراً فى عملية العبور، وهكذا جردت تشكيلاتنا التى كانت فى احتياطيات الجيوش الميدانية، كما جرد احتياطينا الاستراتيجى من جميع الصواريخ المضادة للدبابات مالوتكا بأطقمها، وذلك حتى يمكن أن ندعم بها قواتنا المشاة المكلفة بالعبور. لقد كانت مغامرة لكنها كانت مغامرة محسوبة على أساس أن هذه الأسلحة سوف تسحب هى وأطقمها وتعاد إلى تشكيلاتها الأصلية بعد أن تصل الدبابات والأسلحة الثقيلة إلى المشاة.

٢ ـ قررنا زيادة عدد القوات المكلفة بالعمل فى عمق العدو، وذلك بهدف تأخير وصول قواته الاحتياطية المكلفة بالقيام بالهجوم المضاد، إلى أطول أجل ممكن.

٣ ـ فرضنا على وحدات المشاة المترجلين الذين يعبرون القناة ألا يتجاوز تقدمهم ٥ كيلومترات شرق القناة، مع ضرورة استناد أجنابها على القناة حتى تؤمن نفسها ضد التطويق ثم تتقوقع مشاتنا داخل رءوس الكبارى هذه إلى أن تصل إليها الدبابات والأسلحة الثقيلة».

(٤٥)

على هذا النحو من العرض الجيد للخطط العسكرية والتعديلات التى أجريت عليها استجابة لآراء هيئات العمليات والمخابرات الحربية يحرص الشاذلى على ذكر الإيجابيات التى نشأت من الأخذ بهذه التعديلات على الرغم من تحفظه السابق تجاه تحفظات الآخرين التى كان يعتقد أنها تميل إلى المبالغة :

«...... فرض هذه القيود كان له فوائد متعددة، إن صغر حجم رأس الكوبرى إلى

هذا الحد كان يعنى تقصير الخط الدفاعي، وبالتالى زيادة نسبة تركيز أعداد أسلحتنا المضادة للدبابات لكل كيلومتر من خط المواجهة».

«..... توقف المشاة عند هذا الخط كان يعطى لنا الفرصة لأن نشرك معها قواتنا المتمركزة فى غرب القناة فى معركة صد هجوم العدو المضاد، وذلك بواسطة مدفعيتنا الميدانية ودباباتنا وصواريخنا المضادة للدبابات.... إلخ».

«كذلك فإن توقف المشاة عند هذا الخط يجعلها تتمتع بالعمل تحت مظلة دفاعنا الجوى التى تكون ماتزال على بعد حوالى ١٠ كيلومترات غرب القناة لتبقى خارج مرمى مدفعية العدو الميدانية».

❑

ويبلور الشاذلى بعد حديث طويل ملامح الخطة «بدر» وهى الخطة التى تحقق لنا بها العبور والنصر فيقول:

«كانت الخطوط العريضة لخطتنا الهجومية بعد أن أخذت صورتها النهائية، وبعد أن تغير اسمها من «المآذن العالية» إلى «بدر» تتلخص فيما يلى:

١ ـ تقوم خمس فرق مشاة بعد تدعيم كل منها بلواء مدرع وعدد إضافى من الصواريخ مالوتكا المضادة للدبابات ـ التى تسحب من التشكيلات الأخرى غير المشتركة فى عملية العبور ـ باقتحام قناة السويس من خمس نقاط.

٢ ـ تقوم هذه الفرق بتدمير خط بارليف، ثم تقوم بصد الهجوم المضاد المتوقع من العدو.

٣ ـ ما بين سعت س + ١٨ ساعة، سعت س + ٢٤ ساعة تكون كل فرقة مشاة قد عمقت ووسعت رأس الكوبرى الخاص بها لتصبح قاعدته حوالى ١٦ كم، وعمقه حوالى ٨ كم.

٤ ـ بحلول سعت س + ٤٨ ساعة تكون فرق المشاة داخل كل جيش ميدانى قد سدت الثغرات الموجودة بينها، واندمجت مع بعضها فى رأس كوبرى واحد لكل جيش، وبحلول سعت س + ٧٢ ساعة يكون كل من الجيشين الثانى والثالث

قد وسع رأس الكوبرى الخاص به بحيث يندمج الاثنان فى رأس كوبرى واحد يمتد شرق القناة على مسافة تتراوح بين ١٠ و٥كم.

٥ ـ بعد الوصول إلى هذا الخط تقوم الوحدات بالحفر واتخاذ أوضاع الدفاع.

٦ ـ يتم استخدام وحدات الإبرار الجوى والبحرى على نطاق واسع لعرقلة تقدم احتياطيات العدو من العمق وشل مراكز قيادته».

(٤٦)

ويعود الفريق الشاذلى ليشرح خطة العبور كعقيدة قتالية مترسخة عند قواتنا منذ أعقاب الهزيمة مباشرة، موضحاً الأسباب التى جعلت المخططين يلجأون إلى هذه الخطة على هذا النحو دون غيره من البدائل المتاحة أو المفترضة لحرب هجومية، وفى الحقيقة فإن الفريق الشاذلى فى هذا العرض قد أجاد التعبير عن مقدرة استراتيجية ذات مستوى رفيع تمتع بها هو وزملاؤه فى القيادة العامة للقوات المسلحة:

«إن قرارنا بخصوص عبور قناة السويس على مواجهة واسعة هو عقيدة ثابتة استقرت فى تفكيرنا العسكرى فى مصر منذ عام ١٩٦٨، وقد تولدت هذه العقيدة لدينا للأسباب الآتية:

١ ـ إذا نحن قمنا بتركيز هجومنا على مواجهة صغيرة ـ كما هو الحال فى جميع عمليات العبور السابقة عبر التاريخ ـ فإن ذلك سوف يعرض قواتنا لضربات جوية شديدة، سواء فى أثناء مرحلة تجمعها فى اتجاه الاختراق أو فى أثناء عملية عبورها الفعلى.

٢ ـ إذا ما استخدمنا فرق المشاة التى تقوم بالدفاع غرب القناة فى القيام بالهجوم، بحيث تقوم كل فرقة مشاة من مواقعها الدفاعية بعبور القناة من القطاعات التى فى مواجهتها، فإن ذلك سوف يقدم لنا المزايا التالية:

أ ـ سوف تبقى القوات المكلفة بالهجوم فى خنادقها التى تضمن لها الاختفاء والوقاية لأطول مدة ممكنة قبل أن تغادر هذه المواقع وهى فى طريقها للهجوم.

ب ـ سوف نستفيد من التجهيز الهندسى الموجود فى منطقة كل فرقة لأغراض الدفاع للاستعانة به ضمن متطلبات التجهيز الهندسى الذى يستلزمه الهجوم، وبالتالى نوفر الكثير من أعمال التجهيز الهندسى.

جـ ـ إن ذلك سيجعل أوضاع قواتنا فى الهجوم تكاد تتطابق مع أوضاعها فى الدفاع، وبالتالى لا تكون هناك حاجة لإجراء تحركات كبيرة بين قواتنا قبل الهجوم، مما قد يلفت نظر العدو فتضيع منا فرصة المفاجأة.

٣ ـ إذا اختار العدو أن يقوم بتوزيع هجماته المضادة على طول المواجهة،فإنه سوف يضطر إلى توزيع مجهوداته وسوف تكون لدينا فرص ممتازة لصد هجماته الأرضية والجوية بواسطة دباباتنا وصواريخنا المضادة للدبابات وصواريخنا المضادة للطائرات المنتشرة على طول الجبهة، ولو أن العدو لجأ إلى هذا الأسلوب فإن فرصته فى نجاح هجماته المضادة تكاد تكون معدومة. أما إذا قام بتركيز هجومه المضاد على قطاع واحد أو اثنين من قطاعات الاختراق فإنه قد تكون لديه فرصة أفضل فى تدمير رأس كوبرى لفرقة أو فرقتين بعد تحمله خسائر جسيمة، لكن ذلك سوف يتركنا شرق القناة برءوس كبارى سليمة لعدد ثلاث فرق على الأقل، ومن خلال هذه الفرق يكون فى إمكاننا استعادة الموقف فى القطاعين اللذين يكون العدو قد نجح فى تدميرهما».

(٤٧)

ويقدم الفريق الشاذلى تفصيلات لا نهائية عن الإنجازات التى استطاع هو وجنوده أن يبدعوها وينجزوها من أجل إنجاح خطة العبور والحرب، وهو يقدم لما يرويه عن كل إنجاز من هذه الإنجازات بمقدمة وافية عن مدى الاحتياج إلى هذا الإنجاز، ونحن نلمح له دوراً فى كل إنجاز من هذه الإنجازات، وليس هذا بكثير على رجل مثله!!

لنقرأ ـ على سبيل المثال ـ ما يرويه عن تصنيع عربة الجر اليدوى وتاريخ هذا التصنيع الذى يعود إلى بداية يناير ١٩٧٠ حين عين قائداً لمنطقة البحر الأحمر:

«وعلى الرغم من الأحمال الثقيلة التى كلفنا جنود المشاة بحملها، فإنى لم أكن مطمئناً بالقدر الكافى على قدرة مشاتنا فى الاستمرار فى المعركة لمدة طويلة. لقد كانت الذخيرة التى يحملونها قليلة جداً ومن الممكن أن تستهلك فى قتال عنيف خلال ساعة زمنية واحدة،وعلاوة على ذلك فإنهم لا يحملون ألغاماً أو كاشفات ألغام، أو وسائل مواصلات كافية، أو علامات إرشاد... إلخ. وكان الحل الأمثل لكل هذه المشكلات هو إدخال عربة جر يدوية يمكن جرها بواسطة فردين بعد تحميلها بحوالى ١٥٠ كجم من الذخائر أو المعدات العسكرية، كيف صنعنا وأدخلنا هذه العربة ضمن خطة عبور قناة السويس؟ إنها قصة طريفة سوف أرويها للتاريخ».

«عندما عينت قائداً لمنطقة البحر الأحمر العسكرية فى يناير ١٩٧٠، كان أول عمل قمت به هو دراسة العمليات العسكرية السابقة التى قام بها العدو فى هذه المنطقة على الطبيعة، وكان من ضمن هذه العمليات قيام العدو بقصف ميناء سفاجة بالمدفعية ليلاً وذلك قبل أن أتولى قيادة منطقة البحر الأحمر ببضعة شهور، عندما ذهبت إلى سفاجة عاينت الحفر المتخلفة من قصف المدفعية، فاتضح لى أنها لابد أن تكون نتيجة قصف هاون من عيار ١٢٠ ملليمتر، وبحساب مدى الهاون ١٢٠، وأنسب الأماكن للهبوط بطائرة الهليكوبتر قلت لنفسى: «لو أنى مكان العدو لنزلت فى هذا المكان أو ذاك المكان»، انتقلت إلى المكانين اللذين تصورت أن يكون العدو قد عمل من أى منهما، فوجدت فى أحدهما جميع الشواهد التى تؤكد صدق تخمينى».

« لقد كانت بقايا ومخلفات القصف مازالت فى مكانها وبجوارها عربة صغيرة ذات أربع عجلات، ولها ذراع طويلة للجر، وكان واضحاً أن طاقم الهاون الإسرائيلى قد نقل طلقات الهاون فى هذه العربة إلى مربض النيران الذى كان يبعد حوالى ٤٠٠ متر من مكان هبوط الطائرة. لقد أعجبت كثيراً بهذه العربة وأخذتها معى عند عودتى إلى مركز قيادتى، استدعيت رئيس الشئون الفنية بالمنطقة وعرضت عليه العربة وقلت له «أريد أن تصنع لى ٦ عربات مثل هذه العربة»، وبعد أن فحصها قال لى إنه يستطيع أن يصنع أفضل منها ولكن المشكلة الوحيدة هى العجلات حيث إن القوات المسلحة لا تستخدم عجلات من هذا النوع الصغير. لكنه أضاف أن أنسب العجلات التى يمكن استخدامها هى عجلات الدراجة النارية الإيطالية الصنع (Vespa) [يقصد: الفزبا التى نعرفها وقد كتبها بالحروف الأجنبية].

« قام رئيس الشئون الفنية بشراء العجلات المطلوبة (٢٤ عجلة) من سوق الكانتو فى القاهرة [يقصد: السوق الذى يبيع الأشياء المستعملة]».

« لقد صممنا أن نصنع عربة جر أفضل من العربة الإسرائيلية، وهكذا قمنا بعدة دراسات وتجارب ميدانية على العينتين الأوليين حتى يمكننا أن نحدد أنسب الأبعاد وأقصى الحمولة، وبعد عدة تجارب وجدنا أن أقصى حمولة يمكن جرها بواسطة فردين فوق أرض غير ممهدة ولمسافة ٥ كيلومترات هى ١٥٠ كجم. كما قمنا بتعديل فى طولها حتى يمكن تحميل صواريخ القاذف الصاروخى «جراد ـ ب» الذى كان ضمن تسليحنا فى منطقة البحر الأحمر، وكانت عملية حملها بواسطة الأفراد تعتبر مشكلة، وفى نهاية الأمر أصبحت لدينا فى منطقة البحر الأحمر ٦ عربات جر تستطيع الواحدة أن تحمل ١٥٠ كم من الأسلحة والعتاد، ويمكن جرها بواسطة فردين لمسافة ٥ كم عبر أرض غير ممهدة».

«وبينما كنت أفكر فى مشكلات عبور القناة وأنا رئيس للأركان تذكرت عربات الجر الست التى تركتها فى البحر الأحمر، استدعيت اللواء جمال صدقى مدير إدارة المركبات فى القوات المسلحة فى ٢١ يوليو ١٩٧١ وعرضت عليه واحدة من هذه العربات وقلت له: «أريد أن تصنع لى ١٠٠٠ عربة مثل هذه العربة»، وبعد عدة أيام عاد إلىّ ليخبرنى أنه لو اشترى جميع العجلات المتيسرة فى السوق المحلية فإنه لن يستطيع أن يصنع أكثر من ١٠٠ عربة، أما إذا أعطيته مهلة ٦ شهور فإنه سيكون قادراً على تصنيع جميع هذه العربات بعد أن يكون قد استورد العجلات المطلوبة من الخارج » .

«وافقت على مهلة الشهور الستة، ووفى اللواء جمال صدقى بوعده فكان لدينا خلال يناير ١٩٧٢ ألف عربة من هذا النوع، طلبت منه تصنيع ألف عربة أخرى فكانت جاهزة قبل أكتوبر ١٩٧٢، ثم طلبت ألفاً ثالثة فكانت جاهزة فى أبريل ١٩٧٣، وعندما اقتحمت مشاتنا قناة السويس فى أكتوبر ٧٣ كانت تجر معها ٢٢٤٠ من هذه العربات محملة بذخائر وألغام ومعدات عسكرية يبلغ وزنها ٣٣٦ طنا. شكراً للعدو الإسرائيلى صاحب الفكرة، وشكراً لجميع رجال إدارة المركبات الذين قاموا بتصنيع هذه العربات».

«لقد سبق لنا أن علمنا أن الرجل العادى يستطيع أن يحمل ١٥ كجم زيادة عما يحمله من طعام ومياه ومهمات عسكرية، وهذا يعنى أننا كنا سوف نحتاج إلى ٢٢٤٠٠ (اثنين وعشرين ألفا وأربعمائة) من الحمالين غير المسلحين حتى يستطيعوا حمل ما قامت هذه العربات بنقله».

(٤٨)

ويروى الشاذلى أنه لم يكتشف أهمية تخصيص كوبريين لكل فرقة بدلاً من كوبرى واحد إلا حين كان يضع التوجيه رقم ٤١، وهكذا يمكن لنا أن نرى من خلال مثل عسكرى واضح يرويه رئيس الأركان بنفسه، أهمية التأليف والتدوين والكتابة، فهذا هو رئيس الأركان بنفسه لم يكتشف ضرورة وجود كوبريين وأن كوبرى واحداً لن يكون كافياً إلا حينما جلس ليكتب التوجيه رقم ٤١:

«إن تخصيص كوبريين لكل فرقة من فرق النسق الأول كان من أهم القرارات التى اتخذت خلال فترة التخطيط والتحضير للعمليات. لقد كانت خططنا حتى عام ١٩٧٢ هى أن نخصص كوبرياً واحداً لكل فرقة من فرق النسق الأول، لكنى عندما كنت أقوم بتجهيز «التوجيه رقم ٤١» خلال الربع الأخير من عام ١٩٧٢، اتضح لى أن تخصيص كوبرى واحد للفرقة لن يكون كافياً».

« لقد كانت المعلومات المتيسرة لدينا فى هذا الوقت هى أن العدو سوف يقوم بضربته المضادة التعبوية بعد ١٢ ساعة من بدء الهجوم. كنا نتوقع أن يوجه العدو ضرباته إلى ثلاث رءوس كبارى من الخمسة التى قمنا بإنشائها بمعدل ٢ ـ ٣ ألوية مدرعة فى كل اتجاه، لذلك قمنا بإجراء حساباتنا على أساس أن يكون لدى كل فرقة الأسلحة الكافية التى تمكنها من صد مثل هذا الهجوم، لكن اتضح لنا أن كوبرياً واحداً لن يسمح بعبور جميع هذه الأسلحة فى الوقت المناسب الذى يسمح لها بالاشتراك فى المعركة وصد الهجوم المضاد، لذلك كان لابد لنا من تخصيص كوبريين لكل فرقة».

ثم يروى الفريق الشاذلى سراً جديداً وهو أننـا لم نكن نمتلك حتى بما هو مفترض أن يتم استيراده قبـل نشوب الحرب إلا ١٢ كوبرياً، وهكذا كنا سنـستعمل فى الحرب خمـسة أسداس ما هـو متاح لنـا.. لكنـها كانت ـ علـى حد تـعبير الـفريق الشـاذلى ـ مخاطرة محسوبة لأن الإسراع فى العبور فى حد ذاته كان كفيلاً بزيادة فرص نجاحه.. ومع هذا فينبغى لكل الذين لا يزالون يطلـبون من قواتنا المسلحة فى ذلك الوقت أكثر من الذى حققته أن يتنبهوا إلى هذا المثل الذى يوضح لهم أقصى ما كانت تمتلكه هذه القوات، ولنقرأ نص ما يرويه الشاذلى حيث يقول:

«وهنا يجب أن نتوقف قليلاً حيـث إن جميع الكبارى الثقيلة التى كانت متيسرة لدينا بما فى ذلك المتفق على استيراده هو ١٢ كوبرياً، لاشك أن استخدام عشرة كبارى فى اليوم الأول من الحرب بينما كل ما نملكه هو ١٢ فقط كان يعتبر نوعاً من المخاطرة، لكنهـا كانت مخاطرة محـسوبة.لقد كنت مـقتنعاً بأنـه كلما أسرعنا فـى العبور زادت فرصتنا فى النجاح».

(٤٩)

ولأن سعد الشاذلى على نحو ما صور نفسه فى هذه المذكرات كان كفيلاً بأن يحل كل المشـكلات التى كان الرئـيس السادات يخلـقها، فإنه استـطاع أن يتغلب عـلى ما يسميه هـو مشكلة نقص عدد الـطيارين عن الطائرات بـأن يلجأ إلى كوريا الشـمالية، ويروى الشاذلى فـى مذكراته أن السوفييت سحـبوا ١٠٠ طيار كانوا يقومون بـتشغيل ٧٥ طائرة فى أيدينا، وأنه ـ بعد قصة طويلة ـ استطاع استقدام عشرين طياراً من كوريا الديمقراطية وصلوا مصر فى يوليو ١٩٧٣، وهكذا فإن الشاذلى ـ على ما يرويه هو ـ حل عشـرين فى المائـة من المشـكـلة بتصـرف بادر به هو [وإن كـان قد حصل عـلى موافقة الوزير واستئذان الرئيس].

وسوف نتناول الآن حديث الـشاذلى عن استقدام هؤلاء الطيارين كـما نتناول فى موضع آخر من هذه المذكرات ما يرويه الشاذلى عن رحلته إلى كوريا:

«أما القـوات الجوية فقـد عانت مرة أخرى مـن المشكلة الـقديمة وهـى زيادة عدد

الطائرات على عدد الطيارين وقد دفعنى هذا الموقف لأن أطلب من كوريا الشمالية أن تمدنا بعدد من الطيارين المدربين على قيادة طائرات الميج ٢١ فاستجابت لهذا الطلب وأرسلت لنا ٢٠ طياراً وصلوا إلى مصر فى شهر يوليو ١٩٧٣، ولهذا الموضوع قصة».

«فى خلال مارس ١٩٧٣ كان نائب رئيس جمهورية كوريا الديمقراطية فى زيارة رسمية لمصر، وكان يرافقه فى الزيارة الجنرال زانج زونج نائب وزير الدفاع الكورى، الذى أبدى رغبته فى أن يزور جبهة قناة السويس، وفى يوم ٦ مارس توجهت معه إلى الجبهة وفى خلال الرحلة أخذنا نتناقش ونتبادل الرأى فى المواضيع العسكرية. وقد تحدثت له عن متاعبنا بخصوص أعداد الطيارين وأن لدينا ميج ٢١ أكثر مما نستطيع تشغيلها لاسيما بعد أن سحب السوفييت حوالى ١٠٠ طيار كانوا يقومون بتشغيل ٧٥ طائرة، ثم انتهزت الفرصة وقلت له:

«ترى هل يمكنكم أن تمدونا بعدد من طيارى الميج ٢١؟ إن ذلك سيكون ذا فائدة مشتركة للطرفين، من ناحيتنا فإنكم ستحلون لنا مشكلة النقص فى الطيارين وتسهمون فى الدفاع الجوى، ومن ناحيتكم فإن طياريكم سيكتسبون خبرة قتالية ميدانية لأن الإسرائيليين يستخدمون الطائرات نفسها ويتبعون التكتيكات ذاتها التى ينتظر من عدوكم المنتظر فى المنطقة أن يستخدمها ويتبعها».

«سألنى: ما هو عدد الطيارين الذين نحتاج إليهم، فقت له: إننا لا نتوقع منكم أن تملأوا الفراغ الذى تركه السوفييت ولو أنكم أرسلتم سرباً واحداً لكان كافيا، وإذا احتاج الأمر مستقبلاً لإرسال سرب آخر فإنه يمكن بحث ذلك فيما بعد. كنا نتناقش كجنديين لكن كنا نعلم جيداً أن هذا الموضوع يحتاج إلى قرار سياسى من الطرفين، وقد وعد كل منا الآخر ببذل جهده فى إقناع الجانب السياسى عنده لاتخاذ القرار المطلوب».

«لم أجد أنا أية صعوبة فى إقناع وزير الحربية لكنه أخبرنى بأنه سوف يستأذن أولاً رئيس الجمهورية، وبعد ذلك بعدة أيام وافق الرئيس السادات على الفكرة وجلست أنتظر الرد الكورى، بعد حوالى أسبوعين من رحيل الوفد الكورى عاد الجنرال زانج زونج مرة أخرى إلى مصر وأخبرنى بأن الرئيس الكورى كيم إيل سونج وافق هو

الآخر، لكنهم يدعوننى إلى زيارة رسمية إلى كوريا لمعاينة الطيارين بنفسى قبل إرسالهم إلى مصر. وفى يوم ٢ أبريل ١٩٧٣ بدأت رحلتى إلى بيونج يانج».

(٥٠)

ونأتى إلى جملة يصعب علىّ تصديق أنها وردت فى حديث قائد عسكرى متميز حين يقول الشاذلى إنه قام بالتفتيش [أيجوز لقائد أجنبى أن يفتش على قوات وطنية فى أرضها؟؟] ثم يسارع الشاذلى ليقول إنه بهذه المعاينة وجد أنهم من ذوى الخبرة الجيدة؟ ويردف بأن الكثيرين منهم كان لديه ما يزيد على ألفى ساعة طيران، وهى معلومة تثبت فى أوراقهم أو ملفاتهم دون حاجة إلى معاينة أو تفتيش، ولا يمكن التحقق منها بالمعاينة.. على كل حال لنقرأ الفقرة الطريفة التالية:

«قمت بالتفتيش ومعاينة الطيارين الذين تقرر سفرهم إلى مصر. لقد كانوا من الطيارين ذوى الخبرة الجيدة، وكان الكثيرون منهم لديه ما يزيد على ٢٠٠٠ ساعة طيران. تم الاتفاق على أن تصرف لهم مرتبات بالجنيه المصرى تتطابق تماماً مع رواتب الطيارين المصريين، وقد وعدت الرئيس كيم إيل سونج بأنى شخصياً سأشرف على راحتهم وأننا لن نزج بهم فى معركة داخل إسرائيل أو فوق الأراضى التى تحتلها إسرائيل، وأن عملهم سيقتصر على الدفاع الجوى عن العمق. وقد طلبت من الرئيس الكورى أن يبعث لنا ببعض الخبراء فى الأنفاق حتى يمكننا الاستفادة من خبراتهم فوافق على ذلك، وعدت إلى مصر يوم ١٥ أبريل بعد رحلة من أمتع الرحلات التى قمت بها».

❑

ثم يروى الفريق الشاذلى بعد صفحات بعض الإيجابيات والمشكلات التى نشأت عن وجود هؤلاء الطيارين فى مصر:

«فى أوائل يونيو ٧٣ بدأ الطيارون الكوريون بالوصول وقد اكتمل تشكيل السرب الذى يعملون به خلال شهر يوليو، وفى ١٥ أغسطس أذاع راديو إسرائيل أن هناك

طيارين كوريين في مصر، فاتصل بي الدكتور أشرف غربال المستشار الصحفي لرئيس الجمهورية وسألني عن صحة الخبر، فأخبرته بأن الخبر صحيح ولكن إذاعته أو عدم إذاعته هو قرار سياسي ولاسيما أن هناك دولة أجنبية أخرى يجب استطلاع رأيها قبل إعلانه».

ثم يتحدث الشاذلي بفقرة مهمة يرى فيها أن من حقه أن يذيع ما لم تذعه الدولة لأنه أصبح جزءاً من التاريخ:

«والآن وبعد مرور خمس سنوات على هذه القصة وبعد أن عاد الكوريون وأصبح تدعيمهم لنا وقت الحرب جزءاً من التاريخ، فقد قررت أن أحكي القصة بكاملها حتى يعرف شعب مصر كل من وقفوا معه وقت الشدة. إن أمريكا وإسرائيل والاتحاد السوفيتي يعلمون حقائق الدعم الكوري. إن الطيارين في أثناء تدريبهم اليومي يتحدثون باللاسلكي باللغة الكورية مع أعضاء التشكيل ومع الموجهين الأرضيين، وفي استطاعة أية إدارة مخابرات أجنبية أن تسجل هذه المحادثات، وإذا كان كل من يهمهم الأمر يعرفون، فلماذا نخفي هذه الحقائق عن شعب مصر وعن الشعب العربي؟».

❑

ويأبى الفريق الشاذلي إلا أن يفيض في الحديث عن تفصيلات المشاركة الكورية، وهو يستخدم في وصفها لفظ «التجريدة»، ولست أدري مدى قبول القراء المصريين لهذا اللفظ الذي ينفرون منه لكنه فيما يبدو هو اللفظ العربي (السائد في دول عربية غير مصر) المقابل للمصطلح الإنجليزي الذي يعني البعثة في لغتنا في مصر:

«إن التجريدة الكورية التي أرسلتها كوريا الشمالية إلى مصر تعتبر من أصغر التجريدات التي أرسلتها دولة إلى دولة صديقة أخرى في تاريخ الحروب. لقد كان عدد هذه التجريدة ٢٠ طياراً و٨ موجهين جويين و٥ مترجمين و٣ عناصر للقيادة والسيطرة، وطبيباً، وطباخاً. كانت القاعدة التي خدموا بها تضم ثلاثة آلاف مصري، وكان المصريون يديرون شبكات الرادار والدفاع الجوي والدفاع الأرضي عن القاعدة وجميع الشئون الإدارية الخاصة بالسرب، وقد زرت تلك القاعدة عدة مرات لأتأكد من عدم وجود مشكلات، ولكني كنت دائماً أجد أن كل شيء يسير على ما يرام».

«كانت العلاقة بين الكوريين والمصريين تسير على أحسن ما يرام، كان الكوريون بالنسبة لرجالنا شخصيات غريبة، وكان الطيارون يعتمدون على أنفسهم فى كل شىء. إنهم ينظفون أماكن سكنهم بأنفسهم، ويشغلون أنفسهم دائماً بشىء ما. فأحدهم إما أن يكون فى مهمة تدريبية أو أنه يقوم بالدراسة أو بأعمال رياضية، ليس لديهم أى وقت للفراغ، وليست لديهم أية متاعب إدارية يشكون منها. وقد وقع اشتباكان أو ثلاثة بين الطيارين الكوريين والإسرائيليين قبل حرب أكتوبر، ووقع الكثير خلال الحرب نفسها».

(٥١)

وتشير هذه المذكرات بصراحة شديدة إلى أن الدفاع الجوى كان قد انهار فى ١٩٦٩ مما مكن إسرائيل من الهجوم فى العمق دون مقاومة تذكر وهو يتحدث بوضوح عن هذه الجزئية فيقول:

«وفى خلال يوليو ٦٩ دفع العدو بقواته الجوية فى معارك الاستنزاف وقام بتدمير دفاعنا الجوى فى القطاع الشمالى من القناة وبذلك فتح ثغرة واسعة فى خط الدفاع الجوى ما بين بورسعيد شمالاً والإسماعيلية جنوباً. وأصبح فى استطاعته أن يعبر بطيرانه خلال هذه الثغرة إلى قلب الدلتا، وفى صباح ٩ سبتمبر عبرت قوة إسرائيلية خليج السويس وأنزلت ١٠ دبابات وعدداً من عربات القتال الأخرى فى منطقة الزعفرانة حيث قامت هذه القوة تحت حماية الطائرات الإسرائيلية بمهاجمة وتدمير بعض أهدافنا الأرضية الموجودة فى المنطقة ثم انسحبت دون أى تدخل من قواتنا الجوية أو البحرية حيث إن طيران العدو كان يسيطر على سماء المنطقة طول فترة الإغارة».

«لقد كانت هذه الإغارة دليلاً ساطعاً على مدى ما يستطيع أن يفعله العدو فى ظل سيطرة جوية كاملة، لقد اختار العدو منطقة الزعفرانة لهذه العملية بعناية فائقة. لقد كانت هذه المنطقة من وجهة نظر القيادة العامة للقوات المسلحة ذات أهمية ثانوية، وبالتالى فإن القوات التى خصصت لها كانت قليلة ومنتشرة وضعيفة التسليح. لقد

كان واجبهم الأساسى هو المراقبة والعمل ضد جماعات التخريب الصغيرة التى تتسلل إلى المنطقة ولكن ليس لقتال قوة مدرعة. لقد كان لديهم بعض الأسلحة المضادة للدبابات التى يصل أقصى مداها إلى ٦٠٠ متر بينما كانت دبابات العدو تستطيع أن تدمر هذه الأسلحة وهى على مسافة ٢٠٠٠ متر دون أن يكون فى ذلك أية مغامرة».

«وقد بلغت مشكلة الدفاع الجوى فى مصر أقصاها عندما كثف العدو غاراته فى العمق فدمر دفاعنا الجوى ثم بدأ يوجه غاراته على الأهداف المدنية من مصانع وكبارى ومدارس.. إلخ. ولكى يستعرض العدو امكانياته وسيطرته الجوية قام بعملية فريدة فى نوعها غريبة فى طبيعتها، إذ قام بعملية إغارة على محطة رادار فى منطقة البحر الأحمر ثم قام بفك الجهاز وتحميله فى إحدى طائرات الهليوكوبتر وعاد به من حيث أتى. وبنهاية عام ١٩٦٩ كان دفاعنا الجوى قد انهار تماماً وأصبحت سماء مصر مفتوحة أمام الطائرات الإسرائيلية تمرح فيها كيف تشاء وحيث تشاء».

(٥٢)

وتنطق هذه المذكرات بمدى الذكاء والجهد الرائع وحسن التصرف الذى تميزت به قوات الدفاع الجوى برئاسة قائدها المشيرمحمد على فهمى بعد أن تمكن الرئيس عبدالناصر من اقناع السوفييت فى المشاركة فى الدفاع الجوى فى نهاية ١٩٦٩، ولنأخذ ـ على سبيل المثال ـ هذه القصة التى يروى بها الشاذلى كيف أمكن لهذه القوات أن تنصب كميناً جوياً لطائرة استطلاع من طائرات العدو، وسنرى من القصة التى يوردها الشاذلى مدى الإمكانات غير المحدودة التى كانت متاحة للعدو الإسرائيلى وكيف أمكنه أن يوظفها توظيفاً جيداً وذكياً لخدمة أغراضه، ومع هذا فقد بقى لنا التصميم وحسن التصرف مما مكننا من التصدى فى الوقت المناسب، بل ومن معرفة نواياه بل ومدى استخدامه للأسلحة الجديدة التى تسلح بها (كالقذائف شرايك فى هذه القصة):

«إن إسرائيل لم تحترم قط أى قرار لوقف إطلاق النار فيما يتعلق باستخدام قواتها

الجوية. إنهم كانوا يودون أن يذكرونا دائماً بتفوقهم الجوى فكانوا يتعمدون دائماً أن يخترقوا مجالنا الجوى. كانوا ينتخبون قطاعات اختراقهم بعناية فائقة بحيث يتفادون دائماً الدخول ضمن مرمى نيران صواريخنا المضادة للطائرات، وبالتالى فقد كانوا دائماً يدخلون ويخرجون دون أن ينالوا أى عقاب، وقد ضقت ذرعاً بهذه اللعبة وقررت أن ألقنهم درساً فى ذلك».

«لقد كانت مواقع صواريخنا أرض / جو تقع إلى حوالى ١٥ ـ ٢٠ كم غرب القناة لكى تكون خارج مرمى مدفعية نيران العدو، وقد كان ذلك يحد من مدى قدرتنا على إسقاط الطائرات التى تطير شرق القناة، وكان العدو يقوم بعملية استطلاع إلكترونى بصفة دورية بواسطة طائرة ستراتوكروز محملة بأجهزة إلكترونية بالغة الدقة والحساسية. كانت هذه الطائرة ترصد وتحدد جميع مواقع صواريخنا، وإداراتنا وأجهزتنا الإلكترونية وهى تطير على ارتفاع متوسط فى خط مواز للقناة وشرقها بحوالى ٣كم، وكانت بذلك تضمن أن تكون خارج مدى صواريخنا » .

«وباتفاق سرى بينى وبين اللواء محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى [يكرر الفريق الشاذلى فى مذكراته استعمال تعبير «اتفاق سرى» كما نرى ذلك مثلاً فى أثناء فقرات من حديثه عن حرب أكتوبر كاتفاقه مع مدير المدفعية الفريق سعيد الماحى على تحريك كتيبتين من الشرق ... إلخ، والمقصود من هذا التعبير واضح بالطبع، وإن كان هذا لايعنى بمنطق المخالفة أن بقية الخطوات التكتيكية والعسكرية والتعبوية كانت علنية] قررنا أن ننصب كميناً لهذه الطائرة، وذلك بأن ننقل ليلاً إحدى كتائب الصواريخ إلى موقع متقدم يقع غرب القناة بحوالى ٥ كم، ثم يقتنص الطائرة الإسرائيلية عند مرورها المعتاد. تم تجهيز الكمين، واتصل بى اللواء محمد على فهمى يوم ١٦ سبتمبر ليؤكد جديته لتنفيذ المهمة ويطلب التصديق النهائى على تنفيذ المهمة فصدقتها له، وفى تمام الساعة ١٥١١ يوم ١٧ سبتمبر ١٩٧١ كانت طائرة الاستطلاع الإلكترونى ـ ذلك الهدف الثمين ـ قد أصبحت أشلاء صغيرة متناثرة جنوب البحيرات. انسحب الكمين بسرعة بعد إسقاط الطائرة المعادية، وأخذت أعد العدة لمقابلة الانتقام المنتظر من العدو، فرفعت درجات الاستعداد فى القوات الجوية والدفاع الجوى وبعض عناصر القوات الأرضية والبحرية».

«كان رد فعل العدو سريعاً وفورياً، فقد جاء فى اليوم التالى مباشرة، أى فى يوم

١٨ سبتمبر، ولكن كان واضحاً أن رد العدو يتميز بالعصبية وسوء التقدير، لقد قامت طائراته بإطلاق قذائفها جو ـ أرض من طراز شرايك من مسافة ١٠ كم شرق القناة على مواقع راداراتنا التى كانت حوالى ٢٠كم غرب القناة فلم تتمكن أية قذيفة من الوصول إلى هدفها، لقد كان واضحا أن الطيارين كانوا يخشون الاقتراب من القناة إلى مسافة تقل عن ١٠ كم خوفاً من وجود كمين آخر، فكان ذلك فى حد ذاته يعتبر نصراً لنا، كما أن استخدامهم للقذائف شرايك كانت فرصة جيدة لتدريب قواتنا. كنا نعلم أن العدو لديه هذه القذائف وكانت لدينا خطط لمقاومتها، وكنا ننتظر الفرصة لتجربة هذا الأسلوب فى مقاومة القذائف «شرايك» فأعطانا العدو هذه الفرصة مما أكد لنا نجاح الأسلوب الذى كنا قد أعددناه لذلك».

(٥٣)

ويطلعنا الفريق الشاذلى فى هذه المذكرات على مدى الصعوبات التى كانت تواجه دفاعنا الجوى حين يجد نفسه فى مواجهة الاختراقات الجوية التى يقوم بها العدو الإسرائيلى، وهو إما أن يواجه الاختراقات فيقع فى كمين للعدو على نحو ما نرى من قصة ما حدث فى ١٣ يونيو ١٩٧٢ التى يوردها الشاذلى، وإما أن ينصرف عن هذا التصدى فيزداد العدو صلفاً وغروراً، ولا يذكر الشاذلى أن هذا الوضع كان موجوداً منذ عهد الرئيس الراحل عبدالناصر، وأن قراراً قديماً قد اتخذ تجاهه، وإنما هو كالعهد به فى هذه المذكرات صاحب كل فكر وكل قرار، ولهذا فإنه يقدم لنا التعليمات التى أصدرها هو بناء على فكره هو، وكأنه لم يكن هناك قائد للقوات الجوية ولا قائد للدفاع الجوى:

«فى يوم ١٣ يونيو ١٩٧٢ وفى تمام الساعة ١٦١٩ اخترقت طائرتان إسرائيليتان من طراز فانتوم مجالنا الجوى فى منطقة رأس العش وتوغلتا فى اتجاه الدلتا، وأقلعت طائرتان مصريتان من طراز ميج ٢١ من مطار المنصورة لاعتراض الطائرتين الإسرائيليتين، هربت الطائرتان المعاديتان فى اتجاه البحر بينما استمرت طائرتانا فى مطاردتهما، وفجأة وقعت طائرتانا فى الكمين الجوى الذى أعد لهما والذى لعبت فيه

الطائرتان المعاديتان دور الطعم لسحبهما إلى منطقة الكمين، وفى الوقت الذى اكتشف فيه القائد المناوب وجود الكمين المعادى على شبكة الرادار كان الوقت قد فات لتحذيرهما أو لتدعيمهما، دفعنا ثمانى طائرات ميج ٢١ أخرى لتعزيز طائرتينا السابقتين، لكن العدو كان قد أسقطهما وغادر المكان قبل وصول تعزيزاتنا إلى المنطقة».

«إن هذه القصة تبين المشكلات التى تعترض المسئولين عن الدفاع الجوى. إن العدو يستطيع دائماً أن يخترق أجواءنا، فإذا لم نقم باعتراضه فإنه سيزداد غروراً وصلفاً، وإذا نحن أردنا أن نقوم باعتراضه بسرعة فإننا ندفع بطيارينا إلى السماء دون أية خطة لمقابلة خصم قد خطط وجهز وأعد لكل شىء عدته،ولتلافى وقوع مثل هذه الأحداث مرة أخرى أصدرت تعليمات جديدة تنظم الخطوات التى تتبع فى حالة الاختراقات الجوية المعادية، وكانت هذه التعليمات تشمل النقاط الأساسية التالية:

١ ـ تتخذ طائراتنا أوضاعها على شكل مظلات جوية فى المناطق السابق تحديدها.

٢ ـ يتم تقويم الموقف بهدوء وتفكير بدلاً من مجرد مطاردة طائرات العدو دون أية خطة.

٣ ـ لا يسمح بالدخول فى معركة جوية من موقف غير متكافئ.

«وقد أراد العدو أن يكرر الأسلوب نفسه بعد ذلك بيومين فقام باختراقات على طول منطقة البحر الأحمر بعد ظهر يوم ١٥ يونيو، لكن تعليماتى السابقة كانت نافذة ولم تبتلع قواتنا الجوية الطعم الذى كان يعرض عليها».

❑

ومع هذا كله فإن الشاذلى حريص على أن يثبت أن قواتنا الخاصة بالدفاع الجوى كانت قد نجحت قبل معركة العبور فى إبعاد العدو عن الاقتراب من القناة مسافة عشرة كيلومترات شرق القناة على الأقل، وهكذا ساعدت فى إتمام عملية العبور نفسها على الوجه الأمثل، ويذكر الشاذلى فى هذا الصدد ثلاث حوادث متفرقة تولت فيها قواتنا تلقين العدو الدرس الذى يستحقه:

«فى يوم ٢٤ يوليو ١٩٧٢ حاول العدو أن يستفيد من الأنباء الخاصة بطرد الخبراء

السوفييت من مصر، فاقترب بطائراته من القناة بأكثر مما كان يسمح به لنفسه فى الماضى فأسقطنا له فى الساعة ١٦٤٥ من هذا اليوم إحدى طائراته التى كانت تطير على مسافة ١٠كم من القناة».

«وفى يوم ١٠ أكتوبر ١٩٧٢ حاول أن يكسر هذه القاعدة فاقترب بأحد تشكيلاته من القناة فأطلقنا عليه قذيفتى أرض/ جو فطاشت إحداهما وأسقطت الثانية إحدى الطائرات. كان يبدو أن العدو يحاول اختيار أسلوب جديد فى الهجوم لأنه حاول فى الوقت نفسه أن يعوق عن العمل راداراتنا المخصصة للإنذار وراداراتنا المخصصة لإدارة النيران، لقد كانت فرصة تدريبية لكلا الطرفين».

«وفى يوم ٢٨ يونيو ١٩٧٣ حاول العدو الطيران مرة أخرى فوق المنطقة غير المسموح بها، فأسقطنا له فى الساعة ١٦١٢ إحدى طائراته، ومنذ ذلك الوقت وحتى حرب أكتوبر فى العام نفسه لم يحاول طيران العدو قط أن يقترب إلى القناة مسافة تقل عن عشرة كيلومترات. لقد فرضنا سيطرتنا الجوية فوق هذه الشقة من الأرض بواسطة صواريخنا أرض/ جو، وهكذا مهدنا الظروف لعملية العبور التى كنا نعد لها».

(٥٤)

ويقدم الشاذلى فى هذه المذكرات معلومات تفصيلية وقيمة عن هيئة أركان الحرب التى يرأسها، فنراه وهو يعدد القيادات التى تتبعها حريص على أن ينص على تبعية قيادات الأفرع الثلاثة له شأنها شأن القيادات المحلية للمناطق الجغرافية المختلفة، ونحن نعرف ـ من مذكرات مذكور أبو العز على سبيل المثال ـ مدى حساسية هذه الأفرع لمثل هذه المعاملة، ومع أن قادة هذه الأفرع الثلاثة المعاصرين للفريق الشاذلى تقبلوا بروح رياضية وطنية صادقة بعض هذه الترتيبات التنظيمية إلا أن الشاذلى فيما يبدو من نصه مصر على أن يرتب الأمور من وجهة نظره هو مستغلاً روح التعاون ليحول الحضور الرمزى أو العملى إلى شىء مؤسس .

وسوف نلاحظ أن الشاذلي حريص على الارتفاع بشأن السلاحين اللذين قدر له أن يرأسهما من قبل من خلال منصبه كقائد للقوات الخاصة التي هي الصاعقة والمظلات، وفي الوضع الذي يعرضه لتنظيم هيئة الأركان لا يكتفي الشاذلي بأن يُمثل هذان السلاحان بقائد للقوات الخاصة، ولكنه كرئيس للأركان جعلهما سلاحين منفصلين كأنهما يناظران الطيران والبحرية معاً.. وهذه مجرد ملاحظات قارئ عادي لنص الشاذلي، ولا تنتهي الملاحظات عند هذ الحد فإننا نلاحظ أن مناطق الجمهورية الجغرافية السبع التي تتوزع عليها القوات المسلحة التي لا تنتمي للجيشين الثاني والثالث تبدأ عند الحصر بمنطقة البحر الأحمر التي كان من حظها أن يقودها سعد الشاذلي نفسه:

«إن هيئة أركان الحرب العامة هي جهاز مركب تركيباً غاية في التعقيد، إنها تضم حوالي ٥٠٠٠ ضابط و٢٠٠٠٠ من الرتب الأخرى، وعلى قمة هذا الجهاز يجلس رئيس الأركان وتحت إمرته المباشرة ٤٠ ضابطاً برتبة لواء، كل منهم على قمة فرع أو تخصص أو إدارة لمعاونة رئيس الأركان في السيطرة على القوات، ولتسهيل عملية السيطرة على تلك القوات ذات المليون جندي، فقد تم تجميعها تحت ١٤ قيادة هي: (البحرية - الطيران - الدفاع الجوي - الجيش الثاني - الجيش الثالث - قوات المظلات - قوت الصاعقة - منطقة البحر الأحمر - المنطقة الشمالية - المنطقة الغربية - المنطقة المركزية - المنطقة الوسطى - المنطقة الجنوبية - قطاع بورسعيد)».

❑

ويبدأ الشاذلي في الحديث عن أسلوبه في القيادة، فنعجب من أن هذا الرجل يتحدث كما لو أن القيادة نفسها شيء جديد عليه أن يعامله بأسلوب يتناسب مع الاكتشاف الجديد بحيث يمضي من هم بعده على الطريق الذي اكتشفه هو. وهكذا نجد أنفسنا أمام نصوص للفريق الشاذلي يشرح فيها مذهبه في القيادة، وهو مذهب لا يقوم على التشكك «الجزئي» في المعلومات المقدمة إليه من القادة التالين له فحسب، ولكن على التشكك حتى في قدرته هو نفسه (كقائد) على اكتشاف مواضع الخطأ أو الضلال في المعلومات التي تقدم إليه من هذه السلسلة من القيادة.

ويبدو أن للشاذلي عذراً في هذا الإحساس بتضخم حجم المسئولية الجديد، ذلك

أن المناصب القيادية التى سبق له أن تولاها كانت محدودة فى حجم القادة التابعين له وحجم مهماتهم المنوطة بهم (سواء فى البحر الأحمر أو المظلات)، ولم يتح للشاذلى ـ على سبيل المثال ـ لا قيادة جيش (من الجيشين الأول أو الثانى) ولا منطقة كبيرة (كالمنطقة المركزية أو الشمالية)، ولا قيادة إدارة (كالمدرعات أو المدفعية)، ولا حتى أتيح له قبل هذا أن يقود فرقة من فرق الجيش، وإنما كان أقصى ما وصل إليه من قبل هو قيادة لواء، وهكذا تجاوز فى الترتيب الهرمى التقليدى قيادة الفرقة وقيادة الجيش [متولياً مناصب مناظرة هى قيادة القوات الخاصة وقيادة منطقة البحر الأحمر، فضلاً عن أنه فى ١٩٦٧ قد تولى ـ على ما تنفرد به رواية الفريق أول مرتجى فى صفحة ٦٩ من مذكراته ـ قيادة ما سمى بالمجموعة خفيفة الحركة رقم (١) التى فكر المشير عامر فى تشكيلها من مدرعات ومشاة ومهندسين وقوات خاصة وتتمركز فى المنطقة ما بين رفح والكيلو ١٨ على طريق العريش ورفح، ويقول الفريق مرتجى إن هذه المجموعة لم تقم حتى نهاية الحرب بأى عمل ايجابى يذكر رغم تعدد المهام التى أوكلت لها] وقد تجاوز الشاذلى هذه الخبرات القيادية ليتولى مباشرة رئاسة هيئة الأركان، ونحن نقارنه مثلاً بأحمد إسماعيل الذى كان قائد الجيش كله بعد ١٩٦٧ مباشرة، وكان قبل هذا قائد فرقة، ورئيس أركان حرب الجبهة قبل أن يصل إلى رئاسة أركان حرب القوات المسلحة نفسها، أما المشير محمد على فهمى فقد كان قائداً لقوات الدفاع الجوى لفترة طويلة قبل أن يتولى رئاسة الأركان، وقد تولى المشير الجمسى رئاسة هيئتى العمليات والتدريب قبل أن يتولى رئاسة الأركان وهكذا..

لهذا السبب يبدو الشاذلى صادقاً كل الصدق وهو يعبر عن انزعاجه من حجم المرءوسين الذين أصبح عليه أن يتولى أمر قيادتهم على هذا النحو:

«... لقد تعودت فى الماضى أن أخلق نوعاً من الاتصال المباشر بينى وبين الرجال الذين أقودهم، لم أكن قط من ذلك الطراز من القادة الذين يستمعون إلى تقارير مرءوسيهم المباشرين ويعتمدون عليها اعتماداً كلياً فى اتخاذ قراراتهم. كنت أستمع دائماً إلى تقارير المرءوسين المباشرين ولكنى كنت فى الوقت نفسه أكمل وأتحقق من هذه التقارير عن طريق الاتصال المباشر مع المستويات الصغرى».

« فعندما كنت قائداً لكتيبة مظلات كنت أزور الضباط والجنود وأتحدث معهم

يومياً، وعندما أصبحت قائد لواء مشاة كنت أزور الوحدات الصغرى فى كل أسبوع مرة على الأقل، وعندما أصبحت قائداً للقوات الخاصة (التى كانت تضم قوات المظلات وقوات الصاعقة) كنت أزور كل وحدة فرعية بمعدل مرة كل أسبوع تقريباً، وعندما توليت قيادة منطقة البحر الأحمر العسكرية المترامية الأطراف، التى كانت مواجهتها حوالى ١٠٠٠ كيلومتر، كنت أزور جميع رجالى بمعدل مرة كل شهر تقريباً، وخلال هذه الزيارات المستمرة كنت أستطيع أن ألمس قدرات رجالى الحقيقية، وكنت أستطيع أن أعالج نقاط الضعف التى أكتشفها، وكنت أحقنهم بأفكارى وتعليماتى».

(٥٥)

هكذا رأينا الشاذلى ـ فيما يرويه ـ عن عمله كقائد لمنطقة البحر الأحمر وهو أقصى ما وصل إليه قبل رئاسته للأركان ـ وهو قادر على أن يزور جميع رجاله مرة كل شهر، وهو ما لا يُتصور حدوثه بالطبع عند رئاسته للأركان، ولهذا السبب فإن الشاذلى بدأ فى التفكير فى الحفاظ على هذا «الرباط التاريخى»، وسنقرأ فى السطور التالية حديثه إلى نفسه وهو حديث صادق كل الصدق، معبر كل التعبير، يبدو فى رأيى نموذجاً للأنسنة فى أرفع صورها وهى تشرئب بنظرها إلى المجد وإلى تحقيقه بوسائل مباشرة من الاتصال!

وإنى أستأذن القراء أن يحبسوا أنفاسهم وألا يعالجوا ما يقرأون بصيحات الاندهاش والاستنكار فليس للشاذلى أى ذنب فى هذا، بل إنه يستحق كل تعاطفنا بل وتقديرنا حين يفكر فى الأمر بهذه الجدية، وإن لم يكن يتمتع بواقعية موازية لهذه الجدية:

«وهأنذا الآن رئيس الأركان، فكيف يمكننى أن أحافظ على هذا الرباط التاريخى الذى يربطنى دائماً بجنودى؟ كان من الواضح أن زيارة جميع الوحدات التابعة لى كما اعتدت فيما سبق ضرب من المحال، وفى الوقت نفسه إذا أنا اعتمدت على

سلسلة القيادة التقليدية فإن التقارير التى ستعرض علىّ لا يمكن أن تجعلنى أحس بنبض الجنود وأفكارهم وقدراتهم، كذلك فإنى لن أستطيع أن أضمن أن الجنود يستقبلون تعليماتى بالحماس نفسه الذى أود أن أشعرهم به وأستحثهم لتنفيذه ».

« لقد كان بينى وبين كل جندى مقاتل سبع قيادات، فلو أن إحدى هذه القيادات السبع أهمل أو أخطأ فى العمل كموصل جيد بين رؤسائه ومرءوسيه أو بين مرءوسيه ورؤسائه ـ وهذا احتمال لا يجب استبعاده ـ فإننا لن نضمن تنفيذ تعليماتنا بالأسلوب الذى نبتغيه، ولكى أتغلب على هذه المشكلة وبعد تفكير طويل قررت أن أدخل أسلوباً جديداً لكى أخلق اتصالاً مباشراً بينى وبين الضباط والجنود يتناسب مع ظروف قواتنا المسلحة».

❑

ومن حق القارئ أن يطالع عينة من أساليب الشاذلى " المبتكرة " فى قيادته للمجموعة الكبيرة، وهى أساليب ناجحة بلا أدنى شك وتستحق ثناءنا بل هى أكبر من أن تكون محل تقييمنا كقراء، ولكن يبدو لى أن هذا الذى يرويه الشاذلى فى هذا الصدد شبيه ببعض مرافعات المحامين التى يقول عنها القضاة إنها ترافع للجمهور وليس للمحكمة:

«كانت الوسيلة الأولى هى عقد مؤتمر شهرى تحت رئاستى، وكان يحضر هذا المؤتمر جميع مساعدىّ (أربعون ضابطاً برتبة لواء)، وجميع القادة الرئيسيين (١٤ قائداً)، ومع كل منهم القادة المرءوسين لهم مباشرة، وعلى سبيل المثال يحضر هذا المؤتمر قائد الجيش ومعه قادة الفرق التى تحت قيادته، وهكذا كان عدد الحاضرين فى هذا المؤتمر يتراوح مابين ٩٠ و١٠٠ قائد ومدير » .

« كان مؤتمرنا يمتد من الساعة التاسعة صباحاً حتى الرابعة أو الخامسة بعد الظهر، يتخلله غداء خفيف نتناوله معاً فى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة. لقد كنت حريصاً كل الحرص على عقد هذا المؤتمر الشهرى مهما كانت الظروف، ومهما كانت مشاغلى، نظراً لاقتناعى بضرورته وفائدته الكبيرة، وقد كان آخر مؤتمر شهرى عقدته قبل بدء حرب أكتوبر ١٩٧٣ هو المؤتمر رقم ٢٦ الذى عقد بتاريخ ٢٢ سبتمبر

٧٣، وكان ذلك قبل بدء الحرب بأسبوعين فقط، وهناك تسجيل كامل لكل من هذه المؤتمرات يشمل جميع المواضيع التى نوقشت والقرارات التى اتخذت».

«لقد كنت أعرف من خبرتى السابقة كضابط ميدانى أنه توجد دائماً أزمة ثقة بين الضباط الميدانيين وضباط أركان الحرب فى القيادات العليا. فالضباط الميدانيون كانوا دائماً ينعتون ضباط أركان الحرب بالبيروقراطية وعدم الواقعية، وأنهم دائماً يريدون أن يفرضوا سلطاتهم على الضباط الميدانيين بواسطة تعليمات سخيفة وغير قابلة للتنفيذ. أما ضباط أركان الحرب فإنهم يتهمون الضباط الميدانيين بالإسراف الشديد والتبذير وعدم مراعاة التعليمات الفنية والإدارية فى استخدام المعدات، مما يؤثر على كفاءتها وصلاحيتها، وأن الضابط الميدانى عندما يتلف سلاحه أو معداته فإنه يرمى بها إلى الخلف ويطالب بسرعة إصلاحها أو صرف أخرى جديدة بدلاً منها، وأن إمكانيات الدولة لا تسمح لضباط أركان الحرب بتلبية مثل هذا الإسراف والتبذير الذى يمارسه الضباط الميدانيون».

❑

ويواصل الفريق الشاذلى ما يمكن تسميته بلغة القضاء الترافع للجمهور لا للمحكمة، فنراه يروى كيف نجح فى أن يقضى على فجوة الثقة ما بين القادة الميدانيين وقادة ضباط الحرب، وكيف أن هؤلاء وأولئك اكتشفوا بفضل مؤتمراته أنهم كانوا يغالون فى تصويرهم لعيوب الآخرين:

«كان واجبى ـ وأنا على قمة الجهازين ـ أن أخلق جواً من الثقة بين المجموعتين، حتى يتم التعاون بين الجميع بما فيه صالح القوات المسلحة. لقد كان هذا المؤتمر يتم بأسلوب ديمقراطى سليم، كان أى قائد أو مدير يعرض مشكلته ويناقش جميع جوانبها ثم أدعو الجانب الآخر إلى الرد على وجهة نظره، ويشترك الحاضرون فى إبداء الرأى ثم نتخذ القرار فى النهاية بعد أن يكون الموضوع قد أشبع بحثاً. ونتيجة لهذه اللقاءات اكتشف كل من الجانبين أنه كان يغالى فى عيوب الجانب الآخر، فأخذ القادة الميدانيون يدركون أهمية القيود المفروضة عليهم، كما أن ضباط أركان الحرب والمديرين أصبحوا أكثر إلماماً وتجاوباً مع مطالب القادة الميدانيين».

بل إن الفريق الشاذلى رئيس الأركان يتحدث أيضاً عن نجاحه فى تحقيق الأهداف

الاجتماعية من خلال مؤتمراته، وهو يتحدث حديثاً شبيهاً بأحاديث عميد السلك الدبلوماسى، أو بحديث رئيس اتحاد الطلبة الأجانب فى بلد ناء:

«وفضلاً عن هذا وذاك فإن هذه اللقاءات وتناول الغداء معاً وتجاذب الحديث فى فترات الراحة بعيداً عن الرسميات، خلق جواً من الصداقة بين الطرفين، مما كان له الأثر الأكبر فى إذابة الثلوج التى كانت تفصل بين الطرفين. كانت هذه اللقاءات فرصة لحل معظم المشكلات التى تفرض علينا، أما المشكلات المعقدة التى كانت تحتاج إلى دراسة مطولة فكنت أشكل لجنة مشتركة من الطرفين تقوم بدراستها وتعرض علينا ما توصلت إليه فى مؤتمرنا التالى».

(٥٦)

وعلى الرغم من هذا التغزل الشديد فى هذه الطريقة التى يظنها الفريق الشاذلى وسيلة مبتكرة، فإن الشاذلى نفسه قد اكتشف أن هذه الوسيلة لم تمكنه من الوصول إلا إلى مستويين من مستويات القيادة فقط، على حين تبقت خمسة مستويات لم تشارك فى هذه المؤتمرات العظيمة، وبالطبع فإن الشاذلى نفسه يبالغ حين يظن أن هذه المؤتمرات أوصلته إلى مستويين لأن المستوى الثانى لم يستوعب فى هذه المؤتمرات التى كانت تضم ٩٠ إلى ١٠٠ فقط، منهم أربعون من هيئة الأركان نفسها، فضلاً عن أن المستوى الأول كان يُستوعب بالفعل بطريقة روتينية من خلال الأسلوب التقليدى الذى أراد الشاذلى أن يطوره..

وعلى كل الأحوال فالشاذلى رجل صادق فى تصويره لصعوبة المشكلة، وصادق أيضاً فيما يرويه من حلول ابتكرها، وصادق مرة ثالثة فى تصويره دون أن يدرى محدودية دور ابتكاراته على نحو ما حللنا وعلى نحو ما يمكن لنا أن نحلل من هذا النص البديع الذى سنقرؤه عن توجيهاته المكتبية، وهى توجيهات عظيمة بلاشك وستنقل للقارئ فى البابين الثالث والرابع من هذا الكتاب ثناء اللواء عبدالمنعم خليل والفريق يوسف عفيفى على أحد هذه التوجيهات وهو التوجيه رقم ٤١، لكن الطريف

فى الموضوع أن الشاذلى يحدثنا عن هذه التوجيهات وكأنه أول من استعمل الورق والقلم فى كتابة أوامر أو توجيهات عسكرية وسنرى هذا بأنفسنا الآن:

«وعن طريق هذه المؤتمرات الشهرية أمكننى أن أخلق اتصالاً مباشراً بينى وبين مستويين من القيادة، لكن هذا يعنى أنه مازال هناك خمسة مستويات فى القيادة تفصل بينى وبين الجندى المقاتل. ولخلق هذا الاتصال قررت أن أصدر توجيهات مكتوبة تصل إلى مستوى قائد السرية. وعن طريق هذه التوجيهات أصبح باستطاعتى أن أسمع صوتى إلى ثلاثة مستويات قيادية أخرى».

«لم تكن هذه التوجيهات تصدر بطريقة دورية أو بأسلوب تقليدى، أو يكتبها شخص متخصص ثم يوقع عليها رئيس أركان حرب القوات المسلحة لإعطائها الصورة الرسمية. لقد كنت أكتبها بنفسى وأصدرها طبقاً للظروف والأحداث، وكل توجيه أصدرته كانت وراءه قصة أو حادث أو أخطاء ارتكبت بواسطة بعضهم ولا أريد لها أن تتكرر من قبل الآخرين، لا بمجرد القول بأن هذا خطأ بل بتحليل أسباب الخطأ وتعليم الآخرين كيف يتصرفون فى مثل هذه الظروف، وعن طريق هذه التوجيهات وضعت أفكارى وبصماتى فى عقول رجال القوات المسلحة، ليس بالكلام المنمق الإنشائى ولكن بواسطة الكلمات العلمية الرزينة التى تصدر من ضابط مجرب إلى أشبال يتمنى أن يكونوا أفضل منه فى حمل رآية الحرب والحرية، وكنت عندما أزور مختلف القوات أسأل الضباط والجنود عما ورد فى توجيهاتى، وشيئاً فشيئاً وجدت أن الضباط الأصاغر والجنود قد ارتبطوا بى فكرياً عن طريق هذه التوجيهات وأنهم كانوا ينفذونها بدقة وحماس».

(٥٧)

هكذا تعبر تطلعات الشاذلى السياسية عن نفسها بطريقة صادقة جداً وموحية جداً، ونحن نرى أن كل ما يسيطر عليه أنه يظن أن معجبيه أكبر من أن يستوعبهم قلب رجل واحد، ولنقرأ هذه الفقرة التى يندر لكاتب سيرة أن يصل إلى كتابتها إذا لم تكن جذوة المجد فى قلبه مشتعلة إلى أقصى ما يمكن لجذوة المجد أن تشتعل!!:

«لقد كان يوم ٨ أكتوبر ٧٣ من أسعد أيام حياتي، وذلك عندما كنت أزور وحداتنا في شرق القناة وكان الضباط والجنود يهتفون ويصيحون كلما رأوني بينهم: «عاش التوجيه رقم ٤١، لقد تبعنا تعليماتك في التوجيه رقم ٤١ بالحرف الواحد» «إلخ».

«وفي خلال الفترة ما بين يوليو ٧١ وسبتمبر ١٩٧٣ كنت قد أصدرت ٤٨ توجيهاً، وفي خلال الحرب أصدرت توجيهات أخرى كان أولها هو التوجيه رقم ٤٩ وكان عنوانه «خبرة الحرب في قتال المدرعات»، وقد صدر يوم ١٥ أكتوبر بعد معركة الدبابات التي وقعت في اليوم السابق وخسرنا فيها ٢٥٠ دبابة، وقد كان آخر توجيه أصدرته قبل أن يعزلني السادات من منصبي هو التوجيه رقم ٥٣ الصادر بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٧٣. لقد كانت هذه التوجيهات ذات فائدة كبيرة لتثقيف وتعليم القادة الأصاغر والجنود لأن الكثير منهم كان يعالج التكتيكات الصغرى التي كانت تعتبر من نقط الضعف الرئيسية في قواتنا المسلحة».

❑

ونعود إلى رئيس الأركان الذي يحاول الوصول إلى المستويات السبعة من مستويات الهرم التنظيمي للقوات المسلحة التي يتولى رئاسة أركانها فيقول:

«كما سبق أن قلت كانت توجيهاتي تصل إلى مستوى قائد السرية، وبذلك استطعت أن أخلق ارتباطا مباشراً بيني وبين خمسة مستويات قيادية، لكن كيف يمكنني أن أصل إلى الجندي وضابط الصف وقائد الفصيلة».

يجيب الفريق الشاذلي عن هذا السؤال فيقول :

«في القوات المسلحة يعتبر قائد السرية هو المعلم الأول للسرية، لكن في قواتنا ذات المليون رجل، كان لدينا أكثر من عشرة آلاف قائد سرية أو ما يعادله، ولا يمكن أن نضمن مع التوسع الكبير والسريع في القوات المسلحة، أن يكون جميع الأفراد في هذا العدد الضخم من القادة والمعلمين أكفاء، إن أي ضعف أو تقصير من قائد السرية ينعكس مباشرة على الجنود، وهذه حقيقة نلمسها دائما في القوات المسلحة، فإذا كان القائد جيداً فإن الوحدة تكون دائماً جيدة، وإذا كان القائد سيئاً فإن الوحدة تكون دائماً سيئة».

هكذا يلجأ الشاذلى كعادته وكعادة كثير من الإداريين المصريين غير المخضرمين إلى أن يتشكك فى نجاح الأسلوب التقليدى، فلا يعالج هذا إلا باللجوء إلى أسلوب أكثر تقليدية بإعادة التأهيل أو التفتيش أو التوجيه أو ما إلى ذلك من أساليب إدارية محدودة، وإنما هو يلجأ (كما لايزال كثير منهم يلجأون) إلى أساليب التلقين غير المباشر عن طريق الكتب التى ربما يكون هؤلاء الذين يشكو منهم غير قادرين على فهمها وأحياناً على قراءتها من الأساس:

«ولمساعدة قائد السرية فى مهمته قررت أن أصدر كتيبات صغيرة توزع على كل جندى تعالج بعض المواضيع التى تخص الجندى بصفة مباشرة، وفى خلال عملى كرئيس للأركان أصدرت ٨ كتيبات، ستة منها قبل الحرب، والإثنان الآخران أصدرتهما بعد وقف إطلاق النار، وكانت الكتيبات الستة الأولى هى: دليل الجندى.. دليل السائق.. دليل نقاط المراقبة الجوية.. التقاليد العسكرية.. دليل التائهين فى الصحراء.. عقيدتنا الدينية طريقنا للنصر، أما الكتيبان الآخران اللذان صدرا بعد وقف إطلاق النار فكان الأول هو دليل القادة الأصاغر لضباط المشاة والمشاة الميكانيكية صدر بتاريخ ٥ ديسمبر ١٩٧٣، وكان الثانى هو دليل القادة الأصاغر فى وحدات المدرعات، وقد قمت بمراجعته للمرة الثالثة والأخيرة ودفعته للطباعة يوم ١١ ديسمبر ١٩٧٣».

(٥٨)

ثم يتحدث الشاذلى عن مشكلة حدثت بسبب بعض ما احتواه كتابه «عقيدتنا الدينية طريقنا للنصر»، ومن البدهى أن تتعرض أى نصوص تكتب فى مثل هذا الكتاب لصيحات الاستنكار من النظم الصهيونية وأن تتعرض مقاصدها للتشويه على أيدى الأعداء حين تقع فى أيديهم، ولكن الشاذلى مع هذا يظن أن من حقه على القوات المسلحة أن تتولى الرد على مزاعم الاعداء حين يهاجمون هذه النصوص، وعلى كل حال فان هذه المذكرات تنبئنا أن سفيرنا فى لندن بصفته الشخصية (الذى

هو الفريق الشاذلى نفسه) قد نجح في تصحيح ما لم تستطع الحكومة المصرية تصحيحه فيما يتعلق بنصوص كتبها رئيس الأركان (الذى هو الفريق الشاذلى) ووزعها على جنوده.. وهكذا أصبح الشاذلى نفسه وليس أحد غيره فى موقف جديد يضطر فيه إلى إعادة تفسير نصوصه السابقة التى حدث أن فُهمت بطريقة أخرى لم يقصدها هو:

«لقد كانت هذه الكتيبات فى حجم صغير يسمح بوضعه فى الجيب حتى يستطيع الجندى أن يقرأه فى الوقت الذى يحلو له، وقد قمنا بطبع مليون ومائتى ألف نسخة من كتيب «عقيدتنا الدينية طريقنا للنصر»، وكانت تعليماتى تنص على أن يحمله الجندى معه وهو فى المعركة، وكان يوزع على كل فرد من أفراد الاحتياط عندما يذهب إلى مراكز التعبئة، وقد حدث أن استولت إسرائيل على بعض نسخ هذا الكتيب الذى كان مع مَنْ وقعوا أسرى من رجالنا فى أثناء الحرب، فحاولت أن تسىء تفسير بعض فقراته وتدعى أننى أصدرت تعليماتى إلى الجنود بقتل الإسرائيليين إذا وقعوا أسرى فى أيدينا، وقاموا بحملة كبيرة ضدى، ثم قاموا بترجمة ممسوخة لبعض صفحات هذا الكتيب مما يجعل المعانى تختلط على القارئ. ولم يتحرك النظام المصرى للرد على هذه التهم، وكأن الأمر لا يعنيه، إلى أن عينت سفيراً لمصر فى لندن فقمت بصفتى الشخصية بتكذيب هذه الادعاءات الباطلة لأنها تتعارض مع ديننا وتقاليدنا العربية».

❑

ويعود الفريق الشاذلى ليتحدث عن كتيباته وليخص بالذكر الكتيبين الأخيرين من السلسلة :

«لقد لعبت هذه الكتيِّبات دوراً مهماً فى تثقيف الجنود والضباط الأصاغر وتوجيههم، لكن مما لاشك فيه أن الكتيبين الأخيرين يعتبران ذوى قيمة كبيرة جداً. لقد بينت فيهما ـ على ضوء خبرة الحرب ـ كيف يمكن لقائد الفصيلة والسرية أن يتصرف فى كثير من المشكلات التى تواجهه. لقد كان طبيعياً فى قواتنا المسلحة المصرية أن نجد ضابطاً برتبة ملازم أو نقيب يتكلم بطلاقة وعلم غزير كيف يقاتل اللواء أو كيف تقاتل الكتيبة، لكنه فى الوقت نفسه لا يعرف كيف يقاتل بفصيلته أو

سريته إذا كان يعمل مستقلا بعيدا عن التشكيلات المتراصة للواء أو الفرقة، فكانت هذه الكتيبات والكثير من التوجيهات التى أصدرتها خير علاج لهذا الموقف الخطير».

(٥٩)

ولا يجد الفريق الشاذلى أى حرج فى أن ينتقد أسلوب تحليل المخابرات الحربية للرأى العام دون أن يقدم بديلاً عملياً لهذا الأسلوب، ومع أن مثل هذا الموضوع يكاد يخرج عن نطاق كتابه فإنه حريص على الحديث فيه، وهو يجاهر بما هو مفترض أنه سر، مقدماً لحديثه بقوله: «إنه ليس سرا»، ثم يلبس الشاذلى مسوح زعماء المعارضة ويروى أنه انتقد هذا الأسلوب فى أحد مؤتمراته الشهرية، وأن القادة شعروا بسعادة غامرة وهم يسمعونه يدلى بمثل هذا النقد، وهو لا يحدثنا عن الوسيلة التى أدرك بها شعورهم بهذه السعادة، هل واصلوا التصفيق أو الضحك أو انفرجت أساريرهم أم أن تقارير المخابرات الحربية نفسها هى التى نقلت له سعادة القادة بما سمعوا منه؟:

«ليس سراً أن إدارة المخابرات الحربية لديها مندوبون غير معروفين فى كل وحدة من وحدات القوات المسلحة وأن هؤلاء الأفراد يقومون بإبلاغ إدارة المخابرات سراً بكل ما يرون وما يسمعون. فلو فرضنا مثلاً أن مندوباً واحداً من ضمن آلاف الوحدات سمع شائعة كهذه فإنها تسجل ضمن الشائعات الدائرة، سواء كانت نسبتها واحداً فى الألف أو كانت من تأليف شخص. إن هذا الأسلوب هو إهدار للفكر البشرى لأنه لا يمكن لجميع البشر أن يتفقوا على كل شىء، وإن المناقشة الحرة وتسجيل الآراء فى أسئلة محددة ثم القيام بإحصائيات شريفة [يقصد : دقيقة وغير موجهة] عن هذه الإجابات هى الأسلوب العلمى الصحيح لاستطلاع الرأى».

ويردف الشاذلى بقوله:

«وقد هاجمت هذا الأسلوب فى أحد مؤتمراتى الشهرية وأوضحت أن مثل هذه التقارير التى تقدمها إدارة المخابرات الحربية للسيد رئيس الجمهورية وللسيد الوزير لا تمثل الرأى العام الحقيقى فى القوات المسلحة. وقد شعر جميع القادة الذين

حضروا المؤتمر بسعادة غامرة وأنا أدلي بهذا القول وأيدوني تأييداً مطلقاً في كل ما قلته، ولكني مع ذلك لم أستطع أن أصلح هذا الأسلوب الغريب في استطلاع الرأي، لأن إدارة المخابرات الحربية كانت تخضع لوزير الحربية مباشرة وعلاقة رئيس الأركان بها تنحصر في الفرع الخاص باستطلاع العدو، أما فرع الأمن وتقارير الإدارة بخصوص أمن القوات المسلحة فكانت ترفع إلى رئيس الجمهورية وإلى وزير الحربية، وإذا أرسلت صورة إلى رئيس الأركان فهي للعلم فقط. والغريب هنا أن هذا النظام استمر أيضاً بعد عزل الفريق صادق وتعيين الفريق أحمد إسماعيل بدلاً منه في أكتوبر ١٩٧٢».

(٦٠)

هل لنا أن نترك التفصيلات الحربية والعسكرية والتنظيمية الآن لنتأمل وجهات نظر الفريق الشاذلي فيما يتعلق بالعلاقات المصرية السوفيتية، وغيرها من العلاقات، وقد شهدت فترة خدمته كرئيس للأركان قمة الدراما في هذه العلاقات وإن لم يكن قد شارك بالبطولة في المواقف الحاسمة في تطورها.

ومع هذا فقد شهد ـ كما قلنا ـ هذه التطورات من موقع متقدم جداً يكاد يكون أول المواقع للمراقبين غير المشاركين في التصعيد أو التطوير.

ويأتي حديث الشاذلي عن قرار طرد الخبراء السوفييت في أكثر من موضع من كتابه، وهو حريص على أن يتحدث عن التأثيرات السلبية لهذا القرار على قوات الدفاع الجوي المصرية فيقول:

«بحلول منتصف عام ١٩٧٢ كان من الممكن القول بأن الدفاع الجوي قد وصل إلى مستوى مقبول، وفجأة وقع ما لم يكن في الحسبان عندما قرر الرئيس السادات دون أن يستشير أحداً من رجال القوات المسلحة طرد جميع الوحدات السوفيتية في مصر في يوليو ٧٢، كانت جميع الوحدات الروسية التي في مصر هي وحدات تقوم بواجب الدفاع الجوي، كان السوفييت يقومون بتشغيل ٣٠٪ من الطائرات ميج ٢١

التى تقوم بالدفاع الجوى، وكانوا يقومـون بتشغيل ٢٠٪ من كتائب الصواريخ أرض/ جو (سام) .كما كانوا يقـومون بتشغيل الغالبية العظمى مـن الوحدات الإلكترونية، وكانت بعض المعدات الإلكترونية ممتلكات سوفيتية متطورة لم يوافق السوفييت على بيعها لنا على اعتبار أنها على درجة عالية من السرية » .

« وهكذا غادرت هذه المعدات الإلكترونية مصر مع الوحدات السوفيتية » .

« لقد أثر قرار سحب هذه القوات السوفيتـية على قدراتنا فى الدفاع الجوى تأثيراً كـبيراً، ومع ذلك كـان من الواجـب علينا أن نعمـل بجد لـتخفـيف هذا الأثر بـقدر المستطاع. لقد استطاعت قوات الدفاع الجوى (أقصد وحدات الصواريخ أرض/ جو (سام) أن تهيئ الأفراد المدربين اللازمين لتشغيل كتائب الصـواريخ التى كان يقوم الروس بتشغيلها وذلك بحلول نهاية ١٩٧٢ ».

(٦١)

ويورد الفريق الشاذلى فى هذه المذكرات تفصيلات مهمة عن الخطوات التنفيذية التـى شارك هو فى اتـخاذها من أجـل تنفيـذ قرار الرئـيس السادات بـالاستغنـاء عن الخبراء السوفييت فى ١٩٧٢، ويبدأ الشاذلـى بأن يورد تفصيلات الاقتراحات المصرية فى هذا الشأن:

«وفى صبـاح يوم ١٧ يوليو اجتـمع الفريق صـادق وأنا وكبير المـستشارين لمنـاقشة الخطوط العريبة لتنفيذ قرار الرئيس.

«كان الاقتراح المصرى بهذا الشأن يتضمن ما يلى:

١ ـ إنهاء العقود الخاصة بجميع المستشارين.

٢ ـ إنهاء العقود الخاصـة بالخبراء فيما عدا الأشخاص الذين يـطلب الجانب المصرى الاحتفاظ بهم.

٣ ـ القوات الصـديقة التى تقوم بتـشغيل أسلحة ومعـدات مصرية تقوم بتـسليم هذه الأسلحة والمعدات إلى الجانب المصرى فى خلال أسبوع من الآن.

٤ ـ القـوات الصديـقة التـى تقوم بـتشغـيل أسـلحة ومـعدات من ممـتلكـات الاتحاد السوفيتى، ونظراً لأنه لـيس لدينا الأفراد القادرون على تشغيلها، فـقد اقترحنا بقاء هذه الوحدات فـى مصر شريطة أن تـكون تحت القيادة المباشرة للقيـادة المصرية، وينطبق ذلك بـصفة خاصة على وحدات الحرب الإلكترونـية وطائرات الميج ٢٥ وسرب الإعاقة والاستطلاع الإلكترونى وفوج الكوادرات.

٥ ـ جميع الأفـراد الذين تنطبـق عليهم شروط الـترحيل يجب أن يـغادروا الأراضى المصريـة قبل أول أغسـطس إذا تيسرت وسـائل النقـل اللازمة لذلـك، أما الأفراد الذيـن لن يتمـكنوا مـن مغادرة الأراضى المـصرية قبـل هذا التـاريخ لعدم تـوافر وسـائل النقل، فإنه يـتحتم عليهم التوقف عن ممارسة أى عمـل عسكرى اعتباراً من هذا التاريخ».

❑

ثم يشير الفريق الشاذلى إلى ما أشار إليـه المشير الجمسى أيضاً فى مذكراته وهو أن السوفييت لم يوافقوا على محاولة مصر استبقاء بعض وحدات سوفيتية كنا فى حاجة إليها، وسـتلاحظ هنا مدى التـشدد السوفيتى إذا ما قـورن بموقف آخر للسـوفـييت فى نهاية عهد السـادات رواه جمال منصور فى مذكراته وتناولنـاه فى الباب الخامس من كتابنا «مذكرات الضـباط الأحرار»، حيث لم يمانع السوفييت فى بـقاء خبراء مدنيين للمعاونة فى المصانع المصرية، ولنقرأ ما يرويه الشاذلى:

«وافق الجـنرال أوكينـيف على هـذه الاقتراحات جـميعهـا فيما عـدا البند الـرابع الخاص بـبقاء الوحـدات السوفـيتية. فقـد أشار إلى أن التـعليمـات التى لديـه هى أن يسحب جميع الأفراد وجـميع الأسلحة والمعدات السوفيتية، ووعـد بأنه سينقل هذه الرغبة الجديدة إلى موسكو ثم يقوم بإخطارنا بمجرد أن يتلقى الجواب».

❑

ويحرص الشاذلى ـ ونحن نعرف مبرراته فى هذا الحرص ـ على أن يشير إلى أن عملية ترحيل الوحدات الروسية كانت مهمة صعبة وكانت حافلة بالمشكلات التى لا تنتهـى، وهو يضرب أمثلـة يوضح بها حجـم المعاناة التى عـاناها هو والقادة فـى تلك الفترة، وهو يروى حدوث مشكلات على الجانبين سواء من السوفييت أو المصريين:

«كانت الأيام والأسابيع التالية أياماً عصيبة ومشحونة بالأعمال الخاصة بترحيل الوحدات الروسية، كنت أتلقى كل يوم عشرات المكالمات الهاتفية من القوات الجوية والدفاع الجوى عن أحداث متعددة:

«الروس يقومون الآن بفك الرادار الموجود في بني سويف!.. الروس يقومون الآن بفك الرادار الموجود فى بير عريضة، وسوف يترتب على ذلك إيجاد ثغرة فى التغطية الرادارية! الروس يقومون الآن بنقل عدة أطنان من قطع الغيار من الوحدات الصديقة التى سوف يسلمونها لنا.. إلخ».

«وفى الوقت نفسه يحضر الجنرال أوكينيف ليقول: «بينما كانت قواتنا تقوم بتكديس الأصناف التى سيتم ترحيلها إلى الاتحاد السوفيتى اختفى أحد الصواريخ الحديثة غير المستخدمة فى القوات الجوية المصرية! مَنْ الذى سرق هذا الصاروخ؟ ولمصلحة من يعمل؟» إلى غير ذلك من عشرات الحوادث».

«لقد كانت أوامرنا صريحة وهى تقضى بأن للسوفييت كامل الحق فى سحب معداتهم وأنهم غير مطالبين إلا بتسليم الأسلحة والمعدات التى هى ملك مصر طبقاً للعقود الرسمية الموقع عليها من الطرفين».

(٦٢)

ثم يعبر الفريق الشاذلى فى هذه المذكرات عن رضاه عن أداء القيادة المصرية وكبير المستشارين السوفييت لمهمة ترحيل الخبراء السوفييت بنجاح:

«وإنى عندما أنظر إلى الوراء لأرى كيف تمت هذه العملية دون أية حوادث خطيرة فإنه لا يسعنى إلا أن أثنى على كل من القيادة المصرية وكبير المستشارين السوفييت وتعاونهما الصادق للتغلب على المشكلات التى أثارها الضباط الأصاغر والجنود من الطرفين، الذين كانوا أقل قدرة على التحكم فى عواطفهم».

❑

وعلى عادة الفريق الشاذلى فى ذكر كثير من التفصيلات الرقمية فإنه يقدم لنا

تعـداداً بالقوات الـتى تم ترحـيلهـا بناء علـى قرار السـادات بالاستـغناء عن الخـبراء السوفييت:

«كان إجمالى الأفراد المرحلين هو ٧٧٥٢، وتفصيلهم كما يلى:

١٠٠٠ مستشار وخبير .

٦٠١٤ وحدات صديقة .

٧٣٨ عائلات المستشارين .

❑

ويطـلعنا الـشاذلى علـى حقيقـة مهمة وهـى أن نقل هؤلاء الخـبراء لإعادتهـم إلى بلادهم كان يمثل مشكـلة اضطرت القيادة معها إلى إخلاء مبنى الكـلية الحربية لإقامة هؤلاء الخبراء فـيه حتى يمكـن توفير الطائرات والمـراكب اللازمة لترحـيل الوحدات السوفيتية إلى بلادهـم :

«عرضنا على الاتحاد السوفيتى المساعدة بتوفير الطائرات والمراكب اللازمة لترحيل الوحدات السوفيتيـة لكنهم اعتذروا عن قبول هذه المساعدة، وقـد أوقفنا الدراسة فى الكلية الحربية فى الفترة ما بين ٢٨ يوليو و١١ أغسطس ١٩٧٢ حتى يمكن استخدامها كمنطـقة تجميع للأفـراد السوفييت الـذين يبقون فى مـصر بعد أول أغسطـس انتظاراً لوسائل النقل المختلفة».

«وبنهاية شـهر أغسطس [هكذا فى الأصل وإن كـان هذا يتناقض مع بقـية السـياق الذى يقول فيه صاحب المذكرات أنه تم ترحيل جميع الباقين فى خلال النصف الأول من أغسطس، فهل يا ترى يقصد أن يقول وبـنهاية شهر يوليو؟ لست أدرى وإن كنت أرجح] كان قد تم ترحيل ٢٥٩٠، تم ترحيل ١٩٧٣منهم بواسطة الطائرات و٦١٧ تم ترحيلهم بواسطة النقل البحـرى، وبذلك كان الباقى هو ٥١٦٢ (٥٢٩ من المستشارين وعائلاتهم + ٤٣٦٦ من الوحدات الصديقة)، وقد تم ترحيلهم جميعاً خلال النصف الأول من شهر أغسطس ١٩٧٢، وذلك فيما عدا فوج الكوادرات فقد تم ترحيله فى نهاية أغسطس».

ويتحدث الشاذلي بتفصيل معقول عن القوات الصديقة فيقول :

«كانت الوحدات الصديقة التي تعمل بمعدات سوفيتية لم يسبق لنا التعاقد على مثلها تشمل الوحدات التالية:

- سرب طائرات ميج ٢٥
- سرب استطلاع وإعاقة إلكتروني
- وحدة سمالطا وهي وحدة إلكترونية يمكنها أن تعيق جهاز التوجيه في الصواريخ الهوك.
- وحدة تاكان وهي وحدة إلكترونية يمكنها أن تعيق أجهزة التوجيه في الطائرات المعادية.

«وقد قام السوفييت بسحب هذه الوحدات ورفضوا منذ البداية إبقاءها في مصر لأنهم كانوا يعتبرون هذه المعدات على درجة عالية من السرية».

«أما بخصوص الكوادرات فقد كان الموقف مختلفاً حيث إنه سبق لنا أن تعاقدنا على فوجي كوادرات ولكن لم نكن قد انتهينا من تدريب الأفراد اللازمين لتشغيل هذه الصواريخ. عرض الروس [يقصد: السوفييت] أن يسلموا الفوج لنا كواحد من الفوجين المتعاقد عليهما فرفضنا، عرض الرئيس السادات أن يبقى أفراد الفوج في مصر حتى نهاية عام ١٩٧٢ شريطة ألا يقوموا بأية مهمة قتالية فرفضوا، واستغرقت هذه المناقشات الكثير من الوقت إلى أن اتصل بي قائد المنطقة الجنوبية يوم ٢٩ أغسطس وأخطرني بأن الروس [يقصد: السوفييت] قد بدأوا يسحبون الفوج، اتصلت بالجنرال أوكينيف فأكد أنه قد وصلته تعليمات بسحب الفوج وإعادته إلى الاتحاد السوفيتي، اتصلت يوم ٣٠ أغسطس بالرئيس وأبلغته بقرار السوفييت النهائي بخصوص الفوج فعلق قائلا: «مع السلامة»، وهكذا انسحب الفوج ومعه ١٨ قطعة شيلكا و٤٨ ستريلا (سام ٧)».

(٦٣)

ويحاول الشاذلي قدر ما أمكن أن ينصف الاتحاد السوفيتي ودوره في حرب

١٩٧٣على الرغم من بعض التحفظات، وحسناً فعل الفريق الشاذلى، فإن أخلاقنا وتقاليدنا وعاداتنا وقيمنا الدينية تحضنا على ما فعله الشاذلى، ومهما يكن من أمر بطء السوفييت فيما أمدونا به وزودونا فقد أمدونا وزودونا على حين كان غيرهم يمد عدونا بالسلاح الذى يقتل أبناءنا به .

ومن الإنصاف للاتحاد السوفيتى أن ننقل عن الشاذلى اعترافه بالحجم الضخم للإمدادات السوفيتية حتى وإن كانت فى نظر صاحب المذكرات أقل من سُدس الإمدادات الأمريكية لإسرائيل، ذلك أن هذا الجسر الجوى الذى أقامه الاتحاد السوفيتى بيننا وبينهم كان أكبر جسر جوى فى تاريخ الاتحاد السوفيتى الحربى، ويبدو من هذا أن الحديث عن أن الاتحاد السوفيتى كان إحدى القوتين العظميين كان فيه بعض المبالغة، فإنه كان الثانى فى العظمة دون أن يكون قريباً من الأول.

وفى مقارنته بين الكوبريين الجويين الأمريكى والسوفيتى يؤكد الشاذلى على عدة حقائق مهمة:

□ الحقيقة الأولى أن الكوبرى الجوى الأمريكى ـ الإسرائيلى يساوى ٦,٥ مرة الكوبرى الجوى السوفيتى، على أساس وحدة الطن/ ميل، ويقدم الشاذلى تفصيلات هذا الرقم بطريقة دقيقة:

«وفى خلال الحرب قام الاتحاد السوفيتى بإقامة أكبر جسر جوى فى تاريخه الحربى إلى كل من مصر وسوريا، لقد قام بتنفيذ ٩٠٠ رحلة بواسطة طائرات أنتنوف ١٢ وأنتنوف ٢٢، نقل خلالها خمسة عشر ألف طن من المعدات الحربية، فإذا علمنا أن هذا الكوبرى الجوى لم يكن مخططاً له، مع أنه قد بدئ به بعد ثلاثة أيام من بدء الحرب، اتضحت لنا المشكلات والثغرات التى يمكن أن تظهر نتيجة لهذه الظروف، وعلى سبيل المثال فقد كانت معدلات الاستهلاك خلال حرب أكتوبر مختلفة تماماً عن معدلات استهلاك الحروب السابقة التى بنى على أساسها حجم وأوزان الأصناف التى ترسل بواسطة الكوبرى الجوى. فهناك أصناف من الذخيرة كان استهلاكنا منها أقل بكثير مما سبق لنا تقديره، وفى الوقت نفسه كان استهلاكنا من بعض الأصناف الأخرى أكثر بكثير مما قدرنا».

«وكان علينا أن نسرع بإخطار الاتحاد السوفيتى بهذه المعلومات لكى يجرى

التعديلات اللازمة فى خطة النقل الجوى حتى تتمشى مع احتياجاتنا الفعلية. ولكن هذا لم يمنع أن تصل أحياناً بعض الأصناف التى لا نحتاج إليها فى حين كنا نعانى النقص فى صنف آخر، ومع ذلك فإن هذه الأخطاء لا يمكن أن تقلل من تقديرنا للكفاءة والسرعة اللتين تم بهما هذا الكوبرى الجوى، إن هذا الكوبرى يعتبر مفخرة للاتحاد السوفيتى من حيث الحجم ومن حيث السرعة فى التخطيط والتنفيذ، ومفخرة لسوريا ومصر من حيث السرعة فى التفريغ والفرز و الدفع إلى الجبهة بالنسبة لهذا الحجم الكبير من الإمدادات».

«لاشك أن هذا الكوبرى الجوى السوفيتى يعتبر متواضعاً إذا ما قورن بالكوبرى الجوى الأمريكى إلى إسرائيل. لقد نقل الأمريكيون خلال ٥٦٦ رحلة ٢٢,٣٩٥ طنا من الإمدادات مستخدمين الطائرات C-5 و C0141. وقد قامت شركة العال الإسرائيلية بنقل ٥٥٠٠ طن أخرى، وبذلك أصبح إجمالى الجسر الجوى إلى إسرائيل هو ٢٧٨٩٥ طنا. فإذا أدخلنا فى حسابنا أن المسافة من أمريكا إلى إسرائيل هى ٧٠٠٠ ميل والمسافة من الاتحاد السوفيتى إلى مصر وسوريا هى ٢٠٠٠ ميل، اتضح لنا أن الكوبرى الجوى الأمريكى ـ الإسرائيلى يساوى ٦,٥ مرة الكوبرى الجوى السوفيتى على أساس وحدة الطن/ ميل وذلك طبقا لما يلى:

كوبرى شركة العال	٥٥٠٠ طن × ٧٠٠٠ ميل = ٣٨٥٠٠٠٠٠ طن ميل.
الكوبرى الجوى الأمريكى	٢٢٣٩٥ طنا × ٧٠٠٠ ميل = ١٥٦٧٦٥٠٠٠ طن ميل.
الإجمالى	٢٧٨٩٥ طنا × ٧٠٠٠ ميل = ١٩٥٢٦٥٠٠٠ طن ميل.
الكوبرى الجوى السوفيتى	١٥٠٠٠ طن × ٢٠٠٠ ميل = ٣٠٠٠٠٠٠٠ طن ميل.
النسبة على أساس طن ميل	١٩٥٢٦٥٠٠٠ / ٣٠٠٠٠٠٠٠ = ٦,٥ مرة.

❑ أما الحقيقة الثانية التى توصل إليها الشاذلى فيما يتعلق بالجسور الجوية فتتعلق بالنوع، أى بالأسلحة التى أتاحها كل كوبرى من الكوبريين، وعلى حين أن الكوبرى الجوى الأمريكى قد أتاح للعدو الإسرائيلى الطائرات الفانتوم والهليكوبتر والدبابات والمعدات الخاصة بالحرب الإليكترونية، فإن الكوبرى السوفيتى شمل الدبابات ووسائل الدفاع الجوى والذخائر.

□أما الحقيقة الثالثة التي يذكرها الشاذلي فهي أن أكثر من نصف الكوبري الجوي خصص للجبهة السورية وأن الدبابات وجهت للجبهة السورية فقط، وأن مجهود النقل البحري الرئيسي وجه كله إلى الجبهة السورية، وكأنما يؤكد الشاذلي ـ على استحياء ـ وجهة نظر السادات:

«كان الكوبري الجوي الأمريكي يشمل طائرات الفانتوم وطائرات الهليكوبتر CH-553 والدبابات M60 وأحدث أنواع المعدات الخاصة بالحرب الإلكترونية، أما الكوبري الجوي السوفيتي فقد شمل الدبابات (للجبهة السورية فقط)، ووسائل الدفاع الجوي والذخائر، وقد أرسل أكثر من نصف الكوبري الجوي إلى الجبهة السورية».

«وعلاوة على الكوبري الجوي فقد قام السوفييت أيضاً بعملية نقل بحري واسعة النطاق بلغ ـ حتى وقت وقف إطلاق النار ـ ٦٣٠٠٠ طن، وقد وجه مجهود النقل البحري الرئيسي إلى الجبهة السورية».

ينبغي هنا أن نشير إلى أننا عرضنا في الباب الأول من هذا الكتاب وهو الباب المخصص لمذكرات المشير محمد عبدالغني الجمسي مقارنة بين الأرقام التي أوردها المشير الجمسي والفريق الشاذلي عن حجم الجسر الجوي، وقد انفرد الجمسي بالاشارة إلى حجم الجسر البحري الأمريكي، كما أن اجمالي الرقم الذي ذكره الجمسي فيما يخص الكوبري الجوي الأمريكي يزيد بمقدار ١٠٢ طن عن رقم الشاذلي (وظني أن هذا الفرق ناشيء عن التقريب الحسابي في تحويلات وحدات الكتلة)، ولكن ينفرد الشاذلي بهذه المقارنة بين الجسرين الأمريكي والسوفييتي بحساب الطن ميل. وأنا اعتقد أن الشاذلي ظلم الاتحاد السوفيتي بالتعويل على هذه النسبة، وكان في إمكانه أن ينصفه أكثر لو أنه أعطى الأهمية للكم بنفس القدر.

(٦٤)

ويحرص الشاذلي على أن يشيد بشدة بالدور السياسي الذي لعبه الاتحاد السوفيتي عندما قام بريجنيف بتوجيه إنذار شديد اللهجة إلى الرئيس الأمريكي نيكسون في ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣:

«وبالإضافة إلى المساعدات التى قدمها الاتحاد السوفيتى إلى مصر فقد وقف يوم ٢٣ أكتوبر موقفاً حازماً كان له أثر واضح فى كبح جماح إسرائيل وإرغامها على احترام وقف إطلاق النار. كانت إسرائيل قد تجاهلت قرار وقف إطلاق النار الذى كانت قد قبلته مساء يوم ٢٢ أكتوبر واستأنفت عملياتها صباح يوم ٢٣ أكتوبر، وأكملت حصار الجيش الثالث الميدانى».

«كان هجوم إسرائيل يوم ٢٣ أكتوبر يتم بتنسيق تام مع كيسنجر الذى أغمض عينيه عما تقوم به إسرائيل بهدف الوصول إلى موقف معين يمكن منه فرض شروط الصلح على مصر» .

« أما الاتحاد السوفيتى فقد اتخذ موقفاً يختلف تماماً عن الموقف الأمريكى، فعلى الصعيد العسكرى قام برفع درجة الاستعداد لعدد ٦ فرق جنود جو قوامها ٤٥٠٠٠ رجل، وأخذت طائرات النقل تتجمع لنقل هذه القوة فى مناطق تحشدها » .

«وعلى الصعيد السياسى قام الرئيس بريجنيف يوم ٢٤ أكتوبر بإرسال كتاب [يقصد ما نسميه فى مصر خطاب] إلى الرئيس الأمريكى نيكسون قال فيه: «سأقولها بصراحة: إذا لم يكن فى استطاعتكم أن تعملوا معنا فى هذا المجال، فسوف نجد أنفسنا أمام موقف يضطرنا إلى اتخاذ الخطوات التى نراها ضرورية وعاجلة. إن إسرائيل لا يمكن أن يسمح لها بالاستمرار فى تجاهل وقف إطلاق النار».

وسوف نرى على كل الأحوال فى موضع تال أن الشاذلى يعطى لهذا الإنذار أهمية كبرى.

❑

وفى موضع سابق يتحدث الفريق الشاذلى عن تحركات الأسطول السوفيتى فى البحر الأبيض المتوسط فى أثناء الحرب فيقول:

«أما الأسطول السوفيتى فى البحر الأبيض فقد أخذ يزداد بأقصى سرعة تسمح بها معاهدة مونترو ١٩٣٦ التى تحدد عدد القطع الحربية التى تعبر المضائق فى وقت واحد كما تتطلب إخطار تركيا قبل عبور أية قطعة بحرية بثمانية أيام على الأقل. وهكذا عندما بدأت الحرب كان للسوفييت فى البحر الأبيض ٢٠ قطعة قتال بحرية، وبنهاية شهر أكتوبر وصل هذا العدد إلى ٤٠ سفينة قتال بينما وصل إجمالى السفن عموماً إلى ٨٥ سفينة».

(٦٥)

ويحرص الفريق الشاذلى فى مذكراته على أن يتناول بنقد موضوعى ما يسميه أخطاء السوفييت التى أدت إلى تدهور العلاقات المصرية ـ السوفيتية، وهو يقدم لهذا الحديث بقوله:

«إن المساعدات العسكرية الضخمة التى قدمها الاتحاد السوفيتى إلى مصر لا تعنى أن السوفييت هم ملائكة وأنهم دون أخطاء، لقد كانت لهم أخطاء وكنا نختلف معهم فى كثير من الأحيان، وسوف أركز هنا على مشكلتين رئيسيتين بصفتهما أساس المشكلات الأخرى كلها. المشكلة الأولى هى القيود المفروضة على السلاح، والمشكلة الثانية هى الأخلاق والطباع السوفيتية».

ويبدأ الشاذلى فى توجيه نقده إلى السلاح السوفيتى، ولن نجد فى حديث الشاذلى أكثر مما تتداوله الكتابات المصرية الآن من الحديث عن عناصر التخلف التكنولوجى فى السلاح السوفيتى إذا ما قورن بالسلاح الأمريكى، وعن قيود السوفييت على أسلحتهم، على حين أن السلاح الأمريكى يتاح لإسرائيل فى نفس الوقت الذى يتاح فيه للجيش الأمريكى، ولكن الشاذلى يقدم هذا كله بتحليل عسكرى دقيق وأمثلة واضحة:

«كان السوفييت هم الذين يحددون حجم ونوعية وتاريخ التوريد بالنسبة للسلاح الذى يتم توريده إلى مصر. لقد كان المفاوض المصرى يستطيع أن يطلب ويناور ويحاول إقناع الجانب السوفيتى بحجم ونوعية السلاح الذى نطلبه، وقد ينجح أحياناً، لكن نجاحه كان يتوقف على درجة استعداد الجانب السوفيتى لقبول وجهة النظر المصرية.

«كان الجانب السوفيتى هو صاحب الكلمة الأخيرة فى القبول أو الرفض، وأن هذا الموضوع يمكن أن يكون مجال حديث طويل، لكننا نود أن [الحديث للشاذلى لكنه يستخدم هنا ضمير الجماعة المتصل «نا» بدلا من عادته الغالبة فى استخدام تاء الفاعل] نلفت النظر إلى الحقائق التالية:

«١ ـ إن سياسة الاتحاد السوفيتي في تأييده للدول العربية واضحة تماماً، وهي مبنية على أساس مساعدة الدول العربية في استعادة أراضيها التي احتلت بعد عام ١٩٦٧ وإقامة الدولة الفلسطينية، وهو لا يوافق مطلقاً على تدمير دولة إسرائيل، وعن طريق سيطرته على الإمداد بالسلاح فإنه يستطيع أن يؤثر على سير الأحداث بحيث لا تخرج عن المسار الذي رسمه».

«٢ ـ إن الخلاف العربي ـ الإسرائيلي ليس مجرد مشكلة محلية إقليمية، إنها تدخل ضمن الاستراتيجية العالمية وتوازن القوى بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية، وقد وقف العالم على شفا الحرب مرتين بسبب هذا الخلاف، كانت الأولى عام ١٩٥٦ عندما أرسل السوفييت إنذارهم الشهير إلى كل من بريطانيا وفرنسا لوقف اعتدائهما على مصر، وكانت الثانية يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ عندما أرسل السوفييت إنذارهم إلى أمريكا للضغط على إسرائيل وإرغامها على احترام وقف إطلاق النار. أضف إلى ذلك الكتاب [يقصد الخطاب كما ذكرنا من قبل] العنيف الذي أرسله كوسيجين إلى الحكومة الأمريكية في يناير ١٩٧٠ لكي توقف إسرائيل غاراتها على العمق المصري. وهكذا نجد أن الاتحاد السوفيتي هو عضو أساسي في المشكلة، ومن هنا فإنه يعتقد أن من حقه أن يسيطر على سير الأحداث في المنطقة».

«٣ ـ إن الاتحاد السوفيتي دولة غير غنية إذا ما قورنت بالولايات المتحدة،وبالتالي فإنه لا يستطيع أن يغدق العطاء على مصر وبالقدر نفسه الذي تغدق به أمريكا على إسرائيل. إن أمريكا كانت تغدق على إسرائيل قبل عام ١٩٧٣ ما يوازي ١٥٠٠ مليون دولار سنوياً، وقد رفعت هذا المبلغ بعد ١٩٧٣ إلى ما يوازي ٢٠٠٠ مليون دولار سنوياً، وإن هذه المبالغ تفوق بكثير طاقة الاتحاد السوفتي في التبرع وطاقة مصر في الدفع كثمن للسلاح الذي تريده».

«٤ ـ إن الأسلحة الحديثة هي أجهزة بالغة التعقيد ويحتاج استيعابها إلى مستويات ثقافية عالية وإلى وقت طويل. وعلى الرغم من أن مصر كانت تعمل بأقصى طاقتها من عام ١٩٦٧ لرفع كفاءة قواتها المسلحة فقد كانت تجد صعوبة كبيرة في استيعاب الأسلحة الحديثة كلها التي تقدم لها».

«وقد اضطرها هذا الموقف إلى الاستعانة بأفراد سوفييت لتشغيل بعض هذه

المعدات كما حدث عام ١٩٧٠ حيث اشترك ما يزيد على ستة آلاف فرد روسى فى تشغيل معدات فنية معقدة لا تتوافر الأيدى المصرية لتشغيلها، وقد كانت هذه الصورة ظاهرة بشكل واضح فى القوات الجوية وفى وحدات الحرب الإلكترونية. وبعد إنهاء خدمة الوحدات السوفيتية كان عدد طائرات الميج التى لدينا يفوق عدد الطيارين الذين يستطيعون قيادتها».

«هناك حقيقة أخرى وهى تخلف التكنولوجيا السوفيتية عن التكنولوجيا الأمريكية فى مجال الأسلحة التقليدية بصفة عامة، وفى مجال الطيران بصفة خاصة».

« فى أوائل الستينيات كانت أمريكا تسبق الاتحاد السوفيتى بحوالى جيل كامل، وقد أخذت هذه الفجوة تضيق حتى أغلقت فى أوائل السبعينات وحيث إن سياسة الاتحاد السوفيتى هى ألا يعطى أفضل ما عنده لأية دولة أجنبية رغبة منه فى المحافظة على أسرار أسلحته، فإن أفضل أصدقائه لا يمكن أن يطمح لأكثر من الرقم الثانى فى أفضلية السلاح، وقد يحصل الأصدقاء العاديون على الرقم الثالث أو الرابع تبعاً لقوة صداقتهم مع الاتحاد السوفيتى، أما أمريكا فإنها تعطى أفضل ماعندها من سلاح إلى إسرائيل، إذ أن الأسلحة الحديثة تدخل فى خدمة القوات المسلحة الإسرائيلية والقوات المسلحة الأمريكية فى وقت واحد».

«وتطبيقا لهذه المبادئ فقد كانت الأسلحة المتاحة لإسرائيل خلال الستينيات تتقدم جيلين عما هو متيسر فى أيدى العرب، وقد ضاقت هذه الفجوة لتصبح جيلاً واحداً خلال السبعينيات، وإذا استمر تقدم التكنولوجيا السوفيتية بهذا المعدل فمن المحتمل أن تتساوى الأسلحة التى بين أيدى العرب وإسرائيل فى الثمانينيات».

(٦٦)

ويكاد الشاذلى يعتقد فى غلظة الأخلاق السوفيتية، وسوف نراه يروى الجو العام للمناقشات السوفيتية ـ المصرية فى الوحدات قبل أن يروى بنفسه موقفاً خاضه بنفسه فى حوار خشن مع لاشنكوف بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ كاد ينتهى بما لا تحمد عقباه لولا أن الوزير أحمد إسماعيل أسرع بالتدخل لتلطيف الجو:

«كانت الأخلاق والطبائع الروسية مثار كثير من الخلافات، كانت أحاديثهم فى خشونة وغلظة، وكانوا أحياناً يوجهون انتقاداتهم بشكل مثير، مثال ذلك: «إنكم تطلبون من الاتحاد السوفيتى أن يمدكم بالأسلحة وتلوموننا إذا تأخرنا فى توريد هذه الأسلحة، علماً بأن الاتحاد السوفيتى يتحمل نصف ثمنها ويمدكم بقرض لتمويل النصف الثانى، ومع ذلك فأنتم لا تعبئون مواردكم كلها للحرب كما تفعل الدول التى فى حالة حرب، وكما فعلنا نحن خلال الحرب الوطنية الكبرى. إن من يسير فى شوارع القاهرة لا يمكن أن يشعر بأن مصر فى حالة حرب. إن الشوارع مليئة بالعربات الفاخرة والحوانيت مليئة بالبضائع وبالذهب والجواهر».

❑

ويعلق الشاذلى على هذا بما يبدو وكأنه يتبنى وجهات نظر عهد السادات المشهورة فى عدم تحبيذ ما كان يُعتقد أنه صراع للطبقات يغذيه الاتحاد السوفيتى فى مصر:

«كانت هذه الآراء وغيرها يتبادلها المستشارون والخبراء السوفييت الذين يتواجدون فى الوحدات مع نظرائهم المصريين. كانت هذه الآراء السوفيتية تجد تجاوباً وقبولاً لدى بعض الأفراد لكنها كانت تسبب إزعاجاً كبيراً للقيادة السياسية لأنها كانت تعتبرها حضاً على انتقاد السلطة وتشجيعاً لانتشار الشيوعية فى مصر».

«وفى حالات أخرى كانوا يعرضون رأيهم، وكأنه هو الرأى الوحيد الصحيح وليس مجرد رأى يقبل المناقشة والجدل. وقد مررت أنا شخصياً بعدد من مثل هذه الحالات، لكننى سأقص قصة واحدة كان بطلها هو الجنرال لاشنكوف خلال زيارته لمصر فى نوفمبر ١٩٧٢».

« لقد كان الجنرال لاشنكوف يعمل كبيراً للمستشارين السوفييت فى مصر خلال عامى ٦٨/ ١٩٦٩، وخلال هذه الفترة لم يكن بينى وبينه أى اتصال مباشر. كنت خلال هذه الفترة أشغل منصب قائد القوات الخاصة وكنت ألتقيه أحياناً فى أحد المشاريع التدريبية أو البيانات العملية ونتبادل التحية وبعض الكلمات، وبعدما توليت منصب رئيس الأركان فى مايو ١٩٧١ شاهدت الجنرال لاشنكوف مرتين، مرة عندما كان مرافقاً للمارشال جريشكو فى إحدى زياراته،والأخرى عندما حضر الجنرال

لاشنكوف رئيساً للجنة عسكرية سوفيتية خلال شهر فبراير ١٩٧٣. وفي النصف الثاني من شهر نوفمبر ١٩٧٣ حضر على رأس وفد لدراسة الموقف فكان هذا هو لقاؤنا الثالث وأنا أشغل منصب رئيس الأركان».

«في يوم ١٩ نوفمبر كان هناك اجتماع مصغر في غرفة العمليات في المركز ١٠ (مركز عمليات القوات المسلحة المصرية) وقد حضر هذا الاجتماع الوزير (أي المشير أحمد إسماعيل) وأنا واللواء سعد مأمون وحضر معنا الجنرال لاشنكوف، عندما تكلمت عن خبرتنا في الدفاع ضد الدبابات، أثنيت على المالوتكا وعلى ر ب ج ٧ ولكني انتقدت المدافع عديمة الارتداد ب ١٠ وب ١١، لأنها ثقيلة وصعبة التداول بواسطة أفراد المشاة المترجلين. إن المدى المؤثر لهذه المدافع هو حتى ٦٠٠ - ٨٠٠ متر وهي مخصصة أساساً لكي تغطي الأرض الميتة للمقذوفات الموجهة المضادة للدبابات (مالوتكا) التي تصل إلى ٥٠٠ متر، وهنا اقترحت ما يلي:

«لو أن العلماء السوفييت استطاعوا أن يطوروا المالوتكا بحيث تصبح الأرض الميتة ٣٠٠ متر فقط أو طوروا رب ج بحيث يصبح مداه المؤثر ٦٠٠ متر مثلاً لأصبح في استطاعتنا الاستغناء عن كل من المدفع ب - ١٠، ب - ١١ وأن يكون أساس الدفاع المضاد للمشاة هو المقذوفات المضادة».

«كنت أعتقد أنني بهذه الأفكار أؤدي خدمة إلى الأصدقاء الذين أعطونا السلاح، إنهم صنعوا هذا السلاح ولكنهم لم يقاتلوا به. أما نحن فقد كنا أول من يستخدم هذه الأسلحة ضد عدو حسن التنظيم والتجهيز، ولكني فوجئت بالجنرال لاشنكوف يقول: «إن السلاح الروسي هو أفضل سلاح في العالم، وإن العلماء الروس يحسبون كل شيء، ولا أعتقد أنهم بانتظار سماع هذه الأفكار».

«كان ردي عليه فورياً وبروح التحدي نفسها وقلت له: «أولاً أنا لم أقل إن السلاح الروسي رديء، لقد حاربنا وعبرنا وانتصرنا بالسلاح الروسي، وإنما أقول عن خبرة قتال لكي نعمل على تحسين مواصفات بعض هذه الأسلحة، لقد صنعتم أنتم هذه الأسلحة، ولكنكم لم تقاتلوا بها، أما نحن فقد قاتلنا بهذه الأسلحة واكتسبنا نتيجة ذلك خبرات قتالية، وإذا كنتم تعرفون كل شيء فلماذا حضرتم لتسألونا عن تلك الخبرة القتالية التي اكتسبناها في هذه الحرب؟».

«وهنا أسرع الفريق أحمد إسماعيل بالتدخل لتلطيف الجو وإعطاء تفسيرات هادئة لما قاله الجنرال لاشنكوف وما قلته أنا، قبل أن ننتقل إلى موضوع آخر».

يجدر بنا هنا أن نشير إلى أن الفريق مدكور أبو العز هو الآخر كان قد اصطدم اصطداما عنيفا مع مستشار سوفيتي اسمه " زخاروف " وقد روى وقائع مشابهة لهذا الصدام في مذكراته كما أن العميد عادل يسرى يلح في مذكراته بآراء مشابهة.

(٦٧)

ويعطى الفريق سعد الشاذلي بالطبع أهمية واضحة للحديث في هذه المذكرات عن دور غريمه الفريق محمد أحمد صادق في تدهور العلاقات السوفيتية ـ المصرية، وقد تناولنا في كتابنا «الأمن القومي لمصر» ما صرح به محمد حافظ إسماعيل من تفصيلات دقيقة لدور الفريق صادق في تدهور هذه العلاقات، وكيف أن السادات قد استطاع في النهاية أن يفوز بما كان صادق يبتغي أن يحققه لنفسه من مجد في القضاء على النفوذ السوفيتي دون أن يحقق صادق نفسه أي شيء ذي بال .

ومن الإنصاف أن نذكر لقارئنا أن سعد الشاذلي نشر مذكراته قبل أن ينشر محمد حافظ إسماعيل مذكراته بفترة طويلة، وهكذا فلم يتح له ما أتيح لنا من معرفة واسعة بالتفصيلات على نحو ما رواها محمد حافظ إسماعيل، ولكننا سنشاهد هنا المشهد وهو يظهر من زاوية رؤية ضيقة يرى من خلالها الشاذلي الأحداث من خلال النافذة المتاحة له في تلك الفترة، ونحن نراه يكاد يخمن أن الفريق صادق يتحدث مع محمد حافظ إسماعيل، وسنرى أيضاً مستوى طريفا من تعامل وزير الحربية ورئيس الأركان مع بعضهما، وسنرى تدبيرات الفريق صادق أقل إحكاما بكثير جدا من تدابير السادات، أو هكذا يصور لنا الفريق الشاذلي الأمر، ولا ننسى أن نشير إلى أن الشاذلي يتهم الفريق صادق صراحة في وسط روايته بأنه هو الذي رسم الطريق الذي كان موضوع تهريب الذهب يسير فيه كما سنرى!!

وسنحاول ألا نقطع تواصل الرواية التي يقدمها الفريق الشاذلي معتمدين على أن

القارئ يستطيع الإلمام بحقائق أكثر من خلال مطالعته لما رويناه فى الباب الأول من كتابنا «الأمن القومي لمصر»، وهو الباب الذى تناولنا فيه مذكرات محمد حافظ إسماعيل، وما رواه بالتفصيل عن هذه الجزئيات:

يقول الفريق الشاذلى :

«خلال النصف الأول من عام ٧٢ كان يبدو أن الفريق صادق هو العدو رقم واحد للسوفييت فى مصر، بينما كان السادات يحاول أن يظهر بمظهر الصديق لهم، وبينما كان السادات يقوم بأطول زيارة للاتحاد السوفيتى ما بين ٢٧ أبريل ١٩٧٢ و١٠ مايو ١٩٧٢، وقع حادثان مهمان كان بطلهما الفريق صادق».

«فى أوائل شهر مايو ١٩٧٢ أخطرنا الجانب السوفيتى أن بحريتهم فى البحر الأبيض سوف تقوم بمشروع تدريبى وأنها تطلب السماح لها أن تنزل بعض أفرادها فى منطقة مرسى مطروح يوم ٨ مايو على أن يتم سحبهم فى اليوم التالى، وذلك كجزء من المشروع التدريبى، لكن صادق رفض هذا الطلب».

«أما الحادث الثانى فهو اتهام بعض الأفراد الروس بتهريب الذهب. كانت الساعة الخامسة مساء يوم ٨ مايو ١٩٧٢ عندما جاءنى كبير المستشارين السوفييت فى قيادة المنطقة المركزية حيث كنت أدير مشروعاً لتدريب قيادة المنطقة، قال الجنرال أوكينيف بلهجة ملؤها الحزن والأسى:

«إن بعض الجنود السوفييت الذين تقررت عودتهم إلى الاتحاد السوفيتى بعد انتهاء مدة خدمتهم فى مصر قد جرى تفتيش اثنين منهم فى مطار القاهرة بطريقة استفزازية، أثارت سخط الآخرين فرفضوا التفتيش وهم الآن فى صالة الجمرك، قد يكون بعضهم قد اشترى «دبلة» أو خاتماً أو سواراً لكى يهديها لخطيبته أو صديقته، وأن مثل هذه الأشياء التافهة ذات الصفة الشخصية البحتة لا يمكن اعتبارها تهريباً كما يريد المسئولون فى المطار أن يصوروها».

«اتصلت هاتفياً بمدير المخابرات الحربية فأشار إلى أن المعلومات التى لديهم تفيد بأنهم يحملون كميات كبيرة من المهربات وأنهم كانوا يراقبونهم منذ عدة أسابيع، وهم يشترون الذهب بكميات كبيرة، وأمام هذا التضارب فى الأقوال قررت الذهاب

إلى مكتبى حيث يمكن الاتصال بالجهات المختصة كلها وبحث الموضوع بطريقة أفضل».

«لم أكد أصل إلى مكتبى حتى وصل وزير الحربية، وفى أعقابه اللواء حسن الجريدلى الأمين العام للوزارة، كان من الواضح أن وصول الوزير إلى المكتب فى هذا الوقت لم يكن مجرد مصادفة، وإنما كان لكى يتأكد من أن موضوع التهريب يسير فى الطريق الذى رسمه».

«ولهذا السبب فقد تنحيت جانباً عن الموضوع، وجلست أتفرج على ما يدور بين الوزير والجنرال أوكينيف. كان صادق يقول للجنرال أوكينيف: «أنا ليست لدى أية سلطة على رجال الجمارك إنهم تابعون لوزير الاقتصاد، إنهم يفتشون الوزراء»، ولكنه همس لى أنا واللواء حسن الجريدلى: «إن المعلومات التى لدينا تؤكد أن معهم ٨٠ كيلوجراما من الذهب» .

«اقترح صادق على أوكينيف ما يلى: «يقوم كل فرد بملء تصريح للجمرك يسجل فيه ما يحمله من ذهب أو خلافه ويقوم بتسليمها إلى الجمرك، يوقع أوكينيف على إقرار يفيد أنه مسئول عن إحضار كل مَنْ يطلب من هؤلاء الأفراد من قبل المحكمة، سوف يتدخل صادق بعد ذلك وبعد أن تهدأ نفوس رجال الجمارك لحفظ هذا الموضوع بحيث لن يطلب أحد للمحكمة».

«وقد رفض أوكينيف هذا الاقتراح قائلاً: «ليس لدى الأفراد أى شىء ليصرحوا به لابد أن أى فرد سوف ينتابه غضب شديد إذا نحن طلبنا منه أن يسلم «دبلة» أو خاتماً اشتراه للذكرى بعد أن خدم فى مصر عاماً كاملاً أو أكثر».

«أخذ الكلام يدور بين صادق وأوكينيف فى حلقة مفرغة إلى أن دق جرس الهاتف فى مكتب الوزير، وكان الوزير يناديه باسم «محمد»، بعد هذه المكالمة أظهر الوزير بعض المرونة لكنه لم يتخذ أية إجراءات إيجابية لحل الموضوع، وبعد أقل من نصف ساعة رن جرس الهاتف مرة أخرى كان المتحدث هذه المرة هو «محمد» أيضاً، بعد تلك المكالمة الثانية تغير موقف صادق تغيراً جذرياً، طلب إلىّ أن أذهب إلى المطار لكى أحل الموضوع ولكنى اعتذرت، لماذا يسألنى الآن؟ إنه هو صاحب هذا

الموضوع، إنه هو الذى خلقه، وهو الذى عقده، وهو الذى يحاول الآن أن يجد له حلاً، فليحله هو وحده، ذهب اللواء حسن الجريدلى إلى المطار مندوباً عن الوزير لحل الموضوع».

«كانت مجموعة المستشارين والخبراء السوفييت تقيم حفلاً ساهراً فى مساء هذا اليوم احتفالاً بعيد النصر، وكنت مدعواً لهذا الاحتفال الذى يبدأ فى الثامنة مساء، ولكنى شعرت بأن العلاقات بيننا كانت تخيم عليها الكآبة، نفضلت أن أعود مرة أخرى إلى المنطقة المركزية لكى أتابع المشروع التدريبى الذى كنت قد انقطعت عنه لمدة ساعتين، شاهدت فيهما أحد فصول هذه القصة المثيرة».

ثم يردف الفريق الشاذلى بقوله:

«إننى لا أحب أن أمثل دوراً لست مقتنعاً به وقد وجدت أن ذهابى لحضور حفل الأصدقاء الروس فى مثل هذه الظروف لا يحمل المعنى المقصود من الدعوة فآثرت الاعتذار».

❑

«وفى صباح اليوم التالى سألت عن موضوع التهريب وكيف تم حله، فاتضح أن ٧١ فرداً سوفيتياً سافروا بعد أن سمح لهم أن يأخذوا معهم الهدايا التى اشتروها، وأنه قد تم حصر جميع هذه الهدايا فكان بيانها كما يلى:

«٢٦ سلسلة، ٤٥ خاتماً، ٧٥ دبلة، ٤١ قرطاً، ٧ غويشة، ٣ بروش».

«كان الوزن الإجمالى لهذه الأصناف جميعها هو حوالى ١٢٠٠ جرام من الذهب، أى بمعدل ١٧ جراماً لكل فرد».

ينبغى لى هنا أن أضيف إلى ما ذكره الفريق الشاذلى شيئاً آخر من قبيل الإنصاف، وهو أن المفروض ألا نشير إلى متوسط الوزن الذى صرح به لكل فرد فحسب، ولكن ينبغى أن نشير إلى متوسط عدد القطع التى تخص كل فرد، وسنجد أن هذا المتوسط يتراوح مابين قطعتين وثلاث قطع لكل فرد، وهو ما يعطينا فكرة عن مدى التفاهات التى كانت أجهزة كثيرة جداً تنشغل بها، وأشخاص مهمون جداً يأمرون بالاهتمام بها.

(٦٨)

ويحرص الشاذلى على أن يقيم الأدوار العسكرية التى لعبتها كل دولة من الدول العربية التسع التى شاركت دولتى المواجهة (مصر وسوريا) فى معركة ٦ أكتوبر المجيدة وهو يرتب هذه الدول بعدما أعطاها مقياسا من ٥٠٠ حسب مساهماتها، ويذكر الشاذلى فى هامش كتابه الأسس التى أجرى عليها التقويم على النحو التالى :

سرب جوى يعادل ٢٠ نقطة.

لواء مدرع يعادل ١٠ نقاط.

لواء مشاة يعادل ٥ نقاط.

كتيبة مشاة تعادل نقطة واحدة.

وفى حالة التعادل تعطى الأسبقية لتاريخ الوصول».

وبناء على هذا فإن الشاذلى يقيم المشاركات العربية على النحو التالى:

«لقد قامت تسع دول عربية بتقديم الدعم العسكرى لدولتى المواجهة، وإذا رغبنا فى تقويم هذا الدعم من ناحية قوة التأثير، فإنه يمكن ترتيب هذه الدول تبعاً للأسبقية التالية:

المركز الأول	الجمهورية العراقية	١٥٠
المركز الثانى	الجمهورية الجزائرية الديمقراطية	٧٠
المركز الثالث	الجمهورية العربية الليبية	٥٠
المركز الرابع	المملكة الأردنية	٢٠
المركز الخامس	المملكة المغربية	١٥
المركز السادس	المملكة العربية السعودية	٥
المركز السابع	جمهورية السودان الديمقراطية	٥
المركز الثامن	دولة الكويت	١
المركز التاسع	الجمهورية التونسية	١

ويضيف الشاذلى: إن الدول السبع التى لم تشارك فى المعركة لم تفعل هذا عن إحجام وإنما عن غياب ما تستطيع تقديمه:

«هناك ٧ دول عربية أخرى لم تسهم فى المعركة بقوات عسكرية وهى: الإمارات العربية المتحدة، دولة البحرين، سلطنة عمان، دولة قطر، الجمهورية اللبنانية، الجمهورية العربية اليمنية، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وإن عدم اشتراك هذه الدول فى تقديم الدعم العسكرى لايعنى إحجاماً منها عن ذلك وإنما يعنى أنه لم يكن لديها ما تستطيع أن تقدمه للمعركة».

ينبغى لى هنا أن أتوقف قليلا لأعتب على الفريق الشاذلى اغفاله الإشارة إلى المساهمة الفلسطينية فى المعركة، ونحن نعرف أن القوات الفلسطينية المسماة قوات عين جالوت قد ساهمت فى حرب أكتوبر المجيدة على الجبهة المصرية، ولكن يبدو أن عذر الشاذلى فى هذا أنه كان يتحدث عن الدول ولم تكن فلسطين قد عوملت على أنها دولة حتى ذلك الحين، ولكن هذا لايبرر إغفال الإشارة بأى حال من الأحوال.

(٦٩)

ورغم أن الفريق الشاذلى يرى أن التعاون العربى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان أفضل صورة ظهر بها العرب منذ إنشاء إسرائيل فى ١٩٤٨، لكن هذا لا يمنع الشاذلى من توجيه انتقادات محددة إلى الدعم العربى، وأبرز هذه الانتقادات :

(١) تأخر وصول الدعم إلى الجبهة [وقد رأينا فى حديثه عن إسهامات القوات المسلحة العراقية فى الجبهة السورية قوله إنه لو كانت تلك لقوات العراقية متمركزة فى سوريا قبل بدء القتال لتغيرت نتائج القتال على الجبهة الشرقية].

(٢) ضعف مستوى التجهيز والتدريب.

وهو يقول فى هذا المعنى :

«وهكذا يمكن القول إن التعاون العربى خلال حرب أكتوبر كان أفضل صورة ظهر بها العرب منذ إنشاء دولة إسرائيل، لكن يجب أن نعترف بأخطائنا وأن نتعلم

منها. فقد كان الخطأ الأول هو التأخير الواضح فى إرسال هذا الدعم العسكرى إلى الجبهات المختلفة، مما جعل الكثير من وحدات الدعم تصل فى وقت متأخر لا يسمح بأن يكون لها تأثير كبير على سير المعركة. والخطأ الثانى هو أن بعض وحدات الدعم كان مستوى تجهيزه وتدريبه لا يسمح له أن يدخل فى معركة ضد القوات الإسرائيلية التى كانت على مستوى عال من التجهيز والتدريب».

❑

ويحرص الشاذلى فى هذه المذكرات على الإشادة بدور القوات العراقية بالذات فى حرب أكتوبر على مستوى الجبهتين المصرية والسورية:

«ويجدر بى بهذه المناسبة أن أشيد بالسرب العراقى وبالطيارين العراقيين، فقد كان أداء الطيارين العراقيين فى ميدان المعركة رائعاً، مما جعلهم يحوزون ثقة وحداتنا البرية. ففى أكثر من مناسبة كانت تشكيلاتنا البرية عندما تطلب معاونة جوية ترفق طلبها بالقول: «نريد السرب العراقى» أو «نريد سرب الهوكى هنتر»، إن هذا فى حد ذاته يعتبر خير شهادة لكفاءة السرب العراقى وحسن أدائه خلال حرب أكتوبر».

....

«لم يقتصر الدعم العراقى على الجبهة المصرية لكنه أسهم إسهاماً فعالاً فى الجبهة السورية، فبمجرد اندلاع حرب أكتوبر ٧٣ قام العراق بإجراء سريع يهدف إلى تأمين جبهته مع إيران ويسمح له بإرسال جزء من قواته إلى الجبهة السورية، وقد أشرك العراق فى القتال ٤ أسراب جوية، وفرقة مدرعة، وفرقة مشاة، فكانت قواته فى الترتيب الثالث بعد مصر وسوريا من ناحية الكم والكيف، لقد اشترك أول سربين جويين (عراقيين) فى القتال يوم ٨ أكتوبر، كما أن العناصر المتقدمة من القوات البرية قد بدأت تصل إلى الجبهة يوم ١١ أكتوبر، ولو أن تلك القوات العراقية كانت متمركزة فى سوريا قبل بدء القتال لتغيرت نتائج القتال على الجبهة الشرقية، وهذا درس يجب أن نستفيد منه فى المستقبل».

....

وقد خطر ببالى بعد ما قرأت كل هذه التفصيلات التى قدمها الفريق الشاذلى لإسهامات الدول العربية أن أسأله أن يقدم لنا ـ إذا كان هذا فى وسعه ـ الرقم المقابل

لكل من مصر وسوريا هل يكون خمسة آلاف مثلا أو خمسين ألف أو مائة ألف تبعا للمقاييس التى استخدمها فى حساب المساهمة، ولست أدرى هل يظل مثل هذا الرقم سرا لأنه يكشف حجم قواتنا بعد كل ما ذكره الشاذلى عنها أم لا؟!

(٧٠)

على أن من أمتع القصص التى يرويها الشاذلى فى هذا الكتاب، قصة مقابلته للملك الحسن الثانى ملك المغرب، وتأتى هذه القصة فى إطار حديثه عن جهده فى حشد المساهمات العربية من أجل معركته المجيدة، فقد أخبره الملك فى نهايتها أنه ـ أى الشاذلى ـ سيكتب مذكراته وأن الملك يذكره أن يكتب فيها أنه (أى الملك) وعد فأوفى، ولنقرأ هذه القصة الطريفة التى يضمنها الشاذلى أيضاً رجاء على لسان الملك للسادات لكى يتوقف القذافى عن هجومه عليه:

«حضر مقابلتى مع الملك الجنرال أوفقير ورئيس الديوان الملكى، أنصت الملك إلى كلامى ثم علق فى النهاية: «إن القوات المسلحة المغربية جميعها تحت تصرفك. إن كل فرد فى المغرب سوف يكون سعيداً عندما يرى قواتنا المسلحة تقاتل من أجل القضية العربية» .

قلت: «ياصاحب الجلالة، قبل أن أحضر إلى هنا كانت لدى فكرة عامة عن القوات المغربية من حيث الحجم والتنظيم،وإنى أود أن تتاح لى الفرصة لزيارة تلك الوحدات للتعرف على مستواها التدريبى وقدراتها القتالية».

قال الملك: «اعتباراً من باكر يمكنك أن تزور أية وحدة ترغب فى زيارتها، وبعد أن تنتهى من زياراتك كلها تعال لمقابلتى مرة أخرى وقل لى ماذا تريد»، ثم أضاف قائلا: «لاتشغل نفسك طوال الوقت، حاول أن توفر بعض الوقت لكى تزور بلادنا».

«بعد أن تحدثنا عن هذا الموضوع الرئيسى الذى حضرت من أجله وبعد أن أعطى الملك تعليماته إلى الجنرال أوفقير بأن يقوم بترتيب بعض الزيارات الترفيهية لى، انتقل إلى موضوع آخر هو موضوع العقيد معمر القذافى، لقد تكلم الملك بمرارة عن موقف القذافى وقال:

«إن القذافى يخصص ساعة كل يوم فى الإذاعة الليبية لكى يهاجم المغرب، إنه يشتمنا ويتهمنا باتهامات باطلة، ماذا يريد منا القذافى؟ ماذا فعلنا لكى يهاجمنا هذا الهجوم؟ هل من مصلحة العرب أن تستنفد جهودنا فى مهاجمة بعضنا بعضا بدلا من أن نوجهها إلى عدونا المشترك؟ إن القذافى صديقكم فى مصر وقد تستطيعون أن تنصحوه لكى يقلع عن هذه التصرفات. أرجو أن تقوم بإبلاغ ذلك إلى السادات عسى أن يؤثر على صديقه القذافى لكى يعدل موقفه منا».

«قضيت اليومين التاليين فى زيارة عدد من الوحدات المغربية حيث قمت ببحث موقفها من حيث التنظيم والتسليح والتدريب، وبعد أن انتهيت من هذه الزيارات قابلت الملك للمرة الثانية وطلبت منه أن تشمل الإمدادات المغربية ما يلى:

سرب ف ٥، ولواء دبابات.

«وافق الملك وسألنى عن ملاحظاتى عن الوحدات التى زرتها، فذكرت له وجهة نظرى بأمانة، ثم ناقشت معه أسلوب نقل هذه الوحدات إلى الجبهة وبعض التفصيلات الأخرى، وقبل أن أتركه قال بحماس: «ياأخ شاذلى قد تكتب مذكراتك فى يوم من الأيام ولسوف تكتب فيها: «لقد وعد الملك الحسن فأوفى بوعده»، فقلت له: «أقسم أن أفعل ذلك» وفى يوم ١١ فبراير غادرت المغرب إلى ليبيا».

وتتضمن المذكرات تفاصيل زيارة أخرى قام بها الشاذلى للمغرب، ولقاء بالملك الحسن الثانى قبيل المعركة، ويروى الشاذلى أن الملك الحسن أبدى رغبة فى أن يؤجل إرسال القوات حتى يقضى المقاتلون رمضان والعيد مع ذويهم فلم يفاتحه الشاذلى بأن المعركة أسرع من هذا، ولكن الملك الحسن سارع بإرسال لواء المشاة عند اندلاع القتال مباشرة مستخدما فى هذا جميع وسائل النقل الجوى المتيسرة فى المغرب بما فى ذلك شركة الخطوط الجوية المغربية! وأبدى فيما بعد للشاذلى شعوره أنه لو كان يعلم بموعد المعركة لأرسل قواته مع الشاذلى عند لحظة لقائه به.

(٧١)

هل لنا بعد كل هذا الحديث أن نعود إلى مصر، وسياستها الداخلية، ومن المهم أن

نتأمل ما ورد فى هذه المذكرات عن رؤية الشاذلى لمواقف السادات منذ بداية رئاسته وحتى قيام الحرب، ونحن نعلم تمام العلم أن هذه المواقف التى يقدمها الشاذلى قد أعيد تركيبها تبعا لأسلوب ادعاء الحكمة بأثر رجعى وهذا واضح، لكن هذا لا يمنع أن نتأمل مغزى ما يقدمه الشاذلى من نصوص كثيرة مهمة.

وعلى الرغم من أن كثيرين من الذين كتبوا مذكراتهم عن الفترة السابقة على قيام السادات بحركة التصحيح فى مايو ١٩٧١ لا يذكرون أنهم انتبهوا إلى ما كان السادات مقدماً عليه، فإن قادة القوات المسلحة (وفى مقدمتهم الشاذلى نفسه) كانوا حريصين فى مذكراتهم على الإشارة إلى أنهم كانوا منتبهين بدرجة ما لحقائق ما يجرى، وسنرى كيف يروى اللواء عبدالمنعم خليل فى مذكراته (فى الباب الثالث من هذا الكتاب) ملامح الخلافات البارزة فى حديث السادات عن الفريق فوزى وضباط المدفعية القدامى، وفى جلوس الفريق صادق فى الصف الأول بدلاً من أن يجلس مع الرئيس والوزير على المنصة، ثم تناول القادة الطعام المتميز دون أن يحسوا له بطعم، أو أن يتحدثوا وهم جلوس إلى المائدة.. إلخ، لكننا نرى الشاذلى هنا أكثر إحاطة بالموقف، فهو يرى السادات فى صورة أخرى غير صورته السابقة:

«كان اجتماع السادات يوم ١١ مايو ١٩٧١ مختلفاً عن جميع اجتماعاته السابقة، كانت لهجته تنم عن التحدى لخصومه السياسيين وكان يتكلم بثقة أكبر. كان يستخدم كلمة «أنا» كثيراً بعد أن كان فى جميع محادثاته السابقة يستخدم كلمة «نحن» مشيراً بذلك إلى القيادة الجماعية».

....

«أشاد الرئيس السادات بالدور الذى تقوم به القوات المسلحة فى تدعيم السياسة الخارجية، وذكر أن أمريكا ما كانت لتتحرك وترسل روجرز إلى القاهرة لو لم تكن تعلم بأن قواتنا العسكرية قد أصبحت قادرة على تحدى الغرور الإسرائيلى ومصممة على استعادة موقفها القيادى بين الدول العربية».

....

«ثم تحدث عن اهتمامه بالقوات الجوية حتى يمكننا أن نتحدى السيطرة الجوية الإسرائيلية فقال فى هذا المجال: «إننى لن أنام وأنا مطمئن إلا بعد أن يكون لدينا ١٠٠٠ طيار».

(٧٢)

وتعتبر هذه المذكرات بمثابة أفضل مصدر متاح لنا لحديث السادات إلى قادة القوات المسلحة فى أعقاب نجاحه فى القيام بحركته التصحيحية فى مايو ١٩٧١، ونحن نجد السادات فى هذا الاجتماع واضح الرؤية إلى حد بعيد، وقد ساعده على هذا أنه كان قد اجتمع مع هؤلاء القادة جميعاً اجتماعات متواصلة طيلة الشهور السابقة بعد توليه المسئولية، ونحن نرى السادات فيما يرويه الشاذلى يبث هؤلاء القادة همومه ويطلعهم على حقائق الموقف كله، ويصور لهم بدقة ما يريده من القوات المسلحة (ولو عشرة سنتيمترات) ليستطيع المضى قدماً فيما كان ينتويه من سياسات، وتنبئنا هذه الرواية التى يقدمها الشاذلى عن السادات كيف كان الرئيس يفكر بوضوح فى كل ما أنجزه، وأنه لم يكن يحتفظ بنواياه لنفسه فحسب، بل إنه عبر عنها لكل هؤلاء القادة منذ يونيو ١٩٧١:

«فى يوم ٣ يونيو ١٩٧١ اجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة الرئيس السادات، وقد بدأ الرئيس المؤتمر بشرح ما دعاه بالمؤامرة التى كانت تريد أن تتخلص منه، وخص بالذكر كلاً من الفريق فوزى، وأمين هويدى، وشعراوى جمعة، وسامى شرف، ومجدى حسنين».

«وبعد ذلك انتقل إلى خط السياسة الخارجية فقال:

«إن استراتيجيتنا يجب أن تكون واضحة لكم، وهى تتلخص فى نقطتين، النقطة الأولى هى الحفاظ على علاقتنا مع السوفييت والتمسك بها حتى يمكننا بناء الدولة الحديثة اقتصادياً وعسكرياً. إن الحركة الصهيونية هى هجمة صليبية وسوف تستمر عشرات السنين، وإن صداقتنا مع الاتحاد السوفيتى هى التى سوف تساعدنا فى التصدى لهذه الهجمة. أما النقطة الثانية فهى الوحدة العربية. إننا ملتزمون بهذين الهدفين ونسير قدماً فى اتجاههما».

«وفى تعليقه على زيارة الرئيس بودجورنى قال:

«لم يحدث مطلقاً أن حاول بودجورنى أو أى من أعضاء الوفد السوفيتى التدخل

فى شئوننا الداخلية، لكن فى لقاء خاص بينى وبين الرئيس بودجورنى سألنى لماذا اخترت هذا الوقت بالذات لطرد على صبرى؟ فقلت له: لقد رأيت أن أعجل بذلك قبل حضور روجرز إلى القاهرة حتى لا يفسر طردى لعلى صبرى إذا ما تم بعد زيارة روجرز أن ذلك هو ثمن صفقة أمريكية. وقد رد علىّ بودجورنى قائلاً: «إنهم فى القيادة السوفيتية تصوروا هذا التفسير نفسه».

«ورداً على سؤال بخصوص التنظيم الطليعى أجاب الرئيس:

«لقد كانت فكرة جمال عبدالناصر فى هذا الموضوع هى إنشاء تنظيم من العناصر القيادية الشابة دون أن تُعرف أسماؤهم حتى لا يكونوا هدفاً لهجوم عناصر مضادة من داخل الاتحاد الاشتراكى أو من خارجه ممن تستبد بهم الغيرة والحقد. وقد كانت هذه العناصر تنتخب من القاعدة حتى القمة، وقد استغلت بعض العناصر التى كانت تريد أن ترث جمال عبدالناصر هذا التنظيم لكى تفرض سيطرتها على الشعب فدربتهم عسكرياً وهيأت وخزنت السلاح اللازم لاستخدامه فى الوقت المناسب. ولحسن الحظ تمكنا من وضع يدنا على السلاح قبل توزيعه عليهم».

«ورداً على سؤال يتعلق بالشائعات الدائرة حول مطالبة الروس بقواعد عسكرية فى مصر أجاب الرئيس:

«هذا غير حقيقى. أنا لا أعطى قواعد لأحد، وبهذه المناسبة أود أن أقول لكم إنه فى أثناء زيارة روجرز الأخيرة فإنى أخبرته بأننى سأنشئ أكاديمية جوية، وإنى سأستعين بالروس لإنشائها وإننى لن أستطيع النوم قبل أن يصبح لدينا ١٠٠٠ طيار مدرب. قلت له ذلك. إن الأمريكان يعلمون جيداً أننا أصحاب الكلمة فى أرضنا، وقد أخبرت روجرز أيضاً بأنه إذا فرض علينا الاحتلال الإسرائيلى فإننى سأعيد التفكير فى كلمة عدم الانحياز».

«ورداً على سؤال خاص بالنواقص التعبوية التى تؤثر على المعركة الهجومية قال الرئيس:

«إنكم مطالبون بالعمل فى حدود الإمكانيات المتاحة لكم، لو أنكم عبرتم القناة وأخليتم عشرة سنتيمترات فقط شرق القناة، وأقول ذلك طبعاً للمبالغة، فإن ذلك سوف يغير الموقف السياسى دولياً وعربياً».

(٧٣)

ويوظف الفريق الشاذلي السياق التاريخي في هذه المذكرات من أجل انتقاداته للسادات على تصريحاته المتكررة بدق طبول الحرب قبل نهاية ١٩٧١، ودفعه وسائل الإعلام المصرية إلى الحديث عن الحرب القادمة بحرية غريبة [على حد قول صاحب المذكرات]، ومع أن الشاذلي ينتقد السادات في هذه الجزئية إلا أنه لا يحرص أبداً على أن يبرز دوافع السادات أو مبرراته في هذا الذي فعله، ولو أن السادات كان قد فعل كل هذا بدون دوافع أو مبررات، واستمر الشاذلي في العمل معه لكان من حقنا أن نستجوب الشاذلي عن سر بقائه الغريب مع رجل عديم التقدير كفيل بإيراد قادته وقواته موارد التهلكة.. لكن الشاذلي كعادة كتابات ذلك الوقت يقفز على كل هذا لأنه إذا كان القارئ كارهاً للسادات فسوف يسعد بكل نقد، وإذا كان محباً للسادات فلا أمل في تحويله عن هذا الحب بآراء من هذا النوع القافز فوق الحقائق والظروف، وهكذا يخرج مثل هذا النص من يد الشاذلي مفتقراً تماماً للمنطق والعقل:

« ... وبالرغم من هذه الحقائق فقد أخذ السادات يدق طبول الحرب بعد عودته من الاتحاد السوفيتي ويصرخ في كل مناسبة وأحياناً دون مناسبة بأن عام ١٩٧١ هو عام الحسم، ولكي يقنع الجميع بحديثه في ذلك أعلن نفسه قائداً عاماً للقوات المسلحة اعتبارا من ٣١ أكتوبر ١٩٧١ [لا أظن القارئ في حاجة إلى الاندهاش من مثل هذه التصرفات التي كان السادات يجيد استخدامها من آن لآخر، فهو يضيف إلى مسئوليته كقائد أعلى مسئولية أخرى كقائد عام، وإني أذكر أنه في هذه الفترة أيضا أعلن عن تفرغه تماما للمعركة، وأنه فوض نائبه حسين الشافعي في كثير من اختصاصاته وعلى رأسها تلقي أوراق اعتماد السفراء الأجانب، وهو على ما أعلم اختصاص بروتوكولي بحت لم يجر أي عرف على أن يفوض رئيس الدولة فيه أحداً مهما طال غيابه أو استغراقه في أي جهد، خاصة أنه يمكن تجميع عدد كبير من هؤلاء السفراء كل عدة شهور بحيث لا يمثل أداء هذه المهمة استنفاداً لأي جهد أو وقت، ولكن هكذا كان السادات يجيد خلق هذه الأدوار والإيحاءات .. ومع هذا فلست

متأكداً إن كان السادات قد اتخذ هذا القرار أم لم يتخذه ، ولكنى أخشى ـ الكلام مع الفريق الشاذلى ـ أنه لو مضى على هذا المنوال لكانت خطوته القادمة أن يعلن السادات نفسه أيضاً رئيساً للأركان !!] .

ويردف الشاذلى :

«وفى الوقت نفسه أخذت وسائل الإعلام المصرية ـ التى تسيطر عليها الدولة ـ تتحدث عن الحرب القادمة بحرية غريبة كأنها نوع من حفلات المبارزة التى يعلن مسبقاً عن ميعادها ومكان انعقادها».

«لقد كان موقفاً غريباً وشاذاً مما اضطرنى إلى أن أفاتح الفريق صادق فى هذا الموضوع حيث قلت له:

«الرئيس يضعنا فى موقف صعب، إذا كنا حقاً سنخوض المعركة هذا العام فإن الرئيس يحرمنا من المفاجأة التى يمكن أن نحققها لو أنه ظل صامتاً، وإذا كنا لن نقوم بالمعركة هذا العام فإنه بتصريحاته هذه يمكن أن يدفع إسرائيل إلى أن تقوم بضربة إجهاض ضد قواتنا، أو على أقل تقدير فقد تأخذ هذه التصاريح ذريعة لطلب أسلحة جديدة من الولايات المتحدة!»، وقال لى إنه يتفق معى فى وجهة نظرى هذه، وأنه ناقش هذا الموضوع مع الرئيس وأنه يعتقد أن الرئيس يلعب لعبة سياسية. لم أقتنع بمثل هذه الخدع السياسية وعكفت على تدقيق وتجهيز خطة «المآذن العالية» حتى لا أجد نفسى مفاجأ بقرار سياسى بالهجوم دون فترة إنذار معقولة».

هل لنا أن نسأل أنفسنا بعد هذا : هل كان الفريق صادق أقرب إلى السادات من الشاذلى.. أم العكس؟

(٧٤)

وقد نجح الفريق الشاذلى فى هذه المذكرات فى أن يلخص فى صفحة واحدة فقط موقف القادة العسكريين المصريين الكبار فى مطلع عام ١٩٧٢، أى بنهاية ما كان الرئيس السادات قد أطلق عليه عام الحسم، وقد حرص الشاذلى على أن يلخص

رأى كل قائد من القـادة الحاضرين للاجتماع فى حدود سـطر واحد أو سطرين، وإن كان قـد اختص نفسه دوناً عـن السابـقين بسـتة سطـور (وكأن كلامـه لم يكن قـابلاً للاختصار على نـحو ما حدث لكلامهم)، وعل كل الأحوال يبدو الشـاذلى فيما نقل عن مؤتمر الرئيس فى ثانى يوم فى العام الجديد (١٩٧٢) متوافقاً تماماً مع فكرة الرئيس السادات ومـع روايته (أى رواية الـسادات) عن خلافاتـه (أى خلافات الرئـيس) مع الفريق صادق، وسنرى الشـاذلى ينسب إلى نفسه الفكرة التى أخـذت بها مصر بعد ذلك حين تـولى الفريق أول أحمـد إسماعيل قيـادة القوات المسلحة ووزارة الحربية وقاد معركة أكتوبر ١٩٧٣:

«مؤتمر الرئيس فى ٢ يناير ١٩٧٢»

«انعقـد المجلس الأعلـى للقوات المـسلحة برئـاسة الرئيـس السادات يوم ٢ يـناير ١٩٧٢، وفيما يلى أهم ما جرى خلال المؤتمر:

□ الرئيس ...

«إن أمريكـا تدعم إسرائيـل بكل شىء فى حـين أن الاتحاد السوفـيتى لم يمـدنا بما وعدنى به فى أكـتوبر الماضـى. إن الاتفاقيـة التى وقع علـيها اللـواء عبدالقـادر حسن مؤخراً فى موسكو لم تشمل الأصناف كلها التى وعدنى بها القادة السوفييت».

«إن أمريـكا لن تقـوم بممارسة أى ضـغط علـى إسرائيل وإنـهم يقولـون إن الدور الذى يقـومون به هو (اسـتخدم الرئـيس الكلـمة الإنجليـزية catalist) عامل مـساعد فقط».

«إن اندلاع الحرب الهـندية الباكستـانية تجعلنـى أراجع جميع حسابـاتى، حيث إن الحرب بين الهند وباكستان لم تنته بل إنها فى الحقيقة قد بدأت».

«طلب الرئيس بعد ذلك الاستماع إلى تقارير القادة فكانت كما يلى:

□ لواء محمد على فهمى (قائد الدفاع الجوى):

«إن مشكلتى هى أنه مطلوب منى أن أقاتل فى معركة هجومية بأسلحة دفاعية».

«اللواء محمود عبدالرحمن فهمى (قائد القوات البحرية):

«يجب أن نمارس الضـغط على الاتحاد السوفـيتى، يجب أن نغلق الموانئ المصرية

فى وجه الأسطول الروسى، ويمكن أن يتم ذلك بالتدريج شيئاً فشيئاً إلى أن يتم المنع نهائياً إذا لم يستجيبوا لمطالبنا».

□ اللواء على بغدادى (قائد القوات الجوية):

«أحتاج إلى طائرات ردع تستطيع أن تصل إلى عمق إسرائيل».

□ اللواء على عبدالخبير (قائد المنطقة المركزية):

«هناك نواقص كثيرة فى القوات المسلحة بالنسبة للمعركة الهجومية، أهمها ضعف الطيران، النقص فى الحركة، النقص فى وسائل المواصلات، أسلوب فتح الثغرات فى حقول الألغام».

□ اللواء سعيد الماحى (قائد المدفعية):

«يجب أن نقوم بعمل ما فى حدود إمكانياتنا».

□ الفريق الشاذلى :

على الرغم من النواقص كلها فإن القوات المسلحة قادرة على القيام بعملية هجومية محدودة. يجب أن يقوم سيادة الرئيس بالاتصال بالجانب السوفيتى ومعرفة موقفهم فى حالة قيامنا بعملية هجومية حيث إن لديهم قوات كبيرة فى مصر. إن لديهم لواءين «طائرات قتال» وفرقة دفاع جوى، وهم يسيطرون على إمكانيات الحرب الإلكترونية، ويجب أن نعلم كقادة هل سيشترك معنا السوفييت أم لا، وفى حالة اشتراكهم فيجب أن نعلم حدود هذا الاشتراك حتى يمكن أن يكون تخطيطنا سليماً».

□ الفريق صادق :

«إننا جميعاً على استعداد للقتال الفورى ولكن يجب أن يكون النصر مضموناً. إن البلاد لا تتحمل ما هو أقل من النصر. إننا سنقوم باستكمال النواقص من الكتلة الغربية وسأخطر سيادتكم بمجرد الانتهاء من ذلك».

هكذا يبدو لنا بوضوح أن موقف الفريق صادق كان على النحو الذى صوره به كل من السادات والجمسى والشاذلى وعبر عنه أحمد إسماعيل على نحو ما روى عبدالمنعم خليل (فيما نقلناه فى الباب الثالث من كتابنا هذا)، ويبدو لنا أن من الواجب هنا أن نتحفظ على شهادة اللواء عبدالمنعم خليل التى يقول فيها إن صادق كان يريد الحرب، وأن نضعها فى إطار المجاملة فحسب.

(٧٥)

وفى هـذه المذكرات وقائع مهمة لتاريخنا المعاصر عن فترة السنوات الثلاث الأولى من حكم السادات لم ترد فى غيرها من المذكرات ولا حتى فى مذكرات الذين يزعمون لأنفسهم أنهم كانوا يعرفون كل شىء ويشاركون فى كل صغيرة وكبيرة، ومن هـذه الوقائع قصة محاولة الانقلاب الذى حاول اللواء على عبدالخبير القيام بها ضد الرئيس السادات فى أعقاب عزل الفريق صادق، وسوف نتعرض لها بعد قليل، ومن هذه الوقائع أيضاً قصة انقلاب محدود يشكك الفريق الشاذلى من طرف خفى فى أن يكون للفريق صادق علاقة به على نحو ما يبدو لنا من قراءة النص الذى يروى به صاحب المذكرات القصة، وسوف ندهش لهذا المستوى من التفكير الذى تم تدبير مثل هـذا العمل به، ولكننا سنلاحظ أن المكلفين بوظائف محددة (كأفراد الشرطة العسكرية) يحاولون القيام ببعضها دون أن يكونوا حاسمين بالقدر الكافى فى أدائهم لوظائفهم هذه، وقد حرص الشاذلى فى روايته لهذه القصة على أن يوردها فى الإطار الذى عاشه هو بنفسه بدءاً من تبليغ كبير الياوران بالنيابة وذهابه على الفور إلى قيادة المنطقة المركزية، وسنلاحظ أن الوزير صادق كان أسبق منه إلى الحضور، كما سنلاحظ أن أفكار تحرك النقيب على حسنى عيد ـ رغم قصورها ـ لم تكن تختلف عن الصورة التى رواها بعض رجال ثورة ٢٣ يولى ١٩٥٢ عن تحركهم ليلة الثورة، وكيف أُقنع الجنود ـ على سبيل المثال ـ أنهم يتحركون من أجل أى شىء آخر غير الثورة أو الانقلاب.

ويروى الفريق الشاذلى قصة محاولة انقلاب النقيب على حسنى عيد فيقول:

«فى حوالى الساعة ١٨٤٥ يوم ١٢ أكتوبر ١٩٧٢ رنّ جرس الهاتف فى منزلى وكان المتكلم هو الفريق سعد الدين الشريف كبير الياوران بالنيابة، أخطرنى الفريق بأن عدداً من الدبابات قد دخلت القاهرة وأنها تعصى أوامر الشرطة العسكرية، وقال: إن هذا الموقف يهدد أمن وسلامة الرئيس ويشكل خطورة على موكب الرئيس المزمع تحركه الليلة لحضور اجتماع مجلس الأمة الاتحادى فى مصر الجديدة، كما أخبرنى بأنه أخطر الفريق صادق بهذا الحادث قبل أن يتصل بى مباشرة».

«تحركت فوراً إلى مكتبى حيث علمت أن الشرطة العسكرية قد قبضت على قائد تلك القوة وأخذته إلى قيادة المنطقة المركزية، فتحركت على الفور إلى هناك حيث وجدت الفريق محمد صادق قد حضر قبلى بدقائق، وبعد أقل من نصف ساعة حضر اللواء على عبدالخبير قائد المنطقة العسكرية المركزية، وقد ظهر أن قائد القوة الذى قبضت عليه الشرطة العسكرية هو النقيب على حسنى عيد وهو قائد سرية مشاة ميكانيكية ضمن لواء مدرع يتمركز شرق القاهرة بحوالى ٢٠ كيلومترا».

«تتلخص رواية النقيب عيد فيما يلى: «لقد كانت سريتى مكلفة بواجب القضاء على أية جماعات منقولة جواً قد يقوم العدو بإسقاطها فى المنطقة، وقد رأيت أن أقوم بتدريب رجالى على تنفيذ المهمة التى كلفنا بها ولاختبار مدى كفاءتهم فى تنفيذها، وفى الساعة ١٤٠٠ بدأ المشروع التدريبى، وبعد الانتهاء من التدريب فكرت فى أن نقوم بإقامة صلاة المغرب فى جامع الحسين بالقاهرة، وعند وصولنا إلى الجامع تركنا عرباتنا فى ميدان الحسين ودخلنا الجامع حيث صلينا وبعد الانتهاء من الصلاة فوجئنا بالشرطة العسكرية تحيط بنا وتقبض علينا».

«كان الفريق صادق يتولى التحقيق بنفسه بينما كنت أنا واللواء على عبدالخبير نستمع إلى أقوال النقيب المذكور والشهود ونتدخل من وقت لآخر لتوجيه سؤال أو لاستيضاح نقطة غامضة. لقد كانت قصة النقيب عيد غير منطقية، وليس هناك من إجابة مقبولة للعديد من الأسئلة:

« لماذا أشرك النقيب عيد معه أفراداً ومركبات أخرى من الكتيبة مع أنهم ليسوا ضمن تنظيم السرية التى يقودها هو؟».

«لماذا لم يخطر قائد كتيبته مسبقاً بأنه ينوى القيام بإجراء مثل هذا المشروع حتى يتمكن من اتخاذ إجراءات الأمن الداخلى المعتادة؟».

«لماذا لم يمتثل لأوامر الشرطة العسكرية التى تقف على مدخل مدينة القاهرة لمنع أية قوات مسلحة من دخول القاهرة إلا إذا كان ذلك طبقاً لتصديق كتابى مسبق ومبلغة صورة منه إلى الشرطة العسكرية؟».

«هل من المعتاد أن يذهب المرء إلى الجامع راكباً دبابة أو عربة قتال مدرعة؟».

«ومن أقوال ضباط الصف والجنود اتضح أن النقيب عيد أخطر أفراد كتيبته بأنه سيقوم بمشروع تدريب، وأنه تحرك من منطقة تجمعه فى ١٢ عربة قتال مدرعة مجنزرة (٦ مركبات من سريته و٦ مركبات من باقى سرايا الكتيبة)، وبعد أن غادر منطقة معسكرات هاكستب تحول إلى طريق القاهرة ثم مر خلال نقطة الشرطة التى عند مدخل القاهرة (علامة الكيلو ١٤,٥) بالقوة، وقد استطاعت ٧ مركبات أن تتبعه ولكن الخمس الأخريات امتثلت لأوامر الشرطة وتوقفت عند هذه النقطة».

« اندفع النقيب عيد داخل شوارع القاهرة بتلك المركبات السبع بسرعة عالية وأخذ يصدر باللاسلكي أوامر وتعليمات غير واضحة وبعض الآيات القرآنية، بدأ الشك يخامر نفوس بعضهم فتوقفت أربع مركبات أخرى فى منتصف الطريق داخل شوارع القاهرة وهى لا تدرى ماذا تفعل، وصل النقيب ومعه ثلاث مركبات إلى ميدان سيدنا الحسين حيث ترجلوا ودخلوا المسجد للصلاة».

(٧٦)

إلى هنا ينتهى ما يرويه الشاذلى عن هذه المغامرة التى قام بها النقيب على حسنى عيد، لكننا نفاجأ فى الفقرة التالية مباشرة بالفريق الشاذلى وهو يصرح بما تم فى التحقيق أمام عينيه ثم بما يستنتجه هو حول علاقة الوزير صادق بالمؤامرة وبأن هذه المغامرة كانت أحد أسباب طرد الفريق صادق من منصبه كوزير للحربية..... وهو يقدم ـ فى سرعة ـ أدلته على هذا الاستنتاج:

«فى أثناء استجواب النقيب كان يُظهر شيئاً من عدم الاتزان والتعصب الدينى ويتهم المجتمع المصرى بأنه نسى الله ونسى دينه، وكان يتوقف عن الإجابة فى كثير من الأحيان لكى يتمتم بآيات من القرآن الكريم، وبعد انتهاء التحقيق أخطرنى صادق بأنه سوف يقوم بإبلاغ نتيجة التحقيق بنفسه إلى الرئيس، أعلن بعد ذلك أن النقيب عيد مجنون وأرسل للمستشفى، وبالتالى لم يحاكم على هذه المغامرة المثيرة».

«لقد قام الرئيس السادات بطرد الفريق صادق بعد أسبوعين من هذا الحادث،

ومهما قال الرئيس فى أسباب هذا الطرد فإن مغامرة النقيب عيد لابد أنها كنت أحد الأسباب الرئيسية. وقد أكد لى هذا الشعور ما قاله لى السادات بعد ذلك بأنه لم يصدق ما قاله له صادق بأن النقيب عيد هو شخص مريض وغير متزن العقل».

ويعقب الشاذلى فى الهامش بفقرة تؤكد ما يقصده من تأكيد هذا المعنى فيقول:

«يدعى السادات أن السبب الرئيسى لطرد صادق هو أن صادق لم يكن يرغب فى دخول الحرب عام ٧٢، ولكن من يطلع على محضر مؤتمر القناطر فى ٦ يونيو ١٩٧٢ يعرف تماماً أن السادات هو الآخر لم يكن يرغب فى دخول الحرب عام ١٩٧٢».

«كانت مغامرة النقيب عيد هى الضوء الأحمر الذى دفع السادات أن يعجل بضرب صادق».

❑

وفى هامش الكتاب يحرص الشاذلى أيضاً على أن يربط بالإيحاء بين هذا الحادث وبين الانقلاب الذى كان اللواء على عبدالخبير ينوى القيام به فى نوفمبر ١٩٧٢، ثم بين أهداف على عبدالخبير من انقلابه من ناحية، والأهداف التى يزعم الشاذلى أن السادات قد نادى بها فى ١٩٧٨، ونحن نجد الشاذلى يقول ما نصه:

«من سخرية القدر أن يقبض على اللواء على عبدالخبير نفسه بعد شهر من هذا الحادث بتهمة تدبير انقلاب ضد السادات، وما هو أشد سخرية أن الأهداف التى كان ينادى بها على عبدالخبير فى نوفمبر ١٩٧٢ والتى حوكم من أجلها وسجن وهى «إنقاذ مصر» هى نفسها التى نادى بها السادات عام ١٩٧٨ وهى التى تؤيدها وتهلل لها وسائل الإعلام المصرية! ما هو الخطأ وما هو الصواب؟ إنى أستطيع أن أميز بينهما، ولكنى أشفق على شباب مصر، إنه سوف يتمزق ويضيع».

(٧٧)

ومن المهم لتاريخنا المعاصر أن ننقل ـ الآن ـ عن هذه المذكرات ما يرويه الفريق

الشاذلى عن تفاصيل محاولة انقلاب عسكرى فاشل فى عهد الرئيس السادات عقب إقالته الفريق محمد صادق، وسوف نرى الشاذلى معنياً بانطباعات السادات عما أبلغه له أكثر مما هو معنى بالحديث العسكرى أو السياسى عن أبعاد مثل هذا الانقلاب، وسنرى منذ الفقرة الأولى لحديث الشاذلى أنه حريص على أن يظهر لنا فى نصوصه أن السادات وليس غيره (أى وليس الفريق الشاذلى نفسه) كان هو الذى علم بأمر الانقلاب وكان هو الذى قرر ضرب التنظيم المشتبه فيه قبل أن يتعاظم أمره وترتيبه للتحرك الفاعل :

«أما الحادث التالى فقد وقع بعد الحادث الأول بأقل من أسبوعين (يشير الشاذلى إلى مغامرة النقيب على حسنى عبد) لكنه كان أكثر خطورة وأبعد أثراً. لقد كانت محاولة انقلاب كاملة يشترك فيها بعض كبار الضباط وبعض ضباط المخابرات الحربية».

« فقد حدث أن ضابطاً برتبة نقيب من المخابرات الحربية وقع على معلومات جعلته يشك بأن هناك بعض ضباط المخابرات يتعاونون مع المتآمرين، فأبلغ شكوكه إلى أحد أصدقائه الذى قام بدوره بإبلاغها إلى الرئيس، وبعد أن استمع السادات إلى قصة هذا النقيب ازدادت شكوكه بإدارة المخابرات الحربية وأخذ يعتمد أكثر فأكثر على المخابرات العامة والمباحث العامة، وقد أكدت المراقبة أن ضباطاً من المعروفين بولائهم لصادق يجتمعون، ولكن اجتماعاتهم ومقابلاتهم كانت تتم تحت إجراءات أمن مشددة، ولم تستطع المخابرات العامة أو المباحث العامة أن تعلم بما يدور داخل هذه الاجتماعات. لقد زادت هذه المعلومات من شكوك الرئيس فرأى عدم الانتظار حتى يتم الحصول على قرائن تدل على التآمر وقرر أن يضرب التنظيم المشتبه به قبل أن يستفحل الأمر».

❑

ثم يروى الفريق الشاذلى قصة الاجتماع الذى انعقد فى منزل الرئيس وتقرر فيه ضرب هذا التنظيم، وسنلاحظ غياب الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الحربية الجديد والذى كان حتى تولى منصبه فى نهاية أكتوبر لايزال مديراً للمخابرات العامة، على حين حضر وزير الداخلية ورئيس الأركان (الشاذلى نفسه) ونائب مدير المخابرات العامة:

«فى الساعة ١٧٤٥ يوم ١١ نوفمبر ٧٢ ذهبت لمقابلة السيد الرئيس فى منزله بالجيزة بناء على طلبه ، وبعد حوالى نصف ساعة انضم إلينا ممدوح سالم وزير الداخلية، وبعد حوالى نصف ساعة أخرى انضم إلينا عزت سليمان نائب مدير المخابرات العامة، وقد قرأ علينا عزت سليمان المعلومات المتيسرة لديهم عن تنظيم سرى فى القوات المسلحة يسمى «إنقاذ مصر».

ويطلعنا الفريق الشاذلى على الإجراءات التى تم بها فى سرعة وبساطة القبض على مدبرى الانقلاب واستجوابهم، ويوحى إلينا الشاذلى أن حلقات التنظيم سرعان ما تداعت، وأن تفصيلاته كلها تكشفت، وظهر أن عدداً كبيراً من الضباط من ذوى الرتب الكبيرة والمناصب الحساسة كانوا متورطين فى الإعداد لهذا الانقلاب:

....

«وكانت الساعة العاشرة مساء عندما غادرنا نحن الثلاثة ـ ممدوح سالم وأنا وعزت سليمان ـ منزل الرئيس فى الجيزة بعد أن تلقينا تعليمات الرئيس بالقبض على المشتبه بهم واستجوابهم، ذهبنا إلى مبنى هيئة المخابرات العامة باعتبارها صاحبة الخيط الرفيع، وعلى أساس الاعتقاد بأن إدارة المخابرات الحربية هى نفسها متورطة فى العملية».

هنا يجب أن نتوقف لنشير إلى أنه يبدو لى أن المخابرات العامة على حد ما يرويه الشاذلى كانت صاحبة الخيط [ودعك الآن من وصف الخيط بالرفيع، وهو الوصف الذى يستعمل فى أحيان كثيرة ضمن تعبير تقليدى مشهور يقصد التفرقة بين أمرين يتشابهان على الناس، ولكن الشاذلى يقصد الخيط فحسب دون أن يقصد: الخيط الرفيع]، وهنا نفهم من رواية الشاذلى ما لم نفهمه فى البداية أو ما اضطر هو إلى التعمية عليه ـ حتى هذه اللحظة ـ من أن المخابرات العامة كانت صاحبة الفضل فى كشف أمر هذا الانقلاب، ومن المفهوم لنا جميعاً الآن دون أن نكثر من الكلام لماذا يحرص الشاذلى على هذا:

«وقد مكثنا فى المخابرات العامة طوال الليل حيث استدعيت إلى هناك المدعى العسكرى العام، وأصدرت عدداً من الأوامر بالقبض على المشتبه بهم، وكانت

الساعة الخامسة صباحاً عندما انتقلت من المخابرات العامة إلى مكتبى لكى أحصل على ساعتين من النوم قبل أن أستأنف عملى فى الصباح. وفى هذا اليوم نفسه أصدر الرئيس السادات أمراً بطرد اللواء محرز مدير إدارة المخابرات الحربية، وباستمرار التحقيق خلال يوم ١٢ نوفمبر ظهرت الحاجة لاستجواب أسماء جديدة، وبالتالى إصدار أوامر جديدة للقبض على عدد آخر من الضباط».

«اضطررت للسفر إلى الكويت بعد ظهر يوم ١٣ نوفمبر لحضور اجتماع اللجنة المشكلة من عدد من أعضاء مجلس الدفاع المشترك، وعدت بعد ظهر يوم ١٥ نوفمبر دون انتظار انتهاء أعمال اللجنة. لقد كان استجواب أفراد تنظيم «إنقاذ مصر» مازال مستمراً».

«وفى خلال ليلة ١٥/ ١٦ نوفمبر طلب إلىّ المدعى العسكرى العام أن أصدر أمراً بالقبض على اللواء على عبدالخبير الذى كان قائداً للمنطقة العسكرية المركزية منذ أسبوعين فقط نظراً لأن التحقيقات قد أظهرت ارتباطه وتورطه فى هذه العملية،وفى تلك الليلة تم القبض على على عبدالخبير كما تم القبض على عدد آخر من القادة من بينهم العقيد عمران [لايذكر الشاذلى بقية الاسم] وهو قائد فرقة مشاة ميكانيكية، والعقيد أحمد عبدالوهاب، وهو رئيس أركان فرقة ميكانيكية، والمقدم عادل [لايذكر الشاذلى بقية الاسم]، وهو ضابط أركان حرب يعمل فى وزارة الحربية، والمقدم عصام، وهو قائد مجموعة صاعقة. لقد اتسع التحقيق واتضح لنا مدى خطورة الموقف من حيث عدد الضباط من ذوى الرتب الكبيرة والمناصب الحساسة الذين كانوا يعدون لهذا الانقلاب».

وسنرى مدى حرص الفريق الشاذلى على رواية كل التفصيلات التى تنبئ عن الإطار القانونى والإنسانى (الراقى) الذى تمت فيه العملية (غم كل خطورتها)، وكيف أن أحداً لم يجبر على اعتراف أو يعذب من أجله، وكيف أن أصحاب المؤامرة اعترفوا من أنفسهم وبصورة مذهلة:

«بعد طرد اللواء محرز من وظيفته كمدير لإدارة المخابرات الحربية يوم ١٢ نوفمبر، انتقل التحقيق من المخابرات العامة إلى المخابرات الحربية حيث إن المقبوض عليهم كلهم كانوا من العسكريين، كما أن المحقق هو المدعى العسكرى العام».

« وبعد ظهر يوم ١٦ نوفمبر قمت بزيارة مكان التحقيق لكى ألم بآخر التفاصيل،وهناك اطلعت على اعتراف كامل كان قد أدلى به اللواء على عبدالخبير والمقدم عادل(؟)، لم أكن أصدق عينى وأنا أقرأ اعترافات على عبدالخبير التى وقع عليها بإمضائه الذى كنت أعرفه جيداً، فطلبت أن أقابله شخصياً، فلما حضر أمامى سألته بأسلوب أخوى: «هل قمت ياعلى بالإدلاء بهذه الأقوال والتوقيع عليها بمحض إرادتك دون أى ضغط أو تهديد؟» فقال: نعم».

وهنا يعقب الفريق الشاذلى ويقول :

«لقد كان على عبدالخبير رجلاً شهماً فى اعترافه، لقد أراد أن يتحمل المسئولية كلها ليعفى الآخرين جميعهم من المسئولية، وعلى الرغم من خلافنا فى الرأى فقد كنت أنظر إليه كصديق وزميل، وزادنى موقفه الشجاع فى أثناء التحقيق احتراماً له».

❑

ثم يروى الفريق الشاذلى بعض تفاصيل حوار دار بينه وبين المدعى العسكرى يبدو منه أن صاحب المذكرات يتحوط هنا بما يرويه لأى اتهام يوجه إليه بأنه أوصى باستعمال الرأفة مع المتهمين أو أى اتهام مناقض بأنه أوحى بشىء من الشدة أو القسوة، وللشاذلى العذر فى هذا، فقد كانت سمعة هذه الأجهزة وتفاعلاتها مع بعضها تتأرجح مابين التفريط والإفراط وما يُرتب على أى الأمرين من تواطؤ أو تحامل، ولكننا نكاد نصدق كل ما يرويه الشاذلى فى هذه الجزئية إذ كانت هذه الفترة الأولى من حكم السادات بالفعل تتميز باحترام شديد لحقوق الإنسان بعدما شهدته فترة سابقة من تجاوزات لم يكن لأحد الحق فيها ولم يكن من الممكن الاستمرار فيها بعد وقوع هزيمة ١٩٦٧:

« اختليت بالمدعى العسكرى العام وقلت له إنى رأيت بنفسى على عبدالخبير وإن منظره لا يدل على وقوع أى اعتداء جسمانى عليه، لكننى أريد أن أؤكد أنه لا يجوز أيضاً استخدام التهديد أو الوعيد، وأنه هو وزملاءه يجب معاملتهم بمنتهى الاحترام والتقدير اللذين تمليهما رتبهم العسكرية. أكد لى أنه هو شخصياً يؤمن بكل كلمة قلتها وأنه على استعداد لأن يحضر أى شخص آخر لكى أتأكد بنفسى بأنه لم يمارس الضغط على أحد، لكنى اكتفيت بأقواله».

«لقد كانت الاعترافات واضحة وتبين عملية انقلاب محبوكة الأطراف، كانت خطتهم هي أن يقوموا بالعملية ليلة ٩ نوفمبر، وقد اختاروا هذه الليلة بالذات لأنها كانت الليلة المحددة لعقد قران ابنتي ناهد، وكانت الخطة تقضي بأن تهاجم وحدة منهم مكان عقد القران فتعتقل الموجودين كلهم، ولابد أن يكون من بينهم رئيس الجمهورية ووزير الحربية ورئيس الأركان والكثيرون من الوزراء وكبار الضباط، لكنهم فوجئوا باحتياطات أمن مشددة لحراسة المنطقة مما جعلهم يؤجلون تنفيذ العملية إلى وقت آخر».

❑

وهنا لا يروى لنا الشاذلى كيف أجلت هذه المجموعة القيام بالانقلاب من يوم ٩ نوفمبر إلى يوم آخر، ولا يحدد هو نفسه الموعد الجديد الذى كان الانقلاب سيقوم فيه، وهل كان علم السادات بالخطة الانقلابية قد حدث قبل ٩ نوفمبر أم بعد هذا التاريخ، وهل لو كان علمه قد تم بعد هذا التاريخ هل كان الشاذلى يتصور أنه كان بالإمكان نجاح هذه المحاولة الانقلابية؟!

(٧٨)

ثم يستطرد صاحب هذه المذكرات إلى قصة من القصص الممتعة فيما بعد الانقلاب وكيف أن السادات استدعاه على عجل لكى يناقشا معاً بعض إجراءات تأمين القوات المسلحة، وقد أخذت مناقشتهما فى هذا الموضوع حوالى نصف الساعة، لكن الشاذلى لا يذكر لنا منها إلا موضوع عادل سوكة الذى كان قد أشار إليه فى مذكراته من قبل حين كان الفريق صادق يخشى توزيع الدبابات الروسية الجديدة فى الفرقة المدرعة التى يقودها عادل سوكة، وإذا بالسادات على الطريقة التى صُورت بها تصرفاته فى التوازنات التى كان يحرص عليها يقترح على الشاذلى استدعاء عادل سوكة من تركيا، ولكن الشاذلى (لحسن حظه) يقترح على السادات تأجيل هذا الموضوع، ويبدو أن عادل سوكة كان محظوظاً فلو أن الشاذلى وافق على إحضاره

لكان هذا دليلاً يتخذ ضد عادل سوكة نفسه فى أول فرصة يحدث فيها احتكاك بين السادات أو الشاذلى.. أو هكذا أوحى إلىّ الشاذلى بما قرأته لتوى:

«كنت مدعواً فى مساء يوم ١٦ نوفمبر لحضور حفل زفاف السيد عبدالمنعم الهونى، وهو أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة الليبية، كان الحفل يجرى فى نادى الرماية بالهرم، وكان الرئيس السادات يحضر هذا الاحتفال، انتحيت بالرئيس جانباً وأخبرته بآخر التفصيلات والاعترافات بخصوص الانقلاب الفاشل، وبعد حوالى ساعتين هم الرئيس بالانصراف فنزل معه المضيف لتوصيله إلى عربته بينما بقيت أنا فى الدور العلوى أعد نفسى للرحيل، وأنتظر عودة الداعى لكى أسلم عليه، وبينما أنا واقف أتحدث إلى بعض المدعوين إذا بأكثر من شخص يصرخ : «سيادة الرئيس عايزك» فنزلت إلى الدور الأرضى وعند وصولى إلى الباب كان الرئيس قد غادر المكان تاركاً مَنْ يبلغنى بأن أتبعه مباشرة إلى منزله فى القبة [هكذا فى الأصل ولا أدرى ما هو المقصود فقد كان السادات يسكن فى ذلك الوقت فى الجيزة، أما القبة فإن الذى فيها قصر وليس منزلا] وفجأة وجدت نفسى داخل عربة من عربات الحراسة،ألاحق ركب الرئيس فوصلت عقبه، وبينما كان يصعد سلم منزله كنت قد لحقت به».

«قال الرئيس: «أنت شغلتنى قوى ياسعد بالكلام اللى قلته»، لقد بدأ يشعر بأبعاد المؤامرة، ولكنى طمأنته وأكدت له أنه قد تم القبض على جميع الرءوس المدبرة، وعلى الرغم من أن اسم الفريق صادق لم يرد ذكره مطلقاً على لسان أى من الذين جرى التحقيق معهم، فقد كان واضحاً أن المقبوض عليهم جميعهم يدينون بأفكاره نفسها وأنهم كانوا ينوون القيام بانقلابهم لأنهم كانوا يعتقدون أنهم بذلك يؤدون عملاً وطنياً لبلادهم ».

« قال الرئيس: «لقد كان صادق يخدعنى فيما يتعلق بالأشخاص، وكان يزرع رجاله فى المناصب الهامة ويستبعد مَنْ يختلف معه فى الرأى. ما رأيك فى عادل سوكة؟»، فقلت له: إنه ضابط جيد، فقال: «ابعت هاته من تركيا، بكره تبعت تجيبه»، فقلت له: «سيادة الرئيس: إذا قبلت نصيحتى فإنى أقترح تأجيل ذلك»، فاستوضح الرئيس: «لماذا؟»، فقلت له: «كان الفريق صادق للأسف يتهم كل من يختلف معه فى الرأى بأنه شيوعى، لقد قاسيت أنا نفسى من هذه التلميحات، فإذا نحن أحضرنا عادل سوكة

فى مثل هذه الـظروف، فقد يجرى تفسير هـذا التصرف فى القوات المسلحـة تفسيراً خاطئاً»، فهـز الرئيس رأسه موافقاً وقـال: «أعتقد أنك على حق، أجـل هذا الموضوع الآن»، ناقشنا بعض المواضيع الأخرى التى تتعلـق بتأمين القوات المسلحة واستغرقت مناقـشتنا لـهذه المواضيـع حوالى نصف الـساعة، عدت بـعدها مرة أخـرى إلى نادى الرماية لكى آخذ زوجتى، ونتصرف من الحفل».

(٧٩)

وفى وسـط حديثه عـن قصة الانقـلاب الذى كان اللـواء على عبـد الخبير يـقوده يستطرد الشـاذلى ليتحدث عما يعتـقد أنه كان بمثابة الإطار الفكـرى لانقلاب الفريق صادق ومجموعته:

«وقبل أن أحـكى قصة هـذا الانقلاب الفـاشل يجب أن أؤكـد مرة أخرى أن آراء صادق التـى أوضحها فى اجـتماع ٢٤ أكتوبر وأيـده فيها كل مـن الفريق عبـدالقادر حسن واللواء على عبد الخبير كان يؤمن بها الكثيرون من ضباط القوات المسلحة».

....

«لقد كـانوا يعتقدون أن هـناك قوة سياسيـة خفية تريـد أن تدفع القوات المسـلحة المصرية إلى الحرب قبل أن تستكمل استعداداتها بهدف تدميرها، فإذا دمرت القوات المسلحة فسوف يسقط النظام الحاكم وتعـم البلاد الفوضى وبذلك يصبح الجو ملائما لانتشار الشيوعية فى مصر ومنها إلى العالم العربى».

....

«لقد سمعـت هذا الرأى من صادق عدة مرات قبل مؤتمـر ٢٤ أكتوبر ١٩٧٢ ولـم أقبلـه قط، وكان ذلك من مواضـيع الخلاف الرئيـسية بينـى وبينه، ومع ذلك فـإنى لـم أشك مطلقـاً فى شجاعته ووطنيـته، أو أنه كان يقوم بهذه الـلعبة لحساب جهة أجـنبية أخرى، لذلك فقد حزنت كـثيراً عندما سمعت السادات يتهمه أمـامى بأنه ألعوبة فى يد الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية وعميل له».

«ولقد اندفع الرئيس إلى أبعد من ذلك فقال إنه يحصل على المال والذهب والهدايا الثمينة من الملك السعودى، وفى مقابل ذلك فإنه يقوم بتنفيذ كل ما يأمره به، وقد أيد ممدوح سالم ما يقوله السادات وعلق على ذلك قائلا: «ألم أقل لك هذا منذ زمن بعيد ياسيادة الرئيس؟»، لم أكن فى وضع يسمح لى بأن أؤيد أو أنفى ما يقولون، فكنت أستمع وأنا صامت ولكنى كنت أشعر بالحزن والأسى».

بعد هذا كله يحرص الشاذلى على أن يردف بقوله:

«إنى أعرف صادق منذ أن كنا فى العشرينيات من عمرنا، وعلى الرغم من خلافاتنا فى الرأى ونحن فى الخمسينيات من عمرنا فإنى لا أتصور مطلقاً أن صادق عميل».

«وبينما كان السادات يكيل الاتهامات له خلال هذا اللقاء، تذكرت فجأة الكتاب [يقصد : الخطاب] الذى كان السادات قد أرسله إلى الملك فيصل قبل ذلك بعام وكان يقول فيه له إنه يثق بصادق ثقة مطلقة، لم يكن السادات يعلم أن صادق قد أطلعنى على هذا الكتاب».

«ولم أشأ أن أثير هذا الموضوع فى مثل هذا الجو الصاخب، ولكنى كنت أشعر فى قرارة نفسى بالأسى والاشمئزاز من هذا الأسلوب الرخيص فى مهاجمة الخصوم».

(٨٠)

ويصل الفريق سعد الدين الشاذلى فى هذه المذكرات إلى حد لا معقول من الحرص على الحديث عن أمجاده وانجازاته التى لا تنتهى فى العسكرية المصرية، وفى كثير من الأحيان يضحى الشاذلى بكل دواعى السرية والأمن ليتحدث عن نوايا القوات المسلحة فيما يتعلق بتطويرها وتطوير وسائلها الدفاعية أو الهجومية دون أدنى داع لهذا الحديث إلا أن يثبت لنا الجهد الذى بذله، وانتباهه إلى ما لم ينتبه إليه الآخرون، وريادته فى الوصول إلى مناطق جديدة لم يصل إليها غيره .

ومن ذلك حديث الشاذلى عن نيته فى استغلال تقنيات «الاستشعار عن بعد»

لمصلحة قواتنا المسلحة على الرغم من أنه يذكر أنه لم يحقق شيئاً فى هذا المجال بسبب اقتراب موعد حرب أكتوبر، لكنه فيما يروى سعيد بأنه وضع النواة (!!) مع أن هذه النواة على ما يرويه لنا لم تكن إلا تجربة جهاز دون أى ارتباط تم من ناحية القوات المسلحة، وقد تم هذا قبل حرب أكتوبر بمائة وعشرة أيام كانت كافية فيما أظن لأن يضع الشاذلى النواة بالفعل.

على أن القصة التى يرويها الشاذلى تمثل أهمية خاصة لتاريخنا السياسى والعلمى، فقد حضر بطلها الدكتور محمد عبدالهادى بنفسه بعد ذلك إلى مصر وأسس برنامجاً للاستشعار عن بعد فى أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا، بل ورأس هذه الأكاديمية إلى أن اصطدم مع وزير البحث العلمى فنقل إلى الحكم المحلى، ولجأ إلى القضاء الذى أنصفه وأعاده، وأسس هيئة جديدة للاستشعار عن بعد وعلوم الفضاء ليرأسها، لكن الأجل كان أسرع إليه..

وطيلة الفترة التى كان يصعد فيها نجم محمد عبدالهادى كانت التلويحات له بالعمالة للمخابرات الأمريكية مستمرة، ومن العجيب فيما يرويه سعد الشاذلى أن هذا كان موجوداً أيضاً على مستوى القوات المسلحة! وعلى كل الأحوال فقد أفادت القوات المسلحة نفسها من برامج الاستشعار عن بعد شأن استفادتها من كل تطور علمى مفيد لها :

«فى خلال شهر مايو ٧٣ وصلنى خطاب من الدكتور عبد الهادى [يقصد الدكتور محمد عبدالهادى] الأستاذ المصرى فى جامعة أوكلاهوما فى الولايات المتحدة، وفى هذا الخطاب أبلغنى الدكتور عبدالهادى أنه يريد أن يطلعنى على نظام جديد يمكن بمقتضاه اكتشاف أية معادن أو مياه تحت سطح الأرض بموجب معدات خاصة يتم تركيبها فى الطائرات، وأنه يعتقد أنه من الممكن أن نستفيد من تطبيق هذه النظرية فى النواحى العسكرية. كما أخطرنى بأنه قد سبق له أن أرسل عدة خطابات إلى العديد من المسئولين لعرض هذا الموضوع لكن لم يستجب إليه أحد».

« وفى خلال أيام كان الدكتور عبدالهادى فى مكتبى يشرح لى النظرية الجديدة التى قال إن شركات البترول تستخدمها الآن فى البحث عن حقول البترول. إن النظرية تعتمد أساساً على أن كل مادة لها درجة حرارة تختلف عن درجة حرارة المواد

الأخرى التي تتواجد معها في المحيط نفسه، ونتيجة لذلك فإن المياه الجوفية أو النفط في باطن الأرض تكون درجة حرارتهما مختلفة عن درجة حرارة الأرض التي تحيط بهما » .

« كذلك فإن الدبابة أو العربة إذا وضعت داخل جراج فإن درجة حرارتها تكون مختلفة عن درجة حرارة حوائط وسقف الجراج، وتطبيقاً لهذه النظرية فإنه أمكن تسجيل هذه النبضات وتفسيرها على شكل صورة، إذا كان الفرق في درجات الحرارة بين الجسم الذي نرغب في اكتشافه وبين الأجسام التي تحيط به تزيد على ٢ , ٠ من الدرجة المئوية».

«وقد أطلعني على إحدى المجلات العلمية وكان بها مقالة عن الدول التي تستخدم هذه النظرية وكانت إسرائيل من بين تلك الدول».

«لقد كان كلام الدكتور محمد عبدالهادي واضحاً ومنطقياً، ولم يكن ينقصني إلا التجربة العملية لكي نتحقق مما يقول، فوافق على ذلك، وفي أثناء مناقشاتنا علمت منه أن هناك أجهزة للالتقاط وهي أجهزة سهلة وبسيطة وهي معه حالياً في مصر، أما أجهزة التفسير فهي أجهزة معقدة وثقيلة ولا تتواجد معه لذلك يجب أن تُرسل الأفلام الملتقطة إلى الجامعة في أوكلاهوما لتفسيرها وهنا كانت المشكلة. كنا في مصر في ذلك الوقت سواء على المستوى الشعبي أو على المستوى الرسمي لا نفرق بين أمريكا وإسرائيل، فكل سر تعرفه أمريكا عنا نفترض بطريقة أوتوماتيكية أنه قد انتقل إلى العدو. أبديت شكوكي وتخوفي من هذه النقطة، فأراد أن يطمئنني بأن أنتخب مكان التصوير لأغراض التجربة بحيث يكون بعيداً عن أي هدف عسكري، وبعد أن أقتنع بالتجربة فإننا نعمل على تدبير أجهزة التفسير الخاصة بنا، وبالتالي يصبح لدينا جهاز مستقل للالتقاط والتفسير، فوافقت على ذلك»

«بعد هذه المقابلة استدعيت بعض مساعديّ لبحث الموضوع معهم، لكني فوجئت بمدير إدارة المخابرات الحربية يقول لي: «لقد فوجئت عندما علمت بأن سيادتكم قد قابلتم الدكتور عبدالهادي، إنه معروف لدينا بأنه عميل لوكالة المخابرات الأمريكية ، سألته إذا كانت لديه أية اتهامات محددة يمكن أن يوجهها إليه، فأفاد بالنفي، فقلت له: «لحسن الحظ فإن أخلاقي وطباعي تختلف عن طبيعة رجال الخدمة السرية، إني

أتعامل مع كل وطنى على أنه رجل شريف إلى أن يثبت العكس،أما أنتم فإنكم تشككون فى كل فرد إلى أن يثبت العكس. أنا لا أعتقد أن الدكتور عبدالهادى هو جاسوس لمجرد أنه أمريكى الميول والاتجاهات». وفى النهاية اتفقنا على أن نسير فى إجراء التجربة مع اتخاذ الإجراءات التى تضمن عدم تسرب المعلومات».

«فى يوم ١٦ يونيو ١٩٧٣ استقبلت الدكتور عبدالهادى مرة أخرى بحضور كل من اللواء إبراهيم عبدالفتاح واللواء مصطفى كمال، حيث تم الاتفاق معه على الإجراءات الخاصة بالتجربة. وهكذا خصصنا إحدى الطائرات وخصصنا القطاع الذى يتم تصويره ليلاً، وتمت التجربة وجاءت تفسيرات الفيلم رائعة وتدل على سلامة النظرية فى التطبيق العملى،كان الوقت يقترب بسرعة من موعد حرب أكتوبر ولم أستطع تمصير جهاز الاستشعار من بُعد قبل الحرب، لكنى نجحت فى وضع النواة التى آمل أن تنمو وتكبر على مر الأيام».

(٨١)

وعلى نفس النمط من التفكير فى الاستفادة من فكرة الاستشعار عن بعد فإن الفريق الشاذلى فى موضع آخر من هذا الكتاب يحدثنا عن أنه راودته لمحة التفكير فى إقامة مطار تحت الأرض بعد زيارته إلى كوريا الشمالية ورؤيته لمطار كامل هناك تحت الأرض ، ومن العجيب أن رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية كان مبهوراً بفكرة ذلك المطار الذى تحت الأرض فى كوريا، بينما لا تزال كوريا الديمقراطية حتى يومنا هذا وليس لها أى اتصال جوى بالعالم سوى رحلتين جويتين كل أسبوع إلى الصين التى هى الباب الوحيد لدخول كوريا، ونحن لا نقلل من عبقرية بناء مطار بأكمله تحت الأرض، ولكننا نعجب فقط من جدواها فى دولة لا تستعمل المطار حتى الآن إلا مرتين فى الأسبوع فقط(!!) ومع هذا فقد كان الزمن فى ١٩٧٣ كفيلاً بأن يجعل قائداً كبيراً متميزاً كالشاذلى يعجب بمثل هذه الفكرة العبقرية ويبدأ فى التفكير فى تنفيذها فى مصر:

«وبمجرد عودتى إلى القاهرة (أى من كوريا) قمت بتشكيل مجموعة من

المهندسين ليكونوا نواة لفرع جديد فى الهندسة يطلق عليه «فرع الأنفاق»، وفى أول مايو وصل الفريق الكورى من خبراء الأنفاق حيث مكث فى مصر لمدة ثمانية أيام قام خلالها بإجراء دراسات ميدانية مع فريق المهندسين المصريين، وعندما زارنى الوفد للتحية قبل العودة إلى بلاده قال لى رئيسه: «إن رئيس مجموعة المهندسين المصريين لديه خبرة نظرية ممتازة فى الأنفاق ولكن تنقصه الخبرة العملية»، كانت الدراسات والتوجيهات التى قدمها خبراء الأنفاق الكوريون مفيدة للغاية. وبعد سفرهم مباشرة قمت بتشكيل مجموعة عمل هدفها وضع التصميم الخاص ببناء مطار فى بطن الجبل، كنت ألتقى هذه المجموعة مرة كل أسبوع أو كل أسبوعين لأناقشهم فيما أمكن التوصل إليه، وعندما قامت حرب أكتوبر ١٩٧٣ كانت المجموعة مازالت تعمل فى رسم المشروع ووضع تفصيلاته. وكنا قد أحرزنا تقدماً كبيراً فى هذا الصدد» .

« كنت أحرص على الاجتماع الدورى بهذه المجموعة لسببين، السبب الأول: اهتمامى بالموضوع، والسبب الثانى: هو لون من ألوان الخداع بأن الحرب ليست وشيكة الوقوع، إذ لا يمكن لأحد أن يتصور أن يضيع رئيس الأركان جزءاً من وقته لوضع تصميم مطار قد يحتاج إنشاؤه إلى خمس سنوات بينما تكون الحرب وشيكة الوقوع».

(٨٢)

ومن العجيب والطريف أن الشاذلى ـ فى هذه المذكرات ـ يشيد بالمهندس عثمان أحمد عثمان وتعاونه مع القوات المسلحة على الرغم من أنه يهاجم كل أنصار السادات، وعلى الرغم من أن كل أعداء السادات يهاجمون عثمان، ولكن عثمان محظوظ عند سعد الشاذلى كما هو محظوظ عند صلاح نصر وفى مذكرات محمد حلمى السعيد، ويحكى الفريق الشاذلى تفكيره فى أثناء زيارته الأولى للجبهة فى أثناء الحرب [فى الثامن من أكتوبر ١٩٧٣] فى ردم بعض مقاطع من قناة السويس لإقامة الكبارى عليها، وأنه وجد كل الحماس من عثمان أحمد عثمان على حين وجد التردد من مشهور أحمد مشهور وهذه هى القصة حسبما يرويها الشاذلى:

«لقد كان أكثر ما أزعجنى خلال تلك الزيارة هو موقف الكبارى. لقد بلغت

خسائرنا ما يعادل في مجموعه ثلاثة كباري ثقيلة، وقد كان ذلك يصل حوالي ٢٥٪ من مجموع الكباري التي بدأنا بها الحرب. قد يبدو هذا الرقم مقبولاً بالنسبة لعملية عبور بهذا الحجم، لكنني كنت أفكر فيما قد يحدث بعد أسابيع أو شهور، ماذا يمكن أن يحدث لو أن العدو ركز مجهوده الجوي ومدفعيته البعيدة المدى على الكباري؟ سوف نسقط له العديد من طائراته ما في ذلك شك. لكن في الوقت نفسه سوف يتمكن من تدمير عدد إضافي من الكباري ويخلق لنا موقفاً صعباً».

«هنا برزت في ذهني فكرة بناء كباري صماء من الرمل والحجارة بدلاً من الكباري العائمة التي نستخدمها. إن مثل هذه الكباري لا تستطيع الطائرات أن تدمرها بسهولة لأننا نستطيع دائما أن نصلح الحفر التي تحدثها قنابل الطائرات المغيرة في هذه الكباري بأن نردم تلك الحفر بمزيد من الرمل والحجارة. فكرت ملياً في هذه الفكرة وأخذت أقلبها بيني وبين نفسي في أثناء عودتي من الفرقة السابعة متجهاً إلى قيادة الجيش الثالث».

«وفيما يلي الحوار الذي دار بيني وبين نفسي وكأنهما شخصان يتحدثان:

أ - إنها فكرة جيدة، لكن هل من الممكن تنفيذها من الناحية الهندسية؟

ب - أعتقد أن ذلك ممكن. إنها لن تكون أصعب من السد العالي.

أ - إن بناء السد العالي استغرق ١٠ سنوات، فهل تريد أن ننتظر عشر سنوات؟

ب - بالطبع لا. إني أريد أن تكون جاهزة خلال أسبوعين أو ثلاثة أو أربعة على الأكثر. إني لا أريدها سداً مستديماً مثل السد العالي. إني أريدها سداً مؤقتا. إني أتصور أن نقوم بردم جزء من القناة بإلقاء الرمل والحجارة في المجرى المائي ثم نمهد الجزء العلوي لكي يتحمل مرور الدبابات والنقل الثقيل، لا خرسانة ولا حديد ولا شيء من هذا القبيل، وبمجرد انتهاء الحرب يتم رفعها وتطهير مجرى القناة من بقاياها.

أ - أسأل المهندسين. إنهم هم الذين يستطيعون أن يقولوا إذا كانت مثل هذه الفكرة ممكنة أم لا.

ب - طبعاً، سوف أسأل المهندسين، بل سوف أسأل أكثر من مهندس لأن المهندسين كثيراً ما تختلف آراؤهم».

ثم يقول الشاذلى:

«لم أرغب فى الانتظار حتى عودتى إلى المركز ١٠ لكى أبحث مع مدير سلاح المهندسين فكرتى عن بناء كبارى صماء فوق القناة، وصممت أن أستشير أول مهندس أقابله. وفى أثناء تواجدى فى قيادة الجيش الثالث استدعيت رئيس المهندسين بالجيش وانتحيت به جانباً حيث أطلعته على الفكرة وسألته عن رأيه من الناحية الفنية، أجاب دون تردد بأن ذلك ممكن من الناحية الهندسية، وعندما سألته عن الوقت اللازم لإنشاء ٣ كبارى من هذا النوع أجاب قائلا: «لكى أجيب على هذا السؤال هل لى أن أعرف أولاً من الذى سيقوم بإنشاء هذه الكبارى. وهل سيتم ذلك بإمكانيات القوات المسلحة وحدها أم أن ذلك سوف يتم بإمكانيات الدولة كلها؟»،قلت له إنه بمجرد أن يتخذ القرار بخصوص هذا الموضوع فسوف توضع إمكانيات الدولة فى خدمة المشروع، فأجاب قائلا: «فى هذه الحالة يمكن بناء هذه الكبارى الثلاثة فى أسبوع»، أسبوع، ألست تغالى فى هذا التقدير؟ صرخت فى وجهه صراخاً مفعماً بالدهشة والفرح، لكنه عاد يؤكد لى مرة أخرى بأن هذا ممكن. وأضاف قائلا: «إنها عملية بسيطة جداً، إننا سوف نحتاج فقط إلى بلدوزرات، أما الرمال التى سوف تردم بها القناة فإنها هناك فى مكان العمل ولن نحتاج إلى نقلها».

❑

ويروى الفريق الشاذلى بالتفصيل المناقشات والاجراءات التى اتخذها من أجل محاولة بناء كبارى ثابتة على قناة السويس فى أثناء الحرب المجيدة المندلعة:

«بعد عودتى من الجبهة إلى المركز ١٠ فى نهاية ذلك اليوم أخبرت الوزير بالفكرة، لكنه كان متردداً للغاية. أوضحت له خطورة الموقف وما يمكن أن يحدث لو أن خسائرنا فى الكبارى استمرت بهذا المعدل، فاضطر فى النهاية أن يقول إنه سيخطر الرئيس فيما بعد. لم أرغب فى أن أضيع وقتى وأقف ساكناً إلى أن يأذن أو لا يأذن الرئيس لى بذلك، وقررت أن أتخذ بعض الخطوات الإيجابية فى هذا الاتجاه. بحثت الفكرة مع اللواء جمال على مدير سلاح المهندسين فنصح بأن نناقش الموضوع كلية مع كل من الدكتور بدران وزير الإصلاح الزراعى [يقصد الدكتور عثمان عدلى بدران وزير استصلاح الأراضى] ، والمهندس مشهور أحمد مشهور رئيس هيئة قناة

السويس. والمهندس عثمان أحمد عثمان مدير [يقصد رئيس مجلس إدارة] شركة المقاولين العرب».

«وفى الساعة ٢١٠٠ من اليوم نفسه كان جميعهم ومعهم اللواء جمال على فى مكتبى فى المركز ١٠ لبحث هذا الموضوع».

« شرحت الأسباب التى دفعتنى إلى ذلك وسألتهم العون والمشورة . كان رد الفعل لدى المهندس عثمان سريعاً ومؤيداً ومد يده إلى مصافحا وهو يقول "سيادة الفريق أهنئك على هذه الفكرة. لقد فكرت فيها أنا شخصياً وكنت أفكر فى أن أتقدم بها إلى القوات المسلحة. إنها فكرة رائعة ويمكن تنفيذها بسهولة . أما بخصوص الوقت اللازم لاتمام هذه الكبارى فإنى أحتاج إلى بعض الوقت لانجاز الحسابات اللازمة لذلك».

«أما فيما يتعلق بالمهندس مشهور أحمد مشهور فقد أصيب بدهشة وخيبة أمل كبيرتين بما سمع منى وعلق قائلا: «كيف تفكر فى ردم القناة علما بأن الرئيس اتصل بى اليوم وأخبرنى بأنه أعد العدة والخطة لتطهير القناة وإعادة فتحها للملاحة ؟» قلت له: « أنى لا أردم القناة . إنى أريد أن أبنى عليها الكبارى التى تحقق لنا النصر، ثم إننا لن نبدأ العمل فى هذا المشروع إلا بعد الحصول على تصديق السيد رئيس الجمهورية، وسوف يقوم وزير الحربية بالاتصال به وطلب الإذن بذلك» .

«قام المهندس عثمان أحمد عثمان بطمأنة المهندس مشهور وقال له إنه يستطيع أن يرفع هذه الكبارى عن مجرى القناة فى خلال أيام قليلة بعد انتهاء الحرب» .

«وفى نهاية المؤتمر [المقصود : الاجتماع وهو ما يعبر عنه فى العسكرية بلفظ المؤتمر] اتفقنا على أن يتولى المهندس عثمان أحمد عثمان تنفيذ المشروع على أن تضع هيئة قناة السويس ووزارة الإصلاح الزراعى امكانياتها جميعاً فى خدمته».

«لقد كانت الساعة ٢٣٠٠ عندما خرج الرجال الأربعة من مكتبى فى طريقهم إلى مكتب عثمان أحمد عثمان لإجراء الدراسات الخاصة بالمشروع».

❑

ويستأنف الشاذلى رواية ما حدث لفكرته من اهتمام بالغ ووضع المهندس عثمان أحمد عثمان الخطة لتنفيذها :

« وفى مساء ٩ أكتوبر كانت مجموعة العمل قد انتهت من دراسة المشروع وتقدم المهندس عثمان أحمد عثمان بتقريره الذى كان يشمل النقاط التالية:

١-إنه من الصعوبة بمكان إنشاء كوبرى من هذا النوع فى الشط أو فى أى مكان فى قطاع الجيش الثالث، حيث إن سرعة تيار المياه فى هذا القطاع يجعل إنشاء كوبرى أصم فى هذه المناطق عملية باهظة التكاليف.

٢-إن منطقة الدفرسوار والفردان والقنطرة هى أفضل الأماكن لإنشاء هذه الكبارى، وتعتبر الدفرسوار أفضلها جميعا حيث إن سرعة التيار فى هذه المنطقة يصل إلى النصف تقريباً.

٣- بمجرد إصدار الأمر بالبدء فى التنفيذ فإنه يحتاج إلى سبعة أيام لحشد ونقل المعدات إلى مناطق العمل . ثم يحتاج إلى ٩ أيام أخرى لإنجاز العمل (المجموع ١٦ يوماً).

٤- إن إنجاز المشروع فى الوقت المذكور يعتمد على أن يقوم المقاولون العرب بسحب البلدوزرات والمعدات الميكانيكية التى تعمل فى مشاريع لهم فى ليبيا . وهم يلتمسون أن نتصل بالسلطات الليبية لاستئذانها بذلك».

« حاولت الضغط مرة أخرى للحصول على موافقة الرئيس وفى النهاية جاءت موافقته مساء يوم ١٠ أكتوبر. وشرعت فوراً فى اتخاذ الخطوات التنفيذية، ولكن نجاح العدو فى اختراق مواقعنا عند الدفرسوار يوم ١٦ أكتوبر، (قد تسبب فى إسقاط) مشروع بناء الكوبرى فى تلك المنطقة» .

« استمر العمل فى بناء كوبرى فى منطقة الفردان وآخر فى منطقة القنطرة وبعد سلسلة من المتاعب والمشكلات الهندسية تم بناء الأول فى أول ديسمبر. وبناء الثانى فى ٩ ديسمبر ٧٣. ومن الغريب حقاً أن يتبنى العدو الفكرة نفسها التى جالت بخاطرى، وأن يقوم ببناء كوبرى أصم فى المكان الذى حددناه لذلك، وقد انتهى العدو من إنشاء هذا الكوبرى فى منطقة الدفرسوار وافتتحه العدو فى ٧ ديسمبر ١٩٧٣».

(٨٣)

وفى خضم تفصيلات الخلافات العسكرية التى يتحدث عنها الشاذلى طيلة هذه المذكرات فإنه لا يفوته أن يتحدث فى بعض الأحيان عن بعض المصاعب التى كان يواجهها فى إدارة وتنظيم الاحتياجات المعيشية اليومية للقوات المسلحة المصرية، وهو يدلل لنا على عبقريته فى انتواء الوصول إلى أسرار الإدارة، وهو يروى قصة حوار بينه وبين الدكتور عبدالعزيز حجازى حول هذا الموضوع فيقول:

« فى مساء يوم ٢٦ أغسطس ١٩٧٣ كنت مدعواً على العشاء فى فندق مينا هاوس من قبل السيد حسين الشافعى. كان السيد حسين الشافعى يقوم بأعمال رئيس الجمهورية بالنيابة ـ نظراً لوجود الرئيس أنور السادات خارج القطر ـ وكان يقيم مأدبة عشاء على شرف الرئيس معمر القذافى الذى كان قد حضر فجأة إلى القاهرة فى اليوم السابق، كان يجلس بجوارى الدكتور عبد العزيز حجازى نائب رئيس الوزراء ووزير الاقتصاد » .

« تحدثت مع الدكتور عبد العزيز حجازى بخصوص مناقشتى مع رئيس هيئة الشئون المالية بالقوات المسلحة بغرض تحديد تكاليف إنشاء وإدامة كل وحدة من وحدات القوات المسلحة. وسألته إذا كان يستطيع مساعدتنا فى هذا الموضوع » .

« ما إن سمع الدكتور عبد العزيز حجازى كلامى عن هذا الموضوع حتى قفز فرحا، وقال «سوف أقدم مساعدتى فى هذا الموضوع ليس بصفتى وزيراً للاقتصاد والمالية، ولكنى بصفتى الدكتور عبد العزيز حجازى الذى حصل على شهادة الدكتوراه فى الموضوع نفسه الذى تحدثنى عنه وتطلب مساعدتى فيه . لقد حاولت أنا نفسى أن أفعل ما تريده أنت الآن فيما يتعلق بالميزانية المدنية ولكنى لم أنجح . إن تنفيذ هذا الموضوع يحتاج إلى انضباط شديد. وأنا لم أستطع أن أفرض هذا الانضباط على الجهات المدنية . أما فى القوات المسلحة فإن فرصتنا فى النجاح ستكون أفضل بكثير. إن الانضباط موجود، وعلاوة على ذلك فإن رئيس أركان حرب القوات المسلحة يؤيد هذا المشروع ويسانده. لقد نجح ماكنمارا فى تعديل ميزانية الدفاع فى القوات

المسلحة بالأسلوب الذى تطلبه أنت الآن، وإنى أعتقد أن بإمكاننا أن نحقق فى مصر ما استطاع ماكنمارا أن يحققه فى أمريكا ».

«كان الدكتور حجازى شديد التحمس لهذا الموضوع، واتفقنا على أن نتقابل بعد عودته من رحلة إلى الخارج كان يزمع القيام بها، وذلك لمناقشة التفاصيل والاتفاق على الخطوط العريضة التى سوف تتبع لدراسة هذا الموضوع. لقد كانت تلك المأدبة بعد يومين فقط من إنهاء المؤتمر المشترك بين القيادة العسكرية المصرية والسورية التى تم الاتفاق فيها على تحديد يوم الهجوم، وكنا فقط فى انتظار تصديق الرئيس السادات والرئيس حافظ الأسد. كانت عجلة الحرب قد بدأت فى الدوران، وكان واضحاً أنه لن يتسع الوقت لإجراء هذه الدراسات. وعدت الدكتور حجازى بأنى سأتصل به مرة ثانية بعد عودته من الخارج، ولكنى لم أفعل ذلك، فقد كنت مشغولاً بوضع اللمسات الأخيرة للمعركة الهجومية التى بدأت فى ٦ أكتوبر».

وفى الحقيقة فإنه حتى بدون معاونة الدكتور حجازى فقد أبلى الفريق الشاذلى فى هذه الناحية بلاء حسنا على نحو ما نفهم من قراءة مذكرات اللواء عبد المنعم خليل والفريق يوسف عفيفى الذين أنصفا الشاذلى فى الحديث عن الجهد الجبار الذى بذله فى الإعداد لحرب أكتوبر ١٩٧٣ ربما بأكثر مما أنصف الشاذلى نفسه .

(٨٤)

ومن أمتع صفحات هذا الكتاب ما يرويه صاحبه الفريق سعد الدين الشاذلى عن الصاروخين المصريين: القاهر والظافر، ويبدو الفريق الشاذلى فى حالة من السعادة أنه نجح فى استهلاك هذين الصاروخين الراكدين فى مخازن القوات المسلحة، ونحن نراه يحمل حملة شعواء على السلطات الحزبية والإعلام المصرى فى الستينات وتضخيمهما لقيمة القاهر والظافر .

وهو يبدأ القصة بأن يروى تساؤلات الجماهير عقب هزيمة ١٩٦٧ عن هذين الصاروخين، ولكن أحداً لم يجب هذه الجماهير. ويروى الشاذلى أنه حين كان رئيساً

للأركان تذكر قصة هذين الصاروخين بالصدفة وأنه أخذ يتقصى أخبارهما حتى علم أن مشروعهما قد شطب نهائيا من الخطط، وأن الأفراد العاملين فى إدارة القاهر والظافر قد وزعوا على وظائف الدولة المختلفة. ويتحدث الشاذلى عن إمكانات الصاروخين وعيوبهما القاتلة مشبهاً الصاروخين بالمنجنيق الذى كان يستخدم فى حروب العصور الوسطى، ويقدم لهذا بأن يروى قراره بأن يتخلص من كمياتهما الراكدة فى المخازن فى أثناء الحرب، ومع ذلك فإن هذا التخلص لم يكن سهلا:

«لقد قيل الكثير عن امتلاك مصر لصواريخ يطلق عليها اسم «القاهر» ويصل مداها حوالى ٢٠٠ كيلومتر أو أكثر، ويبدو أن السلطات المصرية كان يسعدها تشجيع هذه الأقوال وتغذيتها. وقد كان الصاروخ القاهر عنصراً دائماً فى جميع الاستعراضات العسكرية المصرية قبل حرب ١٩٦٧، وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ أخذ المصريون يتهامسون «أين القاهر؟ هل استخدم أم لا فى هذه الحرب؟» ولم تكن هناك أية إجابة عن هذه التساؤلات إلا الصمت الرهيب من السلطات المختصة جميعها».

«وعندما تسلمت رئاسة أركان حرب القوات المسلحة لم يتطوع أحد ليخبرنى بشىء عن «القاهر» أو «الظافر»، لكنى تذكرتهما فجأة وأخذت أتقصى أخبارهما إلى أن عرفت القصة بأكملها، لن أقص كيف بدأت الحكاية وكيف أنفقت ملايين الجنيهات على هذا المشروع، وكيف توقف، وكيف أسهم الإعلام المصرى فى تزوير الحقائق وخداع شعب مصر، إنى أترك ذلك كله للتاريخ، لكنى سأتكلم فقط عن الحالة التى وجدت فيها هذا السلاح وكيف حاولت أن أستفيد بقدر ما أستطيع من المجهود والمال اللذين أنفقا فيه».

«لقد وجدت أن المشروع قد شطب نهائياً وتم توزيع الأفراد الذين كانوا يعملون فيه على وظائف الدولة المختلفة».

« أما «القاهر» و«الظافر» فكانت هناك عدة صواريخ منهما ترقد راكدة فى المخازن. لقد كانت عيوبهما كثيرة وفوائدهما قليلة، ولكنى قررت أن أستفيد منهما بقدر ما تسمح به خصائصهما، وقد حضرت بياناً عملياً لإطلاق «القاهر» يوم ٣ سبتمبر ١٩٧١، لقد كانت قذيفته تزن ٣,٥ طن وتحدث حفرة فى الأرض المتوسطة

الصلابة بقطر ٢٧ متراً فى العمق، وتبلغ كمية الأتربة المزاحة حوالى ٢٣٠٠٠ متر مكعب » .

« وكما يبدو فإن القوة التدميرية لهذا السلاح تعتبر رائعة، ولكن كفاءة السلاح الميدانى لا تقاس فقط بقوة التدمير، فقد كانت هناك عيوب جوهرية فى هذا السلاح تجعله أقرب ما يكون إلى المقلاع أو المنجنيق اللذين كانا يستخدمان خلال القرون الوسطى. لقد كان كبير الحجم والوزن، إذا تحرك فإن مركبته تسير بسرعة ٨ ـ ١٠ كيلومترات فى الساعة وعلى أرض ممهدة أو صلبة، وإذا أطلق فإنه يطلق بالتوجيه العام حيث إنه ليس لديه أية وسيلة لتحديد الاتجاه سوى توجيه القاذف فى اتجاه الهدف قبل تحميل المقذوف على القاذف، وأن أقصى مدى يمكن أن يصل إليه هو ثمانية كيلومترات!!. ولا يمكن التحكم فى المسافة إلا فى حدود ضيقة وعن طريق رفع زاوية الإطلاق أو خفضها!!».

«وفى أثناء التجربة أطلقنا ٤ مقذوفات بالاتجاه نفسه والزاوية نفسها فكانت نسبة الخطأ تصل إلى ٨٠٠ متر، وعلى الرغم من ذلك كله فقد قررت أن أستهلك هذه الصواريخ خلال حرب أكتوبر، وشكلت وحدة خاصة لهذا السلاح، وأطلقنا عليه اسم «التين».

❑

وعند هذا الحد يروى الفريق الشاذلى بعض الصعوبات الفنية والتكتيكية التى واجهت استخدام هذه الكميات الراكدة من الصاروخ «القاهر» أو «التين» فى أثناء الحرب:

«ولم يكن فى استطاعتنا طبعاً أن نستخدمه ضد أى هدف يقع شرق القناة مباشرة لأن عدم دقة السلاح قد يترتب عليها سقوط القذيفة على مواقعنا التى تقع شرق القناة ولا يفصلها عن مواقع العدو سوى ٢٠٠ متر فقط، ولم يكن فى وسعنا أن نبعث به إلى الجبهة قبل بدء العمليات حيث إنه لو حدث واكتشف العدو وجوده فقد يعتقد الإسرائيليون بناء على حجمه أنه قادر على ضرب تل أبيب، لذلك أجلنا تحركه حتى

ليلة الهجوم، أى أنه تحرك إلى الجبهة خلال ليلة ٥/ ٦ أكتوبر ٧٣».لم تكن نتائج استخدامه طيبة، لكن كما سبق أن قلت لقد حصلنا عليها من بين الأصناف الراكدة ولم نكن لنخسر شيئاً نتيجة لاستخدامه».

هكذا يعترف الفريق الشاذلى بأنه لم يحقق نتائج باستخدام هذا الصاروخ بخلاف النتيجة الكبرى وهى التخلص من وجوده فى المخازن، ولكن الشاذلى ـ شأنه فى هذا شأن الشاذلى الذى كتب هذا الكتاب كله للانتقام من السادات ـ يجد فرصة لانتقاد السادات فى موضوع القاهر فيذكر (على مسئوليته) أن السادات أعلن صباح يوم ٢٣ أكتوبر أننا أطلقنا «القاهر» على العدو فى الثغرة، ويبدأ فى انتقاد السادات لهذا التصريح، ولست أدرى ما الذى ذكّر السادات هو الآخر (صدفة) بهذا الصاروخ فى ذلك الصباح بالذات؟ إن كان هذا قد حدث على النحو الذي يرويه الشاذلي :

«ولكنى فوجئت بأن الرئيس السادات يعلن صباح يوم ٢٣ أكتوبر ٧٣ بأننا أطلقنا «القاهر» على العدو الذى يحتل منطقة الدفرسوار قبل وقف إطلاق النار مساء يوم ٢٢ أكتوبر ببضع دقائق، وإنى أعلن وأقرر بأن هذا الادعاء باطل ولم يحدث مطلقاً. إن كل ما حدث هو إطلاق ثلاث قذائف سوفيتية الصنع بواسطة R17E، وإنى لأتعجب! مَنْ الذين يريد السادات خداعهم؟ أمريكا أم إسرائيل أم شعب مصر؟ إن من السذاجة أن يعتقد السادات أنه يستطيع أن يخدع أمريكا أو إسرائيل بمثل هذا القول. إن إمكانيات أمريكا الاستطلاعية بواسطة الأقمار الصناعية وطائرات الاستطلاع التى تطير خارج مدى صواريخنا، ووسائل الاستطلاع الإلكترونى، كل ذلك كفيل بأن يجعل مثل هذا الادعاء مثاراً للضحك. إذن فالمقصود هو شعب مصر الذى لا يسمع ولا يقرأ إلا ما يقوله حاكم مصر. لا أعرف كيف سيرد السادات على هذه الكذبة، وإن كنت لا أستبعد أن يرد عليها بأن يرتكب كذبة أخرى».

❑

ثم يتحدث الشاذلى عن الصاروخ الظافر الأخ الأصغر الذى نال من بركات الشاذلى أنه أطلق عليه اسم «الزيتون»:

«أما صاروخ «الظافر» فهو الأخ الأصغر للقاهر. لقد كان أصغر حجماً وأقصر مدى، وقد قامت الكلية الفنية العسكرية بتطويره بحيث يمكنه إطلاق ٤ قذائف دفعة واحدة. لقد كان أكثر دقة من القاهر، لكنه مع ذلك لا يمكن اعتباره بين الأسلحة الدقيقة. لقد حضرت أيضاً بياناً عملياً عن إطلاقه يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٧١، ثم حضرت عدة بيانات عملية أخرى لإطلاقه بعد ذلك، وقررت استهلاك الموجود منه خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣، وفعلاً تم تشكيل وحدة خاصة به وأعيدت تسميته لتكون «الزيتون»، وقمنا بدفعه إلى الجبهة خلال الليالى الثلاث الأخيرة قبل المعركة. لقد كانت نتائجه فى العمليات الحربية أفضل من أخيه القاهر، وكانت حرب أكتوبر هى الفرصة التى أمكن بها إسدال الستار نهائياً على «القاهر» و«الظافر» أو طبقاً لاسميهما الجديدين «التين والزيتون».

(٨٥)

أظن أنه قد حان الوقت لكى نتحدث عن انتقادات الشاذلى للوزيرين اللذين عمل كرئيس للأركان معهما، ومن الطريف أن أولهما وهو الفريق صادق لم يجرب رئيسا آخر للأركان غير الشاذلى، وعلى الرغم من أنه كان رئيسا للأركان فإنه لم يجرب أن يعمل رئيسا للأركان إلا مع الفريق أول محمد فوزى. أما الثانى وهو المشير أحمد إسماعيل فعلاقته مركبة بعض الشيء، فقد عمل رئيساً للأركان مع الفريق أول محمد فوزى (وعمل من قبل رئيساً لأركان الجبهة مع الفريق أول عبدالمحسن كامل مرتجى)، وكان الشاذلى أول رئيس للأركان يعمل معه، وإن كان أحمد إسماعيل قد أتى إلى القيادة من المخابرات، على حين كان الشاذلى موجوداً فيها، ثم أتيح للجمسى أن يعمل كرئيس للأركان مع أحمد إسماعيل، وإن كان قد عمل معه أيضاً كرئيس للأركان عقب نكسة ١٩٦٧.

ويحظى الفريق صادق بانتقادات كثيرة ومتعددة فى هذه المذكرات، ونحن نرى الشاذلى وهو حريص كل الحرص على أن يتهم الفريق صادق بأنه استغل سلاح الشائعات للنيل من العلاقة بين الشعب المصرى والاتحاد السوفيتى، وسنرى الشاذلى

يلجأ فى حديثه عن الفريق صادق إلى ألفاظ جارحة من قبيل الوصف بعمى البصيرة رغم أن الموقف كله لا يحتمل هذا الوصف، وسنرى الشاذلى وهو يحلل حديث الفريق صادق إلى قادة القوات المسلحة فى ١٨ مارس ١٩٧٢ متحاملاً إلى أبعد الحدود على صديقه الذى يقول فى موضع آخر من مذكراته هذه إنه لا يزال يحبه ويحترمه، ولكن يبدو أن الرئيس السادات كان قد استطاع بدهائه أن يدفع الشاذلى فى هذا الطريق فى ذلك الوقت حتى إن الشاذلى لا يفعل أكثر من أن يستعرض آراءه التى أبداها فى تصرفات الفريق صادق منذ ذلك الحين، وسنقرأ فى الفقرات التالية اتهاماً صريحاً لصادق من الشاذلى بأنه هو الذى خلق الشائعات، ثم نقرأ فى فقرة تالية عبارات للشاذلى يحرص بها على إدانة صادق حتى لو لم تكن نظريته عن مسئوليته عن الشائعات صحيحة:

«فى غياب الديمقراطية فإن الشائعة هى السلاح الوحيد الذى يستطيع بواسطته الشعب أن يعبر عن رأيه [انظر إلى هذا التعميم الغريب الذى يقدمه الشاذلى مع أنه كان يكفيه بدلاً من أسلوب القصر هذا أن يقول: تصبح سلاحاً أو سلاحاً أساسيا أو بارزاً أو بمثابة السلاح المفضل.. ولكنه كالعهد به وبحماسه يقول:السلاح الوحيد]» .

« لكن فى كثير من الأحيان فإن القيادة السياسية تعمد هى نفسها إلى خلق وترويج بعض الشائعات لكى تخدم غرضاً معيناً».

« وفى اعتقادى أن ما ذكره الفريق صادق من شائعات فى اجتماع المجلس الأعلى يوم ١٨ مارس هو من هذا النوع من الشائعات التى فجرها لكى يخلق العداوة بين أفراد القوات المسلحة وبين الاتحاد السوفيتى، ولكى يظهر وكأنه هو الذى يحمى مصر من تيار الشيوعية. إن الفريق صادق يكره الشيوعية كراهية شديدة، وهذا أمر يخصه وليس لأحد أن يحاسبه على ذلك، لكن عداونه للشيوعية قد أعمت بصيرته [هكذا يقول الشاذلى بالنص!!] فأصبح لا يفرق بين الشيوعية كمذهب أيديولوجى والاتحاد السوفيتى كدولة عظمى تقوم بإمدادنا بالسلاح الذى يمكننا من تحرير أرضنا المحتلة ».

« كان كل مَنْ يدعو إلى تصفية الجو وتحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتى من أجل مصر هو عدو شخصى للفريق صادق، بل وقد يذهب إلى أبعد من ذلك فيتهمه

بالانتماء إلى الشيوعية والعمالة للاتحاد السوفيتي، لذلك فإن ما قاله صادق فى هذا المؤتمر كان فى الواقع هجوماً على عزيز صدقى وليس نفياً لهذه الشائعة».

ويعود الشاذلى ليحاول إنقاذ نفسه من هذا الخط الذى اندفع فيه إلى مسافات بعيدة فيقول:

«ولنفرض أننى أخطأت فى تحليلى هذا وأن صادق لم يخلق هذه الشائعات، وإنما وصلت إليه عن طريق استطلاع الرأى الذى يجرى فى القوات المسلحة من وقت لآخر بطريقة دورية، فإن هذه الشائعات لا يمكن النظر إليها بجدية نظراً للأسلوب الخاطئ الذى تتبعه القوات المسلحة المصرية للحصول على هذه المعلومات».

(٨٦)

ويعترف الفريق الشاذلى فى موضع مبكر من هذه المذكرات [ص٩٩ من الطبعة الأولى التى بين أيدينا.. فى الفصل السادس عشر] بكل وضوح أن الخلافات الفكرية والعسكرية بينه (كرئيس للأركان) وبين وزير الحربية (الفريق أول محمد أحمد صادق) قد ظهرت على السطح قبل مضى شهرين على تعيينهما فى منصبيهما فى ١٥ مايو ١٩٧١، ومع هذا فإن الشاذلى يضع عنواناً للباب السابع عشر: «قصة الخلاف بينى وبين صادق» ويبدأ ـ كما سنرى فى فقرة تالية ـ ليشخص أن الصدام بدأ بينه وبين صادق بعد ستة شهور من توليهما منصبيهما.

وهذه ـ على كل حال ـ أولى الفقرات التى يتحدث فيها الشاذلى فى هذه المذكرات عن ظهور هذه الخلافات وجوهرها:

«كنت أقوم بزيارة الوحدات البحرية فى الإسكندرية خلال يومى ٦ و٧ يوليو ١٩٧١، وكان يرافقنى فى هذه الزيارة عدد من كبار القادة الذين هم أعضاء فى المجلس الأعلى للقوات المسلحة، وقد انتهزت فرصة تواجدنا فى الإسكندرية لأعرض عليهم أفكارى فيما يتعلق بالمعركة الهجومية المحدودة، وذلك قبل انعقاد المجلس بصفة رسمية يوم ٨ يوليو فى القاهرة».

«اجتمعنا ظهر يـوم ٧ يوليو فى الكلية البحرية وشرحـت لهم أفكارى عن الحرب المحدودة. اجتمع المجـلس بكامل هيئته فى الـقاهرة برئاسة السيد الوزيـر يوم ٨ يوليو الساعة ١٩٠٠ واستمر حتى منتصف الليل».

«وقد ظـهر بصـفة علنـية لأول مرة الـتصادم الـفكرى بـينى وبيـن الفريـق صادق بخصوص شكل المعركـة الهجومية. كنت أرى أن تخضع الخطة للإمـكانيات المتاحة، بينما كان الفريق صادق يرى أن نضع الخطة على أساس تحرير الأرض بكاملها، دون التقيد بالإمكانيات المتيسرة، ثم نعمل بعد ذلك على تدبير الإمكانيات المطلوبة».

(٨٧)

ومن الأمثلة المتعددة على حرص الفريق الشـاذلى على التعبير عن اعتقاده فى إيمان الفريق صادق بفكرة المـؤامرة وحرص الشاذلى على تطويع كل المناقـشات العسكرية (التى دارت فـى القوات المسلحـة المصرية إبان تـوليه منصـبه الرفيع فيـها) لأغراض سياسية، هذه القصة التى يرويها صاحب هذه المذكرات عن واقعة حدثت عام ١٩٧٢ حين كـانت مصر عـلى وشك تسـلم دبابات جديـدة من الاتحاد السـوفيتى، وانـعقاد اجتماعين لمناقشة خطة توزيع الدبابات ونحن نرى الشاذلى يروى هذه القصة فى إطار خلافاته مع الفريق صـادق ولكنها فى الحقيقة تنطق بما هـو أكثر من ذلك وهو خلاف الشاذلى مع الآخرين وليس مع صادق فحسب.

وسنرى مما يـرويه الشاذلى فى الاجتمـاع الأول أنه كان هو وعبدالقـادر حسن فى ناحـية، على حـين كان الـوزير صادق والجمـسى (رئيس الـعملـيات) وعمر جـوهر (رئيس هيئة التنظيم) فى ناحية أخرى، فلما انعقد اجتماع اليوم التالى انضم عبدالقادر حسـن إلى رأى الوزيـر والجمسـى وجوهر عـلى حيـن بقى الـشاذلى بمـفرده (أى أن عبـدالقادر حسـن عدل عن رأيه الأول)، فـلما سأل الـوزير القادة الـسوفييت الرأى انضموا إلـى رأى الشاذلى.. فكانت فرصـة للوزير ليغمـز بأن السوفييت يتـفقون مع رأى الشاذلى.

يروى الشاذلى كل هذا ثم يقدم تفسيره بأن الوزير كان يشك فى ولاء قائد إحدى الفرق المدرعة، وهذا وارد بالطبع، لكن الشاذلى يحجب تماماً وجهة نظر الجمسى وعمر جوهر وقد أبدياها قبل أن يحضر الوزير.. ثم يحجب عنا الشاذلى بالتالى ما يراه أو ينبغى لنا أن يراه من دوافع عند الجمسى وجوهر لكى يتخذا وجهة النظر التى اتخذاها من البداية وثبتا عليها، فنحن نفهم أن عبدالقادر حسن كان رجل الوزير ولهذا عدل عن رأيه، ولكن ماذا عن هذين القائدين المتميزين ورأيهما؟؟ لعل هذا المثل من أبرز ما يدلنا على أن الشاذلى لم يكن يعبأ أبداً إلا بمن هم فوقه فى السلطة، أما البحث عن تبرير مَنْ يلونه لآرائهم فلم يكن يأبه له:

«..... فى خلال المفاوضات بين مصر والسوفييت خلال فبراير ١٩٧٢، وافق الجانب السوفيتى على إمدادنا بعدد من الدبابات ت ٦٢. وفى يوم ٢٦ فبراير ١٩٧٢ اجتمعت لجنة برئاسة الوزير (أى الفريق محمد أحمد صادق) لبحث طريقة استيعاب وتنظيم هذه الدبابات. لقد كان رأى الوزير ومعه رئيس هيئة العمليات (يقصد اللواء محمد عبدالغنى الجمسى) ورئيس هيئة التنظيم (يقصد اللواء عمر جوهر) هو أن نسلم هذه الدبابات إلى اللواءين المدرعين المستقلين، وأن تحل الدبابات ت ٥٤ وت ٥٥ التى كانت أصلاً ضمن تنظيم هذين اللواءين محل الدبابات ت ٣٤ فى التشكيلات الأخرى، أما أنا فقد عارضت هذا الرأى وطالبت بتسليم الدبابات ت ٦٢ إلى الفرقتين المدرعتين بدلاً من اللواءين المستقلين» .

« وقد بنيت رأيى على أساس أن وجود هذه الدبابة القوية ذات المدفع ١١٥مم ضمن الفرق المدرعة وفى احتياط القوات المسلحة يجعلنا قادرين على توجيه ضربة قوية وحاسمة فى الاتجاه الذى قد يظهر لنا فى أثناء المعركة، أما توزيعها على الألوية المدرعة المستقلة فسوف يترتب عليه أن تستخدم هذه الألوية فى المراحل الأولى من المعركة وفى اتجاهات قد لا تكون ذات أهمية كبيرة. وقد وافقنى الفريق عبدالقادر حسن (كان نائباً للوزير) على هذا الرأى».

«وفى اليوم التالى اجتمعنا مرة أخرى لبحث الموضوع نفسه ولكن فى هذه المرة بعد أن انضم إلينا الجنرال أوكينيف وبعض المستشارين السوفييت، قام السيد الوزير بصفته رئيساً للمؤتمر بطلب رأى الحاضرين واحداً بعد الآخر، أيد الجمسى وعمر

جوهر رأيهما السابق، وعدّل عبدالقادر حسن رأيه لكي ينضم إليهما، أما أنا فقد قمت بتأكيد رأيي الذى أعلنته في اليوم السابق، وبذلك أصبحت المعارض الوحيد لوجهة نظر الوزير. استمعنا بعد ذلك إلى رأى المستشارين فكانوا جميعاً ذوى رأى واحد يتطابق مع وجهة نظرى، وهنا علق الوزير موجهاً كلامه إلى كبير المستشارين بأسلوب لا يخلو من الغمز و اللمز: «أرى أنك تتفق تماماً مع الفريق الشاذلي!».

«وقد عرفت فيما بعد أن السبب الحقيقى الذى دفع صادق للوقوف ضد اقتراحى هو أنه كان يشك فى ولاء العميد عادل سوكة الذى كان قائداً لإحدى الفرق المدرعة، وأن تسليم ١٠٠ دبابة جديدة ت ٦٢ إليه قد يخل بالتوازن الأمنى الداخلى الذى تضعه القيادة السياسة المصرية دوماً فى مقدمة المتطلبات العسكرية للمعركة».

هنا لا يذكر الشاذلى كيف عرف هذا، هل من الوزير أم من غيره، ولا يذكر هل كان هذا صحيحاً أم لا، ولكنه فيما بعد وفيما يبدو قد استغل هذه الواقعة فى موضع آخر ورواها للسادات دون أن يروى لنا هذا، فإذا بالسادات يشير عليه باستدعاء عادل سوكة هذا من تركيا ليكون فى موقع متقدم بعد إقالة صادق واكتشاف انقلاب على عبدالخير وقد تناولنا هذا الموضوع فى فقرة سابقة من هذا الباب الذى بين أيدينا.

«وهكذا اتخذ الوزير القرار بتسليم الدبابات ت ٦٢ إلى كل من اللواء المدرع ١٥ واللواء المدرع ٢٥ المستقلين».

(٨٨)

وتدلنا قراءة ما ترويه هذه المذكرات عن خلافات الفريق صادق مع الفريق الشاذلى على أن الحق فى كثير من الاحيان كان مع الفريق صادق رغم كل الدفوع التى يقدمها الشاذلى فى مذكراته ، ولربما كانت خلافات الشاذلى مع أحمد إسماعيل مرتبطة بمعركة تختلف فيها الطموحات، ولكن الخلاف مع الفريق صادق ينحصر فى أساسيات يحاول فيها الشاذلى أن يكسب المعركة أمام القراء، مع أن الحق قد لا يكون فى صفه، وسوف نثقل على القارئ لو أننا نقلنا له معظم فقرات الفريق سعد الدين

الشاذلي التي تضمنت آراءه في الفريق صادق،و لكننا سنقتطف للقـ ئ فقرات متفرقة تدلنا على جوهر هذه الآراء :

« ... لقد كان الفريق صادق صديقاً عزيزاً عليّ منذ أيام شبابنا. وأنا مازلت أحبه وأقدره، مع أني أختلف معه في كثير من الآراء . ولكنني ما زلت أعتقد أنه عنصر وطني يمكن أن يخطيء، وإني واقف بجانبه ضد الاتهامات الباطلة التي يوجهها إليه الرئيس أنور السادات دون أن يعطيه فرصة للدفاع عن نفسه . إن كل ما ألوم به الفريق صادق هو أنه خضع للسلطة فجمحت به حتى أصبح لا يطيق أن يسمع رأياً يخالف رأيه . إنه الضعف الإنساني، لم يكن الفريق صادق أول هؤلاء ولن يكون قطعاً آخرهم، إني أشعر أن من واجبي أن أظهر هذه الحقائق عسى أن يستفيد منها بعضهم فلا يقعوا في الخطأ نفسه الذي وقع فيه أسلافهم ».

❏

وهنا يردف الشاذلي بالفكرة التي يفضل أن يشخص بها توجهات الفريق صادق وتصرفاته ويقول :

« إن الفريق صادق يكره الشيوعية كراهية شديدة وهذا أمر يخصه وليس لأحد أن يحاسبه على ذلك، ولكن عداوته للشيوعية قد أعمت بصيرته فأصبح لا يفرق بين الشيوعية كمذهب أيديولوجي والاتحاد السوفيتي كدولة عظمى تقوم بإمدادنا بالسلاح الذي يمكننا من تحرير أرضنا المحتلة . كان كل من يدعو إلى تصفية الجو وتحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتي من أجل مصر هو عدو شخصي للفريق صادق، بل وقد يذهب إلى أبعد من ذلك فيتهمه بالانتماء إلى الشيوعية والعمالة للاتحاد السوفيتي».

(٨٩)

هكذا نرى الشاذلي حريصا على أن يظهر اعتزازه بالفريق صادق وزمالته له ولكنه في انتقاده لهذا الصديق « العزيز » لا يقف عند حدود هذه الصداقة أبدا، بل ولا

يقف عند حدود الزمالة ولا حتى الزمالة فى الإنسانية، وانظر إليه ـ على سبيل المثال ـ وهو يعدد عيوب الفريق صادق فيصفه بأنه كان يحب المظهرية، وأنه كان يستحب استعراض القوة!!

وحين يلجأ صاحب هذه المذكرات إلى مثل يدلل به على هذا الخلق فى شخصية الفريق صادق فإنه يذكر واقعة طريفة سنوردها بعد قليل ولكنه يوردها وهو يذكر أنها حدثت فى ساعة من ساعات التجلى(!!) فإذا كان الأمر كذلك مع أننا لا نعرف ماذا يقصد الشاذلى بالتجلى على وجه التحديد، فكيف له أن يجعل واقعة حدثت فى ساعة استثنائية من لحظات التجلى دليلا على خلق متصل الحدوث أو متأصل فى نفس صاحب الواقعة؟!!

« ...لقد كان الفريق صادق هو أحد رجال الانقلاب الذى قام به السادات فى مايو ١٩٧١، وكانت هذه الصفة بالإضافة إلى كونه وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة تعطيه سلطات واسعة على المستويين السياسى والعسكرى . كان الجميع يعرفون قوة صادق بما فيهم أنا طبعاً . ولكنه مع ذلك ، كبشر كان أحياناً يحب أن يستعرض هذه القوة ».

« وفى ساعة من ساعات التجلى كنت فى مكتبه أتناقش معه فى بعض الموضوعات قبل سفره إلى السعودية فى طائرة بوينج خاصة تنتظره فى المطار ، فأخرج من جيبه كتاباً ناولنى إياه وقال لى اقرأ ، كان الكتاب فى ظرف مغلق وهو معنون باسم الملك فيصل، وموقع من قبل الرئيس أنور السادات، وفيه يقول الرئيس أنور السادات للملك فيصل :«إن الفريق صادق هو موضع ثقتى الكاملة ، إن أى شىء يقوله أو يعد به هو باسمى. تستطيع أن تتكلم وتتعامل معه كما لو كنت تتعامل معى».

(٩٠)

كذلك فإن الشاذلى يصف الفريق صادق بأنه كان يبالغ فى استعمال السلطة، وهو يستخدم تعبيرا كبيرا جدا فى وصف هذا الخلق فيقول:

«تجمع بصاحبها فتدمره»(!!).

على هذا النحو ينظر الشاذلى إلى قائده السابق الفريق صادق حين كتب مذكراته متحدثا عن أخطائه فى البطش بالمعارضين، وضيق صدره بالرأى الآخر.. وعلى هذا النحو فقد كان من الطبيعى أن يظهر الخلاف بينهما علنا بعد شهور قليلة من العمل معا:

«قاتل الله السلطة التى تجمح بصاحبها فتدمره . لقد أخذت سلطات الفريق صادق تتعاظم يوماً بعد يوم حتى دمرته . لقد ارتكب الفريق صادق أخطاء مَنْ سبقوه نفسها . إنه يبطش بأى ضابط يعترض طريقه، ويغدق فى العطاء على من يسير فى ركابه، ويضيق صدره إذا سمع رأيا يختلف عن رأيه. لقد بدأت سلطانه تجمح به فى أواخر عام ١٩٧١ وبدأ الخلاف بينى وبينه يظهر ولم نكن قد عملنا معا سوى ستة أشهر ».

❑

ويروى الشاذلى بعض تفصيلات الخلافات التى وقعت بينه وبين الفريق صادق بادئا بالخلاف أثناء اجتماع مجلس الدفاع المشترك فى نوفمبر ١٩٧١ فيقول:

«........ وقع أول تصادم بينى وبين الفريق صادق فى أواخر نوفمبر ١٩٧١ خلال فترة انعقاد مجلس الدفاع العربى المشترك [لاحظ أننا أشرنا إلى أن الشاذلى نفسه وبألفاظه هو يذكر أن التصادم الفكرى الأول بينه وبين الفريق صادق قد حدث فى يوم ٨ يوليو ١٩٧١ وقد أشرنا إليه منذ فقرات].

«كنت أعرض مشروعاً جديداً على المجلس بصفتى الأمين المساعد العسكرى للجامعة العربية ، بينما كان هو يحضر الاجتماع مندوباً عن مصر بصفته وزيراً للحربية».

نستطيع هنا وقبل أن نمضى فى قراءة مايرويه الشاذلى أن نتوقف لنشير إلى أن الفريق الشاذلى كان دائما ما ينظر إلى نفسه بشىء من الافتتان الشديد بداع وبدون داع، فهو هنا يتحدث عن نفسه كأنه وهو أمين مساعد عسكرى للجامعة العربية له سلطة أعلى من سلطة الوزراء العرب ومنهم الوزير المصرى، مع أننا نعرف أن هذا المنصب الذى يتحدث عنه الشاذلى يشغله بحكم القانون رئيس الأركان المصرى بحكم منصبه، وهكذا فإن الشاذلى لم يشغله بكفاءة أو انتخابات أو علاقات أو

تربيطات أو بأى سبب يمكن أن يطلق عليه تعبير «بصفة شخصية»، ولكن بصفته رئيسا للأركان في القوات المسلحة، أى بصفته الشخص التالى لوزير الحربية المصرى والقائد العام للقوات المسلحة المصرية، وقد شغل هذا المنصب من قبله رؤساء الأركان المتعاقبون.

وهكذا يصبح من التعسف أن يتصور الشاذلى نفسه يرأس الوزير فى الجامعة العربية، أو أن له سلطة أعلى منه أو حتى أنه يتكلم من منطلق قومى، بينما الوزير يتكلم من منطق قطرى فقط فيما يخص مصر.. ولكن فيما يبدو واضحا لنا فقد كانت هذه الصفة فى خلق الشاذلى متأصلة تماما فهو ما يكاد يتولى المنصب حتى يظن لنفسه صلاحيات تفوق ما هو منطقى! ولربما كانت هذه هى نفس المشكلة التى قابلته فى الكونغو حين ظن نفسه (قد أصبح للنهاية) موظفا دوليا تابعاً للأمم المتحدة، وبالتالى لا يصبح من حق أى ضابط مصرى أقدم منه أن يمارس عليه أقدميته لأنه (دولى) بينما الضابط المصرى الأقدم وقد كان فى هذه الحالة العميد أحمد إسماعيل (إقليمى أو قطرى ..أو مصرى فحسب). مع أن الحصافة تنبيء الشاذلى أنه سيعود بعد فترة طالت أو قصرت للجيش المصرى، وستكون لهذا المصرى أسبقية عليه على نحو ما حدث بالفعل!

ونستأنف قراءة رواية الفريق الشاذلى حيث يقول :

« لم يعجبه ـ أى الفريق صادق ـ الخط الذى كنت أسير فيه، فجاء يلومنى خلال فترة الاستراحة بين الجلسات ويطلب إلىّ تغيير المسار لكى يتفق مع وجهة نظره فرفضت قائلاً :«إنك كوزير للحربية فى مصر تستطيع أن تصدر إلىّ التوجيهات بصفتى رئيسا للأركان أما بصفتى الأمين العام المساعد العسكرى للجامعة العربية فإنه ليس من حقك أن تصدر إلىّ أى توجيهات، إنك تمثل مصر وتستطيع أن تتكلم باسم مصر كيفما تشاء ويستمع إليك الآخرون ويناقشونك، أما أنا فإننى أتكلم باسم جميع رؤساء أركان حرب القوات المسلحة العربية »، فرد غاضباً بنبرة لا تخلو من التهديد : «ولكنك تعلم أن وظيفتك كأمين عسكرى مساعد للجامعة العربية هى نتيجة لكونك رئيسا للأركان» فأجبت: «نعم أعرف ولكننى لن أساوم على حريتى فى العمل كأمين مساعد للاحتفاظ بوظيفتى رئيسا للأركان، وهذه الحقيقة يجب أن تعرفها جيداً ».

ولست أدرى ما هو مدلول هذا القول من الشاذلى هل سيترك رئاسة أركان الجيش المصرى من أجل منصب الأمين المساعد للجالية العربية.. إنه بالتالى يفقد هذا المنصب أوتوماتيكيا.. أفلم يكن الشاذلى يعرف هذا؟

(٩١)

هنا نقف مرة أخرى وقد رأينا من نصوص الشاذلى نفسه كيف أنه كان يوحى بكل كلمة مما علقت به على موقفه قبل أن أورده، ولربما ظن القارئ وهو يقرأ تعليقى السابق أنى أتجنى على الشاذلى مستغلاً عبارة عابرة فى حديثه، ولكن ها هو القارئ يقرأ ما رواه الشاذلى بنفسه، وما هو مصرٌ عليه من أن له صفة «قومية» تفوق الصفة «القطرية» للوزير، فإذا نبهه الوزير إلى حقيقة أن هذا المنصب القومى مرتبط بالصفة القطرية، كان رد الشاذلى كما رأينا وقرأنا أنه لن يساوم، ونحن لا نستطيع أن نفهم كيف كان بالإمكان أن تمضى الأمور على هذا النحو بين هذين القائدين الكبيرين ولكننا سنلجأ إلى تعبير السادات المحنك حين قال للشاذلى إنه متأكد من أن علاقته بأحمد إسماعيل ستكون أفضل بكثير من علاقته بالفريق صادق.

ولنتأمل بقية ما يرويه الشاذلى عن هذا الخلاف مع الفريق صادق:

« كان يعتقد (يقصد الفريق صادق طبعا) أنه بصفته وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة فإنه هو وحده له سلطة اتخاذ القرار وأنه يتحتم علىّ أن أخطره بكل شيء ، وألا أتخذ أى قرار، قلت له « إنك تريدنى أن أقوم بأعمال مدير مكتب وليس رئيس الأركان، وهذا ما لا أقبله !» . فما كان منه إلا أن أخرج من مكتبه القرار الجمهورى الذى استصدره سلفه الفريق محمد فوزى وقال لى « تفضل ... واقرأ هذا القرار وأنت تعرف أنى أعمل فى حدود سلطاتى !».

« لقد كان القرار غامضاً فى بعض النواحى ولكنه كان على العموم يعطى سلطات واسعة للقائد العام للقوات المسلحة الذى قام هو نفسه بتحريره والتصديق عليه من رئيس الجمهورية دون أية دراسة من الأجهزة الفنية المتخصصة . إن هذا هو واحد

من الـدروس التى يـجب أن نتـعلمـها فى مصـر من أخطـاء الماضى . "عـندما يـكون شخص ما فى الـسلطة فإنه يقوم باسـتصدار قانون أو قرار جمهـورى يخدم أغراضه ويقنن تصرفاته".

علـى هذا النـحو يخـرج الشاذلـى نفسـه من هذا المـأزق الذى أوقعـه فيه الـنص المكتوب والذى كان الفريق أول صادق نفسـه قـد عمل تبعا له وهو رئيـس للأركان مع الفريق أول فوزى، وهو يلجأ إلى عبارة تبدو حـكيمة وهو يتحدث عن أخطاء الماضى دون أن يتنبه إلى ما هو أهم من هذا التعليق،ومن العجيب أن يصف الشاذلى مثل هذا التصرف بأنـه من أخطاء الماضى (!) والماضى هـنا يشير إلى أن الشاذلـى أصبح مركز التاريـخ وبالتالـى فإن ما قبـله أصبح مـن الماضى!! وكأنمـا كان تنظـيم الفريـق فوزى للعمـل بينه وبين رئيـس أركانه الفريق صادق خطـأ فى حق الشاذلى الذى كـان توليه رئاسة الأركان حتى هذه اللحظة التى صدر فيـها القرار فى علم الغيب ! فلا يليق أن تُسن أو تُشرع قـوانين أو قواعد قد يخضـع لها صادق ولكن الشـاذلـى رئيـس الأركان القادم لن يخضع لها لأنه أكبر منها !!

كما أن الشـاذلى يتجاهل وهو يـكتب مثل هذا الكلام ـ أويـتقبل نسبتـه إليه ـ وهو القائد العـسكرى ـ أنه يبدو كما لو كـان حريصا على أن يغير أو يـبدل أو يطور فى أفكارنـا ومعتقداتـنا نحن كقـراء عاديين ومواطـنين عاديين عـن العسكريـة، ونحن لا نعرف بـحكم معلـوماتنا المتـواضعة إلا أن القـائد قائد ، وأن علـى مَنْ يلونه مـهما كانت رتبهم أن يخضـعوا لأوامره! ولكـنا نفاجأ هنا بعسـكرى بارز ومن المفترض أنه عسكـرى محترف وهـو يحاول أن يصـور لنا الحيـاة العـسكـرية كما لـو كانت قابـلة للجدل والأخـذ والرد والمساومات ومراعاة التـوازنات على نحو ما يحـدث مثلاً فى الأحزاب والتنظيمات الحزبية والنقابية من تسوية للأوضاع والخلافات بحلول وسط.

إن العجب ليعترينى أن يبقى الفريق الشاذلى على مثل هذه العبارات فى مذكراته سواء كان هـو الذى كتبـها أو أملاها أو أقرهـا، ولكنى لا أسـتطيع أبدا أن أتـصور أنه كتب مثـل هذه العبارات، وقد كـانت له قبل كتابـة المذكرات أربعون سنـة من الخبرة بالحـياة العـسكـرية والالتـزام فيهـا، أبعـد هذا كلـه يريد الـشاذلـى أن ينقـض أصول العسكرية كلها فيجعل من حق رئيـس الأركان أن يعارض القائد العام معارضة علنية وأن يحتكم إلى الجمهور.. جمهور القراء(!) سبحان الله(!!).

ثم يحكى الشاذلى عن أحد الخلافات الحادة بينه وبين الفريق صادق، وكيف استطاع الفريق صادق أن يعزل لواء كبيرا من منصبه لأنه من أتباع الشاذلى ، وأن يحل محله لواء آخر من أتباعه هو قبل أن يذهبا (أى الوزير ورئيس الأركان) للقاء رئيس الجمهورية كى يفصل بينهما فى أحد خلافاتهما وهو الخلاف الذى يعتبره الشاذلى بمثابة قمة الخلاف بينهما!.

«كان يوم ٢٠ أبريل هو قمة الخلاف بينى وبين الفريق صادق. وذلك عندما اتخذ صادق اجراء تعسفياً ضد اللواء عبدالرءوف. كان اللواء عبدالرءوف يعمل فى تصفية أعمال القيادة العربية الموحدة. وكان البند الثامن من قرارات مجلس الدفاع المشترك فى دورته الثانية عشرة التى انعقدت فى القاهرة ما بين ٢٧ ـ ٣٠ نوفمبر ٧١ نص على «تخصيص مبلغ مليون ونصف مليون جنيه إسترلينى من الرصيد المتبقى لدى القيادة العربية الموحدة لشراء لنشى مساحة على أن تقوم جمهورية مصر العربية بتدبير الفنيين اللازمين لتشغيل هذين اللنشين وعلى أن تلتزم بعملية المسح الهيدروغرافى لجميع السواحل العربية طبقا للأسبقية التى يضعها مجلس الدفاع المشترك».

«لقد وافقت جميع الدول العربية بالاجماع ـ بما فيها مصر ـ على هذه القرارات وكنت بحكم وظيفتى كأمين مساعد عسكرى للجامعة العربية مسؤولاً عن تنفيذ هذا القرار. وبعد القيام بالدراسات الأولية قررت إرسال اللواء عبدالرءوف إلى لندن للقيام بالإجراءات النهائية والتوقيع على العقود اللازمة. وفى يوم سفر اللواء عبدالرءوف قام الفريق صادق بإجراء تعسفى عنيف ضده أثناء قيامه بتنفيذ هذه المهمة».

«لقد أمر صادق رجال مخابراته بإيقافه فى المطار أثناء تحركه فى اتجاه الطائرة وعومل فى المطار معاملة غير كريمة وكأنه طفل هارب؟!! لقد كان خطأ كبيرا من صادق لايليق بجمهورية مصر العربية! إننى لم أرغب فى إثارة هذا الموضوع على المستوى العربى حينذاك خوفاً من أن يؤثر ذلك على العلاقات والتعاون الذى يربط مصر بصفتها الدولة المضيفة لمنظمات جامعةالدول العربية بباقى الدول العربية. أما

الآن وبعد أن مضى أكثر من سبع سنوات على هذا الحادث فإن من حق الدول العربية أن تعرف هذه الحقيقة حتى تعمل على ضمان عدم تكرار مثل هذه الحوادث فى المستقبل ـ لذلك فإنى أثير السؤال التالى أمام العرب كلهم: هل من حق السلطات المصرية أن تتخذ إجراءات تعسفية ضد المصريين الذين يعملون فى الجامعة العربية بطريقة تمنعهم من تنفيذ قرارات اتخذتها الجامعة العربية ومنظماتها المختلفة؟ إذا كانت الإجابة من الناحية النظرية هى «لا» فما هى الضمانات التى تكفلها الجامعة العربية لموظفيها حتى يمكنهم أن يحتفظوا بحريتهم فى مساحة العمل وعدم خضوعهم للإرهاب الذى قد تمارسه السلطات المصرية (!!!) ضدهم كما حدث للواء عبدالرءوف؟».

«...لقد قضيت نهار يوم ٢٠ أبريل ١٩٧٢ فى الجيش الثالث حيث كانت الفرقة الرابعة المدرعة تقوم بإجراء مشروع تدريبى. وعندما وصلت إلى مكتبى حوالى الساعة ١٧٣٠ علمت بالحادث المحزن الخاص باللواء عبد الرءوف ، وفى الساعة ٢٠٠٠ قابلت الوزير فى مكتبه . لقد كانت مقابلة صاخبة . وقد قلت له «لا يمكن أن تسير الأمور بهذا الشكل، يجب أن نقابل رئيس الجمهورية ليحكم بيننا» وعندما قلت له ذلك ثار غضبه وكأن عقرباً قد لدغه وصاح قائلاً: « فكرة كويسة . لازم نروح لرئيس الجمهورية. سوف أقول لرئيس الجمهورية يجب أن يختار يا أنا ياسعد الشاذلى فى القوات المسلحة؟» كانت الساعة حوالى التاسعة من مساء يوم الخميس عندما غادرت مكتب الوزير بأمل أن نقابل الرئيس يوم السبت التالى».

« إن صادق الرجل القوى الذى لم يكن ليخشى رئيس الجمهورية لم يضيع الوقت سدى فأصدر أمراً بعزل اللواء عبد الرءوف من منصبه ، وعين اللواء طلعت حسن على بدلاً منه، وتحت مختلف أساليب القهر والتهديد أرغم اللواء عبد الرءوف على إرسال برقية إلى لندن لاسترجاع الأموال التى حولها البنك الأهلى المصرى لتكون تحت تصرف اللواء عبد الرءوف واللجنة المرافقة له . وهكذا خلال يوم الجمعة ـ وهو عطلة رسمية ـ أتم صادق تنفيذ ما يريده . وعند عرض الموضوع على الرئيس فإنه سوف يجد نفسه أمام الأمر الواقع».

ثم يحكى الفريق الشاذلى أن لقاء الرجلين : الوزير ورئيس الأركان (الذى هو الشاذلى نفسه) مع رئيس الجمهورية لم يسفر عن شىء ذى قيمة، وهو يوحى لنا فيما

يرويه كيف كان صادق حريصا على أن يضع الشاذلى فى طائفة المنخدعين بالسوفييت، وترينا الرواية التى يوردها الشاذلى نفسه أن السادات قد استطاع بفضل مواهبه أن يتظاهر أمام الرجلين أنه صدق بالفعل أن الشاذلى قد « ينخدع فى السوفييت »حتى « يودوه فى داهية » .. « خذ بالك ياسعد»، ولنقرأ هذه الرواية الطريفة :

«فى تمام الساعة ١١٣٠ من يوم ٢٣ أبريل ذهبت أنا وصادق إلى منزل الرئيس فى الجيزة. وفى حضور صادق أخبرت الرئيس بكل شىء، أخبرته بقصة اللواء عبدالرءوف. أخبرته بقصة توزيع ت ٦٢. أخبرته كيف ينفرد صادق بالسلطة فى المخابرات الحربية وشؤون الضباط وأضفت قائلا: «سيادة الرئيس تحت هذه الظروف حيث لاسلطان لى على إدارة المخابرات الحربية، ولا على إدارة شؤون الضباط فإنى لايمكن أن أكون مسؤولاً عن أمن القوات المسلحة».

«كان دفاع الفريق صادق لتبرير تصرفاته ضعيفاً من وجهة نظرى على الأقل، فيما يتعلق بقصة اللواء عبدالرءوف ذكر بأن المبالغ المحولة إلى لندن كان من الممكن صرفها من البنك بتوقيع واحد وهو توقيع اللواء عبدالرءوف وأن ذلك يعطيه الحق فى التصرف فى هذه الأموال كأنها أمواله الشخصية، وأضاف قائلاً «إننا نعرف فى إدارة المخابرات الكثير عن اللواء عبدالرءوف مما لا يعرفه الفريق الشاذلى، لقد أمرت يا سيادة الرئيس بإجراء تحقيق فى هذا الموضوع وسأعرضه عليكم خلال أيام».

«وفيما يتعلق بإدارة المخابرات تكلم بغموض وعدم تحديد فقال إنه يوافق على أن يقوم بإخطارى بما يجرى فى إدارة المخابرات، ولكن هذا لايعنى بالضرورة أن يتحتم عليه أن يأخذ رأيى فى كل شىء حيث إن هذا يعنى فرض حدود على حريته فى العمل».

«وفيما يتعلق بإدارة شؤون الضباط قال إن من حقه اعتماد قرارات لجنة شؤون الضباط وإنه لم يمارس حقه فى تعديل هذه القرارات إلا مرة أو مرتين.

رددت عليه «إن المسألة مسألة مبدأ. إذا كان لك أن تنقض قرار لجنة مكونة من ١٥ ضابطا كبيراً فيجب أن يكون هناك أسباب قوية، أسباب أقوى من مجرد معرفتك الشخصية لهذا الضابط. إن مستقبل الضباط يجب ألا يترك فى يد شخص واحد! ».

«... وعلى الرغم من شعورى بأن ما أقوله كان منطقياً فقد حاول الفريق صادق أن يستخدمه ضدى وصاح قائلاً: « شوف ياسيادة الرئيس. سعد الشاذلى عايز يحرمنى من سلطاتى!! »، وفيما يتعلق بقصة الدبابات ت ٦٢ اتهمنى الفريق صادق بأنى أقف دايما ضده وفى صف المستشارين السوفييت».

«لقد مكثنا مع الرئيس حوالى ثلاث ساعات ، ولم يتخذ الرئيس أى قرار حاسم بخصوص الموضوع . كل ما قاله هو بعض النصائح العامة . قال موجهاً كلامه لصادق " لا يامحمد . لازم تقول لسعد على كل حاجة .... المخابرات .... وتستشيره فى تعيينات وتنقلات الضباط . الراجل مشترك فى المسئولية؟"».

وقال موجها كلامه لى :

«شوف ياسعد لازم تاخذ بالك . الروس حايخدعوك ... كل الناس بتكرههم. حايحاولوا يستغلوك .... حتكون أنت الخسران!» كان واضحاً من كلام الرئيس أن الفريق صادق نجح فى أن يزرع الشكوك فى نفسه على اعتبار أنى صديق للروس [يقصد: السوفييت] ».

«ولكنى رددت بحدة :«سيادة الرئيس إذا تصادف وكانت آرائى أحيانا منطابقة مع آراء الروس فليس معنى ذلك أنى أتعاون معهم ضد أى شخص . إنى أقول دائما وبصراحة ما أعتقد أنه الحق وأنه فى مصلحة بلادى بصرف النظر عما اذا كان ذلك يتمشى مع إنسان ما أو يتعارض معه" وهنا علق الرئيس قائلا :« إنى أعرف أنك رجل وطنى وأنك لا يمكن أن تقوم بعمل ضد وطنك ، ولكنى أخشى أن يخدعوك وأن يجروك إلى الاتجاه الخاطئ ». وهكذا غادرنا منزل الرئيس دون أن نحل أى مشكلة. سارت الأمور فى هدوء ويسر لمدة أسابيع قليلة ،ثم ارتدت مرة ثانية إلى طبيعتها السابقة ».

(٩٣)

ونأتى الآن إلى ما يتناول به الفريق الشاذلى المشير أحمد اسماعيل، ونحن نجده

يخصص عديداً من فقرات كتابه لانتقاد المشير أحمد إسماعيل، ويمكن القول بأن كتاب الفريق سعد الدين الشاذلى يعد بمثابة قصيدة هجاء طويلة فى ذلك القائد العظيم الذى انتقل إلى رحمة ربه قبل أن يكتب الفريق سعد الدين الشاذلى مذكراته بفترة طويلة ، وربما أجد من الصعب علىّ أن أبدو محايداً فى نقل آراء الفريق سعد الدين الشاذلى فى المشير أحمد إسماعيل، فقد كان المشير أحمد إسماعيل موضوعاً لأحد كتبى أعددته حوالى عام ١٩٨٠، ونشر عام ١٩٨٤، وربما لو كنت تركت الأمر لعقلى الباطن ،لوجدتنى على الاقل أندفع من دون أن أدرى إلى اختصار انتقادات الفريق سعد الدين الشاذلى التى يوجهها إلى المشير أحمد إسماعيل أو إلى إهمال بعضها أو إلى التقليل من قيمة بعضها الآخر، ولكنى فى الواقع حريص على أن يكون هذا الباب من كتابى هذا متوافقا تماما مع منهجى فى كل أبواب هذا الكتاب وغيره من الكتب التى خصصتها لدراسة وتحليل ونقد الكتب التى تتناول التجارب الذاتية.

ومع هذا فإنى أحب أن أذكر القارئ بحقيقة بسيطة ومتواضعة وهى أن كل ما يقرأه للفريق سعد الدين الشاذلى فى هذا المجال يمكن للفريق سعد الدين الشاذلى نفسه أن يرد عليه بمنتهى البساطة لو كان قد وصل إلى ما وصل إليه المشير أحمد إسماعيل من خبرة طويلة بالمواقع القيادية ، وبعلاقة القيادات العسكرية بالقيادة السياسية، وللقارىء أن يتصور نفسه وهو ينتقد رؤساءه القدامى، وللقارىء أن يتصور نفسه مرة أخرى مُنتقَداً من زملائه الأحدث منه، إذا أفلح القارىء فى هذا التصوير أو فى هذا التصور فسوف يدرك حقيقة ما كان بين الرجلين حتى وإن كان خلافهما الشخصى قديماً جداً منذ أيام الكونغو أو منذ أيام الفراعنة، وفى كتابى «شمس الأصيل فى أمريكا» ترجمت فقرة رائعة من دراسة لأنماط السلوك الإنسانى تظهر رأى المدير أو القائد الأعلى فيمن هم دونه من مديرين أو قادة ، وتظهر فى ذات اللحظة رأى هؤلاء فى القائد الأعلى نفسه، وأظن بلا مبالغة أن هذه الفقرة تنطبق تمام الانطباق على الحالة التى بين أيدينا لأحمد إسماعيل وسعد الدين الشاذلى.

ذلك أن الفريق سعد الدين الشاذلى كان لا يزال فى أكتوبر ١٩٧٣ يستمتع بنشوة المكانة التى حققها فى مايو ١٩٧١ حين أصبح فجأة رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية. وإذا هو قد شارك فى خلع الفريق فوزى ثم إذا هو يخلع الفريق

صادق كما تصور أو كما صور السادات له الأمر فلم لا يخلع مَنْ هو أهون منهما قوة وشراً في نظره وهو المشير أحمد إسماعيل(!!) .

ولم تتح هذه النشوة بالطبع للفريق سعد الدين الشاذلي أن ينمى فى شخصيته وتصرفاته تلك الحنكة الاستراتيجية العميقة التى كانت قد تكونت مع تراكم الخبرات والقيادات والمواقع الكبرى فى شخصية وتجربة أحمد إسماعيل الذى وصل إلى رئاسة الأركان بعد تدرج طويل بل ومستمر فى كل المناصب القيادية وقد أتيح له أن يصبح فى الصف الأول من قادة القوات المسلحة المصرية منذ نهاية الخمسينيات، أى أنه وصل إلى ما وصل إليه الشاذلى قبل حوالى ١٢ عاماً، مع أن الفارق بينهما فى التخرج عامان فقط، ولكن هكذا كانت ظروف ذلك الجيل، كما أن أحمد إسماعيل عمل مديراً للمخابرات العامة ولهذا كانت من أهم السمات فى أدائه وضوح الرؤية الشديد فى تقاريره عن المعركة القادمة كما يشهد بذلك (من بين السطور، ودون قصد) الفريق سعد الدين الشاذلى نفسه فى مذكراته التى بين أيدينا.

(٩٤)

وللفريق سعد الدين الشاذلى أن ينتقد المشير أحمد إسماعيل كما يشاء ، ولكن وجه الحقيقة يبقى مرتبطاً بمعنى آخر من معانى القيادة العسكرية الحكيمة والمرتبطة تماماً بالتوجيه السياسى الأشمل والأعم. وعلى سبيل المثال فإن الفريق سعد الشاذلى يحدثنا فى مذكراته عن حوار دار بينه كرئيس للأركان وبين وزير الدفاع قبيل حرب أكتوبر، ويرى الفريق سعد الشاذلى (أو هو يريد أن يرينا) أن هذا الحوار كان هو السبب فى استصدار الأمر الاستراتيجى بحرب أكتوبر ١٩٧٣ . وإذا قرأنا رواية الفريق سعد الشاذلى واضعين فى الاعتبار أن الذى رواها هو الفريق سعد الشاذلى نفسه فسوف نجد أنفسنا ـ دون عناء ـ نعجب بأحمد إسماعيل بأكثر مما نستجيب لانتقادات سعد الشاذلى، وهذا هو نص فقرات سعد الشاذلى فى مذكراته :

« فى خلال شهر سبتمبر ١٩٧٣ قال لى أحمد إسماعيل » إننا سوف نقوم بالحرب

فإذا سارت الأمور على ما يرام فإن أحداً لن يهتم بتوجيه كلمة شكر لنا، أما إذا تطورت الأمور إلى موقف سيئ فإنهم سيبحثون عن شخص يلقون عليه التبعة ».

وهنا مباشرة يعلق الشاذلي بقوله:

«لقد كان أحمد إسماعيل منزعجا، وكان يخشى وقوع الهزيمة، ويريد أن يؤمن نفسه ضد هذا الاحتمال ، لقد طُرد من قبل الرئيس جمال عبد الناصر مرتين : المرة الأولى عقب حرب ١٩٦٧ حيث كان يشغل منصب أركان حرب جبهة سيناء ، والمرة الثانية فى سبتمبر ١٩٦٩ حيث كان يشغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة وقد أثرت هاتان الحادثتان على نفسيته تأثيراً كبيراً. لقد أصبح رجلاً يخشى المسئولية ، ويفضل أن يتلقى الأوامر ، ويخشى أن يصدرها، يفكر فى احتمالات الهزيمة قبل أن يفكر فى احتمالات النصر. قلت له : "أنا شخصياً لا يهمنى أن أتلقى كلمة شكر أو لا أتلقى، إذ أن سعادتى فى إرضاء نفسى، وإنى لا أخشى كلمة لوم ، لأنى متيقن بأننا سننتصر بإذن الله».

« لم تطمئنه كثيراً كلماتى المتفائلة وقال : إنه من الأفضل أن يصدر رئيس الجمهورية توجيهاً يحدد فيه واجب القوات المسلحة ، حتى لا يكون هناك خلاف فى المستقبل حول هذه الأمور، وانتهت مناقشتنا على أساس أنه سيطلب إلى الرئيس أنور السادات إصدار هذا الأمر. وفى نهاية سبتمبر (قبل بدء العمليات بحوالى أسبوع) استدعانى الوزير إلى مكتبه، وسلمنى كتاباً لقراءته فأخذت فى قراءته فإذا هو توجيه بتوقيع السادات، يحدد واجب القوات المسلحة فى العمليات بشكل عام ، ولكن هناك جملة واحدة لفتت نظرى وهى "حسب امكانيات القوات المسلحة" كانت هذه الجملة من الناحية النظرية تعنى أن القيادة العامة للقوات المسلحة هى التى تملك القرار الأخير فى تحديد ما هو ممكن وما هو غير ممكن ».

❑

وعند هذا الحد يبدأ الشاذلى فى توجيه انتقاداته غير المبررة إلى أحمد إسماعيل ويقول:

« لقد كان أحمد إسماعيل سعيداً بهذه الجملة، وإن كان تطور الأحداث فيما بعد قد أثبت أن الرئيس أنور السادات كان أكثر ذكاء عندما كتب هذه الجملة ، لأنها

تعطيه حق التنصــل النهائى من أى عمل تقوم به القوات المسلحة وهى تعلم أنه ليس فى طاقتها. وبعـد أن قرأت التوجيـه قلت لأحمـد إسماعيل ضـاحكاً : «مبـروك لقد حصلت على مـا تريد» وأعـدت الكتاب لأنـه كان باسمـه، ولكن أحـمد إسماعـيل بطبيعته الحـذرة أعاد الكتاب إلىّ مرة أخرى قائلاً : « أرجو أن توقـع على هذا الكتاب بأخذ الـعلم » فأخرجت قـلمى دون تردد وكتبـت عليه «عُلـم، وسننتصر بـإذن الله» ووقعت باسمى وتاريخ التوقيع على الوثيقة، ثم أعدته إلى الوزير».

❑

وبعد هذا الحديث الرومانـسى الجميل عن تصرفات جميلة ولكـنها مسرحية فى ذات الوقت، يعقب الشاذلى بثقة ويقول:

« هذه هـى قصة الـتوجيـه الاستراتـيجى الـتى ذكرهـا الرئيـس أنور السـادات فى الصفحـة ٣٣١ من مذكراته، بأسلـوب روائى يقول فيه «كـنت قبل ذلك فى سبـتمبر ١٩٧٣ قد أصدرت الأمر الاسـتراتيجى للقـائد العام ووضعـت فى تـصورى الهدف الاستراتيـجى وقد كان الأمر هو الأول من نوعـه، فى تاريخ مصر الحديث» نـعم لقد كان الأمر الأول مـن نوعه ولكن لماذا ؟ لأنـه كانت هناك شـكوك خفية ـ مهـما حاول الطرفان إخفاءها ـ بين رئيس الدولة ووزير الحربية ».

« وإن التناقض فى أقـوال الرئيـس السادات واضح فى هذه النقـطة كما هو واضح فـى نقـاط أخرى كـثيـرة، ففـى كتـابه فـى الصـفحـة ٣٣١ يقـول إنه حـرر التـوجيـه الاسـتراتـيجـى فى سبتـمبـر ووقع أمـر القتال فـى ٢ أكتـوبر. فـى حيـن أن الصـور الزنكوغرافية المنشـورة فى الكتاب نفسه ـ بعد استبعاد الأخطاء الـلغوية ـ فى صفحة ٤٤٣ و ٤٤٤ تقول إن تاريـخ الوثيقتين هو أول أكـتوبر و ٥ أكتوبر على الـتوالى. بماذا يفسر لنا السادات هذا التناقض الغريب فى وثيقتـين تاريخيتين يقول عنهما قمة العلم العسكرى !!».

❑

ثم تأخذ الـفريق الشاذلى الحمـاسة ليحدثنا بـدون مبرر وبدون مناسبـة عن تزوير الوثيقتيـن، دون أن يعنى بأن يبين وجه التزويـر الذى حدث للوثيقتين، هـل تعد كتابة

الوثيقتين على ورق متناسب مع طول وعرض مذكرات السادات (أو تصغيرهما ـ أو إعادة كتابتهما) تزويرا؟ أم أنه يريد أن يقول إن المضمون قد تم تزويره، وإذا كان الأمر كذلك فما هي الجملة أو الفقرة التي زورت؟ ثم ـ وهذا هو الأهم ـ ماذا يستفيد السادات أو ماذا استفاد السادات بالفعل من هذا التزوير الذي يشير الشاذلي إلى حدوثه، ولن نقول يزعم الشاذلي حدوثه (؟!)

يبدو لي والله أعلم أن هذه الجملة التي يتهم فيها الشاذلي السادات بتزوير الوثيقتين لم تكن في ذهن الشاذلي وهو يُملي مذكراته على مَنْ كتبها، لكن الذي كتب هذه المذكرات ـ حتى لو كان هو الشاذلي نفسه ـ وجدها فرصة مواتية لاتهام الخصم بالتزوير في غمرة الهجوم عليه كما يحدث في العادة في حواراتنا الشرقية (أو العربية حتى لا نظلم الشرق كله ففي الشرق شعوب تبرأ من هذا الحماس المندفع) ولنقرأ هذا النص الحماسي للشاذلي :

«وإني أعلن للملأ بأن هاتين الوثيقتين مزورتان، ليس لأن الوثائق الرسمية عليها توقيعي الشخصي فحسب، بل لأن هذه الوثائق كُتبت على أوراق يتناسب طولها وعرضها مع طول وعرض صفحات الكتاب الذي نشرت فيه مذكرات السادات».

هل لي أن أعقب هنا تعقيبا طريفاً فأذكر أن كتاب البحث عن الذات قد نشر في حجمين مختلفين فنشرت الطبعة الشعبية في الحجم ١٤ × ٢٠ على حين نشرت الطبعة الفاخرة في حجم ١٧ × ٢٤ وهكذا فإن الوثيقتين اللتين تحدث الشاذلي عن تزويرهما بسبب اختلاف حجم الورق متاحتان في حجمين مختلفين لا في حجم واحد!!!

وسوف نجد مذكرات الشاذلي تلجأ إلى نفس الأسلوب وإلى نفس الوصف تقريباً حين تتحدث عن الصور السينمائية التي نشرت للجنود وهم يعبرون القناة، وكلنا يعرف أنها صورت بعد الحرب لا في أثناء العبور، ولكن الفريق الشاذلي حين يريد التعبير عن هذا الذي نعرفه جميعاً ونعرف أن الجدية الشديدة والسرية الأشد كانت السبب وراءه ونقدر جدية القوات المسلحة في أنها لم تتح فرصة لأي ثغرة في سرية العمليات بسبب موضوع التصوير، حين يريد الشاذلي وصف هذا الذي حدث فإنه يقول إن الصور «مزيفة». وقد انتقدنا هذا اللفظ منه في موضع سابق من هذا الباب.

(٩٥)

ويبدأ الفريق الشاذلى فى بداية الفصل التاسع عشر من كتابه فى رواية ما يسميه خلفيات الخلاف بينه وبين أحمد إسماعيل فيقول :

« لم أكن قط على علاقة طيبة مع أحمد إسماعيل، لقد كنا شخصين مختلفين تماماً لا يمكن لهما أن يتفقا، وقد بدأ أول خلاف بيننا عندما كنت أقود الكتيبة العربية التى كانت ضمن قوات الأمم المتحدة فى الكونجو عام ١٩٦٠ ».

« كان العميد أحمد إسماعيل قد أرسلته مصر على رأس بعثة عسكرية لدراسة ما يمكن لمصر أن تقدمه للنهوض بالجيش الكونجولى. وقبل وصول البعثة بعدة أيام سقطت حكومة لومومبا التى كانت تؤيدها مصر بعد نجاح انقلاب عسكرى دبره الكولونيل موبوتو الذى كان يشغل وظيفة رئيس أركان حرب الجيش الكونجولى ، وقد كانت ميول موبوتو والحكومة الجديدة تتعارض تماماً مع الخط الذى كانت تنتهجه مصر . وهكذا وجدت البعثة نفسها دون أى عمل منذ اليوم الأول لحضورها».

«وبدلاً من أن تعود البعثة إلى مصر أخذ أحمد إسماعيل يخلق لنفسه مبرراً للبقاء فى ليوبولدفيل على أساس أن يقوم بإعداد تقرير عن الموقف .. وتحت ستار هذا العمل [تأمل هذه الألفاظ وهى تصدر عن قائد عسكرى كبير لا يمانع فى أن يقول تحت ستار وهو يعلم أنها ألفاظ تستخدم فى الغالب فى تعامل البوليس مع المجرمين] بقى مع اللجنة ما يزيد على شهرين [هكذا يروى الشاذلى وكأن أحمد إسماعيل كان صاحب نفوذ وصل إلى هذه الدرجة فى استبقاء نفسه فى الكونغو] . وفى خلال تلك الفترة حاول أن يفرض سلطته علىّ باعتبار أنه ضابط برتبة عميد بينما أنا وقتئذ برتبة عقيد، وبالتالى تصور أن من حقه أن يصدر إلىّ التعليمات والتوجيهات».

« رفضت هذا المنطق رفضاً باتاً وقلت له إننى لا أعترف بأية سلطة علىّ أو على قواتى. وقد تبادلنا الكلمات الخشنة حتى كدنا نشتبك بالأيدى . وبعد أن علمت القاهرة بذلك استدعت اللجنة إلى القاهرة ، وانتهى الصراع فى ليوبولدفيل ولكن

آثاره بقيت فى أعـماق كل منا . كنا نتقابـل فى بعض المناسبات مقابـلات عابرة ولكن كل منا كان يحاول أن يتحاشى الآخر بقدر ما يستطيع».

«واستمـر الحال كذلك إلى أن عـين اللواء أحمد إسمـاعيل رئيســاً لأركان حرب القـوات المسلـحة المصـرية فى مـارس ٦٩. وبتعـيين الـلواء أحمـد إسماعـيل رئيـسا للأركان اختـلف الوضع كثيـراً، إذ لم يعد ممكنـاً أن أتحاشى لقاءه وألا يكـون هناك أى اتصال مباشـر بينى وبينه. إن وظيـفته هذه تجعل سلطاتـه تمتد لتغطى القـوات المسلحة كلهـا، لذلك قررت أن أستـقيل. وبمجرد سـماعى بنبـأ تعيين أحمـد إسماعيل رئـيساً للأركان تركـت قـيادتى فى أنشـاص وتوجهــت إلى مكتب وزير الحربيـة حيث قدمت استقالتى وذكرت الأسباب التى دفعتنى إلى الاستقالة ثم توجهت إلى منزلى».

«مكثت فى منزلى ثلاثـة أيام بُذلت فيها جهود كبيرة لتثنينـى عن الاستقالة ولكنى تمسكــت بها، وفى اليوم الثالــث حضر إلى مـنزلى أشرف مـروان زوج ابنة الرئـيس وأخبرنـى بأن الرئيس عـبدالناصـر قد بعثه لـكى يبلغـنى الرسالـةالتالية: «إن الـرئيس عبدالـناصر يعتبـر استقالتك كأنها نقد مـوجه إليه شخـصياً حيث أنه هـو الذى عين أحمد إسماعيل رئيسا للأركان»، أوضحت وجهة نظرى فى أحمد إسماعيل وأننى لا أعنى مطلقاً أن أنتقد الرئيس، ولكنى لا أستطيع أن أعمل تحت رئاسة أحمد إسماعيل، وإن الثقة بينى وبينه معدومة».

«نقل أشرف مروان إجابـتى إلى الرئيس عبدالناصر ثم عـاد مرة أخرى ليقول «إن الرئيس تفهم جيـداً وجهة نظرك. إنه يطلب إليك أن تعود إلى عـملك وإنه يؤكد لك أن أحمد إسماعيل لـن يحتك بك» وبناء على هذا الوعد عدت إلـى عملى فى اليوم الرابع».

«وهنـا يجب أن أؤكد أن جـمال عبـدالناصر قـد وفى بما وعـدنى به. ففـى خلال الأشهر الستة التي قضاها اللواء إسماعيل فى وظيفته، لم تطأ قدماه قط قاعدة إنشاص حيث كانت تتمركز القوات الخاصة التابعة لى، كما أنه لم يحاول قط أن يحتك بى».

هل رأى القارىء نموذجاً أبلغ من هذا للتـورط فى الحديث عن الجزر المنعزلة وعن الرغبات الخطرة فى الاستـقلال بكيانات داخل كيانات، وهل نستكثر عـلى أنفسنا بعد هذا أو بعد بعض هذا حدوث الكوارث والنكسات؟

(٩٦)

ونأتى الآن إلى الفقرات التى يصور بها الشاذلى كيف علم بتعيين أحمد إسماعيل وزيراً للحربية وكيف أنه قرر فى النهاية أن يستمر معه كرئيس للأركان :

« فى منتصف يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٧٢ أبلغنى مكتب الرئيس أن الرئيس يطلب حضورى إلى منزله فى الجيزة فى تمام الساعة ١٥,٣٠ من اليوم نفسه وفى هذه المقابلة أبلغنى الرئيس أنه قرر إقالة وزير الحربية وأنه يعتبرنى منذ هذه اللحظة قائداً عاماً للقوات المسلحة بالنيابة ، ونظر فى ساعته . سألته عما إذا كان قد أخطر الفريق صادق بهذا القرار فقال لا، سألته عما إذا كان ينوى إخطاره بذلك أم أنه سيترك لى ذلك ؟ أجاب بأنه سيرسل له سكرتيره الخاص بعد حوالى ساعتين من لقائه معى لكى يعطى لى الفرصة لاتخاذ بعض الإجراءات الأمنية » .

«أخطرنى الرئيس بعد ذلك بقراره بطرد كل من الفريق عبد القادر حسن، واللواء على عبد الخبير ولم أستطع أن أجادله فيما يتعلق بهذا القرار حيث إنه كان يعتبر هذا القرار تأميناً شخصياً له، باعتبارهما من مؤيدى الفريق صادق .

« ولكنه عندما أخبرنى بإقالة كل من اللواء محمود فهمى قائد البحرية واللواء عبد المنعم واصل، تدخلت آملاً أن أنقذهما. فوجه إلى الرئيس كلامه مندهشاً: «كيف تقول ذلك؟ ألم تسمع ما قالاه فى مؤتمر أول أمس؟ لقد كنت أظن أن اللواء عبد المنعم واصل ضابط ممتاز وأنه «راجل» ! ولكن هل سمعت ما قال ؟ قلت : إن اللواء عبد المنعم واصل «راجل» وضابط ممتاز. إن كل ما قاله هو إبداء قلقه من الخسائر المحتملة . وإن ما قاله عن الساتر الترابى هو حقيقة يجب أن ندخلها فى الاعتبار، إنى أرجو سيادتكم أن تعطوه الفرصة لكى يثبت ذاته ..».

« أما بخصوص اللواء محمود فهمى فهو من أكفأ ضباط البحرية لدينا. وإن طرده سيكون خسارة كبيرة لنا».

«أجاب الرئيس بشىء من الحدة: «قد تكون على معرفة بعبد المنعم واصل لأنه ضابط جيش مثلك، أما محمود فهمى فأنا أعرفه أكثر منك .إنه من الطراز الذى

يحب الاطراء والتفخيم مثله فى ذلك مثل الفريق صادق . لقد اكتشف صادق هذه الصفات فى محمود فهمى كما أن محمود فهمى قد اكتشف ذلك فى الفريق صادق فأخذ كلاهما يكيل المديح للآخر إلى أن صدق كل منهما ما يقوله كل منهما للآخر . إنى أعرفهما أكثر منك».

«وبعد فترة سكون قال الرئيس: «والآن لنفكر معاً فيمن سيكون وزيراً للحربية» لم أعلق، واستمر الرئيس «إنى أفكر فى أحمد إسماعيل»! لقد فوجئت بالاسم وعلقت بطريقة فورية : «سيادة الرئيس إن هناك تاريخاً طويلاً من الخلافات بينى وبين أحمد إسماعيل يمتد حوالى ١٢ سنة مضت منذ أن تقابلنا فى الكونجو عام ١٩٦٠، وإن علاقتنا حتى الآن تتسم بالفتور والبرودة . وأعتقد أن التعاون بيننا سيكون صعباً».

« قال الرئيس : « إنى أعلم تماماً بتاريخ هذا الخلاف وتفاصيله، ولكنى أؤكد لك أن علاقته بك ستكون أفضل بكثير من علاقتك بصادق ».

«كررت وجهة نظرى وأبديت مخاوفى من أن هذه العلاقة قد تؤثر على الموقف العسكرى بينما نقوم بالإعداد للمعركة التى سوف تحدد مصير بلدنا لعدة سنوات قادمة، ولكنه كرر وجهة نظره وأكد لى أنه لن يحدث شىء من هذا الذى أتخوف منه . لقد كان الموقف يتطلب منى قراراً فورياً «إما أن أقبل أو أن أستقيل».

وعند هذا الحد يطلعنا الفريق الشاذلى عما دار فى ذهنه فى تلك اللحظات وقد أخذ يفكر فيما يفعل وهو يقدم لنا قطعة رائعة من الأدب الذى يُعنى بترجمة ما يدور فى الذهن من صراع بين التطلعات والتحفظات، والانتصار للتطلعات أو الانحياز إليها وهو يلخص الموقف الذى كان فيه فى تلك اللحظات فيقول:

«لقد كان علىّ أن أجرى فى ذهنى تقديراً سريعاً للموقف وأن أصل إلى قرارى بهذا الخصوص أثناء تلك المقابلة . لقد كنا قائمين بالإعداد لمعركة المصير، ولقد بذلت مجهوداً خلال عام ونصف العام كرئيس للأركان العامة ، لقد مضت الأيام الصعبة وإن الأيام الباقية لن تكون مثل الأيام الماضية » .

« وإنه ليصعب عليّ أن استقيل وأترك خلفي الجهد والعرق اللذين بذلتهما دون أن أستمتع بنصر تحققه القوات المسلحة بعد هذا العناء كله . قلت لنفسي قد تتحقق تأكيدات السادات بأنه لن يحدث خلاف بيننا كما تحققت تأكيدات الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٦٩ . وعموماً فإذا لم تتحقق تأكيدات السادات فإنه يمكنني أن استقيل عندئذ».

ثم يحدثنا الفريق الشاذلي عن سببين آخرين لإيثاره الاستمرار، الأول ألا يظهر كمؤيد أو كمتضامن مع الفريق صادق، وكأنه كان يكره هذا الرجل وفكره إلى هذا الحد مع أننا نراه في فقرات أخرى يتحدث عن صداقته به وأنه عنصر وطني يمكن أن يخطئ !! والسبب الثاني ألا يبدو وكأنه لا يريد دخول الحرب! وهكذا فقد كانت هناك ثلاثة أسباب للبقاء في مقابل سبب وحيد للخروج:

«وعلاوة على ذلك فلو أنني استقلت الآن فإن هذه الاستقالة سوف تفسر على أنها تضامن مع الفريق صادق في الاستقالة . وقد يفسرها بعضهم بأني لا أريد دخول الحرب في حين أن الحقيقة هي عكس ذلك تماماً. وهكذا اقنعت نفسي بعدم الاستقالة، وانصرفت من منزل الرئيس بعد أن امتدت مقابلتنا إلى حوالي الساعة».

....

«وبينما أنا في مكتبي تلقيت أول مكالمة هاتفية من أحمد إسماعيل في حوالي الساعة ٢٢٣٠ يخطرني فيها أن الرئيس قد استدعاه إلى منزله ، وعينه وزيراً للحربية وقائداً عاما للقوات المسلحة.وفي المكالمة نفسها أبلغني بقرار الرئيس بطرد اللواء محمود فهمي قائد البحرية ، وتعيين اللواء فؤاد أبو ذكرى بدلا منه».

(٩٧)

ويعترف الشاذلي في هذه المذكرات بأن طرد صادق وتعيين أحمد إسماعيل مكانه كان خطوة مهمة اتخذها السادات لتدعيم مركزه. ويحرص الفريق سعد الدين الشاذلي بعد هذا على أن يخصص جزءاً من مذكراته لحديث طويل مسهب يعدد فيه

ما يظن أنه أسباب اختيار الرئيس أنورالسادات للمشير أحمد إسماعيل كوزير للحربية وهو يصمم على أن يكتب هذه الأسباب فى صورة أرقام ١ و٢ ويصل إلى أن عدد هذه الأسباب فى رأيه يبلغ ستة أسباب(!!) يعددها على النحو التالى مع تقديم نبذة مطولة عن كل سبب :

١ - كراهيته الشديدة للرئيس جمال عبد الناصر.

٢- ولاؤه المطلق للرئيس أنور السادات.

٣- شخصيته الضعيفة.

٤- مرضه.

٥- شخصيته غير المحبوبة.

٦ - خلافه مع رئيس الأركان !!!!!.

على هذا النحو يصور الشاذلى بطريقة غريبة أسباباً ستة لهذا الاختيار، وكأن سببا واحدا أو اثنين لا يكفيان، مع أن مثل هذا الاختيار فى العادة يكفيه سبب أو سببان .. ولكن شهوة الهجوم على السادات وعلى أحمد إسماعيل تدفع صاحب هذه المذكرات إلى هذا الموقف الذى قد يجعلنا نعيد النظر فى تقدير طريقة تفكيره، ولست فى حاجة إلى تفنيد الأسباب الستة ، ولكن السبب السادس طريف جداً وهو يوحى ـ بما لا يقبل الشك ـ بما أشرنا إليه فى موضع سابق من أن الشاذلى يظن نفسه مركز الكون حتى إن القائد الأعلى يحرص على اختيار القائد العام على خلاف معه! وتبدو المفارقة واضحة من أن الشاذلى شهد بنفسه فى نفس اليوم واقعة الاستغناء عن نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية السابق دون أن يشكل هذا صعوبة على السادات!!

ومن العجيب أن الشاذلى نفسه يعترف فى هذه المذكرات بطريقة غير مباشرة أن التعاون بينه وبين القائد العام قد مضى على قدم وساق حتى تحقق النصر فى معركة ٦ اكتوبر المجيدة ، وهكذا كان الواجب عليه أن يستدرك توضيح الصورة حتى لا يظلم نفسه قبل ظلم الآخرين .

أما حديثه عن مرض أحمد إسماعيل (السبب الرابع) فقد تناولته فى موضع آخر من كتابى عن «أحمد إسماعيل» ، وقد أوضحت الشهادات أن أحمد إسماعيل لم يكن مريضا بالسرطان حين اختير وزيراً للحربية على نحو ما روج الشاذلى .

أما حديثه عن ضعف شخصية أحمد إسماعيل (السبب الثانى) وانعدام الحب لها (السبب الخامس) فلا أظن أن رئيسا (أيا كان) يلجأ إلى هذه الصفات فى مَنْ يعهد إليه بمهمة على هذا المستوى ، فإذا كان هذا حقيقياً فهى مسئولية الرئيس، وعليه تدور عاقبتها .

بقى السببان الأول والثانى ومع أنهما يبدوان وجيهين فى الوقت الذى نشرت فيه المذكرات فإن التأمل البسيط فيهما لا يكاد يقر رأى الشاذلى فى أن يكونا بمثابة السببين الأوليين ، ومع أن من حق السادات أن يختار مَنْ يدين له بالولاء المطلق فلربما كان ولاء سعد الشاذلى حتى هذه اللحظه أقوى بكثير من ولاء أحمد إسماعيل ، فقد وقف الشاذلى مع السادات حين كان هذا الوقوف يمثل خطورة أو مقامرة على حين لم يتعرض أحمد إسماعيل حتى ذلك الوقت لمثل هذا الاختبار ! ولو تعرض لما ضمن أحد أن يكون ولاؤه كولاء الشاذلى.

وأما كراهية أحمد إسماعيل لعبد الناصر فلا أظن أنها كانت من مؤهلات اختيار السادات لمن يوليه مثل هذا المنصب فضلاً عن أن تكون بمثابة المبرر الأول! فهل كانت قيادة الجيش المصرى فى ذلك الموقف تهدف إلى محاربة عبد الناصر؟ بالعكس فقد كانت فى إطار سياق عام يستكمل ما بدأه ويقضى على إزالة آثار عدوان تعرض له الوطن كله بسبب عبد الناصر نفسه، ولهذا لم يكن المجال يسمح أبداً بإبداء كراهية لعبد الناصر أو تحفظ عليه وإلا فقدت التعبئة أهم عناصرها وانهار البنيان المعنوى للقوات المسلحة كلها .. ولكن الشاذلى يتجاوز هذا كله ويقفز عليه دون أدنى مبرر منطقى غير كراهية وانتقام ملأ عليه نفسه (أو على مَنْ تولى كتابة مذكراته حتى لو كان هو نفسه) .

(٩٨)

وعلى الرغم من هذا كله فإن سعد الشاذلى حريص على أن يوحى فى مذكراته أن موقف أحمد إسماعيل منه كان أفضل بكثير من موقف السادات منه، وإن كان يقدم

هذا التحليل في صورة أن أحمد إسماعيل كان «يريد أن يطهر نفسه من الأوزار» قبل وفاته ، وهكذا يضعنا الشاذلى فى حيرة شديدة، هل يعتقد هو أن السادات كان حاقدا عليه إلى هذا الحد على نحو ما يرويه هو وينسبه إلى لسان أحمد إسماعيل، أم أنه يعتقد فى أن أحمد إسماعيل هو الذى أوغر صدر السادات عليه!! وهكذا يصبح الذنب ذنب أحمد إسماعيل! أما أنا فبعد قراءاتى لما كتبه الشاذلى مما أعرضه هنا فإنى أكاد أوقن أن الذنب لم يكن ذنب السادات ولا أحمد إسماعيل (وهما الآن فى رحاب الله) ولكنه كان ذنب الشاذلى (وهو بيننا حي يرزق): وهذا ـ على أى حال ـ هو النص :

« بينما كنت سفيراً لمصر فى لندن حضر المشير أحمد إسماعيل إلى لندن للعلاج عام ١٩٧٤ ، وقد قمت بزيارته في المستشفى عددا من المرات . وفى زيارتى الأخيرة له كانت حالته قد تدهورت ولا بد أنه (كان) يشعر بقرب منيته. وأراد أن يطهر نفسه من الأوزار التى ارتكبها ضدى فقال : «إننى أعلم أنك كنت هدفاً لهجوم شرس وظالم، ولكنى أريد أن أؤكد لك أننى لست أنا الذى وراء ذلك .إنه الرئيس والرئيس شخصياً. وحتى الفيلم التسجيلى الذى أعددناه عن حرب أكتوبر، فقد أمر بإسقاط اسمك وصورك منه ، ولكنى قلت له إن الفريق سعد الدين الشاذلى جزء من تاريخ هذه الحرب ولا يمكن إسقاطه . وقد تمكنت بصعوبة أن أقنعه بأن تظهر فى عدد من الصور». كنت أنظر إلى رجل يتكلم وهو على فراش الموت وشعرت وقتئذ بتفاهة الحياة، وقلت لنفسى لماذا يتصارع الناس فى هذه الحياة؟ إن الصراع الشريف هو فى مصلحة البشرية أما الصراع غيرالشريف والادعاء الباطل على الخصوم فهما عاملان لا أخلاقيان سوف يحاسب المرء عليهما فى دنياه وآخرته».

ورغم هذه العظة البالغة التى يعظنا بها الفريق الشاذلى فإنه كتب كثيراً وكثيراً جداً من فقرات هذا الكتاب !!

(٩٩)

نأتى بعد وزيرى الحربية اللذين عمل الشاذلى رئيسا للأركان تحت قيادتهما، إلى

الوزير الثالث الذى ترأس الشاذلى (وكان أيضاً نائبا لرئيس الوزراء) وهو إسماعيل فهمي وزير الخارجية، وقد كان الود مفقودا بين إسماعيل فهمي والفريق الشاذلي، وكان إسماعيل فهمي وهو وزير للخارجية قد قدم الشاذلي (باعتباره من مرءوسيه كسفير لمصر فى لندن) للمساءلة عن تصرفات بدرت منه وهو سفير فى لندن، وفى هذه المذكرات يصر الشاذلى على أن يدين إسماعيل فهمى وأحمد إسماعيل معا بسبب إعفاء ابن إسماعيل فهمي من الخدمة العسكرية قبل حرب أكتوبر.

ومع أن القصة التى يرويها الشاذلى تبدو متماسكة إلا أن سياقها لا يتفق مع التعليق الحماسى الذى أورده الشاذلى فى نهايتها، بل إن هذا التعليق ينسف القصة كلها إذا أخذنا وجهة النظر التاريخية البحتة كما سيتبين للقارئ بعد أن ننقل نص رواية الشاذلى، ولكن سنبدأ بمطالعة هذا التعليق الحماسى الذى يلخص به الشاذلى القصة التى يرويها حيث يقول:

«وهكذا بينما كان أبناء مصر يقتحمون قناة السويس فى أكتوبر ١٩٧٣ ويموتون وهم يهتفون: «الله أكبر»، كان ابن إسماعيل فهمي وغيره من أبناء الطبقة المحظية فى مصر يتسكعون فى شوارع نيويورك وغيرها من المدن الأمريكية والأوروبية، لم يكن أحمد إسماعيل ليقدم على هذه الخدمة إلى إسماعيل فهمى دون مقابل. لقد كانت صفقة مشتركة كانت نتيجتها أن عين ابن أحمد إسماعيل أيضا ضمن وفد مصر فى الأمم المتحدة فى نيويورك!!!».

ويبدو لى أن القصة كانت تمضى أقرب إلى التصديق بدون هذا التعليق الذى نفى مضمونها تماماً وجعلها أقرب إلى الفبركة لسبب بسيط جداً وهو أن إسماعيل فهمى نفسه لم يصبح وزيرا للخارجية إلا بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، وبالتحديد فى نهاية أكتوبر ١٩٧٣(!!) وإذا كان هناك محل للجدل بأن الشاذلى يذكر أن الخدمة أسديت إلى إسماعيل فهمى قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ بالفعل حين كان وزيرا للسياحة(!!) فإن العنصر الآخر من الصفقة ـ على حد تعبير الشاذلى ـ ينتفى وهو تعيين ابن أحمد إسماعيل فى وفد مصر فى الأمم المتحدة فى نيويورك» إلا إذا كان وزير السياحة بهذه القدرة والنفوذ على كل من وزيرى الخارجية والحربية وهو معنى آخر غير معنى تبادل

المصالح ، ويبدو أن الفريق الشاذلى نفسه لم يمانع فى أن يوحى به أيضاً على سبيل الاحتياط كما يقال أمام المحاكم !

كذلك فلابد أن نذكر أن الفريق الشاذلى نفسه فى الهامش الملحق فى أخريات الكتاب يتحفظ على الواقعة فى أحد جوانبها ويذكر أن إسماعيل فهمى لم يكلمه فى الموضوع ويقول الشاذلى ما نصه :

« لم يتصل بى قط ، وبالتالى فإن موقفه من الناحية القانونية سليم ١٠٠٪ ولكن هذه القصة تبين بوضوح كيف تتم الوساطة بطريق غير مباشر ».

وهذه ـ على كل حال ـ هى رواية سعد الدين الشاذلى الكاملة عن هذا الموضوع :

«بعد تعييني رئيساً للأركان وجدت نفسي هدفاً لكثير من الوساطات، ولكن حيث إني لم أكن أنتظر أية وساطة من أحد، فقد كنت أرفض كل وساطة غير قانونية. كنت أدرس كل موضوع على حدة وأتخذ فيه القرار الذى يرضي ضميرى، ويتمشى مع العدل وروح القانون. ونتيجة لذلك فقد رفضت الكثير من الوساطات مما أثار ضدى بعضاً من الشخصيات القوية، وكان من الحالات التى رفضتها حالة ابن إسماعيل فهمى الذى كان وقتئذ وزيراً للسياحة».

« لقد كان ابن إسماعيل فهمى جنديا فى القوات المسلحة، وفى أحد الأيام عرضت على مذكرة من هيئة التنظيم والإدارة تقترح إنهاء خدمة الجندى المذكور حيث إنه مطلوب للعمل فى هيئة المخابرات العامة فرفضت، فقيل لى إنه ابن إسماعيل فهمى فقلت لهم وحتى لو كان ابن السادات فإنى لن أخالف القانون . حاول رئيس هيئة التنظيم والإدارة أن يقنعنى بأن هذه الحالة فى حدود القانون اعتماداً على مادة فى قانون التجنيد تعطى وزير الحربية الحق فى إعفاء أى فرد أو مجموعة من الخدمة العسكرية الإجبارية إذا كان يقوم بعمل من الأعمال المهمة التى تساعد فى المجهود الحربى، وحيث إن المخابرات العامة تعتبر من الأجهزة المهمة فى الدولة فإن حالة هذا الجندى تعتبر فى حدود القانون».

«لم أقتنع بهذا التفسير وقلت له: « ان هذا إسراف فى التفسير ولا يتمشى مع روح القانون.. ما هو الدور المهم الذى سوف يلعبه ابن إسماعيل فهمى فى المجهود

الحربى؟ لماذا لم نوافق على التماس وزير الكهرباء بإعفاء مهندسى الكهرباء؛ على الرغم من أنه لم يحدد اسماً معيناً، وعلى الرغم من أنهم مطلوبون لإدارة شبكة الكهرباء التى هى فى الواقع جزء مهم من المجهود الحربى؟ لماذا لم نوافق على التماس وزير التربية والتعليم لإعفاء المدرسين على الرغم من أن عدم إعفائهم سوف يؤثر على عدد الفصول التعليمية الجديدة التى سوف يقوم بافتتاحها فى العام الدراسى الجديد؟ لم أقتنع بأن عدم إعفاء ابن إسماعيل فهمى قد يؤثر على المجهود الحربى للدولة، وبالتالى أشرت على المذكرة : «لا أوافق » ووقعت على ذلك».

« وبعد حوالى يومين اتصل بى اللواء أحمد زكى وكيل وزارة السياحة، وهو زميل قديم كان قد ترك القوات المسلحة منذ سنتين فقط، وكان قبل ذلك رئيساً لهيئة التنظيم والإدارة فى القوات المسلحة ، ويعرف قانون التجنيد معرفة جيدة، كلمنى أحمد زكى فى موضوع ابن إسماعيل فهمى فكررت له وجهة نظرى وكرر هو نص المادة التى تعطى لوزير الحربية الحق فى إعفاء مَنْ يتأثر المجهود الحربى نتيجة عدم إعفائهم، فقلت له : «حسناً يمكن للوزير أن يعفيه» ، فرد قائلاً :« ولكنك وضعت الوزير فى مأزق بوضعك رأيك هذا» ثم اقترح أن يعاود كتابة مذكرة جديدة وتُعرض علىّ من جديد فإذا كنت لا أزال غير مقتنع بالموافقة، فإنى أفوض الأمر للوزير، وبذلك أترك الباب مفتوحاً، ولكنى رفضت هذا الاقتراح » .

«وقد علمت فيما بعد أن مذكرة أخرى بالموضوع عرضت على الوزير مباشرة دون أن تمر علىّ، وأن المشير أحمد إسماعيل ـ الذى كان يعلم بالقصة من أولها إلى آخرها ـ صدق على إنهاء خدمة الجندى ابن الوزير إسماعيل فهمى حيث إن بقاءه فى الخدمة، وعدم نقله إلى المخابرات العامة سوف يؤثران على المجهود الحربى للدولة».

« وبعد فترة وجيزة من نقل ابن إسماعيل فهمى إلى المخابرات قامت المخابرات العامة بإنهاء خدمته بها، وتمكن والده من أن يجد وظيفة له فى نيويورك أكثر راحة وأوفر مالاً! وهكذا بينما كان أبناء مصر يقتحمون قناة السويس فى أكتوبر ١٩٧٣ ويموتون وهم يهتفون: «الله أكبر» كان ابن إسماعيل فهمى وغيره من أبناء الطبقة المحظية فى مصر يتسكعون فى شوارع نيويورك وغيرها من المدن الأمريكية والأوربية، لم يكن أحمد إسماعيل ليقدم على هذه الخدمة إلى إسماعيل فهمى دون

مقابل . لقد كانت صفقة مشتركة كانت نتيجتها أن عين ابن أحمد إسماعيل أيضاً ضمن وفد مصر فى الأمم المتحدة فى نيويورك!!!» .

وبعد هذا كله فإن الشاذلى يذكر أنه لم يخلق من هذه المشكلة موضوع خلاف مع الوزير .. وكأنه أيضا حريص على أن يصور نفسه كما لو كان رقيباً على الوزير الذى هو أعلى منه رتبة ، والذى هو مسئول عن أعماله شرعاً وقانوناً، شرعاً بحكم أنه مكلف ، وقانونا بحكم أنه صاحب الاختصاص:

«لم أخلق من مشكلة ابن إسماعيل فهمى موضوع خلاف ومجابهة بينى وبين المشير أحمد إسماعيل ، لقد كانت هناك مواضيع أخرى أكثر وأشد أهمية وأشد خطورة تستحوذ على تفكيرى وجهودى ، وهى إعداد القوات المسلحة للحرب ، وكل ما هو دون ذلك يمكن التغاضى عنه ولو مؤقتاً».

أرأيت هذا اللفظ الأخير: مؤقتًا،كأنما كان الشاذلى ينتظر مبكرا ساعة يتاح له فيها أن يحاكم الوزير، وها هى الفرصة قد سنحت له ـ فى تصوره ـ فى هذه المذكرات!!

(١٠٠)

وتحفل مذكرات الفريق سعد الدين الشاذلى بالكثير من الآراء الحادة والجارحة فى كثير من أقطاب العمل السياسى والعسكرى الذين عاصرهم، وعلى سبيل المثال فإن الفريق الشاذلى يبدو وكأنه حريص على تدعيم رأى الذين يصفون الدكتور محمود فوزى بالغموض وعدم الحسم، وهو يرى أنه من مدرسة الدبلوماسيين الذين يلجأون إلى الكلمات المرنة، والمعانى الواسعة.

ولا حرج بالطبع على الفريق الشاذلى أن يرى هذا الرأى فى الدكتور محمود فوزى، ولكنى كنت أتطلع إلى أن أقرأ إضافة ذات قيمة من الفريق الشاذلى وقد قدر له أن يعمل بالسلك الدبلوماسى، بل وأن يشغل نفس الموقع الذى شغله الدكتور محمود فوزى كسفير لمصر فى لندن، كنت أتوقع أن يشير الشاذلى إلى أنه أصبح بحكم ما أنجزه فى عمله الجديد يؤمن أن الدبلوماسية شىء آخر غير أن تكون بمثابة

مهنة الكلمة المرنة والمعانى الواسعة، أو أن يشير إلى أن هذا الذى يظنه الناس دبلوماسية ليس أسلوبا دبلوماسيا من الأساس أو أنه ليس بالأسلوب الدبلوماسى القابل للبقاء فى عالم اليوم.

ولكن يبدو أن الشاذلى لم يكن واعيا لكونه هو نفسه قد عمل سفيرا وسفيرا فى لندن بالذات بحيث يحدثنا عن خبراته فى هذا الصدد، و مع هذا فلنقرأ هذين النصين للشاذلى فى شأن الدكتور محمود فوزى:

« ... اجتمعنا مع الوفد العراقى وأخذنا ندور فى حلقات مفرغة . كان الدكتور محمود فوزى يتكلم باسم الوفد المصرى ، وكان الدكتور فوزى صاحب مدرسة الدبلوماسية التى تعتمد على الكلمات المرنة والمعانى الواسعة . كان يتكلم لمدة ساعة أو أكثر دون أن يستطيع مستمعوه أن يفهموا حقيقة ما يعنيه ، وبالتالى فإنه يترك الباب مفتوحاً للمناورة والمراوغة».

وفى موضع آخر من هذه المذكرات يحرص الفريق الشاذلى على أن يورد هذه الفقرة الذى يبدى فيها امتعاضه من الدكتور محمود فوزى:

« ... أثناء حديث للدكتور فوزى خلال هذه الاجتماعات وجدت نفسى غير متفهم لما يقوله فهمست فى أذن جارى وقلت له «أنا مش فاهم الدكتور فوزى عاوز يقول إيه»، فرد صاحبى «ولا أنا، ولكن هذا هو بالضبط ما يريده الدكتور فوزى . إنه لا يريد لأحد أن يفهم ما يريد أن يقوله ».

(١٠١)

ولاتخلو هذه المذكرات من التعبير البهيج عن تجارب إنسانية مرّ بها الشاذلى فى أثناء أدائه لوظيفته، وسوف نأخذ مثلاً على هذا ما يرويه الشاذلى عن رحلته إلى بيونج يانج عاصمة كوريا الشمالية لاستقدام عشرين طياراً كورياً للعمل فى القوات المسلحة المصرية بعد رحيل الخبراء السوفييت، وهى الرحلة التى توقف فى طريقه إليها فى الصين، وسنرى مدى إعجاب الشاذلى وافتتانه بما رآه فى كوريا

(الديمقراطية) الشمالية، وقد كان هذا أمراً طبيعياً في ذلك الوقت، لكننا سنشفق على الشاذلى إذا ما قرأنا تجربة أخرى لواحد من مواطنينا هو الدكتور بطرس غالى حين زار نفس الدولة وهو أمين عام للأمم المتحدة وكتب عما أسماه المصانع الهيكلية الخيالية التى رآها هناك، مبان بدون صناعة، وربما نتساءل: هل كان فارق السن وحده هو الذى جعل بطرس غالى يكتشف ما لم يكتشفه سعد الشاذلى الذى يقول إن ما تحقق فى كوريا يعتبر شيئاً من الصعب تصديقه.. إنهم يعتمدون على أنفسهم فى كل شيء!!

لنقرأ أولاً بعض نصوص الشاذلى عن زيارته لكوريا الشمالية وسنقرأ ـ أيضا ـ انطباعاته عن زيارته إلى الصين التى اضطر إليها بسبب عدم وجود خطوط للسفر إلى كوريا الشمالية إلا عن طريق الصين :

«كانت رحلتى تمر بشنغهاى فى الصين نظرا لعدم وجود أية خطوط جوية مباشرة إلى بيونج يانج، لذلك قررت الحكومة الصينية مشكورة أن تستضيفنى لمدة ثلاثة أيام قبل أن أصل إلى بيونج يانج يوم ٦ أبريل. لم تكن زيارتى للصين زيارة رسمية ومع ذلك فقد احتفى الجانب الصينى بى وبالوفد المرافق لى احتفاء كبيراً. فقد أقام رئيس أركان حرب القوات المسلحة الصينية حفل عشاء على شرفى تبادلنا خلاله الآراء حول بعض المواضيع العسكرية والسياسية ».

« كما نُظمت لى بعض الرحلات الترفيهية، فقمت بزيارة سور الصين العظيم فى أقصى الشمال، وزرت الملاجئ العديدة التى أعدتها الصين لمقاومة أى هجوم نووى، كما زرت أنفاق مترو بكين الجديد والعديد من المتاحف. إن البساطة والاعتماد على النفس وإنكار الذات التى لمستها فى الشعب الصينى، وفى قيادته السياسية خلال إقامتى القصيرة فى الصين، ستبقى دائماً من الذكريات الحية التى لا يستطيع الزمن أن يمحوها من الذاكرة».

ونصل مع الفريق الشاذلى إلى عاصمة كوريا الشمالية :

«استقبلت فى بيونج يانج استقبالاً حماسياً وأحيطت الزيارة بهالة كبيرة من التكريم والتشريف. كنت أينما ذهبت ـ سواء كان مؤسسة عسكرية أو مصنعاً فى مغارة داخل الجبل.. إلخ ـ فإنى كنت أقابل بآلاف من الناس يرحبون ويغنون

ويلوحون بالأعلام، وبعد هذا الاستقبال الحار يبدأ الأفراد باستعراض خبراتهم وفنهم الذى كان يزيدنى إثارة ».

« وفى إحدى الزيارات حضرت بياناً عملياً عن ضرب نار تقوم به وحدة من وحدات الحرس الوطنى المكلفة بأعمال الدفاع الجوى. كانت الوحدة جميعها من الشابات الصغيرات، كن صغيرات الحجم حتى اعتقدت أنهن دون الخامسة عشرة لكن قيل لى إنهن فى الثامنة عشرة أو أكثر. كانت نتائج تدريبهن ممتازة، وعندما قمت بتفقدهن بعد انتهاء المشروع التدريبى قلت لهن: «إنى أشكركن على ما أظهرتنه من كفاءة فى ضرب النار، وليس عندى ما أستطيع أن أعبر عن تقديرى سوى أن أهديكن تلك «البيريه» التى ألبسها، ثم خلعت «البيريه» القرمزية الخاصة برجال المظلات والتى كنت ألبسها فى أثناء الزيارة وسلمتها إلى قائدة الوحدة».

«هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن كوريا الشمالية وعن رئيسها كيم إيل سونج. إن ما أمكن تحقيقه خلال السنوات العشرين الماضية فى هذه البلاد يعتبر شيئاً من الصعب تصديقه. إنهم لم يعيدوا بناء بلادهم فقط بعد أن هدمتها الحرب الأهلية، بل استطاعوا أن يعتمدوا على أنفسهم فى كل شىء. إنهم أصبحوا قادرين على إنتاج الغالبية العظمى مما يحتاجون إليه عسكرياً ومدنياً».

«إنهم ينتجون الدبابة والمدفع والجرار والماكينة ... إلخ. وإذا كانت الصين بمواردها الطبيعية الهائلة وبعدد سكانها الكبير قد استطاعت أن تعتمد على نفسها فى تطوير نفسها دون عون خارجى من الدول المتقدمة، فإن كوريا الشمالية التى كان تعدادها ١٥ مليون نسمة فقط تعتبر مثالاً فريداً لما يمكن أن تقوم به دولة صغيرة من عمل نحو تطوير نفسها دون الاعتماد على أى عون خارجى ».

«إن الشعب الكورى بأكمله قد نُظم وكأنه فى ثكنة عسكرية كبيرة. ففى الساعة السابعة صباحاً ترى التلاميذ الصغار وهم يحملون أدوات الحفر الصغيرة التى تتناسب مع أحجامهم وهم يغنون فى أثناء سيرهم إلى منطقة العمل التى سوف يعملون فيها» .

« إن كل فرد فى الدولة سواء كان كبيراً أم صغيراً يتحتم عليه أن يؤدى ساعات محددة من العمل اليدوى لمصلحة الدولة دون أجر، وتطبيقاً لذلك فإن رصف الطرق وصيانتها وإنشاء الأنفاق والملاجئ إلى غير ذلك من المنافع العامة، يتم إنشاؤها

طبقاً لجدول عمل ينظم هذا المجهود البشرى الضخم. وقد استفاد الكوريون من طبيعة بلادهم الجبلية ومن وفرة الأيدى العاملة فى بناء الأنفاق الواقية من القنابل الذرية. وقد نقلوا إلى هذه الأنفاق مصانعهم وحتى مطاراتهم. فقد شاهدت أكثر من مصنع فى بطن الجبل، كما شاهدت مطاراً كاملاً لا يظهر منه سوى ممر الإقلاع. أما جميع المنشآت الأخرى فقد كانت فى باطن الجبل. لقد كان عملاً رائعاً يدعو إلى الانبهار حقا».

«عندما قابلت الرئيس كيم إيل سونج قلت له: «سيادة الرئيس.. إذا قامت حرب نووية فأخشى أن يدمر العالم بأجمعه وألا يبقى سوى كوريا الديمقراطية»، ضحك الرئيس وقال: «اسمع ياسيادة الفريق.. أنا أعرف تماماً أننى لا أستطيع أن أتحدى الأمريكيين فى الجو، لذلك فإن الحل الوحيد الباقى هو تلافى ضرباتهم الجوية ببناء الأنفاق ثم بعد ذلك نقوم بغمر سمائنا بنيران المدافع والرشاشات».

❑

والآن لنقرأ هذه الفقرات التى يتحدث بها الدكتور بطرس غالى بروح مناقضة عن زيارته لكوريا الشمالية وهو أمين عام للأمم المتحدة وانطباعاته عن المشاهدات التى رآها الفريق الشاذلى من قبل:

«وكان الطريق ممتازاً ولكنه خال، ونادراً ما كنا نرى أية سيارات أخرى طوال الرحلة التى استغرقت ما يقرب من أربع ساعات، وكنا نستطيع أن نرى مبانى مصانع ضخمة على جانبى الطريق، ولكن أغلبها كان يبدو مهجوراً. وسألت عن السبب فى ذلك فقال نائب وزير الخارجية: «إننا فى عصر يوم الجمعة وقد ترك العمال مصانعهم فى عطلة نهاية الأسبوع». وكانت تلك المصانع فى الواقع هياكل وهمية».

....

«وكان الجو فى بيونج يانج غريباً حقاً. فقد كانت هناك مبان ضخمة من الطراز السوفيتى تقف مظلمة وتبدو خالية فى البرد القارس، وكان من الواضح أن ثمة نقصاً فى القوى الكهربائية. إذ بمجرد مغادرتنا لأية غرفة، كان يسارع إليها بعض الأشخاص لإطفاء الأنوار، ولم تكن تجرى فى الشوارع غير السيارات الحكومية. ومع ذلك، ففى قاعة الموسيقى التى حضرنا فيها عرضاً ثقافياً، كانت الأنوار مضاءة فى كل مكان، والنافورات تترافص فيها أعمدة الماء الملونة المضاءة بشكل باهر، وظهرت

الأطعمة بوفرة مبالغ فيها، وكان الجميع يتكلمون بلا توقف عن «القائد العظيم كيم إيل سونج».

(١٠٢)

ويبدو لى أن الشاذلى حتى بعد أن انتهت الحرب كان لا يزال من الرجال الذين نصفهم فى التعبير المصرى الدارج بأنهم «حسنو النية»، فهو يحسن الظن بالقادة الإسرائيليين ويظن أن صدقهم حقيقة مطلقة، ومن الفقرات التى تدلنا على هذا قوله:

« إن من يريد أن يقوم بأى عمل فإنه يستطيع دائماً أن يجد المسوغ لذلك. لقد ادعت إسرائيل عام ١٩٦٧ أننا بدأنا القتال ولم يكن ذلك صحيحاً، وادعت مصر عام ١٩٧٣ أن إسرائيل هى التى بدأت القتال ولم يكن ذلك صحيحا أيضاً. وقد اعترف كل منا بالحقيقة بعد ذلك، لذلك فإنى لا ألوم إسرائيل على ادعائها يوم ٢٣ أكتوبر بأنها استأنفت القتال مدعية كذبا بأن الجيش الثالث كسر وقف إطلاق النار، لكنى ألوم الجنرال ديان على استمراره فى هذا الإدعاء الباطل وذلك فى مذكراته التى نشرت عام ١٩٧٥. إن الأمانة التاريخية كانت تفرض عليه أن يقول الحقيقة لكنه لم يقلها، ومع ذلك فإن فى مذكرات ديان ما يفضح بطلان ادعائهم، يقول ديان: «إنه طالب الجنرال بارليف قائد الجبهة الجنوبية صباح يوم ٢٢ أكتوبر بضرورة احتلال جبل عتاقة قبل وقف إطلاق النار».

وعلى كل الأحوال فإن كل هذه المذكرات التى قدمناها طوال هذا الباب مذكرات ثرية بالانفعالات الإنسانية، وبالقدرة على التعبير، وبالقدرة على الجدل، وبالقدرة على الإثارة، وبالقدرة على الإقناع، وبالقدرة على الإيماء، ومهما يكن من أمر نقدنا وتحفظاتنا وتصويبنا واستنكارنا واندهاشنا وعجبنا ومعارضتنا لبعض ما فيها إلا أننا لا نستطيع أن ننكر عليها أقداراً لا متناهية من الإمتاع الحقيقي والثراء الفعلى، وإني لأدعو الله سبحانه وتعالى بعد هذا كله أن يلهم الفريق الشاذلى الصواب والتوفيق والصحة والعافية لنقرأ له نصّاً آخر أ يليق به وبتاريخه ووطنه وجيشه وشعبه بل وأمته العربية كذلك.

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣

النصر الوحيد

3

فى قلب المعركة

مذكرات

اللواء عبدالمنعم خليل

دار الخيّال

(١)

للواء عبدالمنعم خليل مكانة كبيرة جداً فى نفسى، فقد كرمنى أيما تكريم حين عقد مؤتمراً لقادة الطلبة فى المدارس الثانوية العسكرية فى محافظة القاهرة فى الأعقاب المباشرة لحرب أكتوبر المجيدة، وحين وفقنى الله للإجابة عن سؤاله الأول أهدانى هدية قيمة كان قد اصطحبها معه لهذا الغرض، وحين وفقنى الله مرة ثانية للإجابة عن سؤاله الثانى أهدانى الهدية القيمة الثانية وتفضل سيادته فرقانى إلى رتبة عريف طالب، وبفضل هذه الترقية أصبح من حقى قيادة مدرسة المتفوقين الثانوية النموذجية، بينما كنت لا أزال فى الصف الأول الثانوى، ولازلت أحتفظ منذ ذلك التاريخ الذى مضى عليه أكثر من ستة وعشرين عاماً بخطاب كريم منه، بالإضافة إلى هذا فقد اكتشفت بالصدفة منذ سنوات قليلة أنه والد زميلى العزيز الأستاذ الدكتور أحمد عبدالمنعم أستاذ القلب فى كلية الطب ببنها، ومع هذا فإنى أعترف أنى لم أتشرف بلقاء سيادته منذ ذلك اليوم الذى كرمنى فيه ورقانى.

ولد اللواء عبدالمنعم خليل فى المنيا فى أول أبريل عام واحد وعشرين (١٩٢١) وتخرج كما ذكرنا فى مقدمة هذا الكتاب فى الكلية الحربية فى أول يونيو عام ١٩٤١ (واحد وأربعين) وهى الدفعة التى ضمت أيضاً الفريق محمد سعيد الماحى قائد المدفعية فى حرب أكتوبر المجيدة كما ضمت من ضباط الثورة الذين عملوا فى

المواقع التنفيذية كلا من نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية شعراوى جمعة والمحافظين أحمد كمال أبو الفتوح، ومحمد على رشيد، ومحمد فريد طولان (ومن الطريف أن شعراوى جمعة والماحى عملا أيضا كمحافظين) ونائب رئيس المخابرات محمد عبدالفتاح أبو الفضل الذى تناولنا مذكراته فى كتاب «مذكرات الضباط الأحرار»، ومن اللافت للنظر أن الفريق سعد الدين مأمون الذى خلف عبدالمنعم خليل فى قيادة الجيش الثانى ينتمى إلى دفعة سابقة (هى دفعة سبتمبر ١٩٤٠)، وكذلك الفريق عبدالمنعم واصل قائد الجيش الثالث (من دفعة أكتوبر ١٩٤٠).

وقد تدرج عبد المنعم خليل فى قيادة الوحدات العسكرية وكان من القلائل الذين مروا بقيادة كافة الوحدات من قائد فصيلة حتى قيادة جيش، وكانت له أدوار بارزة فى حرب اليمن سنتناول بعضها فيما نعلق عليه من مذكرات فى هذا الباب، كما كان عبدالمنعم خليل بمثابة القائد الذى اختير لقيادة منطقة شرم الشيخ قبيل وأثناء حرب ٥ يونيو ١٩٦٧، وفى مذكرات الفريق أول محمد فوزى «حرب الثلاث سنوات» التى تناولناها فى كتاب «الطريق إلى النكسة» فقرات متعددة عن معاناة عبدالمنعم خليل [كقائد لهذه المنطقة] من غياب الرؤية عند القيادة، ومع هذا فقد استطاع عبدالمنعم خليل العودة بقواته فى انسحاب منظم، وبعد الهزيمة خلفه الفريق سعد الشاذلى فى منصب قائد المظلات على حين تولى عبدالمنعم خليل قيادة فرقة ثم قيادة الجيش الثانى كله.

وقد تولى عبدالمنعم خليل قيادة الجيش الثانى الميدانى مرتين، الأولى حتى يناير ١٩٧٢، والثانية فى أثناء حرب أكتوبر نفسها، وحصل على نجمة الشرف العسكرية، وعلى وسام بطل الجيش الثانى الميدانى. وفيما بين المرتين اللتين تولى فيهما عبدالمنعم خليل رئاسة الجيش الثانى فإنه تولى رئاسة هيئة التدريب ثم رئاسة المنطقة المركزية العسكرية وهكذا تعددت الرئاسات التى تولاها صاحب هذه المذكرات حتى إنه صار [كما سنلاحظ فى النصوص التى ينقلها ويعلق عليها من محاضر اجتماعات المجلس الأعلى للقوات المسلحة] بمثابة القاسم المشترك فى هذه الاجتماعات منذ أواخر عهد الرئيس جمال عبدالناصر.

وقد بقى عبدالمنعم خليل فى خدمة القوات المسلحة حتى أحيل للتقاعد فى أول

يوليو ١٩٧٥ بعد أن قضى سبع سنوات فى رتبة اللواء، ولم ينل عبدالمنعم خليل رتبة الفريق التى نالها فيما بعد بعض قادة الفرق الذين عملوا تحت قيادته فى الجيش الثانى، كما نالها بعد تقاعدهما بفترة اللواءان سعد مأمون وعبدالمنعم واصل قائدا الجيش الثانى والثالث فى بداية حرب ٦ أكتوبر، وقد عين كلاهما محافظاً، وإن كان عبدالمنعم واصل قد سبق إلى هذا المنصب حيث عين فى مارس ١٩٧٤ محافظاً لسوهاج ثم نقل محافظاً للشرقية فى نوفمبر ١٩٧٦ وبقى بها حتى أكتوبر ١٩٧٨، أما سعد مأمون فعين محافظاً لمرسى مطروح فى أبريل ١٩٧٥ثم للمنوفية فى نوفمبر ١٩٧٦ ثم للقاهرة فى مايو ١٩٧٧ وبقى فى هذا المنصب حتى مارس ١٩٨٣ حيث اختير وزيراً للإدارة المحلية.

(٢)

هذه مذكرات فى غاية الأهمية والمرجعية لأن صاحبها كتبها لتكون كذلك بالفعل، وقد نشر عبدالمنعم خليل مذكراته على حلقات فى جريدة الأنباء الكويتية بدءاً من ٩ أغسطس ١٩٨٩ تحت عنوان «حروب مصر فى أوراق قائد ميدانى» ونشر هذه الحلقات فى كتاب صدر عن دار المستقبل العربى، ثم أعاد عبد المنعم خليل كتابة مذكراته فى الكتاب الذى نتناوله فى هذا الباب من منظور أوسع وأعرض وأعمق وأشمل، وهو كتاب ضخم ومرجع لا غنى عنه. وقد صدرت هذه المذكرات عام خمسة وتسعين (١٩٩٥) عن المكتبة الأكاديمية وتقع فى ٥٩٤ صفحة من القطع ٢٤ × ١٧.

وقد حرص صاحب هذه المذكرات على محاولة النجاة من الذاتية وذلك بالحديث بطريقة أبعد ما تكون عن الذاتية، فإذا به من حيث لا يدرى ولا يحتسب يؤكد على الذاتية التى لم يردها ولم يقصد إليها، فهو صاحب رؤى خاصة، كما أنه صاحب تجارب خاصة، وممارسات خاصة، وهو شأن كل أصحاب العقائد، حريص على أن يطوع أحداث الحياة لفهمه العقائدى مهما كان هذا الفهم، بل وحتى لو لم يكن فهمه العقائدى قادراً على تطويع الأحداث. ولكنه لا يفعل هذا على حساب

الحقائق، كما أنه لا يلوى ذراع الحقيقة، وهو من باب أولى لا يفتعل أحداثاً ليدعم بها وجهة نظره، إنما هو أمين غاية الأمانة فيما يروى، ثم هو حر بعد هذا ـ إلى أبعد حدود الحرية ـ فيما يصبغ به الأحداث التى يرويها من رؤية.

ومع أن رؤيته مصيبة جداً فى معظم الأحيان إلا أنها تقف عاجزة أمام بعض المواقف، وهو لأمانته الشديدة يعترف بهذا العجز حين تعييه الأفكار، وتعوزه التفسيرات، وعندئذ يسلك سلوك المؤمن الحق فيقول فى خشوع «إن الله ورسوله أعلم» دون أن يلجأ إلى نظرية المؤامرة وما شابهها، ودون أن ينساق إلى عبقرية المكان وعبقرية الزمان وعبقرية الرجال وما إلى هذه التعبيرات الجميلة التى تستخدم زوراً وبهتاناً للتغطية على عبث أنصاف المفكرين!

ومع هذا فإن الشعور الإيمانى يطغى فى كثير من الفقرات على المؤلف، وعلى ما يكتبه، وليس فى هذا ما يعيبه، ولا ما يؤخذ عليه، لأنه كما ألمحنا كان واعياً جداً للفارق بين الحقيقة والفكر، وبين الحقيقة ـ من ناحية أخرى ـ والتصور، وبين الواقع والأثر، وبين الأمنية والصورة.

وهكذا فإنه فى تعبيره عن درجات مختلفة من إيمانه نجا من الدروشة على نحو ما نجا من الزندقة أيضاً، وبقى طوال كتابه وهو يضفى على الأحداث ما شاء له فكره أن يضفيه دون أن يشوه الأحداث أو يلونها أو يجملها.. كأنى أريد أن أقول إنه كان حريصاً على طلاء الأحداث ولم يكن حريصاً على صبغها، وكان يؤثر الطلاء على الصباغة على الرغم من كل هذا التعمق فى الإيمان، والسلوك الإيمانى، والتفكير الإيمانى الذى حفل به حديثه فى كل صفحة من صفحات هذا الكتاب المتابعة.

وسنلاحظ أن مؤلف هذا الكتاب حريص على تصوير وتجسيد الحقيقة بقدر كبير جداً ولهذا فإنه يكثر من الجداول والمقارنات والأرقام والاقتباسات، ولايكاد يمضى فى مؤلفه دون أن يطعمه بالأرقام الدالة والموحية فى كل فقرة من فقراته.

ويحفل كتاب «فى قلب المعركة» بالإضافة إلى هذا بما يمكن لنا أن نسميه روح الفريق فهو عندما يتعرض لاجتماع من اجتماعات المجلس الأعلى للقوات المسلحة ينسب كل قول وكل رأى إلى صاحبه حتى ليكاد يطلعنا على روح المناقشات كلها

فنخرج من قراءتنا للنص الذى بين أيدينا ونحن ندرك أهمية الاجتماع والتشاور ونؤمن إيمانا يقينيا بروح الفريق، وللقارىء أن يقارن بين هذا الشعور وبين الشعور الآخر الذى نخبره حين يقرأ نصوص النموذج المعروف والمشهور للذاتيين والنرجسيين ومن حسن الحظ أن كتابنا هذا و كثير من مذكرات العسكريين تخلو من سمات هذا الخلق.

وقد حرص عبدالمنعم خليل على أن يقدم اللواء حسن البدرى لكتابه بمقدمة جميلة، بل إن عدداً من الصفحات الأولى من الكتاب «بدءا من صفحة ١٩ وحتى صفحة ٤٤) تسجل مذكرات المقاتل البطل محمود عبدالحميد الثلث وقد وضع لها المؤلف عنوان «مقاتل تحت مظلة الإيمان فى كنف الله» وتتحدث عن ذكريات صاحبها عن رحلة قاسية استغرقت عشرة أيام للعودة من سيناء [أبو عجيلة حيث المعركة التى شهدت بسالة قواتنا] من ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ إلى ١٠ نوفمبر ١٩٥٦، ويذكرنا عبدالمنعم خليل أن المقدم (البكباشى) محمود الثلث ولد يوم ٥ مارس ١٩٢١ واستشهد فى اليمن يوم ٣٠ مارس ١٩٦٣.

(٣)

ولأن مؤلف هذا الكتاب لم يكن من الذين اصطلوا بنيران الوجود فى الصف الأول من القيادة وإنما ظل لفترة طويلة قريباً من هذا الصف دون أن يكتوى بشراره أو يمارس شروره، فقد أتيح له قدر أكبر من القدرة على التقدير والتحليل والتأمل والتقييم والمراجعة والمقارنة والنقد فى المواقف التى مرت به ومر بها طيلة خدمته فى القوات المسلحة، وقد شاء له القدر أن يكون واحداً من الجيل الذى قدر له أن يخوض كل جولات هذه الحروب وأن يترقى مع مرور الزمن، وقد أجاد هو نفسه فى التعبير عما استطاعه من التقاط فكرة المقارنة بين القوات المسلحة المصرية فى كل عهودها، وبين هذه القوات من ناحية، والقوات الإسرائيلية من ناحية أخرى، وقد استخدم هذه المقارنات أروع استخدام فى فهم ظروف الحروب التى خاضتها بلاده وخاضها هو أيضا، ويكفى فى هذا السياق أن أنبه إلى ما نبه إليه وما استنكره فى أكثر من موضع من حديثنا «الشوفونى» عن الجيش الإسرائيلى على أنه عصابات، فإذا

بصاحب هذه المذكرات من خلال المقارنات والدراسة ينتبه إلى عكس هذا الاعتقاد الخاطئ تماماً، ويورد الجداول فى كثير من المواضع ويصل به الحال فى أحد هذه المواضع إلى أن يجأر بقوله:

«فهذا هو (أى الجيش الإسرائيلى) ثانى أقدم جيش فى المنطقة بعد جيش مصر الذى أنشأه محمد على باشا فى مطلع القرن التاسع عشر، وليس كما قيل لنا ونحن نتوجه إلى مسرح فلسطين فى صيف عام ١٩٤٨ إنها مجرد نزهة إلى تل أبيب لتأديب بعض العصابات الصهيونية».

❑

وفى رأيى المتواضع أن هذا الكتاب من بين مذكرات القادة العسكريين جميعا يتمتع بأفضل تحليل وتقييم للعدو الإسرائيلى وفى وسع القارىء أن يعود على سبيل المثال إلى الفصل الثانى من الباب الثالث والذى عنوانه «إعداد القوى الصهيونية لإقامة دولة إسرائيل» ليرى تحليلاً وفهما جيدين للعدو.

ويكفى عبدالمنعم خليل فى تصويره الجيد والمتميز للحقائق أن يذكر كل شيء بأرقامه الحقيقية مقدماً صورة علمية رقمية، وفى هذا الصدد فإنه على سبيل المثال يفتتح الفصل الذى أشرنا إليه لتونا بتقرير أن حجم المؤسسات العسكرية الصهيونية عام ١٩٣٩ بلغ نحواً من ٢٥ ألف مقاتل فزاد عددها بذلك على عدد أفراد جيش مصر بنحو مرة ونصف، (أى أنها بلغة هذه الأيام كانت ١٥٠٪ من الجيش المصرى من حيث العدد، وإن تفوقت بالإضافة إلى ذلك فى التسليح والتدريب والمهارة الميدانية، كما يردف عبدالمنعم خليل نفسه بعد قليل. وليس هذا فحسب بل إنه يلفت نظرنا إلى أن حجم المؤسسات العسكرية الصهيونية كان متعادلا مع كل جيوش دول الطوق عدداً !

❑

ويلتفت عبدالمنعم خليل بذكاء إلى أن جولات الحروب تمت متتابعة فى جيل واحد ويقارن صاحب هذه المذكرات بين مواقع القادة العسكريين فى الجولات المتتابعة ويصورها فى إحدى فقرات كتابه، ومن أمتع ما يمكن تلك المقارنات التى يعقدها صاحب المذكرات بين القيادات المصرية والعربية والإسرائيلية فى جولات الحروب الأربع حيث يقول على سبيل المثال:

« فقد قام على تخطيط وإدارة هذا الصراع على امتداد ثلث القرن، نفس الأشخاص الذين أثرت صفاتهم الموروثة والمكتسبة على مواقف القتال ومساراته ونتائجه، وتأثرت بهم مادياً وفكرياً ومعنوياً، بدءا بأيام المناوشات الأولى ضد بعضهم البعض وهم لا يزالون قادة فصائل أو سرايا في جولة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩، ومروراً بحرب العدوان الثلاثي على مصر، وقد أصبحوا قادة كتائب، ثم قادة لواءات أو فرق في جولة صيف ١٩٦٧، فقادة جيوش أو قوات مسلحة في حرب رمضان المجيدة، فوزراء دفاع في جولة ١٩٨٢، بل ورؤساء وزراء ورؤساء جمهوريات أيضاً مثل هرتزوج ووايزمان ومحمد حسنى مبارك وحافظ الأسد وغيرهم».

«فهذا المشير أحمد إسماعيل على قاد سرية في الجولة الأولى، ولواءً في الثانية، وعمل رئيساً لأركان الجبهة في الثالثة، ثم القائد العام الاتحادى لجيوش مصر وسوريا في الرابعة».

«ومثله الفريق سعد الحسيني الشاذلي الذى قاد فصيلة في الأولى، وكتيبة في الثانية، وفرقة في الثالثة، ثم رئيساً لأركان القوات المسلحة المصرية في الرابعة».

«أما اللواءات محمد سعد الدين مأمون وعبدالمنعم محمد واصل وعبدالمنعم محمد خليل فقد عمل كل منهم قائد فصيلة في الأولى، وسرية في الثانية، ولواء في الثالثة، وجيش في الرابعة، ثم تولى بعضهم منصب المحافظ والوزير بعد ذلك».

«وعلى الطرف المضاد قاد الفريق موشيه ديان كتيبة في الأولى، ثم أصبح رئيساً للأركان في الثانية، ووزيراً للدفاع في الثالثة والرابعة.

وسار الفريق حاييم بارليف والفريق دافيد اليعازر في درب الحياة الميدانية على نفس الخطوات، ولكن بتؤدة أكثر من ديّان الذى احتضنه بن جوريون، فكان كل من بارليف واليعازر قائد فصيلة في الجولة الأولى، ولواء في الثانية، وجبهة قتال في الثالثة ورئيساً للأركان بعدها أو في الجولة الرابعة، ثم تولى بارليف الوزارة بينما عزل اليعازر من منصبه لدوره الذى سبب الهزيمة لإسرائيل في المرحلة الافتتاحية من الجولة الرابعة».

«أما العميد شمويل جونين فكان قائد فصيلة في الجولة الأولى، وسرية عام ١٩٥٦، واللواء ٧ المدرع ضمن مجموعة عمليات إسرائيل التى اجتاحت دفاعات

رفح علـى ١٩٦٧، ثم قـائد جبـهة سيـناء في ١٩٧٣ والتـى عزل فيـها من مـنصبـه لما ارتكبه من أخطاء أثناء المرحلة الافتتاحية لتلك الجولة».

«وينطبق نفس الأمر على كوادر ضباط الصـف من المقاتلين والعاملين فى الشؤون التقـنية والإلكترونـية والفنية مـن العرب والإسرائيلـيين، إذ نجد أن من كان يبـلغ من العمـر ٤٥ سنة عام ١٩٧٣ قد حارب فـى كل ما سبق مـن جولات، بينما اشـترك من كان يبلغ الخامـسة والثلاثين فى الجولات الثلاث الأخيرة فقـط، أما من كان عمره ٢٥ عاماً فلم يشترك إلا فى الجولتين الثـالثة والرابعة. وما من شك فى أن أداء المخضرمين منهم قد ترك بصماته على مضمون القتال سلباً وإيجاباً».

(٤)

على هـذا النحو نقرأ فـى هذه المذكرات التفـصيلات الحربية والـنتائج العسـكرية برؤية بـانورامية نادرة، تنـتصر للفن الـعسكرى نفـسه كما سنرى، وتـنتصر للحـقائق الاستراتيجية بعيداً عن كل الافتعالات.

وعلـى الرغم مـن أن صاحب هـذه المذكرات بـدا ـ كمـا أشرنا مـن قبل ـ وكـأنه حريص على أن يـنحى ذاته ومشاعره الشـخصية إلى الظل، إلا أنه شـأن كل إنسان لم يستـطع أن يتحـكم فى هذا إلـى النهايـة، وسنراه ـ علـى سبـيل المـثال ـ يضفـى رؤيته الشخصـية على تقيـيمه للقادة، كـما نراه ينتصـر لعقيدته الإيـمانية والوطنـية فى كل المواضع، وهو يفـعل هذا بأقصى ما يمـكن من الصدق أو التظاهـر بالصدق دون أى ادعاء، ونراه متواضعاً وهو واثق كما نراه واثقـاً وهو متواضع، وهو يجيد تصوير الجو النفـسى بما يمـلك من أدوات الـتعبير والـثقافة، ومـع أنه لا يصل إلـى قمة البيـان أو البلاغة فى التعبير عن هذا كله إلا أنه يفعل كل ما فى وسعه للتعبير عن نفسه، وقد لا يكون بلغة التعبير الأدبى مجيداً ولكنه بكل تأكيد مجد وليـس مجتهداً فحسب.

وسوف نطالع ما يدلنا على هذا المعنى فى كثير من الفقرات التى سنتناولها فى هذا الباب، ولكـنى أنتهز الفرصة لأستـشهد للقارئ بفـقرة مبكرة أجاد فيهـا صاحب هذه

المذكرات تصوير الجو النفسي الذى عايشه، وهي الفقرة التي يسجل فيها اجتماع الفرح والحزن عليه حين علم بإلغاء البعثة التي كان يدرس من خلالها في انجلترا:

«وفي يوم ٧ ديسمبر ١٩٥١ قرأت في جريدة «التايمز» اللندنية أن عبدالفتاح باشا حسن قرر إلغاء البعثات في انجلترا وعودتها بسرعة إلى مصر ففرحت وحزنت: فرحت لأني سأعود إلى الوطن، وحزنت لأن الفرقة ستلغى قبل أن تستكمل، ولم تبق إلا عشرة أيام على نهايتها ولكن هذه إرادة الله.. والحمد لله».

❑

كذلك فإننا منذ مرحلة مبكرة في هذا الكتاب نجد صاحبه وهو يتجنب الظهور بمظهر مَنْ يعرف كل ما يدور حوله، وهو لا يجد حرجاً أن يصور نفسه وهو يجهل بعض خلفيات كثير من الأحداث التي مرت به على الرغم من قربه من الصورة، وعلى سبيل المثال فإنه لا يدعي معرفته بالثورة قبل وقوعها، بل إنه يعترف أنه قابل قادة الثورة ليلتها دون أن يدور في باله شيء عنها:

«وليلة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحوالي الساعة ١٩,٣٠ يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ مررت ومعي أسرتي على قهوة في ركن من أركان ميدان سفير بمصر الجديدة، حيث سلمت على القائد عبدالناصر ومعه الصاغ عبدالحكيم عامر وأعتقد البكباشي زكريا محيي الدين وهم جلوس على ناصية الشارع على باب القهوة يتحدثون، وبالطبع لم أكن أعلم بما يجيء به الغد!!».

(٥)

وإذا كان لنا أن نصف هذا الكتاب وما احتواه من ترجمة ذاتية بصفة واحدة، فإننا نفضل له الوصف بأنه كتاب تعليمي، ولم لا، فهذا صاحبه حريص في كل فقراته على أن يخرج بالعظة على حين لا يفعل غيره (في المقابل) غير الخروج بالمفارقة أو الإشارة إليها، وهو حين يخرج بالعظة فإنه يخرج بالعظة الحقيقية التي أثبتتها التجربة ولا ينحاز إلى العظات السابقة الجاهزة التي يكتب أصحاب الأغراض كتبهم من أجل

تكرار البرهنة على صوابها، بينما الخطأ فيها بيّن، ولست أحب أن أفيض فى تفصيل هذا المعنى، فسوف يجده القارئ واضحاً كل الوضوح حين يمضى فى قراءة هذه المذكرات، ويكفينى أن أشير إلى موضعين من المواضع التى تحدث فيها صاحب المذكرات عن الخبرات العسكرية التى أتاحتها هذه الحروب، فهو يتحدث عن الزوال السريع للأسطورة القائلة بأن الطائرة هى السلاح الحاسم فيقول:

«... ولعل أبرز الفوائد التى طرحها تكرار الجولات العربية الإسرائيلية، على العلم العسكرى وفنون الحرب، أنها صححت فى الجولات التالية بعض الجنوح إلى الخطأ فى الجولات السابقة نتيجة بريق النصر الكبير الذى تعجله البعض، فعزوه إلى هذا السلاح أو ذاك على نحو ما حدث للطائرة فى دورها الحاسم الذى بهر الدنيا بضربتها الجوية الشاملة المفاجئة مساء الأربعاء ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ فى الجولة الثانية، ثم بصورة أشد إبهاراً صباح الأثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ فى الجولة الثالثة بما دفع البعض إلى أن يبشر بظهور السلاح الحاسم الذى يملك زمام النصر فى المعارك المقبلة، والذى يغنى عن سائر الأسلحة أو أغلبها!».

«... ولهذا..فلم تكد نيران الجولة الثالثة تخبو فى المسرح، حتى خرجت بعض المراجع تبشر بعملاق فريد لا يستطيع أن يقف فى طريقه أحد، وهو الطائرة التى تسيدت المسرح حتى كادت أن تغنى عما عداها. ولم يطل الزمن بتلك الدعوة المغرقة فى الخطأ حتى وقعت فى الجولة الرابعة فإذا بهذا العملاق يتضاءل فى الحجم، حتى يصبح قزماً لا يستطيع الاقتراب من غابة صواريخ الدفاع الجوى المصرية التى أجبرته على الابتعاد عن أرض المعركة، بما لا يقل عن ١٥ كيلومترا حتى لا يتعرض للهلاك المحقق».

❑

أما الموضع الثانى الذى أحب للقارئ أن يطالع رأى هذه المذكرات فيه فهو ذلك الموضع الذى نجده فيه وهو يكرر نفس الفكرة أو نفس القاعدة فى الزوال السريع لأسطورة السلاح الحاسم فيما يتعلق بـ الدبابة التى نودى بها كسلاح أول للقوات البرية فإذا حرب أكتوبر تجعلها تتراجع عن هذه المكانة نهائياً، وهو يفيض فى هذا المعنى لكننا نكتفى بأن ننقل إحدى عباراته حين يصف موقف الدبابات الإسرائيلية فى مطلع هذه الحرب فيقول:

«... وعندما دفعوا بها (أي بالدبابات) صباح الأثنين الأسود ٨ أكتوبر ١٩٧٣ لترد القوات المصرية من حيث أتت، وتحطم عظامها في قاع القناة، برز لها جنود مصر المسلحون بالمدافع والقواذف المضادة للدبابات فقهروها حتى عاد غلاة المنادين بها لتكون سلاح القوات البرية الأحسم، يعترفون بالدور العظيم للرجل ضد الدبابة».

وسوف ننقل للقارئ في موضع تال تفاصيل هذه الرؤية.

(٦)

وعلى هذا النحو فإن صاحب هذه المذكرات يحلل أحداث ٦ أكتوبر ـ على سبيل المثال ـ غير منحاز إلا للعلم العسكري وإلا لما علمته له ولنا الخبرة العسكرية، مع أنه (بحكم طبائع الأمور) قد يكون أحد المخططين في أحد التكتيكات حين كان في موقع القيادة، ومع هذا فإنه بذكاء شديد يتخطى مثل هذا المأزق لأنه ينظر إلى الأحداث والدروس المستفادة منها من أعلى دون أن يتهيب اتهام القارئ له بالفشل حين كان في موقع المسئولية. وسوف نرى هذا الخلق الجميل المنجي لصاحبه واضحاً أشد الوضوح حين يقارن صاحب المذكرات بين فشل المدرعات الإسرائيلية والمصرية ويقول:

«والدارس لمعارك الجولات السابقة سوف يصادف موقفاً مشابهاً لهذا الموقف، وإن حدث على امتداد خمسة أيام وليس يوماً واحداً، هي الأيام من الأثنين ٢٩ أكتوبر إلى الجمعة ٢ نوفمبر ١٩٥٦، عندما فشل اللواءان ٧ و٣٧ المدرعان واللواءان ٤ و١٠ مشاة في اجتياح دفاعات أبو عجيلة من المواجهة أو الجنب أو المؤخرة، حتى اضطر موشيه ديان رئيس الأركان العامة وقتها إلى أن يعزل العقيد شمويل جودير قائد اللواء ١٠ المشاة، ثم يقول في كتابه يوميات معركة سيناء: «لقد كانت أبو عجيلة المكان الذي حارب فيه المصريون على أفضل وجه، بينما حارب الإسرائيليون على أسوأ صورة».

ويستطرد اللواء عبدالمنعم خليل ليقول:

«والواقع أن فشل المدرعات الإسرائيلية في الموقفين كان لنفس السبب، وإن اختلف مصير قادتها حيث أسر العقيد عساف ياجوري ظهر الثامن من أكتوبر ١٩٧٣، بينما عزل العقيد شمويل جودير عصر ٣١ أكتوبر ١٩٥٦».

وفى فقرة تالية يردف صاحب المذكرات بقوله:

«وحقيقة الأمر أن الخطأ فى الحالتين كان واحداً، وهو أسلوب استخدام الدبابة، وليس عيباً فى الدبابة نفسها التى لا تقدر على اختراق الدفاعات المزودة بالأسلحة القوية المضادة للدبابات.. فتلك مهمة المشاة التى تقدر على تطهير الأوكار وتفتيش الأرض واحتلالها والتشبث بها وكلها مهام لا تصلح لها الدبابات، وهو نفس ما حرصت عليه خطة الهجوم المصرية عصر السادس من أكتوبر فى مرحلتها الأولى، فأحرزت بفضلها ذلك النصر العظيم الذى قال عنه شيخ المؤرخين العسكريين الكولونيل الأمريكى تريفور دى بوى فى كتابه الذى أسماه «النصر المراوغ» من الصفحة ٣٩٣: «إن المهارة التى أبداها المخططون المصريون فى العملية بدر، لا يستطيع أى جيش آخر فى العالم أن يأتى بأفضل منها».

(٧)

ثم يتحدث صاحب هذه المذكرات بموضوعية شديدة عن تجربتى النجاح و الفشل اللتين واجهتهما الدبابات المصرية فى ١٩٧٣ فيقول:

«إلا أن هذا النجاح العظيم [يشير إلى النجاح فى بداية أيام الحرب المجيدة] سرعان ما تبدد صباح ١٤ أكتوبر، عندما تبادل الخصوم الأدوار، فنجحت إسرائيل فى تحطيم الهجوم المصرى الذى خرج عن حماية غابة الصواريخ المضادة للطائرات لتنقض عليه طائرات إسرائيل بقذائفها التى لا تخطئ الهدف، بينما المدافع والقواذف الإسرائيلية المضادة للدبابات تحصد الدبابات والمجنزرات المصرية، وتجبر ما بقى منها سليماً على سرعة العودة من حيث أتت».

«لقد تحركت مفارز التطوير المصرية الخمس نحو المضايق فى الصباح، لتلقى نفس مصير المفارز الإسرائيلية الخمس التى تحركت صباح ٨ أكتوبر، وعادت مساء كما عادت مساء بعد أن تكبدت خسائر جسيمة وسالت دماء غزيرة.. نفس الخطأ.. ونفس النتيجة التى اعترض عليها كل من سعد الشاذلى وسعد مأمون وعبدالمنعم واصل

بغاية الشدة دون جدوى. وإذا كان أغلب فلاسفة الحرب ينفرون من كلمتى «لو» و«ربما» إلا أنه لا مفر من أن نقول إن الموقف السياسى والعسكرى المصرى كان فى يوم ١٢ أكتوبر يدعو إلى أن تقبل مصر عرض وقف إطلاق النار، ولو فعلت لتغيرت نتيجة حرب رمضان المجيد، وحققت للعرب مكاسب سياسية أفضل مما حققته بعد حصار الجيش الثالث، وما أبدته إسرائيل من عودة إلى الصلف والتعنت وانتزاع المكاسب بأكثر مما حققته على أرض الواقع من نجاحات».

❑

ومع أن عبدالمنعم خليل يكاد يفضل الحديث فى العموميات إلا أنه مكننا من حقيقة مهمة فى تقييم الأداء العسكرى المصرى فى حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وإن كان قد آثر أن ينسب تشخيص الأخطاء إلى ما صرح به الرئيس السادات بنفسه وهو يروى نظرة السادات ذات المعنى إلى الفريق سعد الشاذلى فيما يتعلق بالثغرة.. ومن بين تعليقات عبدالمنعم خليل وروايته ننقل للقارىء هذه الفقرة:

«وتلك بعض أخطائنا التكتيكية من وجهة نظر القائد الأعلى:

❑ تجنب قائد إحدى التشكيلات المقاتلة الوصول إلى منابع البترول فى جنوب سيناء، كان خطأ كبيراً، وهذا يفتح أمامنا دروساً تكتيكية يجب أن نمعن النظر فيها، مع أهمية اتقان التكتيكات الصغرى للقادة لحسن التقدير والتصرف. فقد كان جنوب سيناء مفتوحاً بالكامل للقوات المصرية، ولو تحلى ذلك القائد بالجرأة لاحتل مناطق آبار البترول، ولزادت مكاسبنا من تلك الجولة».

❑ ولم يستطع قائد اللواء ٢٥ المدرع الانضمام إلى الجيش الثانى، وقفل الثغرة شرقاً بالاندفاع بسرعة والانضمام إلى الفرقة ٢١ المدرّعة، ويقال إنه تردد وتحمل خسائر كثيرة نتيجة هذا التردد، وأعتقد أنه كان فى حاجة إلى غطاء جوى لمعاونته فى مهمته، حيث تعرّض لضربات العدو الجوية بتركيز.

❑ كما لم يتمكن اللواء ١٥ المدرع من التقدم بنجاح إلى بالوظا فى الشمال، لعدم تمكنه من استطلاع مواقع العدو واكتشافها قبل أو أثناء التحرك.. وهنا علق الرئيس السادات على هذا الإجراء بقوله: «انضرب اللواء ١٥ وخسر كثير، وطلب الانسحاب ولم يوافق أحمد إسماعيل، وكانت دباباته ت ٦٢ المفروض أن نطور بها

الهجوم شمالا، وكنا نغيّر الموقف ونصل إلى الشمال، وكان هذا يساعد على سقوط موقع العدو شرق بورفؤاد بسهولة».

(٨)

ومن الملامح البارزة فى حديث صاحب هذه المذكرات عن نفسه ما يرويه من حرصه الدائم على أن يحظى بشرف قيادة الجيش الثانى فى المعركة، وقد استشعر صاحب المذكرات فى عهد الفريق صادق أنه سيبعد عن هذا المنصب (وهو لا يروى لنا كيف أو لماذا استشعر هذا)، فإذا به يطلب إلى الوزير فى وضوح ألا ينقله من قيادة الجيش الثانى، فيسأله الوزير عمن يراه يحل محله فى قيادة هذا الجيش، فيجيبه صاحب المذكرات بما حدث بالفعل من اختيار الفريق سعد الدين مأمون!! ولسنا نزعم أن صاحب هذه المذكرات يختلق هذه القصة كلها أو بعضها، كما أننا لا نستطيع أن نؤكد صدقها، وليس التكذيب أو التصديق هو موضوع حديثنا هنا، وإنما المهم هو أن نتأمل كيف ينظر قائد من وزن هذا القائد إلى ما قد يتعرض له من نقل أو ترقية بعيداً عن المكان أو الموضع الذى يتمنى أن يبقى فيه من أجل أن يخدم وطنه ومعركة هذا الوطن، وسوف يقودنا التأمل إلى تكوين فكرة عن مدى الحب والوجد الذى يتكون عند القادة تجاه قواتهم ووحداتهم:

«وقبل نهاية عام الحسم وبالتحديد فى أواخر أكتوبر ١٩٧١، أرسل الوزير [أى الفريق أول صادق] رسائل شفهية ومكتوبة عبارة عن أسئلة محددة يطلب الإجابة عنها من قادة الجيوش الميدانية، فأرسل اللواء أ.ح. محمد حسن غنيم نائب رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة برسالته إلى الجيش الثالث الميدانى، وأرسل اللواء أ.ح. محمد عبدالغنى الجمسى رئيس هيئة تدريب القوات المسلحة برسالته إلى قائد الجيش الثانى الميدانى فى ذلك الوقت اللواء أ.ح. عبدالمنعم خليل، وكان مضمون الرسالة الرد على ثلاثة أسئلة شفهياً لا تخرج عن كونها تأكيداً لموقف التدريب والاستعداد القتالى، على أن يكون الرد شفهياً إلى مندوب الوزير، وقد احتوى الرد

على إضافة من قائد الجيش الثانى الميدانى يقول فيها للسيد وزير الحربية: «أرجو ألا تنقلنى من الجيش الثانى حتى يتم العبور».

«وعاد اللواء أ.ح. الجمسى إلى القاهرة حاملاً رسالة قائد الجيش إلى وزير الحربية، وجاء الرد مفاجأة فى أوائل ديسمبر ١٩٧١ فى مشروع استراتيجى/ تعبوى قام به الجيش الثانى، وكان يدير المشروع نيابة عن قائد الجيش الثانى اللواء أ.ح. عبدالرحمن فهمى رئيس أركان الجيش. وحضر الفريق أول صادق إلى قيادة الجيش الثانى ومعه اللواء الجمسى، واللواء أ.ح. سعد مأمون رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة فى ذلك الوقت، واللواء أ.ح. خيرى حسين كبير المحكمين للمشروع، وأعاد قائد الجيش الثانى طلبه بعدم نقله من الجيش الثانى، وفى نفس الوقت أخطر الوزير أنه متأكد أن الوزير سينقله من الجيش إلى هيئة تدريب القوات المسلحة رئيساً) وسينقل أيضاً العميد أ.ح. عادل سوكة قائد الفرقة ٢١ مدرعة، ويعين بدله العميد أ.ح. إبراهيم عبدالغفور العرابى».

«ودار نقاش بين الوزير والقائد، وقال الوزير: ومَنْ تراه يعين قائد الجيش الثانى بدلاً منك»، قال قائد الجيش: «ستعين اللواء أ.ح. سعد مأمون قائداً للجيش الثانى»، وهنا ظهرت على وجه الوزير علامات التعجب وقال للقائد: «تفكيرك شمال خالص».. وفى ٣١ ديسمبر ١٩٧١ اتصل الوزير بالقائد قائلاً له: «ياعُبد قد أجبتك لطلبك، وتعينت رئيساً لهيئة تدريب القوات المسلحة، وتعين اللواء سعد قائداً للجيش الثانى بدلا عنك.. مبروك». «قال له القائد: الحمد لله.. ولكن هذا لم يكن طلبى..».

يروى صاحب المذكرات هذه القصة كلها دون أن يعبر بأى رأى تجاه أسلوب الفريق صادق، سواء فى القرار، أو فى طريقة إبلاغ القرار، أو فى الطريقة التى نفى الوزير بها نيته اتخاذ القرار قبل أن يتخذه.

لا ينبغى لنا أن نترك هذه الفقرة دون الحديث عن تبادل المواقع بين شخصيات نعرفها جميعاً، فالجمسى كان رئيساً لهيئة التدريب فأصبح رئيساً لهيئة العمليات التى كان يتولاها سعد مأمون، بينما أصبح سعد مأمون قائداً للجيش الثانى الذى كان

يتولاه عبدالمنعم خليل، على حين أصبح عبدالمنعم خليل رئيساً لهيئة التدريب التى كان يتولاها الجمسى. وقد ورث المشير أحمد إسماعيل [حين عين وزيراً للحربية] الوضع على هذا النحو ولم يغير فى هذه المواقع الثلاثة شيئاً، كأنما كانت هذه الصورة متفقة مع تقديره. ومع أن المواقع الثلاثة تكاد تكون متناظرة من حيث أهميتها ومن حيث البروتوكول، إلا أن المشير الجمسى [وكان أقدم الثلاثة] صعد من منصب رئيس هيئة العمليات إلى رئيس الأركان فى أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣، وقد أعطى هذا الانطباع من ذلك الوقت بأن منصب رئاسة هيئة العمليات بمثابة المنصب الثالث، وإن كان قد ثبت أن هذا المعنى ليس قاعدة مطلقة بحكم تطور الزمن، واختيار رؤساء الأركان المتعاقبين!!

❑

ومع هذا فقد أتيح لعبدالمنعم خليل بالفعل أن يعمل كقائد للجيش الثانى فى آخر أيام حرب أكتوبر وذلك بعد مرض الفريق سعد مأمون، ولكن الذى يهمنا أن نشير إليه من دور عبدالمنعم خليل أنه تولى بتكليف من المشير أحمد إسماعيل رئاسة لجنة لمراجعة درجات استعداد الجيوش الميدانية وتقديم تقرير عنها، وقد ضمت هذه اللجنة عدداً من الضباط من مختلف التخصصات.... وهو يلخص عمل هذه اللجنة فيما يلى:

«وقضت اللجنة حوالى ٧٢ ساعة بين تشكيلات ووحدات الجيش الثالث، وحوالى ٩٦ ساعة فى الجيش الثانى الميدانى، وأتمت مراجعة موقف القادة والقيادات، واختبار درجات تفهم الموقف والمهمة، وأسئلة عن مدى معرفة العدو بصفة عامة والعدو الموجود أمامهم أو المنتظر مقابلته عند العبور، مع قياس درجات الشجاعة والإقدام والعلم والمعرفة وإجادة عمل الفرد فى الرماية والسباحة واستخدام الأرض والساتر وحماية نفسه. كما حدثت اختبارات ثقة فى أسلوب تدمير مدرعات العدو بواسطة الفرد، وهو أسلوب تخصصت فيه معظم وحدات المشاة فى الجيشين، وهذا يتطلب شجاعة وثقة وتضحية وحسن تصرف. وكان حساب درجات المعنويات مبنيًا أساساً على الشعور بالعدل وحل المشاكل بين الأفراد ونظرات الاطمئنان والرضا فى عيون الرجال وتصرفاتهم».

«وكان اختبار الوحدات الفنية خاصة المهندسين منصباً على معدات العبور وسرعة إقامتها واستخدامها بكفاءة، وكذا تجارب فتح الثغرات بقوة اندفاع المياه فى السواتر الترابية».

«وأمكن فى قطاع البلاح بالجيش الثانى اختبار اللواء ١٥ مدرع فى عمليات عبور قناة السويس بالتوباز، كاختبار ثقة وقد تم بنجاح».

«ولما انتهت اللجنة من اختباراتها ومراجعة درجة الكفاءة القتالية والاستعداد، عادت إلى القاهرة وقدمت تقريرها إلى القائد العام للقوات المسلحة الذى عكف على دراسته بعناية، حتى يمكن معرفة نقاط الضعف الممكن تفاديها أو إصلاحها».

(٩)

وطيلة صفحات هذه المذكرات يحرص صاحبها على إثبات أهمية العنصر الإيمانى فى إعداد الجنود وتحقيق النصر، وهو لا يكف عن التنبيه والحديث عن اعتقاده فى الأهمية القصوى والمطلقة لهذا العنصر، كما أنه يلجأ إلى التعبير عن هذا المعنى بأكثر من أسلوب،من ذلك ما يرويه عن الرؤى الصادقة التى رآها مبشرة بالنصر قبل وقوع الحرب، ولن ننقل حديثه عن هذه الرؤى مكتفين بهذه الإشارة إليها، ومن ذلك ـ على سبيل المثال أيضاً ـ انتقاداته الواضحة والصريحة لأسلوب وسياسات إدارات التوجيه المعنوى فيما قبل حرب ١٩٦٧ وهو يصف سياسة قادة الثورة (وليس قادة القوات المسلحة فحسب) فى استبعاد العناصر الدينية من الجيش بأنها كانت «وقوداً ذرياً لتفجير ذرات الحقد الدفين من الشعب للقوات المسلحة بعد وقوع الهزيمة»، وهو تعبير خطير ووصف قاس، ولكن صاحب المذكرات أورده هكذا وتمسك به على هذا النحو، وليس فى وسعنا أن نلطف من لفظه الشديد فيه، ولا أن نتلمس له تفسيراً آخر:

«وكانت القيادة العامة للقوات المسلحة قد وضعت خطة للإعداد المعنوى للقوات المسلحة، ولكن ليس على أساس من تربية العقيدة الإيمانية الصادقة بحيث يقتنع بها

الضابط والجندى فى القوات المسلحة المصرية بالعقل والقلب، ولكن اتبعوا أساليب الكتب والنشرات والبحوث التى تشيد بأعمال ثورة ٢٣ يوليو وقادتها ورجالها، وابتعدوا عن معانى الإيمان الصادقة وتربية العقيدة الإيمانية السليمة عماد قوة الجيوش فى الحروب، بل فى بعض الأحيان كانت المعنويات الدينية بين الجنود تُحارب فى الخفاء تارة وفى العلن تارات أكثر، وتعرض كل مَنْ ينتمى إلى الإخوان المسلمين أو إلى أى صبغات دينية إلى النقل خارج القوات المسلحة، إما إلى وظائف مدنية أو تحت الظل. وتسببت هذه الإجراءات فى ازدياد الصراع الدينى فى الخفاء، وكانت هذه الصراعات المكبوتة وقوداً ذرياً لتفجير ذرات الحقد الدفين من الشعب للقوات المسلحة بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، وكادت الهوة بين الشعب والجيش تزداد اتساعاً، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد لمصر الخير، وأن تظل تنعم بظلال مظلة الإيمان التى تمسك بها شعب مصر، وتحتمى بحبل الله المتين الذى ساعد المؤمنين على أن يخطو نحو طريق الله باتباع الطهارة، فى القول والعمل والنوايا، مع اليقين بالله سبحانه وتعالى والقرب منه، فكانت معركة رأس العش نقطة تحول كبير تعد أول نصر مباشر بين قوة مصرية مؤمنة وقوة يهودية غاصبة».

❑

ويعود صاحب هذه المذكرات ليسخر بكل قوة من سياسات التوجيه المعنوى التى اتبعت فى عهد الثورة وقبل حرب ٥ يونيو ١٩٦٧، وهو يسجل أن الضباط كانوا يحافظون على كتب التوجيه المعنوى ونشراته دون قراءة من أجل الحصول ـ عند التقييم ـ على أعلى الدرجات التى كانت تعطى لحسن الاهتمام المظهرى.. بل يصل إلى حد السخرية من هذه التصرفات فيما يرويه فى هذه الفقرة:

«نشطت إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة المصرية فى الإعداد المعنوى للقوات، ولكن كانت كثرة النشرات والمجلات والكتب التى تصدرها هذه الإدارة مثاراً لتفكهات الضباط والجنود، وللأسف لم يحاول أحد قراءتها أو الاطلاع عليها لكثرتها ولأن موضوعاتها واحدة!! كما يجب أن تبقى الكتب سليمة وبحالة جيدة لأنها كانت محل تفتيش مستمر، وخصصت أكبر الدرجات فى تقدير الكفاءات القتالية للوحدات على حسن الاهتمام المظهرى بهذه النشرات والكتب والشعارات

واللوحات، وتسابق القادة علـى تحسين مظهرها لتكون عنواناً للثقـة بين القائد والقيادة الأعلى!! ومـن المضحك أن بعض الـوحدات التى تحركـت إلى اليمن أخذت مـعها صناديق ولوحات التوجيه المعنوى كمظهر من مظاهر الولاء».

(١٠)

وقد نجح اللواء عبدالمنعم خليل فى أن يمزج الحديث عن أدواره العسكرية التى أداها بالحديث عن مصير الأحداث الكبرى وتطورات التاريخ فى الصراع العربى - الإسرائيلى، ولأنه كما قدمنا كان واعياً لحقيقة وطبيعة دوره ومكانته، فإنه لم يتطرق أبداً إلى إضفاء مسحات من الأهمية أو البطولة على ما أداه من أدوار، إنما هو يرويها فى حجمها وفى إطارها، وإن كان هذا لا يمنعه كما قدمنا من أن يصورها بالصورة التى يراها سواء طلاها بالإيمان أو بالنزعة الدينية أو ما إلى ذلك من نزعات شريفة ومشرقة.

وعلى سبيل المثال فإنه حين يأتى الحديث عن دور محدد أداه صاحب هذه المذكرات فى حرب اليمن، فإن الحياء يغلبه ويكتب اسمه بصيغة «المقاتل ع. م. خ» ولكنه فى ذات الوقت يصور الأحداث من وجهة نظره هو على نحو طريف كما سنرى، وهو يروى لنا تفاصيل المهمة التى أنجزها على النحو التالى:

«المقاتل ع. م. خ كُلف بقيادة عملية فتح طريق صنعاء - جيحانة شرقاً فى رمضان، واختار رجاله ليشاركوه فى مهمته، وكان حذراً فى تحركاته خشية الألغام التى كان العدو يغرسها فى الطرقات والمدقات، واختار التحرك فى مدقات غير مطروقة من قبل من القوات المصرية ودفع أمامه دبابة «ت ٥٤» روسية الصنع، ذات أذرع طويلة وجنازير لدق الأرض أمامها لتفجير الألغام، ثم دبابتين خلفها، ثم ركب هو ومعه السائق وحرسه الخاص عربة مدرعة وترتيبها الرابعة بعد الدبابات الثلاث الأول، ويشاء الله سبحانه وتعالى أن تمر الدبابة الدقاقة للألغام وخلفها دبابتان وعندما مرت عربة القائد المدرعة خلفها انفجر تحتها لغمان مغروسان فى المدق من الجانب الأيسر،

فدمرت الألغام النصف الأيسر الأمامى للعربة المدرعة ونجا القائد والسائق ومن معه رغم تدمير عربته المدرعة فسجد لله شكراً، وواصل التقدم فى الدبابة الدقاقة الأولى إلى هدفه وحقق الهدف، وتم تأمين الطريق تماماً بعد غروب الشمس بدقائق وتناول إفطاره من بعض حبات الزبيب وشربة ماء هنية».

«ولما عاد هذا القائد إلى قيادته استدعته القيادة فى مهمة مماثلة، حيث تم قطع طريق صنعاء ـ رايدة إلى الشمال واستعجلته القيادة العامة لتنفيذ المهمة، ووضعت تحت قيادته قوات جديدة، وتحرك القائد لصلاة المغرب بجوار عربته المدرعة، وبعد أن فرغ من الصلاة وقبل تناول وجبة الإفطار الميدانية فوجئ الرجل بشخص يعرض عليه خدماته قائلاً له: «أنا الرائد حمود اليمنى»، ولكن منظره لم يكن كضابط فى جيش اليمن، إذ كان يلبس جلباباً وجاكت، ويعلّق على كتفه بندقية سريعة الطلقات، وعلى صدره الخنجراليمنى التقليدى المعروف».

«ارتاب القائد فى هذا الشخص ولكنه وهو مازال يفترش الأرض للصلاة شعر بأن هذا الرجل قد يكون ملاكاً أرسله الله فى مغرب رمضان، ليكون مرشداً له فى هذه العملية الجديدة على أرض لم يسر فيها من قبل. وعرض الرجل على القائد المعاونة فى مهاجمة إحدى القرى المختبئ بها العدو، على أن يعطيه القائد فصيلة من الجنود يرافقها فى الهجوم. ووافق القائد وتم تنفيذ العملية بمهارة وسرعة، أجبرت العدو فى القرية على التسليم، وتم تأمين القرية واستراح القائد لهذه النتيجة، وأخذ معه هذا الرجل فى تحركه التالى لتنفيذ المهمة وركب الرجل على دبابة القائد من الجنب الخارجى،وسارت الدبابة فى مهمتها وخلفها باقى القوة وكتب الله لهذه القوة تأمين المنطقة التالية، وفتح طريق رايدة ـ صنعاء فى ليلة العيد الصغير، وكان نداء النشيد الإلهى بالعيد فاتحة خير».

❑

هكذا نجد صاحب هذه المذكرات حريصاً ـ فى هذا الموضع وفى مواضع أخرى من مذكراته ـ على أن يضفى على نفسه وعلى انتصاره صفات دينية، فهو يخطب الجمعة بينما المصلون يذرفون دموع التوبة طالبين المغفرة، وهكذا يصبح بالإمكان

(بناء على ما وصفه صاحب هذه المذكرات أو على ما كتبه) أن نصف حرب اليمن الحرب المقدسة ولو على أحد مستوياتها، أليس هذا القائد المنتصر يقف خطيباً للجمعة ويتقبل توبة العدو!! ولكن الطريف في الموضوع أن هذا (العدو) كان سيصلى الجمعة سواء انتصر هذا القائد أم لم ينتصر! ولربما تغير القائد أو(الخطيب) نحسب! ولكن على كل حال فهذا نموذج معبر عن طبيعة نظرة بعض قواد المسلمين لمتدينين للحروب بين المسلمين بعضهم وبعض، نسأل الله أن ينجينا من الفتنة ومن شهود الفتن ما حيينا:

«... في أول أيام العيد،وكان يوم جمعة، أدى القائد صلاة الجمعة في مسجد قلعة ريفان وأم المصلين،وخطب فيهم خطبة الجمعة لأول مرة في حياته، وشاهد فيها أهل هذه القرية ومَنْ حولها من المصلين يذرفون دموع التوبة وطلب العفو والمغفرة من القائد بعد الله، وهكذا أعطت مظلة الإيمان هذا القائد ورجاله ظلال نصر الله للمؤمنين، والحمد لله رب العالمين».

(١١)

ومن أهم وأبدع وأطرف وأسرع ما يمكن لنا أن نجده في هذه المذكرات حديث صاحبها (أو بالأحرى: عدم حديثه) عن مدى مسئوليته (أو عدم مسئوليته) عن اتساع الثغرة، وقد كان قائداً للجيش الثاني عقب وقوعها وهو يروى حواراً سريعاً دار بينه وبين رئيس الأركان ثم حواراً آخر بينه وبين القائد العام ويقول:

«وفي أول اجتماع بعد المعركة في أوائل نوفمبر ١٩٧٣ قال الرئيس السادات:

«لقد أزلنا إلى الأبد ما حدث في ١٩٦٧، وتوجد سخافات ورذالات في السويس ولا تنهار أبداً.. فقد ضاعت ليلة بالكامل في الدفرزوار ليلة ما سافر سعد (أي سعد الشاذلي) إلى هناك فلماذا ضاعت؟!».

«وبعد هذا الاجتماع للمجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة الرئيس السادات، عقد اجتماع ثلاثي بينه وبين الفريق أول أحمد إسماعيل على والفريق الشاذلي بمكتب وزير الحربية بكوبري القبة، وخرج الشاذلي من الاجتماع موجهاً حديثه إلى

اللواء أ.ح. عبدالمنعم خليل قائد الجيش الثانى قائلاً له: «الحق يامنعم دول ناويين يلبسوك الثغرة!!» وبعد الاجتماع قابل قائد الجيش وزير الحربية وقال له: «ما صحة هذا الأمر الخاص بالثغرة؟» فرد وزير الحربية على قائد الجيش قائلاً: «لا هو اللى لابسها».

❑

على هذا النحو يروى صاحب المذكرات كيف مكنته الظروف من أن يتفادى المسئولية عن الثغرة، على حين كان يخشى أن يُورط فى المسئولية عنها، وهو يروى بما يبدو وكأنه الصراحة نفسها حواره العابر مع رئيس الأركان ومع القائد العام فإذا بنا نجد أنفسنا أمام حوارات موظفين قدامى فحسب، ويبخل علينا صاحب المذكرات بالتحليل الواجب فى مثل هذا الموقف، ولماذا أفلت هو من المسئولية، وعلى أى أساس أفلت، على حين تحملها رئيس الأركان سعد الشاذلى. وسوف نلاحظ مما يرويه عبدالمنعم خليل نفسه أن الشاذلى (للأسف الشديد) كان قد بدأ يلجأ إلى سلوك التحريض، فهو يقابل قائداً من مرءوسيه فيحرضه على رؤسائه، ولا أظن أن عبدالمنعم خليل كان حريصاً على أن يورط الشاذلى بهذه الرواية، فهو يحبه ويقدر عسكريته ونشاطه فى حرب ٦ أكتوبر على نحو ما سنرى، ولكن يبدو لنا أن العامل الحاسم فى مثل هذه المواقف يكون هو المثل القائل: ياروحى ما بعدك روح!

❑

ومن المهم هنا أن نحيل القارئ على الدراسة الموسعة التى نشرها اللواء جمال حماد فى كتابه «المعارك الحربية على الجبهة المصرية» عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ الصادر عن الزهراء للإعلام العربى. ففى هذا الكتاب دراسة موسعة لتطور الأحداث والعمليات العسكرية، قبل وبعد وقوع الثغرة، كما تتضمن ملاحق الكتاب خطابين من الفريق سعد الدين الشاذلى ورداً من جمال حماد على كل خطاب، وخطابا من اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثانى وتعليقاً من اللواء جمال حماد عليه.

أما الفريق الشاذلى نفسه فقد أورد هذه الواقعة التى يتحدث عنها عبدالمنعم خليل فى سياق الحديث عن الثغرة فى مذكراته وقد قال ما نصه:

«بعد أن انتهى الاجتماع (اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة ٢١/ ١١/ ١٩٧٣) رافقته أنا والوزير إلى عربته كما هى العادة، وبعد أن غادر الرئيس

مبنى القيادة وفى أثناء عودتنا إلى الداخل قال لى الوزير: «كيف تخاطب الرئيس بهذا الشكل! ولماذا تأخذ كلام الرئيس على أنه اتهام لك؟ هل أنت قائد للجيش الثانى؟ إذا كانت هناك مسئولية فهى مسئولية الجيش الثانى»، قلت له: «إن مجرد وجودى فى الجيش الثانى يجعلنى مسئولا عن كل ما يقوم به الجيش من أعمال. لقد وافقت وشاركت فى كل قرار اتخذ فى الجيش خلال الأربع والعشرين ساعة التى عشتها معهم»، وبعد أن انفض الاجتماع استدعيت اللواء عبدالمنعم خليل قائد الجيش الثانى وقلت له: «ياعبدالمنعم، إنى أشم رائحة الخيانة والغدر، يبدو أنهم يبحثون عن شخص يلقون عليه أوزار أخطائهم كلها، كن حذراً وحافظ على وثائق الجيش حتى لا يقوم أحد بسرقتها أو تزويرها».

هكذا يبدو لنا الفريق الشاذلى فى ضوء راوية عبدالمنعم خليل فى صورة أخرى غير التى أراد أن يقدم بها نفسه فى مذكراته!

(١٢)

وإذا عدنا مع الزمن فسوف ترينا هذه المذكرات صوراً كثيرة للعنت والمعاناة والعذاب الذى واجهه قائد مصرى من طراز هذا الرجل ووزنه فى حروبنا العشوائية التى سبقت حرب ١٩٧٣، ولكن صاحب هذه المذكرات يروى كل ما حدث له بقدر كبير من النبل، وسنقرأ فى هذه المذكرات مدى العنت الشديد الذى أصاب عبدالمنعم خليل نفسه فى حرب ١٩٦٧ وقبيلها مباشرة، وقد كان قائداً لقوات المظلات فكلف بالتحرك إلى شرم الشيخ هو وكل وحدات المظلات(!!) وأصبح بقواته وقوات أخرى متناثرة من كل مكان قائدا لشرم الشيخ، سنقرأ هذه التفصيلات التى أشار إليها الفريق فوزى نفسه فى مذكراته بتفصيل، وأشار إليها المشير الجمسى أيضاً فى مذكراته، وسنعجب لكل هذه القدرة على تفتيت الجهد وتشتيت الشمل:

«... وما كادت بعض الوحدات تصل إلى مواقعها، التى تقررت من قبل فى الخطة قاهر حتى صدرت إليها أوامر القيادة العامة ـ وليست أوامر قيادة الجبهة ـ بالتوجه إلى مكان آخر غير مخطط فى الخطة قاهر، وغير مستطلع من قادة هذه

الوحـدات. وأوضح مثال مـا حدث معي كـقائد لـوحدات المظلات الـتي كانت لـها مهمة محددة فـي الخطة قاهر، وكنا مدربين عـليها، وتم استطلاع القادة لمواقـعهم بها ودراسة دورهم ودور وحداتهـم لتنفيذها. ولكن فـي ١٩ مايو ١٩٦٧ صدرت أوامر المشير عامر لي شـخصياً بانتقال كل وحدات المظلات الموجودة بالأرض المصرية إلى شرم الشيخ جواً بمهـمة مبهمة، لم تكن في الحسبان، عـلى أن يتم الوصول إلى أرض المهـمة مع أول ضوء يوم ٢٠ مـايو ١٩٦٧ (أي حوالـي ٧ سـاعـات فقط لـلاستـعداد والتحرك والوصول)».

«وكان اللواء الرابع المشاة هو المكلف في الخطـة قاهر بتنفيذ هذه المهمة، وصدرت له فـعلاً الأوامر بـالتحـرك إلى شرم الـشيخ، وفـي الطريـق صدرت له أوامـر أخرى بالـعودة إلـى السويـس ـ غرب قنـاة الـسويس ـ ثم صـدرت له أوامر أخـرى شتـتت وحداته الفرعية.. حيث ذهب كل في اتجاه!!».

«وتكونـت قيادة قوات شـرم الشيخ تحـت قيادتي مـن وحدات غير مـتجانسـة من عناصـر جوية وبحرية ودفـاع جوي ومدفعيـة ساحلية وحدود وقـوات مظلات، دون تنسـيق أو تعاون أو حتـى تعارف بينـهم.. فكيف يـمكن التنسيق بين هـذه الوحدات بعـضها الـبعض وهي تـصل تبـاعاً إلى المـنطقة، ومـا على الـقائد إلا تـعيين مـهمتـها ومحـلات تمركـزها في تـلك المـنطقـة المتسعة، حيـث الاتـصالات لا تحقـق القـيادة والسيطرة السليمة».

«وللأسف الشديد أننـي وصلت إلى منطقة شرم الشيخ، ولم تمدنـي القيادة العامة بأية معلومات عن الـعدو الإسرائيلي، واحتمالات تحركاته وأعمالـه في البر أو البحر أو الجو، بالإضافة إلى أية معلومات عن الأرض التي يحتمل أن أقاتل عليها، والتي لم يتوفر لديّ معـلومات مسبقة عنها، ولم يـسبق لي استطلاعها من قـبل، وكذا أكثر من ٨٠٪ من قواتي، والقوات التي وضعت تحت قيادتي».

على هذا النـحو يصور عبدالمنعم خليـل معاناته في شرم الشيـخ، ومن الغريب أن الفريـق أول محمد فوزي يصـور في مذكراته «حـرب الثلاث سنوات» هذه المـعاناة بأبلـغ من عبدالمنـعم خليل، وقـد أشرنا إلى هذا المـعنى في البـاب السادس من كتـابنا «الطريق إلى النكسة».

(١٣)

ويكاد اللـواء عبدالمنعم خليـل يفخر بقدرته علـى تنظيم انسحاب قـواته من شرم الشيخ فى الوقت الذى كـان انسحاب باقى القوات المسلحة المصريـة مثار كل انتقاد، وهو يعترف بأنه لم يفكر فى خطة الانسحاب بـطريقة مسبقة، ولكنه ما إن وصل إليها على عجل حتى تذكر ما حدث فى ١٩٥٦ فبدأ يـفكر منذ اليوم الأول فى تأمين بقائه أو انسحابـه، وهو يحكى ما شـاء الله له أن يحكـى عن علاقته المنـعدمة بقيادة الجـبهة وبالقـيادة العامـة فإذا هو يثـير فينا لـواعج الأسى، ولكـنه ينبـهنا فى ذات الـوقت إلى مواطن العبرة:

«ولم أفكر مسبقاً فى خطة لانسحاب قواتى من هذا القطاع الكبير، ولكنى تذكرت أحداث ١٩٥٦، ومـا حدث فيـها لقـوات شرم الشيـخ ومشاكـلها الإداريـة والفنـية وغيرها وطرق اقتراب العدو لمهاجمتها، وأسـلوب الدفاع السليم عنها، ومصادر المياه المنعـدمة، وطرق الاقتـراب القليـلة وخلافه، وهذا أعـطانى تصـوراً أولياً للـموقف، فركزت من أول يوم على تـأمين الاكتفاء الذاتى للقوات، كل فى مـوقعه أو مركبته أو عربة قتاله، ومعـه ما لا يقل عن ثلاثة أيام مياه وطعام وذخـيرة ووقود وزيوت وشحوم وغيرها، وتم تنـفيذ هذه التعليـمات بدقة تامة، كان لهـا أثر كبير فى تسهـيل انسحاب قواتى للغرب».

«ورغم وجودى على رأس قوة منـفصلة فى جبهة سيناء التى تقـودها قيادة، تسمى قيادة الجبهة، إلا أننـى لم أكن على اتصال بهذه القيادة، وكانت كـل اتصالاتى بواسطة أجهزة لاسلكية دبرتها القيادة العامة للـقوات المسلحة للاتصال مباشرة بالقاهرة، ولم تحاول قيادة الجبهة الاتصال بى أو إرسال ضابط اتصـال للتنسيق معها. وكانت الأوامر والتعلـيمات تأتينى مبـاشرة من المشير عامـر، عبر إشارات شفرية، أو بواسـطة ضباط اتصال من مكـتب نائب القائد الأعلى لـلقوات المسلحة.. وخلال سـاعات قلائل من وصولى، زارنى رئيس أركان الـقوات المسلحة، وكثير من القادة الكـبار بأوامر المشير عامر لتذليل كل الصعاب وحل كل المشاكل».

«وعندما وضعت قرارى لتنفيذ المهمة، جاءنى ضابط اتصال القائد الأعلى لأخذ القرار لتصديق المشير عليه بالقاهرة، وعاد فى اليوم التالى المقدم أ.ح. إبراهيم العرابى، ومعه ملاحظات المشير على قرارى فقمت بتعديله. وللأسف كنت أضطر لتعديل القرار يومياً لوصول وحدات جديدة، لم تكن فى الحسبان، بل ولم نكن فى حاجة إليها. وكنت أرسل رسائل كتابية إلى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة، موضحاً بها قرارى وخططى، وكان يرسل لى ملاحظات عليها، وكان هذا الإجراء منى استكمالاً لقيادة السيطرة وتنسيق الخطط مع باقى قطاعات جبهة القتال، عن طريق هيئة العمليات».

«ومر يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ علينا، ونحن فى قطاع شرم الشيخ لا ندرى عن العدوان شيئاً، اللهم إلا أننا سمعنا إذاعة القاهرة تذيع بلاغات عسكرية!! وفى يوم ٦ يونيو ١٩٦٧ وصلتنى تعليمات الانسحاب إلى الغرب على مرحلتين وليلتين إلى الطور كمرحلة أولى ثم الغرب.. وتم التنفيذ، والحمد لله».

ولهذا السبب فإن اللواء عبدالمنعم خليل حريص على ألا ينتقل من الحديث عما حدث فى حرب ١٩٦٧ دون أن يؤكد على ما لمسه وما استنتجه من معنى المظهرية وروحها:

«وبالطبع.. يصعب علىّ التعليق على ما حدث، وسأترك للقارئ استنتاج كل عوامل الهزيمة من هذا المثل وحده، وله أن يحكم ويتفهم الموقف. غير أن هناك موضوعاً واحداً يجب تأكيده، وهو أن العملية كانت مظاهرة عسكرية دعائية، وثبت هذا عندما أرسلوا لنا بعثة الإعلام الكبرى من إذاعة وتليفزيون وسينما لتصوير عملية تحرك قوات بحرية تحمل دبابات ومشاة، لإبرازها فى منطقة شمال شرم الشيخ، وكان هذا حقاً مدعاة للعجب!!».

(١٤)

كذلك يروى اللواء عبدالمنعم خليل فى هذه المذكرات بطريقة مجملة الدور الذى أتيح له أن يؤديه بعد اندلاع الحرب فى ٥ يونيو ١٩٦٧، وسنقرأ ما يرويه

فنعجب من هذا الشلل الغائب فى القيادة، ومن قدرة المشير عبدالحكيم عامر فى الأيام الأخيرة من الحرب على إصدار قرارات غير منطقية من قبيل تكليف قائد (هو صاحب هذه المذكرات نفسه) بعزل قائد آخر وأن يحل محله، ثم بأن يتولى قيادة لواء آخر، أما اللواء الأول فهو لواء مدرع، وأما اللواء الثانى فلواء مشاة ميكانيكى، وفضلا عن هذا فقد أسند عبدالحكيم عامر إلى صاحب هذه المذكرات مهمة تدمير المظلات الإسرائيلية فى ممر متلا، سنعجب وليس لنا أن نعجب من كل هذه الأوامر المتتابعة والمسئوليات الكثيرة التى أسندها القائد العام إلى هذا القائد فى نهاية المعركة التى كانت قد حسمت تماماً لصالح العدو، وسنقرأ لصاحب المذكرات اعترافه بأن الموقف لم يكن يسمح له بالتنفيذ:

«... وكانت خاتمة المطاف مع عامر فى ٥ يونيو ١٩٦٧، حيث كنت قائدا لقطاع شرم الشيخ والمكلف بتأمينها وقفل خليج العقبة وتحت قيادتى بعض من وحدات المظلات، ووحدات متنوعة من الصواريخ وأسلحة أخرى وقوة بحرية ومعاونة جوية، وكانت كل طلباتى مجابة واتصالى لاسلكيا مع المشير عامر مباشرة بالشفرة. وعندما أصدر لى الأمر بالانسحاب عدت مع قواتى ليلة ٦/ ٧، وليلة ٧/ ٨ إلى الغرب، فأرسل لى رسولاً ليقابلنى عند أبو زنيمة مساء يوم ٨ يونيو، ومنه علمت بانهيار جبهة سيناء!!».

«وبمجرد أن وصلت إلى الغرب فجر يوم ٨ يونيو، اتصلت بالمشير تليفونياً من السويس، الذى أعطانى أمراً محيراً أن أعزل قائد لواء مدرع وأتولى قيادة هذا اللواء فوراً وأندفع به إلى ممر متلا لتدمير قوات المظلات الإسرائيلية التى قيل إنها أسقطت غرب الممر لقفله!! واستدعانى بعد ساعة تقريباً بواسطة ضابط نجدة من الشرطة وعاتبنى على عدم السرعة فى تنفيذ أوامره، وكلفنى بمهمة كبيرة أخرى وهى أن أتولى أيضاً قيادة لواء مشاة ميكانيكى، وأقوم بتنفيذ مهمة تدمير المظلات الإسرائيلية فى ممر متلا!!».

«وقد نفذت ما أراد ولكن بتصرف، إذ أن الموقف لم يكن يسمح بتنفيذ تلك المهمة، وانسحبت القوات غرباً. وللأسف الشديد صدرت أوامر القيادة العامة بنسف الكبارى المقامة على قناة السويس، رغم وجود قوات لنا فى الشرق، ولم تصل أى

قوات إسرائيلية إليها بعد! !وحدث فى الغرب هرج نتيجة الازدحام الشديد فى منطقة المعابر، والكل تائه وثائر،وكان همى هو إيجاد حل لهذه الهمجية فاتصلت بالمشيرشخصياً من تليفون عند المعبر وأنا أقص عليه الموقف، فأمرنى الأمرالثالث فى ساعات قليلة أن أتولى القيادة وأسيطر على الموقف، وكانت هذه المكالمة آخر كلمات سمعتها منه، وآخرالأوامر المحيرة التى صدرت إلىّ من قائدى! ! ومازالت نبرات صوته الحزين المكتوم ترن فى أذنى إلى اليوم، لقد كان زلزال ٥ يونيو مدمراً حقاً للجبال الشامخة والحصون المنيعة! !».

❑

على أن اللواء عبد المنعم خليل بذكاء شديد يوجهنا من حيث لا ندرى إلى نتيجة حرب ١٩٦٧، وإلى أن أداءنا فيها لم يكن منفصلاً عما قبلها ، وانظر على سبيل المثال إلى ما يرويه فى هذه الفقرة القصيرة التى وردت فى كتابه قبل هذا والتى يتحدث فيها عن التنقلات العديدة التى تعرض هو لها فى أثناء مشاركته فى حرب اليمن وبعدها مباشرة وما قبل حرب ١٩٦٧ :

«ومرت الأيام فى اليمن إلى أن استدعانى المشير عامر مرة إلى مكتبه، وقال لى: «ما رأيك فى تجميع قوات الصاعقة والمظلات تحت قيادتك؟» ففوجئت بهذه الفكرة. وبالطبع وافقت ولكن بعد حوالى ثلاثة أشهرانتهت خدمتى فى اليمن، وعدت إلى مصر مديراً لمكتب قائد القوات البرية، وبعد حوالى أقل من أسبوعين فوجئت بقرار تعيينى قائداً لوحدات المظلات».

(١٥)

كما يروى صاحب هذه المذكرات بعض التفاصيل المليئة بالحماس عن بعض أدواره فى حرب الاستنزاف، ونحن نرى من خلال الرواية الرئيس عبدالناصر وقد مكنته صدمة الهزيمة من أن يعود إلى ما جبل عليه من الاهتمام بالجزئيات فى مواضعها، ونراه وقد تحول إلى ما كان يحب لنفسه أن يتحول إليه كحاكم من حكام

العصـور الوسطى يتجول بحرية وبدون برنامج بين قواته ويستجيب لاقتراحات قادته، ويزور أماكن لم يزرها من قبل ويحاول أن يطمئن على كل شيء بنفسه، كما يزور جنوده بدون موعد سابق، ويحاول أن يعيش معيشتهم ويشاركهم طعامهم:

«ومع أول ضوء يوم أول يونيو حولت القوات الجوية الإسرائيلية المنطقة من بورسعيد إلى القنطرة إلى جحيم من النيران فى إغارات مستمرة نهاراً وليلاً لم نشهد مثلها من قبل، وامتد القصف إلى كل منطقة الجيش الثانى، بل والجبهة بأكملها، والتى لم يكن لها أى تأثير أو خسائر لقواتى. وخلال هذا القصف الجوى وكنت بالمصادفة فى طريقى لزيارة بعض قواتى فى الإسماعيلية وتوقفت عند كوبرى نفيشة جنوب غرب الإسماعيلية مباشرة، وكانت طائرات العدو تقصف موقعاً لكتائب الصواريخ فى منطقة غرب واحة المنايف. وإذا بى أشاهد عربة جيب حربى تقف أمامى، وبها الرئيس جمال، والوزير محمد فوزى، واللواء البورينى قائد الجيش الثالث، وكانت مفاجأة.. وقال لى الرئيس: «مَنْ قال لك إننا سنحضر هنا؟ قلت له وبسرعة: «قلبى دليلى» فضحك ونزل من السيارة ومعه الفريق أول فوزى وركبنا معاً سيارتى إلى الإسماعيلية، وكانت خلفنا سيارة جيب حربى بها السيد محمد أحمد ياور الرئيس وبعض الحرس».

«وبعد أن اطمأن الرئيس على موقف الجيش الثانى، طلب زيارة مدينة الإسماعيلية، ومررنا أمام المحافظة وكانت الساعة حوالى الثالثة والنصف بعد الظهر وكانت مقفلة، ثم مررنا فى طريق آخر وإذا بنا نجد فكهانى قد علق صورة جمال عبدالناصر على محله، ووقفت أسأله عن مكان غرفة مدير الأمن، وقبل الإجابة فوجئ بالرئيس جمال بجوارى وكانت فرحته لا تقدر بثمن، وظهرت صورته اليوم التالى فى صدر جرائد الصباح».

«وعرضت على الرئيس جمال زيارة غرفة عمليات مديرية أمن الإسماعيلية، وهناك قابلنا اللواء محمد السعيد وسعد جداً بهذه الزيارة التى كانت سبباً فى مد خدمته عاماً للإخلاص والوفاء والتعاون.. ثم فى مركز قيادة الفرقة الثانية المشاة بالإسماعيلية نزلنا من السيارة سيراً على الأقدام تحت الأرض، حيث قابلنا العميد أ.ح أحمد مراد قائد الفرقة وكانت سعادته وسعادة كل أسرة الفرقة لا تقدر، وتناولنا

طعام الغداء وبعد استراحة قصيرة عاد الرئيس إلى نفيشة، ومنها إلى القاهرة، وكان هذا آخر لقاء لنا فى الجبهة».

❑

«وبعد إيقاف القتال نجحنا فى تحريك الصواريخ المضادة للطائرات إلى أقرب ما يمكن من قناة السويس، وفى نفس الوقت دعمت أمريكا إسرائيل بكل ما تريد، ودعمت إسرائيل خط بارليف ودفاعاته، وقرأت فى أحد الكتب الأمريكية حصراً للخسائر ما بين يوليو ١٩٦٧ إلى أغسطس ١٩٧٠، تفيد بأن إسرائيل خسرت أمام الجبهة المصرية ١٢٧ قتيلاً، و٧٠٠ جريح،وأشارت إلى أن مصر خسرت ٤٠٠ قتيل، و١١٠٠ جريح».

ينبغى هنا أن نشيرإلى أن الفريق أول محمد فوزى قد تناول بالتفصيل خسائر حرب الاستنزاف على الجبهتين فى كتابه: «حرب الثلاث سنوات».

(١٦)

هل لنا قبل أن نستعرض رؤية صاحب هذه المذكرات للمعارك المتوالية أن نتأمل فى تقديره للرجال، بادئين بالطبع برأيه فى السادات، ونحن نراه يحرص على تعريف القارئ بالرئيس السادات تعريفاً موجزاً على نحو ما يفعل حين يجىء ذكر من تولى مسئولية كبرى فى إطار المذكرات أو أصبح صاحب قرار، وليس فى وصف عبدالمنعم خليل للسادات جديد، ولكنه يحوى تعبيرات طريفة من قبيل أنه ذاق طعم الوطنية فى السجون(!!) ولنقرأ بعض هذا الوصف:

«شارك فى القضية المصرية وسجن عام ١٩٤٢ بتهمة العمل لحساب ألمانيا، ثم سجن مرة أخرى عام ١٩٤٥ فذاق طعم الوطنية وحب مصر فى السجون. وأعجبت به وأعجب به كل شاب وطنى. ورأيته أول مرة وهو برتبة اليوزباشى فى مدرسة المشاة فى أوائل عام ١٩٥١، حيث حضر فرقة تعليمية كنت مدرساً بها ثم اختفى من أمامنا. ولكن ذكرى وطنيته كانت تطيب بها ذاكرتنا إلى أن سمعت صوته صباح

يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ يذيع بصوت جهوري بيان الثورة، وانضم للحياة القيادية فى مصر».

❏

ويبدى عبدالمنعم خليل انبهاراً شديداً بإدارة السادات للصراع السياسى بين مصر والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فى الفترة السابقة على حرب أكتوبر، وسنقرأ تفاصيل كثيرة لاندهاش عبدالمنعم خليل من معادلة السادات الغربية: «روسيا تعطى وأمريكا تحل»، ولكننا سنشير الآن إلى جملة واحدة من سياق طويل لعبد المنعم خليل الذى يقول فى هذه الجملة: «وأدار الرئيس هذا الصراع بكفاءة وقدرة وخبث وحذر وسرية وفى خطوات ثابتة أسميتها «لعبة الحظ المضمون».

ولا أظن أن أحداً آخر جمع كل هذه الصفات فى جملة واحدة فى وصف أداء الرئيس السادات.

❏

على أن الأهم من هذا فيما يتعلق بالسادات هو ما يرويه صاحب هذه المذكرات من أنه هو نفسه قد اكتشف (فى مرحلة مبكرة بالنسبة إلى غيره) مدى حكمة هذا الرجل وحنكته، وذلك فى أثناء لقاء السادات وحديثه إلى الجنود فى الجبهة وهو نائب لرئيس الجمهورية، ويفاجئنا بقوله إنه تمنى لو أن هذا الرجل أصبح رئيساً للجمهورية وأن يتذكر هذا الكلام، وهكذا يتبين لنا أن هناك من القادة العسكريين من كانوا يتمنون للمنطق الذى عبر عنه أنور السادات فى هذا الموقف أن يسود وأن يحكم، فنحن نرى صاحب المذكرات معجباً بالمنطق، وينسحب إعجابه بالمنطق إلى الإعجاب بالشخص وليس العكس، وهو ما يؤكد على ما أريد أن أقوله من أن قادتنا العسكريين لم يكونوا فى أغلب الأحوال مرحبين بالمعالجة السياسية القاصرة لقضية الحرب والسلام، وأنهم كانوا يعانون أشد المعاناة من سياسات التعبئة غير المدروسة، وأنهم كانوا ـ على الدوام ـ يتمنون معالجة أكثر حكمة وواقعية للقضية الوطنية:

«وزارنى ـ أى السادات ـ وهو فى منصب نائب رئيس الجمهورية، وأنا قائد للفرقة الثالثة المشاة بجبهة قناة السويس. وأذكر أنه فى اللقاء مع الضباط قالوا له ياسيادة النائب نحن هنا بالجبهة فى حالة تأهب مستمر وقتال لا ينتهى ومعرضين

للموت فى كل لحظة، ونسمع إذاعة القاهرة فى أغان ركيكة وخليعة بعيدة كل البعد عن جو المعركة، تصور عدم الاهتمام بنا!! وحتى فى أثناء نزولنا للأجازات نجد الناس فى عالم آخر غير عالمنا، فلماذا لا نبدأ فى تعبئة هذا الشعب للقتال ليشعروا بنا ويحسوا بما نحن فيه من متاعب؟! فرد السيد أنور السادات رداً حكيماً أعجبنى وقال موجهاً حديثه لنا جميعاً:

«شوفوا يا أولاد، إذا حشدنا وعبأنا الناس للقتال اليوم ولم نحارب غداً ماذا نفعل.. حانعمل زى حكاية الذئب والغنم.. نحشد ولا نحارب مرة بعد أخرى سيفقد الناس الثقة فينا..»، والحقيقة أنها حكمة، وقلت لنفسى وقتها لعل هذا الرجل سيكون يوماً ما رئيساً للجمهورية ويتذكر هذا الحديث وما دار فيه».

(١٧)

وفى موضع ثالث يطلعنا صاحب هذه المذكرات على جانب طريف وعجيب من شخصية السادات وقادة الثورة بمن فيهم عبدالناصر بالطبع، وقد قدر لعبدالمنعم خليل أن يكتشف بنفسه طبيعة أداء هؤلاء السياسيين الكبار للقضايا الكبرى، فعلى النحو الذى يرويه كلف عبدالناصر السادات بوضع دستور لليمن فما كان من السادات إلا أن بدل من وضع أوراق دستور مصر وجعله دستورا للدولة الجديدة فى اليمن:

«عندما قامت ثورة اليمن عام ١٩٦٢، وشاركت فيها كرئيس لعمليات القوات العربية فى اليمن عام ١٩٦٢ واللقاء بيننا مستمر، حيث كان السادات يحضر برفقة عامر فى كل زياراته لنا فى اليمن، وكنا دائماً نراه يجلس مع شيوخ قبائل اليمن، ويتكلم معهم بلهجتهم، وفى بعض الأحيان كان يحضر مع المشير عامر اجتماعاته مع القادة والضباط ولكنه كان لا يغادر صنعاء كثيراً. وعندما وصل عبدالناصر لليمن عام ١٩٦٤ رافقه فى الزيارة لصنعاء وتعز. وفى جلسة بمكتب الفريق أول مرتجى قائد القوات العربية باليمن حضرها مع الرئيس جمال المشير عامر، والسيد صلاح نصر، كلف الرئيس جمال السيد السادات بوضع دستور لليمن، إلا أنه جاء بنسخة من

الدستور المصرى ورتب أوراقها وغير فى صفحاتها والله أعلم إذا كان دستور اليمن الحالى هو الذى نسقه ووضع لمساته أو غيره».

بهذه الإشارة السريعة يكون عبدالمنعم خليل قد لخص وجهة نظر مطولة جداً [وغير معلنة] فى ممارسات قادة الثورة، حسبما يراها زملاؤهم التالون لهم فى العسكرية الذين عاصروهم فى القيادة العسكرية والسياسية وتأملوا فى تسييرهم لمجرى الأحداث، ونحن نلاحظ أن صاحب هذه المذكرات يفعل هذا فى هدوء شديد وبقدرة قادرة على الإيحاء السريع دون أن يورط نفسه فى أحكام عمومية أو خصومات شخصية أو تصفية حسابات وما إلى ذلك.. صحيح أنه يضحى بالفلسفة والتفلسف، لكنه فى ذات الوقت يحقق التأثير الذى يريده.

(١٨)

ومن أهم ما حرص صاحب هذه المذكرات على تسجيله فى صفحاتها تلك الحوارات، ونصوص المحاضر المهمة التى دار الحديث فيها بين السادات وقادة القوات المسلحة فى أكثر من لقاء على مدى الفترة التى سبقت حرب أكتوبر المجيدة، وفى الحقيقة فإن هذا الكتاب يتميز بهذه القدرة على الإلمام بكل ما دار فى هذه اللقاءات وتقديم الرؤى المختلفة لها، سواء فى ذلك حوارات السادات وخلافاته مع الفريق أول صادق ومجموعته.. أو حواراته ولقاءاته من قبل مع الفريق أول محمد فوزى قبل ١٥ مايو ١٩٧١، أو حواراته مع القادة الذين قدر لهم أن يتولوا قيادة الحرب فى أكتوبر المجيد، وقد لجأ المؤلف فيما يبدو فى كثير من هذه الحوارات إلى نسخ احتفظ بها من محاضر هذه الاجتماعات، وهكذا جاءت نصوصه محكمة ودقيقة وقابلة للاعتماد عليها حين يتاح لنا أن نكتب تاريخنا المعاصر.

وتتيح لنا قراءة هذه النصوص على نحو ما حدثت وما قيلت أن نتأمل بحياد تام حقيقة المواقف التى كان قادتنا يواجهونها أو يوجهون بها الأمور من ناحية، وعلى سبيل المثال فإننا نجد أن ما يختاره صاحب هذه المذكرات من حديث السادات قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان حافلاً بكل ما من شأنه أن يقوى عزم قادته وجنوده، وأن

يشـد أزرهم وهو يقـدم نصائح ذهـبية تلـيق بالفـعل ببطـل العبور وكـلماته فـى هذا الاجتـماع تستـحق الكتـابة بماء الذهـب.. كلمـات مختصـرة مفيدة فـيها جمـاع كل الحكمة التى علمها التاريخ للإنسانية كلها:

«... المعركة طويلة وفى مصلحتنا طولها، فهو صراع أجيال، وعلينا تسليم المسئولية إلى من بعدنا بأمانة وشرف، وأطلب منكم:

- لا تفقدو أعصابكم أو توازنكم.

- لا تتصرفوا بعصبية أو جنون، لا سياسياً ولا عسكرياً.

- ادخلوا المعركة ببرود وهدوء وإصرار على الهدف.

- على كل واحد فيكم تأدية واجبه ولا يخاف.

- لن يذهب دور كل واحد منكم ويجب أن نكتب أدوارنا بأمانة وشرف وتجرد.

- ولن يتردد الشعب لحظة وراءكم.

- حافظوا على الفرص.

- احتفظوا بهدوئكم كاملاً مهما حدث.

أدعو لكم بالتوفيق وأنا معكم فى المعركة.

«إن شاء الله اجتمـاعنا المقبل بعد المعركـة، وندخل للمراحل التاليـة، نغير الموقف ونزيح الكابوس الرهيب، ونستعيد كل ما فقدناه».

(١٩)

وهذه فقرة أخرى يوردها صاحب هذه المذكـرات من ثنايا حديث السادات الواثق المتفائل لقادة القوات المسلحة قبل حرب أكتوبر:

«بعد العرض الكامل وبعد الشوط الطويل ٦ سنوات ألم ومرارة وجراح، أتمنى أن تسمع مـصر حديث اليوم.. وهو وحده كـاف لإعادة الثقة ولم الجرح الأليـم المهين..

الحمد لله.. جاءت اللحظة التى نستطيع فيها أن ننسى مرارة ما مضى ونفكر ونخطط لرد شرفنا، ونقول للعالم إننا لم نمت وغير مستعدين للموت».

❑

كما تنفرد هذه المذكرات بفقرة جميلة يحرص فيها صاحب المذكرات على أن يصور الموقف فى القيادة المصرية بعد وقف إطلاق النار فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، ونراه حريصاً على أن يثبت أن السادات نظر إلى الفريق الشاذلى نظرة ذات معنى، وأن السادات كان أيضاً حريصاً على أن ينبه القادة إلى أهمية توافر عنصر الديناميكية والثقة بالنفس وهو يقول:

«فى حديث مهم بعد قبول مصر وإسرائيل وقف إطلاق النيران فى ٢٧ أكتوبر ١٩٧٣، قال الرئيس السادات للقادة فى شهر نوفمبر ١٩٧٣ الآتى:

«لقد استعدنا ثقتنا واستعدنا صورتنا بعد وصمة ١٩٦٧، وأزلنا إلى الأبد ما حدث فى ١٩٦٧، وتوجد حاليا سخافات ورذالات فى السويس ولا ننهار أبدا.. ورغم إيقاف النيران يجب أن تكونوا متحركين وجاهزين بخطط جديدة وبديلة كذلك حرب الدبابات وأعمال المفارز والقوات الصغيرة المدعمة بعنصر مضاد للدبابات مثل الصاعقة وخلافه».

«فقد ضاعت ليلة بالكامل فى الدفرزوار ليلة سعد ما سافر إلى هناك لماذا ضاعت؟» ونظر إلى الفريق الشاذلى نظرة ذات معنى، ثم قال: «اطلب سرعة التفكير وسرعة التصرف وسرعة اتخاذ القرار ومواجهة الموقف.. من ٦ أكتوبر إلى ٢٢ منه وضعنا إسرائيل عارية أمام العالم، ولولا أمريكا ما استطاعت إسرائيل استعادة أو تحقيق ما عملته أثناء القتال وأثناء وقف النيران».

❑

على هذا النحو نجد صاحب المذكرات وقد اكتفى فى حديثه عن السادات بمثل هذه اللقطات المنتقاة المعبرة أصدق تعبير عن شخصية القائد الأعلى الذى أتيح له أن يعمل معه، ومن حسن الحظ أن صاحب هذه المذكرات شأنه شأن المشير الجمسى لم يتجاوز الرواية إلى الانحياز إلى رؤى مسبقة فيما يتعلق بالسادات وقراراته فضلاً عن شخصيته.

(٢٠)

ويتحدث صاحب هذه المذكرات عن المشير أحمد إسماعيل بحب حقيقى ،ولكنه يضيف إلى صورة شخصيته المتكونة فى تصورنا، بعض الرتوش المهمة، فهو يراه قد تعلم وعلمته الأيام والأحداث التى سبقت بحيث أصبح محنكاً (جداً)بما فيه الكفاية، كما أنه يشير إلى مدى الانضباط الذى كان عليه وإلى جهده فى المرور على التشكيلات فى مرابضها وساحات التدريب، وكيف كان القائد العام قدوة لقادة التشكيلات فى جميع الأفرع:

«أما القائد العام فقد وضع كل خبراته فى المعاونة مع حوارييه ومرءوسيه فى رسم الخطة، التى تحقق للقائد الأعلى أكبر قدر من الثقة فى قدرته على إدارة دفة الإعداد للقتال وتنفيذ المخطط المحدد حسب القدرات والإمكانيات المتاحة، فقد تعلم وعلمته الأيام والأحداث التى سبقته، قبل جلوسه على رأس القيادة العامة للقوات المسلحة الانضباط فى تنفيذ الأوامر والتوجيهات الأعلى».

«وبدأ القائد العام فى المرور على التشكيلات فى مرابضها وساحات تدريبها، للتأكد من تفهم الجميع للواجبات المكلفين بها، وكيفية تنفيذها بعناية، وسار على نهجه قادة التشكيلات والوحدات فى جميع أفرع القوات المسلحة».

ويخصص اللواء عبدالمنعم خليل ملحقاً للحديث المختصر عن المشير أحمد إسماعيل [وقد فعل هذا أيضاً مع كل من عبدالمنعم رياض، محمد فوزى، محمد أحمد صادق، سعد الشاذلى، عزيز المصرى، عباس عبدالحميد، على عبد الخبير، وعبدالرحمن فهمى، وأحمد حمدى].

ويعطى لهذا الملحق عنواناً فى فهرس الكتاب: «رجل دخل التاريخ» قارن هذا بعنوان الحديث عن صادق والشاذلى «رجال أحبوا مصر» أو على عبدالخبير «رجال وهبوا حياتهم فى حب مصر» أو رياض وفوزى «من قادة مصر المعاصرين» أو عزيز المصرى وعباس عبدالحميد «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه».

(٢١)

ويدلنا اختيار هذا العنوان على مدى تقدير عبدالمنعم خليل للمشير أحمد إسماعيل وإن كان هذا العنوان ورد فى الفهرس ولم يرد فى صلب الكتاب.

ويحرص عبدالمنعم خليل فى حديثه عن أحمد إسماعيل أن يورد القصة التالية:

فى جلسة المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ٤ مارس ١٩٧٥، تكلم الرئيس السادات عن معركة أكتوبر وعن المشير أحمد إسماعيل على بعد وفاته قائلاً:

«هذا أول اجتماع بعد المعركة وبعد فقد المشير أحمد إسماعيل يهمنى أن أقرر أن هذا الرجل فى عمله وما أداه وما تحمله كان مثالا للجندى المصرى ومثالا للمعنى الجديد للعسكرية المصرية، وكان يؤمن بالمقاتل المصرى حيث فقد الكثيرون الثقة فى فترة ما فى قدرة المقاتل المصرى أو المقاتل العربى بصفة عامة. أما أحمد إسماعيل فمن أكتوبر ١٩٧٢ إلى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ إلى ما بعد المعركة إلى أن توفى، كان مثالا حيا للجندى المنضبط المؤمن بالمقاتل المصرى وإننى أحيى ذكراه فى هذه المناسبة ونحن نجتمع بدونه.

نقف دقيقة تحية لذكراه.

وقرأنا الفاتحة على روحه...»

ثم يردف صاحب المذكرات بقوله:

«وكان القائد العام للقوات المسلحة المصرية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ضابطا ملتزما بالانضباط العسكرى، فمنذ حياته العسكرية الأولى، سلك طريق الالتزام وهو يوزباشى [نقيب] رئيس عمليات الكتيبة الثانية مدافع الماكينة المشاة، وهو مدرس فى مدرسة المشاة وكلية القادة والأركان والكلية الحربية، حيث شغل منصب كبير المعلمين، ثم فى قيادته لوحدات المشاة وتشكيلاتها، إلى أن وصل إلى منصب قائد الجيش الثانى بعد نكسة ١٩٦٧، ثم رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية إلى أن نحاه الرئيس عبدالناصر من منصبه بعد حادث الزعفرانة.»

ومع أن صاحب هذه المذكرات لا يبدو متعلق الوشائج بأحمد اسماعيل وليس معتقداً (كالجمسى فى مذكراته) فى أنه (أى أحمد إسماعيل) كان بمثابة القائد الوحيد فى ذلك الوقت الكفيل بقيادة الجيش المصرى إلى الحرب إلا أنه فى الحقيقة يثبت للفريق أحمد إسماعيل ماهو أهم من هذا كله وهو وضوح الرؤية منذ مرحلة مبكرة جداً من توليه المنصب:

«قال الفريق أول أحمد إسماعيل على وزير الحربية والقائد العام الجديد فى أول لقاء له مع قادة القوات المسلحة يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٢:

«نحن نأخذ توجيهات من القيادة السياسية لا تقبل المناقشة، ونحن لا نملك المعارضة فى مثل هذه الأمور، فنحن عسكريون فقط، ويجب أن نفهم أن واجبنا حماية مصر ودراسة العدو أمامنا، وقيادة جنودنا ومعرفة مشاكلهم والسيطرة عليهم».

ومع هذا يحرص عبدالمنعم خليل ـ لأسباب بروتوكولية في الغالب ـ على أن يذكر للقارئ مخالفته لأحمد إسماعيل فيما ذهب إليه من أن سلفه الفريق صادق كان ينزع إلى عدم القتال حيث يقول:

«وفى نهاية الحديث قال ـ أى أحمد إسماعيل ـ إن الفريق صادق كان مكلفاً ببعض المهام ولم ينفذها، وهناك نزعة فيه إلى عدم القتال ونحن عسكريون نؤمر فننفذ. ومن وجهة نظرى (أنا عبدالمنعم خليل) أمام الله والتاريخ أن الفريق أول صادق كان راغباً فى القتال، ولم يظهر لنا منه خلاف ذلك».

(٢٢)

وتنفرد هذه المذكرات ـ دوناً عن كل المذكرات المناظرة ـ بحديث صريح عن أن قادة القوات المسلحة المصرية ـ ومنهم صاحب هذه المذكرات ـ كانوا قد بدأوا يستشعرون رغبة الرئيس السادات فى إسناد منصب القائد العام للقوات المسلحة المصرية إلى أحد رجلين: أحمد إسماعيل أو محمد حافظ إسماعيل، ويروى

صاحب المذكرات فى هذا الصدد ملاحظات مبكرة استشف منها هو وزملاؤه هذا التفكير، وهذه هى التفصيلات المهمة التى يرويها صاحب المذكرات عن تفكير السادات فى إسناد منصب وزير الحربية إلى أحد رجلين فكر فيهما وهما: محمد حافظ إسماعيل أو أحمد إسماعيل، وكيف بدأ السادات يمهد الطريق لهذا الاختيار. وكيف استطاع صاحب هذه المذكرات هو وغيره من القادة أن يفهموا إشارات السادات وتصرفاته فى هذا الصدد:

«... ثم لما عين مَنْ رآهم يصلحون للسير معه على طريقه وبجواره احتضنهم بعض الوقت، ولكنه رأى أن فى آراء رئيسهم أو فى تفكيره عدم تنفيذ لسياسته بالكامل بالأسلوب الذى خططه وحسبه وقدر نتائجه فى لعبة حظ مضمونة كما تخيلنا (ومن ثم) أزاحهم عن الطريق وقرر أن يعين بدلهم مَنْ يسيرون دون تردد معه على الطريق الذى رسمه وحده، فاختار اثنين فى أول الأمر ووضعهما تحت ميكروسكوب نظارته وأفكاره، ورأى أن يقتربا من القوات المسلحة أكثر، فهم أصلاً ضباط فى القوات المسلحة وعلى علم وكفاءة وخبرة. ولكن المناصب التى تولوها أبعدتهما قليلاً عن معرفة درجات الاستعداد لتشكيلات القوات المسلحة البرية والجوية والبحرية والدفاع الجوى والأسلحة الفنية الأخرى المعاونة، وكذا أخذ فكرة عن مخطط القوات المسلحة للعمليات المحدودة أو لتنفيذ المهمة الرئيسية للقوات المسلحة بتحرير الأرض وإزالة آثار العدوان.. فأمر السيد حافظ إسماعيل ومعه السيد أحمد إسماعيل على رئيس المخابرات العامة بالاجتماع بأعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة. وفعلاً فى اجتماع مع الفريق أول محمد أحمد صادق وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة فى أوائل صيف ١٩٧٢، دخلا إلى قاعة الاجتماع وطلبا الاستماع إلى القادة، كل فيما يخص درجات الاستعداد القتالى لقواته وأى مشاكل تعترض هذا الإعداد، ثم أخذا فكرة عن الخطط الخاصة بالعمليات، ولم يظهر الفريق أول صادق أى إشارة تدل على قبول أو رفض هذا التدخل إذا أسميناه تدخلاً، ومرّ الأمر بطريقة عادية إلا من بعض تلميحات من الزملاء وشائعات وتخمينات».

❑

عند هذا الحد يصل صاحب المذكرات إلى أن يصرح بأن السادات مضى فى هذا

الخط خطوات أكثر تقدماً، فها هو على ما يرويه عبدالمنعم خليل يجتمع بنخبة من القادة الكبار ويبدأ فى الحديث أمامهم عن ذكرياته مع عبدالناصر عن هذين القائدين بالذات، ولنقرأ بكل تأمل ما يرويه صاحب المذكرات فى هذا الصدد حيث يقول:

«...إلى أن التقى بنا الرئيس السادات والفريق أول صادق واللواء واصل قائد الجيش الثالث، واللواء عبدالمنعم (خليل) قائد الجيش الثانى، ودار حديث هادئ مريح، أثار فيه الرئيس السادات ذكرياته مع عبدالناصر عن أحمد إسماعيل وموضوع رادار رأس غارب وإبعاده عن القوات المسلحة. أما عن حافظ إسماعيل.. فإن الرئيس جمال كان فى تخطيطه تعيينه قائداً عاماً للقوات المسلحة ليقود القوات المسلحة المصرية فى حرب التحرير، ولكنه لقى ربه قبل أن يصدر هذا القرار. والحقيقة أننا فهمنا أن الرئيس السادات يميل إلى تعيين أحدهما ولكنه لم يفصح بشىء، وانتهى الاجتماع واستمرت زيارة الرئيس السادات للمواقع ومعه الفريق أول صادق».

(٢٣)

وعلى نفس الخط ينصف صاحب هذه المذكرات الفريق الشاذلى بقدر كبير، ويقدر بصفة خاصة عبقريته فى إعداد المنشور رقم ٤١ الخاص بتنظيم عبور القوات لقناة السويس، كما يثنى على جهده فى منطقة البحر الأحمر، ويسجل له شجاعته فى المرور على الأماكن المشتعلة بالقتال فى أثناء الحرب، ولكنه مع هذا حريص شأن كل مَنْ رووا ذكرياتهم عن هذه الفترة على أن يقدم لهذا كله بما يعتقد أنه بمثابة سر تصعيد الشاذلى إلى مكانة رئيس الأركان وهو موقفه المعارض لتوجهات الفريق أول محمد فوزى فيما يتعلق بميثاق طرابلس وإعلان الوحدة مع سوريا وليبيا، وهو الموقف الذى كان فيه (اللواء) الشاذلى بمثابة القائد العسكرى الوحيد الذى تلاقت توجهاته مع توجهات الرئيس السادات قبل حركة مايو ١٩٧١، ولا تختلف رواية عبدالمنعم خليل عن رواية الفريق أول محمد فوزى ولا عن رواية الفريق الشاذلى نفسه:

«وفى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى ربيع ١٩٧١ بقيادة الفريق أول

محمـد فوزى وزير الحربيـة، الذى عقد المجلس لاسـتطلاع رأيه فى مـوضـوع الاتحاد الثلاثى المصرى السورى الليبى الذى دعا إليه الرئيس السادات، كان سعد الشـاذلى هو الوحيـد الذى وافق على هـذا الاتحاد عند استـطلاع الرأى، وكان وقتـئذ قائدا لمنـطقة البحر الأحمر العسكرية التى ضبط أمـورها بمهارة بعد حادثة اختطاف جهاز الرادار المؤسـفة. وبعد أيـام قليلـة من هذا الاجتـماع التاريـخى اختيـر رئيساً لأركـان حرب القوات المـسلحة المصـرية متخطـياً عدداً كبـيراً من قادة القـوات المسلحة الأقـدم منه وقتذاك».

«والحقيقـة أنه نجح فى إدارة القوات المـسلحة فى تلـك الفترة، وكانت الـلقاءات الشهـرية مع قادة القوات المـسلحة برية وبـحرية وجوية ودفاع جـوى لها طابع يـتـميز بالـبحـث العلـمى والـتدقيـق والمتـابعة، كـما نجـح فى إصدار مـنشـورات تعلـيمـية وتوضيحية وآخرها هذا المنشور رقم ٤١ الخاص بتـنظيم عبور القوات لقناة الـسويس، وبفضـل هذا التنظـيم الدقيق نجـحت القوات المـصرية فى عبـور قناة السويـس نجاحاً منقطع النظير، ليس له مثيل فى التاريخ القديم أو الحديث، ويحق لسعد الشـاذلى ومن عاونه فى إعداده ثم إصدار التوجيه أن يفخروا به».

«كما تميّز الشاذلى أيضاً بكثرة تفقده للـقوات فى مواقعها الأمامية، أثناء التحضير لحرب أكتوبر، وخلال القتال. وكان يبدى كثـيراً من ضروب الشجاعة فى المرور على الأماكن المشتعلة بالقتال».

(٢٤)

وفى أكثر من مـوضـع من مذكراته يحرص عبـدالمنعم خليل علـى الإشادة بجهد الفـريق الشـاذلى فى الـفترة الـسابقـة على حـرب ١٩٧٣ومن ذلك ثـناؤه الجم عـلى المؤتمرات الشهرية التى كان يعقدها رئيس الأركان :

«وركز رئيـس أركان القوات المـسلحة عـلى عمل مـؤتمر شهرى يـجمع فيـه قادة تشكيلات القوات المـسلحة ـ وإلى درجات مختلفة ـ للمشـورة وأخذ الرأى ومناقشة أحسن الحلول للعـبور، واقتحام حصون خط بارليف وحمولة الجـندى، ومشاكل فتح

الثغرات فى الساتر الترابى وفى الأسلاك والألغام، وأسلوب صد مدرعات العدو فى الساعات الأولى بعد العبور لتعزيز قوات المشاة التى ستتحمل الصدمة الأولى من دبابات العدو ومدرعاته وطائراته فى هجماته المضادة حسب المخطط المحتمل. وكذا بحث ما يمكن بحثه للتغلب على مشاكل العبور وحسب ما لدينا من إمكانيات. وقد نجح الفريق الشاذلى فى تجميع هذه الخبرات والابتكارات والأبحاث فى منشور دورى سمى رقم ٤١، حدد فيه لكل فرد مكانه وعمله وحمولته وتصرفه وتسليحه وذخيرته ومياه شربه وغذاء يومه!! وأثبتت الأيام أهمية هذه التعليمات وأنها سبب رئيسى فى نجاح عبور القوات لأكبر مانع فى التاريخ واقتحام حصون خط أقوى من خط ماجينو فى فرنسا فى الحرب العالمية الثانية ».

❑

كذلك نجد صاحب هذه المذكرات حريصا أشد الحرص على الإشارة إلى الفهم الجيد الذى تمتع به الفريق الشاذلى وهو يمارس التخطيط لحرب أكتوبر مستفيدا من أخطاء ١٩٦٧ وهو يرى أن الشاذلى استفاد من خطة سابقة وضعها مونتجمرى فى العلمين من أجل استخدام مبتكر للسلاح المضاد للدبابات فى مواجهة التشكيلات المدرعة وكيف أصبح المدفع وهو سلاح دفاعى فى الأساس قوة هجومية مؤثرة:

«والواقع أن الفريق سعد الشاذلى كان قد وعى الدرس جيداً من الجولة الثالثة، وهو يرسم خططه للجولة الرابعة، عندما استغل حماية غابة الصواريخ للقوة التى جهزها لاقتحام القناة واجتياح حصون بارليف، ليوفر لها ظروف العمل المتكافئ بعيداً عن تأثيرات التفوق الجوى الإسرائيلى المعاكسة، ثم اكتفى بوصولها إلى مسافة ٨ ـ ١٠ كيلومترات شرق القناة لتظل تحت وقاية غابة الصواريخ فى نفس مواقعها، مع تزويد الوحدات والتشكيلات المقاتلة بنسبة مضاعفة من الأسلحة المضادة للدبابات، لتتحطم عليها هجمات تشكيلات العدو المدرعة وضرباتها المعاكسة».

«إن تلك الفكرة الصائبة كان قد سبقه إليها الفيلد مارشال مونتجمرى فى العلمين فى أكتوبر ـ نوفمبر ١٩٤٢، عندما أمر مدرعاته بالانتشار على الحافة الخارجية لرأس الجسر الذى احتله من دفاعات روميل، ثم التوقف هناك حتى يطلق روميل مدرعاته

فى الهجوم المضاد المعهود منه فيصير تحطيمها بالأسلحة المضادة وبالدبابات التى تعمل من مواقع Hull down، فلما أنجزت تلك المهمة بنجاح، أطلقها مونتجمرى غرباً وهو يتمنى لها صيداً طيباً على نحو ما ذكره فى كتابه عن سيرته الذاتية».

❑

ومع كل هذا التقدير للشاذلى فإن اللواء عبدالمنعم خليل فى الحديث الذى أجراه معه الأستاذ محمد حبوشة ونشر فى عدد الأهرام العربى الصادر فى ٣ أكتوبر ١٩٩٨ لم يجد حرجاً فى أن يقول إن الشاذلى هو المسئول عن الثغرة، وكان عنوان الحديث «الشاذلى هو المسئول عن الثغرة ومستعد لمواجهته».

(٢٥)

ولا تخلو إشارات صاحب هذه المذكرات إلى الفريق أول محمد أحمد صادق من إنصاف، (وقد ذكرنا فيما سبق حرصه على أن يذكر مخالفته لما رواه القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل من أن الفريق صادق لم يكن ينزع إلى القتال) وهو يعده من رجال المخابرات الحربية المخضرمين، وينظر إليه من هذه الزاوية، من ذلك ما يرويه عن اجتماع فى حضور عبدالناصر حيث التقط الفريق صادق الخيط ليثبت جدارته:

«... وبعد استشهاد الفريق عبدالمنعم رياض وأثناء اجتماع الرئيس عبدالناصر مع أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة ومعهم المستشارون السوفييت، وجه الرئيس سؤاله عن كيفية مواجهة الشوشرة الرادارية، فالعدو الإسرائيلى يوم ٧ يناير ١٩٧٠ جعل جميع شاشات الرادار بيضاء؟ هل يمكن إسقاط الطائرات التى تقوم بأعمال الشوشرة مثل الحوامات المجهزة وهى تطير شرق القناة وعلى ارتفاع كيلومتر تقريباً، لذا يجب استخدام القوات الجوية فى الاصطياد الحر لهذه الطائرات.. ولكن مستشار قائد الدفاع الجوى رد على الرئيس عبدالناصر قائلا: «إن هذا صعب على الطيران نظراً لاختلاف السرعات، ويمكن استخدام محطات رادار «ب ١٢» وتغيير الأشعة..

وسؤال آخر من الرئيس عبدالناصر: «لماذا لا ندمر رادارات العدو كما يدمر ما عندنا؟» فرد مستشار الدفاع الجوى قائلا: «بالجهود المشتركة يمكن عمل هذا، ولكن فى المنطقة الأمامية لا يوجد للعدو رادارات».

«وهنا التقط مدير المخابرات الحربية الكرة وقال فى ثقة رجل المخابرات المحنك: «سأعينها لك بالشعرة.. يقصد تعيين محلات رادارات العدو بدقة!!»، وضحك عبدالناصر وضحك باقى الحضور».

(٢٦)

وتنفرد هذه المذكرات كذلك برواية كثير من التفصيلات عن آراء الفريق صادق حين كان لا يزال رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة، وفى هذه الآراء يبدو الفريق أول صادق مفضلاً البدء بمعارك صغيرة (عمليات صغيرة) قبل خوض غمار الحرب الكبيرة. وقد أورد صادق رأيه هذا بوضوح شديد فى اجتماع لقيادات القوات المسلحة، بل ودعا الحاضرين أن يشهدوا أنه أعلن رأيه هذا على هذه الصورة ولم يكن الحاضرون هم قادتنا فحسب، ولكن المستشارين السوفييت (أيضا) كانوا قد حضروا هذا اللقاء بل وشاركوا فيه بالرأى والمناقشة، ومن المفيد لتاريخ مصر المعاصر أن سجل صاحب هذه المذكرات كل هذه التفصيلات والآراء بل وتعليقاته المهمة عليها على هذا النحو الجميل المنظم.

❑

ويفصل عبدالمنعم خليل فى كتابه كثيراً من آراء ووجهات نظر الفريق أول محمد أحمد صادق، ثم هو يروى أيضاً تعليقات المستشارين السوفييت على النحو التالى:

«فى يوم ١٧ فبراير ١٩٧١ اجتمع الفريق محمد صادق، رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة بالقادة، ومعهم المستشارون السوفييت، وبدأ حديثه قائلا:

«اللهم إنى بلغت [واليوم ١٧ فبراير] فاشهد!!

« قال أوكينيف مستشار وزير الحربية إن الجيوش غير جاهزة للعمليات المحدودة يوم ٧ مارس ١٩٧١ (أى بعد انتهاء فترة إيقاف النيران الثالثة)، ثم قال رئيس الأركان: القيادة السياسية تطلب الحرية يوم ٧ مارس، ولدينا خطط للعمليات المحدودة ومن ضمنها الاستيلاء على النقط القوية، ولكن أنا كرئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة أرى ألا أصطدم بفشل أو خسائر ضخمة فى بدء القتال، واقترح كوجهة نظر خاصة أن تبدأ عملياتنا المحدودة بإنشاء رءوس كبارى كتائب فى المناطق الخالية من العدو، أو التى بها عدو ضعيف، على أساس عبور قناة السويس ودعم الكتائب بقوة واختيار الأرض المناسبة لإعطاء ميزة للدفاع ومعاونة العملية من الضفة الغربية، ولا أبدأ أساسا بالاستيلاء على النقط القوية مثلاً نقط العدو الحصينة فى الدفرزوار، ونحن تنقصنا طريقة سليمة لفتح الثغرات، فيجب تركها حالياً، ونستولى على رأس شاطئ ليس به عدو».

«ومصر تطلب السلام ولم يحدث تحسن فى موقف إسرائيل خلال الـ٧ أشهر، وتطلب حالياً أرضا مصرية لازالت إسرائيل تحتلها وتحتفظ بها، وقال موشى ديان ذلك، وأمريكا تطالب بضم قطاع غزة إلى إسرائيل!! ولا أمل إلا القتال والسيد وزير الحربية يؤكد ذلك وطلب تجهيز القوات المسلحة للعمليات المحدودة».

«وعموماً.. فإن العملية فيها مستقبل مصر وأفضل البدء فى العمليات المحدودة الصغيرة لتسخين القوات المسلحة، ولقد أبديت رأيى أمام مجلس الدفاع ونقط القوة والضعف، وتقدمت بطلبات من الأصدقاء ونحن نتبع القيادة السياسية، ولكننا جاهزون للحرب بما لدينا والأصدقاء السوفييت يعلمون ما ينقصنا، وما هى نقط الضعف والقرار للقائد الأعلى، وعلينا تحقيق أهداف القيادة السياسية بنجاح، بأقل خسائر ممكنة!!».

«واعتباراً من الليلة.. فإن قادة الجيوش والقوات الخاصة يعطون للإعداد للتدريب لهذه العمليات ٨٠٪ من الوقت، وباقى المسئوليات بما فيها العمل الهندسى مع احترامى ٢٠٪».

«وأنا أقول هذا وعلى مسئوليتى الخاصة!!».

(٢٧)

ها نحن نرى عبدالمنعم خليل وهو يسجل ويصور انحيازه إلى صف الفريق صادق حين كان رئيسـا للأركان، ومن أهم ما يمكن لنـا أن نتأمله أن الفريق عبدالمـنعم خليل يصف تـعليق المستـشار السوفيتـى لرئيس الأركان بأنـه جاء فى خبث، ويبـدو أنه كان هناك شـىء من الاختلاف (وربمـا التوتر) بيـن ذلك المستـشار السوفيـتى وعبدالمـنعم خليل نفسه، ونـحن نرى المذكرات تثبت أن مستشـار رئيس الأركـان السوفيتى (الذى هو مستشار صادق) يستنكر على قائد الجيش الثانى أن يقول إن الجيش جاهز!!

كذلك فـإن صاحب المذكرات حريـص على أن يثبت بـاللفظ الصريـح أن سبب الخلاف فى وجـهات النظر لم يـكن إلا عدم رغبة الـسوفييت فـى إجابة طلباتـنا وهم يغمضون عيونهم ويقفلون آذانهم دون هذه الطـلبات، ولنقرأ هذه الفقرات التفصيلية لما يرويه عبدالمنعم خليل:

«وجاء رد الجنرال شوشمورف مستشار رئيس الأركان، قال بخبث:

«هل قادة الجيوش جاهـزون للعمليات المحدودة أم لا.. حسب تقـارير مستشارى قائد الجيش الـثانى والثالث يقول إنهمـا غير جاهزين، وحسب ما شـهدت فى الجيش الثانى فالمنطقة الابتدائية للهجوم للمرحلة الأولى غير جاهزة؟ وكذا مرابض الضرب المباشر غير جاهزة تماما؟.. إلخ».

«كيف يقول قائد الجيش الثانى إنه جاهز!».

«أقترح إنشاء لجنة خاصة لمراجعة هذا الموقف، ويجب الاهتمام بالتجهيز الهندسى للعمليات المحدودة؟!».

«واعترض كبير المستشارين على رأى الفريق صادق فى موضوع أخذ رأس شاطئ بين النقط الـقوية ثم مهاجمتها، وقـال: لا داعى لفصل المرحلة الأولى إلى مـرحلتين، ويجب أن تكون مرحلة واحدة!! وتتم فى وقت واحد».

«ثم قال المستـشار السوفيتى: «الفـريق صادق يقول إمكانيـاتنا حالياً لمهاجـمة النقط القوية غـير كاملة؟ وكل فرقـة أمامها نقطة قويـة ويمكنها عمـل ٢ رأس كوبرى وقد

تفشل فى بعض النقط القوية، ولكن الأكيد هـو النجاح فيما بينها، وكل فرقة وضعت خطة قد تعدل أو تصلـح طبقاً للموقف على أساس تدمير كـل وسائل النيران. وتحت ستر النيران يعمـل ثغرات فى الموانع ثم مهاجمتها من الأمـام والأجناب بمجموعات عاصفة، وقد نفكر فى أسلوب التطويق من البحيرات أو الإبرار خلفها باستخدام الحوامات، ولماذا نمتنع حالياً عن مهاجمة النقط القوية!!».

«وبدأ النقاش بينهما وكل له وجهة نظره، وظهرت وجهة نظر الفريق صادق وهى سبب هذه الاختـلافات أن النقط القوية تحتاج إلـى معدات وأسلحة متطورة لـلتعامل معها، وهى مـوجودة عند السوفييـت ولكنهم يغمضـون عيونهم ويقفلـون آذانهم عن إجابة طلباتنا، وكان هذا بداية الصراع!!».

«وقد أنهى الفريق صادق هذه المناقشة مؤقتاً بأن قال:

«قادة الجـيوش والمستـشارون وقادة الفـرق يدرسون الموضـوع على أساس فـكرة الجنرال شوشمورف كمرحلة واحدة أولا ثم نجتمع مرة أخرى للدراسة».

(٢٨)

كذلـك يلقى صـاحب هذه المذكـرات الضوء عـلى ما دار فى اجـتماع عسـكرى برئـاسة الفريـق صادق بعـدما أصبح نـائباً لرئـيس الوزراء ووزيـر الحربية والإنـتاج الحربى مع القادة العسكريين يوم ٢٤ يناير ١٩٧٢، فيثبت لنا نصوص أحاديث صادق الموحية بعجزه عن التـعاون مع السـوفييت بسـبب سياساتهم فـى تزويد مصر بالسلاح، كما يثبت كذلك نصوصا تدل على وجـود خلافات بينه وبين رئيس الوزراء الدكتور عزيز صـدقى، ولكنه يـصفها بـأنها خلافات مـبادئ، كما يعـتـرف صادق للـقادة بأن السادات سافـر إلى موسكو بدونه وأن السـبب الذى قيل هو إن الســادات يرغب فى مناقشـتهم فى موضوعات الـتزويد بدون حضوره!! ولـنقرأ هذه الرواية الموحـية لنا بمدى خطورة اندفاع قائد عسكرى كبير إلى ممارسة السياسة على هذا النحو:

«بدأ السيد الـفريق أول محمد صادق حديثـه فى الاجتماع بفكرة عامـة عما يمر

بمصر اليوم على الساحتين الخارجية والداخلية، وأنه توجد شائعات وبلبلة كثيرة ومنها لماذا لم نحارب، ونبدأ القتال عام ١٩٧١؟ ثم قال: «كان تقدير جمال عبدالناصر أننا نستطيع استرداد الأرض فى أواخر عام ١٩٦٩ أو أوائل عام ١٩٧٠.. ثم حدث ما حدث وقاتلت القوات المسلحة بكل بسالة وقاتل كل فرد فى مكانه.. وسافر جمال إلى روسيا بعد نصرنا الكبير وهز ثقة العدو، وعاد من روسيا حزيناً، ومن ثم وافق على إيقاف القتال لفترة محدودة لبناء الدفاع الجوى».

«ثم قال الفريق أول صادق:

«فى عهد أنور السادات سافر إلى روسيا كما حضرت وفود منهم إلينا وجرت مناقشات بيننا، وكان هناك عدم راحة فى إجابة مطالبنا. وفى أكتوبر الماضى (١٩٧١) طلبنا أقل القليل.. عيش حاف لسد الرمق لنعبر ونغير الموقف ونحقق هدفا بسيطا وليس تحرير سيناء.. ولدينا أكثر من ١٨ خطة لتحرير الوطن وكل هذا لم يعجب الروس؟ ثم قال الفريق أول صادق فى ٢٤ يناير ١٩٧٢: «تكلموا عنى كثيراً وكانوا يسفهون فى كل شىء، واتفقوا على جزء من الطلبات تصل عام ١٩٧١ وفى النصف الأول من عام ١٩٧٢، وطلبنا حق صناعة بعض أنواع الأسلحة والذخيرة وخلافه فى مصانعنا...»، وكرر الفريق أول صادق مثل هذه القصص أكثر من مرة، وفى ١٨ مارس ١٩٧٢ زادت حدة الشائعات عنه وعن خلافاته مع الروس روجها الشعب عامة والقوات المسلحة خاصة، وعن خلاف بين وزير الحربية والسيد عزيز صدقى رئيس الوزراء، وخلاف بين الوزير صادق والاتحاد السوفيتى، وهنا رد الفريق أول صادق: الخلاف خلاف مبادئ فقط، وعمل فى القوات المسلحة، وسبب هذا أن الرئيس السادات سافر إلى موسكو بدونى (وزير الحربية) وقيل إن السبب أنه يرغب فى مناقشتهم فى النواحى الاستراتيجية والسياسية بدونى.. وقال إنهم وعدوا بإعطاء مصر ٢٠٠ دبابة ت ٦٢، و٦٠ طائرة تى يو ١٦ متطورة، و١٠٠ طائرة ميج ٢١.. إلخ».

«وحضر المارشال جريتشكو بعد ذلك وزار جبهة قناة السويس وخطب هناك وقال إنه وافق على إعطائنا أسلحة كذا وكذا، وسافر إلى موسكو بدون خلاف ثم حصل ما يأتى:

«طلبوا ثمن الدبابات ت ٦٢ مضاعف وللطائرة ٦, ٥ مليون روبل!! وجميع الذخائر والمعدات إلخ.. بالعملة الصعبة والدفع فوراً.. وعرضت الأمر على رئيس الجمهورية وقلت له لا داعى للأسلحة الجديدة يكفى شراء القديم وما نحتاج إليه فقط. كما قلت للمستشار السوفيتى أوكينيف هذا أيضا (مستشار وزير الحربية) وبالطبع معناه أنه لن تصلنا صواريخ متحركة أو شيلكا».

«وطلبت توفير الأطقم الروسية هنا فى الدفاع الجوى.. نتسلم منهم ١٨ كتيبة ورجالنا جاهزون لتسلمها».

«ومن هنا بدأت الشائعات والتفاهات»، هكذا قال الفريق أول صادق.. ثم عقب على هذا بأن الجو خطير، وقال: «نحن مسئولون أمام الله عن مصر وكل ما أقول صادر من قلب كل نقطة دم فيه متجهة إلى الله ومركزة فى سبيل مصر».

(٢٩)

وعلى هذا النحو يبدو اللواء عبد المنعم خليل على النقيض من المشير الجمسى والفريق الشاذلى فى ظاهر حديثه متعاطفا بدرجة ما مع الفريق محمد صادق وإن كان لايتبنى أفكاره ولايدافع عنها بينما يحرص الرجلان الآخران فى مذكراتهما على أن ينتقدا أفكار صادق بوضوح ، ولربما يظن القارئ أن لتوجهات الرجلين (أى صادق وعبدالمنعم خليل) المتقاربة فى كراهية السوفييت دخل فى هذا القدر من التعاطف الضئيل ، ويبدو أن لهذا السبب بعض الأثر الأكثر ضآلة. فقد كان طراز تدين عبد المنعم خليل يدفعه بالطبع إلى مثل هذا الموقف الذى كان صادق يغذى بعض جوانبه بمثل هذه الأحاديث، ولكن التأمل المتكرر لروايات عبدالمنعم خليل يدرك أنه يعرض أفكار صادق بأمانة دون أن يؤيدها أو يتبناها، ويبدو أنه أحس أن صادقاً قد هوجم بما فيه الكفاية فهو يستبقى له بعض وجهات النظر، أو هو يكاد يجامله بطريقة أو بأخرى.

وقد رأينا فى فقرة سابقة كيف أن عبدالمنعم خليل يعقب على توجيهات أحمد

إسماعيل التى أدلى بها عقب توليه المسئولية وقوله إنه يشهد أن صادق كان يريد أن يحارب، ولكن أقصى تعاطف لصاحب هذه المذكرات مع آراء الفريق أول صادق يأتى عند حديثه وتعليقه عما صرح به الوزير فى اجتماع القادة فى ١٨ مارس ١٩٧٢، وسنجد تعاطف عبدالمنعم خليل يأخذ صورة العبارات أو التعبيرات الإنشائية التى لا تخلو من تلميحات مهمة، وهو يصف الحديث بأنه كان بداية النهاية لأحداث مهمة (لكنه لا يحدد أيها يقصد) ولا يمكن القول بأنه يقصد مباشرة إقصاء الفريق صادق، فقد تم هذا الإقصاء فى أكتوبر ١٩٧٢، أى بعدها بسبعة شهور، وإنما يمكن القول بأن صاحب المذكرات يقصد تصعيد الخلافات بين وزير الحربية المصرى وبين السوفييت، وتصريحات الوزير العلنية أو شبه العلنية بوجود هذه الخلافات، وتحذيره القادة العسكريين من سلوك السوفييت بينما هم لا يملكون قراراً تجاه هؤلاء ولاتجاه وجودهم وإنما هو ـ أى الوزير صادق ـ يلجأ إلى خلق رأى عام، وقد رأينا فى مذكرات محمد حافظ إسماعيل تفصيلات لنتائج سلوك الوزير صادق على مستوى هذه العلاقات، وخطوات الرئيس السادات فى ضبط السلوك المصرى والتحكم فى درجات الانفعال فيه، ولكن المذكرات التى بين أيدينا تبدو وكأنها تلقى الضوء على طرف الموقف من ناحية الفريق صادق نفسه، ولا ننسى أن الفريق صادق هو الذى صعد هذه الخلافات إلى هذا الحد الذى أوصلها إليه وقد رأينا كيف أن الفريق سعد الشاذلى فى مذكراته ـ التى تناولناها فى الباب الثانى من هذا الكتاب ـ يصرح بهذا فى وضوح، بل إن الفريق صادق فى رواية عبدالمنعم خليل أخذ يحذر المصريين جهاراً نهاراً من أن يكونوا كالبلهاء! ووصلت به اللهجة الخطابية إلى أن يقول فى خطابه: «ديننا يسب.. نبينا يحقر.. وربنا يلعن»:

«وألخص هنا أهم ما جاء فى حديث الفريق أول صادق للقادة يوم ١٨ مارس ١٩٧٢ أمام قادة القوات المسلحة والرؤساء، ويعتبر هذا الحديث الخطير بداية النهاية لأحداث مهمة، ستظهرها الأيام وفيها حَذّر رجل المخابرات، وتحذير الوزير، وفيها وعد ووعيد، وإثارة وغموض، وسم ودواء.. قال: «هناك مؤامرات تحاك ضد مصر، مؤامرة حسين وتصفية الكيان الفلسطينى ضدنا.. وتريد إسرائيل استمرار احتلال العريش وأبورديس ونحن محرومون من مقاتلة قاذفة قادرة، ويضحك علينا الروس

كالبلهاء، حتى الحرب الإلكترونية يعملوا علينا تشويش ونحن نريد الحرب ولكنها ستكون جريمة..».

«ثم قال: «ولو أننا محل إسرائيل لابد أن أدمر القوات المسلحة المصرية أولاً قبل أي حل سلمي.. حتى دول الاستعمار تريد أن تدمر قواتنا المسلحة.. ولذا أقول احذروا أن تدمر قواتنا المسلحة بعملية استدراج.. ونحن أقوياء وقادرون على الدفاع عن مصر».

«لذا يجب أن نحافظ على القوات المسلحة، فهى أثمن ما فى مصر ومن يريد أى مطامع ينتظر الزمن فسيعطيه الزمن ما يشاء».

«ديننا يُسَب.. نبينا يحقّر.. في هذا الوقت.. وربنا يلعن..».

«كرامتكم وكرامة جنودكم من كرامتى لماذا نحن أذلاء لست أدرى!!».

«ثم انتقل (أى الفريق صادق) إلى أسلوب عملنا فى الفترة القادمة قائلاً:

«لا دبابات جديدة ولا أسلحة جديدة، فما هو وضعنا بالنسبة للمعركة.. نحن بهذه الطريقة غير قادرين على المعركة ما هو الهدف النهائى الروس يطلبون ٣٢٠ ضابط روسى معهم ٤٠ مترجم فى حالة إرسال ٢ طيارة تدريب تى يو».

«أنا أقول لكم ولست مسئولاً أن أقول للناس، يجب أن تسيروا على خط الوطن وكل مَنْ يخرج عنه يكون خائناً».

«التشكيك فى أنفسنا وقدراتنا، وفى القادة المباشرين، وفى القيادة السياسية، وفى قدرتنا على الحرب، وفى ديننا».

«هذا معناه ضياع ثم نكون فريسة لأى رأى!».

«كيف أسمح للجندى المصرى أن ينسى دينه وحتى الديانة البهائية تحاربنا!!».

«وغرضهم السيطرة على القوات المسلحة فتصرفوا بوحى وطنيتكم».

«ثم قال عن السوفييت أيضاً:

«هم يريدون مرسى مطروح كقاعدة روسية، تقفل الطريق للغرب وإلى الشرق أيضاً، وإذا فرطنا فى أى جزء من مطروح معناه أننا نفرط فى البلد..».

(٣٠)

هكذا يحرص صاحب هذه المذكرات على أن يسجل للفريق أول محمد صادق مواقفه وسياساته المعلنة من السوفييت دون أى تعقيب على مدى جدواها، ومدى الحنكة فيها ! ويبدو إذن وكأنه يوافق عليها جزئيا وإلا لكان قد سجل اعتراضه على نحو ما فعل الآخرون ومنهم المشير الجمسى والفريق الشاذلى فى مثل هذا الموضع، ولكن صاحب هذه المذكرات يستأنف نقل رؤية الفريق صادق وقراءاته فيقول :

«ثم أعطى أوامر بعدم توزيع أى كتب روسية أو تبادل أى شيء من هذا!! (وكان المستشارون السوفييت يعطون القادة والضباط هدايا عبارة عن كتب عسكرية تمجد الجيش الأحمر والشيوعية)، ثم استمر فى إعطاء توجيهات عن أسلوب التعامل مع السوفييت، فقال:

«يمكن أن يكون الروس أصدقاءنا و لكن لا نكون عبيداً لهم. لماذا ننكس الرأس هل لأننا هزمنا؟ غيرنا انهزم ويجب أن نحافظ على وضع هذا البلد وندافع عنه ونضرب المثل لرجالنا، وإذا أخطأ المستشار يجب وضعه أمامى، ولا تسمحوا بأى ثغرة بينكم ينفذون منها، ويكلف المستشار بما تراه أنت ولا يقدم توصيات ملزمة ويجب تقليل أعداد المستشارين والخبراء.. لا تطلبوا امتداد الخدمة لأى خبير، تم تخفيض ٢٢٥ مستشارا حتى ١/ ٤/ ١٩٧٢، ولا يصرح لأى فرد فى القوات المسلحة بطلب مستشار أو خبير إلا بتصديق الوزير شخصياً».

«ثم اختتم هذه التوجيهات بالآتى:

«يجب أن يفهم الجميع أن الصداقة مع روسيا هى خط استراتيجى لمصر، وإذا خسرنا هذه الورقة ـ الروس ـ سنخسر!! لقد أخذنا الكثير، وكان هناك أسلوب دفع ويجب أن نعمل على بقاء الصداقة!!».

«ثم قال: مطلوب استقصاء رأى عام فى القوات المسلحة أن الروس طلبوا قواعد وطلبوا ألف مليون دولار فورا؟!».

«وهمس فى الآذان: «لا تلقين فى هذه الموضوعات».

(٣١)

ولا يفتأ صاحب هذه المذكرات يؤكد على هذه المعانى والمواقف التى تبناها الفريق أول محمد صادق، ومن ذلك ما يفصل فيه القول حين يروى تفاصيل اجتماع عقد فى ٢٧ مايو أى بعد سبعين يوماً من اللقاء السابق الذى نقلنا للقارئ ما لخص به صاحب المذكرات حملة الفريق صادق على السوفييت فيه، ونحن نرى الفريق صادق فى اجتماع نهاية مايو هذا، وقد أخذ يكرر أفكاره السابقة، وهذا هو تعبير صاحب المذكرات (أعاد نفس أفكاره السابقة) ويحرص صاحب المذكرات على تسجيل أسماء القادة الذين حضروا هذا الاجتماع وفى مقدمتهم الرئيس مبارك والمشير الجمسى فضلاً عن صاحب المذكرات نفسه، وكان فى ذلك الوقت قد أصبح رئيسا لهيئة التدريب:

«أعاد الفريق أول محمد صادق نفس أفكاره السابقة بحضور الآتين بعد:

«الفريق عبدالقادر حسن نائب وزير الحربية.

«اللواء أ. ح. بحرى محمود فهمى عبدالرحمن قائد القوات البحرية.

«اللواء أ. ح. طيار محمد حسنى مبارك قائد القوات الجوية.

«اللواء أ. ح. على عبدالخبير قائد المنطقة العسكرية المركزية.

«اللواء أ. ح. محرز مصطفى عبدالرحمن مدير المخابرات الحربية.

«اللواء أ. ح. محمد عبدالغنى الجمسى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة.

«اللواء أ. ح. عبدالمنعم خليل رئيس هيئة تدريب القوات المسلحة.

«اللواء أ. ح. نوال سعيد رئيس هيئة إمدادات وتموين القوات المسلحة.

«اللواء أ. ح. عمر جوهر رئيس هيئة التنظيم والإدارة.

«ولم يحضر الاجتماع قائدا الجيشين الثانى والثالث.

«وقد أثار الفريق صادق موضوعاً إضافياً جديداً يخص الذهب الذى يشتريه السوفييت من أسواق مصر بكثرة، وأن الروس [يقصد: السوفييت] قالوا إن الوزير

صادق هو سبب هذه الزوبعة ضد الروس، وأضاف موضوع المعاهدة مع روسيا [يقصد: الاتحاد السوفييتي] وضرورة تجديدها سنوياً (هذا رأيه الخاص) وقد تمكنا من التصديق على إعادة النظر فيها كل سنة».

«ثم قال: «الحرب قرار سياسي، ونحن نضع أمام السياسيين الحقائق، ومن يعطى القرار هو الرجل السياسى».

«والأوامر أن نكون مستعدين للقتال بما لدينا من أسلحة ومعدات فى أكتوبر القادم ١٩٧٢».

«وقرر الوزير صادق تشكيل لجنة برئاسته، ومعه الفريق عبدالقادر ومعه قادة الأسلحة، وباقى الموجودين، واللواء على عبدالخبير يمثل القوات البرية».

«ومطلوب من هذه اللجنة تقدير موقف عسكرى عن الاستعداد القتالى للقوات، وحالة القوات المسلحة حتى أكتوبر ١٩٧٢».

(٣٢)

ومن اللافت للنظر فى هذه المذكرات أن عبدالمنعم خليل حرص على تخصيص أحد الملاحق للحديث عن اللواء على عبدالخبير، وجعل العنوان الذى اختاره لهذا الملحق «رجال أفنوا حياتهم فى حب مصر»، وقد أورده عقب الباب الرابع الذى خصصه للحديث عن إعداد القوى ما بين ثورة ٢٣ يوليو وحرب اليمن ١٩٦٢، ونحن نعرف أن على عبدالخبير ـ على نحو ما نقلنا عن الفريق الشاذلى فى مذكراته ـ كان قد خطط لانقلاب ضد الرئيس السادات، ومن العجيب أن عبدالمنعم خليل لايتعرض لهذه الواقعة فى حديثه عن على عبدالخبير وإنما هو يقدمه للقراء فى إطار الحديث عن بطولته البارزة فى حرب ١٩٥٦، مما جعل المشير عبدالحكيم عامر يعينه مديراً لمكتبه، ثم يسند إليه قيادة القوات المصرية فى اليمن ثم رئاسة أركانها:

«أبرز الصفات التى انطبعت فى ذاكرة زملاء على عبدالخبير عنه، هى هدوءه وأمانته وشدَّة انضباطه. وعندما واتته الفرصة لتولى منصب مرموق قرب مصدر

السلطة العليا على القوات المسلحة فى فترة من حياته العسكرية، ظل على العهد به من التواضع والتفانى فى أداء الواجب والعزوف عن استغلال مركزه المرموق بما يعود عليه بالنفع الشخصى».

«ولعلى عبدالخبير فى مسرح الحرب عمل بطولى سجله له التاريخ الحربى للصراع العربى الإسرائيلى خلال حرب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ عندما كان يتولى قيادة الكتيبة ١٨ المشاه المتمركزة فى منطقة أبو عجيلة، ضمن دفاعات مجموعة اللواء السادس المشاة المكلفة بقفل محور تقدم العدو من العوجة غرباً».

«ففى فجر يوم أول نوفمبر نجح اللواء ٣٧ الميكانيكى الإسرائيلى فى اختراق بعض الدفاعات الأمامية فقام على عبدالخبير للتو بشن هجوم مضاد بعناصر من كتيبته المشاة تحت ستر نيران المدفعية والهاونات،فنجح فيما بين السابعة إلا الربع والسابعة والنصف صباحاً، فى أن يطرد العدو من تلك المرتفعات بعد أن كبده خسائر جسيمة».

«وكان لهذا الهجوم المضاد الناجح الفضل فى استعادة اللواء ٦ المشاة السيطرة على قطاعه الدفاعى، ورد العدو على أعقابه بعد أن تكرر فشله فى احتلال القطاع الدفاعى أو أى جزء منه».

«وبعد انتهاء العدوان اختاره المشير محمد عبدالحكيم عامر مديراً لمكتبه، فكان مثالا للخلق الكريم والإخلاص وإنكار الذات. وعندما قامت ثورة اليمن فى ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ وقع عليه الاختيار ليقود القوات المصرية فى مسرحها، حيث بذل الكثير من الجهد فى سبيل تكوين قيادة المسرح، وتوفير مطالب الحكومة اليمنية من المساعدات المصرية فى مختلف المجالات العسكرية والمدنية».

«وبوصول الفريق أنور القاضى لقيادة المسرح عام ١٩٦٣.. استمر فى التعاون معه كرئيس أركان القوات المصرية باليمن».

«وقد ظل يتولى المناصب القيادية العليا، حتى ختم حياته العسكرية الحافلة بقيادة المنطقة العسكرية المركزية عام ١٩٧٢، التى أحيل بعدها إلى التقاعد».

ويحـرص صاحب هـذه المذكرات أيـضا على أن يـذكر بالـتقديـر والخير الـلواء عبدالـرحمن فهـمى الذى عمـل معه كرئيـس لأركان حرب الجيـش الثانى المـيدانى، ولقى ربه قبل معركة ٦ أكتوبر ويجعل عنوان حديثه عنه:

«رجل أحب سورة التوبة وأحبته» ويقول:

«تعين اللواء الركن عبدالرحمن فهمى من المدرعات، رئيسا لأركان الجيش الثانى الميدانى فى أوائل عام ١٩٧١، وكان مثالا للجندى المؤمن المخلص الصادق، تراه دائما يقرأ سورة التوبة ويعتز بها ويفخر بتحليل ما بين سطورها وآياتها من نعم الله، وحقق الله لـه حلماً طالما راوده وهو أن يخترع أو يـبتكر سـلاحاً يستطـيع تدمير حـصن من حصون خط بارليف ونجح فى ابتكار صاروخ أرض أرض مداه ٤٠٠ متر بقوة هائلة، أسـماه قدرة الله، وشاءت إرادة الله أن يلقى عبدالرحمن ربه قبل أكتوبر ١٩٧٣، وهو يعمل فى مكتبه بالجيش الثانى الميدانى».

❑

كذلـك يخص عبـدالمنعم خـليل قـائداً من، قادتـه المبكـرين هو القـائمقام عـباس عبدالحـميد بحديـث طويل عن أسلـوبه فى القـيادة، وقد كان قائـداً لكتيبة الخدمات العامة عام ١٩٤٢.

(٣٣)

ونحن نرى عبد المنعم خليل فى كثـير من الأحيان وهو يكتب هذه المذكرات بنوع من موضـوعية شديدة تبـدو وكأنها موضـوعية الدارس الأجنـبى للحرب بعـيداً عن موقعه كقائد مصـرى ، ومن هذا المنطلق فإنه لايجد الحرج فى أن ينـتقد قائداً مصريا وأن يثنى على قائد إسرائيلى ، من حيث الأداء المهنى الصرف وقد رأينا أمثلة واضحة لهذا فى حديـثه عن سير العمليات فـى حرب ١٩٦٧ وسنختار للقارئ هـنا نموذجين من الجانبين للتدليل على هذه الملاحظة.

فهذا هو الفريق أول محمد صدقى محمـود يحظى بانتقادات شديدة من صاحب

هذه المذكرات، وهو يتعمد فى بعض الأحيان أن يغفل اسمه على الرغم من أنه معروف للجميع، وهو يصفه بأنه لم يتعلم من تجاربه، كما يؤكد على حرصه على المركزية المطلقة مما كان له أثر فى إحداث الهزيمة فى ١٩٦٧ على نحو ما حدثت به، وقد رأيناه فى هذا الكتاب وهو يصف نتائج الضربة الجوية الأولى ينهى حديثه بقوله:

«وانفرد قائد القوات الجوية والدفاع الجوى المصرى بأنه الوحيد الذى فقد سلاحه مرتين خلال حقبة واحدة».

وهو فى موضع آخر يتناوله بكثير من النقد الصريح والمركز ، ويقول:

«ورغم أن قائد القوات الجوية والدفاع الجوى المصرى ظل فى منصبه ١٤ عاماً متتالية، كان قد تعرض فى بدايتها لضربة جوية شاملة ليلة الأربعاء ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ قضت على طائراته ومطاراته، فإن الدروس المستفادة منها لم يظهر لها أثر فى تجربته الأليمة الثانية يوم الأثنين ٥ يونيو ١٩٦٧. فليس هناك مبرر لترك الطائرات مصطفة على النحو الذى كانت عليه مساء يوم ٣١ أكتوبر، ثم صباح يوم ٥ يونيو الكئيب، كما أن ضعف الدفاع الجوى عن المطارات كان على درجة لا يصدقها أحد. فإذا أضفنا إلى ذلك حرصه الزائد على أن يحتفظ بالمركزية المطلقة فى يده، فإن أحداً من مرءوسيه لم يجرؤ على التصرف عندما وقعت الواقعة، بينما هذا القائد فى طائرة المشير المتجه إلى سيناء حيث شهد وهو فى الجو مطارات القناة وهى مشتعلة بالنيران، فعاد لتوه إلى مطار القاهرة الدولى ليجد أن القضية قد حسمت، وأنه لم يعد يملك سوى الانخراط فى البكاء على اللبن المسكوب».

❑

وفى المقابل ـ على سبيل المثال ـ يحظى إسحق رابين كقائد عسكرى للعدو بتقدير عبدالمنعم خليل وهو يعترف له بحسن التخطيط فى حرب ١٩٦٧ ويقول:

«واعتمد الفريق إسحق رابين عند وضع خطة «الملاءة الحمراء» للهجوم العام على جبهات دول الطوق العربى، على أسلوب الحرب الخاطفة التى تلتزم بالسرعة فى الزحف، والسرعة فى نقل ثقل الهجوم بين الاتجاهات التعبوية المختلفة فى المسرح الواحد، وبينه وبين سائر المسارح الأخرى لنشر الفوضى والاضطراب بين صفوف

العرب، وشل تفكير قياداتهم، تحقيقا لمأثورة الجنرال هانز جودريان قائد البانزر الألمانى «احرص على المزيد من السرعة، مع المزيد من الجرأة».

(٣٤)

ومع كل ما فى هذا الكتاب من علم ومعلومات فإنه لا يخلو أيضاً من متعة، وقد أمتع صاحب هذه المذكرات القارئ بتقديم وصف مفصل للقاء السادات بالقادة العسكريين فى أكتوبر ١٩٧٢، كما أسدى لنا معروفاً جميلاً بإثبات العبارة المختصرة التى لخص بها الرئيس السادات فكره فى هذه المرحلة من تجمد الموقف، وهى عبارة جميلة حقاً وإن كان صاحب المذكرات نفسه يشك فى مدى عدالتها أو فى مدى منطقيتها أو قابليتها للتنفيذ، فقد كان السادات يريد من روسيا أن تعطى ومن أمريكا أن تحل المشكلة، يثبت لنا صاحب المذكرات التعبير المركز عن هذه «الآلية» وهو متعجب من أن يرسم الرئيس أمله وخططه على هذا الأساس، ولكنه فى ذات الوقت يروى بكل أمانة ودقة تفصيلات وجهة نظر الرئيس:

«وكلامى مع الروس والعرب والشعب فى المعركة القادمة لن يكون له قيمة، مادمنا نحن واقفون، يجب أن نحرك الموقف ونشعل حريقاً، وسيكون كلامنا مع أمريكا والعرب له قيمة كذا مع روسيا ومع شعبنا».

«ثم كرر ما قاله قبل هذا:

«يجب أن نحرك روسيا لتعطى وأمريكا لتحل».

«ثم علق على هذا بقوله ـ بعد أن أشعل الغليون وشرب كوب شاى أخضر لثالث مرة وحده ـ «وإلا ففى أوائل ١٩٧٣ تنتهى القضية بالكامل والثقة فى شعبنا!!»».

ثم قال: «وهذه جلسة تاريخ لازم نفكر فى المستقبل كما هو الحاضر، وننهى المعركة فى أى وضع، ولن نكون فى وضع أسوأ مما نحن فيه الآن بإرادة الله».

«وبعد ثوانى صمت، قال الرئيس السادات:

«لقد صدقتم أننا انتصرنا فى ١٩٥٦، والحقيقة لا، فقد انتصرنا سياسيا فقط وعدونا لم يسكت .. تطور، أما نحن فلم نتطور وعشنا على التهريج..».

«ثم قال: «فكروا فى أسلوب علمى وللمستقبل والتاريخ، يجب أن نكون أمناء ولنا استراتيجية مبنية على أربعة أسس:

«الجو: حقيقة أنه ليس الحاسم فى كل شىء ويجب تصنيع المقاتلة القاذفة والحوامة».

«البحر: زوارق لها قوة نيران مدمرة ولا داعى للقطع الكبيرة ونصنعها محلياً ونسلحها من الخارج».

«الأرض: الجنزير ونصف الجنزير يصنع فى مصر».

«الحرب الإلكترونية معظم الدول جاهزة لمعاونتنا فيها».

«هذا يجعلنا نقف على أرض صلبة ونتطور..».

«وبعد أن طرح الرئيس السادات تصوره للاستراتيجية التى يريدها للقوات المسلحة في الجو والبحر والبر والحرب الإلكترونية لأهميتها، نظر إلى اللواء أ.ح. محمد عبدالغنى الجمسى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة، ومسئول التنسيق عن الاتحاد الثلاثى مصر وليبيا وسوريا قائلاً:

«ما هو موقف سوريا وليبيا بالنسبة للمعركة؟».

«فقدم اللواء الجمسى تقريراً بسيطاً ثم علق الرئيس السادات: «حافظ مقتنع باتحاد الجبهتين، وفى حالة تحرك العمل فهو جاهز لكل شىء ولكل تضحية، ولو كمصلحة وبقاء له، وسوريا مردها إلينا، وليبيا لديها ٥٠ طائرة ميراج وجاهز الآن سرب تقريباً، وطلبت منهم عندما تتطور الأمور أن تصل الطائرات إلى مطاراتنا بعد ٦ ساعات لنعمل فى العمق.. وعندهم ٢٤ مدفع ١٥٥مم أمريكى وهاون على دبابة وعندهم أيضاً ١٠٠ ناقلة مدرعة أمريكى. عموما ليبيا لن تتأخر، ويوم ما يتحرك الموقف لن يتأخر شىء منهم».

(٣٥)

يروى صاحب هذه المذكرات تفصيلات الحوارات التى دارت بين الرئيس السادات وبين أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى الاجتماع الذى سبق إقالة الفريق صادق مباشرة، ويمكننى القول بأن هذه المذكرات هى أقوى مصدر يعتمد عليه فى رواية وقائع هذا الاجتماع الحاسم، ومن الانصاف أن أذكر أن الفريق الشاذلى قد روى ـ فى مذكراته ـ هذه الوقائع ذاتها باختصار شديد نال كل قائد فيه نصف سطر بينما نال الشاذلى خمسة سطور .

ومن العجيب أن تصل الأمور بين الرئيس وبين بعض قادته فى ذلك الوقت إلى مثل هذا التوتر الشديد، ولكن الأعجب من هذا بمراحل أن يتمكن الرئيس من تصفية كل هذه المواقف لصالحه هو ـ وحده ـ بعد ساعات قليلة من الاجتماع وبمنتهى السهولة، ولابد أن السادات كان قد دبر أمر نفسه على طريقته الذكية الخفية، وليس من شك أن انتصاره فى معركته مع الفريق صادق لا يقل أبداً عن انتصاره فى ١٥ مايو، ونحن نجد صاحب هذه المذكرات نفسه واعياً لحجم هذا الانتصار، وهو لهذا السبب يسمى ما حدث بـ«ثورة التصحيح الثانية».

وسنلاحظ أن المشير الجمسى يكاد يتخذ الموقف ذاته من وقائع هذه الفترة ولكنه يعبر بعبارات أخرى فيقول: إن تعيين الفريق أحمد إسماعيل وزيراً كان هو الخطوة الرابعة على طريق نصر أكتوبر العظيم.

ولايختلف شعور الفريق الشاذلى عن شعور الجمسى وإن لم يصرح به، وهو يبدو لنا فى مذكراته وكأنه يفضل أن يتجاوز ذلك الموقف كله.

كذلك نرى كل قائد من هؤلاء القادة الثلاثة فى مذكراته وهو لايكاد يصدق أن هذا قد تم للسادات، وسنقرأ الرواية التى يقدمها عبدالمنعم خليل فى هذه المذكرات، وسنرى ـ على سبيل المثال ـ كيف احتد الرئيس على نائب وزير الحربية الفريق عبدالقادر حسن وعلى قائد القوات البحرية اللواء محمود عبدالرحمن فهمى الذى أراد التدخل فى الحوار فإذا بالسادات يتكلم فى «حدة وقسوة ظاهرة» على حد

وصف صاحب هذه المذكرات ويجابه القادة بما عليهم أن يقوموا به لأننا أمام اختبار قدر .

وسوف نرى من تأمل رواية صاحب هذه المذكرات لما حدث فى هذا اليوم من مناقشات ما يؤكد ما ذهبت إليه ـ فى موضع آخر ـ من أن السادات كان ممسكاً بخيوط الموقف العسكرى بأكثر مما نتصور، وكان مسيطراً على القيادات العسكرية دون أن يدري الفريق صادق وزير الحربية نفسه حدود سيطرة السادات وتمكنه من القيادة.

ويبدو لى أن الفريق الشاذلى هو الآخر كان لايدرى حدود هذه السيطرة التى مكنت السادات من إتمام ما يسميه عبدالمنعم خليل بثورة التصحيح الثانية، ويبدو أيضا أن الفريق صادق كان قد بدأ يحتاط للموقف، والدليل على هذا ما نراه من روايات الفريق سعد الدين الشاذلى عن الأحداث التى أعقبت [وسبقت] «ثورة التصحيح الثانية» هذه. !

وسوف يذهلنا من تأمل رواية عبدالمنعم خليل أن نرى هذا الخلاف وقد بدأ يأخذ صورة مكررة لمحاولة مجموعة ١٥ مايو السيطرة على الموقف من خلال الرأى فإذا بالسادات بذكائه وحنكته يتخطى الأفكار المعروضة كلها.. وهو يعبر بوضوح عن فكرته التى كررها بعد ذلك فى مبادرة السلام بأنه مستعد لأن يذهب لآخر الدنيا حتى لا يموت جندى واحد! :

«وفجأة اكفهر الجو، وانطلق الرئيس السادات كمدفع السحور[لست أدرى وجه الشبه فى هذا مع أن مدفع السحور ينبهنا دون أن يلزمنا بالتوقف، بل إن كثيراً منا لايبدأون سحورهم إلا بعد هذا المدفع وإلى أن يؤذن للفجر] ينذر الناس بالتوقف عن الطعام والكلام.. وفى حدة وانفعال قال الرئيس السادات:

«أنا مسئول عن استقلال هذا البلد..» ووجه كلامه إلى الفريق عبدالقادر حسن قائلاً له فى غضب:

«لا تتدخل فى عمل غير عملك ولا أسمح بأى خطأ من أى شخص مهما كان.. دى ثانى مرة تغلط أمامى..».

«وتجمد الموقف وكأن على رءوسنا الطير، فلم ينطق أحد بكلمة أو حركة إلا

اللواء محمود فهمى قائد القوات البحرية، الذى قال رداً على وجهة نظر الفريق عبدالقادر:

«أنا شايف سيادتك زعلان والفريق عبدالقادر لم يقل شيئا خطأ فهو...».

وكان اللواء محمود فهمى قد أثار فى مؤتمر يوم ٢ يناير عن وسيلة للضغط على الاتحاد السوفيتى، وهو وجودهم فى البحر المتوسط، ويطلب الحد من وصول الأسطول إلى موانينا وتحديد الموانئ التى يدخلها ويمكن منعها أيضاً، وقال للسادات:

«بكلمة من سيادتك يمكن عمل شىء».

«فكتم الرئيس السادات أنفاسه وقال له بالاسم فى وجهه:

«هل محمود فهمى بيدافع عن عبدالقادر حسن».

«ثم وجه الرئيس السادات الكلام للجميع فى حدة وقسوة ظاهرة:

«أنا أعطى لكل فرد صلاحياته ولا يتجاوز أحد صلاحياته أو يخرج عن حده ولا يعرفنى واجبى.. ليس أمامنا حل آخر.. ونحن أمام اختبار قدر.. ويفعل الله ما يشاء.. وليس لدى ما أقوله لكم بعد هذا، ومستعد لأذهب لآخر الدنيا حتى لا يموت جندى، ويعلم الله أنى لا أريد أن أدخل موسكو إلى أن أموت، ولكن فى سبيل هذا أعمل أى شىء».

«ثم قال: «ويجب أن يعلم الجميع أننا نعوض نقصا كبيرا من ذاتنا، ولن يخذلنا الله مادمنا مؤمنين وعلى حق.. وإلا فإن مصيرنا التآكل إلى ما لا نهاية بدءا من العام القادم ..... ونحن فى وضع سيىء..».

ويصل السادات فى عنفه فى هذا الحوار حسبما يروى صاحب هذه المذكرات إلى أن يقول:

«وأنا قلت لصادق (هذه ثالث مرة يعيد تكرار هذا القول عما قال لصادق):

«إذا كان الوضع ميئوس منه ومعروض علىّ حل جزئى فلن أقبله.. حد غيرى يقبله».

ثم قال فى حزم مختتماً حديثه التاريخى الخطير:

«أنا مؤمن أننـا نستطيع عمل شـيء.. نموت ورأسنا فى آخر سماء، وخـاصة بعدما بذلنا كل ما نستطيع وبإخلاص، ولم أنم فى ليالى طويلة.. شعبنا مؤمن وطيب وأصيل وصلب، وأعطى ثـقة ثمنها كبيـر.. ومش ممكن أدخل فى الناس أى مـزايدة أو تهريج ولا قيمة للكرسى إذا لم يكن لى كرامة».

(٣٦)

ثم يروى صاحب المذكرات فـى اقتضاب بعض ما استطاع معرفته فـى تلك الليلة عن تفصيلات اجتماع الرئيس مع الوزير ورئيس الأركان فيقول:

«وخرج الـرئيـس السادات مـن قاعـة الاجتمـاعات إلـى طرقة خـارجيـة، ووقف يتحدث مع الفريق أول صادق ومعه الفريق الشاذلى ونزلت إلى الدور الأرضى على السلالم الرخاميـة الجميلة، متجهاً إلى باب الخروج ولـكن أحد أفراد الحرس الخاص استوقفنى حتـى أنتظر نزول الرئيس إلى الطابق الأرضـى فى المصعد وتم ذلك. ونزل الرئيـس السادات ودخل غرفـة مكتبه فى الـدور الأرضى، ومعه الفـريق أول صادق والفريق الشاذلى، وقفلوا باب المكتب [لايذكر الفريق الشاذلى عن هذه الواقعة شيئا مكتفيـا بحضوره الاجتماع الموسع فحـسب، مع أنه يذكر أن الرئيس استـدعاه بعد ما وصل إلى البـاب ليسأله عن المـوعد الذى يناسب عـقد زواج ابنته، وكان الـشاذلى قد ترك للســادات طلباً بهذا أخبرتـه به سكرتاريته عـلى نحو ما روى الرئيس لـلشاذلى] ونحن جلـسنا جميعـاً فى البهو ننظـر إلى بعضنا البـعض بنظرات نود أن نـقول أشياء ولكن الـسكوت من ذهـب..وفجأة اكفـهر الجو الداخـلى فى غرفـة مكتب الـرئيس السادات وسمعنا ضربـة قوية تمثل غضباً دفيناً، وصوت الرئيس الـسادات يلعلع بقوة لـم أستطع معـرفة مضمونها الحقيقى، ولـكننا جميعاً عرفنا، وفُـهم أن فى الجو زوبعة وعدم ثقة واهتزاز.. فخرجت إلى باب الدار مسرعاً إلى منزلى».

❑

كما يروى صاحب المذكرات بطريقة سينمائـية مؤثرة آخر التعليمات التى وصلته

من الـفريق صـادق قبل أن يـترك منـصبه، ومـن المهم أن نـلتفـت إلى ما تجـمع علـيه المذكرات الـتى بين أيدينـا فى هذا الكتـاب من المفاجأة الـتامة لهم من قـرار السادات عزل الفريق صادق، فالمشير الجمسى يعـلم بالخبر وهو فى سوريا، وكان من المفروض أن يرافق الـوزير صادق نفسـه فإذا بالوزير يطـلب منه أن يسـبقه إلى سوريـا على أن يلحق به فى اليوم التالى، والفريق الشاذلى هو الآخر يعلم بالخبر من الرئيس السادات نفسه دون أن يـدعوه السادات للمشـاركة فى القرار، إنما هو يـنهى إليه الخبر بـطريقة بروتوكولية باردة، وإن كان الدفء الوحيد فيـها أنه عرف بقرار الاقالة قبل أن يعرف به صاحبه بساعتين!

وهذا هو عبدالمنعم خليل هو الآخر يروى الوقائع بطريقته الجميلة فيقول:

«ولكن فى الغد الـساعة العاشرة صباح يوم ٢٥/ ١٠/ ١٩٧٢ اجتـمع بعض القادة مع وزير الحربية بمكتبه تكملة لاجتماع اتفقوا عـليه بعد منتصف الليل عندما اجتمعوا ـ بعد اجتماع منزل الجيزة ـ فى القيادة العامة لـلقوات المسلحة بكوبرى القبة بناءً على تعليمات من الفريق أول صادق، ولم يخطرنى أحد بهذا الاجتماع أو اجتماع الصباح إلا مصادفـة، وعلمت أن وزيـر الحربية أصدر تـعليمـاته فى الاجتمـاع التى تتـضمن النقاط التالية:

- إبلاغ تحليل الرئيس للموقف إلى مستويين أقل.
- الزمن آخر نوفمبر وربما آخر ديسمبر (يقصد زمن الاستعداد للقتال).
- القيام باستطلاع على طول المواجهة.
- الاستعداد لمواجهة الضرب الجوى بالدفاع السلبى أساساً».

«هذا كل ما وصلنـى كرئيس لهيئة تدريب الـقوات المسلحة من تعليـمات الفريق أول محمد صادق وزير الحربـية والقائد العام للقوات المسلحـة المصرية حتى يوم ٢٥ أكتوبر ١٩٧٢، وكانت هذه آخر تعليمات منه قبل إقالته وتعيين الفريق الشاذلى للقيام بأعماله إلى أن حلف الـفريق أول أحمد إسماعيل اليمين، وتولـى أعمال وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة».

وهنا يصل عبد المنعم خليل إلى بلورة آرائه فى قوله :

«وهكذا نفذ الرئيس ثورة التصحيح الثانية بتغيير وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة، وبعض القادة والضباط الذين تحدثوا فى الاجتماع يوم ٢٤ أكتوبر مؤيدين لما قاله الوزير صادق، أو تبين للرئيس السادات أنهم يقفون بجانبه، والله أعلم».

(٣٧)

هل لنا أن نعود الآن مع هذه المذكرات خطوتين إلى الوراء فمن المتوقع أن القراء الآن يريدون أن يروا كيف تتعرض هذه المذكرات بالتعليق (أو بالسرد على الأقل) للاجتماع الذى عقده الفريق فوزى فى أبريل ١٩٧١ بقادة القوات المسلحة، ومن الطريف أن صاحب هذه المذكرات يتحدث عن حركة ١٥ مايو ١٩٧١ بمسمى ثورة التصحيح، وفى بعض الأحيان يستدرك بأن هذه هى تسمية السادات لها، ولكنه على كل حال يلتزم بهذه التسمية فى أغلب الأحيان، وتؤكد الرواية التى تقدمها هذه المذكرات على ما أصبح متواتراً من أن كل القادة لم يوافقوا على فكرة الاتحاد بناء على ما عرضه عليهم الفريق أول فوزى إلا اللواء سعد الشاذلى قائد منطقة البحر الأحمر فى ذلك الوقت. ولكن ما يعنينا من رواية صاحب هذه المذكرات كلها عبارة غريبة أوردها فى السطر الثانى من حديثه عن هذا الاجتماع حيث ترك الأمور حائرة وترك الحسم فيها لله سبحانه وتعالى وحده، وذلك حيث يقول فى وصف أحداث مايو ١٩٧١:

«مساء يوم ١٨ أبريل ١٩٧١، أى قبل ٢٠ يوماً من ثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١، كانت بداية العد التنازلى لأحداث، قد تكون هادمة لإعداد القوى ورباط الخيل أو قد تكون أساساً جديدا لها، والله وحده أعلم».

ويبدو من هذه العبارة أن اللواء عبدالمنعم خليل يريد أن يفتح الباب للانتصار للفريق أول محمد فوزى وأن يشير إلى احتمال أن يكون دوره فى إعداد القوى قبل ثورة التصحيح قد تعرض للهدم! ومع هذا فإن عبدالمنعم خليل يكتفى بهذا القدر فحسب، مع أننا نكاد نتصوره ممن اصطفاهم محمد فوزى، ولم لا وقد وصل إلى

رئاسة الجيش الثانى مبكراً جداً فى عهد الفريق فوزى وقد رأينا أنه من حيث الأقدمية العسكرية يأتى بعد سعد مأمون وعبدالمنعم واصل اللذين توليا رئاسة الجيشين بعد ذلك.

❑

ولنقرأ ما يرويه صاحب هذه المذكرات عن الاجتماع (الذى أصبح فيما بعد تاريخيا) وقد كان أحد شهوده أى أحد الذين صوتوا مع الفريق فوزى ضد اتجاه الرئيس السادات، وسيدهشنا أنه يعترف بأنه كان فى مفاجأة تامة لهذا الاجتماع :

«جمع الفريق أول محمد فوزى المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى دعوة خاصة بمبنى القيادة العامة بمدينة نصر، بخصوص أخذ الفكر ممثلاً فى القوات المسلحة، فيما يخص جمهوريتنا سياسيا واقتصاديا وعسكريا واجتماعيا حتى نمثل جميعا وحدة فكرية واحدة. المطلوب الاستماع إلى الرأى الصريح عن ماهية الأمر الذى حدث أمس ١٧ أبريل (نيسان) ١٩٧١ فى بنغازى وهو اتحاد الجمهوريات العربية ويشمل مصر وسوريا وليبيا، نستمع ونسجل الرأى للجميع».. « هكذا بدأ وزير الحربية والقائد العام هذا اللقاء».

«ثم قال وزير الحربية: «الانسحاب الجزئى من سيناء لا يحقق فائدة لمصر أو للقوات المسلحة، ولذا نرفضه وحتى نزع سلاح سيناء».

«ثم قال: «فى ٢٦ نوفمبر ٧٠ وقعت مصر اتفاقية مع سوريا ووقعها الرئيس الأسد».

- قيادة سياسية للمعركة من الرئيسين.
- قائد عام للدولتين المتعاقدتين وهو وزير الحربية فى مصر، وهو مسئول عن القيادة والسيطرة ووضع الخطط والإشراف على تنفيذها».

«مطلوب معرفة الرأى العام فى الجيش (!!) وهل المجلس الأعلى يمثل القوات المسلحة فعلا. ونقط البحث هى:

- غير موضح قوة فرض الأحكام!.
- ما هى فوائده على مصر ومضاره .

ـ الوحدة الفكرية .

ـ الارتباط والتماسك مع القادة».

ويعترف اللواء عبدالمنعم خليل بكل وضوح أنه فوجىء تماما هو وزملاؤه بعرض مثل هذه الموضوعات السياسية على المجلس الأعلى للقوات المسلحة، ومع أن صاحب المذكرات لايصرح بالانتقاد ـ من باب المجاملة للفريق أول محمد فوزى ـ فإنه يوحى به ويقول:

«وضعت هذه الأسئلة أمامنا وكنت وبعض زملائى فى مفاجأة تامة لهذا الاجتماع، ولهذا الموضوع فهذه أول مرة يجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة لأخذ الرأى، ومناقشة هذه الموضوعات التى تعتبر سياسية بالدرجة الأولى».

«وتكلم بعض القادة لمناقشة الموضوع، ثم أخذ الوزير رأى الأعضاء فرداً فرداً.. ومعظمهم لم يوافق إلا اللواء سعد الشاذلى قائد منطقة البحر الأحمر العسكرية (فى ذلك الوقت) الذى أقر هذا الاتحاد».

(٣٨)

وتنفرد هذه المذكرات برواية مفصلة ودقيقة عن لقاء الرئيس السادات بقادة القوات المسلحة المصرية فى اليوم السابق مباشرة على بدء حركة التصحيح، وقد أجاد اللواء عبدالمنعم خليل تصوير جو هذا اللقاء وما دار فيه، وقدم لوحة معبرة عن إنذارات أو إرهاصات ما حدث، فهذا هو الرئيس والقائد العام يأتيان متأخرين جداً عن الموعد بل هما لا يأتيان إلا وقت الظهر، وهذا هو الفريق صادق لا يشارك الرئيس والقائد العام المنصة وإنما هو يجلس مع المستمعين خلافاً لما جرى عليه العرف على الدوام، وفى هذا التصوير الدقيق إيحاء قوى بنوايا الفريق صادق فى هذه اللحظة.

ثم هذا هو الرئيس السادات يتحدث فيشير إشارة لا بأس بها إلى أن الفريق فوزى ينتمى إلى مجموعة من الحرامية (أياً كان هؤلاء الحرامية)، ثم يصف الفريق عبدالمنعم خليل الغداء بأنه كان فخما من حيث منظره ورائحته، ولكنه كان بلا طعم..

كذلك ينبهنا الفريق عبدالمنعم خليل إلى أن الوجوم سيطر على القادة وهم على

مائدة الطعام، وقد اعتراهم صمت مخيف حتى أن الرئيس السادات لم يتكلم كلمة واحدة أثناء الطعام.

ولا يفوت صاحب المذكرات أن يشير إلى أن هذا كان آخر عهدهم بالفريق فوزى كوزير، إذ تم خلعه صباح اليوم التالى ليخلفه الفريق صادق وليخلف اللواء سعد الشاذلى الفريق صادق فى منصب رئيس الأركان:

«وكان هذا آخر لقاء رسمى مع الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة المصرية [حتى يوم ١٢ مايو ١٩٧١]، حيث دعا الرئيس السادات قادة القوات المسلحة إلى اجتماع فى قاعدة بلبيس الجوية، حوالى الساعة التاسعة صباحاً».

«وصل عدد كبير من ضباط القوات المسلحة المصرية إلى صالة الاجتماعات بقاعدة بلبيس الجوية، تلبية للأوامر القاضية بحضور قادة الجيوش الميدانية وقادة التشكيلات حتى مستوى اللواءات، وقادة القواعد الجوية وقادة الأسراب، وقادة التشكيلات البحرية، وتشكيلات الدفاع الجوى، وعدد كبير من ضباط الجيشين الثانى والثالث والمنطقة العسكرية المركزية».

«وانتظرنا وصول الرئيس السادات فى قلق إلى أن وصل حوالى الساعة ١٢ يرافقه الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية والقائد العام والفريق محمد أحمد صادق رئيس الأركان، وكنت أول مَنْ استقبلهم بحكم أقدميتى كقائد للجيش الثانى، وأقدم الحاضرين، وسلم علىّ وعلى وجهه ابتسامة ساخرة لا تشعرك إلا بالقلق، ودخل إلى قاعة الاجتماعات، وتوجه مباشرة إلى المنصة الرئيسية، وجلس وبجواره الفريق أول محمد فوزى على الجانب الأيسر، أما الفريق صادق فقد اختار الجلوس معنا فى الصف الأول، ولست أدرى لماذا لم يجلس على يمين الرئيس، كما يحدث فى كل المؤتمرات وحسب المراسم العسكرية!!».

«وبدأ الرئيس باسم الله يتحدث.. وشرح الموقف السياسى، ثم عرج إلى قصة حدثت له وهو يوزباشى (نقيب) فى سلاح الإشارة وكان معسكر الإشارة فى منطقة ألماظة ويجاوره معسكر وحدة مدفعية ميدان، وكان جنود معسكر المدفعية يسرقون بعض معدات الإشارة وأهم ما سرقوه جهاز لاسلكى كان فى عهدة اليوزباشى

محمد أفندى أنور السادات (هكذا قال)، ثم نظر إلى يساره حيث يجلس الفريق أول فوزى وزير الحربية والقائد العام وهو أصلاً ضابط مدفعية وقال بسخرية: «كلهم كانوا حرامية»، وابتسم ابتسامة صفراء وضحك جميع الحضور بصوت مرتفع. [ينبغى هنا أن نشير إلى أن الفريق فوزى قد تناول هذه الواقعة فى مذكراته باختصار شديد مشيراً إلى أنها قصة مكررة] واستمر المؤتمر أكثر من ٣ ساعات فى موضوعات سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية، ثم تناولنا طعام الغداء حوالى الساعة الرابعة فى نادى كلية الطيران، وجلسنا على مائدة واحدة تصدرها الرئيس السادات وعلى يمينه أعتقد اللواء طيار حسنى مبارك، ثم عن يساره الفريق أول فوزى، وقائد الجيشين الثانى والثالث، وكان الطعام فخماً منظراً ورائحة، ولكن لم يكن له طعم. فالجميع كانوا فى صمت مخيف. لم يتكلم الرئيس كلمة واحدة أثناء الطعام لمدة ساعة، وبعدها غادر المكان وركب معه الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية، وكان هذا آخر عهدنا به كوزير للحربية، ثم تبعه الفريق محمد صادق فى سيارة الوزير محمد فوزى متجهين إلى القاهرة».

«وانفض الاجتماع ولكن كلمات السادات واتهامه لرجال المدفعية أنهم حرامية كانت مسار غمزات ولمزات بين الجميع فى ضحكات منوعة المعانى، وكنا لا ندرى أنه كان نهاية هذا الضحك علقة.. على رأى المثل.. وفى صباح يوم ١٣ مايو ١٩٧١ فوجئنا بخلع الفريق أول محمد فوزى من الوزارة وتعيين الفريق محمد صادق وزيراً للحربية، وتعيين اللواء أ.ح سعد الشاذلى رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة».

(٣٩)

ومما تنفرد به هذه المذكرات أيضا (وإن شاركتها بقدر ما مذكرات الفريق الشاذلى) ما يرويه صاحبها عن تفاصيل أول لقاء للرئيس السادات بقادة القوات المسلحة بعد أن أتم حركته التصحيحية، وسنلاحظ أن الرئيس ـ حسبما ترويه هذه المذكرات ـ أعطى كل وقته فى هذا اللقاء للحديث عن المعاهدة المصرية ـ السوفيتية،

وكان حريصاً على أن يطمئن القادة على أن مصر قادرة على أن تفيد من المعاهدة دون أن تتورط بسببها فى الدخول فى منطقة النفوذ السوفيتى.

وأكاد ألمح أن السادات ـ الداهية ـ كان حريصاً على أن يظهر لـلفريق صادق وهو رجله الجـديد أنه ـ أى الرئـيس ـ متشـبع بآرائه، ولـو أنى كنت مـكان الفريـق صادق يومـها ما أسعـفتنى الـدنيا بالابـتهاج، فـهذا هو رئيـس الجمهوريـة يحدث القـادة بما حدثتهـم به من قبل وأنا رئيـس للأركان، ولكنه من موقـع الرئيس يضيف إلـى المسألة أبعاداً أعمق وتصويراً أقرب للواقعية:

«وكان أول لقاء لنا مع الرئيس السادات يوم ٣ يونيو ١٩٧١ بعد الثورة التى قام بها وارتبـطت باسمـه وأسماها هـو شخصيـا «ثورة التصـحيح»، فقـص علينـا ـ قراءة ـ ملـخصا لأقـوال السـيد أحمـد كامل مـدير المخابـرات العامـة سابـقاً، وكذا بـعض تسجيـلات المتآمرين ثم عـرض إلى الموقف السياسـى والعسكرى، قال: «عـن المعركة إنها واجبنا الأول وتسير فى ٣ خطوط متوازية:

١ ـ البناء العسكرى للمعركة.

٢ ـ الجهد السياسى فى كل الميادين لخدمة المعركة.

٣ ـ بناء الدولة الحديثة على العلم والإيمان.

«لقد طلبت المعاهدة بناء على شيئين:

«عاجـل: وهو حـاجتـى إلى مـعدات لـلمـعركـة، وهذا يـربط الـشرف الـروسى بالمعركة».

«آجل: وهو بناء الدولة الحديثة».

«ثم قال: «نحن لا نملك أن نتخلف أبـداً.. الحرب الحديثة.. العلم الحديث.. وكل يوم فيه تقدم، وأنا فى حـاجة إلى العلم الحديث وهو متكامل فى روسـيا وأمريكا ليس فقـط للحـرب، ولكن لـلسلـم والصناعـة أيضاً، وبـهذا سأنـتج هنـا الذخيـرة.. وفى السنوات الخمس القادمة سأستكمل صناعتى تماماً».

«أنا محتـاج للروس ليس فقط إلى ١٥ سـنة ولكن إلى ٣٠ سنة. ونـحن فى حرب صليبـية جديدة قد تطـول إلى أكثر من خمـسين سنة. ولكـن علينا إعادة إسـرائيل إلى حدودها، وبناء الدولة على العلم الحديث والإيمان».

«ولا تخشوا من النفوذ الروسى.. لا يمكن للمصريين أن يتحولوا إلى شيوعيين. يستحيل أن نذوب فى أى شعب.. ولا يستطيع أحد أن يملى علينا أى شىء مهما كان، وقد قال نيكسون: «إن أمريكا تضمن تفوق إسرائيل إلى الأبد!»، وبهذه المعاهدة سنقول لأمريكا لا.. سنبنى الدولة العصرية نداً للند».

(٤٠)

ويبدو من الواضح لنا أن صاحب المذكرات لم يستطع استيعاب ما يقصده السادات بحديثه إلى القادة فى يونيو ١٩٧١ عقب حركته التصحيحية، ومعه حق بالطبع، فقد كان السادات فى ذلك الوقت يمزج فى أحاديثه بين آفاق كثيرة ومتعددة بل ومتعارضة، ومع هذا فقد كان فيما بينه وبين نفسه يعرف طريقه وإن لم يصرح به، وسوف ترينا هذه الفقرات التى ننقلها من هذه المذكرات مدى صدق هذا الذى أدعيه:

«الحقيقة أن الرئيس دخل فى هذا الموضوع بطريقة محيّرة حقاً، فقد قال: «إنى مؤمن بأنه لابد من المعركة يوما ما، ولكنى لو تمكنت من عبور قواتى دون دم، ثم أقاتل فى سيناء فهو ما أعمل به الآن وأستكمل مع روسيا كل شىء ينقصنا».

«هنا تذكرت ما قاله لنا قبل ذلك: أريد من روسيا أن تعطى.. وأريد من أمريكا أن تحل.. وأعتقد أنها معادلة صعبة أن يكون لرجل قلبان فى جوفه!!!».

«ثم عاد الرئيس إلى تصريحات الرئيس نيكسون الذى قال:

«يجب أن تكون قناة السويس هى المفتاح الذى تحل به القضية كلها».

«وشروطى هى.. هكذا قال السادات رداً على تصريحات نيكسون:

- عبور قواتى قناة السويس.
- وقف إطلاق النار ٦ أشهر.
- الحدود الدولية الأصلية.

«ثم قال: «ولكن لابد من المعركة إما فى العبور أو بعده».

«وهنا يرى أى محلل عسكرى أن هذا ينطبق على تصريحاته السابقة أنه لا يريد إلا ١٠ سنتيمترات فقط من الضفة الشرقية والباقى يحل سياسياً أى عملية عبور قناة السويس حتى عمق ١٠ كيلومترات وهو ما حدث فعلاً فى حرب رمضان».

وإذا عدنا فى كتابنا هذا إلى الباب الثانى الذى عرضنا فيه مذكرات الفريق الشاذلى فسوف نجد تلك المذكرات وقد تناولت هذه التصريحات برؤية أخرى، وسنرى الشاذلى أكثر إدراكا للآليات التى يريدها السادات وإن كان عبد المنعم خليل أكثر إدراكا لأهداف السادات، دون أن يفهم كيف يمكن أن تجتمع هذه الأهداف معاً على نحو ما يروى هو .

(٤١)

ومع أن هذا الكتاب يدور في جوهره وروحه حول الانتصار العظيم الذى حققناه فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣، والذى لولاه ما كان هذا الكتاب ولا غيره، فإننا لا نجد الانجازات العسكرية المصرية فى هذه الحرب تفرض نفسها على الكتاب، وهذا من ذكاء صاحب المذكرات الذى استطاع أن يجعل دراما إعداد القوى تمضى فى طريقها دون أن تكون حرب أكتوبر بمثابة نهايتها، وإنما هى نقطة مضيئة ومضيئة جداً على الطريق. وليست الانجازات العسكرية فى حرب ٦ أكتوبر على أية حال بحاجة إلى تمجيد المؤلف أو إلى تمجيدى لها، ولكنى سأكتفى بنقطتين تبينان مدى الإنجاز العسكرى فى هذه الحرب المجيدة، النقطة الأولى عن استخدام الأسلحة المضادة للمدرعات، والثانية عن استخدام المدفعية.

أما اللقطة الأولى التى اخترتها للقارئ ففيها يلقى صاحب هذه المذكرات كثيراً من الضوء على الإنجاز العسكرى الذى تحقق فى أثناء حرب أكتوبر، وعلى سبيل المثال فإنه بعد دراسة ومقارنة يكتشف أن ما ألقى من قذائف المدفعية كان يجاوز فى طاقته التدميرية قنبلة هيروشيما:

«وبينما لم تتجاوز زنة ما ألقته المدافع والهاونات فى أى فترة تجهيز نيرانى خلال الجولة الأولى مجرد الخمسة أطنان أو العشرة، إذا بها تتضاعف فى الجولة الرابعة ألف

مرة فتبلـغ زنة ما ألقته المدفعية المـصرية والهاونات والصواريخ الأرضـية والمقاتلات القـاذفة، على امـتداد ٥٣ دقيقـة عصر الـسادس من أكتـوبر ١٩٧٣ الثلاثـة آلاف طن بقرب بطـن حصون بارليف. أما مـا صبته على امتـداد أيام الجولة الاثنين والـعشرين فقد تجاوز ٢٥ ألف طن من المواد شديدة الانفجار، فتسـاوت قوتها التدميرية مع قنبلة هيروشيما أو كانت أشد أثراً».

وأما اللقطةالثانية التي نختارها من هذه المذكرات عن انجازاتنا العسكرية في حرب ٦ أكتـوبر المجـيدة فـهي إحـدى الفـقرات الـتي يـتحـدث فيـها المـؤلف عـن جدوى الاستخدام الجيد والمبتكر للسلاح المضاد للمدرعات:

«بهذا الاستخدام المبتكر للسلاح المضاد للدبابات في مواجهة التشكيلات المدرعة، اكتسب المدفع ـ وهو سلاح دفاعي ـ قوة هجومية ذات تأثير فعال بقدر ما حُرِمَ سلاح هجومي ـ الـدبابة ـ من بعض قـوته الهجوميـة، على نحو ما أثبتته مواقف الـقتال في حرب رمضان المجيدة على جبهة القتال في يومين بارزين من سجلها القتالي:

«يوم الأثنيـن ٨ أكتوبر ١٩٧٣ عندما تحطـم الهجوم المدرع للجـنرال أبراهام آدان، على صخرة الدفاع المضاد للدبابات على مسافة ١٠ كيلومترات شرق قناة السويس».

«يوم الأحد ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ عندما تحطمت المفارز الخمس المصرية التي انطلقت بمهمة تطويـر الهجوم إلى مضايق سيناء الـغربية على صخرة الدفاع المـضاد للدبابات وقذائف الطائرات الإسرائيلية التي وجدت في الدبابات المصرية صيداً سهلاً، بعد أن خرجت عن مدى حماية غابة الصواريخ غرب القناة، ولم تكف كتائب الدفاع الجوي القليلة التي صاحبتها لتوفر لها الحماية المطلوبة».

«فأما الموقف الأول.. فقد بـدأ بوصول الفريق دافيد اليعازر إلى مـركز قيادة اللواء شمويل جونـين قائد جبهة سيناء مـساء ٧ أكتوبر ١٩٧٣، يرافقه الفريـق إسحق رابين ليعتمد خطة الهجوم المضاد العـام، ويحدد المهام للواءات آدان وشارون وماندلر التي بدأوا في تنفيذها فجر يوم ٨، وقد شرح العـقيد عساف ياجوري تفصيلات ذلك في جريدة معاريف يوم ٧ فبراير ١٩٧٥ قائلا: «إن خـيبة الأمل التي أصابت كل من عاش وسط أحداث ذلك اليوم الأسود، لن تنمحي ذكراها من الأذهان. لقد حطم المصريون هجومـنا المضاد، وأصبـح هذا اليوم هو يوم الـدم والألم وخيبة الأمـل عندما انقـلبت

الدنيا رأساً على عقب بمجرد أن بدأنا الهجوم، إذ كان المصريون فى انتظارنا، وما أن دخلت دباباتنا فى مرمى أسلحتهم المضادة للدبابات حتى انطلق الجحيم الذى ذابت داخل أتونه دباباتنا، وظهر جلياً أن المهمة التى أوكلت إلينا لم تكن تناسب الواقع الفعلى فى الميدان».

« وأما اللواء أرييل شارون فيذهب إلى أبعد مما قاله عساف ياجورى، إذ يقرر فى الصفحة ٣٩٦ من كتابه عن الجولة الرابعة:

«إن جنود مصر الذين واجهونا فى ذلك اليوم كانوا أول مشاة فى العصر الحديث ينجحون فى صب النيران القاتلة التى أذابت هجوم مدرعاتنا، وردت القليل الذى نجا منها على أعقابه. لقد كان الثامن من أكتوبر كارثة حقيقية وكابوساً لرجال الدبابات،إذ لم يكتف المصريون بصد لواءاتنا المدرعة، بل أصروا على نتف ريشها. والحقيقة أن محنة ٨ أكتوبر أغرقت القيادة العليا للجيش فى حالة من الذهول، حتى إنها لم تعد تدرى ما ينبغى فعله».

ويمضى شارون فى القول:

« وفى ١٢ أكتوبر أوصى دافيد أليعازر بوقف النار بعد أن وصلت القوات الإسرائيلية المحاربة إلى حالة حرجة، ولكن كيسنجر اعتبر أن وقف النار عندئذ سوف يضع إسرائيل والولايات المتحدة فى موقف ضعف على طاولة المفاوضات. لذلك طالب كيسنجر السيدة مائير أن ترفض الحكومة الإسرائيلية طلب وقف النار ليتاح لجيش إسرائيل تحسين موقفه. وفى أثناء اجتماع مجلس الوزراء مساء ١٢ أكتوبر.. أعلن ديان أنه إذا كان الفريق أليعازر يوصى بوقف النيران فليس هناك سبب لتدخل كيسنجر فى قرار الحكومة. وغرق مجلس الوزراء فى بلبلة عميقة جعلته يقبل توصية أليعازر، إلا أن المصريين رفضوا العرض، ونلقت فرقتاهما الرابعة والحادية والعشرون المدرعتان الأمر بتطوير الهجوم فتحول الموقف فى المسرح لصالحنا».

«لقد دفعت المدرعات الإسرائيلية ثمناً باهظاً، نتيجة الغرور الذى أصابها بنصر صيف ١٩٦٧، وكان حجم هزيمة ٨ أكتوبر من الشدة بما جعل ديان يعترف إلى رئيسة الوزراء فيقول لها: «جولدا.. لقد أخطأت فى كل شيء، ولم يبق أمام إسرائيل إلا الانسحاب إلى المضايق».

ومن أهم الموضوعات التى تحظى بعناية وتحليل واستقصاء صاحب هذه المذكرات تفاصيل العلاقات المصرية مع الاتحاد السوفيتى فى مجال التعاون العسكرى ووحدات القوات المسلحة والتسليح والآثار المتبادلة لهذا التعاون على السياسة المصرية تجاه الاتحاد السوفيتى.

ويروى صاحب هذه المذكرات حديثاً مهماً لعبدالناصر عن الخبراء السوفييت يصرح فيه الرئيس الراحل بأنه هو صاحب الفكرة لأنه يريد أن يقاتل ولابد للقتال من التعلم، كما يثبت صاحب المذكرات أن عبدالناصر كان واعياً للمحاذير التى تثار بسبب وجود الخبراء السوفييت وأنه كان واثقاً من أنه لن يمكن للسوفييت السيطرة علينا ولكن لابد لنا من تقديرهم وتقدير موقفهم وحل مشكلاتنا معهم أولاً بأول:

«وقال عبدالناصر:

«كان الواضح من زيارة بدجورنى أن مشكلتنا الأساسية هى الدفاع الجوى والطيران، واستراتيجية إسرائيل مبنية على أساس الاحتفاظ بالتفوق الجوى لعدم إمكانها الدخول فى سباق لباقى الأسلحة الأخرى، ويجب أن يكون المستشارون السوفييت مسئولين مسئولية مباشرة لأجل السمعة العسكرية السوفيتية وطلب من المستشارين المشاركة فى تقدير الموقف الحالى، وتوضيح نقط الضعف وكيفية التغلب عليها، وإمكانية الاستمرار فى حرب الاستنزاف ضد العدو، وإجراءات تقليل خسائر الاستنزاف المضاد والخروج بخطة واضحة للاستنزاف».

«وقال عبدالناصر عن العلاقة مع المستشارين:

«إنها مهمة جداً ويجب تعبئتهم معنا بأى ثمن ونحن فى أمس الحاجة، لقد أرسلوا أولادهم إلينا هنا ليموتوا ويجب تقديرهم تماماً.. نريد أن تكون العسكرية السوفيتية معنا دائماً.. أى مشاكل معهم يجب حلها أولاً بأول، ونحن فى يدنا كل شيء.. ولن يسيطروا علينا أبداً.. وفكرة الخبراء هى فكرتى، وأنا صممت على هذا لأننا نريد أن نتعلم وأمامنا معارك كبيرة جداً، وليس أمامنا إلا طريقان: أن نستسلم أو نقاتل».

(٤٣)

ويحرص صاحب هذه المذكرات على تأكيد وجهة نظره القائلة بحرص الرئيس عبدالناصر الشديد على توريط السوفييت فى معاونة مصر، وأن الرئيس عبدالناصر كان يصدر فى هذا عن فهم استراتيجى صائب لتوريط البيت الأبيض الأمريكى فى حل المشكلة، ومع أن هذا الرأى قد يبدو صوابا وقد يكون حقيقياً، إلا أن الرئيس عبدالناصر نفسه لم يكن يراه أو على الأقل لم يكن يصرح به، إنما كان الرئيس عبدالناصر يصرح بأننا لابد أن نقاتل وإلا سوف نستسلم ولهذا استعنا بالسوفييت:

«ولهذا كان وقع خبر وصول قوات الدفاع الجوى السوفيتى لحماية سماء مصر من غارات العمق شديداً على كل من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، التى كان أشد ما يزعجها أن ينجح الكرملين فى تثبيت قدمه فى الشرق الأوسط نتيجة هذا التدخل العسكرى الضخم فى الصراع الدائر فيه، ولهذا بادرت إلى تعديل سياستها إزاء مصر، ثم راحت تطرح المبادرات التى تحمل حلولاً وسطاً للمشكلة».

«وبمجرد أن درأت قوات الدفاع الجوى السوفيتى خطر غارات العمق الإسرائيلية عن مصر، انكمش تفوق إسرائيل الجوى وفقد عنفوانه فى نفس الوقت الذى برزت فيه احتمالات وقوع المصادمة مع الاتحاد السوفيتى بما قد يؤدى إلى حرب عالمية. وكان هذا الاحتمال أحد الأسباب التى دفعت الولايات المتحدة إلى طرح مبادرتها، بعد أن ضعف الموقف السياسى والعسكرى الإسرائيلى وسبّب لها بعض الحرج».

ثم يصرح عبدالمنعم خليل بما يريد أن يعبر عنه ويقول:

«وتكشف تلك الحقائق عن أن تدخل السوفييت كان هدفاً أساسياً، عمل له الرئيس عبد الناصر بكل همة ليدفع البيت الأبيض إلى إعادة تقدير موقفه من الصراع، والعمل على منع وقوع صدام جديد بين الخصمين، مع الحد من استفحال الوجود العسكرى السوفيتى فى المنطقة، الذى اقترب من الحصول على قواعد عسكرية فيها، وذلك عن طريق إقناع غالبية الدول العربية بأن الولايات المتحدة هى الأقدر على الوساطة فى شأن الحل الوسط الذى يرضى كافة الأطراف، بل والأقدر على تنفيذه بما لها من دالة على إسرائيل. ولأنها المورد الرئيسى لإسرائيل بالأسلحة والمعونات

الاقتصادية والثقافية، وبالمؤازرة السياسية، والضامن لها باستمرارالتفوق الجوى والالكترونى على العرب.. فقد نجحت الولايات المتحدة فى دفع إسرائيل لبدء ديالوج التفاوض الذى مهد له وليم روجرز وزير خارجية الولايات المتحدة بالمبادرة التى حملت اسمه، وذلك رغماً عما نصت عليه ضمناً من قبول إسرائيل الانسحاب من الأراضى التى احتلتها عام ١٩٦٧، وهو ما كانت تصر قبل ذلك على رفضه».

(٤٤)

على هذا النحو نرى اللواء عبد المنعم خليل وهو يسجل فهمه للجوانب المختلفة فى علاقتنا بالسوفييت أقرب الناس إلى الصواب ، فهو حريص بكل ذكاء وبكل منطق على أن يثبت أن الرئيس عبدالناصر هو الذى سعى إلى توريط السوفييت فى الحرب وفى الوجود العسكرى فى مصر ، وهو يروى على هذا أدلة قاطعة الصواب من الناحية العقلية ، ويضيف إلى هذه الأدلة ما سمعه هو وشاهده وحضره ، ومن ناحية أخرى نرى عبد المنعم خليل واعيا جداً لمدى العنت الذى لقيه الرئيس السادات من السوفييت، وهو يقدر مدى معاناة السادات ويقدر أكثر من هذا حنكة السادات فى التعامل مع السوفييت حتى حصل منهم على أقصى ما كان بإمكانه أن يحصل عليه ، وهو لاينساب إلى نتائج التفكير النظرى القائل بأن السادات أخطأ فى طرد السوفييت وما إلى ذلك من أفكار جامدة، وإنما هو يعنى بما هو أهم من هذا وهو سياسات التسليح نفسها، وتتميز ألفاظه فى وصف موقف السادات بدقة لايرقى إليها تعبير لأحد غيره، يكفيه قوله على سبيل المثال : «صمم السادات على ألا يسلم للسوفييت» ولنقرأ النص التالى، وسنؤجل التعليق عليه إلى أن ينتهى القارىء من مطالعته:

«صمم الرئيس السادات على ألا يسلم أبداً للسوفييت مهما كان.. وصمد ضد قيادتهم ١٤ شهراً إلى أن زار جروتشيكو مصر، وطلب من السادات أن يسلم روسيا طائرات الميراج التى أخذتها مصر [يقصد: التى حصلت عليها] واعتبرتها روسيا

خيانة مـن مصر لأنها تنـوع مصادر الأسلحة!! [ذلـك لأن الميراج كما نعـرف طائرة فرنسية أي غربيـة وقد كانت بداية الانفتاح على الغرب في الحصول على الأسلحة] ووعد بإرسال عدد كـبيـر من الطـائرات وفعـلاً وصلنـا ٢٥ طائـرة في شهـر واحد، ووصل أخيراً ١٥ طائرة ثم ٦ طائرات يوم ٤ مارس يعني حوالي ٤٠ طائرة في شهر».

«وهنا قال السـادات تعليقاً على هـذا: «كان لازم أصمد وأصر على موقـفي مهما كان السبب وبالنسبـة لي كان هذا فاصلا!! ولكن الاتحاد السوفيتي سلم تـكتيكياً فقط وهو يحاول تغييـر النظام بأي وسيلة ضدي وأنا والله مـا عاوز شيء ضد مصر ... لم أضع الـكرسي أبـداً في الحسـبان ... أحط مـصر دائمـا في الحسـاب!! هو [يقـصد الاتحاد السوفـييتي] عاوز نظام مـوالي له.. هم غيروا الـتكتيك فقط، لأنـهم شعروا أن فرنسا قالت لنا كما قالت في بيان رسـمي إنها ستعوض مصر ما فقدته من أسلحة».

قد يبـدو للقارئ أن هـذا النص يتحـدث عن العلاقـات المصرية السـوفييتـية في ١٩٧١ أو ١٩٧٢ و ١٩٧٣ ولكـن الحقيقـة أن عبدالمـنعم خـليل يتـحدث به عـن هذه العلاقات بعـد حرب أكتوبر، والأربعة عشـر شهراً المشار إليها فـي السطر الأول هي الشهور التي مضت منذ حرب أكتوبر نفسها، ومارس المشار إليه في النص هو مارس ١٩٧٥، ونحن نـستطيع أن نفـهم من هذا النص مـعنيين مهمـين الأول هو أن الاتحاد السوفييتي كان لايزال يمدنا بالأسلحة بعد حرب أكتوبر ولكن على طريقته في جدولة الأسلحـة، واشترطاته، أما المـعنى الثاني فـهو أنه حتى بعـد أن تم تحقيق نصر أكـتوبر كانت الشـكوك بين السوفـييت والسادات لاتزال مشـتعلة، وها هو الـسادات يحادث قيادات القوات المسلحة بمرارته من السوفييت الـذين يحاولون على حد تعبيره «تغيير النظام ضده بأي طريقة».

(٤٥)

ويصـل صـاحب المـذكرات إلى تـلخيص الأسـباب المباشرة التي دعت الرئـيس السادات إلى أن يأخذ قراره بالاستغناء عن المسـتشارين السوفييت في ٧ يوليو ١٩٧٢،

وتنفرد المذكرات بذكر بعض التفصيلات المهمة التي سبقت هذا القرار وأن أحداً لم يطلع عليه غير الوزير صادق والفريقين محمد حسني مبارك ومحمد على فهمي، وهو ما يعني ضمنا أن الفريق الشاذلي نفسه [وهو رئيس الأركان] لم يعلم بهذا القرار، ويبدو أن هذا قد حدث فعلاً فنحن لا نجد في مذكرات الشاذلي أية إشارة إلى معرفة مبكرة بالقرار:

«بناءً على اتفاق الرئيس السادات وبريجنيف على الخط الاستراتيجي، قبل السادات أن لا يقوم بأي أعمال عسكرية قبل ٧ نوفمبر ١٩٧٢، وهو موعد الانتخابات الأمريكية ونأخذ ٥ أشهر لتشوين ما نريد للمعركة حتى ٣١ أكتوبر ١٩٧٢، وبذا تقف مصر على أرض صلبة استعداداً للحل السياسي.. وفي مايو ١٩٧٢ حضر جريتشكو وعرض الطائرة ميج ٢٣ ومعه بيان مكتوب لإذاعته بشأن زيارته لمصر (عملية سياسية دعائية)، ووافق الرئيس السادات على نشره وأعطى جريتشكو نيشاناً، واحتفلوا به، وكان هذا البيان السياسي الروسي لإعطائهم مركز قوة في شهر مايو مع نيكسون».

«ورغم هذا فقد أعطى السادات إلى جريتشكو رسالة مكتوبة محددة إلى بريجنيف من ٧ نقاط عن الميج ٢٣، وعمرة الموتورات، والدفع بالعملة الصعبة، ومدى احتياجنا للحرب الإلكترونية والبحرية إلخ.. ثم بند ٦ الخاص بالقيادة والسيطرة، وفيها أساساً أن السادات لا يسمح مستقبلاً أو في المعركة أن تكون في مصر وحدات سوفيتية ليست تحت القيادة».

«وانتظر السادات رد بريجنيف الذي وصل يوم ٦ يونيو ١٩٧٢، ولكنه كان كلاماً شكلياً.. ورد السادات عن طريق السفير أن هذه المسائل يجب الانتهاء منها قبل ٣١ أكتوبر ١٩٧٢. وانتظر السادات الرد حتى ٢٥ يونيو، ولم تصل مواعيد المراكب للتشوين حسب الاتفاق. ولما لم يصل الرد.. قرر السادات يوم ٧ يوليو ١٩٧٢ إنهاء مهمة المستشارين السوفييت في مصر، ولكنه لم يعلنها إلا للوزير صادق والفريق حسني مبارك والفريق محمد على فهمي لموضوع الطيران والصواريخ فقط، ويوم ٨ يوليو ١٩٧٢ قابل السادات السفير السوفيتي وقال له قراراته:

- إنهاء مهمة المستشارين حتى ١٧ يوليو ١٩٧٢ .

- الوحدات السوفيتية توضع تحت قيادة مصر أو تعود .

ـ أملاكهم هنا تباع لنا أو تعود .

ـ جولة مفاوضات قادمة بعد تنفيذ هذه القرارات بناءً على المعاهدة للمستقبل.

وبعد هذه القرارات، والتى ظن الروس أنها عملية تهويش.. بدأ الرئيس السادات يستكمل حساباته. وعلى حد قوله بدأ يتنفس فى هدوء، ولكنه أخذ يفكر فى الصورة التى ستحدث بعد انتخابات أمريكا، علماً بأن روسيا ستحاول الحفاظ على صداقة مصر وبضياع مصر ينهار موقفهم، ولذا قالوا إن سياستهم مساندة مصر على أساس الآتى:

ـ لا عسكرى سوفيتى يحارب معركتنا .

ـ لا نسعى لمواجهة بين روسيا وأمريكا .

ولما استجاب الروس لإمدادنا ووصلت عناصر منها قبل أن يعلن السادات القرار الخطير فى ٣١ أكتوبر ١٩٧٢ بإنهاء المعاهدة وإنهاء التسهيلات كورقة أخيرة فى العلاقات الروسية ـ المصرية، ولكنهم تعهدوا بالتعاون كأصدقاء على قدم المساواة وبالشروط التى تطلبها مصر».

❑

وفى كثير من المواضع فى هذه المذكرات يبدو صاحبها وهو متعاطف أشد التعاطف مع الرئيس السادات وهو يعانى من سلوك السوفييت تجاهه وتقصيرهم فى إمداد مصر بالسلاح، ومن هذه المواضع قوله:

«ولما انتهى عام الحسم ١٩٧١ ولم يصل ما سبق الاتفاق عليه من الإمدادات حتى أنهم أجلوا بعض أصناف المفروض وصولها عام ١٩٧٢ إلى عام ١٩٧٣.. رأى السادات ـ رغم هذا ـ استمرار التفاهم مع روسيا ومراجعتهم فيها بهدوء، وقرر السفر إلى موسكو مرة أخرى لإيجاد حل جذرى خاصة لخط الإمداد بالأسلحة».

(٤٦)

بعد كل هذا الاستعراض لتاريخ القوات المسلحة والسياسة المصرية فى عهد

السادات هل لنا أن نعود مع اللواء عبدالمنعم خليل إلى حديث هذه المذكرات عن قواتنا المسلحة فى أخريات عهد عبد الناصر.

يتحدث عبدالمنعم خليل بسعادة ورضا عن الروح التى سادت قيادة القوات المسلحة فى الفترة التى أعقبت حرب ١٩٦٧ مثنياً على تصرف وزير الحربية فيما بعد نكسة ١٩٦٧ وهو يبخل علينا بتحديد اسمه وأظنه فى الغالب يقصد أمين هويدى، لأن محمد فوزى لم يتول الوزارة إلا فى يناير ١٩٦٨، بينما كان الفريق فوزى فى ذلك الوقت قائداً عاماً فحسب، ولكنى مع هذا لا أستطيع الجزم. وهو يمتدح بشدة تصرف هذا الوزير [أيا كان] الداعى إلى اللامركزية ويقول:

«ودارت عجلة التجهيزات الهندسية باستخدام المعدات الميكانيكية وإنشاء المواقع التبادلية، والمواقع الهيكلية للدفاعات المختلفة ومرابض الأسلحة والمعدات، ومواقع القيادات.. إلخ».

....

«ولقد تحطم الروتين المعطل لكل شىء بقرار أصدره وزيرالحربية، بإعطاء قادة الجيوش سلطات تحطيم الروتين فى سبيل أمن المعدات والأسلحة بعد أمن القوات، إذ صرح قائلاً:

«لن أعترض على أي إجراء يتم من قائد الجيش شخصياً يعود على الوزير بتكاليف طالما أن هدفه هو وقاية وأمن القوات».

(٤٧)

أما رأى صاحب هذه المذكرات فى حرب الاستنزاف فرأى يتميز بالذكاء والمعقولية، وهو لا ينظر إليها من جوانبها المعنوية فحسب، ولكنه يحلل ما فيها من جوانب عسكرية، فهو يراها أول جولة من جولات الحرب مع العدو تتمتع بالتكافؤ بين قوات الطرفين، كما أنه يراها حرباً متعددة الوجوه من حيث حلبات الصراع ومتنوعة الأشكال، ومن ناحية ثالثة يراها مجهدة لإسرائيل حيث اضطرتها إلى الاحتفاظ بنسبة تعبئة عالية ولمدة طويلة.

ولنقرأ هذا التحليل المتميز الذى يقدمه هذا القائد بعد دراسة وتأمل:

«وقد تميزت حرب الاستنزاف التى استمرت أكثر من ألف يوم بأنها أول صراع يدور فى مسرح الشرق الأوسط، بين قوات شبه متكافئة فيما تملكه من أسلحة ومعدات، وتواجهه من فرص قتال، وذلك على خلاف ما حدث فى الجولات الثلاث السابقة، عندما واجه ثمانون ألفاً من جنود الصهاينة ثلاثين ألف عربى فى الجولة الأولى فتجاوزت نسبة تفوقهم العددى على العرب ٢,٦ : ١، ثم ارتفعت تلك النسبة فى جولة خريف عام ١٩٥٦ إلى ٨ : ١ عندما حشدت إسرائيل وبريطانيا وفرنسا جنودها وسفنها وطائراتها لتسقط الحكم فى مصر، وتعيد الاحتلال الإمبريالى لأرضها وتنزع ملكية شركة القناة المؤممة».

«وفى الجولة الثالثة صيف عام ١٩٦٧ كان لإسرائيل فى المسرح ربع مليون مقاتل ونحو ٣٧٥ طائرة مقابل ١٢٠ ألفاً وما لا يزيد على ١٥٠ طائرة، يعنى أن كل دول الطوق العربى لم تحشد سوى ٠,٣٪ من تعداد شعوبها مقابل ما يزيد على ١٣٪ من جملة تعداد خصمهم، أى نحو ٤٠ مثل ما حشده العرب، والذى دخل بعضه المسرح بلباسه المدنى ودون سلاح».

«كما تميزت حرب الاستنزاف أيضاً بتعدد حلبات الصراع وتنوع أشكاله من مجرد مناوشات محدودة، إلى اشتباكات عنيفة فمعارك ضارية، فكانت المرة الأولى التى أجبر العرب فيها إسرائيل على أن تقاتل فى مسرح حرب، بعد أن استمرأت القتال فى مسارح عمليات منفصلة، أو فى أرض معركة محدودة، لتحسم فى كل منها قتالاً خاطفاً، قبل أن تتحول إلى التالية وفقاً لأسلوب العمل من خطوط داخلية الذى أتقنت تخطيطه وتنفيذه».

(٤٨)

ويمضى الفريق عبدالمنعم خليل فى تحليل طبيعة حرب الاستنزاف وتقييم نتائجها مركزاً على الأثر الذى أحدثته هذه الحرب على موازين القوى التعبوية داخل إسرائيل:

«وكانت حرب الاستنزاف كذلك أول صراع مسلح تضطر فيه إسرائيل إلى الاحتفاظ بنسبة تعبئة عالية ولمدة طويلة، وهو ما ترك آثاره السلبية على معنويات الشعب واقتصاد الدولة، بدرجة لم يسبق لها مثيل فى الجولات السابقة، لاسيما وقد كان الزعماء الصهاينة قد بشروا شعب إسرائيل بانتهاء معاناتهم، بعد أن أكدوا لهم أن جولة صيف١٩٦٧ هى الحرب التى أنهت كل الحروب، وأن آلة الحرب العربية قد تحطمت تماماً ولعشرات السنين القادمة».

«لقد اضطرت إسرائيل إلى الاحتفاظ بنحو ٢٠ لواء فى ذروة احتدام حرب الاستنزاف، أى ما يعادل ٥٠٪ من جملة وعاء التعبئة البرية، وكل سلاحها الجوى، ثم ظلت على هذا الوضع الباهظ التكلفة حتى أغسطس ١٩٧٠ عندما توقفت النيران فى المسرح فسارعت بخفض نسبة هذا الاستدعاء إلى ١٠ - ١٥٪ فى القوات البرية، وإلى٢٥ - ٣٠٪ فى القوات الجوية».

«ومع أن مصر احتفظت بنسبة تفوق ذلك، إلا أن نظام التعبئة والتجنيد وهياكل الاقتصاد المصرى كانت أقدر على احتمال تبعات تلك النسبة المرتفعة عن إسرائيل التى يتعطل فيها دولاب العمل نتيجة استدعاء جنود الاحتياط الذين يقومون فى حياتهم المدنية بشئون الزراعة والصناعة والتجارة والتعليم والصحة، وغير ذلك من مجالات الحياة اليومية».

(٤٩)

ويبدو صاحب هذه المذكرات وكأنه مؤيد للفكرة القائلة بأن استمرار حرب الاستنزاف كان فى صالح مصر والعرب ولم يكن فى ذات الوقت فى صالح إسرائيل:

«أضف إلى ما سبق أن ممارسة حرب الاستنزاف كانت هدفاً يخدم مصالح العرب السياسية والعسكرية، بينما يضر بمصالح إسرائيل التى كانت حالة اللاسلم

واللاحرب تحقق لـها هدف ترسيخ الأمر الواقـع فى المسرح، وتنعش آمالـها برضوخ العرب آخر المطاف».

❑

أما من الناحيـة الاستراتيجية والسياسيـة فإن تعبيرات اللواء عبد المنعـم خليل فى الثناء على حـرب الاستنزاف تفوق بكثير تـعبيرات غيره من الذين يثـنون على حرب الاستنزاف لمجـرد التعبير عن قيـمتها التى بدا وكـأنها قد أخذت تتضاءل أو تـنمحى بعد نصر أكتوبر الـعظيم، ومع أن كتابات بعض العسكريـين تميل إلى أن تجعل حرب أكتوبر نـفسها استمراراً أو نجاحاً لحرب الاستنزاف، فإن عـبدالمنعم خليـل لا يمضى على هذا الخط، وكـذلك فإنه لا يمضى على الخـط الآخر القائل بأنها كانـت استنزافا لبلاده دون فائدة مناظرة، ولكنه يرى رأياً غيـر هذا أو ذاك يلخصه فى نهاية حديثه عن هذه الحرب بـقوله: «إن الحرب قـد جعلت مـصر لأول مرة فى مـوضـع التعـادل مع إسرائيل» بدلاً من الهزيمة التى كانت هى النـتيجة النهائية للجولات السابقة، وفضلاً عن هـذا فقـد مكـنت حـرب الاستـنزاف ـ فـى رأيه ـ مـصر مـن تحقـيق مـكاسـب استراتيجية:

«وعلى خـلاف ما حدث فى الجـولات السابقة لـم تنته حـرب الاستنزاف بـنصر مقـطوع أمره لأحـد الطرفـين، بل خـرجا بشـبه تعـادل على المستوى الاسـتراتيـجى والتعـبوى، وبمكاسـب تـكتيكيـة كثيرة لمصر، إلى جانب مـا أحرزته من مكـاسب فى موازين الـسياسة، بالمقارنة بما كـانت عليه مـن اختلال صارخ فى تـهاية جولـة صيف ١٩٦٧».

«وما إن شعرت الأركان العامة الإسرائيلية برجـحان كفة الميزان لصالح مصرحتى بادرت بدفع قواتها الجوية لضرب عمق مصـر، ثم زادت توغلها فيه لتحرم مصر من مكاسب حرب الاستنزاف، وتظهر للملأ أن أحداً لا يستطيع أن يقف فى وجهها».

(٥٠)

ويتعرض صاحب هذه المـذكرات بالتفصيل لصدى إحدى عمـليات إسرائيل فى

أثناء حرب الاستنزاف وهى عملية خطف الرادار فى نفسية وعقلية عبدالناصر وتفكيره العسكرى، وهو يرى أن هذه الحادثة كانت كفيلة بتحويل فكر عبدالناصر إلى الجوانب التفصيلية المهمة فى المعركة، فقد بدأ يعى أهمية تنظيم التعاون بين القوات الجوية والدفاع الجوى وحماية وسائل الدفاع الجوى، وقد رأى بنفسه أنه بدون تحقيق هذه الحماية تتعرض كل خططه للفشل:

«... كان أهم ما يشغل تفكير عبدالناصر بعد قيام إسرائيل بخطف الرادار وفكه وتهريبه جواً إلى إسرائيل، هو : كيف يحقق الدفاع الجوى المتكامل عن سماء مصر ما أمكن؟ وقد ذكر أن العدوان فى ٥ يناير ١٩٧٠ جعل جميع شاشات رادارالدفاع الجوى بيضاء.. كيف هذا؟ وكيف نواجه الشوشرة الرادارية؟ هل يمكن إسقاط الطائرات التى تقوم بأعمال الشوشرة مثل الحوامات المجهزة وهى تطير شرق القناة وعلى ارتفاع حوالى كيلومتر.. لذا يجب استخدام القوات الجوية فى الاصطياد الحر ضد هذه الطائرات».

«وأشار إلى أن قوات الدفاع الجوى أمكنها إسقاط ٣٥ طائرة (منها ٧ طائرات أسقطتها القوات الجوية) فى الفترة من ٢٠ يوليو ١٩٦٩ حتى ٧ يناير ١٩٧٠».

«ووجه عبدالناصر اهتمامه بحماية وسائل الدفاع الجوى بالجبهة وبالعمق، وكذا الطائرات الأمامية، حيث إنه يتوقع أن تقوم إسرائيل من يناير إلى يونيو ١٩٧٠ بضرب كل وسائل الدفاع الجوى، حتى يطمئنوا على عدم قدرتنا على العبور، مع استمرار حصولهم على المساعدات الأمريكية السياسية والعسكرية والاقتصادية».

ويجب تنظيم التعاون بين القوات الجوية والدفاع الجوى، وهو موضوع حيوى جداً، ويجب وضع أسلوب لهذا التعاون والتصميم على تنفيذه واتباعه،حتى نضمن عدم كسر دفاعنا الجوى، ويجب أن يتم بسرعة إنشاء مواقع الصواريخ لأهميتها القصوى لنا».

❑

ويبدو لى أن اللواء عبدالمنعم خليل قد خلط فى حديثه عن بعض وقائع فترة

حرب الاستنزاف، وحين نقرأ مثلاً ما يورده في صفحة ٢٦٠ من هذه المذكرات نرى النص وقد أخطأ في بعض التواريخ وترتيب الحوارات، وكذلك نرى صدى لهذا الخطأ في صفحة ٤٢٧ من مذكراته.

(٥١)

ومع هذه الآراء المبتكرة والذكية عن حرب الاستنزاف فإن صاحب هذه المذكرات يؤكد على مجموعة أخرى من الآراء والمسلمات المرتبطة بصورة هذه الحرب في الفكر العربي المعاصر، فهو يرى أنها كانت ضرورة، وأنها كانت صاحبة الفضل في تطوير نوعية المقاتل المصري ما بين ١٩٦٧ و١٩٧٣، كما أنه يرى أن هذه الحرب قد شهدت ما يمكن تسميته بتطور الصراع بين الطائرة والصاروخ، ومولد الحرب الإلكترونية:

«... لقد كانت حرب الاستنزاف ضرورة لا غنى عنها لمصر والعرب، ظهرت جدواها عصر السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وما تلاه من أيام، بينت الفارق الكبير بين مقاتل صيف ١٩٦٧ ومقاتل خريف ١٩٧٣، وكذلك بين قياداتهما وأجهزة أركانهما، والذي يعود أغلب أسبابه إلى الخبرة المكتسبة والدروس المستفادة من حرب الاستنزاف التي مهدت لها طريق النصر».

«كما شهدت حرب الاستنزاف صراعاً محتدماً بين الطائرة والصاروخ، وضع حداً للتفوق الجوي الذي انفردت به إسرائيل في الجولات السابقة، كما شهدت أيضاً مولد الحرب الإلكترونية المصرية التي يعود الفضل في نشأتها إلى الفريق أول عبدالمنعم رياض شهيد حرب الاستنزاف الغالي، والتي لم تتم العام السادس من عمرها حتى شبت عن الطوق».

(٥٢)

ولكن صاحب هذه المذكرات، وهو يكتبها بروح المؤرخ العسكرى والناقد العسكرى، يجد فى نفسه الشجاعة لكى ينتقد حرب الاستنزاف من حيث الخطط. وهو يرى بعبارات مهذبة ما يدل على أننا أخطأنا فى تصعيد هذه الحرب فى الوقت الذى كان يجب فيه تأجيل التصعيد إلى وقت لاحق يكون من الممكن فيه حماية العمق المصرى، وقيمة هذه الشهادة وهذا الرأى فى نظرى تنبع من أهمية أن يفهم قراؤنا ومواطنونا أن تطوير الحروب أمر لا يحكمه الانطلاق وحده ولا الرغبة وحدها، وإنما يحتاج إلى إمكانات وقرارات ودراسات أكثر من هذا بكثير.

أقول هذا لأنه مازالت هناك آراء خارج مصر تقول بأنه كان لابد من الاستمرار فى حرب الاستنزاف بديلاً عن قبول عبدالناصر لمبادرة روجرز. وأحب أن ألفت النظر هنا إلى أن محمود رياض عبر فى مذكراته [وقد تناولنا هذه الفكرة بالتفصيل فى الباب الثانى من كتابنا: من أجل السلام] عن وجود رأى متحفظ حتى تجاه فكرة استئناف حرب الاستنزاف فى عهد الرئيس السادات، وهى الفكرة التى عرضها تقرير للمخابرات العامة حين كان أحمد إسماعيل مديراً لها، وقبل أن يتولى هو نفسه منصب القائد العام للقوات المسلحة المصرية. وهذا هو بعض ما ينتقد به صاحب هذه المذكرات خططنا الحربية فى حرب الاستنزاف:

«ثم إن الخطة الرئيسية لحرب الاستنزاف التى رسمتها القيادة العامة المصرية بإشراف مباشر ومتابعة دقيقة من رئيس الجمهورية لم تحكم ضوابط التصعيد والتهدئة، الأمر الذى ظهرت نتائجه المعاكسة، بل والخطيرة. خلال الفترة الأخيرة من تلك الحرب عندما دفعت الأركان العامة ـ الاسرائيلية ـ بسلاح الطيران الإسرائيلى فى معركة ضارية داخل أعماق مصر وحيثما شاءت».

«وكم كان يجدر بجهاز التخطيط المصرى، الذى أبدى براعة حقيقية فى رسم بعض الخطط، أن يتريث فى سلم التصعيد حتى يؤمن عمق مصر فلا يكشف عن مدى ضعفه فى وقاية الأهداف السياسية والاقتصادية، وما ترتب على ذلك من خسائر فادحة».

(٥٣)

ومن المفيد فى تكوين صورتنا النهائـية عن هذه الحرب أن ننقل للقارئ ما يلخص به اللواء عبدالمنعم خليل تكاليف حـرب الاستنزاف (سواء بالنسبة لمصر أو لإسرائيل، وسنرى أن مـصر وحدها هـى التى خاضـت حرب الاستنـزاف فى الوقت الـذى لم تشارك فيها الجبهة الشرقية).

«وقد أشار موشيه ديان نفسه إلى جانب من تلـك الحقيقة فى محاضرة ألقاها على طلبة كلية القيادة والأركان بتل أبيب يوم ١٧ أغسطس ١٩٧٢، حيث قال: «إن تكاليف الإنفاق العـسكرى فى الأراضى العربـية المحتلة منـذ نهاية جولة يونـيو ١٩٦٧، حتى مبادرة روجـرز فى ٧ أغسطـس ١٩٧٠ بلغت ١٣٦٢ ملـيون ليرة إسـرائيلـية (حوالى ثلثمائـة وعشرين مليون دولار)، وقد ذهـب أكـثر من ٦٠٪ منها فى مواجهـة تكاليف حرب الاستنزاف وترميم خط بارليف».

«وتعكس الزيـادة الكبيرة فى هذا الإنفـاق العسكرى آثار حرب الاسـتـنزاف على الاقتصـاد الإسرائيلى مـن ناحية، وازدياد الـواردات العـسكريـة بمقدار ثلاثة أمثال ما كانت عليه عـام ١٩٦٧ لتصل عام ١٩٧٠ إلى ٧٧٨ مليون دولار. وهنـاك ما يشير إلى أن إسرائيـل أنفقت ٤١٥ مـليون دولار من احـتياطيـها فى شراء مـعدات حربيـة، لم تسجلها فى ميزان مدفوعاتها».

«وعلى الجانب المصرى.. لـم تكن التكلفة تقل عن ذلك، إذ اضطرت الحكومة إلى تهجير نـحو ثلاثة أرباع مليون مـواطن من منطقة قنـاة السويس إلى مناطق أكـثر أمناً بالداخـل، وفك أغلب المصانـع، مما حمل الاقتـصاد المصرى نحو ٦٣٥ مـليون دولار سنويا، مـنها ٢٣٠ مليونـاً خسائر مباشرة نـتيجة فقد عوائـد عبور السفن لـلقناة، و٥٠ مليـوناً نتيـجة فقد أغـنى آبار البـترول المصريـة بسينـاء الجنوبيـة، و٧٠ مليونـاً إعانات للمهجرين من الـقناة، و٥٠ مليوناً نتيجة توقف عائدات السـياحة، كل ذلك بالإضافة إلى تكلفة حرب الاسـتنزاف نفسها، والتى أرهقت الاقتـصاد المصرى، وكادت تودى به لولا مساعدات الأشقاء العرب».

(٥٤)

ويجاهر صاحب هذه المذكرات بأن مصر وحدها دون بقية الدول العربية هى التى واجهت حرب الاستنزاف :

«وعلى الجانب السياسى لحرب الاستنزاف.. ظهر ضعف فعالية الجبهة الشرقية نتيجة إحجام مكوناتها لعدة اعتبارات سياسية عن تسخين الجبهة ولرغبة بعض الأنظمة ترك مصر والمقاومة الفلسطينية يواجهان إسرائيل، بعد أن أعلنا رسمياً عن عدم التزامهما بقرار وقف إطلاق النيران الصادر فى يونيو ١٩٦٧، وعزمهما على مواصلة حرب الاستنزاف ضد إسرائيل، حتى تنفذ ما عليها من التزامات بالقرار ٢٤٢ الصادر من مجلس الأمن».

....

«وقد أثار استرخاء جبهتى لبنان وسوريا ثم الأردن مشكلات عويصة لإدارة العمل الفدائى الفلسطينى من تلك الجبهات، وما تبع ذلك من فرض قيود شديدة على حركة المقاومة الفلسطينية فيها، ثم قيام حكومة الأردن بتصفيتها فيما عرف بـ«أيلول الأسود» فى يونيو ١٩٧٠».

❑

وهكذا يأتى حديث آخر لصاحب هذه المذكرات يصور فيه عبدالمنعم خليل فرحة الإسرائيليين بانتهاء حرب الاستنزاف وهى فرحة طبيعية تعبر عن مشاعر الإنسان أيا كان وأينما كان، كما يحرص على أن يصور مشاعر قادتهم وآراءهم المشرفة فى المقاتل المصرى بعد هذه الحرب، ومن العجيب أن هذه المذكرات تنفرد بإلقاء الأضواء على هذه الجوانب التى أغفلتها الكتابات المصرية المتاحة عن هذه الفترة:

«وإذا عبر خروج الإسرائيليين إلى الطرقات يوم ٨ أغسطس ١٩٧٠ لإظهار فرحتهم بوقف نيران الاستنزاف وانتهاء كابوس خسائره التى ضاعفت من أعداد الجنازات اليومية التى تخترق شوارع المدن والقرى، فقد جاء خطاب الفريق حاييم بارليف لمرءوسيه الذى ألقاه بمناسبة إحالته إلى التقاعد تعبيراً عن هذا الواقع بقوله:

«إذا ما استؤنف إطلاق النيران مرة أخرى فعليكم أن تختاروا مجالات عمل وأساليب قتال أكثر تطوراً وابتكاراً عما اتخذناه نحن فى حرب الاستنزاف التى خضنا خلالها قتالاً مريراً طويل الأمد ملطخا بالدماء، وذلك لأن ظروفاً كثيرة قد طرأت على المسرح، نتيجة ما اكتسبه المقاتل المصرى من خبرات قتالية واسعة».

(٥٥)

نأتى بعد هذا كله إلى بعض آراء اللواء عبدالمنعم خليل فى المشير عبدالحكيم عامر، ونحن نرى صاحب المذكرات وهو يبدى إعجابه بعبدالحكيم عامر وتقديره له فى ١٩٦٠ على الرغم من كل الهجوم الذى يوجهه إليه فى ١٩٦٧، وهو يراه (فى ١٩٦٠) أو يصوره حاسماً سريع البت بسبب استجابته لطلباته هو، أى لطلبات عبدالمنعم خليل، وتقديره لسياساته المحلية ووجهة نظره فى التدريبات، ومع أن مثل هذه الجزئيات الصغيرة لا تكفى للحكم بعظمة قائد عام القوات المسلحة المصرية إلا أنها تنبئنا بوضوح أن مكانة عبدالحكيم عامر كقائد عام كانت تتدعم يوماً بعد يوم فى تلك الفترة.

ومع أنى أعتقد أن عبدالحكيم لم يعد يتحمل كثيراً من الانتقاد إلا أن ضميرى لا يسمح لى بتمرير ما يرويه عبدالمنعم خليل دون أن أنتقد أسلوبه وأسلوب عبدالحكيم عامر فى حل المشكلات على هذا النحو الذى يرتبط بصدفة تتحقق من خلال زيارة القائد العام بينما المشكلات التى تعرض فى أثناء هذه الزيارة مزمنة وروتينية وهى من قبيل توفير مهمات وملابس الشتاء، والتصديق على استخدام الذخيرة، وعلى تغيير تفصيلات الخطط، والأدهى والأمر من هذا كله التصديق لقائد اللواء المحظوظ بتركيب علم على سيارته شأن القادة المهمين، وقد قلت (المحظوظ) فى وصف قائد هذا اللواء لأنه أصابه الحظ مرتين، الأولى أن زاره عبدالحكيم عامر بنفسه، والثانية أن كان من ضمن قادته عبدالمنعم خليل الذى فعل ما نال إعجاب المشير اللوذعى وأرضى نفسه فجعله يصدق لقائد اللواء بمميزات قادة المناطق، ولنقرأ النص الكامل لرواية صاحب المذكرات:

«وفى ينـاير ١٩٦٠ جاء المشـير عبدالحكـيم عامر لـزيارة قوات المنطـقة العسـكرية الشرقية فى الـعريش واختار زيارة الكتيبـة ٥٣ المشاة فى أبو عجيلة، وكنـت قائداً لها، وكان هذا اللـقاء مثار تعليـق من كل ضباط القـوات المسلحة، لأنه كان بـداية لإيجاد حلول لمشاكل كثيـرة أمكن حلها فوراً بقرار منه، كما زاد إعجـابى به واحترامى له، أنا وكل من تأثر بهذه القرارات أو سمع عنها».

«كانت الـقوات المسلحـة المصرية قـد بـدأت فـى تطبيق التكـتيك السـوفـيتى، الـذى اتـبعوه فى الحرب الـعالمية الـثانية، وقد فرض عـلىّ كقائد كـتيبة تحديـد مواقع لبعـض منها فى أبـو عجيلـة بأسلوب الخنـدق الأول، ثم الخندق الثـانى على مـسافة حوالى ٢٠٠متر،ثم الخـندق الثالث فى الخلف إلى ٦٠٠متر. وللأسـف الشديد حضر ضابـط من القـيادة الـشرقـية لقيـاس مسافـات هذه الخطـوط الدفـاعية عـلى الأرض وتحديـدها لنا لـلحفر والاحـتلال، ولكـنى بحكـم خبرتـى السابقـة فى مدرسة المـشاة والكـلية الحـربية لـم أوافق علـى هذه الحرفيـة فى الاحتـلال، خاصة أن هـذه المنطـقة شهدت عام ١٩٥٦ نـصراً أكيداً للقـوات المصرية المدافعـة بها التى أرغمـت القوات الإسرائيليـة على الارتداد عنها ثلاث مرات،وكانـت القوة تحتل مواقع حاكمـة هيأتها طبيـعة الأرض، ولهذا الـسبب تمسكت بالأرض واستـطاعت المقـاومة. فقلـت هذا للمشيرعامر عـند الزيارة وأضفـت إليها أننى لم أتمسك بالخطـوط المرسومة، بل اتبعت منطق طبيعة الأرض فـوافق وشجعنى على ذلك، كما قلت له إنـنى جربت استخدام كل أسلحة الكتيبة بالذخيرة الحية لتأمين الموقع، وتدريب الجنود، واختبار قدرة وكفاءة الأسلحة فوافق ولم يعترض، واعتبرت هذا تصديقاً لى بذلك».

«طلبـت ملابس شتوية لـلجنود وزيادة فى الـبطاطين ومـهمات الشتاء، فـوافق فى الحال، ثم طلبت أن تكون أجازة الميدان كل ٢٣ يـوماً للضباط والجنود، وعلاوة إضافية للجميع فصدق فوراً على طلباتى، كما صـدق لقائد اللواء بتركيب بيرق (علم) على سيارته كقائد للمنطقة».

(٥٦)

وفى هذه المذكرات نجد موضعا آخر يعبر فيه صاحب المذكرات عن إعجابه وحبه واحترامه لعبدالحكيم عامر، ويأتى هذا فى أثناء الحديث عن حرب اليمن، وقد يبدو أنه من العجيب أن نقرأ كل هذا الوصف العظيم لعبدالحكيم عامر حيث يصفه صاحب هذه المذكرات بكثير من الصفات النبيلة، بل ويثبت له مواقف جديرة بالتسجيل والاحترام، وجديرة بالفعل بأن تدفع صاحب المذكرات إلى حبه واحترامه والإعجاب به، ولم لا؟، وهو القائد القلق على أبنائه الذى لم ينم حين علم بما أصابهم وإنما تحرك من فوره من دولة إلى أخرى ليطمئن على قواته، ولم ينتظر طائرة خاصة وإنما حضر فى طائرة نقل عسكرية، ثم ركب بعدها سيارة نقل كى يصل إلى مقر القيادة فوصلها الساعة السادسة صباحاً وهو مصمم على أن ينتقم لقواته، ولا يقف المشير عامر عند هذا الحد، وإنما هو فى موقف تال يستجيب لصاحب هذه المذكرات فى العذول عن أوامره المشددة بخوض معركة مع العدو، والاعتماد على سلاح الذهب بديلا عن المعركة، ولست أظننى قادراً على انتقاد قائد يفتدى أرواح جنوده بالذهب، ولكننى أجدنى عاجزاً عن أن أفهم الصورة كلها، فقد أستطيع أن أدرك من حديث صاحب المذكرات أن بعض المعارك كانت ممكنة الإلغاء والتأجيل اعتماداً على سلاح الذهب!

وعلى كل الأحوال فإن من واجبنا أن نثبت لعبدالحكيم عامر هذه الصورة الجميلة التى يقدمه بها اللواء عبدالمنعم خليل:

«والحقيقة أننى ازددت حباً وإعجاباً واحتراماً لهذا الرجل كقائد وإنسان، ففى أثناء احتدام القتال مع بعض قبائل اليمن كنا نراه دائماً معنا فى الميدان، وأذكر أن معركة كبيرة حدثت فى قطاع رأس العرقوب فى المنطقة الشرقية باليمن، وحدثت خسائر كثيرة فى قواتنا وأرسلنا برقية بنتائج المعركة، وإذا به يحضر إلى اليمن فى طائرة نقل عسكرية، ويصل إلى مركز قيادة القوات العربية بصنعاء فى لورى حوالى الساعة السادسة صباحاً، وبالصدفة كنت فى مكتبى فى هذا الوقت أقوم باتصالات مع

الجبهات لتقصى حقائق الموقف، ودار بيننا حوار خاص شعرت فيه بأنه اطمأن للموقف الذى ظل يقلقه طيلة نهار وليلة الأمس».

«قرر المشيرعامر أن تقوم القوات المسلحة فى اليمن بعملية انتقامية لما حدث من خسائر فى منطقة العرقوب على يد قبائل خولان وزعيمها الشيخ الغادر، واجتمعت بالقيادة مجموعة تخطيط لهذه العملية، حضرها الفريق أول مرتجى قائد القوات مع رئيس عمليات القوات المسلحة ورئيس أركان القوات العربية ورئيس العمليات،وتم التخطيط لهذه العملية ووضع الفكرة، والحقيقة أن أحداً من المجتمعين لم يكن مقتنعاً بنجاح هذه المعركة، ولكن أوامرالمشير كانت صارمة بضرورة التنفيذ!! واقترحت أن أعرض فكرة القرار على المشيرعامر، وأحاول إلغاءها أو تأجيلها،وصعدت إلى الدور العلوى، حيث كان عامر فى استراحته فوجدته جالساً على أريكة ورأسه للخلف والإجهاد واضحاً على كل ملامح وجهه.. قلت له: سيادتك مجهد خد أسبرين وستستريح، وفعلاً أعطيته قرص أسبرين من جيبى وتناوله وقال لى: «أنت لمّاح» فقلت له: «الحقيقة أنا جاى أعرض على سيادتك موضوع خطير، وقصصت عليه ما حدث فى الاجتماع من عدم الاقتناع بالعملية، وأننى تطوعت لعرض الموضوع على سيادتك واقترح فداء الأرواح بالذهب، وإلغاء العملية حتى لا نتحمل خسائر لا داعى لها». وبعد تفكير بسيط وافق على إلغاء العملية.. والحمد لله.. ونجحت فكرة فداء الأرواح بالذهب ولو إلى حين».

(٥٧)

وفى حرب اليمن أيضاً أتيح لصاحب المذكرات أن يكتشف خلقاً رفيعاً آخر يضاف إلى ما يراه من أخلاق عبدالحكيم عامر الرفيعة، فهو قادر على أن ينتهى من انفعاله إلى الصواب بعد حين إذا ما أحسنت سياسته ووجه التوجيه الكفيل بإعادته إلى الحق، وها هو هنا يحتد على صاحب المذكرات ويردف احتداده ببعض

الشعارات الرنانة الطنانة، ولكنه سرعان ما يعود إلى الصواب بعد أن يستمع إلى التفاصيل «الفنية» التي يوردها له صاحب المذكرات، بل ويثني على صاحب المذكرات بأنه يتمتع بالشجاعة الأدبية، مع أن الشجاعة التي في هذا الموقف شجاعة حقيقية، وليست شجاعة أدبية فحسب، ولكن عبدالحكيم أصدر التوجيه هكذا، ولم يعد من حق صاحب المذكرات أن يعترض على الوصف أو يعدله، فهو بأمانته وبحيائه يرويه كما هو دون أن يعلق عليه:

«وبعد حوالي أقل من أسبوعين فوجئت بقرار تعييني قائداً لوحدات المظلات. واستدعى الأمر تحرك بعض وحدات المظلات إلى اليمن وأمر المشير بسفري مع هذه القوات لليمن مرة أخرى. وبعد فترة حضر المشير، وطلب الاجتماع بقادة القطاعات في اليمن، وفي مؤتمر ضم معه السيد السادات وقائد القوات، طلب المشير الرد على ٣ أسئلة.

السؤال الأول: حقيقة الروح المعنوية للقوات .

السؤال الثاني: الكفاءة القتالية للقوات .

السؤال الثالث: موقف القبائل اليمنية ومشاكلها».

«وكان دوري الثالث في الإجابة عن هذه الأسئلة حسب ترتيب جلوسي، فوقفت وقلت له: أما حقيقة الروح المعنوية في قطاعي فسيئة!!» ضرب المشير بيديه على المنضدة محتداً، وقال: «إزاي تقول الكلام ده، إحنا أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط»، وكان الغضب يملأ كل أساريره!!».

«وكان ردي على سيادته في هدوء: «إذا كنت سيادتك زعلان بلاش أتكلم بصراحة»، وجلست، فرد عليّ قائلا في هدوء وشبه ابتسامة على وجهه: «لا.. لا..اتكلم يامنعم بصراحة،ولما شرحت له الأسباب واقتنع بها، أوجد لها الحلول الحاسمة وارتاح قلبي، وفي نهاية الحديث أشار إلى أنني عندي شجاعة أدبية.. والحمد لله».

(٥٨)

ومع هذا كله فـإن صاحب المذكرات يلقى باللـوم الشديد على المشير عـبدالحكيم عامر فى تدخله بطريقة شخصية فى حـرب يونيو ١٩٦٧ فى تفاصيل الخطط، وتعديله لتركـيب القوات التنـظيمي واتجاهات تحـركها مما كان لـه أسوأ الأثر بالطبـع على أداء قواتنا المسلحة وعلى نتيجة المعركة نفسها:

«وانهـمكت الـقيادة الـعامـة للقـوات المسلـحة فى تـنفيذ الخطـة «قاهر»، ولـكن المشيرعامر راح يتدخل شخصياً فى تفاصيلهـا ويعدل مهام القوات وتركيبها التنظيمى واتجاهات دفعها، مما أفـقد الوحدات كثيراً من قدرتها وخبراتهـا التى سبق أن تدربت عليـها، خاصة أن مـعظمهـا كان عائدا مـن مسرح عمـليات اليـمن المختلـف فى كل شيء!!».

«فتحركت الوحدات ومعها أسلحتهـا ومعداتها إلى وجهة محددة حسب الخطة، ثم تغـيرت الوجهة إلـى مكان آخر وتـغير التنـظيم، وبدأت الأوامر تـصدر لتفـكيك الوحدات إلى وحدات فرعية كل فى اتجاه!!»

ويضرب اللواء عـبدالمنعم خليل فـى مذكراته مثلاً واضحاً عـلى هذا الاضطراب الذى تسبب فيه عبدالحكيم عامر بتدخله المستمر ويقول:

....

«ومن أمثلة هذه المهمة التى كلف بها قائد وحدات المظلات [وهو عبدالمنعم خليل نفسه] بالتحرك جواً إلى شرم الشيخ، حيـث انضمت إليه براً وجواً وبحراً عناصر من وحدات أخرى يراها لأول مرة. وبعد وصوله إلـى أرض المهمة وصلته قوات أخرى وهكذا كل يوم.. كـما تلقى مهام أخرى: مـرة اقفل المضيق ومرة لا تقـفل ومرة اقفل بشـروط كذا وكذا، ومرة لا تقـفل مطلقاً!! أوامر محيرة وموقف محيـر ومنطق محير إلى أن جاءت قـافلة إعلامـية ضخمـة لتصويـر عمليـات إنزال بحرى وتحـرك برى،

صدرت بها أوامر.... علمنا فيما بعد أن هذه الإجراءات كلها كانت مظاهرة عسكرية إعلامية ليس إلا».

(٥٩)

وفى مواضع أخرى من هذه المذكرات يتحدث اللواء عبدالمنعم خليل عن عبدالحكيم عامر بانتقادات واضحة، ولكن الأهم من هذا أنه يرينا مظاهر أعمق للصراع المبكر بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر بسبب أهل الثقة من حول كل منهما وإن كان يلقى بالمسئولية على حاشية عامر بوجه أخص:

«ولكن كان أهل الثقة عندهما أو عند عامر على وجه أخص، هم المختارون لتولى المناصب القيادية فى القوات المسلحة فى جميع أفرعها، وكذا المناصب المهمة فى الدولة سياسياً أو اقتصادياً أواجتماعياً وحتى المناصب الفنية. وعندما احتاج الأمر إلى تدخل القوات المسلحة المصرية فى السيطرة على بعض الجهات الهابطة فى الدولة، أو التى تحتاج إلى حسم وسيطرة الثورة عليها كانا يختاران معاً مَنْ هو أفضل ليتولى هذه المناصب. وفى بعض الأحيان كانت الظروف أن يعين أحدهما أهل ثقته بينما لا يوافق الآخرعليه، وتعددت مهام عامر ومسئولياته، واتسع نطاق سيطرته على القوات المسلحة وكثير من أجهزة الدولة ومؤسساتها الحيوية ومصانعها وشركاتها. وحتى قطاع النقل أشرفت عليه القوات المسلحة. وهنا بدأت الدسائس والفتن والتصدعات تتسرب إلى قلوب الأصدقاء وعقولهم، وتمس مصالحهم الشخصية وآمالهم فى تحقيق أحلامٍ أوسع أو أكثر».

❑

ويعدد اللواء عبدالمنعم خليل الأخطاء التى نسبت إلى المشير عبدالحكيم عامر بدءا من ١٩٥٦ فيقول:

«وحدثت أخطاء فى استخدام القوات المسلحة المصرية، حيث إنها استدرجت إلى معركة لم تكن تملك فيها كل أسباب النصر. وبالطبع اعتبر عامر أنه القائد المسئول عن كل الأخطاء التى حدثت. ثم كانت الوحدة مع سوريا وما حدث خلالها ثم الانفصال عام ١٩٦١ لطمة كبرى، وزاد العداء بين الإخوة ناصر وعامر رغم محاولة ناصر مساعدة عامر بإرسال عناصر من القوات المسلحة إلى سوريا لنجدته، ولكن هذا التخطيط لم يكن سليماً وزاد الطين بلة المعاداة العلنية من بعض ذوى الثقة المحسوبين على عامر ضد ناصر مما زاد العداوة عمقا».

(٦٠)

ومع هذه الآراء ذات المستويات المتعددة التى يثنى فيها عبد المنعم خليل على عبد الحكيم عامر فى بعض المواضع وينتقده فى مواضع أخرى، فإنه حريص أيضاً على أن يبلور وجهة نظره فى العلاقة بين الرئيس عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر ويقول:

« ..... وكان عبدالناصر وعامر صديقين حميمين، حملا رأسيهما على أكفهما معاً يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وتوطدت العلاقة بينهما أكثر خلال أيام الثورة الأولى، واختار ناصر كزعيم للثورة زميل كفاحه ليكون وزيراً للحربية وقائدا عاماً للقوات المسلحة، واتفق مع زملائه فى مجلس قيادة الثورة على ترقية الصاغ عبدالحكيم عامر إلى رتبة اللواء،ليكون شغله لهذا المنصب سليماً من ناحية الأقدمية والانضباط».

ويبلور عبدالمنعم خليل تعبيره عن صراع الرجلين (ناصر وعامر) بطريقة وجدانية ذكية ولكنه يضمنها فكرة جديدة لم يسبقه إليها أحد، وهى أن أخطاء ١٩٥٦ كانت تكراراً لأخطاء ١٩٤٨ وكأنه لا يكتفى بما يقوله كل زملائه من أن أخطاء ١٩٦٧ كانت تكراراً لأخطاء ١٩٥٦ فحسب:

«... وجاءت ضربة قاضية إلى قلب عبدالناصر بعدوان ٥ يونيو ١٩٦٧، وزاد

الطين بلة شعورى بمدى ما وصل إليه زميل كفاحه وصديق عمره عبدالحكيم عامر، فقد كان يمثل ضغطاً على عبدالناصر بما يملكه من قيادة للقوات المسلحة التى تمثل مجال الضغط الرئيسى فى يد مَنْ يتولى قيادتها المطلقة. ورغم أخطاء عام ١٩٥٦ التى تشبه أخطاء ١٩٤٨، فلم يحاول جمال عبدالناصر محاسبة المخطئين فيها، وربما لم يستطع التدخل فإن المشير عامر كان فى حصن حصين بين رجال القوات المسلحة. وفكر عبدالناصر فى إيجاد مخرج للحد من سلطات عامر، فأمر بتشكيل مجلس رئاسة ولكن انقلب الحال لصالح المشير عامر، وأصبح بعدها نائبا للقائد الأعلى للقوات المسلحة. وكان فى فكر عبدالناصر إقصاء عامر منذ عام ١٩٦٢ ولكنه لم يستطع، ومرت الأيام ثقيلة قاسية حتى عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧، ونتائجه الداخلية والخارجية، وانتهت بأن لقى المشير عامر ربه فى ١٩٦٧ يرحمه الله».

(٦١)

هكذا يلقى اللواء عبدالمنعم خليل بالجانب الأكبر فى مسئولية الصراع بين الرجلين على بطانة المشير عبدالحكيم عامر وهو يشير صراحة إلى المدى الذى بلغته روح العصبية فى هذه البطانة حتى أن معظم القادة من مختلف تشكيلات القوات المسلحة كانوا يترددون يومياً على منزل عامر ومكتبه :

«وجاءت مناصرة ناصر لثورة اليمن فى ١٩٦٢، وتولى عامر مسئولية هذا القطاع المهم أو هذه المهمة الكبرى عاملاً آخر من عوامل التصدع بين الإخوة الأعداء».

«وبدأت روح العداء تسرى بين عامر وناصر تتبعها معوقات لإعداد القوى الذاتية لكل منهما تحسباً ليوم محتوم، فقرر ناصر زيادة قدرة وكفاءة قوات الحرس الجمهورى ودعمها بالدبابات الحديثة والأسلحة المتطورة. وفى الجانب الآخر كان اعتماد عامر على قادة التشكيلات المختارين بمعرفته وعلى وحدات الصاعقة، وعلى قوات المظلات الرابضين فى أنشاص قرب القاهرة».

«وكان معظم القادة من مختلف تشكيلات القوات المسلحة ومن الصاعقة والمظلات يترددون يومياً على مكتب عامر ومنزله بتخطيط ممن حول عامر من الأتباع والبطانة، وكان لذلك بالطبع مغزى كبير وخطير، يؤثر تأثيرا مباشراً على سلسلة القيادة وأسلوبها فى القوات المسلحة».

....

«وحاول ناصر إيجاد حلول للحد من سلطات عامر، فقام عام ١٩٦٢ بتشكيل مجلس رئاسة لتقليص سلطاته، ولكنه لم ينجح وتحول ذلك إلى زيادة فى الصلاحيات لعامر الذى تولى منصباً أكبر بالإضافة إلى المناصب الأخرى، وأصبح نائباً للقائد الأعلى للقوات المسلحة، رغم اعتراض عدد كبير من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين كانوا يتوقعون أن يصدر ناصر قراره بإقصاء عامر، ولكنه بحكم الصداقة والأخوة لم يصدر هذا القرار».

«وفى منزل ناصر يوم ٢٥ أغسطس ١٩٦٧ اجتمع بعض من أعضاء مجلس الثورة ليواجهوا عامر بما أحسوا به من وجود تآمر، بهدف الوصول إلى السلطة باستخدام القوات المسلحة، وقد أصروا على إقصاء عامر، لأن عودة عامر إلى موقعه لن تكون فى صالح مصر لأن اسمه قد ارتبط بهزيمة كبرى ذات أبعاد خطيرة بما قد يثير الشعب».

«وتمت مواجهة عامر بالحقائق من زملاء الكفاح وزملاء الثورة، وأعتقد أن هذه المواجهة كانت قاسية على قلب وعقل عامر الذى حاول التخلص من حياته ـ كما يقولون ـ إلى أن لقى ربه بعد حوالى ١٥ يوماً من هذا اللقاء».

(٦٢)

ونأتى الآن ـ أو نعود ـ إلى حرب ١٩٦٧ فنجد أن اللواء عبدالمنعم خليل يلتفت فى هذه المذكرات إلى نقطة فى غاية الأهمية وهى تصوير حالة الجيوش العربية كلها

وليس حال الجيش المصرى فقط قبيل حرب ١٩٦٧، ومع أن الأسباب وراء تدهور حال الجيوش العربية تبدو مختلفة إلا أن النتيجة كانت واحدة وهى وجود قوات مسلحة عربية غير قادرة على مواجهة العدو الإسرائيلى:

« ... وبالنسبة لباقى جبهات الطوق العربى فقد كان جيش العراق يخوض صراعاً دموياً مع الأكراد، بينما جيش الأردن يعيد تنظيم قواته،وجيش سوريا قد امتصت الانقلابات الكثيرة المتتالية قدرته القتالية، وأصابته بحالة من الشلل الميدانى، أما التضامن العربى فقد اختفى من الساحة، فكان العرب نتيجة ذلك فى أدنى حالات التأهب العسكرى للتورط فى حرب جديدة».

«ولم تكن إسرائيل غافلة عن هذه الحقيقة، بل كانت تنتظر لحظة استفحالها وتغير الظروف الدولية بما يسمح لها بتكرار محاولة خريف ١٩٥٦، لتكون الجولة القادمة هى «الحرب التى تنهى كل الحروب».

❑

ويلخص صاحب هذه المذكرات حقيقة هزيمة ١٩٦٧ والمسئولية عنها فى فقرة مختصرة ولكنها محملة بكل المعانى الاستراتيجية التى يعتقد فيها ويقول:

«وعلى الجانب المضاد كانت القيادة المصرية أشد خطراً على جيشها من العدو،حيث أنهكت قواتها فى تحركات عشوائية وتبديلات متضاربة فى الخطط، ثم تخبطت فى إدارة المعارك حتى وقعت فى سقطة أمر الانسحاب العام الذى كان فيه الحكم على جيشها بالفناء».

«والواقع أن سجل القوات المسلحة المصرية لايحمل فى صفحاته هزيمة بحجم هزيمة يونيو ١٩٦٧ التى كان هو ضحيتها، والتى فقد فيها ١١ ألفاً من خيرة جنوده، وما يزيد على ٨٠٪ من أسلحته ومعداته على يد فرد واحد كان يجلس فوق قمة قيادته».

❑

ويورد صاحب هذه المذكرات بعض التفصيلات المهمة وغير المشهورة عن مقدمات حرب ١٩٦٧:

«وبمجرد أن شعرت إسرائيل بوقوف الرئيس جونسون إلى جانبها قلباً وقالباً، قامت بشن غارات جوية فوق دمشق يوم ١٤ نوفمبر ١٩٦٤، أسقطت خلالها ١٥ طائرة سورية، وبإعادة انتخاب الرئيس جونسون أوقف المعونة الأمريكية لمصر والبالغ قدرها ١٠٠ مليون دولار سنوياً، كما منع تصدير القمح إليها، وشدد الحصار الاقتصادي عليها، وصاحب كل ذلك حملة دعائية جائرة على مصر من وسائل الإعلام الغربية».

«وفى نفس الوقت تصاعدت حدة الأزمة بين القاهرة وبون بعد كشف الستار عن صفقة الصواريخ الألمانية لإسرائيل، ثم اعتراف حكومة مصر بحكومة ألمانيا الشرقية. وعادت تقارير المخابرات الغربية تؤكد على ضرورة الحرب لإيقاع هزيمة مهينة بالرئيس عبدالناصر، أو تدبير خطة لاغتياله».

(٦٣)

ولا يكف صاحب هذه المذكرات عن الحديث عن الاهتراء الشديد الذى تعرضت له الخطة المصرية فى حرب ١٩٦٧ بفضل قصور رؤية عبدالحكيم عامر وظنه أن الخطة قد تصمد لكل هذه التغيرات والتطويرات التى كان يجريها عليها فى كل وقت، وعلى الرغم من أنى قد أشارك اللواء عبدالمنعم خليل هذا الرأى، إلا أنى أعتقد ـ بكل تواضع ـ أنه لو أن الخطة بقيت كما هى ما كانت كفيلة بتحقيق أى انتصار، فهى خطة دفاعية، وما كانت أيضاً كفيلة بتحقيق الصمود، فهى خطة جامدة، فضلاً عن التسيب الشديد الذى كانت تعانى منه قواتنا المسلحة، وليس معنى هذا أنى أقلل من قيمة الالتزام بالخطة، فمن المؤكد مع هذا الذى ذكرته أن الالتزام بها كان كفيلاً على الأقل بتقليل الخسائر على جميع المستويات، سواء فى ذلك الأرض التى خسرناها كلها أو الأرواح أو المعدات، أو الأهم من ذلك كله وهو الروح العسكرية والكرامة الوطنية، ولكن ماذا بوسع المرء أن يقول بعد هذا كله غير: «قدر الله وما شاء فعل».

ولنقـرأ بتأمل وبمرارة هـذه التفصيـلات التى يرويـها اللواء عبـدالمنعم خليل عن انهيار بل وتهرؤ الخطة قاهر:

«كانـت الخطة المصـرية «قاهر» هـي الخطة التـي وضعتهـا هيئة عـمليات الـقوات المسلـحة، وصدق علـيها القـائد العام لـلقوات المسـلحة وهو نـائب القائـد الأعلى.. وكانت المفاجأة أن ما خططه وتصدق عليه شيء وما نفذ شيء آخر!! فقد عدل المشير عبدالحكيم عامر فى كثير من أعمدة هذه الخـطة المدروسة، فاهتزت وتشققت وتفتتت ثم انهارت!! فـقد شـعرت ـ كقائـد مسئول عن قطاع حـيوى من شبه جزيـرة سيناء ـ بأننا فى مظاهرة عسكـرية دعائية، وليست تعبئة حربية حقيقـية أو حتى خداعية، لتوهم العدو بـأننا تأهبـنا للهجـوم هنا وليس هـناك.. بدأت تلك الـقصة مساء يـوم ١٩ مايو ١٩٦٧، وكنت قائـدا لوحدات المظلات، وكلـفت شخصياً بمـهمة تأمين شـرم الشيخ وخليـج العقبة، اعـتباراً من أول ضـوء يوم ٢٠ مايو ١٩٦٧، رغم أن قـوات الطوارئ الدولية كانت موجودة بالمنطقة تزاول مهامها هناك».

«وكان هذا التخطيط ضـمن خطة الحشد الضخمة، التى بدأت فى سـيناء بناءً على تقـدير مـوقف يـعتمـد علـى احتـمالات الـتدخل الـسورى والأردنـى ضد الـقوات الإسرائيلـية، وأن هذا سيحول دون هجـوم إسرائيلى رئيـسى كامل ضد مصر بـجبهة سيناء. وكانت القوات المصرية المشتركة فى الخطة «قاهر»، موزعة بين جبهة القتال فى اليمن وجبهة القتال فى سيناء، إذ كان بـاليمن فى ذلك الوقت حوالى ٥٠ ألف مقاتل، بينما تحرك إلى سيناء حوالى ١٠٠ ألف مقاتل فـى وحدات كثيرة أعيد تشكيلها بسرعة بعـد عودتها مـن اليمـن. وحتى الـضباط الأصاغـر أسرعت الـقيادة الـعامة للـقوات المسلـحة فى تخريج دفـعات من الكلـية الحربية، غـير مكتملـة النضج العـسكرى أو التدريب القتالى، وأرسـلوا إلى جبهة القتال مباشرة دون تطعيـم للمعركة، مما أحدث بهم خسائر جسيمـة، وهذه نقطة ضعف عندما نقيـم هذه القيادة المـسئولة التى لم يكن لديها الـقدرة على التخطـيط المبكر السلـيم لإعداد القوى بأسلـوب قوى أمين.. وإذا عدنا إلى الخـطة قاهر ـ كما خطـطت ـ نجد أنها اهترأت بكـثرة التعديل بأوامـر القائد العام للقوات المسلحـة بالتليفون أو اللاسلكى أو بمندوبيه الذيـن كان يرسلهم بأوامره المتناقضة إلى القادة فى الميدان».

(٦٤)

ويرى صاحب هذه المذكرات بكل وضوح أن الإسرائيليين نجحوا من خلال التفوق العددى والنوعى والمفاجأة والمناورات فى تحقيق نصر حاسم استطاعوا أن يغيروا به خريطة الشرق الأوسط العسكرية والسياسية:

«عندما توقفت النيران فى مسرح الجولة الثالثة مساء ١٠ يونيو ١٩٦٧ دخل على الخريطة السياسية والعسكرية للشرق الأوسط تغيير كبير، حوَّل المشكلة الفلسطينية ـ الإسرائيلية إلى مشكلة عربية صهيونية أضخم حجماً وأكثر أطرافاً عما سبق».

«وقد أثبتت الأركان العامة الإسرائيلية للمرة الثالثة أن التفوق العددى والنوعى الذى كانت تعززه المفاجأة والمناورات الجريئة والمعدلات السريعة تحت السيطرة الجوية،هو الطريق السهل والأقل تكلفة لتحقيق النصر».

❑

وفى فقرة أخرى يصف صاحب هذه المذكرات مدى استيعاب الإسرائيليين للخطة التى حاربونا بها فى ١٩٦٧ فيقول:

«وكانت الخطة التى أطلق عليها اسم «كولومبس» قد تم رسمها منذ سنوات كثيرة، وصار التدريب عليها حتى صرح اللواء مردخاى هود قائد السلاح الجوى بقوله:

«لقد استوعبنا الخطة، وتدربنا على الخطة، وراجعنا الخطة حتى سرت الخطة فى دمائنا».

❑

عند هذا الحد يعقب اللواء عبد المنعم خليل معترفاً بكل أسى بحقيقة ما حدث واصفاً قرار الانسحاب من سيناء فى ١٩٦٧ بنفس الوصف الذى استخدمه حسين ذو الفقار صبرى ونقلناه عنه فى الباب الرابع من كتابنا «من أجل السلام» (قرار أخرق) وملخصاً نتائج هذا القرار بأرقام لا تكاد تختلف عن الأرقام التى قدمها

الفريق أول محمد فوزى فى مذكراته «حرب الثلاث سنوات» التى تناولناها فى الباب السادس من كتابنا «الطريق إلى النكسة»:

«وهكذا وقعت شبه الجزيرة ـ سيناء ـ كلها تحت الاحتلال الإسرائيلى للمرة الثانية فى غضون حقبة زمنية واحدة تقريباً،الأولى للنجاة من الفخ الذى أعده العدوان الثلاثى للجيش داخل أعماقها، والثانية ليضيع الجيش وتخسر مصر عتادها وسمعتها وأراضيها نتيجة قرار أخرق، لم تكن تبرره الأوضاع السائدة بينما تسبب فى ضياع نحو ٧٠٠ دبابة، و٤٠٠ مدفع ميدان، وما يزيد على ١٠ آلاف عربة ومجنزرة، فضلاً عن النزول للعدو عن نصر أطلق عليه العالم اسم «نصر الخمسة نجوم». أما خسائر الأفراد فكانت فادحة حقا،إذ بلغت ١١٥٠٠ شهيد وجريح، مقابل ١٣٠٠ قتيل وجريح إسرائيلى».

(٦٥)

ويقدم صاحب المذكرات وقائع تفصيلية لما حدث فى أثناء حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ مبيناً بالتفصيل الدقيق طبيعة النتائج المذهلة التى استطاعت إسرائيل تحقيقها من خلال هجومها الجوى الأول، وسترو عنا تفاصيل هذا الغدر المبيت تماماً ضدنا ومدى ما اشتمل عليه من تفصيلات مروعة ومذهلة، بينما آثرنا للأسف الشديد تلقى الضربة الأولى.. فهل يا ترى كنا على علم بأن الضربة الجوية الأولى قد تشمل هذا كله، لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أقول إننا لو كنا نعلم هذا كله عن الضربة الأولى أو نتخيل أن هذا هو مدى بشاعتها وقبلناها لأى هدف، فإننا نكون قد أخطأنا فى حق وطننا خطأً لا يغتفر حتى ولو كانت المعركة قد انتهت بانتصارنا إذ كيف نتقبل ضربة بكل هذه القسوة بإرادتنا :

«وتحت مظلة من ٤٠ طائرة ميراج انقضت ٤٠ مقاتلة قاذفة ـ أغلبها من طراز المستير ـ فى الساعة التاسعة إلا الربع صباحاً على تسعة مطارات مصرية فى

مجموعـات صغيرة من ٤ طائرات، فدمـرت ممرات الإقلاع والهبوط وما حـولها من طائرات. ولم تكن الخطة تسمح بأكثر مـن عشر دقائق فوق كل هدف، حتى يبقى من الوقود ما يكفى لـلعودة إلى مطارات الإقلاع، لاسيما وقد استهـلكت رحلة الذهاب الجزء الأكبر منه لحرص الـطائرات على الاقتراب من فريستها علـى ارتفاع منخفض جداً، مما زاد من استهلاك الوقود أضعافاً مضاعفة».

«وكانت تلك المدة الوجـيزة لا تسمح بأكثر من أربعة انقـضاضات على الأهداف المنتخـبة مسبقاً والتـى يعلمها الـطيار بدقة بالغـة، فيقصفها بـالرشاشات، ثم بالـقنابل لتدمير الممرات، ثم ينشـر المفرقعات الزمنية حولها لتعطيل عمليات الإصلاح وجعلها عرضة للتوقف والخسائر البشرية».

«وبفضل نوع مبتكر من قنابل تدمير الممرات التى لا تنفجر إلا بعد أن تغوص فى بطـن الممر بالـعمق الكـافى، حدثـت حفر كبـيرة يحـتاج ردمها إلـى ساعات طويـلة. وعندمـا حلت السـاعة ١٠,٣٥ تحولت الـطائرات المغـيرة إلى ٨ مطـارات أخرى فى العمـق، فـلـم ينته يوم ٥ يونيو حتى كان ١٧ مطـاراً قـد تـم تدميرهـا بـكــل ما فيهـا من طـائرات ومنشـآت، إلى جانب ١٦ جـهاز رادار كانت مـنتشرة فـى شـبه جـزيرة سيناء».

«وبعد ٣ دقـائق من مغادرة المـوجة الأولى للمطـارات المضروبة، وصلـت الموجة الثانيـة من ٤٠ طائرة أيضاً لتشـن الهجوم الثانى علـى نفس المطارات، ثم تلتـها الموجة الثالثة بنفس التـرتيب، وهكذا حتى بلغ عدد تلك الموجات ثمانـى استغرق عملها ٨٠ دقيقة، أعقبـها فاصل مدته ١٠ دقائق قبل أن تبدأ المـوجات الثمانى التالية عمـلها تباعاً وبنفس الأسلوب والتوقيت، وضد نفس الأهداف».

وبعد كل هذه التفصيلات المروعة يكتفى صاحب المذكرات من التعقيب بقوله:

«وهكذا تم الأمر فيـما بين الـساعة التاسـعة إلا ربعاً والـساعة الثانيـة عشرة إلا ربعاً من ذلك الـصباح، وانفـرد قائد القوات الجـوية والدفاع الجوى المـصرى بأنه الـوحيد الذى فقد سلاحه مرتين خلال حقبة واحدة من الزمن (١٩٥٦ ـ ١٩٦٧)».

(٦٦)

أما تفاصيل الهجوم البرى الذى قادته القوات الإسرائيلية فى ٥ يونيو ١٩٦٧ فيقدمها اللواء عبدالمنعم خليل بطريقة سلسة رغم ما تحفل به من تفصيلات عسكرية، وهو فى حقيقة الأمر يأخذ إلى أبعد حد بمبدأ « اعرف عدوك » ويبدو حريصاً كل الحرص على إنصاف الخصم فى أدائه المهنى، مقدماً كل التفصيلات التى لابد أن يعنى بها كل قارئ للتاريخ الذى مر بوطننا العظيم فى هذه المحنة على يد مدربة جيداً:

«ولهذا اعتزم العميد يشعياهو جافيتش قائد الجبهة الإسرائيلية أن يستهل هجومه على سيناء بتطويق الدفاعات من جهة الشمال حول رفح، على عكس ما فعل سلفه العميد عساف سمحونى إبان الجولة الثانية فى خريف ١٩٥٦، عندما بدأ تطويقها من الجنوب حول القصيمة وأم قطف، نظراً لتمركز أغلب الدفاعات وقتذاك فى الشمال. هذا وقد ناهز حجم القوات التى وضعت تحت قيادة جافيتش ٧٠ ألف مقاتل ونحو ٧٥٠ دبابة».

«ووقعت الضربة البرية الأولى بلواءين مدرعين، ولواء مظلى، ولواء مشاة، وفوج مدرع خفيف بإجمالى ١٥ ألف مقاتل و٢٥٠ دبابة تحت قيادة العميد إسرائيل طال، الذى أدار حركة كماشة حول رفح من الشمال عند خان يونس، ومن الجنوب حول درب المصرى ليلتقى فكاها خلف الشيخ زويد، ثم يواصلا الاندفاع غربا حتى العريش فالقنطرة، بينما ينفصل قسم منها عند العريش ليتجه جنوباً إلى المطار ثم بير لحفن فالحسنة».

«ووقعت الضربة الثانية بلواء مشاة ولواء مدرع ولواء مظلى بإجمالى ١٥ ألف مقاتل و١٥٠ دبابة تحت قيادة العميد أريل شارون الذى اندفع بها من العوجة غرباً على محورين، هاجم المحورالشمالى دفاعات أم قطف من ناحية غرود مكسر الفناجيل، التى كانت القوات المصرية تعتبرها غير صالحة للتحركات فكانت سبباً فى مفاجأتها وهزيمتها، بينما التف المحور الجنوبى حول أم القطف وهاجمها من الخلف عند سد الضيقة».

على هذا النحو يمضى اللواء عبدالمنعم خليل فى تلخيص معلوماته عن الضربات العسكرية التى وجهتها إسرائيل إلى الجبهة المصرية يوم الخامس من يونيو ١٩٦٧، ومن الواضح أنه ينقل عن مصادر إسرائيلية دون تعليق كثير أو نقد، ويبدو أن السبب فى هذا أننا لم نكن قد سجلنا عن هذه الحرب شيئاً ذا بال، والله أعلم:

«أما الضربة الثالثة فقام بها العميد أبراهام يوفيه بلواءين مدرعين كل منهما ١٠٠ دبابة ستوريان، اندفعت بين قوات طال وقوات شارون عبر وادى الحريضين الذى كان يعتبره المصريون أيضاً غير صالح للتحركات الكبيرة ففاجأ قوات بير لحفن المكونة من كتيبة مشاة، ثم زرع الكمين جنوبها حيث قضى على الضربة المضادة التى وجهها القائد العام من الحسنة لتستعيد الأوضاع على الاتجاه الشمالى، والتى تشكلت من لواء مشاة وآخر مدرع، ودفعت فى عجلة وعشوائية غريبة لتنفذ مهمة غامضة دون أن تزود بمعلومات كافية عنها».

«يبقى الهجوم التثبيتى فى أقصى الجنوب، والذى قام به العقيد آلبرت ماندلر بلواء ميكانيكى فى مواجهة الكونتلا، لحجز القوات الضخمة أمامه ومنعها من التدخل فى المعارك الرئيسية فى وسط وشمال سيناء».

«وفى أقصى الشمال قام العقيد يهودا رشيف باجتياح قطاع غزة من الجنوب للشمال، على عكس ما فعل سلفه دافيد أليعازر فى الجولة الثانية، عندما اجتاحه من الشمال قرب غزة إلى الجنوب حتى رفح».

«وكان على قوات العميد جافيتش بعد أن تخترق الجبهة وتهزم خط الدفاع الثانى حول الحسنة، أن تندفع إلى المضايق القريبة لسيناء عند رمانة والجفجافة والجدى ومتلا لتحجز القوات المنسحبة هناك، توطئة للقضاء عليها بالقوات الجوية والقوات البرية اللاحقة، ثم تستغل النجاح حتى الضفة الشرقية لقناة السويس».

«ونتيجة لعنف الضربة الجوية الشاملة ونجاحها فى مفاجأة وتحطيم الغطاء الجوى العربى فى المسرح، وما تبع ذلك من مناورات برية عميقة داخل سيناء مزقت النطاق الدفاعى الأمامى فيما بين رفح والكونتلا.. فقد اهتز القائد العام، وبادر دون استشارة هيئة العمليات الحربية، أو قائد الجبهة، أو قائد الجيش الميدانى، بإصدار أمره - سيء

الحظ ـ بإخلاء سيناء من كافة القوات فى بحر ٢٤ ساعة، مع تدمير كافة الأسلحة الثقيلة، والعودة بالخفيفة فقط».

(٦٧)

ويلخص اللواء عبد المنعم خليل امتداد الهزيمة على مستوى العالم العربى بعد أن تمكنت إسرائيل من كبرى القوات المسلحة العربية فإذا المجال مفتوحاً أمامها فى نفس اليوم للقضاء على بقية موارد القوات الجوية العربية دون جهد كبير:

«...... وقرب العصر راحت الطائرات الإسرائيلية تهاجم مطارات الأردن فسوريا فالعراق، فلم تغرب الشمس حتى كانت قد امتلكت السيادة الجوية غير المنازعة فى سماء المسرح».

«وعلى الرغم من وجود قيادة عربية مشتركة، وقيادة موحدة، فإنهما ظلتا خامدتين منذ لحظة بدء العدوان حتى انتهائه، بل كان قادتهما يتابعون أحداث القتال عن طريق المذياع. ولو مارست إحداهما مسئولياتها لأمكن حشد أضعاف ما فقدته دول الطوق من طائرات لتواجه بها إسرائيل صباح اليوم التالى فيخيب أملها وتجد نفسها فى موقف لم تكن تتوقع أن تصادفه، لاسيما أن أغلب ما تم تدميره من ممرات بالمطارات أمكن إصلاحه قبل فجر ٦ يونيو».

❑

ولا يقف صاحب المذكرات عند هذا الحد من وصف ما حدث بهذا التفصيل وبهذا التدقيق فحسب، ولكنه يعلق على ما حدث مجيباً على الأسئلة التى قد تراود القارئ العادى وهو يرى هذه النجاحات الإسرائيلية المتوالية فى يوم واحد دون أن يكون هناك ما يوقفها عند حد، وهو يرينا بأمانة كيف نجحت الخدمة الأرضية الإسرائيلية فى المساعدة على تحقيق هذا النجاح الشديد لطائرات سلاح الجو الاسرائيلى :

«ومما أثار دهشة العرب معدل الهجوم الإسرائيلى الجوى نتيجة نجاح الخدمة الأرضية فى إعادة تجهيز الطائرات بلوازمها قبل إقلاعها للمرة التالية فيما لا يتجاوز العشر دقائق، مما دفع البعض إلى الظن بسبب ذلك أن ثمة طائرات أجنبية تشترك فى الضربة مع إسرائيل».

«والواقع.. أن الخدمة الأرضية الإسرائيلية مكنت طائراتها من أن تحقق أكثر من ٨ طلعات فى اليوم الأول للهجوم، بينما لم يكن المصريون يتوقعون أكثر من أربع طلعات على أسوأ الفروض».

(٦٨)

ويرجع صاحب هذه المذكرات أسباب الفشل المصرى فى حرب ١٩٦٧ إلى أسباب تتعلق بالإدارة والقيادة (التسيب) وإلى أسباب تكنولوجية أيضاً فيقول:

«وعلى الجانب المضاد.. لم تكن أجهزة الإنذار العربية تستطيع التقاط الطائرات المغيرة على الارتفاعات المنخفضة، كما أن حالة التسيب التى كانت عليها القوات الجوية المصرية صباح يوم ٥ يونيو أسهمت بدورها فى نجاح الضربة الجوية الشاملة التى استخدمت إسرائيل فيها ٢٦٠ طائرة، بينما احتفظت بعدد ١٢ طائرة للدفاع عن سماء إسرائيل، وعدد ٦٠ طائرة تدريب فوجا ماجستير بعد تسليحها لدعم التشكيلات البرية فى هجومها على سيناء، حيث كانت الطائرات الأخرى منهمكة تماماً فى تنفيذ الضربة الجوية».

«لقد خطط الصهاينة بالتعاون مع البنتاجون الأمريكى لهذه الضربة الجوية الشاملة لعشر سنوات سلفت، واعترف طيار إسرائيلى أسير أنه ظل يتدرب على مهمنه على مجسم مماثل تماماً للهدف المطلوب تدميره لمدة ١٦ شهراً».

«وكتمت إسرائيل النصر عن عمد حتى تفسح لقواتها البرية فرصة إنجاز مهامها القتالية، قبل أن يتدخل مجلس الأمن أو يتحرك الاتحاد السوفيتى لنجدة حلفائه العرب. وقد أكد قائد السلاح الجوى الإسرائيلى أنه دمر ٣٠٩ طائرات مصرية، و٦٠

سورية، و١٧ عراقية، و٢٧ أردنية، وواحدة لبنانية، بمجموع كلى ٤١٤ طائرة مقابل ٤٦ طائرة و١٦ طيارا».

❑

ويقدم لنا اللواء عبد المنعم خليل وصفاً تفصيلياً لحال إحدى فرق الجيش المصرى وقد أنهكها التعب حتى من قبل أن تبدأ الحرب بسبب تحركات كثيفة على غير هدى وبدون هدف محدد:

«...... بعد ثلاثة أسابيع من التحركات الكثيفة على غير هدى ودون هدف معلوم، والتى راح القائد العام المصرى يأمر بها تباعاً حتى أجهد القوات، وأنهكها القيظ والعطش، وأربكها غموض المهام، انتهت الحال بين رفح والعريش، والفرقة ٢ المشاة الميكانيكية على الاتجاه الجنوبى فيما بين الكونتلا ونخل، بينما احتلت الفرقة ٣ المشاة الخط الثانى فى الخلف بين جبل لبنى وبير الحسنة، وإلى الشرق منها القوة الخفيفة المشكلة من لواء مدرع ولواء فدائيين حول وادى لصان والمعين. أما الفرقة ٤ المدرعة ـ التى كانت تشكل القوة الضاربة والاحتياطى الاستراتيجى للدولة ـ فقد تمركزت حول بير الجفجافة على الاتجاه الأوسط».

«وكان هناك لواء آخر من المظليين فى منطقة شرم الشيخ لقفل خليج العقبة فى وجه الملاحة الإسرائيلية، ولواء من جنود الاحتياطى فى منطقة ممر الجدى، وبهذا بلغ حجم تلك القوات نحو ١٠٠ ألف مقاتل و٩٣٠ دبابة، تمركز الجزء الأكبر منها فى وسط وجنوب الجبهة فيما بين أبو عويقيلة على الاتجاه الأوسط والكونتلا على الاتجاه الجنوبى».

(٦٩)

وينبغى لنا أن نتأمل موقف صاحب هذه المذكرات من قضية مسئولية قادة القوات الجوية عن هزيمة ١٩٦٧، وهو يصرح بكل وضوح بمسئولية هؤلاء القادة عن

الهـزيمة، ويصـف مبرراتـهم وذرائعهـم بأنهـا غير كافـية، بل إنـه يسحب مـن تحت أقدامهم البساط الـذى تصادف أن فرش لهم قبل المعركة حين سئلوا عن الخسائر إذا ما تركت للعدو الضربة الأولى، وهو يصف تقديرهم لحجم الخسائر بأنه خاطئ، وهى نقطة لـم يتناولها غـيره على هذا النحـو، كما أنه يشرك الخبـراء السوفييت مـعهم فى المسئولية عن هذا التقدير الخاطئ وبخـاصة أن لهم تجاربِ مماثلة فى بداية حربهم مع الألمان فى ١٩٤١:

«..... والواقع أن كـل الدفوع التى أدلـى بها كبار ضـباط القوات الجويـة والدفاع الجوى المصرى، وما ساقوه من ذرائـع لا يبرر الهزيمة الفادحة التى تسبـبوا فيها صباح الخامس من يونيـو. فلا نقص الاعتمادات، ولا ضغط المصـروفات، ولا ترك الضربة الأولى للعدو أقنع أحداً بتبرير ما حدث، أو أبعد المسئولية عمن تسبب فيها».

«فهذه القيادة هى التى قدرت خسائرها ـ إذا ما تركت للعدو الضربة الأولى بنحو ١٥ ـ ٢٠٪، وقد شاركها خبراؤها السوفييت فى هذا التقدير الخاطئ، الذى كان يجب عليـهم أن يصحـحوه لو عادوا إلـى تجاربهم المـماثلة فـى بداية حربـهم مع ألمانـيا عام ١٩٤١».

❑

ومع هذا يردف عبدالمنعـم خليل بذكر بعض الأسباب الفنية (التـكنولوجية) التى ساعـدت على تحقـيق الهزيـمة بهذا الحـجم من قبـيل عدم توافـر وسيلة إنـذار ضد الطيران المنخفض:

«فإذا أضفنا إلى ما سـبق عدم توفر وسيلة إنذار ضد الطيـران المنخفض، وضعف قدرة الدفاع الجوى من صواريخ ومدافع ورشاشـات عن وقاية الأهداف الموكلة إليه، لاكتمل أحد الأسباب الرئيـسية لما انتهت إليـه الجولة الثالثة من هزيمة، والتى لو بذلوا بعض الجهد الذى بذلوه بعدها للتنصل منها فى محاولة درئها بجدية، لما وقعت بهذه الدرجة من الشمول والدمار».

(٧٠)

وتتميز هذه المذكرات فى رأيى على جميع ما كتب حول حرب ١٩٦٧ بإجادة صاحبها اللواء عبدالمنعم خليل معرفة عدوه معرفة جيدة، فهو بفضل إطلاعه ودراسته لما كتبه قادة العدو والآخرون عن المعركة واع تمام الوعى لمدى الإمكانات الضخمة التى تمتع بها هذا العدو فى هذه الجولة من الصراع من ظروف مواتية، وتعاطف دولى، وغفلة الخصم وإهماله، وهو حريص على الدوام أن يصور لنا بالأرقام حجم القوة العسكرية الإسرائيلية ومداها وقدرتها، وهو يصف الحشد العسكرى الإسرائيلى قبيل حرب ١٩٦٧ وصفاً دقيقاً فيقول:

«اكتمل لإسرائيل مع مطلع شهر يونيو ١٩٦٧ الموقف الدولى المتعاطف، والحشد العسكرى المتفوق الذى ناهز ربع المليون مقاتل، كان ٥٠ ألفاً منهم من الإلزاميين، و٢٠٠ ألف من الاحتياطى فى الخط الأول الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٢ و٣٩ سنة، ويملكون خبرة قتالية عالية من واقع ما خاضوه من حروب سابقة وإغارات كثيرة، فضلاً عن المناورات والتدريبات الواقعية على نفس مهام القتال المقبلة، حتى صاروا بمثابة القوة الضاربة الرئيسية لجيش إسرائيل».

«وكانت تلك القوة البرية الضاربة قد تمت بفضل أسلوب التجنيد والتعبئة الذى اعتبر الفترة الإلزامية مجرد دراسة لفنون القتال، بينما وجه خدمة الاحتياط للتطبيق الميدانى والقتال الفعلى، فزاد بفضل ذلك حجم القوات البرية من ١٨ لواء فى الجولة الثانية خريف ١٩٥٦ إلى ٢٥ لواء فى هذه الجولة، منها ٩ ألوية مدرعة و٢ ميكانيكى و١٠ مشاة بعضها شبه ميكانيكى، و٤ مظلى،علاوة على ١٥ لواء آخر من جنود حرس الحدود والدفاع المحلى، يناهز عددهم ٧٠ ألفا».

❑

وفى موضع آخر يشير صاحب هذه المذكرات إلى مدى النجاح الذى أحرزته القوات المسلحة الإسرائيلية فى تطوير قدراتها الحربية فيما بين الحربين فيقول:

«فإذا ما قارنا بين تلك المدة التى تم خلالها اكتساح ثلاث جبهات بالمدة التى

استغرقها الهجوم على جبهة سيناء بمفردها فى خريف ١٩٥٦، والتى تجاوزت السبعة أيام، لظهر لنا مدى التقدم الكبير الذى طرأ على آلة الحرب الإسرائيلية خلال الأحد عشر عاماً التى تفصل بينهما، مقابل التدهورالخطير فى نفس الآلة على الجانب العربى».

(٧١)

هذا إذن هو رأى عبدالمنعم خليل فى حرب ١٩٦٧ وفى الفترة التى سبقتها، فما هو رأيه ياترى فى حرب اليمن التى شارك فيها بنفسه؟

إنه يتعرض لهذه الحرب فى مواضع كثيرة من كتابه بل كلما سنحت له الفرصة، وهو يعبر فى أحد هذه المواقع عما يمكن أن نصفه بأنه خلاصة رأيه حيث يقول:

«.... أراد الله سبحانه وتعالى أن نخوض تجربة حرب محيرة حقاً حيث لم نكن نعرف العدو من الصديق. وكانت القيادة السياسية هى التى دفعت بالقوات المسلحة المصرية إلى اليمن بدأتها بوحدات قليلة من الصاعقة والمظلات، وتحولت بعد أشهر قليلة إلى ميدان قتال ضخم، ضم أحجاماً كبيرة جداً من القوات المسلحة المصرية..»

«والحقيقة أن اليمن اليوم ـ ونحن فى نهاية القرن العشرين ـ تشهد تقدماً رائعا فى كل المجالات بفضل مساندة القوات المصرية المسلحة لثورتها فى سبتمبر ١٩٦٢. ولكنى كجندى اشتركت فى الحرب مخططاً ومقاتلا أجد أن القوات المصرية المسلحة البرية والجوية والبحرية ـ وحتى رجال الحدود والسواحل ـ خسرت كثيراً فى هذه الفترة الطويلة فى اليمن التى ناهزت الخمس سنوات، خسائر ليس فى الأرواح فقط أو المعدات بأنواعها، ولكن فى فقد خبرة القتال الحقيقية لمعركة الأسلحة المشتركة، وفقد كفاءة وقدرة القائد والجندى والمعدة. وكانت نتائجها السلبية المدمرة هى ما حدث فى ٥ يونيو ١٩٦٧، بالإضافة إلى الصراع الذى اشتعل على القمة، وصراع القيادة الحربية مع القيادة السياسية، والآثار النفسية على الضابط والجندى ضحية هذا الخلل».

«فقد كـان الجيش المصـرى يمتلـك دبابات سوفيتية مـن طراز ت ٥٥، وت ٥٤، وناقلات جنود مدرعـة، ومدافع هجومية إس يو ١٠٠، وعدد كبـير من الدبابات ت ٣٤ القديـمة ولكنـها تصلـح للقتال.. خـلاف القوات الجويـة والطـائـرات ميج ١٧، وميج ١٩، ومـيج ٢١، وتى يو ١٦، والأسـلحة البحـرية من مدمـرات وغواصات .. إلخ. وبالطبع كان لحرب اليمن تأثير كبير عـلى الكفاءة الفنية لهذه الأسلحة والمعدات بدرجة كبيرة، أفقدتها كثيراً من إمكانياتها الفنية».

«ورغم علم القيادة العسكرية المصرية، وكذا الزعامة السياسيـة ـ بالطبع ـ بضعف الكفاءة الفنية لهذه الأسلحة والمعدات والتأثـير النفسى على الفرد المقاتل، وعلى أفراد الشعب المصرى.. فقد اتخذت أسلوباً فى تـعبئة القوات المسلحة يوم ١٤ مايو ١٩٦٧ على أساس غير سليم».

كذلك يقول اللواء عبدالمنعم خليل :

«فى تقدير رسـمى لهيئة عمليات الـقوات المسلحة المصرية.. أشيـر إلى أن جميع فرق الجيش المـصرى لم يصل تدريـبها حتى ١٩/ ٥/ ٦٧، إلا إلى مـستوى الكتيـبة فى الدفـاع (مستويـين أقـل من المـفروض)، أى أنـها رغـم ممارسـة الحرب فـى اليـمن واحتمالات الحرب ضد إسرائيل قريباً لم تكن قد تدربت على الهجوم من قبل!!».

(٧٢)

وفى موضـع آخر يصل صاحـب هذه المذكرات إلى تلـخيص مدى ما وصـل إليه التدخل العسكرى المصرى فى اليمن، وهو يقـدم أرقاماً تفصيلية وشروحا وافية يجيد بها تصوير الموقف بصورة لاتقل فى دلالاتها عن مذكرات الفريق أنور القاضى [التى تناولناهـا فى الباب الثالث من كـتابنا: «الطريق إلى الـنكسة»] أو المشير الجمسى التى نعرضها فى الباب الأول من الكتاب الذى بين أيدينا ويقول :

«وفى مطلع عام ١٩٦٧ كان الـوجود العسكرى المصرى فى اليمن قـد مضى عليه خمس سنـوات مضنية أضرت بقـدراته القتالية، وبمـستواه الفنى، وبدرجـة صلاحية

معداتـه، وكان عدد الضبـاط الذين يخدمون باليمن فى أبريل ١٩٦٧ قد وصل إلى ٢٢٠٩، والرتب الأخرى إلى ٣٢,٥٥٩، والمدنيين إلى ١٨١٦، أى ما مجموعه ٣٦,٥٦٤ فردا ، كان عدد مماثل لهم فى طريق العودة لمصر بعد خدمته باليمن، بينما عدد ثالث يتأهب للذهاب إليها كغيار للعدد الذى يخدم هناك بعد انتهاء مدة خدمته، ويعنى ذلك أن نحو مائة ألف فرد من القوات المسلحة المصرية كانوا وقفاً على خدمة مسرح اليمن بالتناوب فيما بينهم».

❑

وفى موضع آخر وفى وسط سياق حديثه عن حرب اليمن، يلخص صاحب هذه المذكرات النتائج السلبية لاستغراق الجيش المصرى فى اليمن، وهو يقدم أرقاماً على هيئة نسب مئوية معبرة، موضحاً فى ذات الوقت مدى السعادة التى حققتها إسرائيل نتيجة لهذا الاستغراق المصرى فى اليمن وكيف كانت فى ذات الوقت تعد نفسها لحرب جديدة تكون قادرة فيها على استدراك أخطاءها القليلة فى حرب ١٩٥٦:

«وظل الوجود العسكرى المصرى باليمن يتزايد حتى تجاوز ٤٥ ألف جندى فى منتصف ١٩٦٣، ثم ٧٠ ألفاً فى نهاية ١٩٦٥ استنفدوا نحو ٥٤٪ من جملة سلاح المشاة المصرى، و٨٠٪ من المدرعات، و٦٨٪ من المدفعية، و٨١٪من المقاتلات القاذفة، و٧٦٪ من المقاتلات التى كانت تملكها مصر وقتذاك».

«وكان هذا الوضع يخدم خطط إسرائيل التى كانت قد عقدت العزم بعد إجبارها على الانسحاب من سيناء وقطاع غزة فى ٦ مارس ١٩٥٧ على أن تعيد الكرّة، بعد أن تعالج أوجه القصورالعسكرى وأسباب الفشل السياسى الذى حرمها من أن تحتفظ بالمكاسب العسكرية فى جولة ١٩٥٦».

(٧٣)

كذلك فإن رأيه فى حرب اليمن يعترف فيه بدور مصر فى نجدة الثورة اليمنية

ولكنه فى ذات الوقت يعترف بدور هذه الحرب فى هزيمة ١٩٦٧، بل إنه لايكف عن ترديد رأيه القائل بأن حرب اليمن كانت بمثابة السبب المباشر لهزيمة ١٩٦٧، ويرجع عبدالمنعم خليل هذه العلاقة السببية إلى عوامل محددة هى فقدان عقيدة القتال وعقيدة الاستشهاد، والتحول بدلا من ذلك إلى المنافع المادية:

«... وعندما قامت ثورة اليمن فى ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ سارعت مصر إلى نجدتها والوقوف بجانبها ضد قوى الاستعمار والرجعية».

«وكانت هذه النجدة سبباً رئيسياً فى نجاح ثورة اليمن وازدهار اليمن وجلاء المستعمر الغاصب عن الجنوب اليمنى ومساندة القوى الوطنية فى أرجاء العالم العربى».

«ولكن هذه النجدة كانت أيضاً السبب المباشر لهزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، فقد فقدنا عقيدة القتال وعقيدة النصر أو الشهادة، وفزنا بعقيدة الريال، وتفجرت الصراعات العربية بين دول العالم العربى بعضها البعض، وفى داخل الدولة الواحدة خاصة مصر واليمن نفسها!!».

«فمسرح اليمن يجذب أفضل الوحدات المقاتلة المصرية، حيث تستهلك معداتها وذخائرها فوق جباله ووهاده فى حرب يختلف مسرحها وأسلوبها اختلافاً تاماً عن مسرح سيناء. والنصر السياسى الذى كانت الزعامة المصرية قد حققته ببراعة فى تلك الجولة حجب الأخطاء الجسيمة وأوجه القصور الخطيرة فى التخطيط والأداء العسكرى، خاصة فى القوات الجوية، وفى تخطيط وأسلوب انسحاب القوات من سيناء الذى كان مثالاً للفوضى والانفلات العسكرى».

(٧٤)

ونحن نقرأ فى بداية هذه المذكرات خلاصة رأى عبد المنعم خليل فى حرب ١٩٥٦، وهو رأى معبر أشد التعبير عن حقيقة نتيجة هذه الحرب دون أن يتطرق إلى إثبات دعاوى غير حقيقية أو فلسفتها، فهو يعترف بالهزيمة المستورة، كما يعترف

بالانتصار المزعوم، والأهم من هذا أنه بوعى فكرى متميز يذكر أن كلا من هذين: الانتصار والهزيمة كانا بمثابة عبء على بلاده:

«وكانت عناية الله تحمى مقاتلينا فى صحراء سيناء من نيران العدو ولهيب الانسحاب وقسوة الصحراء».

«وخرجت مصر من حربها ضد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ منتصرة مهزومة!! يثقل كاهلها الانتصار المزعوم ويهزم كيانها الهزيمة المستورة».

....

«وكسبت إسرائيل سيطرتها المؤقتة على شبه جزيرة سيناء بالكامل».

ويلخص صاحب هذه المذكرات موقف القوات المصرية عند اندلاع حرب ١٩٥٦ فى عبارات واضحة ومفهومة للقارئ العادى حيث يقول:

«لم تكن القوات المسلحة المصرية تتجاوز وقتها المائة ألف جندى، لم يستوعبوا بعد ما وصلهم من أسلحة ومعدات شرقية منذ أربعة شهور فقط. وقد تشكلت القوات البرية فى عشرة لواءات من المشاة المترجلة، وثلاثة لواءات مدرعة أحدها تحت التشكيل، ولواء مظلى واحد، وبعض كتائب المدافع ومدافع الماكينة المضادة للطائرات، والمدفعية الساحلية بكل من الإسكندرية وبورسعيد والعريش وغزة وشرم الشيخ بمدخل خليج العقبة».

«وكانت تلك القوات تملك وقتها نحو ٦٥٠ دبابة، و٤٠٠ مدفع ميدان مختلف الأعيرة، و٢٠٠ مدفع مضاد للطائرات، و٢٠٠ عربة مدرعة طراز (BTR-40)، و٤٠٠ عربة استطلاع صغيرة بريطانية الصنع،وحوالى ٥٠٠ حمالة برن».

«أما القوات الجوية فكانت تضم ٢٠٠ مقاتلة أغلبها من طراز الميج ـ ١٥، وقلة من طراز الميج ـ ١٧، و٧٩ قاذفة أغلبها من طراز اليوشن ـ ٢٨ إلى جانب بعض طائرات التدريب والنقل والمواصلات».

«وفيما يتعلق بحاميتي سيناء وقطاع غزة كانتا تضمان عادة أربع فرق قوامها ٦٠ ألف مقاتل، سحب أغلبها غرب القناة مع بداية تجمع سحب الأزمة الدولية فلم يبق منها سوى ٦ كتائب مشاة لا يتجاوز عدد أفرادها ٦ آلاف مقاتل».

«هذا.. وقد تم دفع نحو ١٠ آلاف مقاتل من القوات المدرعة والخفيفة إلى سيناء خلال اليومين الأولين للحرب لتعزيز الحاميتين الصغيرتين اللتين وقع عليهما ثقل العدوان الصهيوني المسنود بالجهد الجوى والبحرى والفرنسى».

«أما الحرس الوطنى المصرى فكان مسلحاً بالأسلحة الصغيرة فقط، وقد صار نشره فى عناصر قليلة العدد على أماكن متفرقة من سيناء».

«وبينما كانت حامية غزة يطلق عليها مجازاً اسم الفرقة ٨ المشاة، فإن حجمها لم يكن يزيد على لواء مشاة غير كامل المرتب، كما كانت الفرقة ٣ المشاة تحتل دفاعات سيناء بكتيبتى مشاة فى كل من أبو عويقيلة ورفح والعريش، وكتيبة واحدة بشرم الشيخ».

(٧٥)

ويروى صاحب هذه المذكرات تفصيلات مهمة عن حرب ١٩٥٦، منها أننا فقدنا ٢٦٠ طائرة فى الهجوم الجوى دون أن نتمكن إلا من إسقاط ٧ طائرات فقط، وأن الأسطول الفرنسى قد قصف بمدافعه الثقيلة مدمرة مصرية وأسرها وتوجه بها إلى ميناء حيفا:

«وما إن حل ظلام ليلة الأربعاء ٣١ أكتوبر، حتى انقضت طائرات الكانبرا البريطانية على مطارات مصر، تقصفها بقنابلها فتدمر نحو ٢٦٠ طائرة وهى جاثمة على الأرض. وقد اشتركت بعض الطائرات الفرنسية فى هذا الهجوم الجوى الذى راحت ضحيته سبع طائرات فقط أسقطتها وسائل الدفاع الجوى المصرى، فكانت

ثمناً زهيداً لما حققته الضربة الجوية من انتزاع السيادة الجوية غير المنازعة فى سماء المسرح».

«وبهذا أصبحت القوات المصرية بسيناء دون غطاء جوى فى تلك الصحراء المكشوفة، بينما طائرات فرنسا تحمى سماء إسرائيل، وأسطولها يقصف بمدافعه الثقيلة دفاعات رفح كما يقصف أيضاً المدمرة «إبراهيم الأول»، ثم يتيح لبحارة إسرائيل اعتلاء سطحها لأسرها والتوجه بها إلى ميناء حيفا».

ومن المفارقات ما يروى من أن هذه هى المدمرة ذاتها التى دمرها المصريون فى حرب الاستنزاف بعد أن حدثها الإسرائيليون وأطلقوا عليها اسم «إيلات».

(٧٦)

ويبدى اللواء عبد المنعم خليل وجهة نظر مهمة تتعلق بما يطلق عليه أو ما يسميه تخلف الغزو البحرى لبورسعيد عن أن يحقق نتائج تليق بالدولتين اللتين كانتا تنتميان إلى الحلفاء رغم أنه لم يكن قد مضى سوى ١٢ عاماً على ذلك الغزو البحرى الهائل لساحل نورماندى، ولكن قوات الدولتين المعتديتين كانت قد أصابها النقص الشديد فى الكفاءة على حد تعبير صاحب المذكرات حيث يقول:

«قصر تخطيط عملية غزو بورسعيد بحراً عام ١٩٥٦ عن تحقيق مثل ذلك المستوى الرفيع الذى سبق للحلفاء أن حققوه عام ١٩٤٤ فى خطة غزو نورماندى، بقوة أضخم مئات المرات، وضد عدو أقوى وأكثر شراسة. كما شاب تنفيذ تلك الخطة كثير من الارتباك وتضارب الآراء والتوقف عن العمل، ثم التعديل والتغيير قبل استئناف القتال».

«لقد سارت عملية حشد سفن وقوات الغزو إلى جبل طارق والجزائر ومالطة وقبرص على أسوأ صورة بسبب النقص الخطير فى ضباط الأركان الأكفاء. وتدنى

الخبرة والدراية بمثل تلك العمليات المعقدة، رغم أنه لم يكن مضى سوى ١٢ عاماً على الغزو البحرى الهائل لساحل نورماندى».

«ربما يعود سبب ذلك إلى انشغال القوات البريطانية والفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية فى كبت حركات التحرر التى اشتعلت فى غالبية المستعمرات، مما أنساها صنعة الحرب الحقيقية».

«وما إن بدأ القصف الجوى البريطانى لمصر حتى هب جون فوستر دالاس يطالب حكومة بريطانيا بوقف العدوان فوراً. وواكب كل ذلك عدوان السوفييت على دولة المجر يوم ٤ نوفمبر التى سحقها بولجانين بدباباته، ثم تحول إلى بريطانيا وفرنسا يمطرهما بالإنذارات الملتهبة التى تهددهما بالويل والثبور، ويمطر إسرائيل بالإهانات وبسوء المآل».

(٧٧)

ويبادر صاحب هذه المذكرات بينما هو لا يزال فى الحديث عن حرب ١٩٥٦ بأن يصف الانسحاب المصرى الأول فى ١٩٥٦ بأنه كان شبيهاً فى بعض جوانبه بالانسحاب الثانى الأخطر أثراً فى ١٩٦٧:

«وفيما يختص بأسلوب انسحاب القوات المصرية من سيناء، فقد شابه كثير من العيوب التى حولت الانسحاب التالى الذى جاء بعده بأحد عشر عاماً إلى كارثة عسكرية بكل المعايير».

❑

وينبه صاحب هذه المذكرات إلى مدى سيطرة الجمود فى الفكر العسكرى وضعف المرونة بعبارات إنشائية ولكنها تعبر عن الحقيقة الوجدانية للشعب الذى ينتمى إليه الجيش والقائد:

«وفوق كل ذلك تجلت حالة الجمود وضعف المرونة فى القيادات المصرية فى أغلب المستويات بما دفع البعض إلى التساؤل أين ذهبت تلك المبادأة والمرونة التى

انصفت بها قيادات وقوات صدر الإسلام، وكيف ضيع الأحفاد تراث الأجداد وتركوه لعدوهم ليهزمهم به فى الميدان».

❑

ويقارن اللواء عبد المنعم خليل بين موقف القيادتين العسكريتين فى إسرائيل ومصر فيما بين حربى ١٩٥٦ و١٩٦٧ ويقول:

«أما المؤلم حقاً فإنه عندما وقع العدوان التالى صيف عام ١٩٦٧، كانت إسرائيل قد عالجت أغلب أوجه القصور التى كشفت عنها الدراسات المستفيضة لجولة خريف ١٩٥٦، بينما اكتفت مصر بترديد أهازيج النصر متغافلة عمداً عما ظهر من قصور وأخطاء كان بعضها خطيراً والبعض الآخر فادحاً والواقع أن القيادة العسكرية أتقنت دورها فى الاستتار بفشلها العسكرى وراء النصر السياسى العظيم، الذى حققته مصر فى تلك الجولة من خريف عام ١٩٥٦، ونجاحه فى إجبار بريطانيا وفرنسا على سحب قواتهما من بورسعيد يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦، ثم إجبار إسرائيل التى كانت قد أعلنت ضم سيناء إلى رقعتها لإقامة الكومنولث الإسرائيلى الثالث، على الانسحاب منها ومن قطاع غزة يوم ٦ مارس ١٩٥٧».

(٧٨)

وتتميز هذه المذكرات بالقدرة على النظرة إلى حرب ١٩٤٨ بطريقة شاملة وموضوعية وهى نظرة متميزة كأنها نظرة الطائر (كما نقول فى وصف بعض المعارف).

ويلخص صاحب هذه المذكرات بالأرقام النتيجة التى انتهت إليها حرب فلسطين، وسنجد فى الأرقام التى يوردها شيئاً جديداً علينا وهو أن إسرائيل لم تكتف فى ١٩٤٨ بتأمين المساحة التى منحها لها قرار التقسيم وإنما أضافت إليها مساحة أخرى بحق الأمر الواقع كما يقول هو، ومن الطريف أنه فى ظل الاعتقاد الذى غذته صحافة الثورة وحملاتها المستمرة كان يستحيل على عبدالمنعم خليل أو غيره أن يورد مثل هذه الفقرة فى مذكراته، فإسرائيل كلها كانت فى العقيدة المعلنة مجرد إسرائيل المزعومة:

«وهكذا طويت صفحة حرب فلسطين التى كانت أول وأخطر جولات العرب مع إسرائيل والتى اغتصبت خلالها نحو ٦٦٠٠ كيلومتر مربع من الأراضى العربية، وضمتها إلى رقعة الدولة البالغ مساحتها ٢٠٧٠٠ كيلومتر مربع طبقاً لقرار التقسيم، ويعنى ذلك أن دولة إسرائيل قامت على مساحة قرارالتقسيم «كحق قانونى» وعلى مساحة الأرض الإضافية المغتصبة بحق «الأمر الواقع».

«ولما لم يكن ذلك هو كل ما تطمع فيه إسرائيل من أرض وحقوق العرب.. فقد توالت الاعتداءات الإسرائيلية بعد تلك الجولة الأولى حتى عدوانها الخامس(!!) على لبنان فى عام ١٩٨٢».

❑

ويضيف صاحب هذه المذكرات إلى معلوماتنا عن حرب فلسطين أن القوات المسلحة المصرية استأجرت للحملة العسكرية عربات من متعهد فلسطينى يذكر اسمه ولكنه لا يذكر هل كان مقر هذا المتعهد فى فلسطين أم فى مصر؟:

«وللأسف الشديد عندما قرر الملك فاروق زج الجيش المصرى فى حرب فلسطين لم تستطع الحكومة المصرية تخصيص حملة مناسبة للقتال فصار استئجار عربات من متعهد فلسطينى اسمه «باميهش» وتشكلت القوة المصرية فى لواء مشاة واحد ومعه بعض الدبابات الخفيفة، وكانت مصر تمتلك بعض الطائرات المقاتلة مع عناصر بحرية محدودة، واتخذت هذه القوات العريش قاعدة أمامية لها».

(٧٩)

ويلخص صاحب هذه المذكرات ما انتهت إليه حرب ١٩٤٨ فى عبارات عسكرية منضبطة، مشيراً إلى اجتماع عُقد لرؤساء أركان الجيوش العربية وما أعقبه من اجتماع آخر للجنة السياسية للجامعة العربية من جانب، والاجتماعات التى عقدت بين الملك عبدالله وبعض القادة الإسرائيليين من جانب آخر.

ويرى عبد المنعم خليل أن نهاية المعارك الحربية الثمانى فى ١٨ ديسمبر ١٩٤٨ هو الذى أسدل الستار على العمل العسكرى العربى بفلسطين:

«... وفى مساء الأربعاء ١ نوفمبر ١٩٤٨ نجح شبح الهزيمة فى أن يجمع رؤساء أركان الجيوش العربية لتدارك الموقف بعد أن تجاوز نقطة الانهيار. وتلخصت توصياتهم للجنة السياسية لجامعة الدول العربية على التأكيد بأن استمرار حالة الجمود والسلبية والنزول للعدو عن المبادأة والتفوق الجوى سوف يؤدى حتماً إلى الهزيمة».

«ولم يمر على تلك التوصية أسبوع واحد حتى كان قائد منطقة القدس موشيه ديان يجتمع بقائد القوات الأردنية بها يوم ١٨ نوفمبر، لتهيئة الجو نحو عقد اتفاق منفرد لإيقاف النيران على تلك الجبهة».

«ثم اجتمع الملك عبداله ببعض الساسة والقادة العسكريين الإسرائيليين بقصر الشونة ليلة ١٦ / ١٧ يناير لنفس الغرض، ولأبعد منه، فزاد الخرق فى الصف العربى اتساعاً لا سيما وأنه كان يشغل منصب قائد الجيوش العربية فى فلسطين!».

«وتحت هذه الظروف التى تدعو إلى الأسف والأسى، لم يكن غريباً أن تستغلها الأركان العامة الإسرائيلية لتدفع خطوطها الأمامية إلى حيث يستطيع جنودها أن يصلوا إليها. وقد دارت خلال تلك المدة التى امتدت من ١٥ نوفمبر إلى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ ثمانى معارك وعمليات ضخمة، كانت بمثابة بداية النهاية للعمل العسكرى العربى بفلسطين قبل أن تنسدل عليه ستائر الهزيمة».

(٨٠)

كما يلخص اللواء عبد المنعم خليل سير المعارك التى خاضتها القوات الإسرائيلية ضد مصر فى نهاية حرب فلسطين تلخيصاً بديعاً يعرض فيه وجهة نظر الإسرائيليين أنفسهم وهدفهم من هذه المعارك واستراتيجيتهم فيها، ويقول:

«وقد ختم آللون قائد الجبهة الجنوبية أمره اليومى صباح ٢٢ ديسمبر بقوله: «من أجل القضاء النهائى على جيش مصر سنهاجم العدو»، ورسم آللون خطته فى شكل

حركة تطويق واسعة من الشرق للغرب مروراً بالعوجة وأبو عويقيلة لتنتهي عند ساحل البحر المتوسط بين رفح والعريش، لعزل القوات المصرية بفلسطين عن قواعدها فى سيناء والدلتا توطئة للقضاء عليها بعدئذ جزءا وراء الآخر».

«وبدأت «حوريب»، وهو اسم الجبل الذى ناجى عليه موسى ربه، بقصف مطار العريش فى الساعة التاسعة مساء ٢٢ ديسمبر بطائرتين «ب ـ ٢٩» قفلت المطار، بينما كانت طائرات أخرى كثيرة تقصف رفح وخان يونس والفالوجا بغاية العنف».

«وبعد عدة مناوشات استمرت لمدة ٧٢ ساعة أطلق آللون قواته الرئيسية ليلة ٢٦/٢٥ ديسمبر فى مناورة تطويق صوب العسلوج التى انقضت عليها عناصر من اللواء ٨ المدرع ولواء النقب فى الساعة ١١ مساء ٢٥ ديسمبر، فتمكنت من احتلالها عند الفجر بينما كانت قوات خاصة تقطع خطوط المواصلات الحديدية والطرق البرية فيما بين غزة وبير العبد فى ٤٨ موضعا، بواسطة جماعة تخريب تسللت إليها من البحر لتشيع حالة من الارتباك تسرع بإنهيار الدفاعات المصرية واستسلامها».

ثم يلخص صاحب هذه المذكرات الاستراتيجية المصرية فى الدفاع وملاقاة العدو، وما تميزت به هذه الاستراتيجية من ذكاء على الرغم من صعوبة الموقف، والموقف الحرج الذى وجد اللواء أحمد فؤاد صادق نفسه فيه وكيف استطاع بأخلاق القادة المتميزين أن يحول الموقف إلى صالح القوات المصرية:

«وبمجرد أن عبرت قوات آللون حدود مصر عند العوجة، وجد اللواء صادق قائد القوات المصرية بفلسطين نفسه أمام موقف بالغ الخطورة، إذ لم تعد قواته المنتشرة بحذاء ساحل البحر المتوسط من شمال غزة حتى غرب العريش تستطيع مواجهة أى من احتمالات العمل الكثيرة التى انفتحت أمام آللون بعد استيلائه على العوجة».

«إلا أن صادقاً كان على ثقة أيضاً بأن قوات آللون قد بلغت آخر المدى، وأن التعب والإنهاك وأعباء طول خط المواصلات لن يترك لها فرصة لتحقيق ما هو أكثر مما حققته حتى ذلك الوقت. ولهذا ظل صادق رابط الجأش يشيع الطمأنينة فى مرءوسيه وجنوده الذين هرع إليهم تاركاً مركز قيادته فى الخلف لثقته بأن وجود القائد بين جنوده لا يعدله شيء، وهو ما لم يفعله أحد غيره فيما تعرضوا له من مواقف مشابهة فى الجولات التالية».

«وفى صباح ٢٩ ديسمبر وبينما رتل اللواء ٨ المدرع يقترب من مطار العريش الذى أخلته الطائرات وشيكاً إلى مطار الحمة اصطدم فى الساعة الثالثة عصراً بكمين مضاد للدبابات يقوده البطل الشهيد ملازم أول عبدالحميد محمد أبوزيد، الذى فتح نيران مدفعه البورفورز - ٤٠ ملليمتراً - الوحيد فحطم جنزير الدبابة القائدة للرتل الذى توقف للتو، ثم ارتد على آثاره نحو أبو عويقيلة».

«ومنذ العصر كان رتل آخر ينطلق من أبو عويقيلة صوب الحسنة، إلا أن الطائرات المصرية انقضت عليه وأجبرته على العودة من حيث أتى».

(٨١)

وفى خضم حديثه عن حرب ١٩٤٨ يبلور صاحب هذه المذكرات بعض تفاصيل النجاح الذى حققته القوات البرية المصرية بقيادة اللواء أحمد فؤاد صادق متعاونة مع القوات الجوية بقيادة اللواء مصطفى الشعراوى مسجلاً لتاريخنا العسكرى بعض الصفحات الناطقة بالمجد والتى تاهت فى وسط الحديث المتعاقب بعد هذا عن تدهور أداء قواتنا المسلحة فى ١٩٥٦ و١٩٥٧ فضلاً عن انتهاء حرب ١٩٤٨ نفسها بقيام دولة إسرائيل :

«وبذلت القوات الجوية المصرية بقيادة اللواء مصطفى الشعراوى خلال ذلك اليوم جهداً عظيماً فى مساندة القوات البرية التى كانت تتعرض لخطر التطويق والإبادة، مما دفع اللواء أحمد فؤاد صادق إلى أن يرسل مع غروب الشمس ببرقية يطمئن فيها القاهرة إلى أنه قد نجح فى القبض على زمام الموقف، وأن القوات الجوية قامت بعمل عظيم فى إنقاذ قواته وإجبار العدو على الانسحاب خلف الحدود».

....

«وأبدت بعض المحافل الدولية امتعاضها من تجاوز إسرائيل الحدود، فصدر قرار مجلس الأمن يوم ٢٩ ديسمبر بوقف النيران وانسحاب القوات الإسرائيلية إلى نفس

الخطوط التى كانت تحتلها قبل بداية عدوانها يوم ٢٢ ديسمبر، وهوالأمر الذى لم يقبله بن جوريون حتى هددتـه الولايات المتحدة يوم ٣١ ديسمبر بعزمهـا على إعادة النظر فى علاقاتها معه إذا رفض الانسحاب من سيناء فانصاع على الفور».

(٨٢)

بقيت نقطة فى غاية الأهمية، وهى أن عبدالمنعم خليل فى تناوله للدور المصرى فى حربى فلسطين واليمن معنى كل العناية بالجوانب العسكرية والفنية دون أن يشغل وقته بما يطلق عليه الجوانب الاستراتيجية فى الموضوعين، وليس يعنى هذا أنه أهمل هذه الجوانب، ولكنه ينظر إليها فى إطار استراتيجية قد تكون أرحب من ناحية، وقد تكون أضيق من ناحية أخرى، وهى استراتيجية إعداد القوى على حد تعبيره ، وليس يعنى هذا أنه يهمل الجوانب الاستراتيجية التقليدية فى هذا الكتاب، بل على العكس، فإنه متنبه تمام الانتباه لها، وهو يُنبه على سبيل المثال إلى أهمية ليبيا للاستراتيجية المصرية، ويذكر أن فرحة النظام المصرى بثورة ليبيا كانت تفوق فرحته بالثورة فى العراق لعدة عوامل:

« ... وتعهدت مصر بأن نقف مع ثورة ليبيا عسكرياً ضد أى تدخل أجنبى، لأن مصر اعتبرت ثورة ليبيا أهم بكثير من ثورة العراق عام ١٩٥٨، حيث إن ليبيا لها أهمية اقتصادية كبيرة، فهى تنتج ١٥٠ ألف طن بترول يومياً برءوس أموال أمريكية وغربية، ولها أهمية استراتيجية كمنطقة تدريب على الطيران واستخدام الأسلحة. وبعد المؤامرة الأخيرة فى ليبيا والتى اشترك فيها وزير الدفاع الليبى.. طلبت ليبيا من مصر إرسال قوات، وأرسلت مصر فعلاً كتيبة صاعقة بملابس مدنية، كما طلبوا قوات مدرعة تحتشد قرب الحدود وأرسلت مصر قوات مدرعة إلى مرسى مطروح، وطالب زعماء ليبيا بخطوات وحدوية، واتفقت مصر وليبيا على بدء توحيد القوات المسلحة».

(٨٣)

رأينا على مدى صفحات هذا الباب تقييم صاحب هذه المذكرات وتقديره لأحمد إسماعيل وللشاذلي ولمحمد أحمد صادق وعلي عبدالخبير وعبدالرحمن فهمي، وآراءه في عبدالحكيم عامر والفريق محمد صدقي محمود، كما تضم صفحات كتابه تقديراً أكبر وأعظم لعبدالمنعم رياض وإن لم يأت هذا التقدير ضمن حديث عن مواقف جمعت الرجلين وإنما هو تقدير لعموميات شخصية رياض العظيم. ولكن من العجيب أن صاحب هذه المذكرات قد أهمل تماماً الحديث عن شخصية المشير محمد عبدالغني الجمسي رغم عمله تحت قيادته، ورغم احتكاكه المستمر به فيما قبل توليه رئاسة الأركان والقيادة العامة. ولست أستطيع أن أجد السبب وراء ذلك.

❑

ويحفل هذا الكتاب بحديث مفعم بالإيمان وبالولاء والبطولة في المواضع التي يرد فيها ذكر الشهداء أو المقاتلين الأبطال من ضباطنا وجنودنا الذين أتيح لصاحب المذكرات أن يزاملهم أو يطلع على بطولاتهم ومن هذا حديثه عن الشهيد لبيب السمادوني:

«ونماذج الأبطال كثيرة كلها تحكي قدرة الله وعظمة الإيمان ونعيم الشهادة.. ومنهم محمد لبيب السمادوني الذي ورث عن جده لأمه المرحوم الشيخ عبدالمجيد اللبان الصراحة في الحق وقوة الخلق والإيمان الذي يرفع صاحبه إلى القمة.. كافح البطل في الميدان ولما أصابه الإعياء نصحه زملاؤه بالراحة في المستشفى، فأبى حتى حملوه إليه، وفي اليوم التالي علم بمعركة محتدمة في رفح فارتدى ملابسه وغادرالمستشفى دون تصريح من الطبيب ثم توجه إلى مكتبه على الفور حيث اطلع على خريطة الموقف، وغادر مكتبه إلى ميدان المعركة كجندي يقاتل في الصفوف الأمامية حتى وافاه القدر فانتقل إلى برزخ الشهداء».

وبنفس الروح يأتي حديثه عن الشهيد محمد وجيه أحمد خليل:

«ومثل آخر ممن أظلتهم مظلة الإيمان في حرب فلسطين محمد وجيه أحمد

خليل، فقد اختاروه فى عملية الهجوم على مستعمرة «دير سنيد» فتقدم مع الكتيبة إلى مكان اختارته له قيادته وأخذ يعمل مع قائده على تحصين مواقعه لا ينام الليل ولا يهدأ بالنهار. ولما علم أن زميله اليوزباشى إميل فرج جرح أثناء الهجوم على مستعمرة «نجبا» أبت عليه شجاعته إلا أن ينقذه بنفسه، فتقدم غير هياب ولا وجل فوضعه على حمالة رجعت بالزميل المجروح تحت وابل من رصاص العدو، وأخذ يجاهد الأعداء ويبعث فى جنوده روح الإقدام، حتى أتته رصاصة طائشة فذهب إلى عليين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا».

❑

ويتحدث عبدالمنعم خليل أيضا عن الشهيد اللواء أحمد حمدى عبدالحميد على أنه من شهداء العقيدة ويقول:

«فاز الشهيد أحمد حمدى بمرتبة الشهداء، قبل أن توافيه منيَّته يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣، فقد كان قدوة فى الخلق العظيم والإخلاص والوفاء النادرين، عاش تحت مظلة الإيمان العميق بالله والوطن، وخدم تحت قيادتى فترة ما قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ وإننى لأفتخر بأنى كنت فى يوم من الأيام قائداً لمثل هؤلاء الرجال الأوفياء، تراه بين رجاله قدوة فى طهارة القلب والنفس واليد واللسان، رحيماً بهم وبنفسه، مملوءاً باليقين بقدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه يدافع عن الذين آمنوا وأحببت فيه قربه من الله فى عمله وفى تصرفاته.... فى كلماته... فى نظرته فى عبراته، أحببته ـ والله ـ حب الوالد لولده وأخيه ورفيق سلاحه، ضحى بنفسه فى منطقة العمل على قناة السويس، حيث ظل هو ورجاله فى عمل متواصل لتجميع براطيم كوبرى العبور إلى الشرق، تحت نيران مدفعية العدو وقصف طائراته، حتى أصابته إحدى الشظايا المتطايرة من قصف العدو، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية، بعد أن فارقت جسداً طاهراً حملها فى الحياة الدنيا مؤديا واجبه نحو ربه ووطنه، وهو الآن مع الصديقين والشهداء عند ربهم يرزقون».

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلحقنا بهم.

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣

النصر الوحيد

4

أبطال الفرقة ١٩

مقاتلون فوق العادة

مذكرات

الفريق يوسف عفيفى

دار الخيّال

(١)

كان الفريق يوسف عفيفي واحداً من أبرز قادتنا العسكريين في حرب أكتوبر، ومن الذين استمروا منهم في مواقع العمل التنفيذي في الدولة لمدة طويلة.

ولد الفريق يوسف عفيفي في المنصورة في الثاني من يونيو عام سبعة وعشرين (١٩٢٧) وتخرج في الكلية الحربية (أغسطس ١٩٤٨) في الدفعة التي ضمت ثلاثة وزراء حربية ودفاع (الأول في عهد عبدالناصر وهو شمس بدران الذي أوذيت الدفعة بسببه، والثاني في عهد السادات وهو المشير بدوي، والثالث في عهد الرئيس مبارك وهو الفريق أول يوسف صبري أبو طالب) وتدرج يوسف عفيفي في مناصب القوات المسلحة حيث عمل قائداً لفصيلة مشاة في فلسطين والخرطوم ثم مدرساً بمدرسة المشاة (٥١ ـ ١٩٥٢) وانتدب بالمخابرات العامة (٥٣ ـ ١٩٥٤) ثم عمل مدرسا بالكلية الحربية وكلية أركان الحرب (٥٦ ـ ١٩٦١) وفي بداية حرب اليمن كان رئيسا لأركان اللواء العاشر مشاة (١٩٦٣) فمساعداً لرئيس مكتب المشتريات العسكرية في بون (١٩٦٤ ـ ١٩٦٥) فرئيسا لأركان الحرس الجمهوري (١٩٦٥) فقائدا للكتيبة ١٢ مشاة (١٩٦٦ ـ ١٩٦٧) فرئيسا لأركان اللواء الرابع مشاة (١٩٦٧) ثم مديراً للتدريب في الجيش الثاني الميداني (١٩٧١) ويبدو أنه تعرض لما تعرضت له دفعة شمس بدران من إبعاد عن القوات المسلحة واعتقال وتحديد إقامة ثم اختير

قائداً للفرقة ١٩ مشاة فى يناير ١٩٧٢ حيث قاد هذه الفرقة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، وقد عبر بفرقته هذه من السويس إلى سيناء فى حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ضمن فرق المشاة الخمس التى كانت مكلفة بالعبور.

ومن الجدير بالذكر أن ثلاثة من قادة هذه الفرق الخمس من دفعة أغسطس ١٩٤٨ وهم أحمد بدوى، ويوسف عفيفى، وفؤاد عزيز غالى وأن قائدى الفرقتين الآخرين من الدفعة التالية (دفعة فبراير ١٩٤٩) وهما حسن أبو سعدة، وعبد رب النبى حافظ .

وقاد يوسف عفيفى بفرقته هذه هجوماً رائعاً وواسعاً على تحصينات الجيش الإسرائيلى، وحقق إنجازات عسكرية متميزة (وقد كان موقع فرقته فى حرب أكتوبر إلى يمين الفرقة السابعة مشاة التى قادها المغفور له المشير أحمد بدوى، وبالإضافة إلى هاتين الفرقتين المشاة فى الجيش الثالث الميدانى كان هذا الجيش بقيادة اللواء عبد المنعم واصل يضم فرقتين أخريين شاركت فى الحرب هما الفرقة الرابعة المدرعة بقيادة العميد محمد عبد العزيز قابيل والفرقة السادسة مشاة ميكانيكية بقيادة العميد محمد أبو الفتوح محرم .

بعد الحرب أقام الفريق يوسف عفيفى معرضاً للأسلحة التى استولت عليها فرقته، وسنرى فى هذه المذكرات قصة هذا المعرض، وعين اللواء يوسف عفيفى فى فبراير ١٩٧٤ نائبا لرئيس هيئة عمليات القوات المسلحة فملحقا عسكريا بموسكو (١٩٧٥ ـ ١٩٧٨) ، ثم اختير قائداً للجيش الثالث الميدانى (خلفاً لزميله أحمد بدوى الذى عين رئيسا للأركان فى أكتوبر ١٩٧٨) وبقى يوسف عفيفى قائداً للجيش الثالث الميدانى حتى يناير ١٩٨٠ حيث خلفه اللواء قدرى عثمان بدر (محافظ أسوان فيما بعد)، أما هو فقد عين رئيساً لهيئة البحوث العسكرية، ومساعداً لوزير الدفاع حيث تولى الإشراف على عدد من البحوث العسكرية، وشارك فى إنشاء مركز لدراسات التاريخ العسكرى، ومركز لبحوث العمليات العسكرية، وشرع فى إنشاء دائرة معارف عسكرية.

وفى ٢ يناير ١٩٨١ أى بعد عام واحد بالضبط من عمله كمساعد لوزير

الدفاع ورئيس للجنة البحوث العسكرية، عين الفريق يوسف عفيفي محافظاً للبحر الأحمر (فى قرار جمهورى لم يشمل غيره من المحافظين) خلفاً للواء على عثمان محمد.

وقد بقى يوسف عفيفي فى منصب محافظ البحر الأحمر لأطول فترة قضاها محافظ فى هذا الإقليم، وإلى جهوده ينسب الفضل فى كثير من الإنجازات الحضارية والسياحية التى تحققت فى هذا الإقليم.

وفى أغسطس ١٩٩٠ نقل يوسف عفيفي محافظاً للجيزة خلفاً لعمر عبد الآخر، وخلفه فى البحر الأحمر اللواء يسرى الشامى، وبقى يوسف عفيفي محافظاً للجيزة حتى أبريل ١٩٩٣ حيث خلفه الدكتور عبد الرحيم شحاتة.

(٢)

نشرت هذه المذكرات دار الصفوة، وهى دار نشر حديثة اتخذت مقرها فى الغردقة حيث كان اللواء يوسف عفيفي محافظاً للبحر الأحمر. ويشير صاحب المذكرات فى مقدمتها إلى جهد للأستاذ محمد مصطفى فى معاونته على كتابتها، وتقع المذكرات فى ٣١٢ صفحة من القطع المتوسط ١٧ × ٢٤.

وتتميز المذكرات التى بين أيدينا بالتركيز على دور فرقة واحدة هى الفرقة ١٩ فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، وليس هذا بالأمر الهين، فإن جهود هذه الفرقة تعطينا فكرة [قطاعية] عن هذه الحرب المجيدة، إذا ما أدركنا أن الحرب كانت تمتد على طول قناة السويس، وفى عمق سيناء، وكانت هذه الجبهة مقسمة على خمس فرق ، ومن البدهى أن خطوات النجاح لم تكن متماثلة تماماً فيما بين الفرق وبعضها، وذلك ناشئ بالطبع عن الصعوبات المختلفة التى واجهت كل فرقة على حدة فى كل قطاع على حدة، ومع هذا فإن المعركة كانت معركة واحدة متصلة، بدأت فى نفس الوقت وانتهت فى نفس الوقت تقريباً، إلا أن القدر احتفظ ليوسف عفيفي وفرقته بمصاعب

حصار السويس فيما بعد وقف إطلاق النار، وقد نجحت الفرقة ١٩ فى مواجهة قدرها أيما نجاح.

ولو أن الفريق يوسف عفيفى لم يكتب هذه المذكرات القيمة لقدمنا له اللوم على إهماله لهذا الواجب الوطني والعسكرى، خصوصاً أن قائد الفرقة المناظرة لفرقته فى الجيش الثالث، وهو المشير أحمد بدوى قد استشهد فى مرحلة مبكرة، ولكننا مع هذا نلوم الفريق يوسف عفيفى أن تأخر فى كتابة هذه المذكرات إلى الوقت الذى صدرت فيه.

❏

ومن الواضح أن صاحب هذه المذكرات يعتز بحرب أكتوبر أيما اعتزاز وفى وسط كتابه يعبر عن هذا المعنى بعبارة جامعة مانعة يقول فيها:

«إننى أستطيع القول ـ وبمنتهى الثقة ـ إن حرب أكتوبر هى الحرب الوحيدة الحقيقية، التى خاضتها القوات المسلحة المصرية، بكل الأبعاد والمقاييس العسكرية».

وعلى عادة كل القادة العسكريين الذين شاركوا فى حرب ١٩٧٣، فإن حديثه وذكرياته عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ لا يبدأ إلا من حرب ١٩٦٧ وما حدث فيها، فقد كانت هذه الحرب ومجرياتها بمثابة صدمة كبيرة هزت معنويات ونفسيات المشاركين فيها، وبقى أثرها فى «حلوقهم» غصة تتجدد مع كل ذكرى لها، وليس من شك أن الذين أسعدهم القدر فشاركوا فى انتصار ١٩٧٣ كانوا أسعد حظاً بكثير من الذين لم يتح لهم أن يشاركوا فى هذا النصر وبقوا يتألمون مما حدث فى ١٩٦٧ على نحو ما حدث.

(٣)

ويحرص صاحب هذه المذكرات على أن يقارن ـ وهذا متوقع ـ بين حربى ١٩٦٧ و١٩٧٣، ومع أنه شارك فى الحربين إلا أنه ـ وهذا طبيعى ـ مغرم ومتيم إلى أقصى الحدود بما حدث فى ١٩٧٣ وله كل الحق فى هذا، وهو يتحدث ـ على سبيل المثال ـ

عن الخطط الفرعية فى ١٩٧٣ وكيف كونت خطة استراتيجية تعبوية على مستوى القوات المسلحة كلها فيقول:

«وهكذا نجد فروقاً شاسعة كانت بين حربى يونيو ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣. لقد كان تخطيط حرب أكتوبر عملياً مائة فى المائة. لقد تم تنظيم التعاون والربط والتنسيق، بحيث أصبحت هناك خطة قابلة للتنفيذ اشتركت فيها القاعدة وليست القيادة فقط، استدعت القيادة قادة الفرق وطلبت منهم الحوار مع كل المستويات حتى قادة الفصائل بحيث يتم وضع الخطة حسب الإمكانيات المتاحة مع توجيه أسئلة محددة للجميع، فيتم سؤال الفصيلة مثلاً عن إمكانياتها لتنفيذ الخطة بأى عمق؟ وأى مواجهة؟ وفى أى وقت؟ وهكذا تصاعدت الدراسة من الفصيلة إلى السرية إلى الكتيبة إلى اللواء فالفرقة فالجيش وهكذا.. ثم تم ربط الخطط بعضها ببعض لتصبح خطة استراتيجية تعبوية على مستوى القوات المسلحة مع التنسيق مع كافة الأسلحة الأخرى».

❑

وفى موضع آخر من مذكراته يعود الفريق يوسف عفيفى إلى التأكيد على هذا المعنى ويقول:

«لقد كانت الخطة الموضوعة على أعلى المستويات الاستراتيجية. والشىء الذى لا يعرفه الكثيرون أن القيادة العامة كانت شديدة الارتباط بالقيادات الميدانية».

«ومن هنا فقد شارك الجميع فى وضع الخطة، أى أن الخطة جاءت ـ لأول مرة ـ من أسفل إلى أعلى.. ثم انتقلت من القيادة العليا إلى القيادات التنفيذية الميدانية، بعد أن تمت دراستها، وتدقيقها».

«وكان العمل شاقاً ومستمراً، من أجل الإعداد لساعة الصفر [س]».

«لقد كانت الجدية والإيمان، هما الطابع السائد خلال مراحل الخطة المختلفة، وعند خطوات التنفيذ أيضا».

«لقد تزامن الإعداد العسكرى ووضع الخطة، مع الإعداد السياسى، والمعنوى، والنفسى، والروحى، والاجتماعى، لكل المقاتلين».

«وكان الدافع كبيراً عند القادة والمقاتلين للأخذ بالثأر، وإعادة الاعتبار للعسكرية المصرية، لذلك كلما طالت فترة الانتظار والترقب للقرار، كان ذلك دافعاً لمضاعفة الجهد والاستعداد».

«كان تحدى أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر، واحداً من أهم أهدافنا».

(٤)

ويولى صاحب هذه المذكرات أهمية متزايدة لدور التدريب فى تحقيق النصر وهو ما تبلور بالفعل فى أثناء حرب ١٩٧٣ حين تصور بعض المقاتلين أنهم يؤدون مناورة فحسب، وذلك بفضل تعودهم على جدية وقسوة المناورات فيما قبل الحرب:

«فى حرب ١٩٦٧ لم يكن هناك تدريب حتى على مستوى السرية، أما فى ١٩٧٣ فقد وصل التدريب إلى مستوى الجيش والقيادة العامة، وكان الجيش كله يقوم بمناورة، لهذا وصلنا إلى قمة التدريب وقمة القتال بين قوات ضخمة».

«فى ١٩٦٧ كانت المشكلة أننا لم نتدرب على مستوى السرية، ومطلوب أن نحارب على مستوى اللواءات».

«لقد كانت حرب ١٩٧٣ تبدو وكأنها امتداد لإحدى المناورات الضخمة التى كانت تتم فى هذا الوقت، وهنا أذكر أن أحد المقاتلين تساءل فى أثناء الحرب: متى تنتهى المناورة؟ ظناً منه أنها مناورة وليست معركة، وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على وصول القوات لأعلى مستويات التدريب القتالى الذى لا يفرق بين التدريب والقتال الفعلى».

❑

ويروى يوسف عفيفى بسعادة بالغة فى موضع متقدم من هذه المذكرات [حين يتحدث عن تفصيلات العمليات الحربية] كيف أن الإنجاز المتميز لخطط التدريب قد ساعد مساعدة فنية فى تحقيق خطة القوات المسلحة المصرية الرامية إلى إجادة

خداع وتمويه العدو، وهكذا فإن التدريب الواقعى حقق أهدافاً أخرى غير أهدافه الأولى، وكما أن أفراد القوات المصرية الذين خاضوا الحرب ظنوها مناورة، فإن العدو نفسه ظن الحرب امتدادا للتدريب الذى كان لا يفتأ يراه يتكرر:

«قبل العبور كانت قواتنا فى انشغال تام بالتدريب فوق الأرض، ولم تكن قابعة فى الخنادق،وكانت التدريبات المستمرة والمتواصلة تتم تحت أنظار وأسماع العدو فوق الأرض، ولقد لعبت هذه الخاصية دوراً كبيراً فى الخداع والتمويه على العدو يوم ٦ أكتوبر، لأنه تصور أن التحركات التى تتم على الجبهة المصرية جزء من التدريبات اليومية والمناورات التى كانت تتم بين يوم وآخر، ولم يجد فى التدريبات شيئاً يثير الريبة، فلم يأخذ الحذر».

«وكان هذا التدريب الواقعى جانباً من الخطة التى نفذت بنجاح، أما التدريب الواقعى على اقتحام خط بارليف واختراق الساتر الترابى فقد تم فى غرب مدينة السويس وأيضا فى منطقة جبل عتاقة حيث ميادين التدريب قريبة الشبه إلى أقصى حد من ميدان القتال الفعلى».

«وكانت التدريبات تشمل صعود الساتر الترابى الذى كان يتراوح ارتفاعه بين ٢٢ و٢٤ متراً، بينما يحمل الفرد أسلحة وذخائر وزنها ٨٠ كيلوجراما، وكان الجنود يتسابقون للصعود والتسلق، حتى وصل الرقم القياسى إلى دقيقتين فقط فى صعود الساتر الترابى».

«وكنا نندهش من هذه الروح القتالية العالية، وكانت الخطة الموضوعة أن يتسلق الجنود الساتر الترابى على سلالم من الحبال، لكن بعض المقاتلين أصروا على الصعود فوق الساتر بدون سلالم ونفذوها فى سرعة أكبر من المعدل».

(٥)

وينتقل صاحب المذكرات ليضرب أمثلة محددة على مجالات التدريب التى خاضتها القوات المسلحة من أجل معركة ١٩٧٣، وتتميز هذه المذكرات بتقديم أرقام

دقيقة عن حجم بعض الإنجازات وطبيعتها، مما يساعدنا ـ كقراء ـ على الإحساس بالصورة فى حجمها الطبيعى، وهو يتحدث مثلاً ـ فى عجالة ـ عن فتح الممرات فى الساتر الترابى ودور مدافع المياه فيقول:

«كان كل ذلك وغيره من المجهود الحربى، يحتاج لمستويات رفيعة من الإعداد والتدريب.. ولم يكن ذلك أمراً سهلاً».

«لم تكن عملية فتح الممرات فى الساتر الترابى على الضفة الشرقية لإقامة الكبارى لعبور الدبابات والأسلحة الثقيلة بالأمر اليسير، وكانت فكرة مدافع المياه التى ابتكرها الشهيد اللواء مهندس «جلال سرى» أحد أبناء القوات المسلحة المصرية، وقد تمت تجربتها عشرات المرات على نماذج متشابهة».

«وقد استطاعت مدافع المياه هذه أن تفتح ٨٥ ممراً فى الساتر الترابى خلال ٥ ساعات».

❑

كما يتحدث صاحب المذكرات عن أعمال المدفعية بنفس التقدير فيقول:

«ثم كانت أعمال المدفعية وأسلحة الرمى الأخرى بالغة العنف والدقة، لتنفيذ أقوى تمهيد نيرانى شهدته الحروب الحديثة. لقد كان كل شىء معداً إعداداً دقيقاً».

....

«كان وجود خط بارليف أمامنا يمثل واحداً من أكثر التحديات التى قررنا أن نواجهها رغم كل الدعاية التى أحاط العدو بها نفسه».

«من هناك فقد أخذنا ندرب قواتنا على اقتحامه وتدمير نقطه القوية والحصينة التى أعلن فى مناسبات عديدة استحالة اختراقها».

❑

ثم يتحدث صاحب المذكرات بكل زهو عن اللحظات التى أتيح له فيها أن يرى جنودنا يقتحمون خط بارليف:

«لن أنسى ما حييت هذه اللحظات الحرجة.. فلم تكن الفتحات الشاطئية فى الساتر الترابى قد فتحت فى أثناء عبور الفرقة ١٩ مشاة، وظلت القوات فى سيناء ٢٦ ساعة بدون دبابات ومدفعية».

«كانت معهم فقط الأسلحة الخفيفة.. لقد كان مقرراً أن تقوم القيادة الأعلى (قوات مهندسى الجيش الثالث) بفتح الساتر، وتجريف أجزاء منه خلال ٦ ساعات، لكن ذلك لم يحدث، لصلابة التربة فى هذه المنطقة المواجهة للفرقة، وقد ظلت القوات بالرشاشات والأسلحة المضادة للدبابات ومساندة المدفعية من الخلف ٢٦ ساعة، تواجه خلالها نيران القوات الإسرائيلية بصدورها».

«لقد كان موقفا صعبا بالطبع».

«ففى هذه المنطقة ـ بالذات ـ لم تستطع مدافع المياه التى يوجهها المهندسون تجاه الساتر الترابى أن تحدث الفتحات المطلوبة لصلابتها»

«ومن ثم فقد تحولت المناطق حول أماكن الفتحات الشاطئية فى الساتر الترابى إلى مستنقع من الطين، وبالتالى فقد أصبحت عملية الصعود صعبة للغاية، وعند صعود مركز قيادتى للساتر. كانت لحظات صعبة.. لا يمكن أن تمحى من ذاكرتى».

(٦)

وهو يتحدث بكل ثقة المنتصر عن فشل المحاولات الأولى التى قامت به قواته، وهو لا يلقى بالمسئولية على أحد لأنه مع الإصرار والتكرار استطاع النجاح:

«حقيقة حاولنا فى البداية ولم نستطع».

«وفجأة قفزت إلى ذهنى فكرة سرعان ما أصدرت الأوامر بتنفيذها.. أمرت الضباط وصف الضباط والجنود بمركز قيادتى المتقدم، بأن يستلقوا بأجسامهم على الساتر فى صف كسلم، ليصعد زملاؤهم بالتناوب من أسفل إلى أعلى على ظهورهم، حتى يصلوا إلى أعلى الساتر».

«وبالفعل حدث هذا ولم يصب أحد بسبب لين الأرض تحتهم».

«وبعد مضى ساعة كان الطين قد جف فوق ملابس المقاتلين وأصبحت إزالته سهلة».

❑

هكذا استطاع هذا القائد الشجاع ـ على نحو ما يروى ـ أن يستخدم أجساد الجنود نفسها كما لو كانت سلماً يمكن الجنود أنفسهم من الصعود إلى الساتر، وهو يردف بذكر القصة التى قادته إلى هذه الفكرة العبقرية:

«ولعل القارئ العزيز يتساءل: من أين أتتنى هذه الفكرة؟»

«لقد استرجعت وأنا فى هذا الموقف الصعب، ما حدث لى مرة عندما كنت أخدم فى وادى حلفا بالسودان».

«ففى رحلة صيد مع بعض الأصدقاء السودانيين فى إحدى الجزر النيلية رأيت «أرنباً» أمامى، أردت صيده فقفزت ووجدت نفسى فى مستنقع طينى، وفوجئ رفاقى، فقد كان من الممكن أن أغوص فى الطين ولا يستطيع أحد إنقاذى، أو حتى الاقتراب منى، وكل ما قالوه أن أفتح يدى فى أكبر فتحة ممكنة، وقاموا بإلقاء عدد من الصحف لى وقالوا: «حاول أن تتشبث بموقعك، وتحرك نفسك رويدا. رويدا»».

«حاولت ذلك حتى قفزت، وخرجت من هذا المستنقع اللعين!».

«لقد استفدت من هذه التجربة بفكرة لم أعرف وقتها كيف أستفيد منها، وهى أنه فى الموقع الطينى يجب أن يكون جسم الإنسان مستلقياً فى أكبر مسطح منه على السطح حتى لا يغوص، لقد أفادتنى هذه الحادثة فى موقف صعب يوم العبور».

«وهكذا.. فإن تجارب الإنسان لا تذهب سدى».

(٧)

ويفخر يوسف عفيفى فى هذه المذكرات بانفراد فرقته بالقيام بهجوم ليلى، وليس

هذا بالإنجاز الهين، فقد كانت قواتنا المسلحة تشعر بتميز القوات الإسرائيلية عنها فى العمل بالليل، وذلك من واقع الخبرة فى فترات الإعداد للحرب، فلما وقعت الحرب كانت المفاجأة أن العدو لم يقم بأية عملية ليلية، لكن يوسف عفيفى وجد نفسه فى مساء يوم ١٠ أكتوبر بحاجة إلى عملية ليلية ينجز بها ما لم يتم إنجازه من الخطة المطلوبة من الفرقة، ومن حسن حظه أن وفقه الله إلى تحقيق المستهدف، وأكثر منه بهذه المهمة الليلية:

«إن الفرقة ١٩ مشاة هى الفرقة الوحيدة التى قامت بهجوم ليلى، وأود هنا أن أذكر أن كل تدريبات العدو كانت تتركز على العمل الليلى، والأعمال القتالية فى الليل، كنا نرى ذلك بأعيننا قبل الحرب، وقد كانت حساباتنا أن عمليات العدو ستكون ليلية، لكن المفاجأة أن العدو لم يقم بعملية ليلية واحدة، وقد قمنا نحن فى الفرقة ١٩ مشاة بذلك يوم ١٠ أكتوبر، عند تنفيذ المهمة التالية للقتال، وعلى محور ممر متلا أبلغ قائد اللواء أنه وصل إلى الخط المحدد له، فأبلغت القيادة بذلك، لكننى أردت أن أقوم بعملية متابعة للتأكد بنفسى من الموقف، فتحركت أنا ومساعد قائد الفرقة العميد على سعد إبراهيم فى اتجاهين مختلفين، للتأكد من وصول القوات لخط المهمة المحدد على الحد الأمامى، وعندما وجدت أن قوات اللواء لم تقف على «الحد» المخطط لها أصبحنا فى موقف حرج».

«كان لابد من أن أخوض معركة بأسرع وقت ممكن لكى أصل إلى الخط المحدد حتى لا تحدث «ثغرة» يمكن أن ينفذ منها العدو، ويقوم بهجوم مضاد».

«قمنا بإعداد خطة للهجوم الليلى الصامت، وبالفعل قمنا بالهجوم، ووصلنا إلى خط المهمة، بل تجاوزناه».

«المهم أننا فى أثناء تجاوزنا للخط قمنا بالاستيلاء على مركزقيادة العدو فى «متلا»، لقد كانت معركة ناجحة تماماً، فلم يكن العدو يتصور أننا سنقوم بهجوم ليلى صامت، ولم يكن يتوقع ـ أيضاً أن نصل إلى مركز قيادته».

«والحقيقة أن هذه المعركة لم تكن مقررة فى الخطة، حيث تجاوزنا خط المهمة بحوالى ٢ كيلومتر فى الأمام.. وكانت مفاجأة».

(٨)

ويحرص الفريق يوسف عفيفى فى هذه المذكرات على أن يصور مصاعب حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة بطريقة دقيقة، وحسناً فعل لأنه قدم لنا بهذا صورة حية للصراع العسكرى على مستوى الألوية والكتائب والفصائل والسرايا بعيداً عن تصوراتنا الذهنية القاصرة عن الحروب، وصراع الإرادات، والتصوير المكتبى للمعارك، وهو التصوير الذى جعل الناس يتصورون أوهاماً عن نصر لم يستغل، وتقدم لم يتم، وتطوير لم يحدث، لكننا هنا نرى التفصيلات التى يرويها هذا القائد المنتصر وهى تصور لنا كم كان القتال نفسه صعباً وشرساً ومستهلكاً لطاقات لا عهد للمصريين قبل هذه الحرب بها ونحن نقرأ ليوسف عفيفى هذا القول المختصر:

«الاستيلاء على النقاط القوية الحصينة للعدو لم يكن بالأمر اليسير».

«لقد كان بعضها يستلزم قتالاً شرساً، وأعمالاً بطولية، ومقاتلين من نوع خاص».

❑

ثم يضرب صاحب المذكرات مثلاً حياً بالنقطة ١٤٩ وبطولة الشهيد محمد زرد ويقول:

«هذه النقطة شهدت قتالاً بطولياً لمقاتلينا.. لقد حاول العدو أن يتمسك بها نظراً لأهميتها الاستراتيجية، وكانت هذه النقطة ـ بالذات ـ من أقوى نقاط العدو الحصينة، وأخطرها على الإطلاق فى خط بارليف، لقد تم حصارها ومهاجمتها بكتيبتى مشاة، وثالثة مدرعة، لمدة تزيد على ٤٨ ساعة».

«لقد هاجمناها على فترات لكنها لم تسقط».

هكذا يروى يوسف عفيفى أن نقطة واحدة هى النقطة ١٤٩ حوصرت بثلاث كتائب (إحداها مدرعة) لمدة يومين كاملين لكنها لم تسقط طيلة هذه الفترة فى أيدى المصريين، ولم يكن بد من عمل فوق العادة يقوم به شهداء جسورون على نحو ما فعل الشهيد محمد زرد:

«وهنا لابد أن أقول إن التاريخ لابد أن يقف طويلاً وهو يسجل باحترام شديد ما قام به المقاتل محمد زرد فى هذا اليوم التاريخى».

«لقد تقدم زرد مطالباً بالتطوع لمهاجمة هذه النقطة الحصينة، وبالفعل قام ومعه ٨ مقاتلين فقط بتنفيذ تلك المهمة الصعبة».

«وقامت هذه المجموعة بالتسلل خلال حقول الألغام، والأسلاك الشائكة الكثيفة، وعندما وصل إلى قمة النقطة تلقى زرد دفعة نيران مركزة، أصابته إصابة بالغة فى بطنه أخرجت أحشاءه».

«لكن هذا البطل أبى إلا أن يكمل مهمته، حمل أحشاءه بيديه واقتحم النقطة مع رجاله!! واستمر يقود المعركة وهو جريح ينزف حتى سقط الحصن، واستسلم من فيه».

«رحم الله الشهيد زرد، فقد كان مقاتلاً فذاً ، ومثلاً يحتذى به فى التضحية والفداء».

(٩)

ويتحدث يوسف عفيفى فى مذكراته هذه بالتفصيل المعقول عن جهد فرقته فى تطوير الهجوم شرقاً صباح التاسع من أكتوبر، أى رابع أيام الحرب، وتوحى لنا قراءة ما يرويه هذا القائد العبقرى المنتصر بصورة حقيقية للمصاعب التى كان الجيش المصرى يواجهها وهو يطور الهجوم، بينما يصور بعض كتّابنا من مكاتبهم تطوير الهجوم وكأنه مجرد حركة بالسيارات المكيفة إلى الأمام على طرق ممهدة تصل بنا إلى المضايق فى ساعات، لنقرأ بعض ما يرويه الفريق يوسف عفيفى حيث يقول:

«وبعد أن قمنا بالاستيلاء على النقط الحصينة بالشط وحوض الدرس، وفى اليوم التاسع من أكتوبر، وبالتحديد فى الساعة السابعة والنصف صباحاً، بدأنا فى تطوير الهجوم شرقاً، وكان العدو قد بدأ فى استعادة توازنه بعد مفاجأة الضربة الأولى».

«بدأ يتصدى لنا بمجموعة كبيرة من الدبابات، ودارت معارك ضارية بين دبابات الفرقة ١٩ مشاة، ودبابات العدو المزودة بالصواريخ المضادة للدبابات».

«وعلى الرغم من ضربات العدو بمختلف الأسلحة المضادة للدبابات وطائرات الهليكوبتر والمدفعية، استطعنا تحقيق مهمة الفرقة وتطوير الهجوم شرقاً».

بل أستطيع أن أقول: إننا قد تجاوزنا المهمة المكلفة بها الفرقة فى الخطة وذلك بالاستيلاء على مراكز القيادة للعدو فى (عيون موسى) و(جبل المر) و(متلا)».

«ومن المعروف عسكرياً أن الاستيلاء على المناطق المرتفعة والهجوم عليها يعد من أخطر ما يواجه أى مقاتل، حيث إنه يكون تحت مرمى نيران العدو، لقد واجهنا هذا الموقف عندما طورنا هجومنا شرقاً نحو سيناء، وكان علينا أن ننفذ عملية الاستيلاء على منطقة (جبل المر ـ ومتلا ـ وعيون موسى)، وهى منطقة تلال مرتفعة، كان العدو يتمركز فيها، ويقيم بها مراكز قيادته الحصينة».

(١٠)

وهنا ينتهز يوسف عفيفى الفرصة ليحدثنا عن بطولة قائد عظيم هو العميد محمد الفاتح كريم قائد اللواء الثانى الميكانيكى [الذى هو أحد ألوية الفرقة ١٩]، حيث استطاع هذا القائد العظيم بشجاعة وجسارة وذكاء وسرعة تصرف أن يلتف حول العدو ويطوق جبل المر، وهو الجبل الذى تذكر هذه المذكرات ما نعرفه من أنه أطلق عليه اسم «جبل الفاتح» نسبة إلى هذا القائد العظيم:

«وهنا لابد أن أذكر حقيقة، لقد ضرب قائد اللواء الثانى الميكانيكى بالفرقة ١٩ مشاة العميد «محمد الفاتح كريم» أروع الأمثلة لما يجب أن تكون عليه مسئولية القائد، وذلك عندما توقفت قواته تحت وابل من نيران المدافع المضادة للدبابات، المحمولة على طائرات الهليكوبتر للعدو، فأسرع بقيادة فصيلة مشاة ومعه فصيلة أخرى بقيادة المقاتل «على الغليظ» حيث طوقا (جبل المر) واحتلاه».

«وبذلك سهلا للواء بأكمله تحقيق المهمة».

ويفيض الفريق يوسف عفيفى فى الإشادة بقيمة هذا التصرف البطولى الذى قام به العميد محمد الفاتح كريم فى ذلك اليوم، وقد قاد بنفسه مجموعة صغيرة استطاعت أن تتسلق الجبل وتصل إلى قمته وتفتح الطريق لا لفرقته ولكن لمصر كلها إلى نصر كان أحد الانتصارات العديدة التى شكلت نصرنا الخالد:

«ولنأخذ معركة جبل المر ـ على سبيل المثال ـ باعتباره النقطة الحاكمة التى تسيطر على رأس الجسر فى الجنوب، ليس على الفرقة ١٩ فقط، بل على الجيش الثالث بأسره».

«عندما توقفت دباباتنا عن التقدم أمام حاجز نيران الأسلحة المضادة، كان الحل الوحيد هو الاستيلاء على قمة الجبل، وكانت المفاجأة عندما تقدم قائد اللواء الميكانيكى وتسلق الجبل سيراً على الأقدام لمسافة (كيلومتر ونصف الكيلو) مع وحدات صغيرة من قناصى الدبابات».

«وعندما سيطر على القمة أوقع العدو فى مصيدة صواريخ «فهد» واضطر العدو للهروب بدباباته شرقاً».

ويعقب الفريق يوسف عفيفى بعد هذا كله بقوله:

«إن هذه المعركة لم يلق عليها الضوء الكافى، لكن العدو ذكرها فى تحليلاته ليوم الغفران باعتبارها من المعارك الضارية التى خاضها فى مواجهة قوات الفرقة ١٩».

(١١)

ويتحدث الفريق يوسف عفيفى باعتزاز شديد عن معركة متلا التى ضرب المقاتل المصرى فيها أروع صورة للبطولة، حين أخذ المقاتلون المصريون يقفزون بأنفسهم فوق دبابات العدو لينسفوها، ولم يكن العدو ليبقى بعد أن رأى ملامح هذه البطولة النادرة:

«هذه المعركة تعد نموذجاً للصمود والشجاعة، ووساماً للعسكرية المصرية فى التضحية والفداء».

«فعندما حاول العدو القيام بهجوم مضاد وعنيف على هذا المحور، كانت المفاجأة التى لم يتوقعها، حينما تصدى أبطال المشاة المصريون للدبابات الإسرائيلية وأخذوا يقفزون فوقها بفدائية منقطعة النظير لينسفوها!! بينما انسحبت بقية الدبابات الإسرائيلية مذعورة غير مصدقة لما تشاهده».

ويشير يوسف عفيفى فى سعادة بالغة إلى نجاح قواتنا المسلحة فى الاستيلاء على المدافع الستة الضخمة الشهيرة التى كان العدو يقذف بها مدينة السويس والزيتيات:

«وبالاستيلاء على محور عيون موسى تم الاستيلاء على مركز القيادة المتقدم للعدو، والاستيلاء على موقع المدافع الستة الضخمة، هذه المدافع الشهيرة التى كانت تقذف فى وحشية وشراسة مدينة السويس والزيتيات».

«لقد كان رجالنا يتشبثون بالأرض، وقاموا بتعزيز مواقعهم الجديدة التى كانوا يكتسبونها بسرعة فائقة فى عمليات ليلية صامتة».

(١٢)

ويتحدث يوسف عفيفى بفخار لا حد له عن اللحظة التى نجحت فيها فرقته فى العبور إلى الضفة الشرقية لقناة السويس مستخدمة كل الوسائل المتاحة:

«وفى الساعة الثانية وعشرين دقيقة بدأت موجات العبور الأولى تشق طريقها وسط النيران، واستخدموا كل شىء: قوارب المطاط، زوارق التجديف، البرمائيات، المعدات، فى مجموعات عبروا الشاطئ المقابل للقناة بجسارة».

❑

ثم يصور الفريق يوسف عفيفى ما بعد لحظات العبور الخالدة لقواته وكيف رفعت هذه القوات الأعلام على أرض الوطن الحبيب فى شرق القناة حتى دون انتظار الانتهاء من تمهيد المدفعية:

«وأخذت مجموعات المقدمة تتسلق الساتر فى ثوانى بمهماتها، وتمد سلالم الحبال

لكي يؤمن المشاة، كانوا في هذه اللحظة كـالمردة، كأبطال الأساطير. وكانت صيحاتهم تسبقهم، ويلقى هديرهم الرعب في قلوب الإسرائيليين: الله أكبر.. الله أكبر. وخلال ٣٠ دقيقة كـانت أعلام مصر ترتـفع فوق خط بارليف دون انتظار الانتهاء من تمهيد المدفعية».

❑

ويصور صـاحب المذكرات بـدقة شديدة المعـارك الشرسة يـوم ١٢ أكتوبر بـعدما نجحت قوات فـرقته في الاستيـلاء على مركز قيادة الـعدو في منلا، وعلـى الرغم من كثافة نيران العدو، وزمجرة مدفعيته، ومحاولته الاقتحام بالمدرعات، إلا أن المصريين الأبطال نجحوا في النهاية في صـد هجومه:

«لعل يوم ١٢ أكتوبـر هو يوم آخر من الأيام الخالدة لإنجازات الفـرقة ١٩، فعندما فقـد العدو مركـز قيادتـه في متـلا على المحور الـرئيسـي جن جنـونه، وأخذ يهـاجم بشراسـة، وتتابعت مـوجات طيرانه تضـرب بكثافة، وأخـذت مدفعيتـه عيار ١٧٥مم و١٥٥ مم تزمجر».

«ثم حاول الاقتـحام بالمدرعات لكـنه لـم يحقق أي تـقدم، وتكسرت كل هـجماته التي واصلها بمختلـف أسلحته في مواجهة شجاعة وجسارة المقاتـلين المصريين الذين تسلقوا دباباته ودمروها واستشهدوا فوقها».

«وأمام هذه الفدائية فر العديد من قوات العدو، بعد أن تكبد خسائر فادحة جعلته يكف عن إعادة المحاولة في هذا الاتجاه».

(١٣)

ويولي الـفريق يوسـف عفيفـي أهمية متـزايدة للحـديث عن الـنجاحات المعـنوية للقوات المسلحة المصرية في مـواجهة الدعايات الإسرائيـلية التي انتشرت لـفترة من

الزمن، وهو ـ علـى سبيل المثال ـ يتحدث عن الـلحظات التى شاهد فيـها هو وجنوده قهر أسطورة الجيش الإسـرائيلى الذى لا يقهر ويقول:

«لقد كانت بعض الأفـكار عن أسطورة الطيران الإسرائيلى الـذى لا يقهر وغيرها من هذه الأفكار لاتزال قائمة».

«لكن ما رفع مـن معنوياتنا بدرجة عالـية هذا العدد الهائل من الطـائرات المصرية التى شاركت فى المعركة فلم نصدق أن هذا العدد من الطائرات موجود ومشارك».

«ويوجد سبب أساسى لـذلك، فنحن لم نكن قبل الحرب نرى الـطائرات المصرية لأننا كنا نتمركز فى مواقع متقدمة وهناك خطوط لا تتجاوزها الطائرات المصرية، طبقاً لشروط الهدنة [لا أعرف علـى وجه التحديد ماذا يقصد الفريق يوسـف عفيفى بهذا اللـفظ، وهـل هو يـشيـر إلى مـبادرة روجـرز وما تـلاها مـن وقف إطـلاق النـيران] وأصبحت فى غيبة عـنا، وكان هذا يؤثر فى الجنود كثيراً لأن الغطـاء الجوى يمنح أمناً وثقة فى أثناء القتال».

وها هو يتحدث عن الشعور الطاغى الـذى ساد فرقته حين رأوا الطائرات المصرية تغطى سماءنا فيقول:

«وعندمـا شاهدنا السـماء مغطاة بالـطائرات فى الطـلعة الجوية الأولـى وفى وقت واحد وعلى ارتفـاعات منخفضة فوق رءوسنـا، كانت معنويات الفـرقة ١٩ مشاة قد وصلت لدرجة لا يتخيلها البشر، حتى أن الجنود والقادة لم ينتظروا انتهاء تمهيد نيران المدفعية وقاموا ببدء العبور فى حماس شديد».

(١٤)

من الإنصاف أن نقول إن يوسف عفيفى لم يستطع أن يصور اللحظات الخالدة يوم العبور علـى نحو مؤثر، ولربما كان له الـعذر فى ذلك حيث كانت سنـوات طويلة قد مرت وانـقضت مـنذ ذلـك اليوم الخـالد ، وما تـلاه من أيام مـعدودة لا تـقل أهمـية

وخلوداً، وهكذا يمكـن لنا أن نتصور مدى أهمية التسـجيل الآنى للأحداث ولو على هيئة نقاط يبدأ منها صاحب الذكريات ليتدفق تيار الوعى عنده، ومن سوء حظ الفريق يوسف عفيفى أنـه سجل هذه الذكريات وهو لا يزال مكدود الذهن بمـواقع المسئولية التى كان يشغلها، وهكذا لـم يُتح له خلو البـال الذى يمكنه من اسـترجاع الأحداث والذكريات والمشاعر على نحـو أكثر تأثيراً مـع أنه لايزال يظن أن هذه الـذكريات لا تنمحى من وجدانه:

«هناك الكثير من الأحاسيس التى تستحق الـتسجيل فى لحظات ما قبل العبور، إنها مشاعر لا يمكن أن تمحى من وجدانى».

«فعندما أصـدرت الأوامر صباح يوم المعركة، وقـمت بتسليم القـادة الأعلام التى سترفـع على المواقع الـتى سيتـم الاستيلاء علـيها ، والأرض التى سـتعود لأحضـاننا، كانت المعنويات عالية للغاية».

«لقد بكى الجميع وأنـا أصدر أوامر العمليات، لقد كنا جميعـاً نريد التخلص من الاتهام الـذى لصق بنـا ظلماً، وأردنـا أن نثبت وجـودنا،لقد أمـسك القادة بـالأعلام يقبلونها بفرحة وأمل، كانت لحظة لا يمكن أن تمحى من الذاكرة».

❑

ويأبى الـفريق يوسف عفـيفى إلا أن يصور لنـا نفسه وهو مـندفع إلى التفـريط فى الانضباط العسكرى لأسباب إنسانية، ولسنا نملك الحكم عليه ولا له ولكننا نستطيع أن ننتبه إلى اهتمامه بـتسجيل مثل هذه اللقطة وكأنه من ناحية يـريد أن يدلنا على الالتزام المطلق الـذى كان يتحلى به جـنوده، ومن ناحية أخرى علـى مدى ثقته فيهـم وتقديره لظروفهم:

«فى هذا اليوم جاءنى أحد ضباط الشرطة العسـكرية وكان مسئولاً عن مد وتعليم المحاور التى تسير عـليها القوات،وكنت قد أصدرت لهم أوامر بتـوقيت الهجوم فى الساعة الـثانية بعد الظـهر، وقال لى: «لو سمحـت يافندم هل لى أن أذهب إلـى بيتى لأقدم المرتب لزوجـتى لأنه المورد الوحيد لهـم» وكانت الدموع تملأ عينـيه. كان هذا قبل موعد المعركة بعدة ساعات، وقلت لـنفسى إنه لو ذهب هذا الضابط وعرف أحد

موعد الهجوم، زوجته أو أقاربه، فالنتائج غير محسوبة، لكن ثقتى التامة فى رجالى جعلتنى أتركه يذهب بسيارة الشرطة العسكرية الجيب إلى بيته».

«فذهب وعاد قبل الموعد المقرر وقام فى أثناء العمليات بدور كبير بحيث مكن القوات من دخول المحاور بصورة دقيقة وسليمة نهاراً وليلاً، وكانت حالته المعنوية مرتفعة لدرجة غير متصورة، وسبب ذلك، الموقف الذى عاملته به والثقة الغالية التى أوليته إياها».

(١٥)

ويتحدث يوسف عفيفى فى أكثر من موضع فى هذه المذكرات بتفصيل جيد عن المهام العسكرية التى أنيطت بفرقته فى معركة ٦ أكتوبر المجيدة فيقول:

«كانت الفرقة ١٩ مشاة مسئولة عن القطاع الجنوبى من قناة السويس، وهو موقع هام وخطير، فقد كان يمتد من شمال الشط إلى خليج السويس، وهى منطقة كانت من أقوى مناطق خط بارليف وتقع فيه النقاط الحصينة: ١٤٦ و١٤٨ و١٤٩، بالإضافة إلى نقطة الجباسات، ولسان بورتوفيق، وعيون موسى».

«وكانت كلها نقاطاً قوية وحصينة، أقامها العدو الإسرائيلى على مدى سنوات طويلة، وكان المطلوب أن نقضى عليها بأسرع مايمكن، حتى نسيطر على الموقف قبل وصول إمدادات المدرعات من الممرات».

❑

ويلخص الفريق يوسف عفيفى المهمة القتالية التى كلفت بها فرقته فى حرب ٦ اكتوبر ١٩٧٣ على نحو بديع يمكن القارئ العادى من الإلمام بسير المعركة والتخطيط لها على نحو دقيق:

«بعد أن خصصت قيادة الجيش الثالث الميدانى المهمة العملية الهجومية للفرقة ١٩ مشاة، بدئ فى التخطيط على مستوى قيادة الفرقة بواسطة مجموعة تخطيط تتكون

من: قائد الفرقة، ورئيس أركان الفرقة، ومجموعة من الضباط على مستوى هيئة قيادة الفرقة».

أ ـ تلخصت مهمة الفرقة ١٩ مشاة فى أن تتخذ أوضاعها فى المنطقة الابتدائية للهجوم فى الحد الأيمن (حوض الدرس)، وفى الحد الأيسر (الكيلو ١٤٤ ترقيم القناة)، وحد خلفى (وصلة جنيفة)».

ب ـ بعد تمهيد نيرانى لمدة ٥٣ دقيقة تقتحم الفرقة قناة السويس قبل آخرضوء لليوم الأول للعمليات، وفى قطاع الحد الأيمن (حوض الدرس) وحد يسار (الكيلو ١٤٤) بقوة اللواء السابع المشاة، واللواء الخامس المشاة المدعم، وتقوم بمهمة تدمير قوات العدو البشرية، وأسلحته، ووسائل نيرانه المتمركزة فى النقط القوية، وعلى الساتر الترابى شرق القناة، وتصد وتدمر احتياطيات العدو المحلية والقريبة.

ج ـ تركز الفرقة مجهودها الرئيسى على الجانب الأيسر لها على محور متلا.

د ـ تشكيل المعركة للفرقة فى نسقين: اللواء السابع المشاة واللواء الخامس المشاة نسق أول، اللواء الثانى المشاة الميكانيكى نسق ثانى.

- ❑ المهمة المباشرة للفرقة: تدمير قوات العدو فى النقط القوية، وعلى الساتر الترابى شرق قناة السويس، وصد وتدمير احتياطيات العدو المحلية، والقريبة، والاستيلاء على الخط. (الحد الأيمن تقاطع طريق الشط ـ القنطرة مع طريق سدر الساحلى، حد يسار معسكر الشط)، وتكون الفرقة مستعدة لصد نسق ثان تعبوى العدو.
- ❑ المهمة التالية: يُدفع النسق الثانى بالتعاون مع مجموعات الصاعقة، لتطور الفرقة هجومها شرقاً وتدمر قوات العدو القائمة بالهجوم المضاد، وتستولى على خط: (المطار المهجور على الشاطئ الشرقى لخليج السويس ـ جبل أبو غلام ٢كم شرق النصب التذكارى)، مكونة بذلك رأس كوبرى بعمق ٨ ـ ١٠كم.

«وتكون الفرقة مستعدة لصد الهجمات والضربات المضادة للعدو صباح اليوم الثالث للعمليات، بالتعاون مع اللواء ٢٢ مدرع بالفرقة السادسة مشاة ميكانيكية».

(١٦)

ويدلنا ما يرويه الفريق يوسف عفيفى فى اختصار شديد على مدى عظمة الإعداد للمعركة: تخطيطاً وتدريباً والتزاماً بالخطة وتمويهاً على التحركات:

«وكانت تدريبات الفرقة تركز على هذه المهمة بالذات، ووضعت الخطة التى يمكن بها محاصرة هذه النقاط، ثم تدميرها تماماً».

«لقد كانت عملية التمويه لتحريك القوات إلى ضفة القناة غاية فى الصعوبة، لكنها تمت فى غاية الدقة والسرية، كان الإسرائيليون يراقبون تحركاتنا باستمرار، ولكننا استخدمنا الساتر الترابى من ناحيتنا على الضفة الغربية فى الإخفاء والتمويه».

❑

ويفيض الفريق يوسف عفيفى فى أكثر من موضع فى الحديث عن تفاصيل خطة الخداع والتمويه التى تمكنت بها قواتنا المسلحة الباسلة من تنفيذ مهماتها دون أن ينتبه العدو:

«وكانت التحركات لا تتم فى ليلة أو ليلتين، ولكن يلزمها ليال قبل العملية، كما أن تحريك القوات المختلفة لا يتم إلا فى وقت واحد، ولكن هناك نظاماً معيناً موضوعاً لتحريك المشاة، والمدفعية، والدبابات إلى مواقعها المحددة فى توقيتات محددة».

«وكانت العملية تسير بشكل طبيعى للغاية».

«هناك تحركات كثيرة، لكن العدو اعتبرها جزءاً من التدريبات التى تعود ملاحظتها خلال الشهور الأخيرة السابقة لأكتوبر».

«وكانت تحركاتنا تلك لا تدعو للقلق من وجهة نظر العدو، وإنما المسألة كلها مجرد تدريب روتينى عادى، وكان هذا التصور من جانب الإسرائيليين هو ما خططنا له، وقد نجحنا فى تحقيقه بزيادة مشروعات التدريب».

«وفى نفس الوقت الذى ضاعفنا فيه مشروعات التدريب، وزعت القيادة نشرات

على الوحدات المختلفة لقيد الضباط الراغبين فى العمرة والحج. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يصرح فيها للضباط منذ ١٩٦٧ بالعمرة أو الحج».

«وتعمدنا إذاعة هذه النشرات حتى تصل إلى العدو».

«كما صرحنا بإجازات مفتوحة للمقاتلين، ولمزيد من الخداع فقد جرى تسريح جانب من الاحتياطى، بينما استدعينا سراً احتياطياً آخر وكان أفراده يدخلون الجبهة فى الليل».

«وهكذا ابتلع العدو الطعم، وتم خداعه بصورة كاملة ومفاجأته».

(١٧)

ويقدم الفريق يوسف عفيفى قرب نهاية هذا الكتاب تصويراً شائقاً للعبور وسيمفونيته ما بين الطيران والمدفعية والمشاة:

«لقد كان العبور يتم على موجات، وما حدث هو أن بدأت أولاً ضربة الطيران لتدمير النقاط الهامة فى الأعماق، وفى أعقابها قصفت المدفعية أهدافها، وفى أثناء عملية الضرب كانت تتقدم قوات المشاة للوصول إلى المحاور المحددة لكى تستطيع العبور».

«فى أثناء هذه العملية سبق الجنود الزمن الذى كان مقرراً أن يقوموا بالحركة فيه، من شدة حماسهم.. لدرجة أنهم بدأوا العبور فى أثناء ضرب المدفعية».

«والأكثر من ذلك أن أهالى السويس كانوا يساعدون الجنود فى نقل الذخيرة بعربات الكارو، واليد، بدلاً من أن يحمل الجنود الصناديق الثقيلة على أكتافهم إلى شاطئ القناة».

«وفى أثناء العبور أيضاً كان الجنود يتسابقون لوضع العلم على الضفة الشرقية، فقد تسلمنا الأعلام من القيادة لكى نسلمها للقادة لكى ترفع معنوياتهم، وكانت هذه فكرة الفريق الشاذلى».

«كانوا يتسابقون لرفعه، وكان أول علم وضع على الضفة الشرقية للقناة بصفة عامة فى الفرقة ١٩ مشاة الساعة الثانية والنصف بعد الظهر».

«لقد حققت فرقتنا إنجازات هامة فى الأيام الأولى للحرب».

❑

ويبدو صاحب هذه المذكرات حريصاً على أن يشير إلى الصعوبات التى واجهتها فرقته بالذات ومدى نجاح فرقته بالمقارنة بالفرق الأخرى، وهو فخور بالعمق الذى وصلت إليه فرقته، وبأنها انفردت من بين الفرق بأنها استولت على جميع مراكز القيادات الأمامية للعدو، وبكثرة الأسرى الذين استطاعت أسرهم حيث أسرت فرقته وحدها أكثر من سبعين فى المائة من أسرى الإسرائيليين خلال الحرب، فضلاً عما استولت عليه من أسلحة العدو وذخيرته:

«لكن قبل أن أخوض فى تفاصيل هذه الإنجازات، أود أن أؤكد أن الفرقة ١٩ قاست أكثر من الفرق الأخرى، وتحملت مسئوليات أكثر، وكان ذلك يرجع إلى طبيعة المنطقة التى كانت تعمل فيها.. وقد كانت هذه الفرقة أسرع وأعمق الفرق فى تحريرها للأرض.. فقد وصلنا إلى مسافة ١٣ كيلومترا فى سيناء شرق القناة».

«والوصول إلى هذا العمق يعنى وصولنا إلى مراكز قيادات قوات الاحتياطى القريبة للعدو. لقد وصلنا إلى جميع مراكز القيادة الإسرائيلية على المحور العرضى الأول أمامنا، وقد استولينا على قيادة محور متلا وقيادة جبل المر وقيادة عيون موسى».

«وتعتبر الفرقة ١٩ هى الوحيدة التى استولت على جميع مراكز القيادات الأمامية للعدو».

«من خلال الاستيلاء على مراكز هذه القيادات.. حصلت على وثائق هامة وخرائط العمليات وأجهزة ومعدات قتالية.. هذا بالإضافة إلى استيلاء الفرقة على نقاط قوية هامة فى هذه المناطق، وهى حصون متدرجة القوة ١٤٦ و١٤٨ و١٤٩ ثم الجباسات و١٥٨ وعيون موسى ولسان بورتوفيق».

«الحصيلة النهائية: ٦ نقاط قوية و٣ مراكـز قيادة، وموقع مدفعية عيون موسى، كل ذلك حتى يوم ١٣ أكتوبر».

«وفي أغلب هذه النقاط كنا نأسر كثيرين من جنود العدو.. فقد أسرت الفرقة ١٩ ثلاثة وثمانين جندياً منهم ثمانية طيارين، وذلك من العدد الكلى الذى تم أسره بمعرفة القوات المسلحة وهو ١١٤ جندياً خلال كل أيام الحرب».

«كما استولينا على ٥ دبابات باتون، وموقع مدفعية ميدانية هاوتزر عيار ١٥٥سم وعددها ٦ مدافع، ثم عدد من المدافع ذاتية الحركة، بالإضافة إلى أسلحة خفيفة بأعداد كثيرة. وقد أسقطت الفرقة ما لا يقل عن ٣٣ طائرة متنوعة».

(١٨)

ويحرص الفريق يوسف عفيفى على أن يوضح موقف فرقته من تكتيك العمليات الحربية بعد النجاح الذى تحقق في السادس من أكتوبر، وهو يعترف أن فرقته لم تنتظر الأوامر وأنها تقدمت من تلقاء نفسها، وهو يقول بالنص: «لقد كنا مندفعين وحدنا».

«يحضرنى الآن ما قيل من أن الفرقة ١٩ أقامت رأس جسرها فى سيناء، وتقدمت بطريقة توحى بأن هدفها كان الممرات».

«إن هذه الأمور تستلزم إعادة نظر، وليس صحيحاً أغلب ما قيل عن هذا الموضوع، فقد كانت المعركة تتكون من مراحل للوصول إلى المهمة التالية بعد وقفة تعبوية.. وهذه الوقفة التعبوية لها ظروفها. فالتكتيك الحربى يقرر أنه إذا كان العدو ينسحب أمامك فلابد أن تطارده، حيث إن مطاردة العدو عند انسحابه مبدأ من مبادئ الحرب الأساسية».

«كانت هناك مهمة ابتدائية ومهمة تالية».

«الأولى: انتهت يوم ٧ أكتوبر، وبدأنا ننتظر أوامر ببدء المهمة التالية، أو كان يفترض ذلك».

«أنا لم أنتظر الأوامر.. فبدأنا نتقدم حتى وصلنا إلى أقرب ما يكون للمهمة

التالـية، وتوقفنا فـى مواقعنا.. وقـبل فجر يوم ٩ أكـتوبر بساعة، صـدرت الأوامر من القيادة مضمونها: أن نـقوم بتحقيق المهمة التالية قبل أول ضـوء.. لو كنت قد انتظرت الأمر فى مـوقعى الأول لما كـنا استطـعنا عمـل شىء، وهذا ما أقـرره الآن.. ووجدت نفسى أحقق المهمة التالية فى الوقت المحدد».

«لهـذا كنا منـدفعيـن وحدنا، وهـناك كثير من البـطولات والأعمـال الهامة الـتى سجلت فى تاريخ الفرقة وعملياتها، ومسجلة أيضاً فى عمليات حرب أكتوبر».

❏

ويؤكد الفريق يوسف عـفيفى فى كتابه على هذا المعنى بمـا يرويه عن توهج الروح القتالية لأحد الجنـود فى فرقته، وهو يوحى لنا أنه لولا الاندفاع فـى بعض التصرفات لكان البديل مكلفاً جداً:

«فى أحـد تلك الأيام، نجـح العدو فـى دفع فصيـلة دبابـات فى نقـطة اتصال بـين لواءين فى الفـرقة، وتسللت دبابة منها تجاه مركز القيـادة المتقدم للفرقة.. عـلى الفور تصدى الجنـدى الديدمونى وهو أحـد جنود مدفعيـة الفرقة، والذى كان ضـمن طقم حماية قائـد مدفعية الفرقة، حاملا تـسليحه الشخصى وهو آر بـى جى ٢ ومداه المؤثر ١٠٠ متر، وانتظـر الديدمونى حتى أصبحـت الدبابة فى مرمى نيرانـه، وعلى بعد ٢٥ متـراً أطلق دانتـه الشهيـرة ليدمر دبـابة العدو الـتى كانت فـى مقدمة الـقول، لتجـبر الدبابتين الأخريين على الفرار.. ولولا هذه الدانة لـكان الموقف قد تغير بالنسبة لقيادة الفرقـة، حيث إن قول دبابات الـعدو كان مكوناً مـن ثلاث دبابات، ولو تمكـنت هذه الدبـابات من الوصـول إلى مركـز قيادة الفـرقة المتقـدم لاختلـف الوضع، لكـن دانة الديدمونـى التى أصابت الدبابـة فى مقتل، قد غيـرت الموقف تماماً وأنقذ مـركز قيادة الفرقة».

(١٩)

ويحرص الفريـق يوسف عفيفى على أن يوضـح حقيقة قصة تدمير المـدافع الستة

الشهيرة بعد الاستيلاء على الموقع الذى كان يضمها، وهو يذكر بوضوح أن المشير أحمد إسماعيل كان هو صاحب الأمر بهذا التدمير خشية عودة العدو للاستيلاء عليها، وقد كانت هذه المدافع الستة الشهيرة مصدر إزعاج دائم لنا، لأنها كانت لا تكف عن قصفنا وقصف قواتنا على الشاطئ الغربى، ويذكر يوسف عفيفى أن المبادئ التكتيكية كانت تقضى بالحفاظ عليها، لكن المشير أحمد إسماعيل على بما عرف عنه من تقديره الدقيق وحذره وتحسبه وحرصه على سلامة قواته كلها، كان ينظر برؤية مختلفة عن رؤية يوسف عفيفى إلى الحد الذى جعله يرسل لجنة هندسية من القوات المسلحة لتدمير هذه المدافع:

«لقد سألنى الكثيرون عن الأسباب التى دعت إلى تدمير مدافع موقع عيون موسى بعد الاستيلاء على الموقع».

«وهذه هى المرة الأولى التى أذكر فيها هذه التفاصيل».

«بعد أن تلقيت بلاغاً من العقيد فوزى محسن قائد اللواء السابع بالاستيلاء على موقع عيون موسى سليماً بمدافعه الستة الشهيرة واستسلام موقع لسان بورتوفيق وبه خمس دبابات باتون جديدة سليمة، طلبت من القيادة سائقى دبابات لقيادتها وترحيلها من الجبهة والاستفادة بموقع عيون موسى».

«لكن المشير أحمد إسماعيل أرسل لجنة هندسية من القوات المسلحة لتدمير هذه المدافع والدبابات، خشية من أن يعود العدو للاستيلاء عليها.. كان هذا تقديره».

«لكنى لم أكن مع هذا الرأى، حيث إن هناك مبدأ تكتيكياً هو الحفاظ على المواقع المكتسبة، وترك بعض العناصر للدفاع عنها.. والحقيقة التى أود تأكيدها هنا أن تدمير هذه المواقع والمعدات لم يكن إطلاقاً بسبب عُدم التمكن من إخراجها من خلال الحوائط الخرسانية كما ذكر الإسرائيليون فى بعض مذكراتهم».

«فى يوم ٩ أكتوبر كان رأس جسر الفرقة فى منطقة رأس مسلة، وكانت كل محاولات التقدم جنوباً نحو رأس سدر تتعثر، وقد حدث ذلك بالنسبة للواء الأول من الفرقة السادسة الميكانيكية، فقد كان من المفترض أن يتقدم اللواء تحت قصفة

المدفعية من الفرقة ١٩ وقمنا بذلك.. وتأخر خروج اللواء وتعثر تقدمه نحو رأس سدر.. هذا ما حدث».

«إن كل المواقع التى استولينا عليها وضعت فيها قوات من الفرقة لحمايتها لكى لا يعود العدو إليها مرة أخرى.. وكانت مهمة هذه القوات حماية مؤخرة الفرقة، وجعلت رئيس الأركان مسئولاً عن المؤخرة».

«لذا كان الدفاع فى الحصار الذى حدث بعد ذلك دائرياً، محمياً من جميع الجهات».

«لقد كانت مهمة الفرقة هى الوصول إلى حد معين.. تجاوزناه، ووصلنا لمراكز القيادة الأمامية للعدو، وعندما تجاوزنا مراكز القيادة، قامت قوات العدو بهجوم مضاد لاستردادها، ولم يستطيعوا.. فتوقفنا.. كنا على محور متلا على مسافة ٢٠ كيلومترا من المدخل الغربى للممر».

(٢٠)

ويولى الفريق يوسف عفيفى فى موضع آخر عناية شديدة للحديث عن موقف قواته من خطوة تطوير الهجوم، وهو يحرص على أن يوحى لنا أنه تناقش مع القيادة محذراً من احتمال حدوث ثغرة يدخل منها العدو:

«أما مسألة تطوير الهجوم الشهيرة، فقد صدرت لنا الأوامر من القيادة بتطوير الهجوم من أجل تخفيف الضغط على الجبهة السورية».

«كانت الأوامر دفع اللواء الثانى الميكانيكى من موقعه فى جبل المر ـ وكان فى منتصف قطاع الفرقة ـ على طريق متلا إلى الممرات، وأصدرت تعليماتى بالإعداد للتحرك، ثم تناقشت مع القيادة فكيف أقوم بإخلاء لواء فى المواجهة الواسعة التى تبلغ ٢٣ كيلومتراً، وهو ما قد يؤدى إلى ثغرة يدخل العدو منها؟ فلماذا لا يتم تقدير

الموقف مرة أخرى؟ وطلبت دفع لواء آخر من الخلف للاختراق نحو الممر دون إخلاء اللواء الميكانيكى من موقعه مع مراجعة الموقف».

«وفى نفس الوقت كان مفترضاً أن يقوم اللواء العاشر الميكانيكى التابع للفرقة السابعة المجاورة بالتقدم نحو طريق الجدى فى نفس الوقت».

❏

ويروى يوسف عفيفى أن قائد الجيش الثانى [الجديد] اللواء عبدالمنعم خليل توجه إلى القيادة وبعد نقاش تم تأجيل خروج اللواءين، ووصل الأمر، ولم يتحرك اللواء الثانى بينما تحرك اللواء العاشر ثم عاد.. هكذا يوحى لنا الفريق يوسف عفيفى (دون أن يصرح) بأن قبساً من روح ١٩٦٧ كانت قد بدأت تتسلل على استحياء:

«إن ما حدث هو أن قائد الجيش [الثالث] اللواء عبدالمنعم واصل توجه إلى القيادة بعد أن استدعى، وبعد نقاش تم تأجيل خروج اللواءين.. ووصل الأمر للفرقة ١٩ فلم يتحرك اللواء الثانى الميكانيكى».

«أما اللواء العاشر المجاور فكان قد تحرك وعندما وصل إلى طريق الجدى صدرت له الأوامر بالعودة.. وعاد لموقعه السابق».

«وفى أثناء تطوير الهجوم يوم ٩ أكتوبر قامت القوات الإسرائيلية بإقامة خط منيع للدفاع ضد الدبابات، عبارة عن صواريخ مركبة على طائرات هليكوبتر أمام جبل المر، وفى أثناء تقدم القوات كانت الطائرات تظهر من خلف السواتر لتطلق الصواريخ المضادة للدبابات وتختفى.. وهو الأسلوب الإسرائيلى المبتكر، فلا يوجد لديهم من يحمل صواريخ ضد الدبابات، ويقف على الأرض.. وصدق الله العظيم: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر﴾، وحدثت فى هذا اليوم خسائر كبيرة فى إحدى الكتائب.. وهذا سبب تأخير حركة اللواء الثانى فى أثناء التطوير».

«فى المساء.. وبعد احتلال جبل المر، فقدت تلك السواتر المضادة للدبابات فاعليتها».

(٢١)

ويحرص صاحب هذه المذكرات على أن يشير فى وضوح فى أكثر من موضع من هذه المذكرات إلى بطولة جنود فرقته الذين استمروا ٢٦ ساعة بعد عبورهم بدون دبابات ، وكانوا يتصدون بأجسادهم لطوابير الدبابات الإسرائيلية لأن الكبارى لم تكن أقيمت ولا الفتحات الشاطئية فتحت، وهكذا قاد هؤلاء الأبطال ملحمة من أروع الملاحم حتى أدركتهم عناية الله:

«عندما عبرت قوات الفرقة ١٩ بالأسلحة الخفيفة فقط، استمرت لمدة ٢٦ ساعة بدون دبابات، وتوجد وقائع كثيرة عن تصدى أفراد الفرقة بأجسادهم لطوابير الدبابات الإسرائيلية، منها واقعة استشهاد اثنين من قادة السرايا لإيقاف تقدم الدبابات».

«هناك الكثير من التفاصيل التى لابد أن نذكرها لهذه اللحظات الصعبة.. إن قادة السرايا المشاة قاموا فى أثناء ذلك بصد هجوم مضاد لدبابات العدو، ولم تكن لدى سراياهم الدبابات المعاونة لمدة ٢٦ ساعة، لأن الفتحات الشاطئية لم تكن قد فتحت، والكبارى لم تكن أقيمت، وكنت قد طلبت من القيادة قبل العمليات استخدام المتفجرات لأن هذه المنطقة كانت صلدة ولا يصلح معها التجريف بالماء وحده».

«ماحدث هو أن التجريف استخدم وحده، ولم تتم الفتحات الشاطئية وبالتالى عدم إنشاء الكبارى، فاضطررنا إلى التعامل مع مسألة الفتحات الشاطئية بأنفسنا بثلاثة أطنان من المتفجرات، فأنشئ الكوبرى بعد ٢٦ ساعة من العبور، وخلال هذه الفترة كان المشاة يحاربون العدو بصدورهم وبدون أية دروع، وكانوا يواجهون الدبابات بالقنابل اليدوية وقواذف الآر بى جى».

❑

وبعد أيام أخرى واجه هؤلاء الأبطال نفس الموقف، وكان قائد الفرقة الذى هو صاحب هذه المذكرات نفسه ـ على ما يروى ـ حريصاً على أن يصدر أوامره لجنوده

بالصمود فى أماكـنهم حتى آخر رجل وآخر طلقة، وهو ما حدث بـالفعل حتى بدأت الدبابات المعادية تتحرك فوق أجسادهـم، ومن حسن حظنا أن صاحب هذه المذكرات لا يبخل علينا بأسماء الأبطال الشهداء الذين ضحوا بحياتهم من أجلنا:

«وفى يوم ١٢ أكتوبر علـى محور متلا، تصدى الجنود للدبابات بـعد أن قصفتهم نيران الطيـران والمدفعية.. وبدأت الدبابـات فى التقدم لاسترداد المواقـع حول محور متلا التى استولينا عليها».

«وأصدرت أوامرى لهـم بأن يصمدوا فى أماكـنهم حتى آخر رجل وآخـر طلقة، وكانت الدبابات قد وصلت إلى مواقع المشاة وبدأت تتحرك فوق أجسادهم.. وعندما رأى اثنان من قادة الـسرايا الأمامية هذا المشهد، خـرجا من الحفرة التى كانا يـحتميان بها، وتـسلقا دبابات الـعدو ببسالة، وقـاما بنسف دبابـتين، واستشهـدا فوقهما ليـنقذا القـوات، وقد تم حفـر اسميهـما فى سـجل الشـرف وهما: الـشهيد الـرائد محـمد السعيد عبدالله البسطاويسى، والشهيد الرائد السيد عبدالعظيم سرور».

«فى هذه اللحظة وعـندما رأى العدو أن دباباتهم تنسف بهـذه الطريقة، وأن هناك من يقـفز فوقها لـيدمرها، وهـى أمور لا يعتادونـها مطلقـاً، اضطروا إلى الانـسحاب مذعورين بـبقية دباباتهم.. ولـم يكتمل الهجوم المـضاد مع أنه كان يتم بسـرية دبابات كاملة».

(٢٢)

ويروى الفريـق يوسف عفيفى قـصة استيلاء فرقـته على موقع عيـون موسى الذى كان بمثابة أحد المواقع الحصينة والقوية لجـيش الاحتلال الإسرائيلى، وهو يعترف بكل وضوح أن قـواتنا اسـتولـت على هـذا الموقع بمـا يشـبه الصـدفة حين ذهبـت دورية استطلاع من فصيلة واحدة إلى اليمين للاسـتطلاع فاصطدمت بالموقع، ودخلته قواتنا فلم تجد فـيه جندياً واحدا، وهكذا يـجد هذا القائد العـظيم الشجاعة ليـقول إن عيون

موسى لم تكن معركة، وما حدث أن العدو أصيب بالذعر وترك ذلك الموقع بكل ما فيه من مدافع وأبواب وكهرباء وذخيرة وطعام ساخن:

«إن هذا الموقع كان موقع بطارية مدفعية ميدانية عيار ١٥٥مم وهو حصين جداً، يعمل بالكهرباء، فالأبواب تفتح بالكهرباء، والمدافع تظهر وتختفى ذاتياً، وهو مخفى إخفاءً كاملاً بحيث يستطيع أن يضرب أهدافه من غير أن يكتشف، ثم يوقف نيرانه ويختفى موقعه، فلا يظهر مطلقاً».

«وفعلاً لم يكتشف هذا الموقع اكتشافاً كاملاً، لكن كان من المعروف أن موقعاً ما يوجد فى هذه المنطقة بدون أن نستطيع تحديد مكانه بالضبط.. ولم يكتشف إلا يوم ٩ أكتوبر عندما كانت الفرقة تقوم بتطوير هجومها إلى الشرق، وكان اللواء السابع من الفرقة ١٩ هو الذى يقوم بتلك العملية، وبعد أن انتهى من تحقيق مهمته القتالية أراد أن يؤمن أجنابه تكتيكيا فأرسل دورية استطلاع مكونة من فصيلة، تحركت يميناً فاصطدمت بهذا الموقع الحصين».

«دخل أفراد الفصيلة الموقع فلم يجدوا به جندياً إسرائيلياً واحداً، فقد تركه الإسرائيليون خوفاً وذعراً، ظناً منهم أن قواتنا قد تحاصرهم، فتركوه قبل أن يؤسروا.. لقد كانت الذخيرة كاملة داخل الموقع، والطعام ساخناً وكل شىء فى مكانه، وهذه هى الطريقة الإسرائيلية فى القتال، لكن فيما بعد خرجت قصص عن هذا الموقع قالها من لم يدخله، أو من يشاهده، ومن لم يشارك فى المعركة».

«قالوا: إن العدو حاربنا فيه وحاربناه وأعدوا له قصصاً، واليهود يعلمون أنهم تركوه سليماً.. ولو قلت إنهم حاربونى وحاربتهم فسوف أصنع لهم بطولات لم تحدث، ولم يقوموا بها، فعيون موسى لم تكن معركة.. ما حدث أن العدو أصيب بالذعر وهرب ليترك الموقع».

(٢٣)

ويحرص يوسف عفيفى على أن يقدم للقراء وصفاً تفصيلياً لموقع لسان بورتوفيق الحصين الذى لم يكن بإمكان المدفعية أو الطيران التأثير فيه، وهو ينبهنا بهذا الوصف

إلى الأهمية القصوى لجسارة أفراد المشاة الذين يتوقف على ادائهم النجاح فى الاستيلاء على مثل هذا الموقع بالاقتحام، وليس بأى وسيلة أخرى، ومن فضل الله علينا أن الإيمان كان كفيلا بأن يدفع جنودنا إلى التضحية بأنفسهم من أجل مثل هذا الهدف والذى بدونه لم يكن النصر ليتحقق:

«موقع لسان بورتوفيق ـ كما جاء فى أوراق الحرب الإسرائيلية ـ يضم ٦ دشم، أقامها الإسرائيليون على اللسان الممتد إلى ما يزيد على خمسة كيلومترات، وكان عرضه يتراوح مابين ٧٥ و٢٠٠ متر».

«كانت جدران الدشم تتكون من عربات السكك الحديدية المليئة بالأسمنت المسلح، وفلنكات السكك الحديدية، وقد تم الردم فوقها بالرمل الذى يصل ارتفاعه لثلاثة أمتار حتى لا تؤثر فيه القذائف».

«تتصل الدشم الست فيما بينها بأنفاق تحتية بحيث إذا سقطت إحداها يهرب أفرادها إلى الدشم الأخرى، ويغلقون خلفهم أبواباً فولاذية صلبة».

«كان موقع لسان بورتوفيق مصمماً بحيث لا يؤثر فيه ضرب المدفعية والطيران، بل إن أثقل أنواع القنابل كانت لا تحدث فيه سوى إصابات طفيفة بالجدار الأسمنتى».

«أما تسليح الموقع فكان يضم: خمس دبابات باتون الأمريكية، وبطاريات مدفعية ثقيلة، ورشاشات ثقيلة، ومتوسطة، بالإضافة إلى التسليح الشخصى للأفراد وكان عدد أفراد قوة الموقع يبلغ ٤٢ إسرائيليا».

(٢٤)

وتعطينا هذه المذكرات ـ أيضا ـ رؤية للخطوات التى تمضى بها المعارك المتوالية والتى تكون مع بعضها ـ فى نهاية الأمر ـ المعركة الكبيرة، ومع أن يوسف عفيفى لم يقصد إلى هذا خاصة أنه انطلق إلى الحديث عن ٦ أكتوبر ١٩٧٣ من زاوية دور

الفرقة ١٩، إلا أنه فى واقع الأمر وجد نفسه يمضى فى هذا الطريق حين تحدث عن الاستيلاء على حوض الدرس وهو يعرض أفكاره بطريقة «إذا لم»، أى أنه يبين أهمية ما تم بالحديث عن النتائج السلبية التى كانت تحدث لو لم يتم:

«الاستيلاء على حوض الدرس.. ما الذى كان يعنيه بالنسبة لسير المعركة؟».

«لو لم نتمكن من السيطرة على حوض الدرس كانت ستحدث أشياء كثيرة وهامة.. فقد كان ذلك سيمكن العدو من إحكام الحصار على مدينة السويس ثم إحكام الحصار على القوات وعزلها عن السويس، وبذلك حرمان السويس من أية معاونة يمكن أن تقدمها القوات، إضافة إلى حرمان القوات من المعاونة الإدارية والروحية التى تقدمها إليها السويس».

«هناك نقطة هامة أخرى تتمثل فى العمق الاستراتيجى الذى يفيد الجانب المعنوى، فمن المؤكد أن العمق الاستراتيجى يشكل مبدأ هاما من المبادئ الاستراتيجية العسكرية».

«بل إنه من القضايا الهامة فى تشكيل العقيدة القتالية عند العدو، وهو ما أكده موشى ديان عدة مرات، حيث قال: إنه من الخطأ الاعتقاد بأن الأسلحة الحديثة تجعل الأرض غير مهمة، بل العكس هو الصحيح، فالأسلحة المتقدمة تحتاج لحيز لانتشارها».

«كل هذه عوامل ـ وغيرها ـ كانت وراء رغبة العدو المحمومة للاستيلاء على حوض الدرس، ولو استطاع العدو ذلك ـ لا قدر الله ـ لتغير وجه التاريخ، لكن شجاعة الرجال، وإقدامهم وحسن تدريبهم حالت دون أن يحقق العدو هذا الهدف الغالى فى هذه المعركة الخطيرة».

«كانت مهمة تأمين المعابر فى هذه المنطقة هى مسئولية كتيبة الدفاع الإقليمى ١٤١، ولم تكن هذه الكتيبة تملك من الأسلحة سوى الهاونات الخفيفة والبنادق، وبعض القواذف المضادة للدبابات، وكانت الكتيبة تحتل مرابضها فى حافة المزروعات والحدائق وتقيم الكمائن فيها».

«أما قوات الفرقة ١٩ فقد كانت جميعها بالشرق وتقوم بتقديم المعاونة بنيران المدفعية والدبابات المرابطة على الضفة الشرقية».

(٢٥)

ويروى الفريق يوسف عفيفى تفاصيل القتال الإسرائيلى ـ المصرى من أجل السباق على السيطرة على حوض الدرس، وهو حريص على الإشادة بإحدى فصائل الدبابات المتمركزة على الساتر الترابى للقناة، التى استطاعت تدمير نصف القوة المعادية وإيقافها تماماً،ثم تمكنت بعد ذلك من إيقاف حركة العدو إلى الأبد قبل أن يستدعى طائراته القاذفة، ويفخر صاحب المذكرات بالشجاعة النادرة التى أبدتها هذه الفصيلة فى قتالها، واستشهاد قائدها الذى يبدو من نهاية حديثه أنه هو المقاتل محمد والى:

«فى العاشرة من صباح يوم ٢٣ أكتوبر اقتربت مجموعة إسرائيلية مكونة من سرية دبابات ومشاة ميكانيكية، اقتربت من جمرك الشط وهى تتحرك جنوباً فى اتجاه المصطبة رقم ١٥٢».

«وهنا قامت كمائن كتيبة الدفاع الإقليمى بالاشتباك معها بينما قامت مدفعية الفرقة ١٩ بقصف قوات العدو، وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت مجموعة العدو فى التقدم نحو الجنوب على طريق القناة».

«وتمكن قائد كتيبة الدفاع الإقليمى بتوجيه نيران إحدى فصائل دبابات الفرقة ١٩ المتمركزة على الساتر الشرقى للقناة من منع احتلال المصطبة ١٥٢».

«لكن العدو حاول احتلالها وتمكنت الفصيلة من تدمير نصف القوة المعادية وإيقافها تماماً».

«وهنا اضطر قائد القوة الإسرائيلية إلى استدعاء الطيران الإسرائيلى لتدمير هذه الفصيلة ليتسنى له الاستمرار فى تقدمه، وقبل أن يقوم الطيران الإسرائيلى بمهمته فى

تدمير الـفصيلة، كانت الفـصيلة المصرية الأخرى قـد احتلت مرابضها، وتمـكنت من إيقاف تقدم العدو إلى الأبد على هذا الطريق».

(٢٦)

وعلى الـرغم من الجيـوش المجيشة والأعـداد الهائلـة من الأفراد والمعـدات، فإن حسم المعارك أحـياناً ما يكون معلقاً عـلى رقبة دبابة أو معدية أو أنقـاض كوبرى على نحو ما حـدث فى معركة حوض الدرس حسـبما يرويه صاحب هـذه المذكرات عن الفصيـلة التى تمكنـت بمساعدة دبابة واحـدة من التصدى للـعدو، وتدمير دبابـاته من خلال أطقـم اقتناص الدبابـات، ثم ما تحقق أيـضا بفضل مـهارة المهندسين المـصريين الذين استطاعوا إنشاء معدية من أنقاض الكبارى المدمرة:

«لقد قاتـلت هذه الفصيلـة بشجاعة نادرة، واستشـهد قائدها، ودمرت لهـا دبابتان وبقيت دبابة واحدة».

«هذه الـدبابة ظلـت شوكة فى حـلق قوات العـدو وحرمته مـن معاودة الهـجوم، والأكثر من ذلك أنها دمرت من قواته الكثير».

«لم يتبق لـلعدو سوى دبابتين.. حاول الـعدو أكثر من مرة الالتفـاف حول الدبابة المصريـة من ناحية مـنية الغلـة وكفر أحمد عبـده، لكن أطقم اقـتناص الدبابـات التى دفعتها الفرقة ١٩ فى هذا الاتجاه يوم ٢٥ أكتوبر كانت له بالمرصاد، وكانت عوناً لتأمين الجانب الأيسر لهذه الدبابة الصامدة».

....

«لقد حاول العدو طـوال فترة الحصار اقتحام هذا الطريق بـهدف حرمان القوات من المعونة الإدارية والمعـنوية التى تقدمها السويس كمـا سبق أن ذكرت، ولذلك شل حركـة المعدية الـتى قام بإنـشائها مـهندسو الـفرقة ١٩ والتـى أشرف عليـها العقيد

مهندس مصطفى حمودة قائد كتيبة الكبارى عند علامة الكيلو ١٥٦ تحت نيران العدو».

«وقد تم صنع هذه المعدية من أنقاض الكبارى المدمرة.. وقد أدت هذه المعدية دورا هاما فى نقل ما يزيد على مائة وخمسين متر مكعب مياه يومياً من مدينة السويس وكميات هائلة من التعيينات، كما كانت القوات تقدم للسويس الدعم النيرانى بالمدفعية، والأفراد، والأسلحة المختلفة، وتوفر لها الاتصال باللاسلكى مع القيادة العليا».

«ولقد تعرضت هذه المعدية للهجوم حتى بحكم العدو الحصار ويعزل السويس عن القوات، بعد أن فشل فشلاً ذريعاً فى اقتحام حوض الدرس عدة مرات، وسيذكر التاريخ أبطال هذه المعركة وعلى رأسهم المقاتل محمد والى ورفاقه».

(٢٧)

وفى كل فقرة من فقرات هذا الكتاب القيم يطغى علىّ الشعور بأن أدعو كل راشد فى وطننا أن يقرأ مرة واثنتين وثلاثاً كل هذه التفصيلات التى أحاطت بتحضير قواتنا المسلحة الجيد لمعركة النصر المجيدة، ولنأخذ ـ على سبيل المثال ـ هذا الحديث الذى يروى به صاحب المذكرات التفكير المنظم الذى جعل قواته تذهب لاستطلاع أنابيب النابالم، ولا تكتفى هذه الدوريات بهذا وإنما تصور كل معالم الخط وراء الساتر، فإذا بها تكتشف أن الساتر يضم مصاطب مجهزة للدبابات كفيلة بأن تمنع العبور، وهكذا قادت خطط الاستطلاع إلى وضع خطط جديدة من أجل قطع الطرق الموصلة إلى هذه المصاطب والإسراع إلى ركوبها قبل أن يركبها العدو:

«فى فترة التحضير للمعركة وصلتنا معلومات عن أنابيب النابالم الممتدة إلى

الشاطئ الشرقى من خلال فوهات فى الساتر الترابى، وخرجت من الفرقة عدة دوريات للاستطلاع وخصوصاً بعد تعلية الساتر الترابى لكى يخفوا ما وراءه».

«واستطاعت دورياتنا تحديد أماكن المصاطب المخصصة للدبابات، وكذلك مناطق مخازن النابالم، واتجاه أنابيبها».

«وقبل العبور كانت مجموعات الاستطلاع تتسلق الساتر وتفصل هذه الأنابيب وتعطل الطلمبات وتتولى إغلاق الأنابيب أخذاً بالحيطة والحذر».

«لقد كان رجال الاستطلاع يتسابقون إلى المهام الاستطلاعية، برغم خطورتها، ويعودون جميعاً دون أن يشعر بهم العدو».

«والأكثر من ذلك أنهم لم يكتفوا بالتبليغ، وإنما التقطوا صوراً لكل معالم الخط وراء الساتر، وقد أفادتنا هذه الصور إلى حد كبير، وغيرت بعض الخطط والتقديرات».

«فقد كان تصورنا أنه مجرد ساتر عادى، لكن ظهر أنه مصاطب للدبابات أيضاً، ويمكنها الصعود إليها من أى اتجاه، وتركب الشاطئ، وتمنع العبور».

«وعلى ضوء هذه الصور والمعلومات، وضعنا الخطة المضادة، وضعت نماذج للساتر ومصاطبه، ودربنا مقاتلينا على وضع الألغام فى المصاطب، وكيفية عمل مجموعات اقتناص الدبابات لقطع الطرق الموصلة إلى المصاطب وركوبها قبل دبابات العدو».

❑

ولايفتأ صاحب هذه المذكرات بصور بدقة، ويصف فى تشف التجهيزات القوية والذكية التى جهز بها العدو خط بارليف لمنع أى عبور ، وكيف وفقنا الله إلى التغلب عليها:

«ولكى ندرك مدى تجهيزات العدو الإسرائيلى الموضوعة لمنع أى عبور، يكفى أن نعرف أنهم وضعوا فى القطاع الجنوبى لفرقتنا ٩١ مصطبة نيران مطلة على القناة من فوق الساتر، ولم يكتفوا بذلك، وإنما أنشأوا ٢٢ مصطبة أخرى فى العمق فى اتجاه (الجباسات) وفى اتجاه (متلا) وفى اتجاه (سدر والطور)».

«ولو ركبت دبابة واحدة أى مصطبة فإنها تشكل عائقاً لعبور القوات ومانعاً نيرانياً قوياً ضد أى تحركات».

«لذلك عندما حانت الساعة (س)، وبدأت المدفعية التمهيد بالضرب المركز، أرسلت مجموعات اقتناص الدبابات بصواريخ فهد، واستولت على هذه المصاطب قبل وصول الدبابات الإسرائيلية القادمة من العمق إليها».

«ومن هنا كانت المفاجأة غير المتوقعة للدبابات، فقد انهالت الصواريخ عليها، وتم تدمير أعداد كبيرة منها خلال الساعات الأولى للعبور».

«هذا بالإضافة لقوات الصاعقة التى أسقطت خلف خطوط العدو».

(٢٨)

ويقدم لنا صاحب هذه المذكرات تفصيلات دقيقة ومهمة عن خط بارليف، وهو يجيد تصوير بعض ما احتواه هذا الخط. فهو يصف مرابض الدبابات، وعددها، والمسافة بينها، والمصاطب الخلفية التى كان يمكن أن تعمل كمرابض نيران إضافية لتحقيق الدفاع المتحرك:

«بالإضافة لما ذكرناه من الصعوبات التى اتسمت بها قناة السويس التى يبلغ عرضها ما بين ١٨٠ و٢٢٠ متراً، كان الساتر الترابى الذى أقامه الإسرائيليون، والذى وصل ارتفاعه إلى ٢٠ متراً على حافة القناة، والذى أقيم بشكل متصل على طول الشاطئ الشرقى للقناة، وكانت هناك حقول الألغام الكثيفة تغطى هذا الساتر الترابى».

«وفوق قمة الساتر الترابى المترامى الأطراف تم إنشاء مرابض العربات المدرعة، والدبابات، بحيث يضم كل كيلومتر ٨ مرابض، بفاصل يتراوح مابين ١٠٠ و٢٠٠ متر بين كل موقع وموقع».

«لقد بلغ عدد مرابض الدبابات والمدرعات ١٣٦٠ مربضاً، أقيمت على مواجهة ١٧٠ كيلومتراً».

«ولم يكن هذا هو كل خط بارليف.. فقد كان الإسرائيليون قد أقاموا سواتر ترابية أخرى (مصاطب) على عمق يتراوح مابين كيلو وثلاثة كيلومترات من الشاطئ الشرقى للقناة، بنظام معين، بحيث تكون مرابض نيران إضافية، لتحقيق عنصر الدفاع المتحرك، من خلال جيوب نيرانية قوية».

❑

ويصور الفريق يوسف عفيفى تتابع ثلاثة خطوط للدفاع النشط أقامها العدو الإسرائيلى على امتداد الضفة الشرقية للقناة، وهو يشير إلى وجود خط ثان غير خط بارليف على عمق خمسة كيلومترات، ثم خط ثالث مواز على عمق ما بين ١٠ و١٢ كيلومترا، ويشير إلى عدد الحصون التى أقامها العدو الإسرائيلى وأبراج المراقبة، ونطاقات الألغام والأسلاك الشائكة، وإنى لأقشعر وأنا أقرأ كل هذه التفصيلات وأسبح بحمد الله الذى نجانا من هذا كله، ونصرنا على هذا كله، ومكننا من استعادة سيناء الحبيبة إلى أرض الوطن بعد كل هذا الذى أجرى فيها وعلى أرضها فى مرحلة سابقة بسبب غفلتنا وسوء تقديرنا:

«ويشكل ذلك الخط الأول الرئيسى على امتداد الضفة الشرقية للقناة، وعلى عمق يصل إلى ٥ كيلومترات توجد التجهيزات الهندسية، ومرابض للمدفعية والدبابات تشكل الخط الثانى، وعلى عمق آخر ما بين ١٠ و١٢ كيلومتراً نجد الخط الثالث الموازى للخطين الأول والثانى، والذى يضم تجهيزات هندسية أخرى، ويضم عدداً من المدرعات، ووحدات المدفعية الميكانيكية الاحتياطية، إضافة إلى مراكز الاتصال ومراكز القيادة الأمامية والمستشفيات الميدانية».

«ينتشر فى المنطقة التى أقيم عليها خط بارليف وهى ١٧٠ كيلومتراً طولاً وبعمق يتراوح مابين ١٠ و١٢ كيلومترا على النحو الذى شرحناه ٣٦ حصناً، بالإضافة إلى ١٥ برجاً للمراقبة، حسب التقارير الإسرائيلية ذاتها».

«ويضم الخط: ٢٠٦ ملاجئ كبيرة بالإضافة إلى ٤٦٢ حصناً للأسلحة المختلفة والدبابات».

«لم يشهد أى حصن فى التاريخ ما شهدته حصون خط بارليف من تلغيم مكثف للغاية، حيث أحاط بكل نقطة حصينة ٧٣ نطاقاً من الألغام والأسلاك الشائكة».

وفى موضع سابق من هذه المذكرات يتحدث الفريق يوسف عفيفى عن مدى فاعلية مواسير النابالم بتفصيل أكثر، واصفاً الخطر الذى كان محدقاً بنا من جراء دخولها المعركة فى التوقيت المخطط لها:

«قامت القوات الإسرائيلية بإعداد مواسير (للنابالم) تتجه إلى مجرى القناة، تخرج من النقاط الحصينة التى أقيمت على مواجهة تقدر بمائة وسبعين كيلومتراً، وذلك بعد أن أعد الإسرائيليون أجهزة ضخمة لضخ المواد الملتهبة على الشاطئ الشرقى للقناة، بحيث تقيم فى دقائق معدودة سداً من النيران واللهب.. والنابالم.. عبارة عن زيوت سريعة الاشتعال مع كميات محسوبة من الكيروسين لتكوين طبقة من النيران فوق سطح المياه.. وقد تم ملء المستودعات الضخمة بالخليط سريع الالتهاب، والتى وضعت لها صمامات تتحكم فيها طلمبات ضخ ماصة كابسة خرج منها خط من الأنابيب بقطر ٤ بوصات ينتهى بفتحات تحت الماء على مسافات متقاربة وبشكل أكثر تركيزاً فى جميع الأماكن الصالحة للعبور».

«كانت جميع المستودعات المملوءة بالنابالم مدفونة تحت سطح الأرض تحسبا لعدم إصابتها بنيران المدفعية المصرية، أو الطيران، وكان كل مستودع منها قادرا على ضخ ٢٠٠ طن».

«وقد بلغت درجة حرارة قطعة من هذه المادة المشتعلة ـ عند تحليل جزء منها فوق المياه ـ سبعمائة درجة مئوية، وهو الأمر الذى دعا موشى ديان أن يقول ـ ذات يوم بعد حرب الاستنزاف: إن القوات المصرية لو حاولت عبور قناة السويس فسوف تباد عن آخرها وتتحول إلى رماد».

❑

ويشير صاحب المذكرات إلى أن التجهيزات الاسرائيلية فى خط بارليف لم تكن تقف عند حد معين من التطوير، وإنما كان يجرى تطويرها من آن لآخر:

«وتصف مجموعة الكتب والتقارير العسكرية ـ التى صدرت بعد المعركة ـ

ومنها: «التقصير»، و«الطوفان» وغيرهما، شبكة التحصينات بأنها شبكة معقدة للغاية، كان يجرى تطويرها عاماً بعد آخر».

❑

وهنا لا يبخل علينا صاحب المذكرات بالحديث المجمل عن التجهيزات الهندسية التى تميزت بها هذه الخطوط الدفاعية:

«لقد استخدمت في إقامة هذه التحصينات آلاف المعدات الثقيلة.. إن هذه الأحجار الكبيرة التى وضعت فى شباك حديدية، والتى استخدمت فى بناء على شكل طبقات فوق الدشم، والتى يبلغ سمكها عدة أمتار.. كان الهدف من إقامتها هو الحيلولة دون تأثير دانات المدفعية الثقيلة ونفاذها إلى داخل الدشم، وأيضاً تقليل الموجات الانفجارية».

«إن القلاع الحصينة التى ضمها خط بارليف قد جهزت من الداخل بكل وسائل الراحة والرفاهية، فقد كانت مكيفة الهواء، ومجهزة بمواسير المياه، وأجهزة تبريدها، وأجهزة اتصال متطورة، وآلات عرض سينمائية فى قاعات مكيفة، ومكتبات، وتليفونات عامة لاتصال الجنود بأسرهم، ومخازن تموين مختلفة».

«وقد ضمت أماكن إقامة الجنود داخل الدشم المحصنة أسرة من طابقين، بالإضافة إلى تجهيزات رياضية، كانت تضمها معظم التحصينات».

(٣٠)

ولا ينشغل الفريق عفيفى بالحديث عن التجهيزات الهندسية لهذه الحصون المنيعة وإنما هو يصور لنا قدراتها القتالية التى شاء لنا الله أن ننتصر عليها بفضله وتوفيقه ورعايته:

«وعلى صعيد القدرة القتالية لهذه الحصون المنيعة فقد كان كل منها مزوداً بقوة نيران كبيرة، مقدر لها مواجهة كتيبة مدرعة لمدة تزيد على الأسبوع».

«قد يتساءل البعض عن المساحة التى أقيم عليها الموقع الحصين.. وعن كيفية الدخول إليه».

«إن الحصن الواحد قد أقيم على مساحة تصل إلى خمسة آلاف متر مربع، ومعظم الحصون لها مدخل واحد باتساع (٤ أمتار) لدخول السيارات، والدبابات القادمة من ناحية الشرق، بحيث لا يمكن لأحد أن يدخل الحصن إلا إذا كان قادماً من اتجاه القوات الإسرائيلية».

«وقد وضع نظام دقيق لإغلاق أبواب الحصون، فيتم إغلاقها بحبل من الألغام المضادة للأفراد والدبابات، ويتكون كل حصن من أربع دشم، بارتفاع ثلاثة طوابق، تم بناء طابقين منها تحت الأرض، وفى الطابق الثالث توجد المزاغل، وهى الفتحات التى تظهر منها فوهات باختلاف أنواعها».

«إن طبقات عديدة من الصخور والرمال، وكميات هائلة من الأسمنت، تمثل المواد الأساسية لبناء دشم إضافية، إضافة إلى قضبان السكك الحديدية التى صنعت منها أسقف الدشم، وهناك أيضاً شبكة الفولاذ، التى تضمها كل طوابق الدشم، وأبواب الغرف، حتى لا تتأثر بقذائف المدفعية، وتفتح أبواب الغرف أوتوماتيكياً بواسطة الجنود».

«لقد صممت النقاط الحصينة بحيث تحقق الدفاع الدائرى، وتتوافر فى كل منها مجموعة من الأسلحة المختلفة، مثل المدافع الذاتية الحركة، والرشاشات والهاونات».

«لقد ضمت النقاط الحصينة نوعاً من الرشاشات التى تعمل ذاتياً بمجرد إحساس (أجهزة إليكترونية) متقدمة جداً بحرارة أى إنسان يقترب من الحصن، بالإضافة لمواقع صواريخ أرض/ أرض، ورشاشات مضادة للطائرات».

• «وإذا انتقلنا خارج الدشم فإننا سنجد ممراً على شكل قوس، ينتهى طرفاه بمربض للدبابات، يمكن للدبابة أن تصعد فوقه، لتعود وتختفى عندما تنزل إلى قاع القوس بعيداً عن القذائف المصرية، وقد ضمت كل دشمة ثلاث دبابات».

«أما بالنسبة للمراقبة فقد تم تركيب بيريسكوب إليكترونى يصعد أوتوماتيكيا من إحدى الثغرات ثم يختفى».

«إن التكلفة المرتفعة، والجهد الشاق الذى بذل فى إقامة خط بارليف... وعشرات

الآلاف من المعـدات والمهندسيـن والعمال... لـم يكن كل ذلك بـلا هدف، أو لمجرد التظاهر».

(٣١)

ويشير الفريق يوسف عفيفى بثقة فى النفس ومعرفة جيدة بالعدو إلى الجهد الذى بذله شارون حيـنما تولى قيادة الجبهـة الجنوبية، ونحن نرى شارون فـى هذا التصرف صاحب عقليـة ذكية تتناسب مع أصوله الألمـانية ومع اندفاعاته المعروفـة ومع ما تقلد بعد ذلك من مناصب وزارة البنية الأساسية فى إسرائيل نفسها:

«وقد قام اريل شارون عندما عين قائداً للجبـهة الجنوبية بشق مئات الكيلومترات من الطـرق قرب القنـاة، خاصة الطـرق المواجهة لـلقناة بـشكل عمـودى، ليقلـل من المقاطع التى تتحـرك فيها قواته، والتى تقع تحت مرمى النيران المـصرية، التى يمكن أن تنطلق من الضفة الغربية للقناة».

«وكان شارون يرمى إلى إتاحـة الفرصة لمدرعاته للتحرك السريـع نحو المعاقل، بل ونحو القناة ذاتها».

❑

ويتحدث يـوسف عفيفى عـن بعض التطويرات الـتى أجريت على خـط بارليف ويقول:

«وفى تطويـر جديد لخط بارليـف تمت إضافة قضبان الـسكك الحديدية إلـى طبقة جديدة من الحجارة التى وضعت داخل شباك من المعدن».

«كثيـرة هى عمليـات التطوير الـتى كان يضيـفها شارون منـذ أن عين قائداً لجـبهة سيناء، خاصة الطرق الجانبية، لكى يتيح حركة مرنة لبطاريات مدافع قواته».

❑

ويصل صاحب المذكرات عند هذا الحد إلى نتيجة مهمة حيث يقول:

«فقد كان ترسيخ الوجود الإسرائيلى واحـداً من أهم الأهداف التى بنى من أجلها

خط بارليف، إضافة لما يمكن أن يوفره من إعطاء إنذار مبكر في حالة محاولة القوات المصرية القيام بأية عمليات، وحماية جنود إسرائيل من تأثير نيران المدفعية المصرية والطيران».

«كل ذلك وغيره من الأهداف الاستراتيجية للعدو، مضافاً إليها توجيه الضربات للقوات المسلحة المصرية، وللمدن التي تقع في مواجهة خط بارليف بقلاعه الحصينة».

(٣٢)

ونحن نرى صاحب المذكرات لهذا كله يتحدث عن مكانة خط بارليف في التاريخ العسكري، مشيراً إلى أن الألمان التفوا حول خط ماجينو ولم يقتحموه، وأن الإسرائيليين استفادوا من تجارب وسلبيات جميع الخطوط السابقة، ومشيراً من ناحية أخرى إلى مدى عظمة الجيش المصري الذي استطاع اقتحام هذا الخط:

«وبعد.. فقد كان خط بارليف وبكل المقاييس واحداً من أقوى القلاع العسكرية في العصر الحديث.. ومن هنا تتضح قيمة وحجم العمل العسكري الرائع الذي قامت به القوات المسلحة المصرية في حرب أكتوبر. إن التاريخ العسكري قد شهد خطوطاً دفاعية حصينة عديدة.. فقد أقامت فرنسا قبل نشوب الحرب العالمية الأولى خطاً دفاعياً حصينا سمي فردون واستطاع الألمان تحطيمه في فبراير عام ١٩١٦، ويومها أعلن المارشال فولكنهاين أنه حطم كبرياء فرنسا ومعنوياتها».

«وبعد عشر سنوات من الحرب العالمية الأولى أقامت فرنسا خطها الدفاعي الثاني، بعد أن استفادت بتجربة خطها الأول فردون فقام وزير دفاعها أندريه ماجينو بالإشراف عليه، وقد سمي الخط باسمه وقد كان هذا الخط منيعاً، بحيث لم يستطع الجنرال الألماني جوديريان اقتحامه، وقام بالالتفاف حوله وتطويقه، والاندفاع بمدرعاته في اتجاه نهر المليز».

«بالإضافة لخطي فردون وماجينو كانت هناك خطوط دفاعية حصينة أخرى عرفها

التاريخ قبل خط بارليف الشهير، مثل خطوط جينسوتا وسيجفريد وغيرهما من الخطوط».

«لكن الواقع يقول: إن الإسرائيليين قد استفادوا من تجارب جميع الخطوط، وأنهم قد تجنبوا سلبياتها، بل إنهم استفادوا أيضاً من التجارب التى خاضوها فى أثناء حرب الاستنزاف التى تم فيها تدمير جانب كبير من الخط الأول».

«ومع الاعتراف بأن خط بارليف كان من أكبر القلاع الحصينة التى شهدها التاريخ العسكرى المعاصر، فإن استغلاله فى الحرب النفسية من جانب العدو كان شاملاً. فهذا هو مناحم بيجين يقول فى منتصف مايو عام ١٩٦٩: «إن المصريين لن يمروا عبر خط بارليف ولو فكروا فى ذلك فإنهم سيكون مصيرهم مثل مصير جيش فرعون».

«وسوف يذكر التاريخ لجيش مصر الباسل أنه واجه هذا التحدى الكبير، وتحصينات خط بارليف التى أحسن القادة التخطيط لاقتحامها، وبرع المقاتلون وهم يقتحمون هذه المواقع الحصينة، متسلحين بالشجاعة والإيمان، وبروح أكتوبر المجيدة، تلك الروح التى أسقطت هذه القلاع الحصينة وحطمت إلى الأبد أسطورة الجيش الذى لا يقهر، وأعادت للعسكرية المصرية اعتبارها فى أول معركة حقيقية يخوضها أبناء جيش مصر البواسل».

(٣٣)

ويبدى الفريق يوسف عفيفى رأياً سريعاً لكنه دقيق ومعبر فى الثغرة، وهو حريص على الاستشهاد بأقوال خبير عسكرى بريطانى، وينجح يوسف عفيفى فى أن يصور ما قصّرنا بعد الحرب فى تصويره من ضخامة المساعدة الأمريكية التى مكنت الإسرائيليين من تحقيق الثغرة، ويكفى أن العدو تمكن بهذه المساعدة من أن يقوم بأكثر من ألف طلعة جوية على ذات المنطقة فضلا عن أن الوسائل الإليكترونية المضادة لصواريخ سام قد أصبحت متاحة لقوات العدو بفضل هذه المعونة الأمريكية:

«إننى أعتقد أن الثغرة لم تكن سوى عملية تليفزيونية استعراضية».

«وسوف أستعرض بعض السطور التى ذكرها الخبير العسكرى البريطانى الجنرال إدجار أوبلانس الذى قال تحت عنوان «العملية التليفزيونية»: إن الثغرة التى حققها الإسرائيليون لم تكن سوى ضربة حظ حتى وإن لم يعترفوا بذلك».

«فعلى سبيل المثال حدث ما لا يمكن أن يصدقه عقل!!».

«إذ كيف يعقل أن يمكنوا من سحب كوبرى طوله ٢٠٠ متر، ووزنه ٥٠٠ طن مسافة عشرين كيلومتراً عبر ميدان قتال دون أن تصيبه أضرار».

«ولكن هذا ما حدث بالفعل».

«كما أن القيادة الإسرائيلية لم تقرر القيام بهذه العملية إلا بعد بدء الجسر الأمريكى الذى نقل إلى إسرائيل كميات هائلة من الأسلحة والمواد العسكرية، وكذلك بعد أن قدمت أمريكا إلى قادة إسرائيل صورة من التقارير التى جمعتها طائرتا التجسس الأمريكيتان بلاك بيرس ـ ٧ التى أفادت بأن منطقة تمتد حوالى ٤٠ كيلومتراً تكاد تخلو من القوات، تقع على الضفة الغربية على جانبى الدفرسوار، وتقابلها على الضفة الشرقية منطقة مماثلة إلا أنها أضيق منها».

«إنه مما لاشك فيه أن الإسرائيليين نجحوا فى العبور بضربة حظ على الرغم من أنهم لا يعترفون بذلك، ولولا الكميات الهائلة من الدعم الأمريكى التى مكنت الإسرائيليين من القيام بأكثر من ألف طلعة طيران يومياً عبر الثغرة مستخدمة أحدث الوسائل المضادة الإليكترونية لمواجهة الصواريخ السوفيتية التى نستخدمها ضده».

«كما أنه لولا تجاهل إسرائيل الصارخ لقرارات وقف إطلاق النار أكثر من مرة، لما تمت عملية الثغرة».

وفى موضع آخر يقول يوسف عفيفى :

«كما أكد المحللون الإسرائيليون أنفسهم أن عملية الثغرة قد تميزت بالمصادفات التى وقفت إلى جانب القوات الإسرائيلية».

«فقد استطاع المصريـون أكثر من مرة تثبيت القوات الإسرائيلـية المشتركة فى هذه العملية شرق الـقناة، وعندما أراد الإسرائيليون إنزال معدات الـعبور إلى الماء، وتقدم أفراد مظلاتهم لفتح الطريق لها، لم يسمح لهم المشاة المصريون بالتقدم خطوة واحدة، وانهالت عليهم القذائف والصواريخ المصرية».

(٣٤)

على هذا الـنحو يتحدث صاحب المذكـرات عن الثغرة بإنصاف شـديد للقوات المسلحة المصرية الـتى استطاعت الصمود والتصدى للثغرة فـى كل معاركها،ومع أنه يرى أن وصف الـثغرة بأنها عـملية تليـفزيونية وصف دقـيق، إلا أنه يفضل اسـتخدام وصفهـا بوصف معركـة الدعاية، وهو يـقدم أسبابـه لهذا على مـستوى الأمريكـيين والإسرائيليين، ويحرص صاحب المذكرات عـلى أن يذكر أن الثغرة لم تنجح إلا فى هدفها الـسياسى فى رفع الروح المـعنوية الإسرائيليـة والحصول على ورقة للـمساومة بهـا، ومع هـذا فإنهـا لم تحـقق هـذا الهدف إلا بـاستـغلال إسرائـيلـى وغد وسـافل لانتـهاكات وقف إطـلاق النار فـى ٢٢ أكتوبـر ١٩٧٣، ومع هذا فقـد ظلت الـقوات الإسرائيلية فـى الثغرة تعانى، وكان هذا طبيعـياً لأنها تفتقد إلى العمـق الاستراتيجى، فضلاً عن نجاح المصريين أكثر من مرة فى تثبـيت القوات الإسرائيلية المشتركة فى هذه العملـية فى شرق القناة،، ثـم هو يحرص أيضاً على أن يـصور مشاعر الإسرائيـليين أنفسـهم حينما احتوتهم الثغرة وفشلوا أن يحققوا من خلالها أى هدف أو نجاح تال:

«وبالرغم من ذلك فقد أصيب الإسرائيليون بخيبة الأمل مرتين:

«المرة الأولى: عندما فشلوا فى دخول السويس».

«والمرة الثـانية: عنـدما فوجئوا بـصمود الجيـش الثالث الذى تـصوروا أنه سيـلقى سلاحه ويستسلم».

«بل إن قوات مصرية صغيرة تشبثت بمواقعها داخل المنطقة، التى ادعى الإسرائيليون أنهم احتلوها ولم تستسلم هذه القوات».

«إننى أرى أن وصف عملية الثغرة بأنها عملية تليفزيونية هو وصف دقيق».

«وإن كنت أفضل استخدام وصف معركة الدعاية لأن العالم ركز اهتمامه عليها بعد أن توخى الأمريكيون والإسرائيليون قدراً كبيراً من الحرص والعناية فى توجيهها».

«فقد كان الإسرائيليون يريدون استرجاع صورة الجندى الذى لا يقهر، أما الأمريكيون فقد كانوا يريدون أن يبرهنوا على تفوق أسلحتهم».

«لقد كانت معركة الدعاية أو عملية الثغرة معركة حافلة بكثير من الأباطيل التى حاول الإسرائيليون أن يؤكدوها».

«وهى أباطيل يمكن أن تولد كثيراً من الآمال الزائفة».

«لقد أكدت تقارير الخبراء العسكريين حول قضية الثغرة أن الخطة الإسرائيلية فشلت أصلاً، وبشكل درامى.. ولم يتم رتقها إلا بصعوبة بالغة».

«وكما اتضح تماماً بعد ذلك فإن هذه العملية الإسرائيلية غرب القناة قد حققت فقط نجاحاً فى الحد الأدنى من أهدافها السياسية، ولقد كان الهدف السياسى الرئيسى هو: رفع الروح المعنوية للإسرائيليين والحصول على ورقة للمساومة بها».

«وحتى فى هذه الحدود فإن الأمر احتاج إلى استغلال إسرائيلى وغد وسافل لانتهاكات وقف إطلاق النار فى ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣».

«وإن وجود القوات الإسرائيلية غرب القناة كان من الممكن أن يتحول إلى كارثة بالنسبة لإسرائيل.. وأن القوات الإسرائيلية غرب القناة كانت رهينة فى أيدى القوات المصرية، إذ أنها كانت بدون عمق استراتيجى، مما كان يحول بينها وبين القدرة الفعالة على الدفاع أو الهجوم المؤثر».

«يضاف إلى ذلك أنها كانت فى قلب منطقة الحشد العسكرى المصرى، وبناء عليه فإن هذه العملية لم تكن سوى عملية تليفزيونية».

(٣٥)

وعندى أن الأهم من كل هذا الحديث الوصفى عن الثغرة أن نروى مصيرها الذى حدث بالفعل على أيدى المصريين وهو ما أزعج الإسرائيليين، ولعلى أكرر هنا رأيى الذى أنا مصمم عليه من أن الثغرة كانت إحدى النعم التى أهداها الله لنا كى يندفع الإسرائيليون الى ما يشبه الفخ وإن كانوا لم يقصدوا ذلك حين اندفعوا ، ثم يضطرون إلى أن يبحثوا عن الخروج منه بأى ثمن حتى ولو كان هذا الثمن مفاوضات يهودية بطيئة، لنقرأ هذا الذى يرويه قائد الفرقة ١٩ فى السويس وهو ينقل عن أحد الإسرائيليين روايته ثم يعقب عليها:

«وعن معركة السويس والبطولات التى أبداها مقاتلو الفرقة ١٩ كتب الكاتب والخبير الإسرائيلى زئيف شيف تحت عنوان «أهى مدينة مهجورة أو فوهة الأسد؟»:

«دخلت قوات جيش الدفاع الإسرائيلى فى فوهة الأسد دون أن تشعر أن أنيابه قد تطبق عليها، فجنود الاستطلاع الذين تجولوا فى الصباح حول المواقع المصرية قدموا تقارير مفادها: إن هذه مدينة أشباح مهجورة، وأن القوة الموجودة بداخلها صغيرة وغير منظمة، ومع أنهم لاحظوا مواقع للمدافع المضادة للدبابات إلا أن هذه المواقع لم ترد على النيران التى أطلقتها الدبابات الإسرائيلية نحوها».

«كان فى مدينة السويس بضعة آلاف من الجنود المصريين، وكان بينهم على الأقل وحدة واحدة منظمة كما ينبغى، وكان القادة الإسرائيليون مقتنعين بأن سكان المدينة والعدد القليل من الجنود يريدون الاستسلام».

❑

هنا يستطرد الفريق يوسف عفيفى ليذكر تفاصيل خطة الخداع التى وضعتها الفرقة ١٩ والتى مكنتها من القضاء على الهجوم الإسرائيلى الذى كان يستهدف احتلال السويس، ويظن نفسه قادراً على هذا، وسنرى مما يرويه يوسف عفيفى أن المصريين استطاعوا اقتناص قادة ٢٢ دبابة من بين ٢٤ دبابة، وأن قائد العملية الإسرائيلية

بأكملها أصيب فى هذه العملية.. ومع هذا فما يزال البعض منا يظن أننا لم نحارب فى أيام الثغرة كما ينبغى أو أننا حوصرنا فيها:

«وهكذا نجحت خطة قيادة الفرقة ١٩ فى التمويه وخداع جيش الدفاع الإسرائيلى، وإخفاء حقيقة القوة المصرية فى السويس.. فاندفع جيش الدفاع إلى ما سماه بعد ذلك نفس المؤلف بـ«فوهة الأسد»، إذ يستكمل الكاتب الإسرائيلى زئيف شيف شهادته عن معركة السويس قائلاً:

«فى الساعة العاشرة والنصف، بدأت القوات الإسرائيلية التحرك نحو المدينة وتقدمت باتجاهين: رتل من الشمال، وآخر من الغرب، على أن يلتقيا عند الميناء، وكانت تتقدم هذين الرتلين كتيبة دبابات تتبعها عربات نصف مجنزرة، ومصفحات بداخلها مظليون وأفراد وحدة استطلاعية».

«ولم يكن يتقدم هذه الأرتال قوات مشاة، تكون مهمتها التأكد من خلو الطريق من الكمائن، وتقدمت الأرتال فى شوارع ضيقة، بين أبنية مرتفعة من الجانبين، وقد تم الدخول بهدوء وبدون إزعاج».

«وفجأة!! فتحت النيران الشديدة على القوة المتقدمة من كل صوب، وقام المصريون بإلقاء آلاف القنابل اليدوية من نوافذ المنازل ومن الأسطح، وكانوا يوجهون قنابلهم إلى داخل العربات نصف المجنزرة المفتوحة، كما أخذوا يطلقون الصواريخ المضادة للدبابات من خلف الجدران والشرفات».

«وخلال فترة قصيرة كان الكثير من الدبابات والعربات قد أصيب، فمن بين الـ٢٤ دبابة التى تقدمت الهجوم استطاع المصريون اقتناص قادة ٢٢ دبابة، وتبعثرت الأرتال الإسرائيلية فى منطقة واسعة، ولم تكن هناك طريقة للخلاص من النيران ومن الكمائن إلا بالانسحاب، وقد أصيب عند مشارف السويس اثنان من قادة الكتائب منهما الكولونيل يوسى الذى قاد العملية بأكملها، وقد تولى القيادة بعد ذلك أحد قادة السرايا، وتوجهت الدبابات إلى الخلف محاولة أن تنجو بنفسها.أما المظليون فكانوا مكشوفين أكثر، وقفز الكثيرون منهم من عرباتهم المصابة، والتجأوا إلى بيوت مجاورة وقاموا بالدفاع عن أنفسهم من خلالها».

ويواصل الفريق يوسف عفيفى نقل ما سجله الكاتب الاسرائيلى :

«وكما حدث فى المزرعة الصينية، وكما حدث بالقرب من الإسماعيلية، فقد كانت المشكلة هنا هى كيفية إخراج المظليين من معركة لم يعرفوا قدرة العدو أى المصريين فيها».

«وأصبح الجهد كله الآن موجهاً لتخليص الرجال وإخلاء المصابين، وأسرعت إلى داخل عربة الاستخبارات نصف المجنزرة التابعة للواء، لكنها أصيبت وقفز أفرادها إلى أحد الجدران القريبة، وقد شوهد أفراد الاستخبارات التسعة هنا للمرة الأخيرة».

(٣٦)

ولربما تأتى أهمية هذه المذكرات عند القراء من أن صاحبها الفريق يوسف عفيفى كان القائد الذى تولى بفرقته المشاركة الفاعلة فى حماية مدينة السويس حين كانت مهددة من العدو الإسرائيلى، وقد أجاد يوسف عفيفى وفرقته أداء وظيفتهم فى ذلك الوقت، لكن أى تصوير «كتابى» ـ ولا نقول «أدبياً» ـ لهذه البطولة الرائعة يظل متواضعاً فى قدراته على الوفاء بحق هؤلاء الأبطال على تاريخنا وعلى وطننا .

ونحن نرى يوسف عفيفى يتناول جزئية شائكة وهى اختراق وقف إطلاق النار، وهو يذكر بكل صراحة أنه أمر قواته ألا يمكنوا العدو من التقدم شبراً واحداً من الأرض، لهذا فإن أية محاولة منهم لتحسين مواقعهم كانت تقابل بنيران شديدة من جميع المحاور على حد تعبير صاحب المذكرات:

«الساعة ١٠٠٠ يوم ٢٩ أكتوبر ٧٣ وصلت قوات الطوارئ الدولية إلى مدينة السويس لتنفيذ قرار مجلس الأمن الخاص بوقف إطلاق النار».

«أما عن أحداث يوم ٢٨ أكتوبر التى شهدت تطوراً هاما عندما ذكر أن وقف إطلاق النار قد اخترق أكثر من مرة بسبب قيام الفرقة ١٩ بصب النيران على الإسرائيليين، فإن حقيقة ماحدث أنه قبل وصول قوات الطوارئ الدولية واتخاذ قرار وقف إطلاق النار وفصل القوات فى السويس، كان العدو يحاول بكل جهد أن

يكسب أماكن، ومواقع جديدة، وقد كانوا يحاولون تطوير هجومهم لتحسين أوضاعهم، فأعطيت تعليماتى للقوات بألا تترك فرصة للعدو ليتقدم شبراً واحداً من الأرض».

«لهذا كانت أية محاولة يقومون بها للاقتراب لتحسين مواقعهم، تقابل بنيران شديدة من جميع المحاور».

❑

وعند هذا الحد يتنفس يوسف عفيفى بارتياح ويقول:

«وبالفعل لم يتمكنوا من اكتساب شبر واحد من السويس أو الاقتراب من محاور المدينة».

ثم يعقب بقوله :

«والإسرائيليون يكذبون ـ كالعادة ـ عندما يذكرون فى مذكراتهم أننا كنا نطلق عليهم النيران دون أن يبدأوا بالاقتراب.. ما حدث فعلاً أننا لم نسمح لهم بتجاوز خط الهدنة الذى كان قد اتفق عليه».

(٣٧)

ويروى صاحب المذكرات بعض وقائع حصار السويس، وهو يتناول فى سرعة بالغة وبهدوء شديد مشكلات كبرى من قبيل تكدس الجنود والقوات وقلة الطعام وحدوث بعض الفوضى:

«وأذكر أن يوم ٣٠ أكتوبر قد شهد بعض الأحداث».

«فى هذا اليوم كان التموين الموجود بالمدينة لا يكفى إلا لفترة قليلة.. وكان العدد فى السويس ـ فى هذه الفترة ـ لا يقل عن أربعة آلاف جندى ومدنى، بالإضافة إلى أن التموين كان لابد أن يستهلك منه جزء للعسكريين فى رأس الكوبرى، وبالطبع كان الجنود الشاردون القادمون من الجيش الثانى، والذين دخلوا السويس لم يستطيعوا

الانسحاب إلى القاهرة، ووجدوا أن أقرب مكان لـهم هو دخول مدينة السويس وهم أيضا يريدون طعاماً».

«كان لابد أن يحدث نـوع من التنظيم فى هـذه العملية.. فى هذا الـوقت لم تكن السيطرة الكاملـة قد تمت، سواء بالنسبة للشاردين أو المواطـنين، ولم تكن هذه الأمور قد روعيت عندما جاءت قوات الطوارئ الدولية لتفصل بين القوتين».

«كان لابد من تنـظيم الشئون الإدارية فى مـدينة السويس، وكان بعـض المحاربين الذين أمضوا خمسة أيام كاملة فى اشتباك مع قوات العدو فى حاجة إلى الطعام».

«وبالطبع حـدث قدر من الفوضى، وقد أبلـغت أمر قائد الجيش الثـالث إلى قائد الفرقة السابـعة بإرسال العميد الكنزى لـكى يسيطر على النواحى الإداريـة وينظمها، وبالفعل تم حصر كل الموجودين، وإقرار تعيينات محددة لكل فرد، سواء من المدنيين أو العـسكريين».

«وبذلك تمت السيطرة على الانزعاج الذى ساد لبعض الوقت بالمدينة».

(٣٨)

ويتغلب الشعور بالفخر على صاحـب هذه المذكرات كلما تذكر بطولة أى شهيد من شهدائنا الشجعان الذين ضحوا بـأرواحهم من أجل وطننا وانتصاره، وإن المرء منا ليشعر بالـفخر والزهو والكرامة والعزة لأنه يـنتمى إلى وطن يضم من بيـن أبنائه مثل هؤلاء الأبطال النوادر، ونحن نقرأ ما يرويه الفريق يوسف عفيفى فنرى قصصاً لا تقل فى تعبيرها عن إيـمان جنودنا وبـسالتهم عمـا روى لنا عن بسـالة المؤمنيـن فى صدر الإسلام:

«والآن أتذكر أحد أبنائى.. إنه الشهيد الملازم أول فـاخر فخرى عبدالصمد عندما دعوت مجموعات قنـص الدبابات للتطوع لمهمة الدفاع عن مـدينة السويس يوم ٢٤ أكتوبر، فوجئت بالمقاتل فاخر يصرعلى المشـاركة ضمن المجموعات..».

«وعندما قلت له: أنت ضابط مدفعية، صاح قائلاً: يافندم أنت لم تحدد فى نداء التطوع تخصص نوع السلاح الذى ينتمى إليه المقاتل.. قلت: لقد غلبتنى يابنى واحتضنته».

«كان بريق عينيه يشع بالإيمان والتصميم، شعرت بأن العزيمة تملأ هذا المقاتل، الذى يصر على القيام بمهمة يعلم أنه ربما لن يعود منها، وأننا ربما لا نلتقى مرة أخرى».

«قلت له: ليت كل شباب مصر مثلك ياابنى.. إن شرف مصر أمانة فى عنقك أنت وزملائك فى الدفاع عن السويس.. ».

«قال لى المقاتل فاخر وأنا أشد على يديه: اطمئن يافندم، الفرقة ١٩ كلها رجالة وأبطال».

«ذهب فاخر ورفاقه.. وكانت بسالته وروحه العالية وإصراره فى منع استيلاء العدو على محطة مياه السويس مضرب الأمثال.. وأنقذ بروحه الطاهرة أرواح عشرات الألوف من المقاتلين من شعب السويس الذى التف حول المقاتلين».

(٣٩)

ويحرص الفريق يوسف عفيفى على أن يحدد بوضوح شديد موقفه من الشيخ حافظ سلامة الذى عُرف بأنه قائد المقاومة الشعبية فى السويس، ويبدو صاحب هذه المذكرات فى منتهى الشجاعة حين يصر على أن يتناول هذا الموضوع وألا يهرب من مواجهته على عادة الذين يتصدون لكتابة المذكرات أو تسجيل الوقائع التاريخية، ويبدو يوسف عفيفى شجاعاً مرة أخرى حين يعترف لحافظ سلامة بدوره وحين يشيد بهذا الدور، ويبدو شجاعاً مرة ثالثة وهو يبدى على الرغم من هذا اعتراضه على أسلوب الشيخ حافظ سلامة فيما بعد الحرب:

«لقد قام حافظ سلامة بدور جليل لا أنكره بأى حال من الأحوال. المشكلة أنه

استغل هذا العمل وحوله إلى دور عسكري، والضوابط حول هذا الموضوع واضحة».

«فالشيخ حافظ هو رجل دين، كان إماماً لمسجد الشهداء بالسويس، وقبل المعركة كان يأتي إلى الوحدات ويقيم الصلاة مع المقاتلين ويعظهم.. وإذا حدث واستشهد أي جندي أو ضابط في أية حادثة يقوم حافظ سلامة بالمساعدة بتجهيزه للدفن».

«وكان هذا عادة تقوم به القوات المسلحة والتنظيم والإدارة.. لكن لوجود بعض القصور في هذه النواحي - من البعض - كان حافظ سلامة يقوم بترتيب ترحيل المتوفى عن طريق مسجد الشهداء وعربة الجمعية الخيرية فيه، ويقوم بتقديم المصاحف، والبلح للجنود المرافقين».

«كان هذا قبل المعركة، أما خلال المعركة فقد كانت الشئون الإدارية تمارس عملها بطريقة صعبة جداً، لدرجة أنه في أحد الأيام (٢٩ أكتوبر) كنت أقوم بزيارة الجرحى في المستشفى بعد انتهاء المعركة، وتوجهت إلى السويس فوجدت حافظ سلامة وطلبت منه أن ينقل الماء إلى المستشفى وأن يوزع أي نوع من العصائر على الجرحى، لأن حالة ارتباك كانت تسود المستشفى بعد المعركة لكثرة عدد الجرحى».

«فكان يعد الحلويات والمأكولات ويرسلها إلى الجنود في المستشفى لرفع معنوياتهم».

«هذا ما قدمه حافظ سلامة وهي مسألة لها أهميتها بالطبع».

(٤٠)

ولا يقف الفريق يوسف عفيفي عند هذا الحد في حديثه عن جهد حافظ سلامة ولكنه - وهو منصف بطبعه - يتطرق في شجاعة إلى الموقف الذي حُسب للشيخ حافظ سلامة حين حضر - بطريقة أو أخرى - المناقشة التي دارت بين محافظ السويس وقائد الدفاع الشعبي؛ حول طلب الإسرائيليين الإستسلام، ونحن نرى يوسف عفيفي

حريصا ـ حتى وإن تحفظ ـ على أن يروى أن حافظ سلامة أبدى شجاعة (أو تدخلاً حماسيا على الأقل) فى لحظة مناسبة:

«كان هناك موقف آخر حيث المكان مسجد الشهداء، كان يقف بجوار القائد العسكرى العميد عادل إسلام الذى كان يقود الدفاع الشعبى عن السويس وقت طلب إسرائيل تسليم المدينة، وكان العميد عادل يتحدث تليفونياً مع محافظ السويس، ويبحثان سوياً طلب القائد الإسرائيلى تسليم المدينة ويتدارسان الأوضاع فى المدينة لاتخاذ القرار».

«وكان الشيخ حافظ يستمع إلى الحديث، فتدخل فى الحديث مع عادل إسلام، وفى أثناء المناقشة صاح حافظ سلامة: حى على الجهاد.. حى على الكفاح، من خلال مكبرات الصوت بالجامع».

«كل هذا بالإضافة إلى أنه كان يختزن بعض أجولة الدقيق والسكر فطلبنا منه ـ فى أثناء الحصار ـ بعض هذه الإمدادات».

«كان لما قدم أثر معنوى كبير لا ينكر.. وبالطبع لم يقم الشيخ حافظ سلامة بقيادة المقاومة الشعبية كما يذكر البعض».

«فلم يكن لدى حافظ سلامة العلم العسكرى ولا الأسلحة ليقود المقاومة ضد دبابات العدو».

«لكنه دعم المقاومة الشعبية ببعض المؤن فقط، وساعد مساعدة ضخمة فى نقل الجرحى والموتى فى أثناء العمليات، وقد منحته تصرفاته فى أثناء المعارك محبة الناس».

«ولكن بعد أن انتهت المعركة طلب منى أن يحضر إلى رأس الكوبرى لزيارتنا، وكسب من زيارته لرأس الكوبرى اعتباراً كبيراً».

« زار المواقع وصلى مع المقاتلين، فأشعرهم أنه كان يشاركهم وجدانياً، ثم اختلف بعد ذلك مع المحافظ وبدأ يزعم أنه هو الذى قام بالدفاع، وأنه هو الذى قاتل، وأنه هو الذى دمر دبابات العدو».

«بالغ فى دوره أكثر بعد ذلك، حتى أنه فى أحد الأيام ـ بعد انتهاء المعركة ـ كان يمر على الجامعات ،ويلقى محاضرات عن المعارك وقوات السويس».

(٤١)

ثم يصل يوسف عفيفى إلى الحديث الصريح عن سبب المشكلات التى نشأت مع الشيخ حافظ سلامة بعد الحرب، ونحن نرى يوسف عفيفى قريبا إلى الإنصاف وإن لم يكن حريصا على إظهار كل الأوراق فى هذه المذكرات، وقد التزمت ـ ولازلت ـ بأن أنقل للقارىء كل ما كتبه يوسف عفيفى فى موضوع الشيخ حافظ سلامة، وهو يردف حديثه السابق بأن يقول مباشرة ما نصه:

«وكنت قد كتبت له كلمة فى سجل الزيارات بعد أن انتهت معارك السويس وتركتها.. تقول: « نشكركم على مجهوداتكم فى رفع معنويات الجنود» ووقعت له تحتها».

«فأخذ هذا السجل وسجله على شريط كاسيت، وعندما كان يزور الجامعات كان يذيع هذا الشريط وكأننى أنا الذى أقوله بصوتى.. لدرجة أن الأستاذ أنيس منصور سألنى: هل سجلت كلمة مكتوبة لكى يذيعها حافظ سلامة؟ لقد أذاعها فى الجامعة فى أسيوط».

«فقلت له: ربما حول كلمتى المكتوبة إلى كلمة منطوقة».

واتصلت به تليفونياً وقلت له: ياشيخ حافظ هل سمحت لك أن تحول كلمتى المكتوبة فى سجل الزيارات بمسجد الشهداء إلى منطوقة على شريط كاسيت؟ أنت رجل دين! ماذا تقصد من وراء ذلك؟».

«ومنذ هذا الوقت لم أقابله إلا عن طريق المصادفة عندما كنت أزور مدينة السويس فى الاحتفال بعيدها القومى».

ينبغي هنا أن نتوقف لنشير إلى أن اللواء جمال حماد قد تناول في كتابه «المعارك الحربية على الجبهة المصرية» الذي نشرته «الزهراء للإعلام العربي» بتفصيل دقيق تطورات الموقف في حصار السويس وقصة تسليم السويس، وقد أثبت جمال حماد أن هذا الطلب لم يكن طلباً إسرائيلياً رسمياً ولا عسكرياً وإنما هو في الغالب اجتهادات وتصرفات شخصية قام بها بعض القادة الإسرائيليين المحليين من تلقاء أنفسهم، وربما يكون على أحسن الفروض أسلوباً من أساليب الحرب النفسية بهدف الاستيلاء على السويس بغير قتال.

ومع هذا فإن جمال حماد يورد في كتابه الحوار التالي بين المحافظ وعادل إسلام:

«بعد مرو عشر دقائق أعاد المحافظ الاتصال بالعميد عادل إسلام، وسأله عن رأيه، فقال: «أنا لم أقرر بعد». فرد المحافظ قائلاً في شيء من الحدة: «قرارك مش قرار نهائي والقرار قراري أنا لأني المسئول عن هذا البلد. أنا عاوز أعرف قرارك وموقفك ورأيك في التسليم؛ مجرد رأي استشاري». وأجاب عادل إسلام قائلاً: «أنا حاخد رأي الموجودين معي والمستشارين بتوعي». فسأله المحافظ: «ومين هم المستشارين بتوعك؟»، ورد عادل إسلام: «الحاج حافظ سلامة». وانفعل المحافظ وقال في غضب: «وإيه قيمة رأي الشيخ حافظ في هذا الموضوع؟ أنت اتجننت ياعادل؟ أنا عاوز رأيك العسكري». فرد عادل إسلام قائلاً: «رأيي هو اللي تشوفه سيادتك». وأنهى المحافظ ذلك الحوار الساخن بقوله: «عموماً عندما اتخذ قراري النهائي حقابلك أو تقابلني وإحنا في انتظار قرار القاهرة».

«ولم يكد ينتهي المحافظ من محادثته مع القائد العسكري حتى دق جرس الهاتف ووجد الضابط الإسرائيلي على السماعة للمرة الثانية، وكان يستعجل رد المحافظ، وأجابه المحافظ بدوي الخولي قائلاً: «أنتم كنتم هنا بالأمس، ويمكن أن تجربوا الحضور مرة أخرى، والمحافظ غير موجود»، وبعد أن وضع السماعة قال: «مفيش طريقة لقطع الخط التليفوني ده؟»، واتصل اللواء محيي خفاجي مدير الأمن برئيس السنترال على الفور، وطلب منه قطع الخط التليفوني المباشر بين شركة السويس لتصنيع البترول (حيث كان الضباط الإسرائيليون قد وصلوا) وغرفة الدفاع المدني، وبالفعل تم فصل الخط، وانقطعت اتصالات الإسرائيليين المباشرة مع المحافظ».

(٤٢)

ويحرص الفريق يوسف عفيفي على أن يعترف في هذه المذكرات بأنه أجاد الرد على استفزازات الإسرائيليين لقواته المحاصرة في السويس، وهو يروى أنه كان يبذل جهداً كبيراً في السيطرة على مشاعر جنوده، وكان لا يكف عن التحكم في حماس قائد مدفعية الفرقة، حتى جاءت لحظة وجدها يوسف عفيفي مناسبة لتأديب الإسرائيليين فانتهز الفرصة ونفذ خطة تأديب جعلت الإسرائيليين لا يطلقون طلقة واحدة بعدها.. وفي وسط هذه الرواية ينبئنا الفريق يوسف عفيفي أن القائد العام المشير أحمد إسماعيل اتصل به بناء على شكوى قوات الطوارئ الدولية فما كان منه إلا أن راوغ وزعم أن القوات الإسرائيلية في الشرق هي التي تضرب بالمدفعية طويلة المدى وبسبب عدم الدقة في التصويب فإن طلقاتهم من الشرق تصل إلى قواتهم في الغرب، أما هو فليس لديه ذخيرة!!... ولنقرأ روايته:

«وكان من الأمور الصعبة حقاً السيطرة على المقاتلين، بإمساك النيران رغم تجاوزات العدو».

«لم يكن هذا أمراً يسيراً.. لقد وصل الأمر لدرجة أن رئيس مدفعية الفرقة العقيد علاء درويش كان يقفز أمامي فوق الأرض راجياً: الله يخليك يافندم.. نضربهم.. نرد عليهم».

«فأقول له: الله يخليك أنت.. لازم نوفر ذخيرتنا.. فماذا سنستفيد من ذلك الرد؟!».

«لكنني كنت موقناً أن الرد سيحدث في وقت ما».

«أذكر أنه في يوم ٢٧ نوفمبر ٧٣ كان يرافقني في مروري على القوات العقيد علاء درويش، وقلت له: جاء الوقت المناسب لكي نضرب العدو.. وكاد يصرخ فرحاً».

«توجهنا إلى القناة ناحية الساتر الترابي، وعندما نظرنا نحو المثلث غرب مدينة

السويس وجدنا تجمعاً ضخماً لقوات إسرائيلية تقوم بغيار بعضها، وبدأ رئيس المدفعية يصدر أوامره.. أعدوا حشد نيران مدفعية هائلاً، بما لا يقل عن خمس كتائب مدفعية موجهة نحو العدو فى الغرب، وبدأت كلها تطلق المدافع فى وقت واحد، وكأنها القيامة.. جهنم فوق قوات العدو؟!».

«اتصل بى بعد دقائق الفريق أول أحمد إسماعيل قائلاً لى: ماذا تفعلون يايوسف، إن قوات الطوارئ الدولية اتصلت بنا وقالت إنكم تقصفون قوات العدو، واخترقتم وقف إطلاق النار».

«فقلت له: إننا لا نضرب أحداً، إن قواتهم فى الشرق تضرب قواتنا بالمدفعية الطويلة المدى ١٧٥مم، وتستمر طلقاتهم بسبب عدم دقة التصويب فتصل إلى قواتهم فى الغرب».

«وقلت له: من أين أضربهم وليس لدى ذخيرة كافية؟».

وهنايعلق يوسف عفيفى ويقول :

«بعد ذلك.. تأدبت قوات إسرائيل بطريقة لا يمكن تخيلها..لم يطلقوا طلقة واحدة بعد ذلك».

❑

ويقدم يوسف عفيفى أكثر من صورة رائعة للصمود المصرى فى السويس فيقول:

«أما بالنسبة للوقاية الطبية فقد أصدرت أوامرى بإحضار كمية من مرهم الكبريت من مستشفى السويس، فقد كنت أتوقع انتشار بعض الأمراض الجلدية مثلما حدث فى حصار الفالوجا، وإحضار ملابس جديدة خارجية وداخلية للجنود للتعامل مع الحالات التى ستظهر، وبالفعل حدثت بعض الأمراض الجلدية واستطعنا بفضل الإجراءات المسبقة أن نتعامل معها».

«كنت دائماً أعمل بمبدأ «الوقاية تغنى عن العلاج».. كل الإجراءات الوقائية حدثت قبل أن يتم الحصار، وهذا ما مكننا من الصمود».

(٤٣)

ويمضي الفريق يوسف عفيفي ليشرح لنا في هذه المذكرات ما يسميه سياسة «الإشغال» التي كان لابد له من اتباعها للقضاء على المشكلات التي تنشأ عن وجود القوات بدون قتال وبدون عمل، وهو يورد تفصيلات مهمة تصور لنا كيف كان عليه أن يحل مشكلات التغذية والاتصالات لجنوده المحاصرين، فضلاً عن أن يخلق لهم ما يشغلهم من مهام ووظائف تستغرق كل وقتهم ولا تجعلهم يحسون بالفراغ:

«كانت سياسة الإشغال هي المخرج الوحيد في مختلف الأحوال، فكان لابد من توافر طاقة غذائية كافية لهم، مع قلة الطعام، لذا كان لابد من توافر السكريات».

«فقمت بجلب كميات من الدقيق، والسمن، والسكر ذات السعرات الحرارية المرتفعة من السويس، وبعد أن وزعتها على الوحدات قلت لهم: تنافسوا في صنع الفطير المشلتت، أو سد الحنك، وسوف أمر عليكم لكي أعرف أفضل فصيلة تجيد تجهيز تلك الأصناف».

«وبالفعل كنت أقوم بالمرور عليهم، فلم يمض يوم إلا مررت فيه على عدة كتائب، كنت أجلس معهم وأتحدث.. وأتذوق ما يصنعون.. ثم أقارن بينه وبين ما يصنعه الباقون.. عملية إشغال مستمرة».

«أيضاً طلبت منهم أن يقوموا بإخراج كل الأجزاء الصالحة للاستخدام من الدبابات، والعربات، والطائرات المحطمة على أرض المعركة، واستعمالها في أي شيء».

«فقاموا بصنع خواتم، وصواني، وآلات موسيقية، وشكلوا فرق شعر، وزجل، وموسيقى، وكانوا يعدون حفلات بشكل مستمر».

«لقد جعلت الجنود يقومون بالحديث مع أهلهم في مصر (٢٣٠٠ برقية) أرسلت لذويهم باللاسلكي، لدرجة أن سنترال الماظة كان يعمل ليلاً ونهاراً لإرسال برقيات الفرقة ١٩ ليطمئن أهل الجنود والضباط».

ويعاود الفريق يوسف عفيفى فى موضع آخر شرح نظريته فى «الإشغال» فى أثناء الحصار ووسائله فى هذا الإشغال، ومن الطريف أنه شغل القوات بكتابة التاريخ، أى بكتابة تاريخ المعركة التى شاركوا فيها، وقد كلف بهذه المهمة زميله العميد محمد صدقى حشمت جادو رئيس أركان الفرقة، الذى أدى المهمة بدقة شديدة حتى تم إحصاء كامل لكل صغيرة وكبيرة فى وثيقة من الوثائق الدقيقة جداً:

«ومن أجل إشغال أفراد القيادة للفرقة ١٩ مشاة.. كلفت رئيس أركان الفرقة العميد أ.ح. محمد صدقى حشمت جادو بتشكيل لجنة من القيادة، وأن ينزل إلى مواقع الوحدات، وكنت أشاركهم فى بعض الأوقات، فقام بهذا هو ومجموعة من ضباط عمليات قيادة الفرقة، وقبل أن يمروا على الوحدات سحبت سجل حوادث اللواءات بالكامل، حتى أقارن بين سجل حوادث اللواءات «سير المعركة» والكلام الذى يقال فى اللجنة».

«مر حشمت بادئاً بالفصائل فالسرايا والكتائب حتى اللواءات، من قيادة أدنى إلى قيادة أعلى.. وسأل عن كل موقعة كيف حدثت؟ حتى نؤرخ تأريخاً دقيقاً للمعركة.. ومهام كل واحد.. وما قام به كل فرد، ثم كتب مذكرات ورفع بها تقارير».

«وكنا نمر على بعض الوحدات ونشاهد كل شيء، ونسجل، حتى أننا قمنا بعمل إحصائيات عن كيفية تدمير الدبابات، وهل دمرت بالصواريخ المضادة للدبابات؟ أو دمرت بالألغام؟ أو دمرت بالمدفعية؟».

«وتم عمل إحصاء كامل لكل صغيرة وكبيرة بالنسبة للأفراد، والعربات، والمعدات العسكرية».

«وكانت وثيقة من الوثائق الدقيقة جداً لأنها أخذت من أفواه الجنود، ودققت مع سجل الحوادث».

«وقد أدت هذه العملية إلى إشغال ضخم للقوات فى هذه الفترة».

كذلك لجأ يوسف عفيفى من أجل شغل وقت جنوده المحاصرين إلى جمع المعدات وبقايا الأسلحة لعمل معارض غنائم:

«من ناحية أخرى كانت هناك بقية من معدات، وذخائر العدو، موجودة داخل رأس الكوبرى، فى الحصار، فشجعنا الجنود على جمع هذه المعدات وهذه الأسلحة لنكون منها معارض غنائم».

«وفعلاً قام كل لواء بعمل معرض غنائم على مستواه.. ثم تجمعت هذه المعارض ومعها بعض الغنائم من الفرقة المجاورة، وتم عمل معرض غنائم منها داخل الجيش الثالث بداخل رأس الكوبرى».

«ثم انتقل إلى مدينة السويس، وكان مفاجأة للقوات المسلحة بأن الجيش الثالث يقيم أول معرض غنائم بأسلحة واقعية حقيقية، ومعدات للعدو».

«وقد حققت هذه العملية ـ إلى جانب إشغال الجنود ـ رفع الروح المعنوية لهم، وتعرف الجنود والصف ضباط والضباط على أسلحة العدو».

«وقد أصبحت المعارض وسيلة تعارف على جميع الأسلحة، وأيضاً وسيلة تدريب».

(٤٥)

بل إن الوقت الطويل المتاح أمام هذه القوات ـ طيلة الفترة التى استغرقها حصار السويس ـ قد أتاح للقائد أن يأمر بتفكيك دبابتين إلى كل أجزائهما الصغيرة:

«وليس هذا فقط.. بل إننى أذكر أننى كلفت أحد قادة الكتائب بفك دبابتين للعدو كانتا فى الرمال مغروستين وموجودتين على محور متلا بيننا وبين العدو، فقام بفك جميع أجزائهما.. وكان كل يوم يخرج فى وردية ويفك جزءاً جزءاً حتى أصبحت هاتان الدبابتان مفكوكتين تماماً، وهما الآن تشكلان فصلاً تعليمياً فى معهد المدرعات».

«ولن ننسى دور المهندس محمود رجب الذى جمع قطع الغيار من المركبات المدمرة وأنشأ بها مخزناً كبيراً أفادنا كثيراً حتى بعد انتهاء الحصار».

❑

ويروى الفريق يوسف عفيفى بكل صراحة كيف استطاعت قواته أن تتقدم فى مواقعها التى احتلتها إلى نقاط أخرى أكثر أماناً:

«كنت أيضاً أقوم بزيارة المواقع بشكل مستمر، ونقوم بأداء الصلاة معاً، وأشرح لهم الموقف السياسى والعسكرى على مدى ١٠٠ يوم كاملة».

«الشىء الأكثر خطورة وأهمية، أننى عندما كنت أذهب إلى مواقع الجانب الأيمن من الفرقة أقول لهم: إن مواقعهم غيرملائمة.. فلو تقدموا إلى تبة توجد أمامهم سيكون ذلك أفضل.. وأذكر أننى سأمر عليهم بعد يومين لأجد أنهم قد أقاموا مواقعهم بها.. وبعد يومين أعود لأجدهم فعلاً تركوا مواقعهم نحو التبة المتقدمة، فأقول لهم: إننى لم أقصد هذا الموقع.. بل موقع أمامى آخر.. ويتحركون نحوه.. وفى هذه المرة الثانية أقول لهم: أخطأتم للمرة الثانية.. كنت أقصد موقعاً أمامياً آخر.. وهكذا».

❑

على هذا النحو كان يوسف عفيفى ـ على ما يرويه هو نفسه ـ يستخدم أسلوباً ذكياً لتحقيق هدفين كلاهما لا يقل نبلاً ولا سمواً عن الآخر :

«لقد تقدمنا من خلال هذه العملية لمسافة ٥ ,٢ كيلومتر، الإسرائيليون ذهلوا، وقدموا شكوى لقوات الطوارئ الدولية من تقدم الفرقة ١٩، وقالوا إنهم يوسعون نطاق مواقعهم ويكتسبون أرضاً رغم الهدنة».

«كنت أفعل ذلك لأحافظ على المشاعر الهجومية للقوات بشكل مستمر، لكى يشعروا بأنهم يهاجمون ولديهم طاقة لكى يطوروا مواقعهم ولا يظلوا صامتين، وبذلك تزداد الثقة بالنفس».

(٤٦)

ويروى صاحب هذه المذكرات كيف استطاع أن يواجه مشكلات الإمداد والتموين، وهو ـ على سبيل المثال ـ يتحدث عن مواجهته لمشكلة المياه على الرغم من إغلاق إسرائيل لترعة السويس، وهو يروي أن الله سبحانه وتعالى يسر لهم الأمر بهطول المطر من السماء، وباكتشاف ماء عذب فى الأرض بعد حفرها:

«وفى مواجهة مشكلة المياه، خصصت ٢٥ عربة من الفرقة للعبور إلى السويس لكى تعود بالمياه منها.. وكانت ٢٥ عربة أخرى من الفرقة السابعة المجاورة تذهب إلى السويس أيضاً من معبر الفرقة ١٩ مشاة».

«كانت العربات تعود بالمياه متأخرة بالطبع، وكانت كمية المياه قليلة مع ذلك».

«وقام الإسرائيليون بعد ذلك بإغلاق ترعة السويس لفترة، فَقَلت كميات المياه تماماً.. وبدأت مشكلة.. وقد طلبت مياها من قيادات الجيش فى الخلف ـ فى هذه الفترة ـ وكانت تمر بالفرقة السابعة ـ الجار اليسار ـ قبل وصولها الفرقة ١٩.. لذا كانت تتأخر فى وصولها وأحياناً كمياتها محدودة».

«وأحسست أننا فى مأزق، ورفعت يدى متضرعاً لله، وفجأة فى هذه الليلة هطلت من السماء أمطار غزيرة.. وتجمعت فى منطقة تابعة للفرقة فى أرض صلدة لتشكل (بحيرة) يمكنها أن تكفى الجيش كله لمدة ١٥ يوماً».

«وفى مواقع أخرى عندما كان الجنود يقومون بالحفر لإقامة ملاجئ ظهرت مياه مالحة فى الحفر.. فقلت لهم: اتركوها يمكن أن نستفيد منها برشها على المدقات لتجميد الرمل حتى أصبحت طرقاً صلبة نوعاً.. كما يمكن أن نقوم بغسل الأوانى النحاسية بها».

«وكنت قد أحضرت لهم صابونا ملحيا قبل أن يبدأ الحصار، (وهذا أحد دروس الفالوجا) لاستخدامه فى الغسيل بالماء المالح.. وقلت لهم: احفروا مرة أخرى.. فحفروا فخرجت مياه عذبة».

ثم يحكى يوسف عفيفى كيف تم لقواته اكتشاف وجود المياه العذبة فيما بين موقعهم ومواقع العدو الإسرائيلى، وكيف تصرف هو بحكمة مكنته من الحصول على المياه دون إشعال نيران معركة جانبية:

«وفى وسط التحركات وجدنا أن آبار المياه العذبة أصبحت تقع فى منطقة متوسطة تماماً بين القوات الإسرائيلية والفرقة (٣٠٠ متر) من الجانبين، وكان العدو يحول بيننا وبين استخدام المياه بأية وسيلة ليحرمنا منها».

«قلت للجنود: لا تخشوا شيئاً، فليذهب اثنان من الجنود بجراكن فارغة وبلا سلاح، وليتحركا بطريقة عادية صباحاً فى اتجاه المياه، ويقوما فى أثناء ذلك بالغناء والصفر، وسوف يرفع الموقع الإسرائيلى رشاشاته تجاههما.. لايتراجعان، فقط يقولان لأفراد العدو إنهما لا يحملان سلاحاً، وإذا أطلقوا النار عليهما فسوف تدمرهم مدفعيتنا الجاهزة».

«وكان جنود العدو فى الموقع أمامنا يتحدثون اللغة العربية، وبالفعل وصل الجنديان إلى آبار المياه، وتم استخدام الآبار يومياً».

«هذه هى الطريقة التى تؤكد أهمية أن تكون تصرفاتنا غير متسرعة أو عصبية».

(٤٧)

ومع هذا فإن يوسف عفيفى كان واعياً تماماً لأهمية الحرب النفسية فى مثل هذه الظروف، وهو يحكى واقعة مهمة تدل على أهمية اللجوء للذكاء فى رسم صورة «الذات» عند «الآخر»:

«أذكر فى أحد الأيام كان جنود إسرائيل فى الموقع المجاور يرفعون أصواتهم نحو الجنود المصريين قائلين: «ليس لديكم مياه.. ستموتون»، فقام أحد الجنود المصريين بإحضار جركن كبير مليء بالمياه تكفيه أكثر من عشرين يوماً وهو فى أشد الحاجة إليها.. ثم يرفعه فوق رأسه ليصبه فوق جسده قائلاً: لدينا مياه تكفى وتزيد».

«هذا مع العلم بأن المخصص له من المياه يومياً ٨٠٠ جرام ويقوم بصب ٢٠ لتراً من الماء فوق رأسه ليظهر للإسرائيليين أن لديه مياها! لقد كانت حرباً نفسية هائلة».

❑

ولا تقف المشكلة فى مثل هذه الظروف عند المياه، لكنها تمتد أيضاً لتشمل الوقود، ونحن نرى يوسف عفيفى أكثر حسماً مع جنوده فيما يتعلق بالوقود إلى الحد الذى يقول فيه:

«لقد أصدرت أوامرى بأن كل مَنْ يمس الوقود يحاكم محاكمة عسكرية ميدانية عليا.. لأننى أعرف أنهم قد يستهلكون البنزين فى أغراض أخرى كالطبخ أو التدفئة مثلاً».

«فأصبح كل قائد مسئولاً عن وقوده، ولم ينقص شىء أبداً، حتى أن الجنود اضطروا إلى جمع الأعشاب الجافة من الوديان لكى يستعملوها، لدرجة أن الوديان أصبح من الصعب معرفتها بعد أن أصبحت خالية من الأعشاب تماماً».

❑

ويبدى يوسف عفيفى حرصاً كبيراً على أن يتناول فى هذه المذكرات الحديث عن انتباهه اليقظ للروح المعنوية لجنوده، فى مواجهة حرب المنشورات التى كان العدو يلقيها باستمرار على الجنود المحاصرين:

«لقد كانوا يقولون دائماً إننا لا نملك طعاماً وأننا سنموت جوعاً، وألقوا علينا بعض المنشورات بالطائرات التى تقول: إن جيشكم الثالث محاصر.. وعليكم أن تستسلموا.. ليس لديكم طعام.. أو شراب.. والقيادة تركتكم.. لا ينتظركم إلا الهلاك.. ومثل ذلك».

«ما كنت أفعله هو التنبيه بجمع هذه المنشورات بأسرع ما يمكن، حتى لا تقع فى أيدى الأفراد، حتى لاتؤثر فى معنوياتهم.. وفى نفس الوقت تتم لقاءات بين الضباط وجنودهم يذكرون لهم فيها أن أوضاعنا جيدة».

«بالإضافة إلى عملية الإشغال المستمر، كانت الصلوات تؤدى بشكل مستمر أيضاً، والأذان يبدأ فى موعده وفى الفجر بالذات، كانت المنطقة تهتز بصوت الأذان فى كل مواقع الفرقة، وقبل ذلك وأهمها ـ لإشغال الجنود ـ طابور التربية الرياضية، وطابور التدريب على الأسلحة، والمعدات، والرماية على دبابات العدو المدمرة فى أرض المعركة».

(٤٨)

ولا يجد الفريق يوسف عفيفى حرجاً فى أن يستشهد فى كثير من المواضع فى هذه المذكرات بأقوال الإسرائيليين الذين يعترفون بنصرنا (وهذا طبيعى)، لكنه فى ذات الوقت ومن ثقته بنفسه لا يجد حرجاً فى أن يستشهد بأقوال الإسرائيليين الذين يظنون أنفسهم لم ينهزموا فى حرب ١٩٧٣ ويقدمون مبرراتهم لهذا، ومع هذا الغرور والصلف والمكابرة فإنهم فيما ينقله عنهم صاحب هذه المذكرات لا يستطيعون القول بأنهم هزموا المصريين:

«وكتب أليعازر نفسه يوم ١٢ نوفمبر ١٩٧٣ عن مفاجأة السويس قائلاً:

«إننى كرجل عسكرى أعرف تماماً أن لكل حرب مفاجآتها، وهناك أشياء لابد أن نتعلمها وأن نصحح معلوماتنا بشأنها. وأكبر مفاجآت هذه الحرب (أكتوبر ١٩٧٣) هى الجندى المصرى الذى أظهر قدراً كبيراً من الكفاءة القتالية، والتضحية بالنفس، وقوة الدافع الذى يفوق كثيراً ما كنا نتوقعه».

«ويواصل أليعازر رئيس الأركان الإسرائيلى شهادته فى حق الجيش الثالث فيقول:

«وبالنسبة للجيش الثالث فإنه برغم حصارنا له قاوم، بل واحتل بالفعل رقعة أوسع من الأراضى شرقاً، ومن ثم فإننا لا نستطيع أن نقول إننا هزمناه.. أو أخضعناه».

(٤٩)

ويحرص الفريق يوسف عفيفى فى فقرة عابرة على أن يبرئ الفريق الشاذلى من المسئولية عن الثغرة دون أن يقدم تفصيلات كثيرة حول هذا الموضوع، وهو حريص على الإشادة بجهد الشاذلى الكبير فى تنظيم تحركات القوات المسلحة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، كما يشير بالتفصيل إلى التوجيه التاريخى رقم ٤١ الذى أشار إليه أيضاً اللواء عبدالمنعم خليل فى مذكراته التى تناولناها فى الباب الثالث من هذا الكتاب:

«إن هناك من يتهم الفريق الشاذلى بأنه مسئول عن الثغرة..بصراحة: أنا لست مع هذا الرأى.. إننى أود أن أتوقف قليلاً لأقول كلمة حق لله وللتاريخ. لقد قام الفريق سعد الدين الشاذلى رئيس أركان حرب القوات المسلحة فى أثناء التحضير وخلال حرب أكتوبر ١٩٧٣، قام الرجل بجهد كبير وخلاق، حتى ينظم تحركات القوات المسلحة بالمفهوم العسكرى».

«فمن ضمن تلك الخطة نظم انسياب ما يزيد على ثلاثة آلاف مركبة فى فترة زمنية قصيرة لم تتجاوز ثلاث ساعات، وفى مسافة لا تزيد على عشرين كيلومترا، وفى طريق واحد هو طريق غرب القناة.. ولم يترك صغيرة أو كبيرة فى التجهيز لمسرح العمليات».

«كما أصدر التوجيه التاريخى الذى أطلق عليه ٤١ والذى يحمل كل الدقائق والتفاصيل عن تجهيز المقاتل ومهماته المختلفة فى جميع مراحل العبور والقتال».

«إن جهودا وإنجازات حققها الفريق الشاذلى لابد أن نذكرها له كما سيذكرها له التاريخ».

❑

وعلى الرغم من أن الفريق مدكور أبو العز لم يكن فى الخدمة حين قامت حرب أكتوبر، إلا أن الفريق يوسف عفيفى حريص على أن يشيد بدوره فى القوات

المسلحة، وهو ينتهز الحديث عن سعد الشاذلى ليذكر جهود الفريق مدكور أبو العز بالخير والتقدير اللائق ويقول:

«وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإن هناك مقاتلاً مصرياً آخر أتساءل لماذا ننساه ونحن نتحدث عن ملحمة أكتوبر رغم ما قام به هذا الرجل من أعمال عظيمة؟».

«إنه الفريق مدكور أبو العز قائد القوات الجوية فى فترة من أحرج الفترات التى مرت بنا بعد نكسة ١٩٦٧، عندما كانت معنويات القوات المسلحة تعانى من الانخفاض، خاصة القوات الجوية التى واجهت ظروفاً قاسية ومعروفة فى حرب ١٩٦٧».

«لقد استطاع هذا القائد الشجاع بطلعات مؤثرة على قوات العدو، وفى عمقه، أن يسبب الرعب المستمر للعدو.. لقد ساهمت هذه العمليات الشجاعة التى قادها الفريق مدكور أبو العز فى هذا الوقت الدقيق فى إعادة الثقة للقوات الجوية المصرية، ورفع معنويات مقاتليها، وهو ما كنا فى أمس الحاجة إليه».

(٥٠)

ونحن نرى الفريق يوسف عفيفى وهو يحكى ذكرياته عن ١٩٦٧ فى بداية حديثه عن دور الفرقة ١٩ وبطولاتها، وقد كان صاحب المذكرات فى ١٩٦٧ قائد كتيبة، ارتقى خلال ٦ سنوات حتى أصبح قائد فرقة فى ١٩٧٣، أى أنه (ونحن نبسط هذا لغير العسكريين) بعد قيادة الكتيبة تولى قيادة لواء أو ما يناظر هذا من المناصب العسكرية ثم أصبح قائد فرقة، ونحن نعرف أنه بعد حرب ١٩٧٣ ترقى حتى أصبح قائد جيش ثم مساعداً للوزير، لكنه فى ١٩٦٧ كان قائد الكتيبة ١٢ مشاة التى كانت تتبع اللواء الرابع مشاة الذى كان يتبع الفرقة الثانية ولم يكن هناك فى ١٩٦٧ جيشان وإنما هو جيش ميدانى واحد.

نقرأ فى هذه المذكرات انطباعات قائد الكتيبة عن العنت والعذاب الذى لقيه هو

وكتيبته فى الحركة من مكان إلى مكان بدون ترتيب ولا خطة ولا استعداد، ومع أن يوسف عفيفى ينسب إلى قادته ألفاظاً وتعبيرات يصعب تصور أن تصدر منهم فى ذلك الوقت، إلا أن هذه الألفاظ (من قبيل: مظاهرة عسكرية) تتوافق تماماً مع ما حدث بالضبط:

«لقد كنت خلال حرب ٦٧ قائداً للكتيبة ١٢ من اللواء الرابع مشاة التابع للفرقة الثانية التى كانت تحت قيادة اللواء عبدالحليم عبدالعال، ثم اللواء عثمان نصار».

«وصدرت لى الأوامر بالتحرك إلى سيناء ليلة ١٧ ، ١٨ مايو، وقد حدث هذا كله: فجأة، بدون ترتيب مسبق، وبدون استعدادات، أو خطة محددة».

«وعندما سألت قيادتى.. قالوا: إنها مجرد مظاهرة عسكرية الهدف منها: تهديد العدو».

«وقطعنا سيناء كلها خلال ٢٠ يوماً من الكونتيلا إلى العريش إلى الكيلو ١٦١ بدون هدف محدد».

«فما نكاد نصل إلى موقع حتى تصدر الأوامر بالتحرك إلى موقع آخر فى اليوم التالى».

❑

ونحن نرى قائد الكتيبة ١٢ الذى هو يوسف عفيفى، وهو يشعر أنه أصبح فى وضع حرج أمام جنوده، وهو يحل هذا المشكل الذى وقع فيه بالتمثيل والتظاهر، مع أنه يعرف الحقيقة!! ومع هذا فإنه حريص على أن يذكر برغم كل هذه الظروف أنه بقى له ـ مع هذا كله ـ دور محدد أداه فى اللحظات الأخيرة:

«ووجدت نفسى فى وضع محرج مع رجال الكتيبة، فأنا أدفعهم للحركة بدون خطة، ولا أستطيع أن أحدد لهم الهدف من انتقالاتنا».

«وحتى أرفع من معنوياتهم المنخفضة نتيجة لانعدام التخطيط، وعدم وضوح الخطة والهدف، أخذت أشارك معهم فى حفر الخنادق، وأتظاهر بأن هناك هدفاً محدداً من وراء هذه التحركات».

«ولكنني كنت فى حالة نفسية سيئة، فقد كنت أعرف الحقيقة.. وأنه ليس هناك هدف.. ولا خطة».

«وفى نهاية المطاف، استقر بنا المقام، وصدرت الأوامر بأن نبقى خلف «القسيمة» حول محور (القسيمة ـ الحسنة) حتى يكون هناك خط دفاعى ثان لحماية القوات فى حالة الانسحاب من الخط الأول».

«وفعلاً كنا خط الحماية الذى انسحبت من خلاله قوات القسيمة، وصمدنا حتى اللحظات الأخيرة».

(٥١)

ويعترف يوسف عفيفى فى هذه المذكرات بوجهة نظر مهمة ـ نعرفها الآن جميعاً ـ وهى أن الطيران لم يكن هو المسئول الأوحد ولا الأول عن الهزيمة التى نكبت بها قواتنا المسلحة فى ١٩٦٧، وإنما كان بمثابة «الشماعة» التى علقت عليها الهزيمة، وهو يضيف أن الالتحام بين القوات كان كفيلاً ـ لو أنه حدث ـ بتقليل قيمة تدخل الطيران الإسرائيلى وقدرته على إلحاق الخسائر بنا:

«هناك عناصر متداخلة كانت سبباً فى الهزيمة، ولم يكن خروج الطيران من المعركة ـ وحده ـ هو السبب فى الحجم الضخم من الخسائر».

«ولقد كانت خسائر الطيران المصرى هى الشماعة التى علقت عليها الهزيمة، ولم تكن هذه الحجة صحيحة، لأن الطيران لا يستطيع أن يتدخل فى أى عمليات أرضية مادام هناك التحام بين قوات الطرفين».

«ومن هنا فإنه لو أن قواتنا فى ١٩٦٧ كانت قد التحمت بالجيش الإسرائيلى، واتخذت موقفاً هجومياً أو دفاعياً، لكانت قد أخرجت الطيران الإسرائيلى من المعركة، ولكانت الخسائر أقل كثيراً مما وقعت».

ويعطى يوسف عفيفى أهمية كبرى لمخاطر العشوائية، سواء فى الحشد أو فى الانسحاب، ونحن نراه هنا يتحدث لا عن النصر وإنما عن تقليل الخسائر فحسب:

«أضف إلى ذلك أسلوب الانسحاب العشوائى، الذى تبع أسلوب الحشد العشوائى، ولو كانت هناك خطة مدروسة للانسحاب لانسحبت القوات إلى غرب القناة دون أن تحدث الفوضى الشاملة، التى ضخمت من حجم الخسائر».

(٥٢)

ويروى يوسف عفيفي تجربته الشخصية مع الحشد، وهو يتحدث بألفاظ عامة دون إدخال مصطلحات أو مفردات عسكرية، ويبدو لى أن هذا الذى يتحدث به يوسف عفيفى فى الفقرة التالية هو نفسه ما أطلقت عليه قيادة القوات المسلحة وقتها أسلوب «الفتح التعبوى»، وقد شرح الفريق صلاح الدين الحديدى فلسفة هذا الأسلوب وخطورته ونتائجه السيئة بطريقة عسكرية مبسطة فى كتابه عن حرب يونيو الذى عرضناه فى الباب الرابع من كتابنا «الطريق إلى النكسة»، وها نحن نرى هنا قائد كتيبة متميزاً فى هذه الحرب وهو يعترف أنه رغم جهوده فإن الوقت كان متأخرا:

«وهناك صورة لأسلوب الحشد العشوائى، توضح مقدار الفوضى التى دخلنا معركة ٦٧ مسلحين بها».

«فإلى جانب كتيبتى العاملة كانت هناك كتيبتا مشاة من الأفراد الاحتياط المستدعين، يرتدون الجلاليب والملابس المدنية، استدعتهم القيادة على عجل، ووصلوا إلى سيناء بالجلاليب، وبلا أسلحة، وبلا عتاد أو تموين، وبلا خطة موضوعة لتسليحهم، لمشاركتهم فى المعارك».

«والغريب أنهم وضعوا على الخط الدفاعى فى «القسيمة» على هذا الحال، وتركوا حتى بدأت العمليات».

«وقد صورت إسرائيل عدداً من هؤلاء، واستغلت صورهم للدعاية ضد الجيش المصرى عالميا».

ويذكر يوسف عفيفى أنه بسبب هذا الحشد العشوائى أو الفتح التعبوى فقد وجد نفسه مضطراً لأن يتولى العناية بكتيبة مجاورة لكتيبته، وقد أعطاهم أسلحة وملابس وزمزميات مياه، وحاول أن يساعدهم بالتدريب أو الإعداد.. لكنه يعرف أن هذا كله كان بدون جدوى:

«وقد قمت قبل أن تبدأ العمليات بمعالجة حالة الكتيبة المجاورة فوزعت عليهم بعض الأسلحة الاحتياطية فى كتيبتى ـ لحين وصول أسلحتهم ـ وكلفت جنودى بتدريبهم، وإعطائهم بعض الملابس العسكرية وزمزميات المياه، لكن الوقت كان متأخراً، وبعض الإمكانيات كانت غير متاحة».

«فلم يكن عند هذه الكتيبة الاحتياطى الكافى من الإمدادات، حيث انتزع هؤلاء من وظائفهم، وبيوتهم، بطريقة مفاجئة، وعشوائية، وكانوا فى حالة نفسية سيئة للغاية».

(٥٣)

ويروى الفريق يوسف عفيفى ذكرياته عن الانسحاب من سيناء فى حرب ١٩٦٧، وهو يعترف أنه كان لايزال يحاول على الرغم من أن الوقت كان قد فات، كما يشير إلى وجود بعض البطولات والعمليات الفردية دون أن يعول عليها شيئاً، وهو يعلل هذا بسيادة المناخ الرديء الذى لم يكن ليتيح لكل هذا أن يؤثر فى سير النكسة أى تأثير يقلل من كوارثها:

«فى منتصف ليلة ٧/ ٨ يونيو ١٩٦٧ وصلنى أمر قيادة بالانسحاب إلى غرب القناة، ولم يتضمن أمر القيادة سوى ذلك».

«أصدرت أوامرى بالانسحاب على المحور الأوسط للإسماعيلية، فى الأرض المفتوحة، والحقيقة، ورغم الظروف المحيطة السيئة، إلا أننا كنا نحاول فى «القسيمة» أن نفعل شيئاً يحفظ علينا ماء وجوهنا، ولكن الوقت كان قد فات».

«هناك بـعض العمليـات الفردية للتـصدى للعدو، وهـناك بعض البطـولات التى قامت بها بعض القوات».

«ولكن فى ظـل المنـاخ الردىء ضاعت المحـاولات، فانسحبنا إلى غرب القناة يوم ٩ يونيـو، تحت الغارات الجـوية الإسرائيـلـة المكثـفـة، وتحت نيـران مدفعيـة العدو، ولكـنى حـاولت ونجحت فى أن أحمـى قـواتى فلـم أتكبـد خسائر تذكر فى كتـيبتى والحمـد للـه».

❑

هكذا يصل الفريق يوسف عفيفى إلى أن يسجل فخره بنجاحه فى تجنب الخسائر ـ على مستوى كتيبته وسوف نتناول تفصيل هذا النجاح نقلاً عملا يرويه بعد قليل، وهو جهد ـ على كل حال ـ يستحق الثناء فى مثل تلك الظروف.

(٥٤)

ويعطى الفريق يوسف عفيفى أهمية خـاصة للحديث عن تدهور مستوى التدريب فى القوات المسلحة قبل حرب ١٩٦٧، كما يعطى أهـمية مماثلة للحديث عن عشوائية حركة القوات وانعدام التوجه الثابت فى ظـل تغيير الخطط من لحظة إلى أخرى، وهو يصور الأمـر تصويراً منـقوصاً فى رأيى، فـهو يشبـه هذه التحركـات بتحركات لـعبة الشطرنج لكنه فيما أفهم لا يقصد لعب الشـطرنج لكنه ربما يقصد عبث الصبية بقطع الشطرنج لأن لعبـة الشطرنج تقتضى من لاعبـيها تخطيطاً وترتيبـاً ولا تتم حركة دون هدف حتى وإن كان هدفاً خاطئاً لا يؤدى إلى فـوز، ومع هذا فإن يوسف عفيفى يورد تعبيراً عسـكرياً جميلاً هو قوله: «لم يوجـد وضع الثبات» وهو تعبير ينـم عن حقيقة ماحدث بأفضل من اللجوء إلى التعبير بصورة قطع الشـطرنج:

«هناك سبب آخر فى غاية الأهمية يضاف إلـى أسباب النكسة، كان أقصى مستوى للتدريب يتم على مـستوى السرية، علماً بأنه يفترض أن يكون الـتدريب على مستوى الفرقـة، أو على الأقل علـى مستوى الـلواء، وهى عملـية خطيرة، فـلم نصل لمـستوى

التدريب المطلوب، ولم تكن إمكانياته متوافرة كما كانت القوة الضاربة للقوات المسلحة بالأراضى اليمنية خلال معركة ١٩٦٧».

«كانت الفكرة أن نوصل للعدو مضمونا أن قواتنا كبيرة، تستطيع أن «تردعه»، أو بالتعبير العادى «تخيفه»، وكانت الخطة «هجومية» ثم انقلبت «دفاعية».

«وأن تتغير الخطة ليس بالأمر السهل، فهى تؤدى إلى قلب كل الخطط الأخرى، وتغيير كثير من الإجراءات العسكرية، التى تحتاج إلى قوات مدربة تدريباً عالياً».

«لذلك كانت القوات تتحرك فى سيناء مثل قطع «الشطرنج»، تنقل من مكان لمكان ويحركونها بسرعة، كل الوحدات كانت تتحرك فى وقت واحد، لم يوجد وضع الثبات، وكانت الحركة تتم فى أماكن مختلفة، لدرجة أن قدماً واحدة لم تكن لتستقر على الأرض».

«وكانت هذه هى الفرصة السانحة للعدو لكى يقوم بضربته».

(٥٥)

ونحن نرى يوسف عفيفى يتبنى الرؤية التى تبناها الرئيس السادات من قبله (وآزرها وأخذ بها فى مذكراته الفريق أول مرتجى وغيره من قادة القوات المسلحة الذين كتبوا مذكراتهم عن هذه الأحداث) فى أن القوات المسلحة ظلمت ظلماً شديداً فى ١٩٦٧:

«لقد ظلم المقاتل المصرى فى حرب ٦٧ ظلماً كبيراً، وسوف أسوق هنا بعض الوقائع التى توضح سمات هذا المقاتل وأصالته».

«فى طريق المليز.. كانت ترتكز إحدى الكتائب، ولم تصل إلى قائدها أوامر انسحاب واستمر هذا القائد الشهيد (العقيد كمال رءوف) يقاتل مدرعات العدو ـ وكانت لواءات مدرعة ـ لمدة أربعة أيام ولم يمكنها من اختراق مواقعه، إلى أن اتخذ

العدو خطة أخرى وهى ضرب الكتيبة الصامدة من الجو، فظهرت أسراب الطائرات لتقوم بنسف الموقع كاملاً».

«ولو لم يحدث ذلك لما استطاع العدو اكتساح هذا الموقع».

«ويعرف الإسرائيليون هذا جيداً، وكتبوا عن هذا القائد، إنه العقيد «كمال رءوف» قائد إحدى كتائب المشاة، وهو أحد أبطال حرب ١٩٦٧».

❑

ويضرب يوسف عفيفى مثلاً آخر بالعقيد محمد نبيه السيد الذى انسحب سباحة من رفح إلى العريش ثم على جمل حتى وصل إلى غرب القناة:

«أحد القادة قام بالسباحة فى البحر المتوسط من رفح حتى العريش على فترات متقطعة، حتى لا يتعرض للأسر بعد انسحاب كتيبته، وفى العريش قام بركوب جمل، وصل به إلى غرب القناة، وهو العقيد محمد نبيه السيد، الذى كان قائداً للمنطقة الشمالية فى فترة من الفترات!».

لعلى أتوقف هنا لأذكر أنى لا أدرى لماذا لم يذكر يوسف عفيفى فى هذه المذكرات إن كان العميد محمد نبيه السيد هو نفسه صاحب الاسم الذى كان فى حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ رئيساً لشعبة العمليات فى الجيش الثالث الميدانى!

❑

كما يضرب الفريق عفيفى مثلاً آخر بأحد ضباط الشئون الإدارية الذى كان حريصاً على ذخيرته حتى أنه وضعها فى قطار وقام هو وجنوده بوظيفة القاطرة لتحريك هذا القطار:

«وأذكر أيضاً أحد القادة الشهداء الذى حمل ذخيرة وحدته فى عربات قطار، وقام هو وأفراد قوته بدفع العربات بسواعدهم وظلوا يدفعونها أمامهم (بلا قاطرة)، لكى يصلوا بها إلى مواقع الكتائب التى كانت فى حاجة إليها، إنه العقيد سعد درويش الشامى، وهو ضابط شئون إدارية، قام بأعمال خطيرة فى معركة (رفح)».

«وفى نفس المعركة التى قادها اللواء جعفر العبد نحتاج إلى مؤلفات حيث قامت القوات المصرية فيها بأعمال قتالية تدرس الآن فى المعاهد العسكرية».

(٥٦)

وينتقل الفريق يوسف عفيفى ليتحدث عما يعتبره بطولات قامت بها كتيبته فى حرب ١٩٦٧ وهو يؤكد على الفكرة التى ذكرها من قبل وهى نجاحه فى تقليل الخسائر إلى أقصى حد ممكن، وهو هنا يذكر أنه لم يفقد من ٩٠٠ مقاتل إلا ١٧ فقط، وهو يرجع الفضل فى هذا إلى الأداء التنفيذى الجيد للنقيب أحمد الزهيرى:

«سوف أسرد بعض الوقائع التى شهدتها إحدى السرايا المشاة التى كانت ضمن الكتيبة ١٢ مشاة قيادتى».

«فى أثناء الانسحاب أمرت أحد الضباط وهو النقيب «أحمد الزهيرى» ـ لواء متقاعد الآن ـ وكان فى النسق الثانى للكتيبة، أن يفرغ كل حمولة سيارات نقل الكتيبة والذخيرة والإمدادات، ويستقبل أفراد سرايا المشاة لتركب العربات مكانها، مع توزيع ما تيسر من الإمدادات على الجنود، وينتظرنى إلى أن أصل إليه».

«وفعل ذلك بكفاءة منقطعة النظير بعد أن وصلت إليه السرايا الأمامية، واستطاع حماية القوات المنسحبة».

«وكنا معاً آخر من انسحب، لدرجة أن كتيبتنا قد عادت كاملة فلم يفقد من ٩٠٠ مقاتل إلا ١٧ فرداً رغم السيادة الجوية للعدو».

«وكانت آخر كتيبة تنسحب من سيناء فى حرب ١٩٦٧ بفضل الله ثم بسالة أحمد الزهيرى».

وهنا يردف الفريق يوسف عفيفى بقوله :

«إن هذه الأمثلة القليلة توضح معدن المقاتل المصرى الذى ظلم فى كثير من الأمور التى سيذكرها التاريخ يوما ما».

وفى موضع آخر من مذكراته يحرص الفريق يوسف عفيفى أن يشير إلى الانفصال الذى حدث فى ١٩٦٧ بين القيادة الكبرى والقيادات الفرعية، وبين التخطيط والتنفيذ، وهو لا يطلق هذا الحكم هكذا لكنه يشير إلى تجربة شخصية له فى هذا المجال حين وضع ـ بناء على تكليف من قياداته ـ خطة كاملة للدفاع عن شرم الشيخ، نالت رضا القيادة وتصديقها، لكنها لم تنفذ على الإطلاق:

«إن الذين كانوا يخططون لحرب ٦٧ كانوا بعيدين عن الذين ينفذون، فالقيادة كانت فى واد، والقيادات الفرعية فى واد آخر، كانت الأوامر تصدر إلينا وما علينا إلا التنفيذ، بغض النظر عن الاعتبارات الميدانية التى تواجهنا، كانت هناك خطط لكنها لم تخرج إلى حيز التنفيذ.. وسأعطى نموذجاً للدلالة على ذلك».

«فى يناير ٦٧ ذهبت مع مجموعة من ضباط اللواء الرابع إلى منطقة شرم الشيخ، ورأس نصرانى، ونفذنا عملية استطلاع شاملة للمنطقة».

«وبعد المهمة الاستطلاعية، وضعنا خطة كاملة للدفاع عن شرم الشيخ، وعرضت على المسئولين وصُدق عليها، وبالرغم من تصديق القيادة عليها فوجئنا بعد إغلاق مضايق تيران وبدء الحشد فى المنطقة، بإرسال وحدات خاصة أخرى جديدة إلى المنطقة ليست لديها معرفة بها وبلا خطة مدروسة، وكان من المفروض أن نذهب بوحداتنا إلى هذه المنطقة التى وضعنا ـ بعد دراسة جادة ـ خطة الدفاع عنها».

(٥٧)

ولا ينسى يوسف عفيفى فى أثناء حديثه المستفيض فى هذه المذكرات عن إنجازات الفرقة ١٩ أن يشير إلى تاريخها وقادتها السابقين وجهدها الفرعى فى حرب اليمن ويقول:

«اشتركت بعض وحدات الفرقة ١٩ مشاة فى حرب اليمن، واستمرت بمسرح العمليات باليمن خلال حرب ١٩٦٧.. وبعد سحب القوات المصرية من اليمن وإعادة تنظيمها وتسليحها وإنشاء تشكيلات ميدانية، تم تشكيل الفرقة ١٩ فى نوفمبر

١٩٦٧ بقيادة اللواء أ.ح. ممدوح جاد تهامي، وتطور تنظيم الفرقة خلال أعوام ما قبل حرب ١٩٦٧، وتولى قيادتها اللواء سعد زغلول عبدالكريم فى ١٩٦٩، واللواء إبراهيم كامل محمد فى سبتمبر ١٩٦٩، وفى يناير ١٩٧٢ تشرفت بقيادة هذه الفرقة».

«وقد شاركت الفرقة ١٩ فى أعمال القتال خلال أصعب المراحل التى تعرضت لها القوات المسلحة بعد حرب ١٩٦٧، حيث استلزمت هذه الفترة إعادة بناء المعنويات التى انهارت بهزيمة ١٩٦٧، وإعادة بناء القوات المسلحة المصرية».

❑

ويحرص صاحب هذه المذكرات ـ وحسناً فعل ـ على أن يضع فى نهاية كتابه قائمة بأسماء شهداء الفرقة ١٩ الأبرار الستة وهم: الرائد محمد زرد، والملازم أول فاخر فخرى عبدالصمد، والرائد محمد السعيد عبدالله، والملازم أول رضا حسن السيد حسن، والرقيب أحمد المرسى على، والمقدم السيد عبدالعظيم سرور.

وأن يخص بالذكر ثمانية من أبطال هذه الفرقة هم: الرائد على رضا عبدالعزيز، والرائد فوزى شاكر حسن، والمقدم حسام عمارة، والمقدم عزت سامى موسى، والعقيد علاء عبدالمجيد درويش، والملازم أول عبدالرحيم محمد السيد، والجندى الديدمونى على حسن، والمقدم مصطفى حمودة.

فلهؤلاء جميعا التحية والتقدير والدعاء بالرحمة والمغفرة وأن يجزيهم الله عنا خير الجزاء وأن يلحقنا بهم فى عداد الشهداء.

5

رحلة الساق المعلقة

من رأس العش إلى رأس الكوبرى

للعميد عادل يسرى

دار الخيّال

(١)

هذه مذكـرات رائعة وفريـدة ونادرة الوجود فى أدبـنا العربى كـله، وفى تاريـخنا العربى كلـه، ولا أظن التاريخ جاد أو يجود بمثلـها، فقد كتبها واحد من أشـجع قادتنا فى حرب أكتوبـر، كان قائداً لأحد الألوية التى عـبرت القناة وحققت الـنصر المجيد، وحققـت لنا العزة والمجـد والكرامة بل والحـياة. وقد تجلـت بطولته فـى هذه الحرب بصورة رائعة، وفقد فيها ساقه، ومنح وسام نجمة سيناء أعلى وسام عسكرى مصرى.

صدرت هـذه المذكـرات عن دار المـعارف عـام أربعـة وسبـعين (١٩٧٤) ويـقع الكتاب فى ٣٠٤ صفحات من القطع ١٤×٢٠، ويضـم صوراً وخرائط متعددة.

واللواء فى النظام العسكرى الذى نأخذ به وحدة عسكرية تتكون منها الفرق، على حين يتكون اللواء نفسه من كتائب، وللألوية أسماء هى فى الغالب رقمية، وفى بعض الأحيان تكـون هذه الأسماء صفات أو أشـخاصا أو أماكن، ومن غـرائب الأقدار أن اللواء الذى كان يقـوده عادل يسرى صاحب هذه المذكرات كان اسـمه على ما يروى هو فى هذه المذكرات «لـواء النصر»، وقد كان أحد ألوية الفرقة ١٦ الـتى كان يقودها العـميد عبد رب النبـى حافظ، الـذى صار بعـد هذا رئيسـاً لأركان حرب الـقوات المسلحة المصرية، وكانت هـذه الفرقة إحدى فرق الجـيش الثانى الذى كـان قائده هو اللواء سعد الدين مأمون، فلما أصيب بالمرض فى أثناء المعركة تولى قيادة هذا الجيش

على سبيل النيابة رئيس أركان الجيش اللواء تيسير العقاد ثم عاد إلى تولى قيادته اللواء عبدالمنعم خليل الذى كان قائداً للجيش الثانى من قبل (وكان فى ذلك الوقت قائداً للمنطقة العسكرية المركزية)، والذى تناولنا مذكراته «فى قلب المعركة» فى الباب الثالث من كتابنا هذا الذى بين أيدينا، وإن كان الفريق سعد الدين الشاذلى رئيس أركان الجيش المصرى قد تولى قيادة الجيش الثانى بنفسه لمدة ٤٤ ساعة فى وجود عبدالمنعم خليل، وذلك بناء على تكليف مباشر من الرئيس السادات عندما حدث ما سمى بالثغرة، وذلك على ما حققه اللواء جمال حماد فى كتابه «المعارك الحربية على الجبهة المصرية».

(٢)

قبل أن نمضى إلى الحديث عن عادل يسرى، لابد لنا أن نذكر شيئاً مهماً قد لا يدرى القراء من أمره شيئا، وهو أن هذه الحرب المجيدة أبانت عن بطولات فذة بين القادة المصريين من رتبة عادل يسرى والرتبة الأعلى منه كذلك.

وما بالنا إذا كان على رأس شهداء هذه الحرب المجيدة أحد قادة الفرق التسعة التى كان الجيشان الثانى والثالث يتكونان منها وهو الشهيد البطل العميد أحمد عبود الزمر قائد الفرقة ٢٣ مشاة ميكانيكية.

وما بالنا أيضاً إذا كان خمسة من قادة الألوية العظماء قد ضربوا القدوة لجنودهم ومرءوسيهم فى الشجاعة والتضحية والفداء، وتقدموا إلى الشهادة غير خائفين ولا وجلين ليعيش وطنهم وشعبهم وأهلهم، وهؤلاء القادة الخمسة هم الشهداء الأبطال:

العميد البطل شفيق مترى سدراك قائد اللواء الثالث مشاة ميكانيكى.

والعقيد البطل نور الدين عبدالعزيز قائد اللواء الثالث المدرع.

والعقيد البطل السيد محمد توفيق أبو شادى قائد اللواء الأول المدرع.

والعقيد البطل حسين رضوان قائد اللواء ١١٦ المشاة الميكانيكى.

والعقيد البطل مصطفى حسن قائد اللواء ٢٢ المدرع.

وبالإضافة إلى هؤلاء فقد استشهد من قادتنا العظماء فى هذه الحرب المجيدة التى تحقق لنا فيها النصر المؤزر والوحيد نائب مدير سلاح المهندسين العميد مهندس أحمد حمدى، وقائد الفرقة الخاصة من قوات الصاعقة البطل العظيم العقيد إبراهيم الرفاعى، وقائد موقع كبريت المقدم البطل إبراهيم عبدالتواب.

ولست أستطيع أن أتحدث أكثر من هذا فى بطولة قادتنا العظماء الذين ضربوا أروع أمثلة الشجاعة والفداء، ولكن عزائى وعزاء غيرى من شعبنا فى فقد هؤلاء العظماء أنهم شهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ندعو الله سبحانه وتعالى أن يلحقنا بهم.

(٣)

قبل أن يتولى عادل يسرى قيادة هذا اللواء فى حرب أكتوبر المجيدة، كان قد تولى عدداً من القيادات العسكرية المتميزة، وقد شاءت له الأقدار أن يكون قائد الكتيبة السابعة مشاة، وهى كتيبة عسكرية مصرية عريقة.

وفى فترة قيادته لهذه الكتيبة أتيح له كما سنرى فى هذه المذكرات أن يؤدى لوطنه عدداً من الأعمال المجيدة فى رأس العش، والبلاح، واشتهر كعادة الشجعان الأفذاذ من القادة بأنه من أولئك الذين يحرصون على الموت فتوهب لهم الحياة، وهى الصفة التى يقابلها فى العامية اللفظ المصرى الدارج وصف «الفاقد».

وفيما يرويه عادل يسرى فإن رئيس الأركان المصرى العظيم عبدالمنعم رياض خاطبه بهذه الصفة حين زاره فى الجبهة.

أما التاريخ العسكرى لعادل يسرى قبل بداية عام ١٩٦٨ فلا تتناوله هذه المذكرات إلا مرة واحدة (سنورد نصها للقارئ فى أخريات هذا الباب) حين يروى أنه لما كان فى زيارة إلى سوريا شارك العميد (المشير فيما بعد) أحمد بدوى فى حجرة واحدة، وعند هذه الجزئية يلمح عادل يسرى إلى أنه لقى من الظلم مثل ما لقى أحمد بدوى، ونحن نعرف أن بدوى أوذى إلى حد الاعتقال.

ومع أن عادل يسرى لم يوضح نوع الظلم الذى تعرض له من قبل فيبدو أنه كان

يشعر بمرارة شديدة تجاه هذا الظلم، لكنــه كان حريصاً على أن يسارع بالقول بأن هذه المرارة لم تحل بينه وبين حب وطنه، شأنه فى ذلك شأن أحمد بدوى.

وقد كتب عـادل يسرى هذا النص بل وهذا الـكتاب ونشره قبل أن يتـولى أحمد بدوى نفسه المنـاصب العليا فى القوات المسلـحة المصرية بفترة طويلـة، فقد نشر هذا الكتاب قبل أن يصبح أحمد بدوى رئيساً للأركان بأربع سنوات كاملة وقبل أن يصبح وزيراً للدفاع بأكثر من خمس سنوات!

وكل ما هو متاح لنا عن التاريخ العسـكرى لعادل يسرى قبل هذا أنه كان ذا ترتيب متقدم جداً عند تخرجه فى الكلية الحـربية (وربما كان الأول)، كما أنه تميز منذ مرحلة مبكرة فى الـعمل فى سلاحى المظلات والصاعـقة، وهما السلاحان اللذان يـستهويان أرباب الجسارة والجرأة من أمثال هذا الرجل.

(٤)

ومع عظمـة عادل يسرى فإنه شأن كـل أبطال أكتوبر العـظماء، لم يلق حتـى يومنا هذا ما يستحقونه فى نظرى من تكريم جدير ببطولتهم العبقرية الفذة، ومع هذا فإنهم ـ وفى مقدمتهم الرئـيس مبارك نفسه ـ سعداء مغتبطون فى كـل لحظة بما قدموه لهذا الوطن.

وشأن كل المتميزين فى بلادنا فقد لقـى عادل يسرى من تقدير الخارج أكثر مما لقى من تقدير فى الداخل، ويروى أن التليفزيـون الألمانى قطع إرساله ذات مرة ليعلن عن وصول البطـل المصرى عادل يسرى للـعلاج فى ألمانيا الغـربية، وأخذ هذا التلـيفزيون يذيع حلـقة كان مندوبه قد سـجلها مع عادى يسرى وهـو فى مستشفى المـعادى حين كان يجتاز مراحل التأهيل قبل أن يتم تركيب ساق صناعية له، وأطلق الألمان على هذا البطل العظيـم لقب «الجنرال الراقص» لأنه استطاع أن يرقـص على ساق واحدة لمدة طويلة مثبتا مدى قوة الإرادة وصدق العزيمة.

وقد اختير عادل يسرى نائباً لرئيس الاتحـاد الدولى للمحاربين القدامى، وهو اتحاد

ذو شأن دولى كبير فى العالم المتقدم، ولن أصور قيمته بطريقة تقليدية، ولكنى سأذكر أنه لا يمر علىّ زميل من طلاب الدراسات العليا فى قسم القلب إلا ومن بين البحوث التى يستعين بها من أجل رسالة الدكتوراه أو الماجستير بحث أو أكثر أجرى فى مستشفى أو أكثر ، من مستشفيات هيئات المحاربين القدامى فى الولايات المتحدة.

وفى أخريات عهد الرئيس السادات حضر عادل يسرى مؤتمراً لهذا الاتحاد فى دولة بنين، وكانت الحملة ضد السادات ومبادرته ومعاهدة السلام قد بلغت مداها، وأراد رئيس بنين أن يعبر لعادل يسرى عن رغبته فى أن ينقل للرئيس السادات أمل بنين فى أن تواصل مصر اهتمامها بالقضية الفلسطينية، وفى جسارة شديدة وسرعة خاطر تحدث عادل يسرى إلى الرئيس المضيف له عما قدمته مصر لقضية فلسطين منذ ١٩٤٨ وحتى ذلك الوقت حديثاً قصيراً جعل الرئيس الأفريقى العظيم يعجب به أيما إعجاب، ويغير من فكرته عن الدور المصرى ـ المفترى عليه ـ فى هذه القضية.

(٥)

ولا يحظى عادل يسرى حتى وقتنا هذا بكثير من الأضواء فى مصر، لكنه بلاشك بما فعل وما كتب قد احتل مكاناً بارزاً فى سجل الخالدين فى هذا الوطن.

ومن الأحاديث القليلة التى أجريت معه حديث أجراه الأستاذان محمد عبدالرحيم غانم ومحمد دنيا فى مجلة «الشباب» التى يرأس تحريرها الأستاذ عبدالوهاب مطاوع ونشر الحديث فى أكتوبر ١٩٩٧.

ولست أدرى على وجه التحديد ما إذا كان اللواء الذى قاده عادل يسرى هو صاحب الفضل الوحيد فى أسر عساف ياجورى واستسلام لوائه، وقتل الجنرال الإسرائيلى البارز ماندلر، أم أن هناك قوات أخرى شاركت لواءه هذا الإنجاز، كذلك فإنى لست أدرى على وجه التأكيد هل البطلان العظيمان سعيد خطاب وعبدالعاطى من لواء عادل يسرى أم من فرقته؟

ولكن من المؤكد أن عادل يسرى قد أبلى فى معركة ٦ أكتوبر هو ولواؤه بلاء

حسنا، سنقرأ بعض تفاصيله فى هذا الباب، وكان من نتيجة هذا البلاء أن أكرمه الله بإصابته وهو يتجهز لأن يقتحم مع جنوده مواقع العدو فى الضفة الشرقية للقناة، وهكذا خرج هذا الرجل البطل من المعركة بعد أن حقق فيها ما لا يتاح إلا للذين أكرمهم الله بمثل ما أكرمه به.

ويأبى هذا الرجل أن يتوقف فى عطائه لوطنه عند هذا الحد، فإذا به يقدم للمكتبة العربية هذا الكتاب العظيم الذى كان أول مذكرات لأحد أبطال الحرب المجيدة، وقد صدر عام ١٩٧٤، أى فى العام التالى لنصر أكتوبر المجيد مباشرة، وقد أصدرته «دار المعارف» وكتب المشير أحمد إسماعيل مقدمة قصيرة له نشرت بخط اليد فى مقدمة الكتاب، ولست أدرى هل هذا هو خط المشير نفسه أم أن الناشر عهد إلى خطاط بكتابة ذلك النص بخط قريب من خط المشير، ومن الجدير بالذكر أن المشير أحمد إسماعيل نفسه قد توفى فى ديسمبر ١٩٧٤، أى قبل أن تنقضى شهور أو أسابيع على كتابته لهذه المقدمة، وربما عقب نشر الكتاب مباشرة.

(٦)

ومع أن هذا الكتاب صدر عام ١٩٧٤ ولقى الاهتمام وقتها، إلا أنه للأسف الشديد لم يلق الانتشار الواسع، ويرجع هذا إلى أن الدولة كانت قد بدأت فى رفع يدها عن سياسة التغذية الإعلامية والحملات الدعائية المكثفة للشعب، وذلك مفهوم طبعاً بعد أن تحقق النصر وعادت للشعب ثقته فى نفسه، وبدأت ملامح عهد جديد يؤمن بتعدد الآراء، ولا يتبنى رأياً واحداً محدداً، وكل هذا جميل، ولكن أمجادنا الوطنية كانت ولا تزال تستحق شيئاً من الاهتمام.

ولكننا فى ذلك الوقت للأسف الشديد غفلنا عن إدراك مثل هذه المعانى وإعطائها حقها، وهكذا لم يحظ هذا الكتاب بما كان ينبغى أن يحظى به، وظل سعره مائة قرش حين كانت المائة قرش من أجل شراء كتاب بمثابة مبلغ كبير جداً، فقد كان ثمن كيلو اللحم نفسه لا يزال أقل من نصف هذا المبلغ!! ولهذا السبب لم يوزع هذا الكتاب

ما ينبغي أن يوزعه من نسخ، فضلا عن هذا فإنه ـ على حد علمي ـ لم يقرر ـ حتى الآن ـ على أى فصل دراسي من الفصول الدراسية فى المدارس التى تدرس كتباً من ذات الموضوع الواحد، وإنى أذكر أن الكتب التى قررت منذ ذلك الوقت لا يزال مستواها التربوى والفكرى والتاريخى أقل من هذا الكتاب بكثير.

وتتميز هذه المذكرات التى بين أيدينا بحرص صاحبها الشديد على تصوير الوقائع العسكرية التى شهدها مؤلفه فى أدق صورة، وصاحبها يكتب ما يكتب فيها دون أن يعى أن جمهور القراء فى حاجة ماسة إلى أن يفهموا هذه المصطلحات العسكرية الكثيرة التى تحفل بها هذه المذكرات، ولكن ماذا بوسعه أن يفعل وقد عاش حياته وسط هذه الأحداث بكل هذه التفصيلات؟ ولما ينفصل عنها بعد حين ألف كتابه... وأظنه لو أعاد النظر فى كتابه لوضع له هوامش كثيرة تتيح لنا فهم المراد بكثير من المصطلحات والتعبيرات العسكرية .

(٧)

يعترف عادل يسرى فى بداية كتابه أنه لم يتعود تسجيل ذكرياته بانتظام، ولكنه مع ذلك يعلم علم اليقين أن ذكريات المعركة والإعداد لها لا تزال محفورة فى ذهنه:

«لم تتح لى حياتى العسكرية أن أسجل ذكرياتى بانتظام.. ولكن أحداث الإعداد للمعركة والمعركة حفرت فى ذهنى هذه الذكريات مملوءة بكفاح طويل صامت لكل جندى.. فيها الإيمان بالله، والإيمان بالنصر.. فيها المعاناة، وفيها النجاح».

ويقفز عادل يسرى من هذا المعنى مباشرة إلى تأكيده على أهمية القيادة، ويبدو وكأنه يشعر بعظمة الدور الذى أداه كقائد متميز، وهو لهذا حريص على أن يؤكد أهمية القيادة وهو يستخدم ألفاظاً كانت جديدة ومحببة فى تلك الفترة (١٩٧٤) من قبيل الرخاء الاقتصادى و الأسلوب العلمى:

«إن أرضنا يا أخى يعيش عليها صفوة من أعظم الرجال، ولا ينقصهم سوى أن

يجمعهم قائد يدرك أهمية الرجل ويثق رجاله بقدرته وشجاعته، هذا القائد كان مفتاح النجاح لكل معركة ولكل مستوى».

....

«وإذا كنا قد انتصرنا فى معركة العاشر من رمضان.. وإذا كان العدو قد ذاق على أيدينا لأول مرة مرارة الهزيمة.. مرارة الخسائر المرة الفادحة، فلأن مصر وجدت القائد الذى خطط للمعركة بالعلم والعمل والإيمان».

«وبهذا الإيمان.. وبالأسلوب العلمي.. وبسواعد وتضحيات وجرأة رجالنا.. وبحكمة القيادة.. نحن قادرون على استكمال نصرنا وتأكيده.. وبناء الرخاء الاقتصادى».

(٨)

أما مقدمة المشير أحمد إسماعيل على الكتاب فقد اقتصرت على فقرة بسيطة معبرة بدقة ومتحسبة وحذرة تنبئ عن طبيعة خلق المشير العظيم:

«هذا الكتاب يحكى بأسلوب سهل وبسيط قصة حرب أكتوبر ٧٣ من خلال قيادة كاتبه العميد أ.ح. عادل يسرى.. لقد كان كاتبه قائداً لإحدى الوحدات التى اقتحم بها القناة فى الموجات الأولى».

«فكاتبه عاش معركة الإعداد للمعركة كاملة.. وقاتل فى معارك أكتوبر ٧٣ بشرف وبطولة وفقد ساقه أثناءها».

«ويعتبر هذا الكتاب من أهم المؤلفات العسكرية التى كتبت عن حرب أكتوبر ٧٣ على مستوى أحد أبطالها من قادة الوحدات، تلك الحرب التى صنع الإنسان المصرى أمجادها، والتى تأكد أثناءها أن مساندة الشعب لقواته المسلحة أثناء القتال من أهم أسباب النصر».

(٩)

لابد قبل أن نبدأ فى تناول هذه المذكرات أن نثنى على شجاعة العميد عادل يسرى حين تناول قرب نهاية كتابه أحد الموضوعات الشائكة فى الوجدان الشعبى فى ذلك الوقت، فقد كان شيخ الأزهر (الإمام عبدالحليم محمود) قد حدث الناس أن الملائكة كانوا يقاتلون مع قواتنا فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، وسرعان ما انبرت أقلام ذات توجه معين بالسخرية من الشيخ الجليل، وهكذا كان عادل يسرى نفسه يواجه بسؤال يوجهه الناس للمقاتلين عن رؤيتهم للملائكة فى أثناء الحرب وهو يجيب عن هذا السؤال بقوله:

«سؤال تردد كثيراً أمامنا فى أثناء المعارك وبعدها: هل رأيتم الملائكة؟ هل كانت تقاتل معكم بلباس أبيض؟ أقول بصدق إننى لم أر الملائكة.. وكيف نراها والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وأمدكم بجنود لم تروها ﴾.

«وقد سألت جميع القادة والجنود الذين قاتلوا معى: هل رأوا الملائكة؟ وكانت إجاباتهم جميعاً واحدة «لم نر».

«فى الواقع أن العمل الجدى العلمى، والإيمان بالله وبالوطن وبحقنا الكامل، والإعداد الجيد للمعركة، والتصميم على القتال، كل هذا كان سبيلنا إلى النصر.. وبهذا نجحنا فى تحطيم العدو، ودمر لهم لوائى وحده «لواء النصر» ١٢٠ دبابة!».

❑

ثم يجيب عادل يسرى إجابة ذكية يصور بها الملائكة فى صورة الجنود البواسل الذين حققوا انتصارات مبهرة، ويضرب بهم الأمثلة:

«لكن الملائكة كانوا معنا فى صورة أخرى، كان الملائكة يحاربون معنا فى صورة عبدالعاطى وبيومى، الذين دمروا للعدو أرقاماً خرافية من دباباته ومدرعاته، فى صورة الرجال الذين قاموا بأعمال خارقة، فى صورة العريف عمر من كتيبة حسن الذى دمر فى دقائق دبابة وعربة مدرعة للعدو بسلاح صغير مضاد للدبابات «آر. بى. جيه» ونال نوط الشجاعة العسكرية».

«رأيت الملائكة فى صورة البطل الملازم أول السعودى الذى يقفز فوق الدبابة الإسرائيلية ويفتح فتحة البرج فيقاومه قائد الدبابة فيجذب غطاء فتحة برج الدبابة بيده اليمنى، ويجذب تيلة القنبلة بأسنانه معرضاً نفسه للتدمير، ويدمر طاقم الدبابة بالكامل وينال نوط الجمهورية».

«رأيت الملائكة فى الشهيد بطل نجمة سيناء سعيد خطاب، الذى استشهد مع ٤ ألغام وهو يدمر دبابات للعدو».

«رأيت الملائكة فى شياطين عبدالجابر [يقصد عادل يسرى المدلول اللفظى للشياطين فى اللغة الدراجة حين يطلق هذا اللفظ أو لفظ «العفاريت» على الشباب ذى الحركة السريعة والانجاز غير المتوقع] الذين دمروا الكثير من دبابات العدو.. وجعل قادتهم يصرخون: لا تقتربوا من القناة!».

«رأيت من هؤلاء الملائكة كثيرين.. استشهد منهم من استشهد، وجرح منهم من جرح، وعاد منهم من عاد، هؤلاء هم الملائكة الذين كانوا يحاربون معنا، رجال نفخ الله فى قلوبهم الشجاعة وزرع فيهم الإيمان.. فكانوا للمعركة.. وارتفعوا ببطولاتهم لمستوى الملائكة، لمستوى الصدّيقين والشهداء.. وحسن أولئك رفيقا..!».

(١٠)

هل لنا ـ الآن ـ أن نبدأ حديثنا عن هذه المذكرات باللقطة الشخصية لكاتبها؟ وذلك قبل أن ننقل انطباعاته المؤثرة عن حرب أكتوبر المجيدة وعن الإعداد لها، وعن العمل الذى أداه فى أثناء ما قبل حرب أكتوبر مباشرة وفى حرب الاستنزاف، وقبل أن ننقل بالطبع انطباعاته عن العلاقات العربية وعن العلاقات المصرية ـ السوفيتية.

يصف عادل يسرى رحلة عودته من الجبهة إلى الخطوط الخلفية بعد إصابته فى ساقه فى إحدى المعارك الحاسمة على الجبهة وصفاً يحمل فى طياته ذكرى الإحساس بالأمل، ويتفوق إحساسه بالأمل حتى يكاد يطغى تماماً على إحساسه بالألم، وهو حريص على أن يصور أنه لم يكن يشعر بالضياع على الرغم من أن مرافقيه كانا

يجهلان الطريق، وعلى الرغم من أن المنطقة كلها رملية متشابهة متشابكة، ويطيل عادل يسرى في وصف المسافة مع أنها كما حدد هو ١٩ كيلومتراً شرق القناة، ولكن في مثل هذه الظروف والوقت تبدو المسافة طويلة طويلة، ولكن ليس إلى الحد الذى لجأت إليه المذكرات حين تعود بعد فصول طويلة من الكتاب إلى نفس اللقطة الرئيسية في القصة وهى هذا المنظر، وليس من شك أن الكتاب وحياة صاحبه حافلان بكثير جداً من مواقف البطولة التى تتفوق فى مغزاها وقوتها على هذه اللقطة التى نجدها تفرض نفسها على بدايات فصول كثيرة من هذا الكتاب:

«العربة المدرعة تسرع ليلا..».

«إنها تتحرك من داخل سيناء تجاه الغرب.. تجاه قناة السويس.. من عند النقطة ١٢١ على مسافة ١٩ كيلومتراً شرق القناة».

«داخل العربة ثلاثة أفراد: سائق، ومساعد، وقائد جريح يرقد على الكرسى الخلفى.. ساقه اليمنى تنزف بغزارة.. باقى الساق والقدم موضوعه بجانبه.. وجهه إلى السماء كأنما يعد نجوم الليل».

«وأخذت السيارة المدرعة تطوى أرض سيناء الرملية بأقصى ما تستطيع من سرعة ليلحق السائق بأقرب مستشفى ميدانى».

«ويسأل القائد الراقد الجريح سائق العربة: هل تعرف الطريق؟».

«ويرد السائق بأسى وفى صوته رنة حزن عميق: لا يافندم».

«ويسأل القائد المساعد المرافق: ولا أنت يا عبدالرسول؟».

«ويرد بصوت يائس: ولا أنا يافندم».

«ويقول القائد: إذن امضيا.. وسأدلكما أنا على الطريق».

«ولم يكن هناك طريق.. المنطقة كلها رملية ومتشابهة.. العربة المدرعة بأفرادها الثلاثة تحاول جاهدة السير فوقها».

«ويوجه القائد الجريح السيارة بغريزة كأنها الإلهام.. يمين.. يسار.. إلى الأمام.. وتهتز العربة المدرعة بعنف تبحث عن طريق!!».

«كان كل ما يخشاه السائق والمساعد أن تضل العربة الطريق، أو أن تقع فى كمين للعدو.. وكان هناك شيء آخر يشغل بالهما أكثر.. أن تقوم قواتنا بتدمير العربة المدرعة.. فقد كانت تتحرك من الشرق إلى الغرب، وهو اتجاه تحرك العدو الإسرائيلى».

«وحاول سائق السيارة أن ينسى هذا التصور المزعج.. إن القائد الجريح الراقد على الكرسى الخلفى هو قائد لواء النصر».

(١١)

ثم يصل بنا صاحب هذه المذكرات إلى ذكرياته عن اليوم الذى أصيب فيه، وهو حريص كما سنرى على الفخر بكل ما تحقق على يد القوات المسلحة المصرية فى ذلك اليوم من انتصارات وبصفة خاصة استسلام اللواء الإسرائيلى المدرع ١٩٠ بأكمله:

«ويستعرض القائد الجريح الراقد بسرعة أحداث اليوم، إنها شريط سريع متلاحق ليس فيه لحظة هدوء واحدة.. شريط ساخن كدانات المدافع، وانفجارات القنابل، وارتطام الأسلحة بأجسام الدبابات. وفى هذا اليوم، ومنذ ساعات قليلة، استسلم اللواء الإسرائيلى المدرع ١٩٠ بالكامل، وأسر قائده العقيد عساف ياجورى، وأسر معه العشرات.... من رجال الحرب الإسرائيليين، وترددت على شبكات الاتصال اللاسلكى للعدو هذه الجملة بوضوح: «المصريون كثيرون.. وكأنهم صينيون!»».

❑

ويشير عادل يسرى إلى دوره فى أحداث ذلك اليوم بدءا من انطلاقه إلى مشاهداته إلى إحساسه بمعركة ذلك اليوم، ومروره بنقطة شئون إدارية للعدو تحت الأرض:

«إن القائد الراقد هو قائد لواء النصر، إنه يستعرض أحداث اليوم، وهو راقد على ظهره، فى المقعد الخلفى للعربة المدرعة، وساقه اليمنى مازالت تنزف.. يستعرض

شريط الأحداث القريبة، وتمر أمام عينيه، وكأنما يقصها على نفسه، أو يرويها بلسانه: تركت مركز قيادتي، وتحركت في مركبة القيادة المدرعة لأول مرة، للإشراف على انطلاق لواء النصر للمعركة».

«لم أكن أدرى وقتها أننى أتحرك إلى المعركة التى شرفنى الله فيها بنعمة التضحية من أجل مصر، وأننى سأفقد فى هذه المعركة ساقى اليمنى، إلى الأبد».

«لقد فقدت ساقى، ولكنى كسبت نصراً عزيزاً لمصر العزيزة!».

«وكنت فى أثناء تقدمى فى مركبة القيادة المدرعة، أشاهد دبابات العدو المحترقة وأشاهد دبابات لنا أيضاً أصيبت فى أثناء الاشتباكات».

«كانت معركة هذا اليوم شديدة الضراوة، باسلة، وكانت النيران لا تزال مشتعلة فى معظم الدبابات المحترقة».

«واجتزت أحد المحاور الأسفلتية التى أنشأها العدو من «الطاسة» إلى «بير حبيطة» و«الدفرزوار».. ومررت بنقطة شئون إدارية تحت الأرض، وعند تفتيش ما بها وجدنا مهمات وملابس.. والأغرب من ذلك كميات من الملابس الحريمى الداخلية ذات الألوان الزاهية!».

«كان يهجم معى فى الوقت نفسه اللواء الميكانيكى بقيادة العميد شفيق مترى سدراك، وعلى يسارى وعلى البعد لواء من الفرقة الثانية.. كان التخطيط المعد هو أن نلتقى جميعاً فى خط دفاعى واحد، ونستولى على رأس كوبرى يتم فيه حشد باقى القوات تمهيداً للانطلاق، على حين يتابع الجيش الثالث والفرقة ١٨ المشاة تطوير الهجوم».

(١٢)

ويحكى العميد عادل يسرى كيف كان يضطر إلى أن يترجل حاملاً معه أجهزته اللاسلكية، ومعه جنوده وذلك من أجل أن يكسبوا مواقع أمامية على الرغم من

انقضاض طيران العدو ومدفعيته عليهم من كل ناحية، ومع هذا فإن الروح المعنوية العالية لجنوده تجعلهم يتصرفون ويتحدثون كما لو كانوا يمضون فى نزهة لا فى حرب:

«وفجأة.. تصمت الأجهزة اللاسلكية فى مركبة قيادتى المدرعة، وأستمر فى اندفاعى حتى أصل إلى غرب النقطة ١٢١ على بعد أكثر من ١٦ كيلومتراً شرقى القناة».

«وهناك أترك مركبة القيادة وأترجل.. وأصطحب معى أجهزتى اللاسلكية التى يحملها أفراد مترجلون أيضا».

«الساعة الرابعة مساء يوم ٨ أكتوبر، حقق لواء النصر مهمته فى المعركة مبكراً كعادته».

«وأتقدم مترجلاً مع ضباط مركز قيادتى المتقدم، وأجد الاحتياطى المضاد للدبابات فى موقع غير ملائم، وأترك أحد ضباطى يشرف على تغيير مكانه، وأبدأ فى صعود جبل عال من الكثبان الرملية هو «النقطة ١٢١».

«وفى أثناء تقدمى تنهال الطلقات من حولى، وينقض طيران العدو، ثم يهرب. الموقف صعب وخطير لكننا مستمرون فى تقدمنا، ويسير أمامى ضابطان من القيادة، وأتقدم خلفهما لأسمع حديثهما دون أن يشعرا بى، وأفاجأ بأنهما يتحدثان حديثاً لطيفاً، وكأنهما فى نزهة!».

«طلبت منهما أن ينفذا مهمتهما بسرعة، وكنت سعيداً لارتفاع روحهما المعنوية».

«ووصلنا إلى القمة.. ».

«طلقات مدفعية العدو ودانات دباباته تنهال علينا من كل اتجاه، لكن الرجال يتحركون بسرعة وأصدر أوامرى «مركز الملاحظة يحضر هنا.. وهنا مركز احتياطى الآر.بى.جيه.. مركز ملاحظة إدارة نيران المدفعية يفتح هنا».

«وتتوالى أعمال الأفراد وتحركاتهم فى سرعة، وفى توافق.. إنها ثمرة التدريب والتخطيط الجيد».

(١٣)

ويروى لنا صاحب المذكرات فى لقطات سريعة تفصيلات مهمة عن تحركه من أجل قيادة قواته إلى تحقيق الوضع الذى يمكنها من الهجوم وتلقى الهجمات، ويمكنها أيضاً من التنسيق مع بعضها بسرعة بالغة فى الساعات القليلة المتاحة من نهار أكتوبر، وهو يروى أنه كان يفعل ذلك تحت وابل من دانات العدو تمطره هو ومَنْ معه، وهو يحدثنا كيف استطاع أن يختار لنفسه موقعاً متميزاً يمكنه من الإدارة الجيدة للمعركة، ومع كل هذه المخاطر فإنه شأن كل جندى مخضرم يطمئن نفسه بأنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله:

«اندفعت مع مجموعة صغيرة جداً من رجالى،رجلان فقط، وجهازان لاسلكيان إلى أقصى الأمام لاستطلاع الموقف بنفسى، حتى أعطى قراراتى على الأرض طبقاً للموقف، يجب أن أنظم دفاعاتى،وأنظم خطط نيرانى،وأربط كل هذا بالجار اليمين، والجار اليسار قبل أن يحل الظلام».

«وأمرعلى سرية مشاة المقاتل ثروت، أعدل بسرعة أوضاع الوحدات وأنا متقدم للأمام فى اندفاع».

«وأصل إلى مفرزة «علم» الأمامية..».

«هنا أعلى نقطة، ومن هنا يمكن أن أشاهد الأرض، وتصرفات العدو كلها بوضوح».

«وتزداد طلقات الدبابات من حولى، وتنهال الدانات علينا من كل اتجاه، ولكن الرمال الصفراء تمتصها بسهولة».

«وأتذكر قولنا نحن العسكريين: «لن نصيبنى إلا الطلقة المكتوب عليها اسمى».

❏

ولا ينسى عادل يسرى أن يعبر عن سعادته لتمكن الروح القتالية من نفوس جنوده، وقدرة هؤلاء على تقديم «تقدير موقف» لقادتهم من أمثاله، وهو يروى هذه الواقعة:

«وأرقد علـى الأرض بجوار جنـدى.. ويشعر الجنـدى بسعادة بـالغة عنـدما يرى قائده بجواره، ويسألنى: أشرح لك الموقف يافندم؟».

«وأبتسم له فى اعتزاز.. إنه يعتبرنى والده!».

«ويشرح الأوضاع بهـدوء: أمامنا سريتان للدبابـات تقومان بالضرب علينـا بنيران شديدة الانفـجار، وهذه طلقاتهـا تسقط حولنا، ويـلتف العدو بحوالـى ٦ دبابات من الجانب اليـمين، وحـوالى ١٠ دبابات من الجـانب اليســار، وباقى دبابـات اللواء ٦٠٠ الإسرائيلى المدرع تهجم على كتيبة بشر».

«تركت الجـندى فى موقـعه وأنا سعيـد.. وعدت إلى مركـز ملاحظتـى للإشراف على معركة تدمير دبابات العدو الملتفة والمخترقة».

(١٤)

ثم يروى عادل يسرى كيف أنه كان حريصاً علـى التحرك لإنقاذ احتياطى الدبابات التابع له وتحـريك هذا الاحتياطى لملاقاة العـدو بالصورة الصحيحة، وهـو يعترف فى ثقة بـالنفس أن دبـابات العدو نجحـت فى الالتفـاف من اليميـن ومن اليســار قبل أن ينجح هو وقواته فى تنظيم الدفاعات، ومع هذا فإن التدريب الذى تلقوه ـ هو وقواته ـ كان قـد هيأهم لمـلاقاة الدبـابات بأنفـسهم إذا لـم يتمـكنوا من مـلاقاتهـا بدباباتـهم ومدرعاتهم:

«ناديت باللاسلكى على احتياطى دباباتـى، الاتصـال مقطوع، لكنه ليس بعيداً علىّ، ومكانه غير سليم، كان لابد أن أتحرك إليه،لأن دبابات العدو ستلتف من خلفه».

«وفى أثناء تحركى قابلت المقاتل «علم» قائد كتيبة اليمين، كان قد فقد شهيدين فى أثناء تقدمه من خيرة ضباطه، لكنه كان متـماسكاً، احتضننى وأقسم لى: لن نترك شبراً واحدا من الأرض حررناه بدمائنا!».

«وأستمر فى تقدمى تجاه احتياطى دباباتى».

«وأسمع المقاتل الورداني من المدفعية يصرخ: طلقات دبابات العدو حولك يافندم، تعال في هذه الحفرة، قصفة نيران كتيبتي بدأت على دبابات العدو».

«وأرد عليه: استمر ياورداني».

«ويستمر هو، وأستمر أنا في تقدمي، وطلقات الدبابات تنهال حولي، لن أهدأ حتى أحرك احتياطي دباباتي لمواجهة دبابات العدو بصورة صحيحة».

«وأصل إلى أول دبابة في الاحتياطي، وتبدأ في العمل، وأستمر في مروري على الأطقم لتشجيعها وسط الضرب».

«ولكن تنجح دبابات العدو في الالتفاف من اليمين ومن اليسار قبل أن ننظم دفاعاتنا، قبل أن نحفر ...... فالمعركة لم تكن أبداً سهلة برغم المفاجأة التي حققتها قواتنا».

«وهنا تظهر أهمية التدريب وأهمية التخطيط، لقد غرست عقيدة في جنودي: إن دبابات العدو المخترقة هي بمثابة وجبة دسمة لرجال جائعين، إذا كان دفاعنا بعمق!».

❑

وبعد فترة ليست بالطويلة فإن عادل يسري يصل إلى موضع تمركز احتياطي الدبابات الذي كان يبحث عنه من أجل تنظيمه ووضعه في الموضع المؤثر على سير المعركة، ولكنه في أثناء هذا يسمع رعداً وبرقاً ثم يفيق ليجد نفسه وقد فقد ساقه:

«وتصاب دبابات العدو.. ويتوالى احتراقها».

«ولا أهدأ.. أستمر في اندفاعي إلى احتياطي دباباتي».

«وفجأة أسمع صوت انفجار عنيف، وأرى للحظات ضوءاً مبهراً».

«ثم أقع على الأرض وسط عاصفة ترابية عنيفة».

«لحظات، لحظات خاطفة كالوميض، ثم أمد يدي إلى ساقي اليمنى فلا أجدها، لقد طارت، أصابتني طلقة دبابة كاملة لاختراق الدروع، طلقة لا شظايا لها تسمى «سابو».

«كنت قد خلعت «جاكت شدة القتال» عندما ركبت العربة المدرعة للقيادة، ففتحة

العـربة الصغـيرة لم تسـمح بدخول شـدة القتـال معى، وكان غـطاء رأسى «هلـمت اللاسلكى»، الكاوتش الرقيق».

(١٥)

وفى جسارة شـديدة يروى عادل يسرى مـا علق بذهنه مـن ذكريات تلك اللـحظة التى أنـزل فيها اللـه عليه سكـينته، وقـد أخذ يتحسـب لما هو أشد من هـذا أثراً لو أن العدو عاود الضرب والهجوم:

«لم يكـن معى أو حولـى سوى الرمال، بـسرعة تنـاولـت حفنـة من الرمال بـيدى، وكتمت بها النزيف، ثم حفنة أخرى لوقف الدم ».

«وانتابنـى هدوء غريب كأنه السـكينة على قـلبى، وصفت الرؤية أمـامى وأنا راقد على الأرض، ثم فكرت ماذا يحدث لو أن دبابة العدو التى ضربتنى ميزت أننى قائد، ستضرب بلاشك مرة أخرى، إذن لابد أن أواجه الموقف بسرعة، ولكن كيف؟».

«إننى أرقد علـى أعلى الميل الخلفى لجبـل رملى، فتدحرجت حوالـى ٢٠ متراً، هنا شاهدنـى رجالى، وهرع إلى بـسرعة بعض الـضباط والجنود، وطـقم الدبابة الـقريب منى، وسمعت مكرم سائق الدبابة يصيح: سيادة القائد عادل».

«وصرخت فى الجميع: «ماحدش يقف جنبى، اللى بيحبنى ياخد بتارى!».

«ولم أدر كيف تصرفت فـى هذه الحالة، ولكنهم قالوا لى بعـد ذلك إننى هددتهم بمسدسى! ورقدت على الرمال».

«وكلمـا زاد نزف الدماء، أخـذت حفنات الـرمال لأوقف النـزيف، حتى أصـبح الجرح كومة متجمدة من الدماء والرمال.. وكـان على قرب منى يرقد عمال الأجهزة اللاسلكية المترجلون فى انتظار أوامرى».

«ولكن فـى موقف مثل هذا لا تـصدر أوامر، كل فرد ينـفذ ما تدرب عليـه، الكل يتحرك فى إصرار لقتل وتدمير العدو».

وما هـى إلا لحظات ونجد هـذا البطـل المصاب بهـذه الإصابة الخـطيرة وقد شـفى غليله من عدوه، وهـو يرى كل واحد من جنوده يفخر بأنه أصـاب الدبابة وهو يقول: كلهم صادقون، فقد دمرت الدبابة بأكثر من سلاح:

«ومرت على بعد خطوات منى دبابة «باتون» إسـرائيلية تسير بسرعة فى ذعر، فى خط متعـرج، وشاهدتها وأنا راقد تطـلق نيرانها، ونيران قـواتى تلاحقها.. ثم تصـيبها طلقة من قاذف مشاة، وتأتى الطلقة فى قاعدة المدفع فينثنى».

«وتستمر فى سرعتها الجنونية وهى تـطلق الرشاشات، ويصيبها صاروخ، وطلقات مضادة للدبابات، وتتوقف، وتبدأ فى الانفجار».

«وأسمـع أصوات المقاتـلين من حـولى، رجالى، كـل واحد يقول: لـقد أصبتـها.. وكلهم صادقـون، كلهم أصابوها، لقد دمـرت الدبابة بأكثر من سـلاح، ولم ينج أحد من طاقمها».

«استمر الدم يسيل من ساقى اليمنى بغزارة».

«ورفعت رأسى للسماء أشكر الله أن حقق لى نعمة التضحية من أجل مصر..».

«وسرحت لحظات فى أشياء كثيرة ومختلفة».

(١٦)

ولا يمل عـادل يسرى من تكـرار الحديث عما أضـافته حربنـا المجيدة إلى مفـاهيم العسـكرية فى الـعالم كله مـن إمكان انتـصار الرجل علـى الدبابة، وهـو يروى ـ فى عجالـة ـ كيف كان يشاهـد تدمير دبابـات العدو على أيـدى أفراد مدربين يتـصرفون بتلقائية وشجاعة:

«وتستمر معركة تدمير دبابات العدو..».

«وتحققت العقيدة التى غرسناها فى قلوب الرجال: «إن دبابات العدو المخترقة هى بمثابة لقمة سائغة لرجال جائعين..».

«وأشهد المعركة وأنا راقد على قمة الميل الخلفى للنقطة ١٢١، وأكتفى بمشاهدة رجال يثأرون لى.. يثأرون لقواتنا.. لمصر كلها!».

«وتتوالى الانفجارات من حولى.. مدفعية، طيران، نيران دبابات، وكان أعظم سلاح فى المعركة هو الإنسان نفسه، المقاتل، الفرد الذى يتصرف ذاتياً دون أى أوامر، وعن اقتناع».

❑

ثم ها نحن نفاجأ بما لا نكاد نصدقه، لقد بقى هذا القائد بإصابته هذه إلى مغيب الشمس حيث انتهت معركة تدمير الدبابات، وقد وصل لواء هذا القائد إلى أكبر عمق فى الجيش الثانى، وبعدها بدأ جنوده يبحثون عن طبيب، وعن عربة مدرعة تنقله من الميدان (بالتعبير العسكرى: لتخليه)، ونحن نرى هذا القائد حريصاً على أن يروى لنا أنه فى هذه اللحظات الحالكة كان حريصاً تماماً على الروح المعنوية، وأنه طلب إلى مساعديه ألا يعلنوا خبر إصابته حتى لا يفت مثل هذا الخبر فى الروح المعنوية لجنوده، وظنى أن مثل هذا الخبر كان يرفع الروح المعنوية إلى السماء، ومع هذا فلست أستطيع أن أجزم، وأنا الذى لم أنل حتى هذه اللحظة شرف ومجد هذه اللحظات:

«ومع مغيب الشمس تنتهى معركة تدمير الدبابات».

«ويهرع إلىّ جنودى، رجالى، أبطال لواء النصر.. ويسألوننى: أين كنت؟».

«وأرد على لهفتهم: هل كنتم تريدون أن أتوقف، أو أدخل حفرة تاركاً العدو يركب القمم العالية، ويتحكم فينا؟ لا، لقد ركبنا القمم، حققنا أكبر عمق فى الجيش الثانى!».

«أخذوا يبحثون عن طبيب، ويضمدون جراح ساقى المبتورة برباط الميدان فوق كومة الرمال والدماء».

«الجرح تلوث.. غير مهم!».

«ويحضرون عربة مدرعة لإخلائى، ويلتف حولى خليط من مركز ملاحظتى من قادة وجنود، جميعهم متأثرون، وأنا متماسك».

«وأصدرت تعليمات قتالى الأخيرة، لا تعلنوا خبر إصابتى، حتى لايؤثر ذلك فى معنويات رجالى، أخطروا عبدالبارى للحضور لتولى القيادة بدلاً منى».

«وأصدرت تعليمات تنظيم الدفاع، بتربيط القوات مع الجار الأيمن، والجار الأيسر، وكذلك تعليمات إلى قائد كتيبة الدبابات».

(١٧)

على هذا النحو يصور صاحب المذكرات ـ وهو صادق ـ نفسه، وكيف استطاع أن يتماسك بعد إصابته، وكيف كان واعياً لما ينبغى عليه أن يفعل فى هذه اللحظات حتى تستمر مسيرة النصر بأقرانه وزملائه من بعده.

❑

ونصل مع ما يرويه صاحب هذه المذكرات إلى لحظة مؤثرة يروى فيها كيف ذهب أحد زملائه وهو المقدم مدحت يبحث عن ساقه حتى أحضرها من حيث طارت، وتكاد نفوسنا تنفطر وهى ترى هذه الصورة الرائعة لهذه التضحيات التى ضحى بها أبطالنا وشهداؤنا دون أن يحسبوا حساباً لحياتهم، وهم يفعلون هذا من أجل ما أكرمنا الله به من نصر مؤزر:

«وأنظر فى وجوه رجالى، أرى وجهاً غائباً، وأصيح فيهم وأنا راقد: أين المقدم مدحت؟».

«ويردون: إنه يبحث مع بعض الجنود عن شىء وسط الرمال، يبحثون قبل أن يحل الظلام تماماً.. فى ضوء القمر».

«أخيراً يعود المقدم مدحت وقد عثر على ما يبحث عنه، يعود ومعه ساقى اليمنى التى طارت، يحضرها بحذائها».

«ويضعها فى السيارة المدرعة التى سأتحرك بها.. لقد ظنوا أن الأطباء يمكنهم إعادة ساقى إلى مكانها مرة أخرى!!».

«وتبدأ مـرحلة العـودة ليلاً، رحلة الـبحث عن الـطريق، والبحـث عن مستـشفى ميدانى، وأرى مجموعة تندفع من ضباطى لمرافقتى».

«وأصرخ فيهم: لا.. يكفى سائق العربة والمساعد عبدالرسول».

«وتمضى العربة ليلاً».

(١٨)

سنـترك عادل يـسرى الآن فى طـريقه إلـى المستـشفى وإلـى أن يبدأ لـيروى حيـاته العسكرية منذ بـداية ١٩٦٨ حيث اختار أن يبدأها من هذا التوقيـت بالذات، وسنقفز الآن إلى وسط هذه المذكرات وهـو يتحدث بفخر وثقة عن بدء الإعـداد والتخطيط لمعـركة ٦ أكتـوبر المجيـدة، ونحن نـرى صاحب هـذه المذكرات وهـو أشد ما يـكون حرصـاً على أن يروى لـنا بوضوح أنـه كان حريصـاً على إعداد نـفسه الإعداد الجـيد كقائد مـتميز، وهو يروى ـ على سبيل المثال، وأمثلته كثيرة ـ كيف أنه فـى هذه السن المتقدمـة قد بدأ يتعلـم قيادة الموتوسيكـلات من أجل الإسراع إلى الوصـول فى لحظة العبور، دون أن يضع فى حسبانه نظرة المحيطين إليه حين يرونه وهو يفعل هذا:

«من ضـمن إعـدادى للمـعركـة كان إعدادى لـنفـسى، كـان علىّ أن أعـد نفـسى كجندى وأعد نفسـى كقائد.. ومن الطريف أننى فكرت أنه عنـد عبورى مترجلاً فإن حركتـى ستكون بطيـئة لو تطلب الأمـر ذهابى مترجلاً إلـى وحدة ما بسرعة فـى أثناء المعركة، فـفكرت فى رفع موتـوسيكلات على القـوارب المطاطة وسلالم الحـبال مثل الأسلحة. أجريت تجـارب فى مناطق التدريب فنجحـت المحاولة، وبدأت فى ركوب الموتوسيكلات فى الأراضى الوعرة وأنا قائد لواء، وعمرى يقرب من الأربعين سنة.. طبعاً تدريبى كان فـى وسط المدنيين والعسكريين، ونظر النـاس إلىّ وقالوا قائد اللواء اتجنن!! جاى بعـد كبر يتعلم ركـوب الموتوسيكلات ويقع ويـتشقلب ويتبـهدل على الأرض الوعرة.. ولكنى لم أقل لأحد لماذا أتعلم».

على هذا النحو كان هذا القائد يعنى بتدريب نفسه، ولست فى حاجة إلى أن أذكر بأهمية مثل هذا التدريب لكل قائد، ولكن اللفظ نفسه: تدريب النفس، يذكرنى بشدة باستخدام الفريق صلاح الدين الحديدى له فى حديثه عن القائد العام فى حرب ١٩٦٧ وكيف أنه لم يعن بتدريب نفسه، وقد عرضنا لهذه الفكرة بالتفصيل فى الباب الرابع من كتابنا «الطريق إلى النكسة». ونحن لا نتذكر هذا لمجرد التذكر، ولكن لنتأكد من أن الروح التى تعامل بها القادة المسئولون مع أنفسهم ومسئولياتهم قد تغيرت تماماً فى هذه الحرب، ولهذا تغيرت نتائجها أيضاً بفضل الله وتوفيقه .

(١٩)

ويذكرنا صاحب هذا الكتاب بمبدأ من مبادئ القيادة، وهو قدرة القائد على أداء وظيفة كل مرءوسيه بكفاءة بالإضافة إلى وظيفته الأصلية فى القيادة والتدريب والتخطيط وإدارة المعركة:

«ولابد للقائد أن يضرب ناراً بجميع أسلحة وحدته.. يقود أى دبابة أو معدة موجودة عنده.. وأن يكون ملماً بجميع النواحى الإدارية.. والفنية بالإضافة إلى الأصل وهو تدريب وحداته ووضع الخطط وإدارة المعركة».

❑

كما يتناول عادل يسرى فى هذه المذكرات نقطة تناولها الفريق يوسف عفيفى أيضاً فى مذكراته (التى تناولناها فى الباب الرابع من هذا الكتاب) وهى قدرة قواتنا على القتال الليلى، وهو يذكر أن قواتنا كانت قد تدربت على هذا القتال قبل حرب أكتوبر بشهور معدودة، وأن تسليح الدبابات بجهاز الزينون Zenon كان متاحاً للإسرائيليين والمصريين على حد سواء:

«قبل حرب أكتوبر لم تكن قواتنا المسلحة مستعدة للقتال الليلى،وكان معروفاً للجانب الإسرائيلى أن الجيش المصرى «بيحارب بالنهار ويقفل بالليل»، لكن قبل الهجوم بشهور قلائل زودنا بأجهزة حديثة غربية للرؤية الليلية، لكن عددها كان

محدوداً نظراً لارتفاع أثمانها، ومع هذا تسلحت كل دبابة عندى بجهاز إنجليزى اسمه «الزينون».. والطريف أننا فوجئنا بالأجهزة نفسها على الدبابات الإسرائيلية التى استولينا عليها فى اليوم الأول للهجوم».

«بالإضافة إلى هذا تغلبنا على النقص فى وسائل الإضاءة بمبتكرات لنا خصوصاً بالنسبة للأسلحة المضادة للدبابات».

(٢٠)

ويولى صاحب المذكرات أهمية قصوى للحديث عن كثير من الأعمال الهندسية التى شهدها تنفذ على الضفة الغربية للقناة فى دأب وجدية من أجل إنجاح العبور والمعركة، وهو يتذكر ـ على سبيل المثال ـ سعادته بهذه المصاطب التى رآها عالية بعد عبوره إلى الشرق وتقدمه فى سيناء، وهو يقدم بعض معلومات تفصيلية عن هذه التجهيزات الرائعة التى استنفدت أموالاً طائلة وجهوداً مستميتة، لكنها كانت فى واقع الأمر أساسية جداً من أجل تحقيق النصر الذى هيأه الله لنا:

«ونتيجة لنشاط العدو الهندسى فى إعداد خط بارليف، أصبحت الضفة الشرقية أعلى من الضفة الغربية، لكن بواسطة أعمال هندسية جبارة لشركاتنا المدنية تم بناء مصاطب فى السنة السابقة للهجوم، ولم تكن مصاطب بل كانت أهرامات، بلغ حجم الأمتار المكعبة فيها من ٥٠ ألف متر مكعب إلى ٢٠٠ ألف متر مكعب، ووصلت تكاليفها الإجمالية فى قطاع الجيش الثانى وحده أكثر من عشرين مليون جنيه».

«وقد استمر العمل فيها حتى اليوم السابق للهجوم. وأذكر أنه بعد الهجوم ووصولى إلى مسافة حوالى ١٨ كيلومترا شرقى القناة أننى نظرت خلفى فوجدت المصاطب التى أقمناها شامخة تعلو فعلاً الضفة الغربية للقناة».

«هذا الجهد الهندسى ، جهد ضخم وتكلف أموالاً ضخمة ومجهوداً مستمراً، لأن الوحدة تجهز موقعها فى شهور وتنتهى منه، ثم تقوم زوبعة رملية تردم كل الأعمال التى تمت خلال الشهر الماضى.. وتبدأ الوحدة فى إنشائها من جديد».

«وكانت «شكاير» الرمل مشكلة.. نحفر ثم نملؤها بالرمال وبعد فترة تتراوح من ٣ إلى ٦ أشهر تبلى الشكاير وتنساب منها الرمال.. ونضطر إلى بناء موقع جديد.. كل هذا يشكل تكاليف على الدولة، وعبئاً على الوحدات».

«وأحب أن أقول إن عملية التجهيز الهندسى استمرت باستمرار الإعداد للمعركة».

(٢١)

وينتقل عادل يسرى من هذا الوصف اللغوى المعبر إلى الوصف الرقمى الأكثر تعبيراً ليقدم بعض الأرقام التى تصور لنا اليوم حجم الإنجازات التى تمت منذ أكثر من ربع قرن على طول الجبهة المصرية:

« وهذه بعض الأرقام أقدمها للقارئ على سبيل المثال لأحد الجيشين:

« تم إنشاء ٥٢ مصطبة بارتفاع من ١٥ إلى ٢٠ متراً، بالإضافة إلى عشرة كيلومترات ساتر ترابى أعلى من العدو تم خلالها تشكيل حوالى ٨ ملايين متر مكعب.. وتكلفت ٤ ملايين جنيه».

« بناء حوالى ٢٠ مليون طوبة حمراء لتكسى بها المواقع والمرابض».

« استخدام حوالى ٣٠ مليون شيكارة ثمنها حوالى ٥ ملايين جنيه».

« عمل ٣٠ ساحة إسقاط و٦٠ منزلاً للعربات البرمائية ثمنها مليون جنيه».

ويردف صاحب هذه المذكرات هذه الأرقام بقوله :

« تكاليف إنشاء المنطقة الابتدائية للهجوم وشبكة الدفاع والخداع وصلت إلى ١٥ مليون جنيه».

« وجميع هذه الأعمال تمت فى الشهور السابقة للهجوم فقط».

ويولى عادل يسرى أهمية شديدة للحديث عن تفصيلات التجهيز الهندسى بمعناه الواسع منخذا مما تم فى لوائه نموذجاً لبيان القدرات الرائعة فى قواتنا المسلحة:

«وفى لواء النصر تم التجهيز الهندسى على مراحل امتدت شهوراً فى المواجهة الضيقة بما يكفى اللواء بكامله وجميع وحدات الدعم التى ستصله.. بالإضافة إلى التجهيز الهندسى لوحدات أخرى منها الموجودة بالجبهة، والموجودة فى القاهرة وتصل فى توقيت معين.. مع الاستمرار فى التدريب لاقتحام القناة.. والهجوم».

«فمثلاً كان عندى فى الدفاع كتيبتان للمدفعية فى المواجهة الواسعة ولكن فى الهجوم، كان معى ٦ كتائب مدفعية فى المواجهة الضيقة، ومعنى هذا إنشاء مرابض مدفعية ومراكز ملاحظات تساوى ٦ أضعاف الموجود فعلاً».

«كما تم مد خطوط مواصلات تليفونية لنقط الملاحظات المتعددة وعمل شبكة مواصلات جديدة».

(٢٢)

ويتحدث عادل يسرى بفخر شديد عن تضافر جهود المهندسين ومعداتهم من أجل الإعداد للعبور فيقول:

«وكانت وحدات المهندسين المخصصة لإنشاء الكبارى أو عمل المعديات والمعدات البرمائية هى آخر ما انضم إلى الفرقة واللواء، وقد وصلت هذه المعدات بعد خطة خداع وتحركات تمويه استمرت لفترة طويلة، فقد كانت عيون العدو ترقبها، لقد كانوا يعلمون ومتأكدين أنه بدونها لا حرب!».

❑

ويقدم عادل يسرى بعض المعلومات التفصيلية عن هذه المعدات الهندسية الحيوية:

«وقد وصل منها كبارى حمولة ٦٠ طناً وحمولة ٥٠ طناً ويمكن تجزئتها لتعمل فى صورة معديات منفصلة».

«كما وصلت مركبات برمائية من أنواع متعددة، ووصلت فصائل المهندسين العسكريين المدربين على فتح الثغرات فى السواتر الترابية الضخمة، وكل فصيلة يمكنها فتح ثغرة فى الساتر الترابى فى زمن يتراوح من ٣ إلى ٥ ساعات وتكون الثغرة ممهدة.. ومستعدة لاستقبال العربات وعبورها بعد زمن من ٦ إلى ٨ ساعات وتعمل بطريقتين:

(أ) المضخات النفاثة وهى أفضل وسيلة.

(ب) التفجيرات المتتالية من أعلى إلى أسفل».

❏

كما يروى صاحب هذه المذكرات بعض التفصيلات المتعلقة بتوزيع وسائل العبور قبيل المعركة:

«وآخر ما تم صرفه كان هو قوارب الاقتحام، المطاط والخشب، وهى ذات ثلاث حمولات وتم صرفها ليلاً فى صناديق خشبية، وتمت عملية التوزيع للكتائب ليلة الهجوم فقط، ودخل كل قارب إلى حفرة سبق تجهيزها ثم غُطى القارب لإخفائه ولم يخرج من الحفرة إلا فى توقيت محسوب لكل قارب على حدة، فالدقائق محسوبة طبقاً لعدد الخطوات بين القارب والقناة والوقت اللازم لقطع هذه الخطوات بحيث تكون جميع القوارب فى القناة فى وقت واحد».

«بجوار كل قارب تم تكديس معداته المخبأة، بالإضافة إلى إمكان استخدام عناصر اللواء المترجلة لمركبات المهندسين البرمائية الأخرى حتى يتم فتح الثغرات فى الساتر الترابى.. وبالتالى عمل المعديات والكبارى».

«وللسيطرة على تدفق دباباتنا وعرباتنا إلى الضفة الشرقية للقناة تم تنظيم هذه المعدات فى نقط عبور سرايا وكتائب مشاة مترجلة».

(٢٣)

ونأتى إلى حديث العميد عادل يسرى عن المعركة، والحديث عن المعركة لا

يستقيم عنده دون أن يرجع بذاكرته إلى الإعداد الجيد والتخطيط المستمر والدقيق لها، وهو يصف التخطيط للمعركة بثلاث صفات أساسية، فضلاً عن التسلسل الهرمى الذى تم فى توقيتات محددة وذكية:

«تميز التخطيط للمعركة بالجدية.. الكفاءة.. السرية المطلقة مع تسلسله فى توقيت زمنى لكل مستوى».

«بدأ من مستوى القمة، من عند الرئيس أنور السادات مع الرئيس حافظ الأسد.. والمشير أحمد إسماعيل بالنسبة للقرار السياسى.. والقرار الاستراتيجى، ولفترة زمنية لم يكن غيرهم يعلم هذا القرار».

«تدرج التخطيط بعد ذلك من مستوى هيئة عمليات القوات المسلحة.. ثم قادة الجيوش.. ثم قادة الفرق.. ثم قادة اللواءات.. كل فى توقيت محسوب. عندما وصل التخطيط إلى مستوى اللواء.. ألم به فقط قائد اللواء شخصياً».

ويعطينا صاحب المذكرات صورة معبرة عن بعض جوانب التخطيط الإدارى والفنى للمعركة المجيدة التى رزقنا الله فيها بالنصر، فيروى كيف أمكن تكديس كميات خرافية (هذا هو تعبيره وهو يقصد بالطبع: كميات خيالية) من كل المهمات المتوقع استهلاكها طبقاً لمعدلات استهلاك تم حسابها بطرق دقيقة جداً، ولربما تروعنا الأرقام الضخمة التى يوردها صاحب المذكرات كنموذج على الاستهلاك الفظيع الذى كانت القوات المسلحة تستهلكه، ولكن هذا هو فى الواقع جزء بسيط من الحقيقة:

«كان تخطيطاً ضخماً.. ناجحاً، وتم فيه تكديس كميات خرافية [يقصد كما قلنا: خيالية] من الذخيرة، مثل التعيينات والمياه والوقود.. وجميع أنواع المهمات، بحيث إن كل وحدة كان عندها مستوى الاكتفاء الذاتى طبقاً لمعدل استهلاك تم حسابه بطرق دقيقة طبقاً لخبرات القتال السابقة».

«وأضرب مثالين صغيرين:

(أ) على المستوى الصغير.. مستوى كتيبة صواريخ أرض ـ أرض؛ كانت معى.. وجدت أن الوحدة النارية لها تحتاج إلى ٥٧ لورياً كبيراً وتستهلكه فى ٥ دقائق».

(ب) على مستوى الجيش وجدنا أن الجيش يحتاج كل يوم بعد اقتحام القناة للإمداد الإدارى ما حمولته ألف عربة لورى كبيرة، ولو عبر الألف لورى على جسرين لاحتاجوا إلى زمن قدره ٧ أو ٨ ساعات متصلة للعبور فى اتجاه واحد، ومثل هذا الوقت فى العودة».

هذان إذن نموذجان معبران أبلغ التعبير عن مدى الإنجاز المذهل الذى تحقق فى ٦ أكتوبر المجيد، ولكن قوماً منا لا يزالون يظنون أن الأمر كان أسهل من هذا بكثير، وهم قد لا يدرون أن النار التى تطلقها كتيبة واحدة فى دقائق تحتاج إلى ٥٧ لوريا كبيرا، وأن الإمداد الإدارى بمفرده كان فى حاجة إلى ألف لورى كل يوم تذهب ثم تعود، فما بالنا إذا توقف لورى واحد لسبب أو آخر على أحد المعابر أو فى طريق من الطرق غير الممهدة جيداً.

(٢٤)

ولا يبخل علينا صاحب هذه المذكرات ببعض تفصيلات خطة الحرب، وهو يقدم بعض التفصيلات الكفيلة بأن تطلعنا على خطوطها العامة، وسنرى أن كلمات بسيطة مثل «رأس الجسر» تعنى ماهو أضخم بكثير جدا من معناها اللغوى البادى لنا فى أول قراءة، وإنما هى تعنى نصف دائرة يصل نصف قطرها إلى سبعة أو ثمانية كيلومترات، ولنا أن نتصور مدى الصعوبة فى تنظيم تحرك خمس فرق كاملة من المشاة الذين هيأ الله لخطواتهم الانضباط والتوفيق حتى بدأ النصر يتحقق وهم يعبرون القناة تحت ستار لا من مظلات (ثابتة أو متحركة) وإنما من نيران حامية تطلقها الطائرات والصواريخ والمدفعية وكل أسلحة الضرب، ويمهدون بانتقالهم من الغرب إلى الشرق الطريق لإخوانهم، كى يصلوا إلى هناك ويبدأوا عملاً أكثر مشقة وجهدا:

«ووضعت الخطة العامة على أساس أن يقتحم الجيش الثانى والجيش الثالث الميدانيان قناة السويس بمجموعات خمس فرق مشاة مترجلة تحت ستار نيران الطيران

ووسائل الدفاع الجوى والمدفعية وأسلحة الضرب ضد الدبابات، ويستولون على خمس رءوس جسور فرق، ورأس الجسر معناه عمل نصف دائرة قاعدتها قناة السويس ولعمق يصل من ٧ إلى ٨ كيلومترات، وتتحول الفرق إلى الدفاع المؤقت في وقفة نسميها «وقفة تكتيكية» لمدة من يوم واحد إلى يومين».

❑

وبينما طلائع العبور تقف وقفتها التكتيكية بعد عبورها تهيئ السبل لرءوس الجسور فإن وحدات أخرى تتولى مهام أخرى تهيئ لبقية القوات بكل مالها من مدفعية ومدرعات وأسلحة ثقيلة أن تعبر إلى الشرق، وفي ذات الوقت فإنها تتولى مهام قتالية صعبة تقاتل فيها طيران العدو ودباباته وعرباته المجنزرة:

«وتحت ستار هذه الأعمال القتالية تقوم وحدات المهندسين بفتح الثغرات في السواتر الترابية في الضفة الشرقية لفتح المخارج (المطالع).. ثم تعبر دباباتنا ومدفعياتنا والأسلحة الثقيلة والإمداد على المعديات والكبارى إلى الضفة الشرقية.. وكان بدء العمل المنتظر للمعديات والكبارى يبدأ بعد حوالى ٦ إلى ٨ ساعات، وخلال هذه «الوقفة التكتيكية» يتم تدمير جزء من طيران العدو وصد وتدمير دبابات وعربات العدو المجنزرة المكونة لاحتياطاته المحلية، والتكتيكية، والتعبوية القريبة.. وكانت تقدر من ٣ إلى ٤ ألوية مدرعة ومشاة، أى حوالى ٣٠٠ إلى ٤٠٠ دبابة ومجنزرة معادية ».

(٢٥)

ولا يقف الأمر عند عبور القناة فحسب بكل ما فى هذا العبور من صعوبة ومعاناة، وإنما هناك مانع آخر لابد من عبوره بالتحطيم أو الاقتحام وهو خط بارليف:

«بالإضافة لهذا يتم فى الوقت نفسه اقتحام نقط خط بارليف الحصينة المتمركزة على القناة مباشرة، ومنع انسحابها أو إمدادها».

«ومع استكمال فرق المشاة لدباباتها ومدفعياتها ومعداتها الثقيلة تبدأ تطوير الهجوم لزيادة العمق والوصول إلى مسافة ١٥ إلى ١٦ كيلومترا من القناة مع ربط هذه الرءوس داخل كل جيش لعمل رأس جسر موحد، ويتم على مستوى الجيش الثالث بفرقتى مشاة ٧ و١٩، وعلى مستوى الجيش الثانى بثلاث فرق مشاة ١٦ و٢ و١٨.. بعد ذلك تدفع الفرق الميكانيكية والفرق المدرعة إلى رءوس الجسور لتطوير العمليات فى اتجاه المضايق أو أى اتجاه آخر طبقاً للموقف».

❑

وينتقل عادل يسرى بعد هذا الحديث عن الخطة العامة إلى حديث أكثر تفصيلا [فى الحدود العسكرية والأمنية المسموح بها] فيما يتعلق بالفرقة التى كان ينتمى إليها وهى الفرقة ١٦ المشاة التى تنتمى إلى الجيش الثانى، وهو يذكر أنه استطاع إقناع قادته [قائد الفرقة وقائد الجيش] بفكرة ذكية قوامها استغلال البرمائيات مع الدبابات فى العبور المبكر، وسنرى أن قادته ـ على ما يرويه هو ـ قد حولوا فكرته إلى حقيقة منظمة بل وشكلوا كتيبة متميزة، ووضعوها تحت قيادته هو نفسه (وكان كما نعرف قائد لواء تتبعه كتائب)، ولكن صاحب المذكرات للأسف الشديد يبخل علينا بذكر الاسم الكامل للمقاتل الباسل العظيم فراج الذى يأتى ذكر اسمه منقوصاً هكذا كثيراً فى مذكرات هذا البطل.

وسوف نسجد لله شكراً ونحن نرى هذه الكتيبة العبقرية وقد عبرت بنجاح وبسرعة إلى الشرق وظلت لفترة زمنية طويلة بحساب زمن الحروب بمثابة الجنزير الوحيد الذى يملكه جيشنا الثانى على الضفة الشرقية!

(٢٦)

وعلى الرغم من جسارة صاحب المذكرات المعروفة عنه فيما يصور به نفسه إلا أن قائد الجيش وقائد الفرقة كانا حريصين على أن ينبها عليه ألا يستخدم الكتيبة إلا طبقاً للخطة الموضوعة!

وعلى الرغم من هذا النجاح المحسوب فإنى أخشى أن يظن القارئ أنه كان بإمكان هذه الكتيبة أن تنطلق من فورها لتعبر الممرات على نحو ما يتصور بعض الذين لم يدركوا بعد عظمة ما تحقق فى ٦ أكتوبر وهم يظنون أن هذه الحرب المجيدة الصعبة القاسية كانت تحركاً بمركبات جاهزة فحسب، فالطريق مفتوح يرحب بهم، وهم لا يدرون مدى المعاناة التى كان على جنودنا أن يبذلوها من أجل الاستيلاء على كل سنتيمتر مربع واحد، ولولا التدريب القاسى الذى خاضوه، ولولا إيمانهم، ولولا توفيق الله سبحانه وتعالى ما أمكن لنا أن نعبر ولا أن نبقى أحياء بعد عبورنا ولا أن نتحرك فى اتجاه الشرق ولا فى اتجاه الغرب، وقد كان المخطط لجيشنا أن يحترق عن أكمله بالنابالم ولا يمكن لأفراده إلا أن يلقوا بأنفسهم فى مياه القناة وهم يحترقون:

«الفرقة ١٦ مشاة من الجيش الثانى بقيادة العميد أ. ح. عبد رب النبى حافظ ومعه أسلحة دعمه كانت تهاجم على الحد اليمين للجيش الثانى مع وجود ثغرة بينها وبين الجيش الثالث بطول البحيرات المرة حوالى ٦٠ كيلومترا.. وكانت مهمة الفرقة اقتحام قناة السويس من الدفرزوار داخل.. حتى جبل مريم».

«اقترحت على قائد الفرقة اقتحام جنوب بحيرة التمساح ببعض المركبات البرمائية مع الدبابات على عابر تسمى جـ س ب فى توقيت مبكر مفاجئ للعدو فى ساعة الصفر [س]، وعرض هذا الاقتراح على اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثانى وحضر بنفسه مع قائد الفرقة واستطلع المنطقة.. وناقشنى ثم قرر أن يخصص لهذه العملية كتيبة من أحدث أسلحة قواتنا بها مركبات برمائية مدرعة بقيادة القائد المقاتل الباسل «فراج» وقد سبق له العمل معى فى منطقة رأس العش والبلاح، وتربطنا أخوة واحترام متبادل».

«وبهذه المركبات يفوق تسليح دباباتنا دبابات العدو.. وكان معنى ظهورها فى هذا المكان وهذا التوقيت الإخلال بجميع تقديرات العدو وإرباكه.. وشل احتياطياته.. لأنه لا يتوقع ظهور أى دبابة أو جنزير لنا فى الضفة الشرقية قبل مرور ٨ ساعات على ساعة الصفر».

«وضعت هذه الكتيبة تحت قيادتى اعتبارا من ٢/ ١٠/ ٧٣ وسنرى فى إدارة المعركة

كيف نجحت (هكذا يقول عادل يسرى).. وأخلت بسير المعركة(يقصد على مستوى العدو).. ولكن قائد الجيش وقائد الفرقة كانا حريصين على أننى لا أستخدم هذه الكتيبة إلا طبقاً للخطة الموضوعة، لأنها كانت ولمدة زمنية أقلها ٨ ساعات كل رصيدنا.. كل ما تملك الفرقة ١٦ المشاة.. بل كل ما يملك الجيش الثانى من الجنزير على الضفة الشرقية!».

(٢٧)

ويتحدث عادل يسرى بعد هذا عن مهمته ومهمة اللواء الذى كان يقوده فى حرب أكتوبر المجيدة:

«كانت مهمتى ضمن الفرقة ١٦ مشاة أن أهجم مترجلاً مع أسلحة دعمى فى اتجاه المجهود الرئيسى للفرقة وفى النسق الأول من علامة الكيلو ٩٠ عند سرابيوم.. حتى جبل مريم، والقيام بتدمير أسلحة ومعدات وقوات العدو البشرية واحتياطياته، والاستيلاء على موقع العدو فى «الطالية» على بعد سبعة كيلومترات ونصف كيلو شرق القناة، ثم أؤمنها وأتحرك للدفاع ضمن الوقفة التكتيكية لمدة تتراوح بين يوم ويومين حتى وصول دباباتى ومدفعيتى ووحدات الدفاع الجوى وباقى معداتى».

«ثم أطور الهجوم فى النسق الأول للفرقة للوصول إلى خط رأس كوبرى الجيش على أن يكون لواء العميد شفيق على يمينى وأقوم بتحقيق الاتصال مع لواء مشاة من الفرقة الثانية المشاة».

❑

ينبغى علىّ هنا أن أذكر القارئ أن الفرقة الثانية مشاة كانت إحدى الفرق الخمس المكلفة بالعبور، وكان قائدها هو العميد حسن أبو سعدة، أما الفرقة التى ينتمى إليها عادل يسرى فهى الفرقة ١٦ وكانت تضم بالإضافة إلى لوائه لواء آخر على يمينه بقيادة العميد البطل الشهيد شفيق مترى، وكان قائد هذه الفرقة هو العميد عبدرب النبى حافظ، وبالإضافة إلى هاتين الفرقتين فإن الجيش الثانى كان يضم ثلاث فرق

أخرى هى: الفرقة ١٨ مشاة بقيادة العميد فؤاد عزيز غالى، والفرقة ٢١ المدرعة بقيادة العميد إبراهيم العرابى،والفرقة ٢٣ المشاة الميكانيكية بقيادة الشهيد البطل العميد أحمد عبود الزمر، أما الجيش الثالث الميدانى فكان يضم أربع فرق تناولنا الحديث عنها فى الباب الرابع الذى عرضنا فيه مذكرات الفريق يوسف عفيفى، ولا بأس من إعادة التذكير بها، وهى الفرقة ٧ مشاة بقيادة العميد أحمد بدوى، والفرقة ١٩ مشاة بقيادة العميد يوسف عفيفى، والفرقة ٦ مشاة ميكانيكية بقيادة العميد محمد أبو الفتوح محرم، والفرقة ٤ مدرعة بقيادة العميد محمد عبدالعزيز قابيل، ونعود إلى ما يلخص به صاحب هذه المذكرات حديثه حيث يقول:

«كانت هذه هى الخطوط العريضة لخطة الفرقة ١٦ المشاة ولواء النصر ضمن الجيش الثانى.. هذه الخطة استغرقت منا جهداً كبيرا.. مؤتمرات.. سهرا طوال الليل.. شاى وقهوة ودخان السجائر يملأ ملجأ العميد عبدربه (يقصد: عبد رب النبى حافظ) ونحن نتناقش فى أدق التفاصيل».

(٢٨)

ثم يشرح العميد عادل يسرى بعد صفحات من كتابه معنى الدفاع والهجوم الذين كان على قواته أن تقوم بهما قبل أن تعبر بالفعل إلى شرق القناة، ونحن نرى نطاق الدفاع الذى تتولاه الفرقة الواحدة يمتد بطول خمسين كيلومتراً، فإذا ما حان وقت العبور أعادت الفرقة تنظيم قواتها وتجمع قواتها وتركز على عشرة كيلومترات فقط.

ومن المفيد أن نتأمل هذا لنتصور كيف كان من الممكن لإسرائيل حتى من اليوم الأول أن تجد ثغرة وثغرات على طول الجبهة الممتدة مائتى كيلومتر، وأن وجود ثغرة أو ثغرات لم يكن بالأمر المستبعد، ونحن نجاهد بكل ما أمكننا وبكل ما هو متاح لنا، ولكن هذا الكل لم يكن ليتوازى أبداً مع الإمدادات التى أتيحت للعدو من مخازن الجيش الأمريكى مباشرة:

«إن إعادة تجميع القوات للهجوم معناه ببساطة أن أكون قبل الهجوم فى أوضاع

دفاعية.. وأسيطر على مواجهات واسعة، وقبل الهجوم طبقاً لخطة معينة أتمركز على مواجهة صغيرة أركز هجومى فيه وتنضم لى فيها وحدات دعم تسمح بتحقيق التفوق على العدو ضمن هذه المواجهة الصغيرة وحتى العمق المحدد لى».

«وكمثال: الفرقة ١٦ المشاة كانت تدافع من منتصف البحيرات المرة حتى بحيرة التمساح بمواجهة حوالى ٥٠ كيلومترا، لكن أعيد تجميعها قبل المعركة وتركز هجومها فى مواجهة حوالى ١٠ كيلومترات فقط».

❑

ويحرص عادل يسرى ـ وحسناً فعل ـ على أن يصور مدى التوتر الذى يصاحب إعادة تجميع القوات خوفاً من أن يكتشف العدو نوايانا بهذا التجميع ويوجه ضربة من ضربات الإجهاض بأى وسيلة، وهكذا كان تمتع هذا التجميع بهذه السرية فى حد ذاته معجزة من معجزات الإعداد لهذه الحرب المجيدة، وما بالنا بضم قوات منتشرة على مدى خمسين كيلومتراً لتتمركز فى عشرة كيلومترات فقط:

«وخطة إعادة التجميع تطلبت تجهيزاً هندسياً كبيراً.. وتحريكاً للقوات تحت نظر وملاحظة العدو المستمر بجميع الوسائل دون أن يكتشف نية الهجوم، حتى لا يقوم العدو بتوجيه ضربة إحباط.. بالطيران والمدفعية لإخفاق الهجوم، وتحطيم الخطة،وهذا يتطلب إعداد خطة خداع ممتازة، وتغليف جميع أعمالنا بالسرية والكتمان».

«وقد أعيد تجميع الفرقة ١٦ المشاة من علامة الكيلو ٩٥ شمال الدفرزوار إلى الكيلو ٨٥ شمال حنيدق [هذه إذن هى الكيلومترات العشرة التى طلب من الفرقة ١٦ أن تركز هجومها فيها من قبل إعادة التجميع قبل المعركة، وذلك فى مقابل خمسين كيلومترا كانت الفرقة نفسها تتولى الدفاع عنها قبل عملية إعادة التجميع]، بالإضافة إلى عملية اقتحام جنوب بحيرة التمساح بكتيبة المقاتل فراج، وشغل المواجهة بين حنيدق ومريم وهى حوالى ٥ كيلومترات بأعمال خداعية.. ووحدات صاعقة، واقتحام القناة فى النسق الأول بلواء مشاة ـ يمين ـ ولواء النصر تحت قيادتى ـ يساراً من الكيلو ٩٠ (سرابيوم) حتى مريم (داخل)، وقد أعطيت أسبقية الاستعداد فى إعادة التجميع إلى وحدات الدفاع الجوى ووحدات المدفعية. وكان تمام الاستعداد لها قبل الهجوم بيومين على الأقل».

(٢٩)

ثم يروى صاحب هذه المذكرات كيف أن قواتنا المسلحة نجحت فى إتمام عملية إعادة التجميع فى ثلاثة أيام فقط، وهو يذكر الأسباب التى دعت إلى هذا التجميع السريع الذى تم بكل نجاح، مشيراً إلى العوامل التى كانت كفيلة باكتشاف نوايانا فى الهجوم:

«وعملية إعادة التجميع على مستوى القوات المسلحة استغرقت شهوراً، وعلى مستوى الفرقة خططت بحيث تتم فى خلال ثلاثة أيام فقط».

«وكانت هناك عدة عوامل تهدد نوايانا باستمرار، منها:

- زيادة حجم أعمال التجهيز الهندسى لاستيعاب الوحدات الجديدة.
- زيادة حجم التحركات فى الأيام السابقة للهجوم.
- زيادة نشاط استطلاع الوحدات الجديدة ووحدات الدعم بحيث تغطى المهام القتالية».

«وبرغم ترتيبات الأمن والسيطرة.. إلا أن نشاط استطلاعنا زاد على القناة بصورة رهيبة».

ويقدم لنا صاحب المذكرات نماذج للمجالات التى عمل فيها استطلاعنا فى هذه الفترة:

«كان الاستطلاع يبدأ من القائد ومجموعته وهو يحدد أوضاع قواته على الضفة الغربية.. وأماكن الأسلحة.. وحفر القوارب.. وخطة النيران.. وخطة المناورة.. وأوضاع العدو.. إلخ، إلى أن يستطلع الجندى العادى مكان حفرة قاربه.. الطريق الذى يسلكه.. الثغرة التى يعبر منها فى ألغامنا.. مكان نزول القوارب.. رقم القارب اليمين.. والقارب اليسار.. إلخ».

«كل هذا الاستطلاع يتم فى مواجهة ٣١ نقطة قوية للعدو، وأمام ما يقرب من ٦٠ إلى ٧٠ داورية مدرعة إسرائيلية نهارية تتضاعف ليلاً على قناة السويس».

وعندما ينهار خط بارليف بأيدى أبطالنا البواسل، ينتهز صاحب هذه المذكرات الفرصة ليقدم لنا بعض معلوماته عن هذا الخط الحصين المنيع الذى كان بمثابة حاجز كبير أمام أملنا فى تحقيق النصر:

«وتهاوى خط بارليف فى ساعات.. خط تكلف ما يقرب من المليارين من الدولارات [بعملة ذلك الزمان، فإذا ما تذكرنا ما يقال من أن تكاليف الحرب عندنا بلغت فى ذلك الوقت أربعة مليارات أدركنا مدى ما بذل فى ذلك الخط اللعين من جهد ومال وتجهيزات فنية وهندسية عبقرية، ونحن نرى عادل يسرى يعترف ببواعث القادة الإسرائيليين على تقدير هذا الخط وتقدير أهميته فى كسب المعركة لصالحهم]، واشترك فى بنائه آلاف العمال والخبراء، وزود بإمكانيات لا توجد إلا فى أغلى الشقق السكنية، وغير مفهوم إسرائيل، وجعل قادة إسرائيل يقولون: «منذ إنشاء خط بارليف فإن الجيش الإسرائيلى لن يكون مضطراً للهجوم، ويكفيه عمق سيناء وتحصينات خط بارليف».

❑

بل يعترف عادل يسرى فى هذه المذكرات أن التجهيز الهندسى للنقاط الحصينة فى خط بارليف كان من القوة بحيث لم يؤثر فيه ضرب المدفعية ولا الطيران:

«وأحب أن أوضح أن النقط الحصينة لم يؤثر فيها ضرب المدفعية والطيران لقوة تجهيزها الهندسى، لكننا كنا نعلم أن هذه النقط لن تسقط إلا باقتحام المشاة المترجلين لها».

«الساعة الثانية و٢٠ دقيقة، بدأ اقتحام الموجة الثانية للقناة، وفيها اقتحم قادة كتائب المشاة النسق الأول ومعهم نصف الأسلحة المضادة.. وكانت ترفرف أمامهم الأعلام، علم مصر الذى تم رفعه مع الموجات الأولى التى اقتحمت القناة».

(٣٠)

ثم يروى عادل يسرى لحظة اقتحامه القناة وهى لحظة حماسية يشعر المرء فيها بأنه ارتفع بقامته إلى أعلى مما يتصور، وهو يروى ما صادفه فى أثناء عبوره، وأنه ساعد

طاقم أحد المدافع على رفع مدفعهم من باب التشجيع، ولكنه أسرع بتسلق الساتر بدون سلالم، ثم انحنى ليقبل أرض وطنه الحبيب:

«في الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة بعد ساعة الصفر بربع ساعة فقط.. تحركت إلى القناة ومعي مركز ملاحظتي.. لأقتحم إلى الشرق، والمكان الذي اخترته للعبور في مواجهة الشيخ حنيدق حيث توجد نقطة قوية للعدو قديمة تم اقتحامها وإزالتها في أثناء حرب الاستنزاف».

«وعندما أردت العبور من الضفة الغربية فوجئت بمظاهرة حماسية من رجال لواء النصر حولي، وبسرعة سيطرت على الموقف وأفهمت الرجال أنه لا وقت للعواطف، العواطف كلها تتحول إلى عمل، إلى سيناء، إلى الانتقام من العدو».

«وتسلقت مركبة برمائية نقلتني إلى الشرق بسرعة وقفزت إلى الشاطئ الشرقي، كان ارتفاع الساتر أكثر من ٢٠ متراً، زاوية الميل حادة جداً، وكانت التربة غير متماسكة برغم مرور وقت طويل على إنشائها».

«وشاهدت أثناء صعودي طاقم مدفع ب ١١ وهو يكافح لرفع المدفع على سلالم الحبال إلى أعلى، وعاونتهم لفترة صغيرة للتشجيع، ثم تركتهم وتسلقت الساتر بسرعة دون سلالم، ومعي مركز ملاحظتي ومن حولي الأجهزة اللاسلكية، لقد «كسرنا الصمت» وبدأت الأجهزة تعمل طبقاً لتعليمات قتال مختصرة وبكود شفرة أسميناه «أحمد عبدالعزيز» بطل حرب ٤٨ وشهيدها».

«وكانت سرعة تدفق قواتنا كبيرة مذهلة وحماس الأفراد غير عادي، وكان أول عمل قمت به مع جميع الأفراد هو أننا جميعا قبلنا أرض سيناء قبل أن يتقدم أحد منا لتنفيذ مهمته، وكان لسان حالنا جميعاً يقول:

هذه أرضي أنا — وأبي مات هنا

وأبي قال لنا — مزقوا أعداءنا

(٣١)

ويحرص عادل يسرى على أن يذكر أن لواءه بأكمله قد اقتحم القناة بعد ساعة زمنية واحدة من بدء ساعة الصفر، ولا يظن ظان أن هذا العبور كان يتم هكذا كما نتصور فى سلاسة، وإنما كان يتم تحت مظلة من نيران المدفعية الحامية المتبادلة من الجانبين وها هو عادل يسرى يصف لنا ما حدث فى سرعة بالغة دون أن يجيد وصف المصاعب والمتاعب والعقبات التى كانت كفيلة بإعاقة العبور، ولكن الله سلم:

....

«وتتالت موجات الاقتحام، فاقتحمت كتيبة النسق الثانى بقيادة «مجاهد» القناة، وانتهى اللواء من اقتحام القناة بعد ساعة زمنية من بدء ساعة الصفر.

«وشهدت رمال سيناء خليطاً من الرجال والأسلحة وعربات الجر اليدوى المحملة بالذخيرة والألغام تندفع فوقها دون أن تمنعها كثبان رملية عنيفة، أو مناطق سبخة، تغوص فيها الأقدام».

«لقد غرست أنا شخصياً فى منطقة وكانت قدمى تغوص حتى آخر حذائى الطويل فى السبخات، وأنتزع قدمى مع كل خطوة.. وبصعوبة».

«وتحت ستر أعمالنا القتالية، وبعد نصف ساعة فقط من بدء الهجوم، نزلت فصائل المهندسين إلى القناة، ومعهم قواربهم، ومضخات مائية نفاثة، تغرف من القناة وتزيل فى صبر ساتر العدو، فينساب الساتر وحلاً تحت أقدام الرجال، ويستمرون فى صبر، يصوبون خراطيمهم لمدة تراوحت من ٣ إلى ٥ ساعات حتى أتموا فتح ثغرة تصلح كمخرج جسر أو معدية».

....

«ويبدأ عبور البلدوزرات والمعدات لتمهيد الجانب الشرقى، كل ذلك تحت نيران مدفعيات من الجانبين، فى ظروف قتالية عنيفة».

(٣٢)

ومن بـاب إنصاف الـنفـس يأتى حـديث عادل يـسرى فى مـواضع كـثيرة مـن هذه المذكرات عن الجهد الإسرائيلى الضخم الذى بذل فى هذه الحرب ، وسوف نرى أنه رغم تحقق المفاجأة الكاملة لقوات جيش الدفاع الإسرائيلى إلا أن هذه القوات سرعان ما بـدأت حركتهـا الذاتيـة والنشـطة لإجهاض هـجومنـا، وعادل يـسـرى نفسه يـذكر بوضوح أنه بـعد ٥ دقائق فقط من هـجومنا كانت هـناك للعدو ٣٠ طائرة فـوق سيناء ظلت تـعمل كمظـلات جوية لأكثـر من ساعتيـن ونصف، وأنه بعـد ثلثى سـاعة بدأ العدو فـى تحريك هجـمات جوية مـتتاليـة، وأنه على مـدى اليوم الأول كانـت هناك للعدو ٣٥٠ طلعة جوية، وهو رقم ليس بالهين:

«واعتمدت إسرائيل على عناصر أساسية فى حربها معنا :

«**الطيران** : وهو العـنصر الحاسـم للتفـوق الإسرائيلـى، فبعد ٥ دقـائق كان للـعدو حوالـى ٣٠ طائرة فوق سـيناء تعـمل كمظلات جوية واستمرت لمدة حـوالى ١٥٥ دقيقة».

«وبعد ٤٠ دقيقة فى الساعة الثانية و٢٥ دقـيقة بدأ رد فعل إيجابى محدود من العدو فى صـورة هجمات جـوية متـتاليـة بمجموعـات صغيـرة من الطـائرات ضد منـاطق ووسائل العبور والقوات شرق القناة».

«كان إجمالى حجـم المجهود خلال اليوم الأول حوالى ٣٥٠ طلعـة طائرة منها ١٦٠ نهاراً على الجبهة المصرية وحدها».

❑

وعلى نـفس النمـط يلخص عـادل يسرى موقـف العدو من صـد الهجوم المـصرى بالمدفعية والمدرعات:

«**المدفعية**: حاولت قـيادة سيناء الإسـرائيلية تـعطيل اقتـحام قناة السـويس وإحداث خسائر فى المشاة بنيران المدفعية ذات الأعـيرة المختلفة، واستخدمت الهاوتزر ١٥٥مم والهاون ١٦٠مم، والمدافع الثقيلة ذاتية الحركـة ١٧٥مم وقد سماها أبطالنا فى المعركة «أبو قفة».

«**المدرعات والوحدات الميكانيكية:** نفذ العدو ٨ هجمات مضادة خلال اليوم الأول للقتال بعناصر من اللواء ١٤ المدرع مشكلة فى مجموعات سرايا دبابات مدعمة بعناصر مشاة ميكانيكية ضد الأنساق الأولى من المشاة المترجلة التى اقتحمت القناة اعتباراً من الساعة الثانية والنصف ظهراً».

«وأخفقت جميع هذه المحاولات، فأخذ يحاول شغل قواتنا بالنيران وتكبيدها أكبر خسائر حتى يمكنه القيام بالضربات المضادة بالأنساق الثانية التعبوية».

(٣٣)

ويصل العميد عادل يسرى إلى أن يبلور ما حدث فى عملية العبور وما تلاها من إنجازات حرب ٦ أكتوبر فى جملة جميلة معبرة ينقلها عن المشير الجمسى:

«وكما قال الفريق أول محمد عبد الغنى الجمسى رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة: لقد قللت المفاجأة من حجم خسائرنا فى اقتحام القناة لكنها لم تقلل من ضراوة القتال».

❑

ولا يمضى عادل يسرى إلى اليوم الثانى من أيام القتال على الجبهة المصرية دون أن يعبر عن سعادته بما تحقق فى اليوم الأول للحرب، وهو على سبيل المثال يتحدث عن فداحة خسائر إسرائيل فى اليوم الأول لحرب أكتوبر مقارنة بخسائرها فى الحروب السابقة:

«وطبقاً للبيانات الإسرائيلية، كانت خسائر اليوم الأول للقتال ٥٠٠ قتيل، وألف جريح».

«ويكفى لتصوير مدى فداحة الخسائر الإسرائيلية فى ٦ أكتوبر أن خسائر إسرائيل خلال حرب ١٩٥٦ بلغت ١٨٠ قتيلاً، وأسيراً واحدا طياراً، أما عدد جرحاها فغير معروف».

«أى أن إسرائيل خسرت فى اليوم الأول فى حرب أكتوبر ثلاثة أمثال خسارتها من القتلى فى حرب ١٩٥٦ بالكامل».

«وفى حرب ١٩٦٧ كانت خسارة إسرائيل طبقاً للبيانات الرسمية الصادرة من تل أبيب ٨٥٠ قتيلا، و١٤ أسيراً».

«وكانت خسائرها خلال حرب الاستنزاف ٤٠٠ قتيل وعدة آلاف من الجرحى».

(٣٤)

ويتألق حديث العميد عادل يسرى عن حب فى وصف الإبداع الذى تميزت به معركة العبور العظيمة من خلال تآزر جهود المهندسين والمشاة والدفاع المضاد للدبابات:

«استمرت فصائل المهندسين المزودة بالطلمبات النفاثة فى فتح ٤٤ ممراً فى الساتر الترابى على مستوى الجيش الثانى، وقد نجحوا فعلاً خلال يوم ٦ أكتوبر فى فتح ٣٥ ممراً وتم فتح ٧ ممرات خلال يوم ٧ أكتوبر وأخفقوا فى فتح ممرين فى منطقة الفردان».

....

«فى الساعة الرابعة والنصف مساء اصطدمت سرية صاعقة باحتياطى دبابات للعدو مكون من ٨ دبابات، فدمر له أفراد السرية ثلاث دبابات وارتد الباقى شرقاً فى المنطقة شرق موقع الدفرزوار بحوالى ٨ كيلومترات».

«ثم تقدمت عناصر لواء النصر المترجلة ضمن الفرقة ١٦ مشاة فى مجموعات قتال كتائب ومعها عناصر الدفاع المضاد للدبابات والفهد وضباط ملاحظة المدفعية، وعربات جر يدوى ذخيرة، وألغام، وتسلقت الموتوسيكلات السواتر الترابية، حتى ماكينات شحن بطاريات الأجهزة اللاسلكية تم سحبها بالحبال وبدأت تستعد للعمل وسط حمم النيران».

ويصل عادل يسرى هو وطلائع جنوده إلى طريق الإسماعيلية/ الشط شرق، وتنتابه بالطبع السعادة الغامرة لهذا الإنجاز الذى تحقق فى سرعة بالغة إلى حد أنه يطلق على حركة جنوده مسمى «ماراثون النصر» نظراً للسرعة البالغة التى ميزت حركتهم فى تلك الساعات، ولم لا ؟ وقد وصلت سرعاتهم إلى ثلاثة كيلومترات فى الساعة، وهكذا تغلب هؤلاء الجنود البواسل على المخاوف التى كان المخططون يخشون منها على قوات المشاة حين تصطدم بالجنازير الثقيلة القاسية الكفيلة بتحويل أجسادهم إلى كفتة إذا لم يستطيعوا هم مبادأتها بالقضاء عليها وعلى من فيها:

«فى الساعة الرابعة مساء انتقلت مع مركز ملاحظتى بجرأة إلى الوثبة الثانية على مسافة ٤ كيلومترات من القناة للإشراف على معركة وتدمير احتياطى « الطالية » للعدو. وكان اعتمادى فى المواصلات على اللاسلكى، وبدأ الأفراد حفر فجوات فى الأرض نسميها حفراً برميلية للوقاية من ضرب مدفعية ودبابات وطيران العدو، ودست بقدمى على طريق الإسماعيلية / الشط شرق».

«وكم كان شعورى هنا مزيجاً من الفرحة الغامرة، والرغبة الجامحة فى الثأر والانتقام!».

«اندفع «علم» ورجاله بجرأة، وبسرعة. لقد كان أكبر عمق قتالى أمامهم ٨ كيلومترات، وأكبر احتياطى للعدو هو احتياطى الطالية».

«وتسابق الرجال فى «ماراثون النصر» فحققوا سرعة قتالية لم تسبق فى التاريخ العسكرى وصلوا إلى اثنين وثلاثة كيلومترات فى الساعة، وسبق « علم » كل الوحدات ووصل إلى الطالية وبدأت معركة رهيبة بين عدو معه دبابات وعربات مدرعة تدعمه المدفعية وعلى أرض طالما تدرب عليها يواجه مشاة مترجلين، يحملون زادهم، وذخيرتهم، ويشدون أسلحتهم ويجرون عربات الجر اليدوى!! لكم خشى علينا المخططون من هذا اللقاء، وسمعتها بأذنى: «أخشى أن تدوسكم جنازير العدو.. وتعملكم كفتة».

....

«لكن مع الموجات الأولى لاقتحام قناة السويس رفعنا علماً كبيراً لمصر، كنا نثبت

الأعلام دائما في الأراضي التي نحررها، وتم عبورها تحت ستر أعمال قتال المفارز الأمامية، وكان لظهورها على الضفة الشرقية أثر معنوي كبير بالنسبة لقواتنا».

«بالإضافة إلى هذا استخدمت هذه الأعلام في خداع وتضليل العدو وجذب الاحتياطيات المعادية إلى الأماكن التي يمكن تدميرها بالأسلحة المضادة للدبابات».

«أما بالنسبة لنقط العدو القوية، فكان يتم رفع علم مصر بعد إنزال العلم الإسرائيلي وتسليم النقطة القوية أو إبادتها».

(٣٥)

ويتحدث عادل يسري عن خط الدفاع الثاني الذي شيده الإسرائيليون على بعد ٨ كيلومترات شرق القناة، وهو الحائط الذي يطلق عليه الفريق يوسف عفيفي في مذكراته التي تناولناها في الباب الرابع من هذا الكتاب مسمى «نطاق الدفاع الثاني»، ويعطينا عادل يسري بعض التفاصيل الطبوغرافية عن نقطة الطالية ليبين أهميتها الاستراتيجية للعدو الإسرائيلي:

«شيد الإسرائيليون خطاً ثانياً على بعد يتراوح بين ٧ و٨ كيلومترات شرق القناة».

«وكان منها في مواجهتنا النقطة ٥٧ ـ الطالية ـ والشجرة، كما تم بناء معسكرات تستوعب لواءات مدرعة وميكانيكية في كل من الطاسة وبالوظة».

«وتعتبر نقطة الطالية هيئة حاكمة تسيطر على الجنب الأيمن لرأس كوبري الفرقة ١٦ وتؤمنها النقطة ٥٧ من اتجاه الجنوب الغربي، وتبعد عن قناة السويس شرقا بحوالي ٧,٥ كيلومتر، ويوجد بها احتياطي قوي للعدو قوته سرية دبابات (١١ دبابة) وسرية مشاة ميكانيكية (١٣ مدرعة)».

«وكان تخطيط إسرائيل على أساس قيام هذه الاحتياطيات بهجمات مضادة خلال ١٥ إلى ٢٠ دقيقة من بدء الهجوم، لكن نتيجة للمفاجأة، ولنيران المدفعية، ولسرعة تقدم رجال علم الكبيرة، وصلوا إلى الطالية وبدأوا الاشتباك مع العدو في عقر داره».

ويصور عـادل يسرى بدقة بالـغة معارك الالتحـام ما بين الإسرائـيليين من نـاحية، وكتيبتى المقاتلين العظيمين «علم» و«طنطاوى» من ناحية أخرى:

«وفى الساعة الثالثة وأربعين دقيقة دفع العدو دباباته فى اتجاه كتيبة «طنطاوى» على يمين «علم»، وتأخر طنطاوى وهو يشتبك مع هذا الاحتياطى لتدميره واستمر علم فى الهجوم مع تأمين جانبه الأيمن».

«وفى الساعة الرابعة والثلث دفع العدو باقى احتياطيه فى اتجاه علم وهو عبارة عن ٦ دبابات، وعشر عربات مجنزرة م١١٣ واشتبكت معها المفارز وباقى كتيبة علم».

«وفى دقائق تم تـدمير دبابتين وعربـتين م١١٣، وحاول العدو أن يدوس بـالجنزير أجساد المشاة ليفرمـهم، وصدم العدو عندما فوجئ بالجندى المتـرجل يهاجم المدرعة، جرى الرقـيب عبدالـوهاب الجداوى خلـف مدرعة قاذفاً إيـاها بقنـبلة يدويـة مضـادة للدبابات، واستشـهد عاطف ضابـط استطلاع الـكتيبة وأنـيس ضابط الإشـارة وهما يهاجمان المدرعات بقنابل الترميت الحارقة».

«استشهد جعفر رامى الفهد بعد أن دمر دبابة للعدو».

(٣٦)

ويلقى العميد عادل يسرى فى هذه المذكرات بأضواء كافية على المراحل المتلاحقة التى شهـدتها الوقفة التكـتيكية التى أتـيحت لقواتنا (تـبعاً للخطة)، وتدلـنا قراءة هذه التفاصيـل على مدى الصعوبات الجـمة التى لقيتهـا قواتنا المسلحة فـى مواجهة عدو مجهز بـأسلحة لا ينتـهى إمدادها، عدو ذى قدرة لا محـدودة على الهجوم المسـتمر والشرس وتكراره بالليل وبالنهار:

«طبقاً للـتخطيط توقفت الفـرقة ١٦ المشاة بعد أن استولت عـلى رأس كوبرى من شمال نقط الدفرزوار القوية حتى شمال حنيدق، وبعمق يصل إلى ٨ كيلومترات».

«بعد الاستيلاء على الطالية، توقفنا طبقاً للتخطيط لمدة يوم أو يومين حتى يتم إنشاء المعـديات والجـسور ووصـول الدبـابات والمـدفعـيات والإمـداد الإدارى، ثم نـطور

هجومنا فى اتجاه الشرق، مع محاصرة نقطتين قويتين للعدو فى الدفرزوار والاستيلاء عليهما».

«وفى الساعة الرابعة مساء وصلت كتيبة فراج مع عرباته المدرعة ب م ب القوية التسليح، وبدأت فى المناورة كاحتياطى الفرقة بكاملها».

«وبعد أن صد ناجى مع مفرزة المشاة المترجلة هجوماً مضاداً للعدو بين الفرقة المشاة والفرقة الثانية المشاة، تقرر سحب سرية فراج التى احتلت موقع طريق الشط/ الإسماعيلية إلى داخل الفرقة،و بهذا تكتمل كتيبة فراج ويقوى احتياطى قائد الفرقة، وتم سحب مدرعات هذه السرية فى عملية ليلية لم يكتشفها العدو، ولم يهدد الجنب اليسار للواء بعد ذلك».

«فى الوقت نفسه بدأت دورية استطلاع صفوت تبلغ عن مشاهدة ٣ دبابات للعدو فى الساعة الخامسة والنصف مساء متحركة فى اتجاه كتيبة علم، ثم أبلغت عن رؤيتها ٦ دبابات للعدو متحركة فى اتجاه علم، ووجهت نيران مدفعيتنا عليها فتم تدمير دبابتين على أرض العدو برغم اصطدام هذه الدورية برتل مدرع للعدو الساعة الخامسة والنصف صباحاً واستشهاد المقاتل نبيه، استمرت الدورية بعد تجمعها مرة ثانية فى العمل، وأبلغت عن جميع تحركات العدو فى المنطقة لمدة يومين متتاليين حتى تم دفع داورية استطلاع أخرى مكانها ليلة ٧/ ٨ أكتوبر».

(٣٧)

وتحفل هذه المذكرات بالحديث عن التجهيزات الجيدة والمتمكنة التى كانت قواتنا المسلحة تجيد إنجازها وإتمامها من أجل الحصول على وضع أفضل فى مواجهة العدو فى أثناء معركة أكتوبر المجيدة، وهو يصور جهود هذه الوقفة باعتزاز شديد يكاد يبلغ حد الذهول من أن هذا الذى أنجز قد أنجز هكذا فى وقت قياسى، وما بالنا بألفى لغم مضاد للدبابات يتم زرعها فى ساعتين فقط أمام اللواء وعلى يمينه:

«ومع الوقفة تم تنسيق سريع لخطة نيران تدمر بها أى هجمات مفاجئة للعدو، وأسرعت المعاول وأدوات الحفر تنقب حفراً برميلية للأفراد، وحفراً للأسلحة، وتملأ بسرعة شكاير الرمل التى يحملها الأفراد، وأسرعت عربات الجر اليدوى المحملة بالألغام فى تنسيق وتوافق، تسرع كل مجموعة فى اتجاه قطاع بقيادة «شهاب» كل عربة يدوية تحمل ١٤ لغما يدفعها ثلاثة رجال».

....

«وفى خلال ساعتين تم رص ألف لغم مضاد للدبابات أمام مواجهة اللواء، وألفاً أخرى على يمينى ».

....

وهنا يتساءل عادل يسرى فى اندهاش وفخر:

«كم عربة جر يدوى حملتها القوارب فقط للألغام».

....

ولا يجيب عادل يسرى على نفسه بأكثر من جملة واحدة:

«إنهم المصريون!!».

«هذه الألغام تم رصها فوق سطح الأرض حتى تدمر أى دبابة للعدو أو تقطع جنزيرها عند اقترابها للهجوم».

(٣٨)

ويحرص عادل يسرى على أن يبدى سعادته بقدرة قواتنا المسلحة على إصابة الإسرائيليين فى مقاتل كثيرة، وهو سعيد على وجه الخصوص بنجاح المشاة المصريين فى قتل أحد قادة المدرعات الإسرائيليين المرموقين وهو الجنرال ماندلر:

«ويقوم الجنرال أبراهام ماندلر قائد قطاع سيناء الإسرائيلى الشهير (ألبرت)، هذا الرجل الأصلع صاحب العينين الزرقاوين، النمساوى الأصل، الذى تدرج فى الجيش

الإسرائيلي من رتبة العريف سنة ١٩٤٨، حتى وصل إلى رتبة الجنرال، وأصبح من رجال المدرعات المرموقين، يقوم بالاستمرار في إدارة القتال لتعطيلنا مستخدماً في ذلك بقايا اللواء ١٤ مدرع الإسرائيلي، واللواء السابع المدرع عدا كتيبة، واللواء ٤٩١ المدرع عدا كتيبة، واللواء ٤٦٠ المدرع.. ويحاول منع قواتنا من توسيع رءوس الكباري، مع إرهاق قواتنا وتكبيدها خسائر كبيرة بالهجمات المضادة المتكررة، وبأعمال القصف الجوي والمدفعية».

«ويتقدم الجنرال بنفسه ليقود الهجمات المضادة، ويتركه القدر يومين ليشاهد نهاية المدرعات الإسرائيلية بواسطة رجالنا المترجلين!».

«ثم يأتي دوره هو، دور الجنرال فينتهي هو الآخر على أيدي المشاة، ويصرخ محذراً قبل موته: «لا تقتربوا من القناة..».

❑

ويقدم عادل يسري في كثير من فقرات كتابه وصفاً تفصيلياً دقيقاً لما وجدته قواتنا المسلحة في حصون العدو من استعدادات فائقة التجهيز هندسياً وعسكرياً، ونحن نقرأ هذا فنتذكر فضل الله على قواتنا المسلحة أن تمكنت من عبور كل هذه الموانع والحواجز ومن تحطيم كل نظريات الأمن والتأمين:

«ولقد أقام العدو في مواجهة المحور الأوسط ثلاث نقط قوية في مناطق الشجرة على محور الإسماعيلية/ أبو عجيلة، وفي منطقة الطالية، واستولت عليها كتيبة علم في اليوم الأول للهجوم، وفي منطقة النقط ٥٧ على مسافة ٨كم من القناة جنوب غرب الطالية».

«نقف لحظات عند إحدى النقط القوية، عند النقطة ٥٧. إنها تتكون من تجهيزات هندسية حصينة، كميات كثيفة من الألغام والأسلاك الشائكة تمنع الدخول أو الخروج منها إلا في ثغرتين، مرابض وحفر للدبابات والمدافع والمركبات خارج النقطة القوية، خنادق مواصلات مكسوة بالصاج المعرج، برج داخلي للملاحظة به منظار ضخم، حوالي ٨ حجرات مقاس ٢ × ٣ أمتار لراحة الأفراد في كل منها سريران».

«توافر للنقطة مواصلات تليفونية ولاسلكية تضمن الاتصال بها مع مستوى قيادة سيناء، والقيادة العسكرية الإسرائيلية».

(٣٩)

ونحن نجد عادل يسرى فى المرحلة التى كتب فيها هذا الكتاب وهو حريص على إظهار تعجبه فى أكثر من موضع من وجود الملابس الداخلية النسائية وأدوات التجميل فى هذا الموقع، وله العذر فى هذا التعجب، لأنه لم يكن يدرك حجم وجود المجندات فى جيش الدفاع الإسرائيلى، ولم يكن يدرك أنه مادام فى هذا الجيش مجندات فإن وجود هذه المستلزمات أمر بديهى، ولكن التقاليد المصرية فى ذلك الزمان الذى كتب فيه هذا الكتاب ونشر لم تكن تتصور أن هذا أمر طبيعى، وأنه من طبائع الأمور أو لوازم الأشياء، ولهذا كانت مثل هذه العبارات تؤخذ وتوضع كعناوين للمقالات التى تحكى ذكريات المنتصرين عن المهزومين، وسيضحك القراء اليوم لهذا الذى أرويه، ولكن هذا كان يحدث بالفعل، على الرغم من أننا كنا نعرف أن العدو يأخذ بمبدأ تجنيد الفتيات فى جيش الدفاع الإسرائيلى:

«داخل النقطة تم تكديس مياه وتعيينات وذخائر تكفيها لقتال حوالى ١٥ يوماً، وأنشئ بها مطبخ حديث و«ميس» للضباط والجنود.. وتوافرت له ماكينة كهرباء وجميع وسائل الراحة، بل توافرت بها أدوات تجميل حريمى وملابس داخلية حريمى أيضاً ضمن التكديس».

«وتم إنشاء موقع آخر بجوارها يتسع لموقع سرية دبابات وسرية مدفعية ذاتية الحركة ثقيلة من عيار ١٧٥ ملليمتراً، وموقع فصيلة مشاة».

«وقد نجح العدو فى عمل إخفاء وتمويه ممتاز لهذه المواقع وسيطر على نيرانها.. ولم تكتشف الموقع عناصر الاستطلاع ولم يظهر فى الصور الجوية.. واستمر الموقع غير مكتشف أيام ٦ و٧ و٨ أكتوبر حتى الساعة الواحدة والنصف ظهراً، لكن مع استئناف الهجوم يوم ٨ أكتوبر، فتحت هذه النقطة النيران من الداخل والخارج على وحدات لواء شفيق المشاة [يقصد اللواء الذى كان بقيادة العميد الشهيد العظيم

شفيق مترى] على يمينى.. بعد أن تجاوزتها كتائب النسق الأول بهدف إحباط الهجوم، وقطع خط الرجعة علينا».

«لكن كتيبة المركبات المدرعة البرمائية المشاة بقيادة فراج، التى كانت تعمل فى النسق الثانى، قامت بالاشتراك معها [أى مع قوات النسق الأول] ونجحت فى تدمير دبابتين وثلاث عربات واحد ونصف طن للعدو، وفرت دبابة وعربة مدرعة، وتم تدمير مركبتين مدرعتين لفراج من المفاجأة الأولى عند بدء الاشتباك.. ثم سيطرنا على النقطة القوية ٥٧ واقتحمته سرية مشاة واستولت عليها».

«وبتفتيش النقطة عثر على خرائط ووثائق وجهاز رؤية ليلى ضخم ومعدات وأسلحة».

(٤٠)

ويتحدث عادل يسرى فى ثقة (وأسف بالطبع) عن شراسة العدو فى قتال قواتنا، وهو على سبيل المثال لا يجد حرجاً فى أن يقدم وصفاً دقيقاً لشراسة وتصميم العدو فى محاولته استرداد ما فقد منه دون يأس على مدى يوم كامل وفى أوقات متكررة حتى يتمكن هذا العدو من أن ينجح فى صباح اليوم التالى فى الاختراق من الجنوب، ونحن نرى من هذا النموذج مدى صعوبة المعارك التى كانت تخوضها دباباتنا، فالعدو لا يكف عن الهجوم فى كل أوقات الليل والنهار، وهو يلجأ إلى كل التكتيكات المتاحة له، وفضلاً عن هذا فإن معداته وآلاته ودباباته الكثيرة تسعفه، ألا ترى مما يرويه عادل يسرى أن هذا الفصيل للعدو الذى فقد ٦ دبابات يوم ٩ أكتوبر قد تمكن من الحصول على سرية دبابات كاملة يهاجم بها قواتنا من الجنوب فى الساعة السادسة صباحاً بينما تحمى هذه السرية بفصيلة دبابات تطلق علينا النيران المشتعلة:

«حاول العدو استرداد هذه النقطة الحيوية ٤ مرات، المرة الأولى يوم ٩ أكتوبر، الساعة السادسة والنصف صباحاً، ثم التاسعة صباحاً، ثم الثانية عشرة ظهراً، ثم الرابعة مساء».

«ولم تنجح جميع هجماته، بل إنه خسر فى هذه الهجمات ست دبابات!».

«ويوم ١٠ أكتوبر، حاول العدو بهجوم ليلى الساعة الواحدة صباحاً بعد تمهيد مدفعيته، وبعد معركة حرب نفسية حاول أن يقوم بالاقتراب بدباباته لكنه لا يستطيع، ويحاول ثانية أن يسترد النقطة القوية لكنه يخفق أيضاً وينسحب».

«وتستمر محاولات العدو...».

«وفى الساعة السادسة صباحاً يوم ١٠ أكتوبر ينجح فى الاختراق من الجنوب بقوة مدرعة حوالى سرية دبابات بعد أن يترك فصيلة دبابات كقاعدة نيران».

«ونجح العدو في الاختراق بين لوائى مشاة، وفتح نيرانه من الغرب فى اتجاه الشرق، أى أنه هاجم الموقع من الخلف».

❑

وحتى لا يظن القارئ أن العدو انتصر فى هذه المعركة فإننا نسارع بنقل ما يرويه صاحب هذه المذكرات عن دحر هذا الهجوم بفضل عبقرية المقاتل المصرى فراج الذى أخفى موقع فصيلة مكونة من ثلاث مركبات مدرعة مع أسلحتها القوية المضادة للدبابات:

«لكن لم يكتشف العدو موقع فصيلة مختفياً لفراج عبارة عن ٣ مركبات مدرعة مع أسلحتها القوية المضادة للدبابات.. وفى الحال دمر له الموقع دبابتين ثم لاحق باقى الدبابات ليدمر له ٣ دبابات أخرى فى أثناء فرارها».

«وترك العدو بعض دباباته سليمة، وخسر بعض القادة من مجموعة عمليات شارون».

❑

هكذا وبفضل هذا الذكاء العبقرى للمقاتل فراج فى التخطيط الجيد للقوات، فقد العدو أمله فى أن يستولى على النقطة التى فقدها للأبد:

«ومن بعدها لم يعاود الهجوم لاسترداد هذه النقطة، لقد علم تماماً أن استرداد شبر واحد من الأرض فى أيدينا عملية صعبة، بل مستحيلة بالنسبة له!!».

(٤١)

ويبدو عادل يسرى طيلة هذه المذكرات مبهوراً أشد ما يكون الانبهار بأبطال الدفاع الجوى المصريين، وهو يشيد ببطولة هؤلاء فى مواقع عديدة:

«وشاهد أبطالنا على الضفة الشرقية دفاعنا الجوى يرد الطائرات الإسرائيلية ويسقطها».. وحدث أمر عجيب.. طائرتان للعدو تصبان حممهما على قواتنا، يطلق صاروخ يصيب طائرة وتنفجر وتتطاير، ويدمر انفجارها الطائرة الأخرى.. طائرتان بصاروخ واحد!!!».

«وتغطى أرض المعركة الدماء، والدخان، وألسنة اللهب المندلعة من الدبابات والمركبات المدمرة.. فوق أرض سيناء».

❑

ولا يمل عادل يسرى من التعبير عن الفخر بجهود الدفاع الجوى فى مواضع أخرى، من هذه المواضع موضع سابق يجيد فيه صاحب المذكرات تصوير قدرة أفراد هذا الدفاع وأجهزته بأفضل مما يمكن لشاعر مجيد أن يصورها، فهو يذكر أنه كان يرى الصاروخ قبل أن يسمع صوت الطيران الذى انطلق الصاروخ لتدميره، وهذا فى الواقع حقيقى فى ضوء ما نعرفه عن سرعتى الصوت والضوء أو ما يعرفه الذين يعيشون فى البلاد التى يكثر فيها الرعد والبرق حين يرون البرق قبل سماع الرعد:

«لا يمكن أن نتحدث عن اليوم الأول فى حرب أكتوبر دون أن نشير ونشيد بدفاعنا الجوى بجميع أنواعه وأعيرته، براداراته، وصواريخه، بتخطيطه وتنفيذه، لقد ذاق طيارو العدو الإسرائيلى على أيديهم ما لن ينسوه، وما لم يذوقوه أبدا!».

« وقد كنت أعرف باستمرار غارة العدو الجوية، قبل أن أسمع صوت الطيران فأشاهد أولاً صواريخنا أرض/ جو ترتفع فى السماء من الغرب فى اتجاه الشرق،

الصاروخ يبدو كنقطة أو خط مضيء، ويطير مثل الطائرة ثم أسمع صوت طائرة العدو، ثم تتقابل الصواريخ مع الطائرات، وتتهاوى محترقة أمام أعيننا».

ثم يختزل عادل يسرى هذه الصورة لهذا الإنجاز العسكرى الرائع فى تعبيرات بديعة يقول فيها:

«كنا نشاهد مباراة عنيفة وممتعة بين الطائرة والصاروخ، مباراة يحاول فيها الطيار الإسرائيلى الهرب، والصاروخ يلاحقه، وأحياناً يتخلص الطيار من حمولته فى أى مكان وبأقصى سرعة يتجه للشرق مع المناورة العنيفة، وأحياناً يصيبه الصاروخ وتنفجر الطائرة فى الجو».

«وكان مع كتائب المشاة،ومعى فى مركز ملاحظتى جماعات من صواريخ سام ٧ التى تطلق من الكتف على طائرات العدو المنخفضة، فتصيبها أو ترفعها للصواريخ والمدافع الأخرى».

❑

ولا ينسى عادل يسرى أن يشيد بأبطال القوات الجوية كلما سنحت الفرصة لهذه الإشادة، ومع أنه لا يذكر أسماءهم كاملة فإن فى الإمكان الحصول على الأسماء الكاملة التى أبلت بلاء حسناً فى هذه المعركة المجيدة:

«وبالإضافة إلى دفاعنا الجوى العنيد.. يضيف أبطالنا.. نسورنا الجويون أروع قصص البطولة والفداء».

«فيقوم الرائد طيار وفاء حامل وسام نجمة سيناء من الطبقة الأولى فى معركة واحدة بطائرة ميراج ٢١ بإسقاط ٣ طائرات للعدو.. واحدة فانتوم واثنتان ميراج.. وهو ما يعتبر إعجازاً عسكرياً ويعود إلى قاعدته الجوية سليما».

«ويقوم النقيب طيار سليمان بإسقاط أربع طائرات للعدو فى معارك متفرقة.. ثم يقلع من مطاره فى أثناء غارة جوية للعدو مخالفاً الأسس.. لسلامته.. وينجح فى إسقاط طائرة للعدو ثم يستشهد.. ومئات وعشرات بعده من طيارينا يذودون عن سمائنا».

(٤٢)

ويقدم عادل يسرى رؤية سريعة لخطة القوات المسلحة المصرية فى تطوير الهجوم فى منتصف أكتوبر ١٩٧٣، ومما هو جدير بالفخر أن هذه التفاصيل التى نشرها عادل يسرى فى ١٩٧٤ لا تختلف عن التفصيلات التى نشرتها بعد هذا كتب ومراجع مصرية عن تطورات الحرب،وهو ما ينبئ عن وضوح الرؤية عند القيادة المصرية، وأنه كانت هناك خطة معروفة جيداً حتى لو كانت سرية ولكنها واضحة المعالم والحدود ومرسومة جيداً وحاضرة فى أذهان القادة من رتبة عادل يسرى وما يعلوها ـ بالطبع ـ من رتب:

«وكانت الخطة العسكرية المصرية ترتكز على أن يقوم الجيش الثالث والجيش الثانى بدفع مفارز قوية من الدبابات والمشاة الميكانيكية من رءوس شواطئ فرق المشاة الخمس المترجلة من فجر يوم ١٤ أكتوبر بعد قصفة جوية ضد الأهداف الهامة فى سيناء، وبعد تمهيد مدفعى لمدة ١٥ دقيقة بأكثر من ٥٠٠ مدفع من أنواع مختلفة. ثم ضربة صواريخ أرض/ أرض متوسطة المدى ضد مراكز الإعاقة الإلكترونية.. ومراكز القيادة والسيطرة، ثم يبدأ الهجوم المصرى الساعة السادسة والنصف صباحاً على النحو التالى:

(أ) يدفع الجيش الثالث مفرزتين:

الأولى بقوة لواء مدرع مدعم بكتيبة مشاة ميكانيكية فى اتجاه ممر متلا الجبلى.

والثانية بقوة لواء ميكانيكى فى اتجاه ممر الجدى الجبلى.

(ب) ويدفع الجيش الثانى الفرقة ٢١ المدرعة [عدا لواء] بقوة لواءين مدرعين فى اتجاه الطاسة، واللواء المدرع فى اتجاه المحور الشمالى».

ويردف عادل يسرى شارحاً أهداف هذه الخطة بقوله :

«وكانت الأهداف الرئيسية من هذا القرار هى :

١ ـ تخفيف الضغط عن سوريا واجتذاب الاحتياطيات الإسرائيلية.

٢ ـ تدمير جزء كبير من الاحتياطيات التعبوية الإسرائيلية.

٣ـ الوصول إلى المخارج الغربية لخط المضايق فى سيناء على بعد من ٣٠ إلى ٤٠ كم من القناة، وبالتالى حرمان العدو من المناورة على المحور العرضى غرب المضايق الذى يناور عليه باحتياطياته لتوجيه هجماته المضادة ضد رءوس الشواطئ».

(٤٣)

ومع أن هذا الكتاب كتاب ذكريات شخصية فى المقام الأول، إلا أن صاحبه لا يبخل علينا ببعض الآراء والأفكار العسكرية والتكتيكية، وهو لايكثر من هذا ولكنه يفعله كلما سنحت له الفرصة، وعلى سبيل المثال فإنه يفاجئنا بالاعتراف بمخاطر الخطة المصرية لتطوير الهجوم، وهو اعتراف ذكى بحدود المزايا والرزايا فى كل تخطيط، وهو ما لا يتاح إلا للذين يعملون وهم يدركون المصاعب ومع ذلك يقاومونها قدر ما يستطيعون.

كما أن هذه الرواية التى يقدمها قائد لواء متميز ترينا إلى أى حد كانت المصاعب مذهلة أمام قواتنا المسلحة ومع هذا فإن هذه القوات كانت تخطط واضعة فى حسباتها المخاطر، ولهذا فلم يكن أى إنجاز معاد كالثغرة شيئاً ناشئاً عن الإهمال أو الخطأ وإنما كان مرتبطاً ومتعلقاً بالمصاعب الجمة والمتكررة التى حاولت قواتنا التغلب عليها رغم إدراكها للمخاطر.

ها هو العميد عادل يسرى يقول:

«ولكن كان لهذه الخطة المصرية عدة مخاطر تتركز فى :

«أولاً: الخروج من تحت سقف الدفاع الجوى غرب القناة وتعرض احتياطياتنا المدرعة لتأثير الطيران الإسرائيلى».

«ثانياً: عدم اشتراك المشاة فى هذه المرحلة، وبقاؤهم فى رءوس الكبارى على الضفة الشرقية للقناة ضماناً لاتزان القوات المسلحة.. وبالتالى عدم تطهير الأرض من الكمائن.. كمائن الصواريخ المضادة للدبابات.. والدبابات والألغام».

«ثالثاً: عدم اكتمال معلومات الاستطلاع عن العدو ـ والأرض ـ وتجهيزات العدو الهندسية الأخيرة التى أعدها لملاقاة الهجمة المضادة».

ويردف عادل يسرى ملحوظة مهمة تتعلق بالطبيعة التى كانت ظروفها كفيلة بأن تعاكس تخطيطنا:

«كما أن توقيت بدء الهجوم كان فى وقت تكون الشمس فيه فى اتجاه قواتنا، بزاوية تجعل من الصعب رؤية العدو واستخدام أجهزة التنشين بصورة سليمة».

(٤٤)

وهذا هو العميد عادل يسرى يقدم وصفاً دقيقاً لمحاولة تطوير الهجوم التى بدأت قواتنا تخوضها بعد العبور بأيام، وهى معارك شرسة وعنيفة خسرنا فيها خسائر فادحة ولكن خسائر العدو كانت أكبر، ويكفى لتصور ما حدث فى هذا اليوم الصعب أن نتخيل أن خسائر الطائرات على الجانبين كانت ٢٤ طائرة [١٥ خسرها العدو ٩ خسرناها] وأن اثنين من قادة الألوية المصرية المدرعة ـ أى من رتبة عادل يسرى نفسه ـ قد استشهدا فى ذلك اليوم لأنهما كانا فى مقدمة قواتهما.

وهذه هى المعارك التى يتحدث عنها اللواء عبدالمنعم خليل فى مذكراته حين يقول إننا أخطأنا فيها نفس خطأ العدو فى أول أيامه، ولكن عادل يسرى يقدم الصورة أكثر إشراقاً، فإننا لم نخسر فى هذه المعركة على حين كسب العدو، وإنما كانت الخسائر من الجانبين وربما فاقت خسائر العدو، لكن المشكلة أن العدو كان قد بدأ يستعوض أسلحته بأسلحة أحدث منها، إذ كانت تأتيه الدبابات فى الطائرات إلى العريش «على الزيرو» كما كشفت عن ذلك عداداتها، بينما نحن نحارب بما فى أيدينا دون احتياطى جديد أو قديم:

«بعد ضربة الطيران المصرى الساعة السادسة والربع صباحاً، وتمهيد المدفعية لمدة

خمس عشرة دقيقة، وضربة الصواريخ أرض/ أرض متوسطة المدى.. اندفعت المفارز المدرعة المصرية وقد ووجهت بمقاومة عنيفة جداً من العدو.. اشترك فيها طيرانه ومدفعيته وصواريخه المضادة للدبابات وبالدبابات.. وكانت الخسائر كبيرة فى الجانبين.. وبرغم مقاومة العدو.. وبرغم الخسائر الفادحة، فقد استمرت قواتنا فى الاستبسال والإصرار على التقدم، واكتساب الأرض، وتدمير العدو، وكان قادتنا كالعادة على رأس القوات.. واستشهد اثنان من قادة لواءاتنا المدرعة فى هذا اليوم».

«وقامت خلال هذا اليوم معارك جوية رهيبة اشتركت فيها ٦٠ طائرة ميج ٢١، مع حوالى ٧٠ إلى ٨٠ طائرة فانتوم وميراج، يسقط للعدو فيها حوالى ١٥ طائرة فانتوم، ويسقط لنا ٩ طائرات ميج ٢١».

«وقد تأكدت القيادة المصرية فى نهاية اليوم عدم جدوى الاستمرار فى الهجوم.. كما أن المعلومات توفرت عن تحريك العدو لأغلب احتياطياته فى هذا اليوم فى اتجاه الجبهة المصرية.. وبهذا زال الخطر عن الجبهة السورية.. وهو ما كان التخطيط المصرى يهدف إليه أساساً».

«بلغ حجم مجهود العدو الجوى على الجبهة المصرية فى هذا اليوم حوالى ثلاثمائة طلعة،خصص منها مائتين وعشرين طلعة/ طائرة لمهاجمة وحداتنا المدرعة شرق القناة.. كما هاجم مطارات الصالحية، وطنطا، و المنصورة».

«بنجاح العدو فى إيقاف هجومنا فى هذا اليوم تمسكت قواتنا بالخطوط الجديدة المكتسبة وتم سحب وحداتنا المدرعة مرة أخرى إلى داخل رءوس الشواطئ لإعادة التجميع».

«نظرا للخسائر الكبيرة فى الجانبين نتيجة معركة الدبابات الرهيبة، وبالنسبة للإمداد العاجل الأمريكى للجانب الأمريكى، وتأخر الإمداد لمصر وصغر حجمه، فقد انتقلت المبادأة فى نهاية هذا اليوم بصورة مؤقتة للجانب الأمريكى.. أقصد الإسرائيلى!».

على هذا النحو يعبر صاحب هذه المذكرات عن بدء الإحساس بدخول الجانب الأمريكى المعركة خصما لقواتنا الباسلة.

(٤٥)

عند هذا الحد يقف عادل يسرى كما رأينا معترفاً بأن الخسائر الرهيبة فى الدبابات بدأت تحول المبادأة فى نهاية اليوم لصالح العدو لأن الإمدادات الأمريكية لإسرائيل كانت كفيلة بالتعويض الذى لن تجده الدبابات المصرية، وهكذا بدأت إسرائيل فى نظره منذ ليلة ١٥/ ١٦ فى تنفيذ ممارسة المبادأة أو العمل الهجومى:

«واعتباراً من ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر بدأت إسرائيل تنفيذ ممارسة المبادأة أو العمل الهجومى.. بدفع عناصر ومفارز للضفة الغربية لقناة السويس.. مع التركيز الرهيب بكل إمكانيات إسرائيل على فرقة واحدة فقط، هى الفرقة ١٦ المشاة.. لإزالتها وتدميرها.. لتأمين عملية عبور قناة السويس من الشرق للغرب».

«فقد قررت إسرائيل تنفيذ الثغرة مهما كلفتها من تضحيات، لأنها الجزء الباقى لمحاولة استعادة هيبتها إعلامياً ونفسيا!».

❑

ويرى عادل يسرى فى هذه المذكرات أن إسرائيل نجحت فى تحقيق الثغرة، ومع أن عادل يسرى يدرك حدود النجاح المحدود الذى حققته إسرائيل بهذه الثغرة، إلا أنه ينظر إليها بحساسية المنتصر الذى حقق نصراً ساحقاً ماحقاً ما كان يريد له أن ينتقص أبداً بأى ثغرة، وهو لهذا ينظر إلى تمكن إسرائيل فيه على أنه نجاح ولا ينظر له على أنه نتيجة طبيعية ومتوقعة للصعوبات والمخاطر والتخطيط المعادى:

«وبرغم أن إسرائيل دفعت ثمناً فادحاً إلا أنها استطاعت أن تحقق خطة التسلل والانتشار غرب قناة السويس».

❑

ويعود عادل يسرى ليبلور فى نقاط ما يظن أنه أسباب نجاح تسلل إسرائيل غرب القناة:

(أ) اختيار العدو منطقة مفصل الجيش الثانى والجيش الثالث حيث تقل كثافة القوات وارتكازه على البحيرات المرة لتأمين جانبه الأيسر.

(ب) تحديد نقطة عبوره في منطقة الدفرزوار القوية، و مطار الدفرزوار المهجور، وكان قد تم إخلاء هذه المنطقة تقريباً فى أثناء إعادة التجميع عدا بعض الوحدات الإدارية وبعض قواعد الصواريخ وعناصر خفيفة للتأمين.

(جـ) نجاحه في تدمير بعض قواعد الصواريخ وبالتالى أمكنه فتح ثغرة فى دفاعنا الجوى تنفذ منها طائراته.

(د) تأخر وصول المعلومات التي وردت عن مجموعة عمليات التسلل الصغيرة، وبالتالى عدم اتخاذ إجراءات كافية لتدميرها فى المراحل الأولى.

(هـ) صعوبة عمل عناصر الاستطلاع فى منطقة التسلل وعدم إمكانها متابعة عملية العبور الإسرائيلى.. والانتشار غرباً نظراً لطبيعة المنطقة».

(و) ضعف الهجمات المضادة، وقصفات نيران المدفعية التي وجهت ضد مجموعة التسلل فى البداية أدى إلى نجاحها واستمرارها».

(٤٦)

ومع هذا فإن عادل يسرى يحاول أن يجد أسباباً لانسحاب إسرائيل السريع من الثغرة، ويبدو لى أنه لم يكن يدرك أن إسرائيل (بطبعها) كانت تتمنى أن تنسحب بأسرع من هذا ولكن عقلية المصريين المبرمجة فى ذلك الوقت على ٩٩٪ لم تكن لتقبل بنجاح أو بنصر فى حدود ٩٠٪ وإنما هى طموحة إلى ٩٩٪، ومن هنا كانت المكانة المتضخمة للثغرة فى نفسيات قادة أفاضل بواسل وعظماء من أمثال عادل يسرى:

«وهنا يبرز سؤال: لماذا انسحبت إسرائيل.. من الغرب وبسرعة؟»

«والإجابة: أن هذه العملية ـ عملية الثغرة ـ كانت عملية غير عسكرية أساساً، بل هى عملية إعلامية، تدخل ضمن الحرب النفسية، فقد أدت إلى:

١ ـ اجتذاب أغلب الاحتياطيات الإسرائيلية بعيداً عن سوريا ،وهو هدف القيادة المصرية وقد تحقق.

٢ ـ طول خطوط إمداده ـ الاحتياطى الاسرائيلى المهاجم ـ عن قواعده الخلفية وقد وصلت أكثر من ٣٠٠ كيلومتر.

٣ ـ تعاظم القوات المصرية المحاصرة لرأس الجسر الإسرائيلى وتفوقها من حيث المقارنة التى أصبحت تسمح لها بالهجوم وتدمير القوات الإسرائيلية غرب القناة.

٤ ـ تزايد الخسائر الإسرائيلية نتيجة للمقاومة المستمرة غرب القناة، وللقصف المدفعى، والقصف الجوى المستمر للقوات الإسرائيلية.. مع رتق الثقب الذى حدث فى دفاعنا الجوى، وتقليل تأثير المجهود الجوى الإسرائيلى».

هكذا يبدو لنا أن عادل يسرى يدرك منذ ١٩٧٤ هذه الجوانب الأستراتيجية بعمق شديد، ومع هذا فإنه شأن كل المصريين يومها كان يشعر بحساسية شديدة من وجود الإسرائيلين فى الثغرة وكأنه لم يكن من الجائز أن يحقق الإسرائيليون أى نجاح جزئى فى أى نقطة من نقاط الجبهة .

ولست أحب أن أفيض فى الحديث عن هذا المعنى فقد أشرت إليه فى مقدمة الكتاب، كما أشرت إليه منذ قليل، ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل وقد ضخم الفيروس الإعلامى من أمر الثغرة لكى ينتقص من قيمة النصر العظيم والوحيد الذى رزقنا الله به فى تلك الحرب المجيدة !.

(٤٧)

ها نحن قد مضينا مع هذا القائد العظيم فى دروب حرب أكتوبر المجيدة التى لا يمل الإنسان من الحديث عن عظمتها وروعتها وفضل الله علينا فيها، وقد رأينا كيف قدم لنا هذا القائد الشجاع صوراً حقيقية لبطولات مجيدة فى هذه الحرب ولما تكن السنوات قد مضت بعد على انتهائها، وهكذا تتضح لنا هنا إحدى نواحى العظمة فى التسجيل الآنى للذكريات والانطباعات التى خرج بها هذا القائد العظيم من هذه الحرب.

ونعود مع هذا القائد الجسور إلى حديثه المبكر فى هذا الكتاب عن إسهاماته القيمة فى حرب الاستنزاف، وهو يروى (فى سرعة) أنه لم يشارك فى حرب ١٩٦٧، فلما عاد من الخارج عين رئيساً لاستطلاع إحدى الفرق، وكانت فرقة مشاة تشكلت

(حديثا)، وكان الهدف من تشكيلها ـ كما يذكر صاحب المذكرات ـ هو التدريب على اقتحام الموانع المائية، وهو حريص على أن يذكر حرص قيادة القوات المسلحة على أن يتميز أفراد هذه الفرقة ضباطاً وجنوداً:

«... وعندما حدثت نكسة ١٩٦٧ كنت خارج مصر، وعدت إلى الوطن فى أول عام ١٩٦٨ وعينت رئيساً لاستطلاع الفرقة ١٨».

«ونقف عند هذه الفرقة.. لأنها تمثل تحولاً ضخماً جديداً فى إعداد قواتنا المسلحة وإعادة بنائها، وفكراً جديداً فى التدريب على اقتحام الموانع المائية فى معركتنا القادمة، فقد كان علينا أن نعيد تكوين جيشنا مرة أخرى، وندربه على معركة جديدة عليه، وهى اقتحام أكبر مانع مائى فى التاريخ العسكرى، وكان علينا فى الوقت نفسه أن نرفع الروح المعنوية، وأن نعيد الثقة التى اهتزت بين القائد والجندى نتيجة لمعركة ١٩٦٧».

«لكل هذه الأسباب وأكثر منها، تشكلت الفرقة ١٨ المشاة لكى تكون مدرسة جديدة للقوات المسلحة فى التدريب على اقتحام الموانع المائية، بواسطة جنود ذوى نوعية خاصة، كلهم من أصحاب المؤهلات العليا والمتوسطة، القائد والضباط ممتازون وعلى درجة عالية من الكفاءة العسكرية».

«وقد أجرت قيادات القوات المسلحة، وقيادة الفرقة وقادتها العديد من الأبحاث النظرية، وتم عمل مراجع لاقتحام قناة السويس على أساس من دراسات الضباط المصريين، كما عملت محاضرات فى الكلية الفنية العسكرية لمناقشتها حضرها صفوة ضباط القوات المسلحة، وعلى رأسهم الفريق الشهيد البطل عبدالمنعم رياض رئيس هيئة أركان القوات المسلحة، وكنت أحد المحاضرين الأساسيين فى هذه الدراسات».

(٤٨)

ويحرص صاحب هذه المذكرات على أن يلخص للقارئ مراحل التدريب المختلفة التى مرت بها هذه الفرقة، سواء على مستوى الجنود أو على مستوى العمل

الجماعى، كما يحرص على أن يطلعنا على التآزر الذى تحقق فى أداء عمل هذه الفرقة مابين قوات المهندسين وقوات الدفاع الجوى والمدفعية والصاعقة والمشاة:

«وقد تدرجنا فى التدريب العملي للفرقة من مستوى الفرد.. إلى مستوى الطاقم والجماعة، إلى مستوى الفصيلة التى تتكون من حوالى ٣٠ جندياً، إلى مستوى السرية المكونة من أكثر من مائة جندى، إلى مستوى الكتيبة، ثم إلى مستوى اللواء والفرقة. وقد تم إجراء العديد من المشروعات بالذخيرة الحية، وفى ظروف تماثل ظروف المعركة، واشتركت كل الأسلحة فى تجاربها، وعلى سبيل المثال:

- اشترك المهندسون فى إعداد المنازل فى الضفة القريبة والمطالع فى الضفة البعيدة، وكذلك فى إقامة المعديات والكبارى وإنشاء الطرق والمحاور.
- كما قامت وحدت الدفاع الجوى بتأمين أعمال قتال الوحدات المختلفة بالتعاون مع القوات الجوية.
- وقامت المدفعية بإسكات مدفعية العدو ونقطه الحصينة وتقديم المعاونة فى كل مراحل المشروعات.
- كما اشتركت وحدات الصاعقة المترجلة وطائرات الهليكوبتر فى التدريب.

❑

ويتحدث صاحب المذكرات بعد هذا عن التدريبات العملية التى خاضتها الفرقة التى ينتمى إليها لواؤه، وهو حريص على ألا يفشى أسراراً عسكرية فى الفترة التى كانت الحرب فيها لم تنته بعد، لكنه فى ذات الوقت يصور جهود القوات المسلحة بأقرب الصور إلى الدقة والفهم والتعبير الموحى حيث يقول:

«ثم أجرت هذه الفرقة العديد من المشروعات التدريبية ليلاً ونهاراً على مانع مائى يشابه قناة السويس مع إقامة سواتر ترابية فى الضفة البعيدة تماثل تحصينات العدو الإسرائيلى».

كنا واقعيين فى التدريب، وأذكر أن الرئيس الراحل جمال عبدالناصر زارنا ووضعنا أمامه النتائج الحقيقية لمستوى التدريب دون خداع، وقد ألقى خطاباً بعد

خروجه من الفرقة وأذيع الخطاب بوسائل الإعلام المختلفة وقال فيه: إنه لأول مرة أستمع إلى نتائج واقعية وحقيقية لمستوى تشكيل بالقوات المسلحة».

(٤٩)

ومما يحسب لصاحب هذه المذكرات أنه نجح في كثير من فقراته في أن ينقل لجمهور القراء من غير العسكريين تصويراً جيداً لحجم الإنجازات التي كانت القوات المسلحة تحققها، سواء في المعركة أو في التدريب.

وسوف أجتزئ للقارئ بهذه الفقرة التي تأتي في حديثه عن الانتهاء من مشروع تدريبي استهدف التدريب على اقتحام مانع مائي مشابه لقناة السويس، وهو لا يصف المشروع كله ولا خطواته وإنما هو يصور فقط لحظات من رحلة العودة من المشروع إلى حيث تتمركز الفرقة.

وهو لا يبالغ في الأرقام التي يقدمها لنا لكي يوضح الصورة، بل ربما يلتزم الحدود الدنيا كما يمكن لنا أن ندرك هذا من مجرد مراجعة الحسابات التي قدمها، فإن ستة آلاف عربة ودبابة بين كل منها ٥٠ متراً تحتاج ٣٠٠ كيلومتر على الأقل حسب المعدل الذي أورده [وليس ٢٠٠ أو ٢٥٠ كيلو متر كما ذكر)، فضلاً عن أنه أهمل حساب طول الدبابات نفسها وربما اعتبره داخلاً في نطاق الخمسين متراً المسافة!!

وعلى كل فلنقرأ نص صاحب المذكرات على نحو ما أورده:

«وكنا قد أعددنا لهذا المشروع لفترة زمنية طويلة، وكان الإرهاق بادياً على وجوهنا جميعاً، واستمر المشروع خمسة أيام لم يغمض لي فيها جفن، وأذكر أن قائد الفرقة شكرنا في نهاية المشروع، ثم بدأنا الإعداد لرحلة العودة إلى القاهرة».

«وكانت رحلة العودة تستغرق أكثر من ثماني ساعات، ولكي يتصور الفرد العادي معنى تحرك فرقة مشاة مدعمة للعودة، يتصور حوالى ٦ آلاف عربة ودبابة ومعدات ثقيلة تتحرك على محور واحد، فلو اعتبرنا أن الفاصل بين كل عربة وأخرى حوالى ٥٠ متراً، لتصبح كثافة التحرك حوالى عشرين عربة في الكيلو الواحد، أي أن طول رتل الفرقة يتراوح بين ٢٠٠ و٢٥٠ كيلومترا».

«وفى أثناء رحلة العودة دعانى اثنان من ضباط عمليات الفرقة للنوم معهما فى عربة لورى بها مرتبة على الأرض.. وجاملتهما وذهبت معهما ونمت».

وبالطبع لم تكن نهاية الواقعة هى النوم!

(٥٠)

ويصل صاحب المذكرات إلى لحظة بديعة يجيد فيه تصوير ما حدث له حين ظن نفسه يحلم بالإصابة ونزيف الدم من رأسه بينما هو فى الواقع والحقيقة قد أصيب بالفعل وبدأ الدم ينزف منه، وهى لحظة لا تحدث إلا مع الإرهاق الشديد البالغ الذى يجعل إحساس الإنسان بنفسه يأتى إليه كما لو كان قادماً من اللاوعى لا من الوعى نفسه، ويصعب على مَنْ لم يجرب هذا الإحساس أن يتصوره أو يدركه.

ومع هذا فإنه وهو يُسعف ينتبه بحاسة الشم (وقد تيقظت أحاسيسه بفعل الهرمونات التى تفرز فى هذه اللحظات الفريدة من لحظات الانتباه، بينما زملاؤه يسعفونه وهم مجهدون ولا تزال حواسهم شبه غائبة) إلى حدوث حريق فى العربة التى يستقلها.

وكل هذا يحدث لأمثاله لا فى الحرب ولا فى التدريب فحسب، ولكن فى أثناء الرجوع الشاق من مشروع من مشروعات التدريب الشاق!!:

«وفى أثناء نومى حلمت أن مدفعاً من المدافع القديمة الموجودة فى المتحف والتى تضرب كوراً من الحديد.. ضرب كورة حديد أصابت رأسى.. فمددت يدى إلى رأسى أتحسسها فوجدت دمى الساخن الحقيقى يغطيها.. ويتدفق منها، قمت من نومى مفزوعاً، ترى ماذا كان السبب؟»

....

«لقد اتضح لى أنهم وضعوا دولاب حفظ وثائق يسمى «شانون» داخل العربة ووضعوا فوقه آلة كاتبة عريضة ولم أشاهد الدولاب ولا الآلة بسبب الإرهاق الشديد، وكان نومى تحتهما، لكن نتيجة لتحرك العربة اهتزت الآلة الكاتبة ووقعت

فوق رأسى مباشرة، ولحسن حظى لم يصبنى إلا ذراع الآلة الكاتبة فقط، وقام الضباط مفزوعين وأحضروا رباط ميدان طبيا، ربطوا به رأسى لإيقاف النزيف، واحتاروا لأن الرتل متحرك ولا يوجد طبيب قريب منا».

«وفى أثناء إسعافى والعربة متحركة ضمن هذا الرتل الضخم، شممت رائحة «شياط» تتصاعد من العربة نتيجة اشتعال جزء منها، واضطر السائق للوقوف بالعربة خارج الطريق حتى لا يعطل الرتل الضخم، وظهر أن «شكمان» العربة خرجت منه شرارة أشعلت شبكة تهويه العربة وامتدت إلى باقى أجزائها».

«واضطررت وأنا فى هذه الحالة من النزيف والإرهاق إلى الاشتراك مع الرجال فى إخماد نيران العربة».

(٥١)

ويفخر صاحب هذه المذكرات بأنه مرّ فى كادره العسكرى برئاسة كتيبة عسكرية مصرية عريقة هى الكتيبة السابعة مشاة، وهو ينتهز فرصة الحديث عن توليه لهذا المنصب ليروى لنا بعض ما يظن أنه كفيل بأن يصور لنا أسلوبه المتميز فى القيادة، وهو لا يتزيد فى حديثه عن هذا الأسلوب ولكنه يبذل ما فى وسعه فى أن يقدم لنا صورة موحية بما كان عليه أن يبذل من جهد فى ذات الوقت الذى كانت فيه قواتنا المسلحة تعانى من نقص الإمكانات.. ومع هذا فقد تسلم عادل يسرى هذه الكتيبة ليتحرك بها إلى رأس العش (وهى المنطقة التى أهدتنا بعد حرب ١٩٦٧ أول صحوة للروح القتالية المصرية بعد نكسة يونيو ١٩٦٧)، ويبدو لى أن اعتزاز صاحب هذه المذكرات بدوره فى قيادة هذه الكتيبة فى هذه المنطقة كان كبيراً جداً إلى حد أنه حرص على أن يورد «رأس العش» فى العنوان الفرعى لهذا الكتاب:

«عينت قائداً للكتيبة السابعة المشاة، وكانت فى هذا الوقت تتمركز فى بورسعيد

وتولى الدفاع عنهـا.. وهذه الكتيبة لها ماض عريق فى القـوات المسلحة، إذ أنها من الكتائـب القديمة التى حـافظت على التقـاليد العسكـرية، وسبق أن تولى قيـادتها قادة ممتازون منهم المشير أحـمد إسماعيل على القائد العام للقوات المسلحة. وقد عملت معه فى هذا الوقت كرئيس استطلاع للواء السابع المشاة فى منطقة أبو عجيلة».

«وكنت فخوراً جداً لأنى أتولى قيادة كتيبة عريقة لها تاريخ عسكرى مشرف، لكن كانت إمكانـيات الكتيبة عند تسـلمى لها محدودة، سواء فى الـعربات أو المعدات أو الأفراد».

«عند تسلمى الكتيبة كان معروفاً فى القيادة وبين الضباط وبعض المدنيين أننى بعد أن توليت قيـادة الكتيبة سأتحرك بهـا إلى رأس العش شرقاً، لهذا حـاولت كل جهدى وبشتى الوسـائل تنفيذ ثلاث مهام أسـاسية:

- التعرف على كل فرد فى الكتيبة.
- رفع مستوى التدريب والاستعداد القتالى.
- خداع جميع الأفراد عسكريين ومدنيين لإخفاء نية التحرك إلى رأس العش.

«وقد تم تعرفى على كل أفـراد الكتيبة وتقييمهـم من خلال حـصر شـامل استغرق منى ٦٠ ساعة عمل إضافـية إلى وقت عملى. فقد قابلت خلالهـا كل فرد على انفراد لمدة ١٠ دقائق ملأت خلالها نموذجاً به أسئلة معدة من قبل لكل فرد، بحيث اقتنع كل ضابط وصف ضابط وجندى أن قائد الكتيبة الجـديد يعرفه معرفة شخصية، وأنه فتح له صفحة فى ملف الكتيبة الذى أنشأه عنهم».

❏

ثم يروى صاحـب المذكرات أنه بدأ يجـرى تدريبات حية بهـذه الكتيبة فـى مدينة بورسـعيد حيث كانت الكتيبة تتمركز:

«وعملت عدة اختبارات لـلوقوف على مستوى الكتيبة الفـعلى، وكفاءة الضباط.. كما فـتشت بنـفسى علـى الأسلحة والمـعدات والحملـة والذخائر لـلتأكد مـن درجة الاستعداد والكفاءة القـتالية، وقد مزجت تدريب الكتيبة بـالسرية والخداع، فأجريت

عدة تدريبات ومشروعات على الدفاع عن مدينة بورسعيد وإجراء هجمات مضادة لاسترداد أجزاء من مدينة بورسعيد».

«وقد ركزت هذه التدريبات خلال اليوم السابق لتحرك الكتيبة إلى رأس العش، فتم رفع درجة الاستعداد للكتيبة بعد منتصف الليل.. ثم أزعجت المدنيين بتجارب هجمات مضادة ليلية لاسترداد مناطق حيوية من المدينة، وكان التدريب عنيفاً وجاداً لدرجة أقنعت الجميع أن الكتيبة لن تتحرك إلى رأس العش».

«وفى مساء اليوم التالى كانت مقدمات الكتيبة ثم باقى الكتيبة تتحرك لتتمركز فى منطقة رأس العش شرقا».

«وكان هذا فى منتصف عام ١٩٦٨».

(٥٢)

ويبدو لنا واضحًا حرص صاحب هذه المذكرات على رواية تشجيع القائد العسكرى العظيم الفريق عبدالمنعم رياض له، وكيف دار الحوار بين الرجلين حين كان عادل يسرى متمركزاً بكتيبته فى رأس العش، وسنرى من هذا الحوار كيف كان الشهيد رياض ـ بالفعل ـ رجلاً جاداً جسوراً، وكيف كان حواره مع مرءوسيه ينطق بعسكرية متميزة:

وفى هذا الموقع زارنى الفريق الشهيد عبد المنعم رياض رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة، ومعه اللواء عدلى السعيد قائد الجيش الثانى. وقد وصل إلى الموقع بواسطة «لانش» من هيئة قناة السويس، وبمجرد نزوله تقدمت لأداء التحية، فأمسك يدى وسألنى: «المقدم الفاقد عادل يسرى؟».

«فأجبت: أيوه يافندم».

«فقال لى: «بلاش تهور، وما تطلعش دوريات تانى، لأنك قائد كتيبة».

«فقلت له: «سيادتك بعد عمليات ١٩٥٦ و١٩٦٧ اهتزت الثقة فى القائد.. وأنا

كنت مضطراً أن أقوم بأعمال غير عادية، لكى يشعر الضابط والجندى بالثقة فى قائده قبل المعركة».

«بعد ذلك تقدم الفريق عبد المنعم رياض ومعه اللواء عدلى حتى الحد الأمامى وصعد على برج بسيط كنا استلفناه من بلاج بورسعيد، ثم جلس مع الجنود ببساطة يسمع لهم، وكان لهم سؤال واحد: «متى نبدأ القتال..؟»».

«فى أثناء الزيارة كنت أنسب كل عمل ممتاز يراه الفريق رياض لفرد من الكتيبة، وكنت أشيد بالجنود والضباط الاحتياط والضباط الذين يعملون معى».

«فتأثر الملازم أول أحمد وقال لسيادته: «كل عمل بتشوفه فى الكتيبة، المقدم عادل يسرى وراه، لأنه بيشرف على كل حاجة».

«فرد يرحمه الله: «يابنى لما القائد يقول إن العمل ده عمل فلان فليس معنى ذلك أنه بيقلل من قيمة نفسه، بالعكس ده بيرفع رجاله وبيرتفع معاهم».

«وسألنى الفريق رياض فى أثناء زيارة الموقع: «إزاى حال كتيبتك؟»».

«فأجبت بثقة: «أحسن كتيبة فى القوات المسلحة يافندم».

«فنظر لى بدهشة وقال: «مش تترك غيرك ياعادل يحكم عليك..؟»».

«فقلت له: لو سمحت يافندم.. أعفنى من حكم الناس.. ممكن سيادتك تعطينى مهمة قتال أخرى ومن خلال تنفيذ هذه المهمة أثبت لكم أنها أحسن كتيبة».

«فسكت قليلاً ثم قال: «طيب ياعادل.. حا أبعت لك مهمة قتال إن شاء الله»، وفعلاً كلفنى بمهمة قتال».

(٥٣)

ولا يخلو الأمر فى الإعداد للحرب من محاولات ـ ذكية أو يائسة ـ من أجل إيجاد حلول مبتكرة للمشكلات التى تصادف القوات المقاتلة، ونحن نقرأ للعميد عادل يسرى ما يرويه عن محاولة جادة لإقامة كوبرى على القناة من موارد متاحة كانت هى مجموعة من « البراطيم » قدر عادل يسرى أن بوسعه أن يجعل منها قاعدة لإنشاء كوبرى:

«أردت فى هذه الفترة إقامة كوبرى يربط جزيرة البلاح بالضفة الغربية، ولكن الإمكانيات كانت محدودة.. وكنا ندخر الكبارى للعملية الهجومية الشاملة».

«ولكن فى أثناء استطلاعى وجدت مجموعة ضخمة من «البراطيم» على الضفة الشرقية للقناة بين القنطرة وجزيرة البلاح، كانت أصلاً لشركة قناة السويس، وتصلح لإقامة كوبرى عليها لو نجحت فى جذبها إلى داخل الجزيرة، وكانت المسافة حوالى ٧ كيلومترات».

❑

ثم يروى صاحب المذكرات خطواته من أجل إقامة هذا الكوبرى بالجهود الذاتية:

«اتفقت مع قائد الكتيبة اليسار ـ المقاتل عبد الله ـ على أن نرفع درجة استعداد كتيبته وكتيبتى وأن نتعاون فى جذب البراطيم وسحبها داخل الجزيرة، تحت ساتر نيران الكتيبتين».

«أى أعلنا الحرب على إسرائيل فى حالة تعرضها لعملنا».

«شكلت مجموعة لجذب «البراطيم» بقيادة النقيب عصام ومعه صف ضابط ممتاز اسمه الوزيرى، وكانت المجموعة مكونة من حوالى ٤٠ فرداً بالإضافة إلى تشكيل مجموعات ساتر متحركة لوقاية تحركهم مع استعداد كل من الكتيبتين للاشتباك الفورى بالعدو فى حالة تدخله».

«تم جذب البراطيم أولاً للضفة الغربية، ثم سحبناها مثل عملية سحب المراكب فى النيل بالحبال ضد التيار.. واتضح أن المجموعة مكونة من ٥٧ برطوماً، كل برطوم مثل البرميل الكبير جداً، ويتراوح ثمنه مابين ٤٠٠ و٥٠٠ جنيه».

«بدأت عمليات الجذب ليلاً الساعة ٨ مساء فى صمت كامل، وانتهت داخل الجزيرة الساعة ٣ صباحاً، وكانت أشق وأصعب مرحلة فى أثناء مرورنا، وعلى يسارنا النقطة القوية المعادية عند الكيلو ٥١، وعلى يميننا حقل ألغام لنا مضاد للأفراد... لو فتح العدو نيرانه علينا لاضطر الأفراد لإلقاء أنفسهم فى الماء حتى يتم إسكات نيران العدو».

«وعلى مدخل الجزيرة الشمالى كان فى انتظارنا لنشان لهيئة قناة السويس أثما

سحب مجموعة البراطيم حتى منتصف الجزيرة وسط فرح صاخب للجميع وعلى رأسهم قائد الكتيبة. لقد امتلكنا كوبرى!!».

«وفى الصباح اتصلت برئيس مهندسى الجيش الثانى وكنت ألح عليه باستمرار فى طلب كوبرى فيعتذر فقلت له: «الإمكانيات حضرت للكوبرى» لم يصدق فى البداية.. ثم حضر.. وشاهد مجموعة البراطيم.. واندهش».

ولا يفصح عادل يسرى عن الغرض الذى جعل قيادته تستخدم هذه البراطيم من أجله:

«ولكن لم نعمل الكوبرى لأن البراطيم أخذت منى لأغراض أهم».

(٥٤)

ومن الفقرات المهمة فى ذكريات عادل يسرى عن فترات الإعداد والتدريب، تلك التى يروى فيها حرصه على تكامل إعداد مقاتليه من كافة النواحى المطلوبة، فهو يعدهم الإعداد الدينى والإعداد الرياضى أيضاً، وهو منتبه إلى أهمية هذا الإعداد الرياضى فى تأهيل الجنود لخوض المعركة بروح الفريق والعمل المشترك بل إنه يسجل أن التفوق فى الرياضة يبشر بالنفوق فى المعركة:

«ونظمت عدة مباريات رياضية مبتكرة كان الهدف منها الجمع بين القائد والضباط والجندى فى عمل مشترك له نتيجة جماعية.. مثل مباريات كرة قدم مشتركة.. مسابقة تتابع جرى يشترك قائد كل كتيبة فيها ويشترك معه قائد سرية، ملازم، وصف ضابط ، وجندى، والهدف تربيط الوحدة، لأشعرهم بأنهم مثل ما كسبوا المباراة بالجهد المشترك.. فإنهم فى المعركة بالأسلوب نفسه يكسبون.. وينتصرون».

«والغريب أن الكتيبة التى كسبت التتابع المبتكر.. وأخذت الكأس كانت أحسن كتيبة فى المعركة الحقيقية».

«بالإضافة للمسابقات الرياضية، أجرينا مسابقات رماية جماعية يشترك فيها من كل كتيبة خمسون رامياً، والنتيجة جماعية للوحدة ولا يعلم الفرد نتيجته الفردية.. كالمعركة تماماً.. النتيجة لكل الوحدة.. لكل الأفراد».

«والمباريات الرياضية تفيد فى شغل وقت الجندى بطريقة بناءة وترفع معنوياته، وقد استخدمنها أيضاً فى الخداع والتمويه».

❑

ولا يكف صاحب المذكرات عن الحديث عن الجهد الذى بذل فى التدريب، وهو حريص على ذكر الأخذ بمبدأين مهمين هما مبدأ التدرج فى التدريب واشتراك كل الأسلحة فيه:

«كان التدريب متدرجاً.. وانتهى بتدريب كل لواء مشاة من لواءات النسق الأول فى مشروع مشابه فعلاً للمعركة، ونفذت الخطة على أرض مشابهة لأرض العمليات، وصدق المشير أحمد إسماعيل على استدعاء الاحتياطى لكل لواء فى فترة هذا التدريب المشترك».

«واشترك مع كل لواء دعمه للعمليات الحقيقية من وحدات دفاع جوى، ووحدات مدفعية، ومهندسين، ودبابات، ووحدات إدارية وفنية، وتخصصية.. إلخ».

(٥٥)

وتدلنا هذه المذكرات فى كثير من مواضعها على مدى الشعور النفسى الذى كانت تضطرم به نفوس المقاتلين الوطنيين الشجعان من أمثال صاحب المذكرات، وهو يروى صورة للحرب المعنوية التى كان العدو الإسرائيلى يجيد القيام بها من أجل تحقيق الانتصار النفسى على أفراد قواتنا المسلحة، ومع هذا فإن مثل هذه الإحباطات كانت بمثابة أقوى دافع للوطنيين الشجعان على الاجتهاد من أجل تخليص وطنهم من عار الهزيمة و تخليص أرض وطنهم من رجس العدو:

«وفى أثناء الاستطلاع وجدت لـلعدو لافتة كبيرة جداً فى نقطة التـينة القوية كتب عليها باللغات العربية والإنجليزية والعبرية:

سنة ١٩٤٨	أخذنا فلسطين
سنة ١٩٥٦	أخذنا شرم الشيخ
سنة ١٩٦٧	أخذنا سيناء
سنة ١٩٧٠	سندخل القاهرة!!!

«وفى أثـناء قراءتى لـلوحة نادى عـلىّ جنـدى إسرائيلـى ولم أكن أضع عـلامات الرتب التى تبين أننى قائد.. وقال:

«مصرى.. مصرى.. أنا كنت فى العريش امبارح وكنت نايم مع أختك هناك».

«وغلى الدم فى رأسى.. ولم أرد.. ولكننى دعوت الله أن يسمح لى بالهجوم على هذا الموقع».

(٥٦)

وعلى الرغـم من كل هذا المجد وكل هذه البـطولة وكل هذا الكفاح وكـل النجاح الذى تحفل به المـذكرات، لا يغفل صاحب هذه المـذكرات أن يحدثنا عن معـاناته هو شخصيـا من الروح التى سادت وطـننا العزيز فـى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ حـين كانت جماهير الشعـب تسىء الظن بأفراد القوات المسلحة، وهـو يشير فى أدب إلى أن هذه المشاعر كانت تُنمى عن طريق التعبئة أى بفعل فاعل!!

وهو يروى واقعة حدثت له وكيف أنه تأثر من هذا الشعور المعادى، ومع هذا فإنه لـم يعـذب نفسه بهـذا الشعور كثـيراً وإنما كان واثقـاً أن هذا الشعور سـينتهى عـندما تنتصر القوات المسلحة للوطن ولنفسها:

«برغم الجهد والتضحيات التى ذكرتها كانـت هناك تعبئة للشعور المعادى للقوات المسلـحة فى هذا الـوقت.. أذكر فى أثنـاء إجازة ميدانيـة وأنا فى رأس العـش وكنت

أرتدى الزى العسكرى ومعى سيارتى الخاصة.. وقمت بتوصيل زميل لى مع أولاده إلى المستشفى الإيطالى بالعباسية.. وفى أثناء عودتى من أمام كلية الهندسة أشار إلىّ ثلاثة من الطلبة بالوقوف.. فوقفت وفتحت باب السيارة لأننى ظننت أنهم يريدون الركوب وقلت «اتفضلوا».

«نظر بعضهم إلى بعض فى خجل ثم قالوا: «لو سمحت ارجع أحسن باقى الطلبة يكسروا عربيتك»، فسألت «ليه؟» قالوا «علشان أنت ضابط».

«وبسرعة فكرت فى الجهد والسهر والتضحيات والدم التى تبذل من أجلهم.. وهل يكون جزائى هو الضرب.. وتكسير عربتى!».

«نظرت فوجدت أمامى عربات محترقة، وأخرى مقلوبة، ووجدت أنه لا فائدة من المناقشة.. فعدت ودمى كله يغلى لأنى تذكرت اليابان وكيف صنعوا المعجزات وانتصروا لأنهم يقدرون الرجل الذى يضحى من أجل بلده.. وكيف نحارب هنا.. ونجرح.. ونستشهد.. وكيف نكافأ بعد ذلك!!».

«برغم هذا كانت القوات المسلحة مستمرة فى العمل، لأننا كنا متأكدين أن هذا الشعور لابد أن ينتهى عندما تنتصر القوات المسلحة.. فقد كانت النكسة نكسة للبلد جميعه، لمصر كلها».

(٥٧)

ولست فى حاجة إلى أن أشير إلى ما أشار إليه قادة عسكريون كثيرون من أن هذه الروح التى يشير عادل يسرى إلى أنها وجدت فى وقت من الأوقات لم تكن لتذكى إلا بفضل جهود مسمومة قامت بها أجهزة مسئولة ظنت أن فى إلقاء عبء الهزيمة على عاتق قواتنا المسلحة تبرئة للقيادة السياسية، ولكننى أحب أن أنبه إلى مدى حرص الرئيس السادات على أن يسجل فى خطابه فى مجلس الشعب المصرى فى اليوم الحادى عشر للحرب، أن القوات المسلحة المصرية لم تكن سبباً فى هزيمة ١٩٦٧، وإنما كانت ضحية من ضحاياها.

كذلك لا ينسى العميد عادل يسرى أن يصور لنا كثيراً من مصاعب الحياة فى الميدان حين يواجه المقاتلون قسوة الطبيعة والكائنات الحية، لكنه لا يفيض فى حديث من هذا النوع لأنه بالطبع مشغول البال والخاطر بعدوه، وبالطريق إلى الانتصار عليه، ومع هذا فإن كتابه لا يخلو من ذكريات طريفة من نوع الحديث عن الفئران المتوحشة التى كانت تمشى صفوفاً متراصة ولا تؤثر فى أجسامها السموم المتعددة:

«ومن الأمور الطريفة قبل أن ننهى هذه الفترة فى رأس العش، أن هذه المنطقة كانت مليئة بالفئران، وفئران رأس العش أحجامها كبيرة جداً، خصوصاً فى منطقة مطبخ الكتيبة.. عند الكرانتينة بجوار قناة الملح.. أذكر وأنا أمر فى إحدى الليالى فى هذه المنطقة.. أن وجدت الأرض تتحرك.. أضأت الكشاف فوجدت سرباً ضخماً من الفئران تسير متلاصقة الأكتاف.. كتف بكتف كالإخوة والأحباب.. فكرت ثم بدأت أجرب أنواع السموم المختلفة.. لكنها لم تجد.. أمرت كل جندى أن يحضر قطة وهو راجع من الإجازة، وفعلاً امتثل بعض الجنود، وأحضروا معهم عدداً كبيراً من القطط، لكن الفئران زادت حجماً، واختفت القطط!».

«هذه الفئران هاجمت بعض الأفراد فى أثناء نومهم وعضت أنوفهم وأيديهم وأجزاء من أجسامهم، وكانت كثيراً ما تنزل قناة السويس، وتختفى بين الأحجار المكونة لحائط قناة السويس».

(٥٨)

وفى أكثر من موضع من هذه المذكرات القيمة نجد صاحبها العميد عادل يسرى حريصاً على التعريض بالاتحاد السوفيتى والمستشارين السوفييت، وعلى الرغم من أنه لا يعمم أحكامه على كل هؤلاء المستشارين إلا أنه يبين وبوضوح أنه لم يكن يرتاح لهم ولا لأدائهم ولا لوجودهم، ومن الإنصاف أن نقول إنه كان شجاعاً فى مثل هذا الحديث بهذه النبرة، بينما كانت النبرة الرسمية لا تزال تحافظ (فى الظاهر) على العلاقات مع السوفييت، وإن لم تمانع فى تسرب نقد كهذا الذى نطالعه فى مذكرات عادل يسرى.

ولولا أن المذكرات التى كتبت فى تلك الفترة عن الفترة نفسها قليلة لأمكن لنا أن ندرك كثيراً من التفصيلات المهمة حول العلاقة الطبيعية بين المقاتلين المصريين والخبراء السوفييت.

ومع هذا فإننا نجد مواقف واضحة لقائد القوات الجوية الفريق مدكور أبو العز وصلت إلى الاصطدام على نحو ما يرويه هو فى مذكراته، كما نجد فى مذكرات الفريق أول محمد أحمد صادق ومذكرات الفريق سعد الدين الشاذلى ومذكرات محمد حافظ إسماعيل فقرات طويلة عن اصطدامات صادق المتكررة وهو وزير للحربية (وغيره) مع السوفييت.

ومن المهم الآن أن نقرأ هذه الفقرات التى لا يجد فيها عادل يسرى حرجاً أن يقول بصراحة إنه لم يلمس لهم أى دور فى الفرقة ١٨، كما أن دورهم وهو قائد للكتيبة السابعة مشاة كان يقتصر على زيارتين فى الأسبوع تنتهى بالغداء والشاى، ويقفز عادل يسرى ليختزل جهد السوفييت فى أشياء تافهة كالحرص على الطعام الجيد، وكمياته، أو الحرص على النوم المريح أو الحديث فى الأيديولوجيات.. وقد يكون من السهل علينا ـ أو على غيرنا ـ أن ننتقد عادل يسرى وأن نصف حديثه بقدر من المبالغة، ولكن علينا أيضاً أن نتصور مشاعره الحقيقية على نحو ما تتضح من السطور التى يرويها:

«أود أن ألمس دور المستشارين السوفييت الذين عملوا معى حتى الآن».

«الواقع أنه فى خلال عملى كرئيس استطلاع للفرقة ١٨ المشاة، لم ألمس لهم أى دور، حتى ونحن نضع الأسس الأولية لاقتحام الموانع المائية».

«وفى أثناء عملى كقائد للكتيبة السابعة المشاة فى رأس العش والبلاح لم أكن أراهم إلا فى زيارات مرتين تقريباً فى الأسبوع.. وتنتهى الزيارة دائماً بالغداء وشرب الشاى».

«وفى اللواء الميكانيكى عمل معى كبير خبراء عقيد اسمه نيكولاى ومساعده ألكسندر.. وكان كبير الخبراء يعمل أصلاً عامل مناجم، وهو شخص طويل، عريض، أما الثانى ـ ألكسندر ـ فهو قصير، وجهه أحمر، دمه خفيف، لكنى لم ألمس

من الاثنين أية فائدة عسكرية إطلاقاً.. وكان خبير الفرقة فيكتور شخصاً متحركاً وملماً بالأمور العسكرية وبمستوى جيد.. ولكنه يتحرك أيضاً فى اتجاهات سياسية».

«وأتذكر مجموعة من القصص الطريفة حدثت مع الخبراء السوفييت. كنا فى مشروع استمر عدة أيام، وفوجئت بالخبير ألكسندر يخبط على العربة التى أنام بها قبل الفجر.. استيقظت.. وجدته قد شرب حتى الثمالة، وصاح فى وجهى باللغة الروسية: «أنت ما اتعلمتش عندنا.. ولا تعرف عاداتنا».

«فقلت له: «ليه يا ألكسندر».

«فقال: «لأنك لو اتعلمت.. كنت لازم تعرف أنى لازم أتعشى لحمة.. وأفطر لحمة».

«وكان ضابط الميس قد جهز لهم عشاء عبارة عن زبادى ومربى وجبنة».

«فقلت له: «طيب يا ألكسندر روح نام والصبح أبعت لك اللحمة»، وتناقش طويلاً قبل أن أصرفه بالحسنى».

«وكانت نكتة يتبادلها ضباطنا أن تقييم المشروعات يتم على حساب الوليمة التى تعمل للمستشارين.. وعرفوا هم أخيراً ذلك وكنت أسمعهم يقولون باللغة العربية المكسرة «فرخة كبيرة مشروع ممتاز.. فرخة صغيرة مشروع زفت».

(٥٩)

ثم يردف عادل يسرى برواية الوجه الآخر للحقيقة وهو ما يجعل حديثه عن السوفييت يبدو منطقياً وموضوعياً ومتزناً ويقول:

«وأنا تعلمت فى روسيا فى أكبر معهد للقيادة هناك وهو «أكاديمية فرونز»، وأعلم أن هناك ضباطاً على مستوى رفيع، لكن أغلب المستشارين الذين رأيتهم فى مصر كانوا دون المستوى.. ومن دراستى لهم اتضح أن أغلبهم يرسل لمصر فى الفترة السابقة لإحالته للتقاعد.. لمدة سنتين إلى ثلاثة كترفيه، وتحسين لحالته الاقتصادية.. وبانتهاء خدمته هنا.. تنتهى خدمته فى القوات المسلحة السوفيتية عدا قلة منهم».

وفى موضع آخر يتحدث صاحب هذه المذكـرات عن إحدى تجاربه الشخصية فى التعامل مع الخبراء السوفييت ويقول:

«فى لواء الـنصر التقيـت بمستشار سـوفيتى يجيد اللغة العـربية.. خفيـف الظل.. ونجح فى الحصول على ثقة أغلب الضباط وكان مستواه جيداً».

«كان هناك مستشارون على مستوى الكتائب، لكن هؤلاء للأسف كانوا فى مستوى علـمى ضعيـف ولا يعملـون إطلاقاً.. فطـالبتهـم بالعمـل بالذوق أولاً.. ثم ابتدأت أضغط عليهم».

«وقد فوجـئت فى أول مشـروع لواء بالجنـود؛ قبل الفـجر بعربـة لورى كبيـرة فى مركز ملاحظتـى فتشتها فوجدت جميع المـستشارين تاركين وحداتهم ونـايمين معاً.. على حين رفضت أنا وضـباطى مبدأ إحضار عربات لمبيتنا.. الجـندى والقائد فى حفر متشابهة».

«وسمعوا مـنى «دشاً بارداً» باللغـة الروسية، وكنت أمثل بـالنسبة لهم «بـعبع» فى اللواء... بعد ذلك كانوا يخشون صرامتى».

«سألت مرة مستـشار الكتيبة ٢٥ عن اسم المنطـقة الموجود فيها ملجؤه فـلم يستطع برغم وجوده فى المنطقة أكثر من عام، سألته عن موقف العدو أمامه فلم يعرف.. سألته فى الأساسيات فوجدته «أستيكة».

«حاول زملاؤه أن يدافعوا عنه بعد ذلك بأنه كان خائفاً منى، لكن دفاعهم كان غير مقنع وحاول أن يحفظ بعد ذلك».

«وأذكر أنه فى أحـد الأعياد القومية لـلاتحاد السوفيتـى طلبوا منى الاحتـفال به مع السمـاح بشرب الخمور.. لـكنى رفضت رفضـاً قاطعاً ليـس من أجل الدافع الـدينى فحسـب، بل لوجودنـا فى الجبهـة، وأنا لا أضمن متـى يبدأ العـدو الغادر أى عمـلية مفاجئة».

«وألحوا.. ورفضت».

«وأخيراً سُمح لهم بعمل حفل على مستوى الفرقة بنادى فايد ولم أشرب».

(٦٠)

ولا يفوت صاحب هذه المذكرات أن يشير إلى ما تعتمل به نفسه من مشاعر عروبية جياشة، وهو يذكر مشاركات الوحدات العربية (من خمس دول عربية هى: الكويت وفلسطين والجزائر والمغرب والسودان) التى كان من حظها وحظنا أن شاركت فى تحقيق النصر المؤزر الذى أعاد الله به الكرامة والعزة والحياة لأمتنا العربية، وهو يذكر أسماء بعض القادة والشهداء الذين شاركونا تحقيق هذا النصر العظيم والاستشهاد فى سبيله، وإنى لأدعو الله أن يوفقنا فى مصر إلى الوسيلة التى يمكننا أن نعبر بها عن أمنيتنا فى تخليد ذكرى هؤلاء الشهداء والأبطال فى مؤسسات تقوم على أرضنا، وتحمل أسماءهم رمزاً لهذا التوحد فى لحظة العزة التى لم يرزقنا الله بأعز منها:

«وفى أثناء الاستنزاف وأثناء الإعداد للمعركة، كانت على القناة وحدات من الكويت.. من الجزائر.. من فلسطين اشتركت فى الدفاع عن القناة، وكان لى شرف قيادة الوحدات الكويتية، ضمن لواء النصر فى فترة ما.. وقد لمست منهم نخوة ورغبة فى العمل، وشاهدت مقاتلين، انضباطيين، وكسبت إخوة.. وأبناء».

«وامتزج الدم العربى على القناة مؤكداً وحدة الصف العربى.. وأن النصر عربى».

«لن أنسى القائد جاسم شهاب.. الجاد.. المثقف.. الوطنى، لن أنسى الشهيد القائد الرائد عبدالله الجيرار والنقيب يوسف عبيد.. لن أنسى إخوتى فى السلاح من الكويت أو الجزائر أو فلسطين أو المغرب أو السودان.. أبداً لن أنساهم وأرجو أن يقام نصب للوحدة العربية على القناة».

❑

ومع أنى لا أملك التفصيلات الكاملة عن المشاركة العربية فى معركة ٦ أكتوبر المجيدة فأنى بمقارنة نص عادل يسرى بنص الشاذلى أجد أن عادل يسرى لم يشر إلى مشاركات العراق وليبيا والأردن والسعودية وتونس على حين أن نص الشاذلى لم يشير إلى مشاركات فلسطين، وتفسير هذا سهل جداً وإن كنت لا أدرى صوابه، فعادل يسرى فيما يبدو يقتصر فى حديثه على المشاركات مع القوات البرية على

الجبهة المصرية، وقد كانت مشاركات العراق والأردن والسعودية على الجبهة السورية أساساً كما أن مشاركات العراق وليبيا على الجبهة المصرية كانت مع القوات الجوية، أما الشاذلى فيتحدث عن الدول، ولم تكن فلسطين فى ذلك الوقت تعامل كدولة، وإن كان هذا لا يسقط حق قواتها فى الإشارة إليها كما ذكرنا من قبل فى الباب الثانى من هذا الكتاب وعلى كل الأحوال فلا تزال مثل هذه القضية العظيمة فى حاجة إلى تحقيق جيد.

❑

وقبل هذا يروى عادل يسرى باعتزاز واقعتى اتصاله وتعاونه بالجبهة السورية :

«فى أول شهر أغسطس ١٩٧٣ عينت مع اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثانى ضمن وفد عسكرى لزيارة الجبهة السورية.. وكان من حظى أن أشارك العميد أركان حرب ـ فى ذلك الوقت ـ أحمد بدوى فى الزيارة.. كنا فى عربة واحدة وفى غرفة النوم نفسها.. وهو بالإضافة لهذا زميل وأخ أحتذى خطاه. فقد حصلنا على أكاديمية فرونز العسكرية فى بعثتين متتاليتين».

«ثم هو زميلى فى ظلم لا قبل لنا به، فقد أحلنا معاً إلى المعاش.. وإن كان هو قد عانى ظلماً أفدح منى، وبرغم هذا كانت مناقشاتنا معاً على انفراد تدل على إيمان بمصر وبالوطن.. وعلى عزة وكرامة.. لا تنحنى أو تنكسر».

«والجبهة السورية لها فى نفسى ذكريات.. فقد خدمت فيها زمن الوحدة أكثر من عام، وحضرت معركة التوافيق وشربت مياه الجوخدار وسكنت العال/ وفيق، واستحممت فى بحيرة طبرية، وأكلت من سمكها، ولا أستطيع أن أنسى قرية «الكرس» ولا مشتى «الحمة».. ولا أستطيع أن أنسى إخوتى.. زملاء سلاحى فى سوريا».

«أنظر على البعد إلى القنيطرة ثم أتفقد خط المواجهة حجراً حجراً حتى السويداء ثم إلى العمق عند زيارتى لقوات سوريا الضاربة.. ومع كل خطوة أرى وجهاً أعرفه.. وبسمة وتحية.. ثم أجد شخصاً قد نسيته.. فيتقدم لى ويذكرنى بنفسه، وبذكريات عزيزة على نفسى».

(٦١)

ولا ينسى عادل يسرى فى خضم هذا كله أن يعبر بشدة عن امتنانه العميق للذين قدموا له الرعاية بعد إصابته، فهذا هو القائد العام بنفسه يعرف عنه الكثير ويزوره بنفسه فى المستشفى:

«فى هذه الأثناء يزورنى المشير أحمد إسماعيل فى المستشفى. كان القائد العام للقوات المسلحة قد سمع عنى، وفوجئت بأنه يعلم عنى الكثير.. أكثر مما أتوقع».

وهذه هى السيدة جيهان السادات تقف بنفسها على تمريضه وتحضر بنفسها أربع عمليات جراحية أجريت له فى مستشفى المعادى:

«لا أنسى أول عملية جراحية لى فى مستشفى المعادى.. خرجت من غرفة العمليات، وعندما بدأت أفيق من التخدير وجدتها أمامى، كانت أول من أراه، كانت السيدة جيهان السادات فوق رأسى تشرف على تمريضى».

«وسمعت من الأطباء بعد ذلك أنها وقفت بجوارى أكثر من ساعة قبل أن أفيق.. وتمر الأيام وتتعدد العمليات الجراحية.. ويتغلب الأمل والعزيمة على المستحيل.. وتحضر السيدة جيهان أربع عمليات جراحية لى.. وتقف معها سيدات مصر وأمهاتها، طابور من السيدات يرتدين بالطو أبيض بسيطا.. وعليه هلال أحمر صغير.. وأذكر منهن بكل الاعتزاز السيدة عزيزة حلمى.. كانت أماً حقيقية، واتضح أنها تمثل فى السينما دورها معنا فى الحياة».

وهذا هو أحد جنوده يصمم على أن يزوره على الرغم من أنه أصيب ببتر فى ساقيه:

«فأنا لا أستطيع أن أنسى منظر الجندى عبدالنبى، لقد أصيب ببتر فى ساقيه، كان يعالج فى مستشفى آخر، حالته أصعب منى بكثير، لكنه ظل يسأل عنى كل من يقابله، حتى علم من مندوب اللواء الذى ذهب إليه فى المستشفى ليسلمه راتبه بمكانى، وفى الحال أخذ «تاكسى» وحضر إلى مستشفى المعادى، وفوجئت به أمامى ».

وهذا هو رئيس الأركان ينقل إليه تحيات جنوده ويسأله ماذا فعلت لهم:

«ويقيم لواء النصر نصباً تذكارياً فى مكان إصابتى فى قلب سيناء.. ويزور الموقع

الفريق محمد عبدالغنى الجمسى رئيس هيئة أركان القوات المسلحة، ويلتقى برجالى، رجال لواء النصر، ويشاهد دبابات العدو المدمرة».

«ويفاجأ الفريق الجمسى برجالى يسألونه عنى، ويقص عليهم الفريق كل ما يعرفه عنى وأخبار علاجى، ثم يسألنى بعد عودته من الجبهة: ماذا فعلت لرجالك حتى يحبوك بهذه الصورة؟».

«وأجيبه: كنت قاسياً فى تدريبى معهم، وفى المحافظة على معداتى، والدأ فى معاملتهم، أعددتهم جيداً للمعركة، فلم تفاجئهم المعركة بشىء».

وفى حفل أقامته القوات المسلحة لتكريم الأبطال والجرحى يلتقى عادل يسرى مرة أخرى بالمشير أحمد إسماعيل الذى يصطحبه إلى مائدة جلس عليها كبار قادة القوات المسلح:

«وفى أثناء حفل أقامته القوات المسلحة لتكريم الأبطال والجرحى، أشاهد صلاح مجاهد قائد كتيبتى الجريح.. وأحاول أن ألحق به .. وأنا أكاد أقفز على قدم واحدة.. وفجأة أجد نفسى أكاد أصطدم بالمشير أحمد إسماعيل.. وأفاجأ به ويفاجأ بى.. فلم يكن قد رآنى بعد عودتى.. ويحتضننى ويقبلنى.. وكان مجهداً قبل سفره للعلاج بلندن.. وبرغم هذا يصر على أن يسندنى بنفسه.. ثم يسألنى فجأة: « هل قابلت قادة الأسلحة ياعادل؟ وأجيب بالنفى، وأقول فقط قابلت قادة الجيوش».

«وأستند عليه.. حتى نصل إلى مائدة، وأفاجأ بنفسى وجها لوجه أمام أكبر قادتنا العسكريين فى معركة أكتوبر المجيدة:

الفريق أول محمد عبد الغنى الجمسى.. رئيس أركان حرب القوات المسلحة.

الفريق فؤاد أبو ذكرى قائد القوات البحرية .

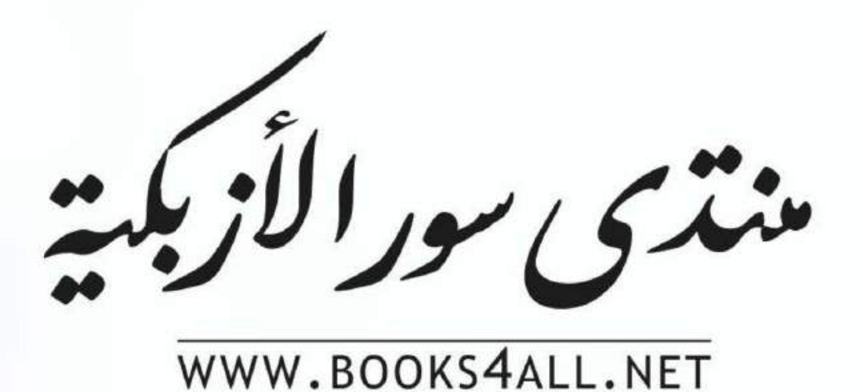
الفريق حسنى مبارك قائد القوات الجوية .

الفريق محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى .

وشعرت باعتزاز والمشير يقدمنى لهم قائلاً:

«هذا هو العميد أركان حرب عادل يسرى بطل نجمة سيناء الذى سمعتم عنه».

«ودارت رأسى وخجلت لفرط ما رحبوا بى، واكتشفت فى هذه اللحظة أن أكبر قادتنا يعلمون كل شىء عنى.. وبعدها.. أسرح بفكرى، بوجدانى، بروحى، بدمى، «بعدها أقول: ليتنى أستطيع أن أقدم شيئاً أكثر لمصر.. لك يامصر».



عـربيـة للطباعة والنشر
7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043